موسوعة

تاريخ الأمبراطورية العثمانية

السياسي والعسكري والحضاري

المجلد الثالث

الدار العربية للموسوعات

موسوعة
تاريخ الأمبراطورية العثمانية
السياسي والعسكري والحضاري

٦٢٩-١٣٤١هـ / ١٢٣١-١٩٢٢م

تأليف

يلماز أوزتونا

ترجمة

عدنان محمود سلمان

مراجعة وتنقيح

د. محمود الأنصاري

المجلد الثالث

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

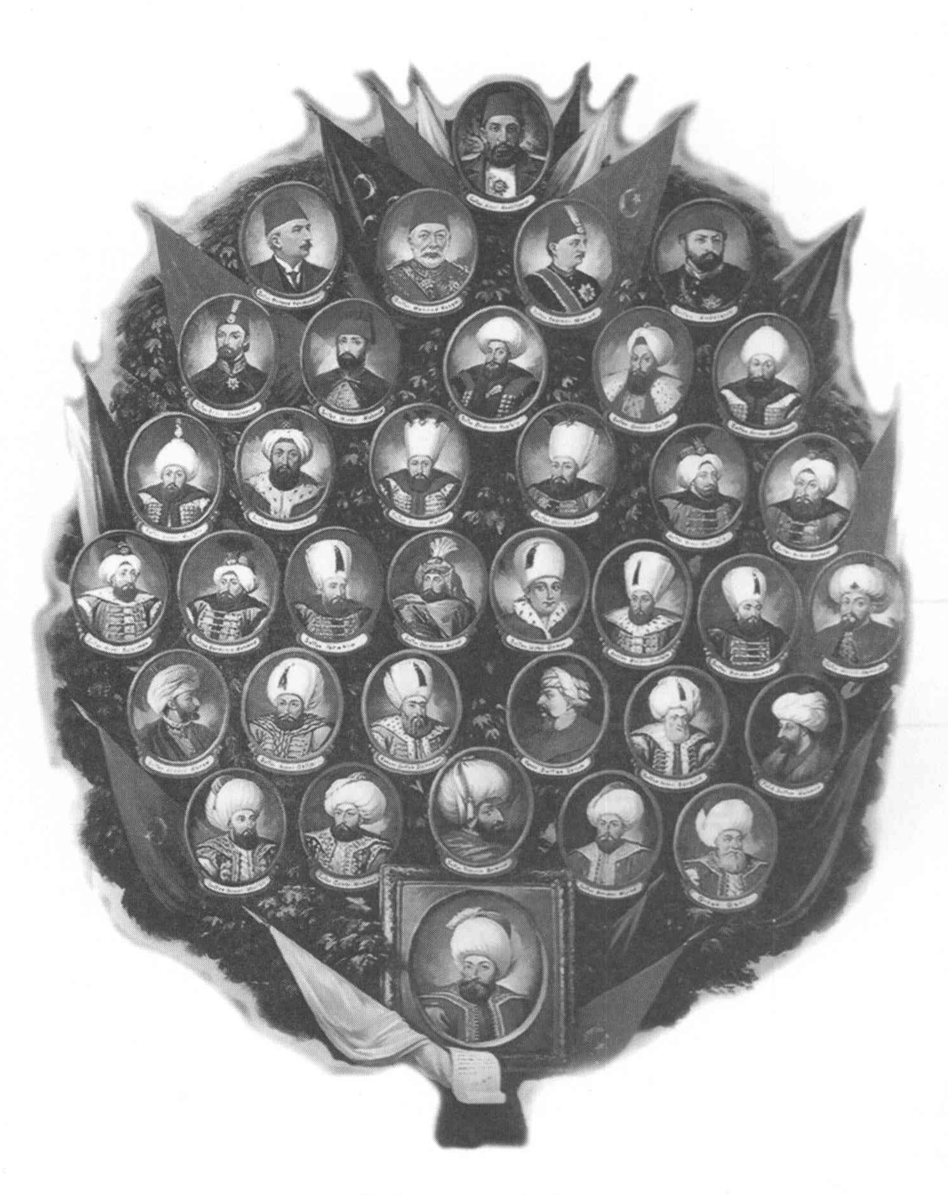
٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد العاني: مؤسسها ومديرها العام



سلاطين بني عثمان

المبحث الثامن

التجديد والتنظيمات (١٨٢٦ - ١٨٧٦)



1 - الحرب مع روسيا (1827 - 1829)

بعد الواقعة الخيرية أصبحت الامبراطورية العثمانية الواسعة ، المترامية الأطراف ، بلا جيش يدافع عنها حيث إنها لم تكن قد أسست بعد جيشها الحديث . لم يكن لديها قوة عدا جنود الإيالات المتطوعين . ومن الطبيعي ألا تفوّت روسيا فرصة الاستفادة من هذا الوضع .

وقع الباب العالي - الذي لم يجرؤ على فتح حرب روسية - على معاهدة أكرمان Akkerman (1827/10/7) ، بدعوى أن المعاهدة الجديدة لا تزيد على كونها توضيحًا لمعاهدة بخارست 1812 . وبموجب هذه المعاهدة تم توسيع الاستقلال الداخلي لإمارات رومانيا وصربيا ، كما تقرر عدم وجود أي مسلم محلي في قلاع صربيا عدا جنود الجيش التركي . وبموجبها أيضا ينتخب الباب العالي بكوات الأفلاق وبغدان من بين بويارات (أشراف) الرومان (كان الوضع كذلك قبل 1711) ، وليس من بكوات الروم في بطريقية فنار في استانبول ، ويعين الباب العالي هؤلاء الأمراء لمدة 7 سنوات ، وليس له حق تغييرهم ما لم تكن هناك أسباب جدية .

هذه الأشهر تصادف الأشهر التي أخرجت فيها روسيا إيران من قفقاسيا بشكل كامل ومحتها من صفوف الدول العظمى .

ومن ناحية أخرى ، قوبل إخماد الثورة اليونانية بالاستياء في أوروبا ؛ ووقعت الدول العظمى الأولى والثانية والثالثة في العالم وهي انكلترا وفرنسا وروسيا فيما بينها على اتفاقية

لندن (1827/7/6) . وقرروا الضغط على الباب العالي لصالح اليونان . كانوا يريدون تأسيس إمارة يونانية (عبارة عن شبه جزيرة مورا) مستقلة ذاتيا مرتبطة بالباب العالي ، تدفع الضريبة لتركيا مثل صربيا وأفلاق وبغدان . اشتركت انكلترا في الاتفاقية دون رغبة منها ، فقد كان المثقفون الانكليز يريدون مشاهدة دولة يونانية ، لكن انكلترا لم تكن راغبة في ذلك ، كانت تخشى استفادة روسيا من ضعف الدولة العثمانية ، ومن ثم فإنها لم تشأ أن تترك منافستيها الكبريين فرنسا وروسيا كحاميتين لليونان تنفردان بتسيير دفة القضية .

اتحدت صيف عام 1827 الأساطيل الانكليزية ، الفرنسية ، الروسية تحت قيادة الأميرال الانكليزي Cordington ودخلت البحر اليوناني (Iyonya) ، للضغط على تركيا في قضية الاستقلال الذاتي لليونان .

كان محمود الثاني قد رفض الاستقلال الذاتي اليوناني بعد استرداد مورا ، وكان يخشى أن تصبح اليونان نموذجا تقتدي به الدول البلقانية الأخرى .

شوهدت أساطيل الاتفاق أمام ميناء نافارين Navarin في رأس مورا الجنوبي – الغربي . كانت خيرة قطع الأسطولين العثماني والمصري رأسية هنا ، تحت قيادة القبطان دريا جنكل أوغلو طاهر باشا . لم يكن أسطول الاتفاق رافعا لعلم الحرب خلافا لقواعد القانون الدولي ، وكانت تركيا أساسا في حالة صلح مع كل من الدول الثلاث .

ظن طاهر باشا أن الأسطول جاء بهدف الضغط المعنوي . ولم يكن من الميسور على كل الأحوال إمكانية الوقوف تجاه العدو الذي يفوقه بمراحل . أطلق المتفقون مدافعهم سويا . غرقت 57 سفينة عثمانية خلال ثلاث ساعات ونصف واستشهد 8000 جندي . وهذه هي غارة نافارين المشهورة (1827/10/20) .

قوبلت الغارة باستياء في أوروبا الغربية ، ووصفتها الصحافة الحرة بأنها لطخة عار

افادت لندن وباريس وبطرسبورغ ؛ أنها لم تصدر أمرا بهذا الشأن إلى أميرالاتها

قدمت الدول الثلاث اعتذارا للباب العالي ، لكنها لم تعط الضمانات التي طلبها الباب العالي ولا الغرامات الناشئة عن المسألة اليونانية . غادر سفراء الدول الثلاث استانبول (1827/12/8) .

كانت الدولة العثمانية ، بلا جيش ، والآن أصبحت بدون أسطول .

أعلنت روسيا الحرب على تركية (1828/4/26) ، وكان قد مضى على مصالحة بخارست 15 سنة و 10 أشهر و 29 يوما .

تمكن محمود الثاني خلال سنتين من وضع النواة فقط لتأسيس جيش حديث . قضى السنين في غرفة حجرية في ثكنة رامي ، كان يخرج للتدريب في طين الشتاء أمام الجيش كأي زعيم عسكري . لا ينام الليل ويدقق في الكتب الواردة ويشتغل بأمور الدولة . لم يثنه حادث نافارين عن عزمه ، وأخذ يستعد لتأسيس أسطول جديد . وخلال هذه الفترة ابتاع أول سفينة بخارية ، وهي المسماة « سرعت » (سرعة) في 1827 .

اجتاز الروس Prut ، ودخلوا الأراضي العثمانية (1828/5/8) . وهجموا كذلك من قفقاسيا . وفي 12 آيار ، وبدءوا بمحاصرة Anapa (آنابا) وهي قلعة عثمانية مهمة تقع على مسافة 50 كم من قرم في مصب نهر كوبان . سار السر عسكر مشير آغا حسين باشا من استانبول في 24 أيار . كان سيحارب بأفواج المتطوعين اختياريا ، ولم يكن لديه إلا القليل من الجند الحديث . وفي حزيران احتل الروس Isakci وإبرائيل واستولوا على دلتا ألطونة . احتلوا في 11 حزيران Anapa ، وفي 15 تموز قارص ، وفي 28 آب آخيسكا ، انتصروا في الشرق كذلك وأخرجوا العثمانية من سواحل البحر الأسود الشرقية . وفي البلقان احتلوا رومانيا ودوبروجه ، وفي 11 ت 1 احتلوا فارنا . حضر القيصر Nikolay الأول بنفسه إلى فارنا .

ولما كان بتدرلي محمد سليم سري باشا صدر أعظم الواقعة الخيرية قد حافظ على منصبه مدة 4 سنوات ، وشهر ، و 10 أيام فقد احتل مكانه بعد 3 أشهر ، دارنده لي طوبال عزت محمد باشا (1828/10/24) ، وكان من أبطال الواقعة الخيرية ، يبلغ عمره 36 عاما وقبطان دريا (مشير بحري) . جاء مكانه بعد 3 أشهر و 5 أيام رشيد محمد

باشا بكلر بك روملي (1829/1/28) ، وحضر في 4 نيسان إلى شومنو وترأس الجيش .

مرّ ربيع وصيف عام 1829 في حروب شديدة بين الطرفين . احتل الروس في 1 تموز سلسترة ، وفي 8 منه أرضروم في الشرق . وبعد احتلالهم بورغاز واسليمية دخلوا أدرنة في 19 آب . تقدم Paskieviç في الأناضول ، ومن أرضروم نحو طرابزون و Dibieç في روملي من أدرنة نحو قيرقلارايلي ، تكرداغ وأنيز Enez . تدخلت كل من إنكلترا وفرنسا وبروسيا وذكّرت القيصر بأنه فتح الحرب كان لأجل الدولة اليونانية وليس لأجل الفتوحات .

عند بدء الحرب الروسية أنزلت فرنسا بقيادة الجنرال Maison في 29 آب فرقة من نافارين إلى مورا . بدأ قاوالالي إبراهيم باشا في 7 أيلول بإخلاء مورا . احتل الفرنسيون مورا وأعطوها لليونانيين . اضطر الباب العالي إلى قبول معاهدة لندن (1829/8/15) ، والتي تم الاتفاق فيها على إمارة يونانية تتألف من مورا وجزر كيكلاد ، تابعة لتركيا ، ينتخب أميرها من سلالة إحدى الدول الأوروبية التي ليست من الدول العظمى بموافقة كل من تركية و إنكلترا و فرنسا وروسيا ، وتسدد للباب العالي ضريبة سنوية قدرها 000 375 قطعة ذهبية .

وبعد حرب دامت سنة ، و 4 أشهر و 19 يوما وقعت مع روسيا معاهدة أدرنة التي تتكون من 18 مادة (1829/9/15) . والتى تضمنت أن يترك لروسيا ، ساحل البحر الأسود الشرقي بكامله ، من نهر كوبان في قفقاسيا إلى حد باطوم (باطوم تبقى لدى العثمانية) ، وفي البلقان دلتا ألطونة ، وأن يترك كذلك لروسيا المناطق المسكونة بالأتراك من كرجستان مثل آخيلكلك ، آخيسكا ، كما تضمنت موافقة الباب العالي على اعتبار كرجستان قطرًا روسيًا . وهكذا أصبحت السواحل الروسية في البحر الأسود مساوية تقريبا لسواحل العثمانية فيها .

كما تضمنت المعاهدة كذلك إخلاء الأراضي المحتلة الأخرى ، وزيادة حرية الحكم الذاتي لإمارات بغدان ، أفلاق ، صربيا ، وأن تدفع تركية لروسيا غرامات حرب قدرها 11/5 مليون قطعة ذهبية ، وفي حالة استمرار تسديد هذه الغرامات ستخلي روسيا

الأراضي العثمانية التي استولت عليها بالتدريج . وقد كان القيصر Nikolay يفكر في ذلك لإيقاع السلطان محمود الذي كان يحسد شخصيته جدا ، في ضيق مالي يعوّق تحقيق مشاريعه التجديدية . وفي الواقع ، فإن الحرب في حد ذاتها كانت قد استنفدت مالية العثمانية ودمرتها . وبناء عليه فإن الجيش الروسي لم ينسحب من سلسترة Silistre إلا في 1836/4/8 ، ولم ينسحب من رومانيا إلا في 1834/1/29 .

ترك الاحتلال الروسي الذي دام 5/5 عام ذكريات مريرة في رومانيا . وسيكون تعاون اليونان الأرثوذكسية بعد الآن مع انكلترا وفرنسا ، وليس مع روسيا ، كذلك سيكون اتجاه رومانيا الأرثوذكسية في المستقبل نحو أوروبا الغربية وليس نحو روسيا ، وذلك أن الرومانيين واليونانيين الذين ليسوا « سلافا » ، أصبحوا يخشون روسيا بصورة كبيرة رغم أنها أعادت لهم استقلالهم .

ألغت معاهدة بخارست شروط معاهدة لندن التي عقدت قبل سنة . تأسست دولة يونانية تفوق جدا ما كان يتصوّر . منحت اليونان استقلالا كاملا . كانت أول دولة مستقلة انفصلت عن العثمانية في البلقان . كانت اليونان التي اعترف بها الباب العالي – مستقلة وليست تابعة للعثمانية – بعد 7 أشهر من معاهدة بخارست (1830/4/24) تشمل عدا مورا وكيكلاد ، شبه جزيرة Attika وكذلك جزيرة آغريبوز الكبيرة ، على أن تكون العاصمة أثينا . وهكذا تأسست من العدم ملكية مساحتها 49 424 كم^2 ، وتعداد سكانها 1 100 000 نسمة . أصبح أحد الأمراء البافاريين ملكا على اليونان .

وسّعت صربيا بمنحها 6 أقاليم أخرى (1830/8/29) . كذلك منحت جزيرة سيسام (Susam ، باليونانية : Samos) الاستقلال الذاتي (1832/12/20) . كان يعيش في هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها 550 كم^2 30 000 رومي . وسوف ترسل هذه الجزيرة التي كأنها ملتصقة بالساحل الأناضولي إلى استانبول سنويا مبلغ 100 000 قطعة ذهبية ، وستكون في الجزيرة كتيبة عثمانية مؤلفة من 150 جنديا فقط ، ويعيّن أمراء الجزيرة من قبل الباب العالي ومن التبعية العثمانية على ألا يكونوا من العائلة ذاتها ،

ولن تتدخل في الشئون الخارجية ، استمرت الجزيرة على هذا النظام لحين انضمامها إلى اليونان عام 1913 .

2 – احتلال فرنسا لمدينة الجزائر (1830/7/5)

ضرب أزميرلي حسين باشا – آخر بكلربك للجزائر وكان يطلق عليهم اسم « دايي » – بمهفّته على وجه القنصل الفرنسي عام 1827 ، كانت فرنسا قد استدانت من الجزائر عام 1797 ، وقد تذرعت بأعذار كثيرة في عدم تسديد دينها . راجعت فرنسا الباب العالي طالبة تقديم الباشا ترضية إلى قنصلها . ورغم أن الباب العالي الذي يسبح في خضم البلايا أمر الباشا بتقديم الترضية ؛ لم يستمع حسين باشا لذلك . حاصر الفريق البحري الأميرال Duperré ميناء الجزائر (1827/6/12) . ورغم أن الحصار البحري دام 3 سنوات لم يعجز حسين باشا ، واستعمل الموانئ الأخرى .

أنزل الجنرال Bourmont 36 000 جندي بالقرب من مدينة الجزائر (1830/6/14) وشرع الأسطول الفرنسي يقصف المدينة . استسلم حسين باشا الذي قاوم 21 يوما وكان ذلك في يوم (1830/7/5) ثم (توفي في الإسكندرية عام 1838) .

هدّدت فرنسا بالحرب عند اقتراب قبطان دريا طاهر باشا إلى مياه الجزائر . لم يجرؤ الباب العالي – الذي لم يمض عام على خروجه من الحرب الروسية – على الحرب . لم تبق للعثمانية أى علاقة بالجزائر بعد ترك أمير لواء قسنطينة القتال بعد مقاومته عدة سنوات . احتل الفرنسيون سواحل الجزائر . صار الدفاع عن الجزائر بيد العرب وزعيمهم العظيم الأمير عبد القادر . استمرت الحرب زمنا طويلا ، لم يتوقع الفرنسيون أن تجابههم مقاومة بمثل هذه الدرجة (وحتى في الأعوام الأخيرة للعصر 19 ، كانت هنالك في قبيليّة مناطق لا تعترف بالحكم الفرنسي) إلى حد أن فرنسا فكرت في فترة ما في إخلاء القطر . لكنها لم تقدم على ذلك باعتبارها دولة استعمارية ، كما أنه كان العديد من الفرنسيين قد استوطنوا القطر ، ونهبوا أراضيه .

3 – عصيان مصر (1831 ، 1933 ، 1839)

إن عدم إرسال والي مصر ، قاوالالي محمد علي باشا ؛ الجند للحرب الروسية 1828 – 1829 وتعلله بأعذار مختلفة قد ولّد الشبهات تجاهه لدى محمود الثاني . ولكن وضع محمود الثاني كان ضعيفا ؛ بسبب عدم تمكنه من تأسيس جيشه الجديد . كان البادشاه يعلم جيدا أنه سيقاوم في حالة عزله إياه . وبناء على ذلك فإن علاقة الدولة كانت قد توترت مع والي مصر في 1829 . كان محمد علي يعتقد أنه قدّم للدولة خدمات كبيرة ، وكان يريد أن يحصل على امتيازات ومناطق نفوذ ، كان محمد علي يتصور المجيء إلى استانبول وتصدر مقام الصدارة ، وإدخال السلطان تحت نفوذه والتحكم في الإمبراطورية .

أقام محمد علي باشا في مصر منشآت معمارية ضخمة وعلى رأسها قناة وسد محمودية . ولذا فإنه شغل الفلاح المصري بشكل لا يكاد يختلف كثيرا عما كان عليه في زمن الفراعنة . هرب من مصر 6000 فلاح لم يتحملوا ذلك وذهبوا إلى فلسطين . طلب محمد علي من والي صيدا (فلسطين) الوزير عبد الله باشا ، القبض على الفلاحين وإعادتهم إليه . أفاد عبد الله باشا بأن الفلاحين هم أتباع الدولة وأناس أحرار وليسوا عبيدًا ، ولأن مصر وفلسطين هما من ولايات الدولة ذاتها ؛ فإن لهم الحق في السكنى في المكان الذي يرغبونه . وعلى أثر ذلك سار الوزير إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد علي باشا البالغ عمره 43 عاما بجيش يبلغ عدده 40 000 جندي وبأسطول مكون من 23 قطعة بحرية نحو فلسطين (1831/10/10) . كان العصيان المصري قد بدأ .

احتل إبراهيم باشا فلسطين دون مقاومة . لجأ عبد الله باشا مع 2000 من جنده إلى قلعة عكا في شمال فلسطين على البحر الأبيض . استولى إبراهيم باشا على هذه القلعة – التي لم يتمكن نابليون من فتحها – بعد محاصرته لها مدة 6 أشهر و 11 يوما (1832/5/27) . ثم احتل الشام (1832/6/15) . وانتصر على كل من حلبلي محمد باشا والي طرابلس الشام ، قرب حمص (1832/7/8) ، وعلي أغا حسين باشا في بلن Belen في هاتاي (الإسكندرون) (1832/7/29) . جاء إلى قونية (1832/11/21) . لم يلق أي مقاومة في الأناضول، لأن الأناضول كانت معتادة على مثل هذه الصدامات

التي يجريها الولاة والأعيان . كان جيش إبراهيم باشا مشكلا من الأتراك أو من الأرناءوط (الألبان) المستتركين والجراكسة . كوّن هؤلاء شعبا غريبا بالنسبة لأهالي الأناضول . حتى إنه شوهد أهالي بعض المناطق الذين كانوا حانقين بسبب الانقلابات التي حققها السلطان محمود يستقبلون إبراهيم باشا بسرور . سار الصدر الأعظم والسر عسكر رشيد محمد باشا في 3 ت 2 بجيش عدده 60000 جندي من استانبول . وصل قرب قونية . وفي جو مثلج ومعتم ، دخل بين خيالة إبراهيم باشا ، ظنا منه أنهم خيالته هو ، وأسر . استقبل إبراهيم باشا الصدر الأعظم بتقبيل ردائه . لم يكن لدى الجيش العثماني رغبة في إسالة الدم المسلم ، وعندما شاهد وقوع الصدر الأعظم في قبضة إبراهيم باشا عاد إلى إستانبول ، تاركا ساحة القتال إلى إبراهيم باشا . هذا الانتصار غير المتوقع لإبراهيم باشا جعل المسألة المصرية في مصاف المسائل ذات الأهمية العالمية .

جاء إبراهيم باشا إلى كوتاهية (1833/2/2) ووقف عندها . حاول تعيين وال على أزمير . كان يتحرك وكأنه وزير من وزراء الباب العالي ، ويسعى جهده في عدم إيذاء الشعب . أطلق الصدر الأعظم حرا . عاد رشيد محمد باشا إلى استانبول خجلا . كان السلطان محمود يخشى مجيء إبراهيم باشا إلى استانبول والحصول على الصدارة لأبيه منه عنوة . لم يكن السلطان محمود بحاجة إلى مثل هذا الصدر الأعظم .

أخذت إنكلترا وفرنسا تفكران في كيفية الاستفادة من محمد علي . ولإرهابهما ، طلب البادشاه من القيصر إرسال عدد من الجند . نزل عدة آلاف من الجنود الروس ، الذين جاءوا بواسطة 10 سفن حربية في رصيف هنكار ، وخرجوا إلى بيوك ده ره جايري ومكثوا فيها مدة من الزمن . وردد السلطان محمود جملته « الغرقان يستنجد بالثعبان » ، التي أصبحت بعد ذلك قولا مأثورا لدى الأتراك ، بهذه المناسبة .

فرنسا وإنكلترا اللتان شاهدتا وجود الجيش الروسي في المضيق ، أبلغتا محمد علي بالانسحاب من الأناضول .

كانت فرنسا ترى أن لها الحق في مصر التي احتلها نابليون لعدة سنين ، ومن هنا فإننا سنجد أن فرنسا ستتخذ سياسة مساندة محمد علي إلى النهاية لتحقيق نفوذ عن هذا الطريق .

أما انكلترا فكانت تخشى بشكل كبير من تبعثر الامبراطورية العثمانية وانتقال أقطارها العديدة لروسيا ، وهبوط روسيا إلى البحار الدافئة . أخذت انكلترا تضغط على محمد علي باشا للاتفاق مع البادشاه .

أيقن إبراهيم باشا عدم إمكان الحصول على الصدارة . وبمعاهدة كوتاهية (1833/4/8) . أخلى الأناضول عدا إيالة أدنة . منح محمد علي باشا وابنه بموجب هذه المعاهدة منصب الولاية على إيالات مصر – سودان ، جدة (الحجاز وإريتره) ، صيدا (فلسطين) ، طرابلس (لبنان) ، شام ، حلب وأدنة . لم يسبق في تاريخ الدولة العثمانية أن تعطى ولاية 7 إيالات إلى وال واحد دفعة واحدة . لم يكن محمود الثاني يفكر قط في استمرار هذا الوضع ، فضلا عن أنه كان يود إقصاء محمد علي من مصر .

وقعت مع روسيا معاهدة رصيف هنكار (1833/7/8) ، وبموجب هذه المعاهدة ؛ تعترف تركيا بحق مرور السفن الحربية الروسية من المضايق ، في حالة دخولها في حرب مع أي دولة ، وتتعهد بعدم إمرار سفن الدولة التي تكون روسيا معها في حالة حرب من المضايق ، ومقابل ذلك ترسل روسيا جيشا – شرط عدم تجاوز عدده الحد المعقول – إلى القطر الذي يحدده البادشاه ، في حالة دخول تركية الحرب . وقعت المعاهدة لمدة 8 سنين حتى 1841 . وكان السلطان محمود يخطط خلال هذه السنوات الـ 8 لتأسيس الجيش الحديث وإنهاء قضية محمد علي باشا . ورغم احتجاجات لندن وباريس لم يفسخ السلطان محمود المعاهدة . وبهذا تكون المرحلة الأولى للقضية المصرية قد أغلقت لمدة ٦ سنين .

يمكن القول بأن هنالك علاقة بين الاتفاقية التجارية لعام 1838 التي عقدت مع إنكلترا وعصيان محمد علي ، ولهذا السبب انتقد السلطان محمود مصطفى رشيد باشا – الذي كان أثناء ذلك سفيرا في لندن – المعاهدة انتقادا شديدا ؛ ذلك أن المعاهدة تلغى ضرائب الدولة المفروضة على بعض المواد ، كذلك تجري تخفيضات جمركية لصالح إنكلترا ، وهذا يعنى أن الاتفاقية تجعل من الامبراطورية سوقا مريحا ومربحا جدا لإنكلترا لتصدير حاجياتها . ولأن مصر إيالة من إيالات الإمبراطورية فالمعاهدة تشملها كذلك . أما محمد علي فإنه كان يجمع 60٪ من إيرادات جيشه وبحريته من

تلك الضرائب . وهكذا يصبح محمد علي في وضع لا يتمكن فيه من تجهيز وتموين جيشه . ورغم رفع العثمانية الضرائب الجمركية فيما بعد وقصر التطبيق على بعض المواد فقط ، فقد كتب العديد من المقالات حول عرقلة هذه الاتفاقية تأسيس الصناعات الحديثة في تركيا ، وحول امتلاء الإمبراطورية بالمنتجات الرخيصة للصناعة الإنكليزية ، الأمر الذي يغلق مجال المنافسة أمام الصناعة التركية ، ولكنه على كل الأحوال لا يمكن إلقاء تبعة عدم تأسيس الصناعات الحديثة في العثمانية على هذه المعاهدة ، وإنما يمكن فحسب القول بأن المعاهدة قد جلبت ضررا ماديا على الدولة . وأن الدولة قد أخذت بعين الاعتبار هذا الضرر . ولقد كان عصيان محمد علي باشا أكبر عصيان شهدته الدولة العثمانية طيلة أحقاب التاريخ ، وقد مثل هذا العصيان بالنسبة لحياة الدولة العثمانية مشكلة أكبر بكثير من مشكلة الثورة الأمريكية التي جابهتها إنكلترا قبل نصف قرن .

بدأت الحرب الداخلية التي كان من المتوقع أن تحدث في أي لحظة منذ 6 سنوات بسبب تأخر محمد علي في إرسال ضرائبه السنوية إلى استانبول .

كان إبراهيم باشا الذي يعلم أن البادشاه .. لن يسمح باستمرار هذه الحالة قد جهز في سورية جيشا يبلغ عدده 80000 جندي . وكان محمد علي ينتظر في مصر ، مع 50000 جندي وأسطول . جاء مشير حافظ محمد باشا الذى لا مزيّة له سوى شجاعته مع 40000 جندي إلى نيزيب . انهزم إبراهيم باشا في الحرب الميدانية نيزيب (1839/6/24) . وخلال هذه الأيام كان السلطان محمود على فراش الموت ، ومات بعد 7 أيام . وصل الخبر إلى استانبول قبل وفاة البادشاه بـ 36 ساعة ، وأخفى خبر الهزيمة عن البادشاه .

فتحت المرحلة الثانيـة من عصيان مصر . انتقلت الأزمة بكامل ثقلها إلى خلف السلطان محمود الذي لم يتسن له إنهاء أزمة قاوالالي محمد علي باشا في حياته .

4 ـ الإصلاحات الجذرية (1826 ـ 1839)

بدأ محمود الثاني بإصلاحاته الجذرية ، بعد انتهاء الواقعة الخيرية (1826) والحرب الروسية (1829) ، كانت هذه الإصلاحات عبارة عن تطبيق النظام الجديد بشكل

جذري وبصورة أكثر شمولا ودون تعويض . كان يتحتم عليه تطبيق هذه الإصلاحات ، في الوقت الذي وصلت فيه سياسة التوسع الاستعماري الأوروبي حدها الأعلى في الخارج ، وعصيان قاوالالي في الداخل . كانت الدولة العثمانية ستقتبس المجالات التي تفوّق فيها الغرب ، شرط البدء من قطاعي الجيش والبحرية ، وكان يجب تنفيذ هذه العملية بسرعة وقبل تفكك الدولة . لم تكن هناك فسحة من الوقت تكفي لقطع مرحلة التكامل التي قطعها الغرب خلال عصور . وبالإضافة إلى ذلك كان الأمر يقتضي الحفاظ على الثقافة والعرف والعادات والتقاليد وعدم الإضرار بها . من الطبيعي أن تكون هنالك أخطاء في حملة إصلاح معقدة إلى هذه الدرجة ، ومن ذلك إغفال بعض العناصر التي يتحتم اقتباسها من الغرب ، واقتباس ما لا يقتضي اقتباسه . وفي الواقع لا توجد في التاريخ العالمي حملة انقلابية تخلو من الخطأ . وتلك الأخطاء يمكن رصدها فقط ، من قبل المؤرخين بعد ذلك وفي ضوء التطورات التي ترى فيما بعد ، حيث إنها كثيرا ما تفوت عن الأنظار خلال حمى الانقلاب وفورانه . وكثيرا ما تحدث عن حسن نية ؛ وبالرغم من كل هذه التحفظات ، فإنه من الحقائق البينة التي لا تدعو إلى الجدل أن إصلاحات محمود الثاني كانت ناجحة ، وأنها أكسبت الدولة الحيوية ، كما أنها كانت الأساس في تكوين تركيا الحديثة . واعتبارا من محمود الثاني وحتى يومنا هذا لم ترض أي حكومة بالتراجع ولو خطوة واحدة إلى الوراء عما أتي به من الإصلاحات ، فضلا عن أنها لم تفكر في ذلك . ولولا تلك الإصلاحات لآل وضع أتراك العثمانية ، بالتأكيد ، إلى ما آل إليه العديد من المجتمعات والأقوام الآسيوية . وآخر ما يقال في هذا الصدد أن تركية هي إحدى الدول الآسيوية النادرة جدا ، التي لم تذق طعم الاستعمار في أي وقت من الأوقات ؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى هذه الإصلاحات .

لقد كان قول صهر السلطان مشير خليل رفعت باشا الذي جاء إلى إستانبول (1830/1/13) وتسلم وظيفة قبطان دريا منقولا من سفارة بطرسبورغ : « إن لم نتشبّه بالأوروبيين ، فنحن مضطرون آن ذاك للانسحاب إلى آسيا » ، كان له التأثير في حث البادشاه على زيادة تشدده في الحركة الانقلابية . صرف السلطان جهدا يمكن أن يقال عنه إنه معجزة في تشكيل الجيش الجديد .

خرج البادشاه بنفسه في الشتاء للتدريب في الوحل ، وتحت الثلج المتساقط ، وفتح مكتب فنون حربيه ء شاهانية (المدرسة الحربية الإمبراطورية) التي بدأت بتخريج ضباط المشاة والخيالة الذين يشكلون عماد الجيش . منح للملازمين المتخرجين راتب الزعيم . وسع وجدد مدرسة « مهندسخانهٔ برّىء همايوني » التي كانت تخرج ضباط المدفعية والاستحكامات منذ القدم ، وأضاف إليها القسم الثاني وهو « مهندسخانهٔ بحرىء همايون » التي تخرج الضباط البحريين (حاليا الجامعة التكنولوجية ومدرسة الحربية البحرية) وجلب إليها من أوروبا ضباطا ومهندسين وأساتذة ، وكتبا وأدوات تكنولوجية ، وجعلها من أحدث المؤسسات . فتح « مكتب طبيهء عدليهء عسكريهء شاهانه » (مدرسة الطب العدلي العسكري الإمبراطوري) التي أخذت في تخريج الأطباء العسكريين والجراحين والصيادلة ، وكانت الدراسة في هذه المدرسة بكاملها باللغة الفرنسية . فتح الباب العالي غرفة الترجمة وجعلها تابعة للصدارة (رئاسة الوزارة) . وفي هذه الغرفة تلقى أكثرية الصدور الأعاظم لدور التنظيمات دروسهم إبان شبابهم ، كما أقبل الموظفون الشباب على تعلم اللغة الفرنسية في هذه الغرفة (غرفة الترجمة) .

نظم تشكيلات السراي العظيم الذي يرجع تاريخه إلى عصور مضت ، على طراز قصور العائلات المالكة الأوروبية دون ترك التقاليد العثمانية . أسس الوزارات الحديثة . أطلق اسم وزير الخارجية على رئيس الكتاب ، وعلى كتخدا الصدارة اسم وزير الداخلية ، وعلى الباش دفتر دار اسم وزير المالية ، وبعد فترة سمي الصدر الأعظم رئيس الوزارة ، ولكن هذه التسمية تركت بعد ذلك . ولن نسهب في هذا الموضوع لأننا سوف نتناوله فيما بعد بالتفصيل .

وخلال عدة سنين تمكن السلطان محمود من تأسيس أسطول كبير بدلا من الأسطول الذي أحرق في نافارين . أسس مجالس في الولايات قامت بإنشاء وإصلاح آلاف الأبنية ، وشقت الشوارع ، وأنشأت الجسور ، وأسست نظمًا مالية أكثر حداثة . تم تأسيس تشكيلات البريد والحجر الصحي . جرى تعداد السكان . نشرت جريدة رسمية باسم **تقويم وقائع** اعتبارا من 1 ت /1831/2 باللغات التركية والفرنسية والعربية وبنسخ منفصلة ، وهي المستمرة حاليا باسم **رسمي غزته** (الجريدة الرسمية) . ووبّخ البادشاه العالم المشهور أسعد أفندي الذي كلفه بأمور نشر الجريدة بسبب استعماله لغة

صعبه لا يتفهمها الشعب . دخلت الموسيقى الغربية البيانو ، الجوقة ، الأوركسترا ، المسرح ، الأوبرا ، إلى المجتمع العثماني ، وعلى أقل تقدير إلى استانبول . كانت هذه الفنون موجودة سابقا ، يتولاها ويقوم بها الأوروبيون ، والآن أصبحت من مؤسسات الدولة الرسمية .

يعد أكبر انقلاب حققه السلطان محمود في النظام هو تمكينه المدنيين من إدارة الدولة . فرزت الرتب المدنية عن العسكرية . سيتولى إدارة الإيالات والمحافظات منذ الآن موظفون مدنيون وليسوا عسكريين كما كان عليه الحال خلال تاريخ الدولة العثمانية ، وسيكون الآمر المدني في المقدمة في البروتوكول . لن يعنى الضابط بإدارة الدولة وسيقوم بالأمور العسكرية فقط . قلصت كذلك صلاحيات رجال الدين من ذوي اللباس الرسمي ، ونظمت المناهج الانقلابية بشكل يمكن فيه سحب صلاحيات إدارة الأقضية والبلديات والأوقاف والمدارس والمعارف وأخيرا العدلية من أيدي هذا الصنف . ولم يبق في النهاية تحت إدارة رجال الدين سوى المدارس التي تدرس الدين ، ومحاكم الحقوق المدنية وأمور الدين . أعطيت إدارة المحاكم الجزائية والتجارية التي كانت لدى الصنف المدني إلى رجال العدل . كذلك انتقلت مؤسسات المعارف والبلديات إلى المدنيين . تأسست الدبلوماسية التركية الحديثة . احتل العاملون بالخارجية المراكز الحيوية في الدولة كأكبر صنف من الأصناف المدنية .

قانون القيافة (اللباس) الذي صدر في 3 آذار 1829 ، جاء باللباس الأوروبي الطراز إلى المدنيين ، بالإضافة إلى تنظيمه اللباس الرسمي للأصناف العسكرية ورجال الدين . كان على كل موظف حكومي لا ينتمي إلى صنف العسكرية ورجال الدين ، ومن بينهم البادشاه ، أن يرتدي الجاكيت (السترة) والبنطلون (السروال) والطربوش . منع ارتداء القلنسوة ، العمامة ، الشلوار (السروال العريض) ، الجاروك (نعل بشكل خاص) ، الباشماق ، والعمامة والجبة لا يرتديهما سوى رجال الدين فقط . لم يكن جميع رجال الدولة يوافقون البادشاه على إجراءاته ، وكان سكوتهم بسبب خوفهم . لم يكن الشعب مدركا ضرورة هذه الانقلابات . وصار الشعب يسمي محمود الثاني « كاوور بادشاه » أي البادشاه الكافر ؛ ذلك أنه علّق تصاويره في الدوائر الرسمية . وكان يلبس ابنته السلطانة عطية الملابس الرجالية الرسمية للضباط بحيث يجمع شعرها

تحت الطربوش ، ويلبسها السروال ، ويرفق معها أخاها الذي يكبرها سنة واحدة ولي عهد – شهزاده السلطان عبد المجيد ويرسلهما إلى الثكنات العسكرية بين الجنود .

عوقب بشدة كل من سعى ضد الإصلاحات ، سواء من لم يطبقها بشكل جيد أو الذي لم يعرها الأهمية الواجبة ، وأفهم من كان منهم موظفا بالدولة أنه لن يكون له مكان فيها إن لم يبدل أفكاره ؛ لأن عدم تطبيق هذه الإصلاحات معناه انتهاء الدولة ، وفي حالة انتهاء الدولة لن يبقى دين ولا وطن ولا بادشاه ولا دواوين . لم تهمل أبدا الثقافة الشرقية . بدأ ينشأ جيل له إلمام باللغات والثقافات الشرقية (العربية والفارسية) ، ويجيد الفرنسية كذلك ليتمكن من الاطلاع على المدنية الغربية أيضا من الداخل ، وهؤلاء هم الذين احتلوا مناصب الدولة خلال سنوات التنظيمات . تحققت هذه الانقلابات في ظروف كان يمكن لأوروبا فيها أن تزعج الدولة ، وأن تضع العراقيل أمامها وتخلق لها المشاكل في كل لحظة . كانت الإمبريالية الأوروبية كأنها متكالبة على رأس إمبراطورية هائلة مفتوحة الحدود . لم تكن العثمانية قطرا محدودا، كاليابان لا يتجاوز النصف مليون كم^2 ، بل كانت منتشرة على أراض تزيد مساحتها على العشرة ملايين كم^2 . ولم تكن دولة قومية يعيش فيها شعب واحد ويتكلم لغة واحدة كاليابان . كانت إمبراطورية ذات أديان ومذاهب متعددة ، ولم تكن قطرا له موانع طبيعية ومحاط بالبحار كاليابان ، كانت مفتوحة وفي متناول يد أوروبا . وخلاصة القول : لم يكن الأمر يقتصر على أن يفقد البادشاه منصبه بل كان الأمر يتعدي ذلك إلى فقدانه رأسه .

سحق السلطان محمود بشكل صارم الولاة المستبدين (الذين يحكمون ذاتيا) ، والإقطاعيين المحليين الذين يسمون الـ « أعيان » والأشراف . لم يتساهل أبدا مع الذين لايصغون لأوامر المركز . أمر بإرسال الأسطول إلى عائلة قره مانلي التي حكمت ليبيا كإقطاعية عثمانية مدة عصر كامل ، وأصبح الولاة يرسلون إليها من استانبول . أوقف المماليك الذين حكموا العراق على أساس أنهم بكلربك بغداد ، وكذلك أشكودرالي – زاده لر (عائلة أشكودرا) الموجودون في أشكودرا والمشابهون لهم ، أرسل لكل الأماكن ولاة من المركز . ألغيت المؤسسة المسماة « الأعيان » ، أسست

إدارات حديثة خاصة في الأناضول وروملي وشمال البلاد العربية . سمي البكلر بك والي ، والسنجق بك (أمير لواء) متصرف .

ولو قدر للسلطان محمود أن يعيش 10 سنوات أخر ، لكان من المتوقع أن تتغير وجهة تركيا بشكل أعم وأعمق . جهّز أسس التنظيمات ، لكنه مات قبل أن يتمكن من إعلانها .

باختصار استطاع السلطان محمود خلال 13 عاما مشحونة بالكوارث والبلايا أن يغير وجهة الإمبراطورية تغييرا يتعذر معه إمكان العودة إلى الوراء .

5 – وفاة السلطان محمود خان الثاني (1839/7/1)

توفى محمود الثاني كعمه وكأبيه نتيجة الآثار السيئة التي تركتها الحرب الروسية في صحته ، في الساعات الأولى من صباح اليوم الأول من تموز . كان في سن تتجاوز الـ 53 بـ 11 شهرا و 12 يوما . دامت سلطنته 31 عاما إلّا 26 يوما (30 سنة و 11 شهرا و 4 أيام) وهذه المدة هي أطول مدة سلطنة بين محمد الرابع (1648 – 1687) عبد الحميد الثاني (1876 – 1909) . أعلنت أسس التنظيمات التي جهزها هو بعد 4 أشهر و 3 أيام من وفاته . دفن في المقبرة الكائنة في جغالوغلو ، ديوان يولو وباختصار في المكان المسمى « تربه » التي دفن في حديقتها وحول قبره رجال التنظيمات .

مولوده الأول السلطانة فاطمة التي ولدت في 1809/2/4 ومولوده الأخير شهزاده نظام الدين الذي ولد بعد ولادة السلطانة فاطمة بـ 25 عاما في 1833/12/29 . مات له 13 ابنة و 12 ابنًا ، دون أن يتجاوز أحد منهم سن الـ 3 أعوام . أولاده الآخرون هم :

ولي عهد – شهزاده سلطان مراد (1811/12/25 – 1812/7/14) ، ولي عهد – شهزاده سلطان عبد الحميد (1813/3/6 – 1825/4/20 = 12 ، 1 ، 15) ، عبد المجيد الأول (1823/4/25 – 1861/6/25) ، عبد العزيز خان (1830/2/18 –1876/6/4) ، شهزاده نظام الدين (1833/12/29– آذار 1838) ، السلطانة فاطمة (1810/4/30 – 1825/5/7) السلطانة صالحة (1811/6/16–1843/2/5) ، السلطانة مهرماه (1812/6/10 –1838/7/3) ، السلطانة عطية (1824/1/2 – 1850/8/11) ، السلطانة خديجة (1825/9/6 – 1842/12/19) ، السلطانة عادلة (1826/5/25 – 1899/2/12) .

تزوجت السلطانة صالحة من داماد محمد خليل رفعت باشا (1795 – 1856/3/4) مشير ، سر عسكر ، قبطان دريا (7 سنين ، 4 أشهر و 6 أيام) ، مشير طوبخانة ، سفير بطرسبورغ ، من مؤيدي التنظيمات الشهيرين . رزقت بابنين توفيا صغيرين وابنة واحدة (خانم – سلطانة صديقة ، زوجها الوزير سروه Server باشا) .

وتزوجت السلطانة مهرماه من داماد بورصه لي محمد سعيد باشا (1798 – ك 1868/1) مشير ، قبطان دريا سر عسكر (وزير حربية + رئيس أركان الجيش) ، وزير تجارة . وهو معارض للتنظيمات ، رفض الصدارة عام 1861 . لم يرزق بأولاد عدا ابن واحد ولد ميتا .

وتزوجت السلطانة عطية من داماد أحمد فتحي باشا (1801 – 1858/2/14) ، مشير ، مشير طوبخانة « مستشار السلطنة » في أواسط عهد السلطان مجيد ، من مؤيدي التنظيمات المشهورين . وأنجبت منه خانم – سلطانة سنية (1843 – 1910) (زوجها مشير حسين حسني باشا) وخانم – سلطانة فريدة (1847 – 1913) (زوجها مشير محمود نديم باشا) .

وتزوجت السلطانة عادلة من داماد محمد علي باشا (1813 – 1868/6/30) وهو صدر أعظم (1852 - 1853) ، مشير المابين ، قبطان دريا (أميرال كبير) (12 سنة و 1 شهر و 2 يوم) . وأنجبت منه خانم – سلطانة خيرية (1846 – 1869) (زوجها وزير اشكودرالي – زادة علي رضا باشا) . وعدا ذلك توفى لها ابنتان وابن في سن الطفولة .

6 – جلوس السلطان عبد المجيد خان الأول (1839/7/1)

جلس السلطان عبد المجيد الأول وعمره يتجاوز الـ 16 سنة بشهرين و 6 أيام . أمه السلطانة – الوالدة بزم عالم (1807 – 1853/5/2) وهي السلطانة – الوالدة لدور التجدد ، وقد شيدت مؤسسات خيرية كبيرة بصفتها هذه ، وبهدف تجديد الإمبراطورية . عبد المجيد الأول (باللغة الشعبية : سلطان مجيد) ، أصبح وليا للعهد

فور وفاة أخيه الكبير سلطان عبد الحميد وعمره سنتان (1825/4/20) . هو حاكم التنظيمات الشهير الذي تلقى منذ حداثته الثقافتين الغربية والشرقية . أول من تعلم الفرنسية بطلاقة من بني عثمان ، حصل على إجازات في خط الثلث ، والجلي ، والرقعة . عازف على البيان ، له إلمام بالموسيقى الغربية . أول حاكم لم يتعلم الموسيقى التركية . مولوى ونجّار دقيق . قام بـ 6 سياحات رئيسية ، خلال سلطنته وزار روملي والعديد من جزر إيجا ومن بينها كريت ، وتمكن من زيارة الأماكن القريبة فقط من الأناضول كازميت ، بورصة ، جنا قلعة . وزار كذلك جزيرتي قوش آداسي ، مارماريس وبودروم .

كان محمود الثاني قد كلّف رءوف باشا بالصدارة للمرة الثانية (1833/2/18) ، بعد صدارة رشيد محمد باشا التي دامت 4 سنوات و 21 يوما . وكان قد مضى على خروج رءوف باشا من صدارته الأولى مدة تزيد على الـ 15 سنة . هذه الصدارة الثانية لرءوف باشا اعتبارا من 1805 هي أطول مدة صدارة حتى نهاية السلطنة . وقد كان في منصب الصدارة عند جلوس السلطان مجيد .

شيوخ الإسلام الذين بقوا في المشيخة أطول مدة ، في عهد محمود الثاني ، هما ياسينجي – زاده عبد الوهاب أفندي الذي بقي 6 سنوات و 4 أشهر و 16 يوما (1819 – 21 و 1828 – 33) ، ومكي – زاده مصطفى عاصم أفندي . وقد اعتلى عاصم أفندي مقام المشيخة 3 مرات مجموعها 17 سنة و 6 أشهر و 18 يوما ، وهو بهذا يعتبر السابع من بين شيوخ إسلام العثمانية من حيث مدة بقائه في المشيخة ، (1818 – 19 و 1823 – 25 و 1833 – 46) . وقد أبقاه السلطان مجيد في مقامه حتى وفاته . وكانت الفترة الثالثة له في المشيخة هي أطول فترات المشيخة عموما بين الأعوام (1574 – 1891) .

السلطان مجيد ، جميل الوجه جدا ، ومقبول الهندام ، متوسط القامة ، عسلي العينين ، كان كأبيه مشغولا بالنساء والشراب ، وبينما كان أبوه معجبا بالنساء السمراوات ، ذوات الشعر الأسود والعيون السود ، كان السلطان مجيد تعجبه النساء الشقراوات ذوات العيون الزرق والقد الرقيق الممشوق . كان مؤدبا ، رقيقا ، حسّاسا ، رحيما ، ذكيا ، وقورا . لم تكن له سطوة أبيه الصلبة ، ولا دهاؤه الواسع ، لكنه صار في مقدمة المتميّزين بين حكام الطراز الأوروبي ، في عصره . لم يقم بإدارة الدولة بشخصه كأبيه ،

ولقد كانت تلك هي رغبة أبيه الذي خطط التنظيمات على أساس ترك إدارة الدولة إلى الطبقة البيروقراطية العليا .

جلس السلطان مجيد على العرش في ظروف صعبة . تُرى هل سيكون بالإمكان في ظل هذه الظروف إعلان التنظيمات ؟

لقد كان الموقف عقب وفاة السلطان محمود على الوجه التالي :

– لم يتردد المعارضون من رجال الدولة للتنظيمات وحركة التجديد في كشف النقاب عن حقيقة نواياهم قبل مواراة البادشاه التراب ، بعد أن زالت خشيتهم من السلطان المسجى .

– انقسم رجال الدولة إلى قسمين :

● قسم محافظ يرى التراجع عن بعض النقاط التي حققها السلطان محمود ، وإن تعذر ذلك فالوقوف تماما عندما حققه وعدم تجاوزه . وهؤلاء هم الأكثرية .

● قسم متحمس لحركة التنظيمات والتجديد ، مصمم على المضي بالحركة على النهج الذي رسمه السلطان .

وفي كل الأحوال لم يكن هنالك من يفكر في الاستغناء عن الجيش الحديث ، أو إغلاق المدارس التي فتحها ، كما كان النفور شديدا وعاما من دور الإنكشارية ، خاصة أن أكبر عصيان شهدته الدولة على مدى تاريخها كان قد اكتسب مرحلة جديدة بهزيمة نيزيب .

دامت صدارة رءوف باشا الثانية مدة 6 سنوات و4 أشهر ، 12 يوما . كان رءوف باشا من المجددين المعتدلين ، ينفذ كل ما يشير به السلطان محمود ، كما كان رجل دولة ذا قدرة على تطبيق إرادة البادشاه بشكل جيد .

انتزع خسرو باشا الطاعن في السن والذي يترأس حزب المحافظين ، الختم الهمايوني من رءوف باشا عنوة ، في تشييع جثمان السلطان محمود ووضعه في صدره . لم يتدخل السلطان مجيد مع أنه لاحظ أنهم ينظرون إليه كطفل ، وفي الحقيقة فإن السلطان

مجيد كان لديه العزم والشجاعة لتحقيق كل ما أوصاه به أبوه بحذافيره (1839/7/2) .

علم قبطان دريا أحمد فوزي باشا ، قائد الأسطول الهمايوني في جناقلعة ، في اليوم التالي ، بخبر صدارة أعدى أعدائه خسرو باشا . سحب الأسطول من جنا قلعة ، وسار به إلى الإسكندرية ، وسلمه إلى محمد علي باشا . حيث كان يعتقد أنه سيأخذ محمد علي باشا ويتجهان معًا إلى إستانبول ؛ ليعطي الصدارة لمحمد علي باشا ويجعله الشخص الثاني .

جعل أحمد فوزي باشا بعمله هذا ، محمد علي مالكا لأقوى أسطول في العالم بعد انكلترا .

يصف التاريخ العثماني أحمد فوزي باشا بالخيانة لقيامه بهذا العمل ، وإن كان هو يبرر عمله هذا بأنه لم يسلم الأسطول إلى محمد علي باشا ، وأن المسألة لا تعدو مجرد نقل الأسطول من ميناء من موانى الدولة العثمانية إلى ميناء آخر تابع للدولة أيضا ؛ وهو الإسكندرية . (هذا القول لا يزيد على كونه تبريرا ؛ لأن القصد كان واضحًا) .

المهم أن الدولة فقدت أسطولها الذي أنشأه السلطان محمود بجهود جبارة وتضحيات كبيرة ، خاصة بعد واقعة نافارين منذ 12 سنة ، كما أن تسليم الأسطول لمحمد علي باشا جعل من الصعب إمكان تقويم محمد علي باشا بواسطة الجيش ، ولذلك فقد قرر مصطفى رشيد باشا اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية لتنحية محمد علي باشا .

7 ـ نشأة التنظيمات وحركة التجديد

ولكي ندرك أسلوب هذه التنظيمات بشكل أعمق ، فإن الأمر يقتضي منا التطرق إلى نشأتها .

وقع مؤرخو التاريخ العثماني في خطأ تاريخي جوهري غير قابل للنقاش ، حينما قالوا بأن : مصطفى رشيد باشا هو رائد هذه التنظيمات التي تعتبر بداية لتركيا الحديثة . والحقيقة أن رائد هذه التنظيمات هو السلطان محمود الثاني ، وعلى هذا فإنه يمكن القول بأنه لولا الواقعة الخيرية ، واصلاحات السلطان محمود الجذرية لما أمكن تحقيق هذه التنظيمات .

لقد وجه المؤرخون النقد إلى مصطفى رشيد باشا باعتباره رائدًا للتنظيمات ، في حين أن مصطفى رشيد باشا لم يكن إلا صنيعة السلطان محمود الثاني وتابعه الخاص الذي سار على نهج سيده وأتم ما بدأه .

ومن الواضح أن الذي بدأ حركة الإصلاح ذات النمط الأوروبي الغربي بشكل قطعي هو السلطان محمود الثاني وليس رشيد باشا وذلك بعد الواقعة الخيرية ، وأساسًا فإنه لم يكن ليجرؤ أي بادشاه أن يقوم بإلغاء الجيش وتأسيس جيش جديد بدلا منه ، ولا أن يقوم بسحب العسكريين من الإدارة المدنية وتسليمها للمدنيين ، ولا أن يلغي لبس القلنسوة واستبدال الطربوش بها ... ولا القيام بإصلاحات كثيرة مشابهة . وساعده على ذلك إشراف الدولة العثمانية على شفا الهاوية ، حيث لم يكن في مقدور أي من بني عثمان أن يحقق مثل هذه الإصلاحات ، على الرغم من الاعتقاد الخاطئ بأن إرادة العثمانيين هي من إرادة الله .

ويقتضي الأمر من الباحث في الحركة الإصلاحية وضرورتها في الدولة العثمانية أن يمعن النظر إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : وتشمل الإصلاح الذاتي الداخلي للدولة ، والمرحلة الثانية : وتشمل النمط الجذري للحركة الإصلاحية التي استلهمت فلسفة الإصلاح من النمط الأوروبي الغربي والتي بدأت مع النظام الجديد عام 1793 .

وخلال المرحلة الأولى لم تتوسع الدولة العثمانية في الاقتباس من النمط الأوروبي الغربي حيث لم يكن قد ثبت لدى قادة الدولة التفوق الأوروبي على آسيا بشكل يدفعهم إلى التوسع في الاقتباس منه ، وكانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولة عظمى بالدرجة الأولى ، على الأقل خلال الفترة من 1683 حتى 1770 .

وخلال هذه المرحلة حاول كثير من قادة حركة الإصلاح في الدولة العثمانية القيام بالإصلاحات من منطلق ذاتي دون الاقتباس من الغرب ، ومن هؤلاء القادة : شيخ الإسلام وخواجه سعد الدين أفندي ، خواجة سلطاني عمر أفندي ، والسلطان عثمان الثاني ، كوجي بك – كاتب جلبي ، ومراد الرابع ، وكوبرولو محمد باشا .

ثم تلا هؤلاء القادة فريق من مؤسسي المنشآت الجديدة ، حاولوا الاقتباس من النمط

الأوروبي ولكن بدرجة قليلة حفاظا على الدولة من الأضرار التي يمكن أن تحدث من جراء التوسع في الاقتباس من النمط الأوروبي ، وأيضا لاتقاء شر الإنكشارية الذين لا يرحبون بالاقتباس من النمط الأوروبي ، ومن هؤلاء القادة الجدد : الداماد نوشهرلي ، وإبراهيم باشا ، ومحمود الأول ، ومصطفى الثالث ، وعبد الحميد الأول . والإصلاح الجذري الذي تبناه النظام الجديد لم يقم به سليم الثالث كما كان مفهوما ، وإنما الذي قام به هو خليل حميد باشا الذي قام بمحاولة انقلاب في السلطنة عام 1785 بغرض تسليم زمام الأمور لسليم الثالث ، ولكن محاولة الانقلاب هذه كانت قد انكشفت ، الأمر الذي أدى به إلى الإعدام ، فذهبت أفكاره معه ولم يتمكن من تحقيق إصلاحاته الجوهرية .

وكان خليل حميد باشا قد قام بتنشئة رئيس الكتاب أبو بكر راتب أفندي الذي تزعم الراديكاليين في البيروقراطية العثمانية . وقد كان راتب أفندي أحد أصحاب الـ 21 لائحة التي قدمت لسليم الثالث عام 1791 حول النظام الجديد . الأمر الذي أدى إلى إعدامه عام 1799 في رودس .

وقد كان راتب أفندي سياسيا ، وشغل بعض المناصب السياسية وأهمها وظيفة سفير بلاده في فيينا ، وكان يستعين بمستشار ذي خبرة وتخصص في التاريخ العثماني هو الشاب النمساوي البارون فون هامر المستشرق الشهير .

وخلال تلك الفترة كان يترأس الدولة المجدد الراديكالي سليم الثالث الذي تفوق على الكثير من اسلافه الذين لم يجرءوا على تحقيق الإصلاح الجوهري المنشود ، ومن بينهم أبوه وعمه . وتولى سليم الثالث السلطة وجلس على العرش وهو أصغر من إسلافه سنا وأوفرهم ثقافة . وكان النظام الجديد بالنسبة له عبارة عن جيش جديد . وكان يتوق إلى إصلاح أساسي شامل ، وبدأ بتحقيق هذه الإصلاحات في مجالات عديدة امتدت إلى الموسيقى . وبالإضافة إلى ذلك فإن سليم الثالث كان أول من وضع الراديكالية موضع التطبيق ، وكان أول من حاول من الأسيويين إدخال إصلاحات واسعة تستلهم أسسها من الغرب الأوروبي .

وقد بقي النظام الجديد خلال الفترة من 1793 حتى 1806 حيث وضح آنذاك مدى التفوق الأوروبي ، وكانت الدولة العثمانية قد فقدت القرم أحد شرايينها الأساسية .

خلف سليم الثالث في رئاسة الدولة محمود الثاني الذي لم يتمكن من البدء بالإصلاحات الجوهرية إلا في عام 1826 ، حيث كان الراديكاليون يحافظون على أفكارهم بعناية ، وكانوا يتحفظون جدا في إبداء أفكارهم الجديدة ؛ ليتمكنوا من إنقاذ رءوسهم من سطوة المحافظين والرجعيين الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة .

وقد ضحى رجال النظام الجديد أصحاب روسجوك بالعديد من الشهداء . وقد انتشرت الراديكالية في صفوف الجيش كذلك . وكان على رأسهم قاضي عبد الرحمن باشا . وقد كان علمدار مصطفى باشا أحد هؤلاء ولكنه كان جاهلا ، في الوقت الذي كان فيه جميع الراديكاليين على درجة كبيرة من الثقافة . وفي الحقيقة لم يتمكن علمدار مصطفى باشا من الانسجام حتى مع عبد الرحمن باشا الذي كان من مؤيدي النظام الجديد ، رغم أن كليهما كانا ماريشالين للدولة يرومان تأسيس جيش جديد ويؤيدان الحركة الإصلاحية .

انتقلت زعامة الراديكاليين ، بعد إعدام راتب أفندي ، إلى دبلوماسي آخر هو رئيس الكتاب محمود رائف أفندي الذي استشهد في عصيان قباقجي في 1807/5/25 ، وقد أقام محمود رائف أفندي في لندن لمدة ثلاث سنوات تعلم خلالها الإنجليزية والفرنسية بشكل جيد ، وقد خلفه في الزعامة محمد سعيد غالب أفندي الذي صار فيما بعد صدر أعظم غالب باشا (إستانبول 1763 - باليق أسير 1829) ، وكان كل من محمود رائف أفندي ومحمد سعيد غالب أفندي صنيعة للآخر . هذا وقد قام غالب باشا بنقل أفكاره الإصلاحية إلى وزير الداخلية : وزير سعيد برتو باشا (داريجة 1786 - أدرنة 1836/10/8) الذي فقد رأسه في سبيل هذه الحركة فيما بعد .

ظهر في نهاية هذه التغيرات الزعيم الأكبر مصطفى رشيد باشا الذي تعهده بالرعاية والجهود المكثفة رائد البيروقراطية الراديكالية برتو Pertev باشا ، وأيضا بفضل جهود رئيس الدولة الراديكالي محمود الثاني (1800/3/13 - 1858/1/7) .

ثم خلفه الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا ، (1815/3/5 - 1871/9/7) الذي تتلمذ على يد رشيد باشا وكذلك تأثر بالرائد الثاني للحركة التجديدية والتنظيمات الصدر الأعظم كيجه جي زاده بيوك دكتور محمود فؤاد باشا ، وجميعهم من تلاميذ رشيد باشا .

وكان عالي باشا من خريجي غرفة الترجمة ، بينما كان فؤاد باشا من المدرسة الطبية ، وكلاهما عمل بالسلك الدبلوماسي مثل رشيد باشا . وقد توفى فؤاد باشا قبل عالي باشا ، وبموتهما تحطمت فكرة التجديد والتنظيمات والانقلابات الفكرية ، وانقسمت الحركة إلى قسمين :

(ا) مؤيدي التنظيمات المحافظين : الذين استهدفوا استمرار مدرسة الباشوات رشيد - عالي - فؤاد .

(ب) الانقلابيين : الذين كانوا يهدفون إلى قلب نظام الحكم وإحداث تغيير جذري ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق هدفهم إلا في عام 1908 .

وقد تزعم الفريق الأول السلطان عبد العزيز ، ثم جاء بعده السلطان عبد الحميد الثاني ، كلاهما أيد فكرة إدارة البيروقراطيين ذوي المناصب العالية في الدولة لبيروقراطية التنظيمات .

وقد وقف الانقلابيون ضد هذه الفكرة حتى عندما كان عالي باشا على قيد الحياة ، واستمروا في معارضتهم للسلطان عزيز والسلطان حميد .

وتزعم الفريق الثاني ضياء بك (وزير عبد الحميد ضياء الدين باشا) ومعاونه نامق كمال بك اللذان أسسا حزبا أو تيارا فكريا غير رسمي باسم : العثمانيون الجدد (بني عثمانليلر) .

ولم يستطيعا القيام بالمعارضة داخل تركيا ، لذلك أقاما في أوروبا وسعيا لقلب نظام الحكم ، ورشحا مدحت باشا ليتولي زعامة المعارضة ويكون صدرا أعظم ونامق كمال وزيرا للخارجية . ولكن فكرتهم هذه لم تحظ بتأييد البيروقراطيين المؤيدين للتنظيمات ، وقد حاول مدحت باشا استغلال فكرة الثنائيْ ضياء - كمال ، وارتبط بدولة أجنبية هي انجلترا التي كانت زعيمة أوروبا في ذلك الوقت ، مخالفا بذلك من سبقوه في التاريخ العثماني كله .

وحاول تجريد البادشاه من صلاحياته ليصبح دمية ويستأثر هو بالسلطة ، ولكن خطته هذه لم تجد قبولا من مؤيدي تنظيمات رشيد باشا فضلا عن أنها لم تكن خطة عملية

لأنها ستقوض أركان الإمبراطورية في الحال ، ويتضح من ذلك أن مدحت باشا كان يسعى إلى منافع شخصية .

ورغم أن عبد الحميد الثاني اضطر إلى تغيير جزء كبير من مقررات التنظيمات الإصلاحية وركز على قسم كبير منها فإنه حافظ على استراتيجية التنظيمات كنظام أساسي حتى عام 1908 .

وبعد تنحية مدحت باشا ، ورث أفكاره حزب الاتحاد والترقي السري الذي مارس راديكالية تفوق تصورات رشيد باشا وضياء باشا ، بمراحل كبيرة .

تلك هي الخطوط الرئيسية الأكثر وضوحا في حركة التجديد في الدولة العثمانية ، ذكرناها بإيجاز لتوضيح أن التنظيمات الإصلاحية لم تظهر فجأة ، وإنما مرت بمراحل متعددة . ولنوضح أيضا أن هذه التنظيمات الإصلاحية ليست من بنات أفكار رشيد باشا .

8 ـ إعلان التنظيمات (1839/11/2)

رشيد باشا الذي يعتبر تلميذا للسلطان محمود ، كان وزيرا للخارجية ، وعند وفاة السلطان محمود كان رشيد باشا في لندن ، فعاد مسرعًا وأبلغ السلطان مجيد الشاب طلبات أبيه ، حاول الصدر الأعظم خسرو باشا إقناع البادشاه الشاب بإعدام مصطفى رشيد باشا (عمره آنئذ 40 عاما) ولكن البادشاه كان حكيما فأعلن موافقته على إعلان تنظيمات رشيد باشا .

تلا رشيد باشا ـ مجازفا بحياته ـ أمام كل رجال الدولة والشعب والأجانب فرمان البادشاه الذي هو بمثابة الدستور (1839/11/2) الذي يوضح الحقوق الرئيسية .

تمثل موافقة السلطان مجيد على إعلان التنظيمات تنازلا عن الكثير من الحقوق المتوارثة منذ عصور طويلة لأجداده مؤسسي الدولة ، وقد كان ذلك بلا شك حرصا من السلطان مجيد على مصالح الدولة واستمرار بقائها .

تمت تلاوة فرمان التنظيمات في كلخانة في سراي طوب قابو ، ولذلك فإنه يطلق عليه اسم « كلخانة خط همايوني » ، ويطلق عليه الأوروبيون « خط شريف » ، وبإعلان الدستور أصبحت إصلاحات السلطان محمود قانونية وموثقة .

يوضح الدستور أن الشعب هو أساس وجود الدولة ، وأن الدولة إنما تقوم من أجل الشعب ، وأن مؤسسات الدولة قد تسرب إليها الفساد منذ 150 عاما ، وأنه قد حدث إخلال بحقوق الشعب في الفترات الأخيرة ، ولذلك فقد فقد الشعب رفاهيته كما فقدت البلاد إعمارها ، وأنه على الدولة أن تؤمن الحقوق الأساسية للشعب ، وبناء على ذلك ينص الدستور على أنه لا يجوز بعد الآن :

– إصدار حكم بالإعدام ولا بالسجن ولا بالنفي على أي مواطن ، ما لم تقره المحكمة في جلسة مفتوحة ، لا يمكن مصادرة أموال ونقود شخص أو مؤسسة لصالح الخزانة العامة على أساس أنها أموال دولة مسروقة ؛ ما لم تقر ذلك المحكمة .

– لا يمكن طلب ضرائب أو رسوم ، أو أي خدمات زائدة من الشعب عدا الضرائب التي تقرها القوانين المرعية .

– لا يجوز تجنيد أي مواطن خلافا للقانون أو إبقاؤه في العسكرية مدة أطول من المدة المنصوص عليها في القوانين المرعية .

– لا يجوز لأي موظف أن يتعدى حدود صلاحياته الممنوحة له قانونا ؛ فإن كان عسكريا يشتغل بالأمور العسكرية ، وإن كان من العلماء يشتغل بالأمور الدينية والواجبات الأخرى المحددة .

– يجوز لكل مواطن الاشتغال بالتجارة والزراعة والصناعة بحرية تامة في إطار القوانين .

– لا يجوز إصدار أحكام إعدام أو سجن أو نفي أو مصادرة بإرادة الوزير والبادشاه ، واستنادا لأسباب سياسية مبهمة كما كان في السابق .

– لا يكون للبادشاه بالذات حق سجن ، أو نفي أي شخص .

– يقسم البادشاه على رعاية أحكام الدستور .

– تطبق التعديلات فورا بإنشاء المؤسسات اللازمة لها في كل الإيالات .

– ينفذ هذه الإجراءات الصدر الأعظم الذي يعينه البادشاه .

- ينبغي أن يكون الصدر الأعظم مدنيًا ، فإن كان عسكريا ، فيتحتم أن تكون له مكانة متميزة بين الوزراء الآخرين . (كان ذلك هو الواقع المطبق وإن لم يذكر في الفرمان ، ويعني هذا أن تترك إدارة الدولة بصورة رسمية للطبقة العليا من البيروقراطيين) .

- يقوم البادشاه بواجبات السلطنة ولا يحكم .

- يصدق البادشاه على قرارات الحكومة وعرائض الصدارة بصورة تلقائية ، ما لم يكن هنالك سبب مجبر لردها . (يوضح هذا أن صلاحيات البادشاه قد قلصت بما فيه الكفاية بالنسبة لصلاحيات القيصر مثلا) .

وافق البادشاه على ذلك بمحض إرادته وحريته دون أي ضغط من الشعب أو الجيش كما حدث في معظم الدول الأوروبية .

ومن الواضح أن هذا النظام يعطي السلطة إلى البيروقراطية التي يتزعمها رشيد باشا وإلى الشباب ، ولذا قاومه البيروقراطيون المحافظون المسنون القدامى .

استغرق تأمين التوازن بين هذين التيارين من قِبَل البادشاه مدة طويلة نوعًا ما ، عين خلالها في فترات متفاوتة صدورًا عظامًا من المحافظين .

انتقلت إدارة الدولة في النهاية إلى مؤيدي التنظيمات تماما ، وعدا حادث 1876 ، لم يظهر جنرال يميل إلى التدخل في السياسة ، وقد تولى بعض العسكريين وظائف مدنية نظرا لعدم توافر العدد الكافي من الموظفين المدنيين ، ولكنهم كانوا يقومون بأعباء وظائفهم هذه كأنهم موظفون مدنيون ، وأكثر الذين تولوا هذه الوظائف ، كانوا برتبة مشير .

أخذت صلاحيات زمرة العلماء في التقلص تدريجيا على مر الزمن ، مما سبب عدم الارتياح الداخلي لدى هذه الطبقة .

لم تعد الرغبة السابقة في الانتساب إلى المدارس المدنية كما كانت عليه ، وكانت حصة المدارس العسكرية من الطلاب محدّدة .

والكل يرغب في إلحاق ابنه كاتبا في الدوائر الحكومية ؛ أي جعله في السلك المدني . كانت وظيفة الكاتب ، هي المرحلة الأولى في الوظائف المدنية ، وكان يجري تدريب الموظفين ثم تفريعهم إلى 5 فروع أساسية : الخارجية ، الداخلية ، المالية ، المعارف والعدلية ، وفي ضوء هذا فإن وظيفة الكاتب كانت تعتبر الخطوة الأولى لمنصب الصدارة .

بدأت بيروقراطية الباب العالي التقليدية الكبرى ، وأصبحت للمدنيين رتب معادلة لرتب صنف العسكرية وصنف العلماء ، كما أصبحت لهم ملابس للمراسم ، لكنهم كانوا يرتدون هذه الملابس في المراسم فقط وليس بصفة مستمرة كالعسكريين والعلماء .

دامت صدارة قوجا محمد خسرو باشا ، مدة 11 شهرا و 7 أيام . كان هذا الشيخ غنيا جدا ، ومن كبار أصحاب الخير ، وكان عدوا لدودا لمحمد علي باشا .

صار واليا على مصر قبل محمد علي باشا وشغل منصب قبطان دريا مدة 10 سنوات و 4 أشهر و 12 يوما (1811 – 18 و 1822 – 27) . لم يتمكن من القضاء على وزير الخارجية رشيد باشا لكن رشيد باشا أسقطه . أقنع البادشاه بأنه لا يمكن حل المشكلة الأولى للدولة ، مشكلة محمد علي مادام خسرو باشا باقيا في الصدارة . كان خسرو باشا أكبر عدو لمحمد علي في الظاهر ، لكن الحقيقة أن رشيد باشا ، كان أكبر عدو لمحمد علي على وجه الأرض . كان رشيد باشا عازما على الانتقام من محمد علي جزاء عصيانه لسيده السلطان محمود . لكن محمد علي لم يتمكن حتى النهاية من التعرف على هذه النية التي كان يبيتها له رشيد باشا .

تصدر رءوف باشا للمرة الثالثة (1840/6/8) . بقي في السلطة مدة 1 سنة ، 5 أشهر و 26 يوما . كان مؤمنا بحركة التجديد التي قام بها السلطان محمود ، وتعاون مع رشيد باشا بشكل منسق ؛ كان رشيد باشا مسيطرا على كل الشئون الخارجية للدولة ، ولم ينشغل بالأمور الداخلية لأنها لم تكن من اختصاصه في الأصل .

صار دارنده لي طوبال عزت محمد باشا الذي شغل هذا المقام قبل 12 سنة ، صدرا أعظم (1841/12/4) ، وعزل بعد 8 أشهر و 27 يوما (1842/8/30) . جاء رءوف باشا إلى السلطة للمرة الرابعة .

مجموع صدارتي عزت 1 سنة ويومان .

انقسمت القوات البرية للإمبراطورية على أيام صدارة رءوف باشا الرابعة ، إلى 5 جيوش (1843/9/6) ، وسوف تنقسم فيما بعد إلى 7 جيوش .

9 – حل القضية المصرية (1840 – 41)

تجدد أمل محمد علي باشا الكبير السن في الصدارة ، بوفاة السلطان محمود وجلوس خاقان – خليفة شاب على العرش . كان رشيد باشا قد أجرى اتصالات سرية جدا حول محمد علي في لندن وباريس ، قبل مجيئه لإعلان التنظيمات .

لم يوفق في اتصالات باريس في هذا الشأن حيث كانت باريس مصممة على مساندة محمد علي بصورة مستمرة والحصول بواسطته على النفوذ في مصر . لكن من الثابت أنه وفق في لندن ، وسوف تكون السياسة التي سوف ينتهجها رشيد باشا هي التعاون مع إنكلترا أعظم الدول العالمية ، ولقد كان من دواعي ذلك ومهيئاته عدم رغبة إنكلترا في التوسع الروسي ، واتخاذها الدولة العثمانية أكبر ضمان لذلك . إلى جانب ذلك فقد رأي رشيد باشا أنه من الخطأ اتخاذ جبهة مضادة تجاه فرنسا الدولة العظمى الثانية ، حيث لم تكن لها أطماع توسعية صريحة تجاه الإمبراطورية العثمانية كروسيا . ولذلك فقد قرر ترك الفرنسية لسياسة التموّج (الاتفاق معها تارة والاختلاف تارة أخرى) ، مع تثبيت العلاقة مع إنكلترا .

وقع رشيد باشا ، الذي ذهب إلى إنكلترا بعد إعلان التنظيمات ، على معاهدة لندن (1840/7/15) . وقّعَ على هذه المعاهدة المكونة من 13 مادة ، كلّ من تركية ، إنكلترا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا . أصرت فرنسا على عدم التوقيع . وهكذا اتفقت جميع دول أوروبا الكبرى – عدا فرنسا وأسبانيا – حول قضية محمد علي .

كان ذلك بالنسبة للعثمانية نصرا دبلوماسيا كبيرا بدرجة لا تصدق .

تنص هذه الاتفاقية على أن تقدم الدول الـ 5 الكبرى إخطارين لمحمد علي ، كل منهما لمدة 10 أيام يتضمن الإخطار الأول أن يقوم محمد علي بإعادة الأسطول العثماني إلى إستانبول وإخلاء جزيرة كريت وإدنة وسورية ولبنان والحجاز ، وتعطى له كوالي

للدولة العثمانية ولأبنائه من بعده مصر والسودان ، وتعطى له فلسطين مدى حياته ، فإذا انقضت مهلة الأيام العشرة و لم يستجب ، تؤخذ منه فلسطين وتعطى له مصر والسودان فقط ، فإذا انقضت مهلة العشرة أيام التالية و لم يستجب ، تؤخذ منه مصر كذلك ، وتتعهد الدول الـ 4 بأن تضع الجيوش اللازمة تحت أمر البادشاه لتنفيذ هذا الإخطار .

بعث رشيد باشا مستشار الخارجية صادق بك (باشا) بالإخطارات . أجاب محمد علي باشا صادق بك محاولا الدفاع عن خيانته وتغطية أطماعه الشخصية ، بأنه خاضع ومذعن لأي فرمان يصدر من البادشاه ، ثم تساءل بعد هذا الرياء السافر عن ماهية تقصيره ، وأن أمثال خسرو باشا من أعدائه في شبابه ، قد غشوا سيدنا البادشاه ، وأقنعوه بإرسال جيش ضده ، وأنه جعل من مصر بلادا معمورة للبادشاه ، وأنه يرسل ضرائبه لاستانبول ويرسل الجنود . وأفاد بعد ذلك ، بأنه كعثماني كبير السن ، تأثر جدا من أن تبلغه إخطارات الدولة الأجنبية عن طريق موظف عثماني ، ولذا فإنه لا يقبل الإخطارات . وأخذ في الدفاع عن الإمبراطورية التي أوشكت بفضله على الاضمحلال ، قائلا بأنه لا يمكن لأي دولة ، التدخل في الشئون الداخلية للعثمانية ، ولا يمكنها أن تملي على وال عثماني مثله أمرا . تكلم صادق بك مع محمد علي باشا ، بإسلوب شديد اللهجة ليثير غضبه حسبما أوصاه رشيد باشا .

عاش رشيد باشا يوما من أسعد أيام حياته عندما علم بالرفض . بلغ الدول الـ 4 برفض الباشا ، للإخطار ، وطلب إجراء اللّازم .

رأت روسيا أنه في حالة أخذ مصر من يد محمد علي ، فسوف تتوجه العثمانية نحوها بعد حل مشكلتها هذه (وبالفعل حدث ذلك) ، ومن ثم فقد ألقت باتفاقية لندن عرض الحائط وتبعتها في ذلك بروسيا التي سايرت السياسة الروسية ، ضد عدوتها النمسا ، فلم ترسلا جيشا .

أرسلت إنكلترا وفرنسا الجنود والأساطيل التي طلبها الباب العالي . التقوا مع الجيش العثماني ونزلوا في بيروت (1840/9/15) . تعقبوا أثر قاوالالي إبراهيم باشا البالغ عمره آنذاك 51 عاما . انهزم إبراهيم باشا قرب بيروت بشكل حاسم . كانت حالة النفور

عامة في جميع سوريا ولبنان وفلسطين ضد إبراهيم باشا بسبب تكليفه لهم بأعمال إضافية كثيرة دون مقابل . كانت هذه الأقطار تريد عودة العثمانية . ثار الشعب ضد إبراهيم باشا وأظهر موالاته للعثمانية . دخل الجيش العثماني إلى حلب (1840/11/13) ، وإلى الشام (1840/12/29) ، وإلى عكا (1840/11/4) ، وإلى طرابلس (1840/10/16) . نجا إبراهيم باشا بنفسه بالكاد مع بقايا جيشه ، وعاد إلى مصر وسرد الوضع على أبيه البالغة سنة 71 عاما .

في هذا الوضع ، لعبت إنكلترا لعبتها في التحايل على الباب العالي ؛ بالنسبة إلى معاهدة لندن ، كان الأمر يقتضي إخراج محمد علي من مصر كذلك . وعلى أثر تبليغ محمد علي في اتفاقية الإسكندرية (1840/11/27) بأنه يوافق على شروط المذكرة الإخطارية الثانية ، طلبت إنكلترا من الباب العالي إبقاء مصر والسودان – عدا القسم الساحلي – لدى محمد علي . إن إعراض روسيا وبروسيا عن تطبيق معاهدة لندن ، وإعلان فرنسا معارضتها واستعدادها عند اللزوم لمساندة محمد علي بالسلاح ، صراحة ، جعل إنكلترا في تردد . وإضافة إلى ذلك ، كان محمد علي يقوم بوظيفة الولاية بصلاحيات حاكم منذ 35 عاما ، وكانت جذوره قد امتدت وغيّرت وجهة مصر . وبناء على ذلك ، طلب رشيد باشا إلى البادشاه أن يعلن فرمان مصر (1941/5/24) الذي بقي مرعيا في مصر كدستور حتى نهاية عام 1914 ونهاية الحكم العثماني .

تشتمل أحكام هذا الفرمان على ما يلي :

يتنازل محمد علي عن الإيالات الـ 7 التي أخرج منها أساسًا ، يرسل الأسطول إلى إستانبول . تعطى له ولاية مصر والسودان وراثيًا . تبقى سواحل السودان المسكونة والمشرفة على البحر الأحمر ، لدى العثمانية . تبقى أريتره كذلك لدى الإدارة العثمانية . تعطى فقط نصف شبه جزيرة سيناء إلى محمد علي . يكون أكبر الأبناء الذكور من صلب محمد علي واليا على مصر ، تنتقل الإيالة إلى العثمانية في حالة انقطاع الذكور من سلالة قاوالالي ، لا يكون لأبناء البنات حق في السلطة . يحمل والي مصر لقب « والي » ورتبة وزير كولاة العثمانية الآخرين ، يدخل في البروتوكول حسب تسلسل القدم ضمن وزراء ومشيري العثمانية الآخرين . يرسل إلى إستانبول ضريبة سنوية

مقطوعة قدرها 4 ملايين آقجه ، يجوز للباب العالي أن يزيد مقدار هذه الضريبة في حالة ازدياد رفاهية البلاد ، ولكن لا يمكن إنقاصها . يكون لوالي مصر الباشا 000 18 جندي . يساق هؤلاء في حالة الحرب إلى الجبهة التي يأمر بها الباب العالي ، وفي حالة السلم يرسل سنويا (بشرط تبديلهم سنويا كذلك) 400 جندي مصري إلى إستانبول . يُسرح الجنود الفائضون ، تباع السفن الحربية ، يلغى الأسطول . يرتدي الجيش المصري البزة العسكرية العثمانية . يرفرف في مصر العلم العثماني ، ولا يستعمل علم غيره . تصك النقود باسم البادشاه . لا تستدين الإيالة من دولة خارجية . تطبق في مصر جميع أسس التنظيمات والقوانين التي أعلنها وسيعلنها الباب العالي . لا يجوز لوالي مصر أن يمنح أحدا رتبة تعلو على رتبة الباي (زعيم) أو ما يعادلها من رتب الصنف المدني وصنف العلماء ، تمنح للمصريين الرتب التي تعلو على رتبة الزعيم من قبل البادشاه فقط ، علامات التقدير والأوسمة تمنح من قبل البادشاه كذلك . وبالنسبة إلى فرمان التنظيمات لا يجوز لوالي مصر معاقبة أي مصري ما لم يكن هنالك قرار صادر من محكمة ، ولا يمكنه جمع الضرائب عدا الضرائب التي تجمع أمثالها من الأقطار العثمانية . لا يجوز للوالي أن يرتبط بأي علاقة خارجية ، يتلقى الأوامر من الباب العالي بشأن كل مسألة مهمة يروم تنفيذها داخل مصر .

يعد هذا الفرمان ، من أعمال رشيد باشا الكبيرة التي دفعت محمد علي إلى حدود التعقل . دام عصيان محمد علي مدة 9 سنوات و 7 أشهر و 5 أيام . امتثل محمد علي بعد ذلك لهذا الفرمان بشكل تام ، حيث إن إحدى فقرات الفرمان تنص على أن تؤخذ مصر من عائلة قاوالالي في حالة مخالفته أي حكم من أحكامه . منح السلطان مجيد عام 1842 محمد علي رتبة الصدارة التي تفوق رتبة الوزارة ، وهذه الرتبة منحت كذلك للولاة الذين جاءوا بعده ، وبذلك تفودى دخول والي مصر في تسلسل البروتوكول بعد الوزراء والمشيرين الأقدم منه . أخذ والي مصر مكانه في البروتوكول الإمبراطوري بعد أعضاء العائلة المالكة ، الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، كثالث موظف دولة كبير ، واستمر ذلك حتى انفصال مصر عن الإمبراطورية في نهاية عام 1914 .

جاء محمد علي باشا ، في 19 تموز 1846 إلى إستانبول وقَبَّل قدم السلطان عبد المجيد

الذي يصغره بـ 54 عاما . كانت سنه آنذاك 77 عاما (عمر البادشاه 23 عاما) . ظل في إستانبول 29 يوما . وحتى في هذا العمر ، أجرى اتصالاته ليكون صدرا أعظم . تدل محاولاته هذه على طبيعة الانتقام ، فقد كان يريد الصدارة لينتقم من أكبر عدو له في الحياة وهو رشيد باشا . زيارة محمد علي هذه لإستانبول هي الأولى والأخيرة طيلة حياته . أما ابنه الكبير إبراهيم باشا ، فكان قد بقي في إستانبول مدة سنة واحدة في شبابه . زار محمد علي بعد عودته من إستانبول مدينة قلوالا التي غادرها قبل 47 عاما . أكرمه البادشاه بضم إدارة جزيرة تاشوز Tasoz المقابلة للمدينة لولاية مصر .

بعد أن انتهى أكبر عصيان وقع في التاريخ العثماني ، كان من الطبيعي أن يعود رشيد باشا إلى موضوع روسيا بعد حله قضية مصر . وقعت معاهدة المضايق (1841/7/13) . وقع على هذه المعاهدة كل من تركيا وإنكلترا فرنسا روسيا والنمسا وبروسيا . وابطلت بشكل كامل اتفاقية رصيف هنكار . تنص المعاهدة على أنه لا يجوز لأي دولة عدا تركية وروسيا اللتين تملكان سواحل في البحر الأسود ، إبقاء أي سفينة حربية في هذا البحر ، ولا يجوز مرور أي سفينة حربية من المضايق إلى بحر مرمره . وعلى هذا ، يكون أسطول البحر الأسود الروسي محجورا في هذا البحر ، وفي الوقت الذي تجبر فيه روسيا على أن تجعل لها في البحر الأسود أسطولا منفصلا ، تكون تركية حرة في سوْق أسطولها إلى البحر الذي تريده . ومن الطبيعي أن العثمانية هي التي ستعيّن السفن التي يمكنها المرور من المضايق في حالة الحرب .

لم يتمكن محمد علي من مجابهة الضربة التي أصابته من رشيد باشا بسبب تأخره الكبير في حسابها . وفي أحد الأيام ، قال محمد علي لسفير روسيا في مصر عن رشيد باشا « سيلعب هذا الشخص لعبة مدهشة على القيصر Nikolay الذي أزعج سيده السلطان محمود ، كما حكم علي بالحجر في مصر » ابتسم القنصل الذي استبعد هذا الاحتمال . ولكن رشيد باشا سيلعب على القيصر كذلك في حرب القرم ، سينتحر القيصر بخروجه في شدة مرضه لتفتيش جيشه في البرد الشديد هربا من التوقيع على معاهدة باريس التي تعتبر فاجعة له .

بدأت الملكية الفرنسية التي تلقّت ضربة شديدة في القضية المصرية بالتسلط على

لبنان . كانت تعتبر العرب الكاثوليك، المارونيين الموجودين فيه ، ذكرى دور الصليبيين لحكم الفرنسيين في لبنان ، وتعتبر نفسها وارثة لسواحل سورية . اشتد في 1843 صدام المارونيين والدروز في جبل لبنان . حاول الباب العالي في ايلول 1845 اتخاذ بعض التدابير لمنع تحركات الفرنسيين ؛ أسس في جبال لبنان قضاءين مستقلين ذاتيا أحدهما للدروز ، والآخر للمارونيين . وربط القضاءات بالوالي المستقر في صيدا .

10 – الوضع العام في أواسط العصر 19 :

عزل رءوف بك عن صدارته الرابعة (1846/9/28) . ووجد السلطان عبد المجيد أخيرا في نفسه الشجاعة لتعيين زعيم التنظيمات مصطفى رشيد باشا البالغ عمره 46,5 عام . زاد تعيين عالي أفندي (31,5 سنة) ، أقرب الأشخاص لرشيد باشا لتولي وزارة الخارجية ، رد الفعل لدى المحافظين . لم يتمكن رشيد باشا من الصمود تجاه رد الفعل هذا سوى سنة و 7 أشهر . صار إبراهيم صارم باشا وهو من العاملين بالسلك الدبلوماسي كذلك ومن مؤيدي التنظيمات المعتدلين ، صدرا أعظم لمدة 3 أشهر و 14 يوما (1848/4/28 – 1848/8/12) . كان في الـ 46 من عمره . جيء برشيد باشا ، الذي كان وزيرا للدولة في تلك الوزارة ، إلى الصدارة للمرة الثانية . كان رشيد باشا ، قد شكل في صدارته الأولى وزارة المعارف العامة وربط كل المدارس بها ، وبقيت المدارس الدينية تحت إدارة شيخ الإسلام ، والعسكرية تحت إدارة السر عسكر ، واستمرت على هذا الشكل حتى نهاية الإمبراطورية .

صادفت ثورة 1848 الأوروبية الكبرى أيام صدارتي رشيد باشا . بدأت الثورة في فرنسا . تقوضت الملكية البرلمانية وأعلنت الجمهورية الثانية . صار الأمير نابليون ابن أخي نابليون الكبير رئيسا للجمهورية (سيكون أول إمبراطور في نظام الإمبراطورية الثاني لفرنسا بلقب نابليون الثالث عام 1851) . سقط الأمير مترنيخ Metternieh رئيس وزراء الاتحاد النمساوي الذي سيطر على الدبلوماسية الأوروبية طيلة نصف قرن ، وهكذا سقط نظام مترنيخ . فقد الإمبراطور فرديناند عرشه وجلس على العرش Franz Joseph الإرشيدوق الشاب البالغ عمره 18 عامًا الذي سيظل على العرش حتى 1916 . حاولت الدولتان الألمانية والإيطالية الاتحاد ، ولم تتمكنا من تكوين ألمانيا وإيطاليا

متحدة . كان الأمير بسمارك يتزعم الوحدة الألمانية ، ورئيس ساردونية Piemonte الكونت Cavour يتزعم الوحدة الإيطالية .

امتدت الثورة إلى الإمارتين الرومانيّتين اللتين تسميهما تركيا « مملكتين » . خلع الشعب الأميرين . دخل الجيش التركي رومانيا واحتل إبرائيل (1848/8/2) . جاء كيجه جي – زاده فؤاد أفندي إلى بوخارست كمفتش فوق العادة واتخذت تدابير شديدة . وعندما احتل جيش عثماني يتألف من 35 000 جندي روماني ، احتلت روسيا كذلك مولدافيا بـ 35 000 . وافقت روسيا على سحب قواتها فور سحب العثمانية قواتها باتفاقية بلطه ليماني (1849/5/1) . تحاشى رشيد باشا الحرب مع روسيا في هذه المرحلة ، وكان قد وضع جميع خطط هذه الحرب في ثورة عام 1848 ، لكنه أخر الحرب ، لعدم تمكنه من اتخاذ حلفاء حتى ذلك الحين . ثار المجريون في النمسا والبولونيون في روسيا ثورة كبيرة ، كانوا يريدون الاستقلال والجمهورية . ذبح الروس عشرات الآلاف من البولونيين وأخمدوا الثورة . جاء البولونيون الذين نجوا من سيف الروس إلى المجر واتحدوا مع الجيش المجري وزعيمه Layos Kossuth . وعند انكسار الجيش النمساوي أمام المجريين ، طلب الإمبراطور مساعدة القيصر . دخل الجنرال Paskieviç الذي خاض التجربة في الحروب العثمانية ، إلى المجر مع 200 000 جندي ، وأغرق البلاد في الدم وأخمد الثورة (1849/9/12) . دخل الحدود العثمانية 1120 زعيما مجريا وبولونيًا وطلبوا من الباب العالي حق اللجوء . كانت دبلوماسية رشيد باشا ، التي عاصرت تلك الظروف قد بلغت قمتها . كان من بين جماعة الوطنيين اللاجئين جنرالات ودبلوماسيون وفنانون معروفون لدى أوروبا كلها . أبلغت روسيا والنمسا الباب العالي ، بأن يقبل حالة الحرب في حالة عدم إعادته اللاجئين . رفض وزير الخارجية عالي باشا كلا من مذكرتي فيينا وبطرسبورغ بالمذكرتين المؤرختين 17 أيلول و 22 ت[2] ونفذ أمر رشيد باشا . اللندنيون الذين خلعوا أحصنة عربة السفير ، سحبوا العربة على أكتافهم وذهبوا بها إلى السفارة العثمانية . جرت مظاهرات كبيرة موالية للعثمانية في الأوساط الحرة في لندن وباريس وأوروبا الغربية . البولونيون والمجريون المقيمون في تلك الأقطار ، كانوا السبب في إثارة هذه المظاهرات . وخلال هذا الظرف ، حاول رشيد باشا إدخال إنكلترا وفرنسا في الحرب ، لكن رئيس الجمهورية الأمير نابليون

الذي لم يكن يفكر آنذاك في شيء سوى إعداد إمبراطوريته ، لم يرغب في الحرب . بقيت إنكلترا في تردد . لم يكن رشيد باشا راغبا في أن يبقى وحيدا تجاه روسيا . أرسل كيجه جي – زاده فؤآد أفندي إلى القيصر برتبة (أولى) ، رجله رقم 2 الدبلوماسي العظيم البالغ عمره 34 عاما . أجرى فؤاد أفندي مع القيصر مقابلة طويلة ، وعلى انفراد خلافا للعادة (1849/10/4) . أقنع القيصر بعدم نشوب حرب . كانت أوروبا متأكدة من نشوب حرب روسية – عثمانية جديدة . عمت شهرة فؤاد أفندي في كل أنحاء أوروبا كدبلوماسي ناجح . فؤاد أفندي الذي بقي في روسيا مدة 3 أشهر بناء على رجاء القيصر ، منح عند عودته إلى إستانبول رتبة « أولى » ووسام الامتياز . ذهب فورا مع جودت أفندي (باشا) كمفتش فوق العادة إلى مصر . ظل في مصر 4 أشهر ، فتش خلالها كيفية تطبيق أسس التنظيمات في مصر .

دامت صدارة رشيد باشا الثانية 3 سنوات و 5 أشهر و 15 يومًا . وظّف مؤيدي التنظيمات في السلطة خلال هذه الفترة . ضعف المحافظون ، وقل جدا معارضو التنظيمات . أثبت رشيد باشا عمليا ، أن حركة التجدد والتنظيمات مفيدة للدولة . السلطان عبد المجيد الذي كان يخشى — حتى ذلك الحين — من أن يؤدي تنافس الحزبين إلى عراك شديد ، أخذ بمساندة رجال التنظيمات بمزيد من الجرأة .

صار رعوف باشا ، صدرًا أعظم للمرة الخامسة والأخيرة (1852/1/26) ، لكنه توفى بعد شهر و 9 أيام (1852/3/5) . كان في الـ 80 من عمره . مجموع صداراته الـ 5 هو : 14 سنة و 9 أشهر و 25 يوما . وهذه هي المدة السابعة من حيث الطول بين رؤساء وزراء تركية . اعتلى السلطة مرتين في عهد السلطان محمود و 3 مرات في عهد السلطان عبد المجيد . أصبح رشيد باشا صدرا أعظم للمرة الثالثة بعد فترة 39 يوما . استقال بعد 5 أشهر لعدم انسجامه مع داماد أحمد فتحي باشا ، من مؤيدي التنظيمات الشهيرين ومشير طوبخانة .

بدأت الصدارة الأولى لمحمد أمين عالي باشا ، شخصية التنظيمات رقم 2 البالغ عمره 37,5 عام (1852/8/4) ، لكنها دامت 59 يوما (1852/10/3) . كانت سنه تصغر رشيد باشا بـ 15 عاما ومساوية لسن فؤاد باشا . شغل في شبابه منصب سفير في

سفارات باريس ، لندن ، كان أكبر دبلوماسي بعد رشيد باشا . أصبح قبطان دريا (مشير البحر) داماد محمد علي باشا ، الضعيف الشخصية البالغة سنة 39 عاما ، صدرا أعظم .

أسّس رشيد باشا خلال فترة صدارته الثانية الأكاديمية الإمبراطورية التي كانت تسمى « أنجمن دانش » (1851/7/18) .

كان قد انتهى النصف الأول من العصر 19 . ارتفع تعداد العالم الذي كان يقدر بـ 955 مليون نسمة في 1825 إلى 000 000 137 1 نسمة في 1850 ، من بين هذا العدد 902 مليون نسمة لدى الدول الـ 9 العظمى ، والبقية البالغة 235 مليون نسمة كانت تتقاسمها جميع الدول الأخرى (كانت هذه النسبة عام 1825 ، 301 مليونا مقابل 654 مليونا) . ومن دول العالم العظمى لعام 1850 ، ملكية بريطانيا العظمى (إنكلترا) ازداد تعدادها خلال ربع قرن من 119 مليونا إلى 259 مليونا ، جمهورية فرنسا من 32 مليونا إلى 39 مليونا ، إمبراطورية روسيا من 48 مليونا إلى 68 مليونا ، إمبراطورية تركيا من 58 مليونا إلى 54 مليونا ، الإمبراطورية الصينية من 320 مليونا إلى 380 مليونا ، إمبراطورية النمسا من 30 مليونا إلى 39 مليونا ، ملكية بروسيا من 11 مليونا إلى 17 مليونا . الولايات المتحدة الأمريكية من 5 ملايين إلى 23 مليونا ، ملكية أسبانيا من 19 مليونا إلى 23 مليونا نسمة . 20 مليونا من سكان روسيا سرف (عبيد يعملون في الأراضي) ، و 3,2 مليونا من نفوس أمريكا ، من العبيد الزنوج . ألغى نظام العبيد في الدولة العثمانية .

منذ عصور ، ولأول مرة ، يزيد عدد سكان مدينة على عدد سكان إستانبول . لندن التي بلغت عام 1825 000 500 1 ، بلغت عام 1850 000 337 2 نسمة . وفي ربع القرن نفسه ، زاد سكان إستانبول من 000 300 1 إلى 000 400 1 وباريس من 000 000 1 إلى 000 398 1 ، ونيويورك من 000 300 إلى 000 991 ، كان قد ارتفع تعداد مانجستر ، بفضل صناعة المنسوجات من 000 280 إلى 000 569 . بكين 000 100 1 ، كانتون 000 000 1 ، تين جين 000 800 نسمة . كان سكان المدن الـ 5 الآتية يتراحون بين 400 إلى 500 ألف نسمة . بطرسبورغ 000 432 ، وبرلين 000 412 ، وفيلادلفيا 000 409 ، ونابابولي

408 000 ، فيينا 000 400 . يقدر عدد سكان المدن العثمانية الأكثر ازدحاما بعد إستانبول كما يلي : القاهرة 000 355 والشام 000 215 وأدرنة 000 200 والإسكندرية 000 184 ومكة 180 000 وبورصة 000 170 وبغداد 000 160 وحلب 000 150 وأزمير 000 150 . وكان هنالك ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية عدا هذا 8 مدن يتراوح عدد سكانها بين 100 و 150 ألفا ، و 22 مدينة تتراوح نفوسها بين 50 – 100 ألف نسمة . كان لدى الإمبراطورية البريطانية 63 مدينة تتجاوز نفوسها الـ 000 250 ، لدى العثمانية 40 ، لدى فرنسا 17 ، لدى روسيا 15 ، لدى النمسا 12 ، لدى إيران 10 ، لدى اليابان 10 ، لدى أسبانيا 11 ، لدى الولايات المتحدة 6 ، لدى الصين 33 ، لدى بروسيا 7 ، لدى هولندا 5 . وفي 1825 كان هنالك 227 مدينة في العالم يتجاوز عدد سكانها الـ 000 50 ، ارتفع عددها في 1850 إلى 291 ألفا ، أما المدن التي تتجاوز الـ 000 100 فارتفع عددها من 000 106 إلى 000 115 .

كانت بقية الدول الأخرى ترى أنه من ضروب الخيال أن يتم لها سبق إنكلترا في كل المجالات الرئيسية الأخرى عدا الجيش البري . كانت فرنسا التي جربت الجمهورية للمرة الثانية ولمدة 3 سنوات فقط ، تملك أقوى جيش وثاني أسطول في العالم ، وكانت الدولة الثانية التي تملك الصناعات الحديثة بعد إنكلترا . كانت فرنسا تحاول تقليد إنكلترا في الرأسمالية والاستعمار . إنكلترا ، التي استعمرت الهند ، أصبحت تملك مستعمرات كبيرة في القارات الـ 6 . روسيا كانت تملك الجيش البري القوي الثاني في العالم بعد فرنسا . كان لديها ثلاثة أساطيل مستقلة غير مرتبطة بعضها ببعض ، في البلطيق . البحر الأسود ، المحيط الهادي ، لا يمكن ارتباطها بعضها ببعض .

تضعضعت مكانة النمسا بعد سقوط الأمير مترنيخ ، كان لديها ساحل في الأدرياتيك فقط .

كانت بروسيا تملك جيشا عظيما ، ولم يكن لديها أسطول .

الولايات الأمريكية المتحدة كانت تزدهر في الصناعات الكبرى ، ولم تكن قواتها العسكرية والبحرية ذات أهمية بالنسبة للأوروبيين .

الصين كانت مغلقة على نفسها ولا تزال تحافظ على عظمتها .

أسبانيا كانت قد فقدت مستعمراتها الأمريكية العظيمة وفي حالة سيئة .

تكبدت العثمانية خلال ربع القرن هذا خسائر مهمة ؛ مثل الجزائر ، مورا ، آتيكا ، جزر كيكلاد ، آغري بوز ، دلتا الطونة ، ساحل البحر الأسود . لكنها تمكنت من تأسيس جيشها وأسطولها الحديث بفضل حركة التجديد والتنظيمات ، فتحت مدارسها الحديثة . كان جيشها البري ، الجيش الثالث بعد فرنسا وروسيا ، وأسطولها ، الرابع في العالم بعد إنكلترا ، فرنسا ، روسيا .

11 – حرب قرم (1853 – 1856)

كان القيصر نيقولاي الأول المتعصب جدا ، يتابع بقلق تدارك العثمانية لما فاتها وإنقاذها نفسها من التشتت بحركة التجديد والتنظيمات ، هذا عدا نموها وتطورها . حيث تكون تركيا قوية فإن ذلك يعني بالنسبة لروسيا قيام سد لا يمكن اجتيازه أمام تحقيق هدفها في الهبوط إلى البحار الدافئة . إن هذا الهدف الذي وضح في وصية القيصر بطرس الكبير ، لا يمكن تحقيقه مادامت تركيا قويّة . إن نيقولاي ، الذي كان يحسد شخصية محمود الثاني ومناداته في أوروبا بلقب « الكبير » سلّط عليه الآن رشيد باشا . لم يكن نيقولاي يبالي بالسلطان مجيد ، فقد كان يعتبره طفلا ، كما كان يعلم أن السلطان مجيد كان سلطانا فقط ، لا يعنى بشئون الحكم .

كان مما يزيد من غضب القيصر تمكن رشيد باشا من حل كل المشاكل الخارجية ، الواحدة تلو الأخرى ، وتمكنه من كسب إنكلترا إلى صفه بكل الوسائل ، واتباعه تجاه فرنسا سياسة مذهلة بالاتفاق معها تارة والاختلاف تارة أخرى ، ثم خرج تجاهه إلى الحلبة عالي باشا وفؤاد باشا . شخّص القيصر سياستهما على أنها سياسة شيطانية ومضرة على الإطلاق بمصالح روسيا . كان تشخيصه هذا متأخرا إلى حد ما . كان يفكر بعصبية متزايدة على مر الزمن في كيفية تمكن رشيد باشا من إذلال روسيا في أوروبا الغربية في 1849 ، بعد إذلاله شرف روسيا في أوروبا الوسطى كذلك ، وإرساله له شخصية رقم 2 فؤاد أفندي (باشا) واستطاعة فؤاد أفندي التغرير به . كان القيصر قد أشرف على نهاية سلطنته ، وكان عازما بشكل أكيد على اختتام سلطنته بتأديب العثمانية . كـان قـد تأخـر في كشف نوايا رشيد باشا . لم يتمكن بعـد من تعـليل محاولة

رشيد باشا بدقة متناهية إغضاب روسيا وإخراجها من طورها المعتدل .

لم يكن بالإمكان ابتلاع العثمانية دون إبعاد إنكلترا أولا . ولغرض تنحية إنكلترا ، فإن الأمر يقتضي إعطاء حصة لها .

استعمل تعبير « الرجل المريض » ، الذي اشتهر فيما بعد ، لأول مرة عند مكالمته للسفير الإنكليزي في بطرسبورغ ، مشيرا عليه باقتسام تركيا أو تشذيب أطرافها على أقل تقدير . أعلمت إنكلترا الباب العالي بتلك النوايا السرية للقيصر ، ولم تعلم روسيا بانتقال هذا الخبر إلى العثمانية . أخذ القيصر الذي ظن أنه اصطاد إنكلترا بوضع الطعم لها ، في التضييق على الباب العالي والانتقاص من كرامته ، محرضا على إعلان الحرب ، معتقدا أنه سيواجه العثمانية منفردة . كان رجلا أرثوذكسيا متعصبا ، لا يستوعب إمكان وقوف دولة مسيحية جانب دولة مسلمة في حرب مسلحة ضد دولة مسيحية (أي روسيا) . وعلى كل الأحوال كان يتصور أنه يمكن أن تكتفي إنكلترا بالتدخل بالطرق الدبلوماسية ، وإعطائها حصة من التركة مقابل ذلك . كان هذا هو تفكير القيصر .

دبلوماسية نابليون الثالث كانت تراقب الوضع بقلق ، ولم تكن فرنسا تخفي نفورها من رشيد باشا الذي يعرض دائما عن فرنسا ويتركها في إحدى الزوايا ويتفق مع إنكلترا ، وقد أعلنت فرنسا عن ذلك بصراحة . كان رشيد باشا يعلم نفور فرنسا منه ، لذلك فقد حرص على تقريب عالي باشا كشخص رقم 1 إلى فرنسا (لم تكن فرنسا مدركة لهذا التخطيط) . بالإضافة إلى ما تقدم كانت فرنسا تعتبر إنكلترا أكبر منافسة لها في السياسة العالمية والاستعمار ، ولم تكن لها مصلحة مع روسيا كما لم يكن لها عداء خاص تجاهها . وإلى جانب ذلك فإن نابليون الثالث لم ينس المعاملة التي عاملت بها إنكلترا عمه نابليون الكبير .

لم تكن باريس متأكدة على وجه اليقين مما إذا كانت إنكلترا سوف تدخل فعلا في حرب عثمانية – روسية ، أم لا ؛ فالسياسة الخارجية الإنكليزية كانت متشعبة ، لكنها كانت موقنة من عدم سماح إنكلترا لروسيا بأن تهبط إلى البحر الأبيض . كانت فرنسا متأكدة من أن إنكلترا ستساند العثمانية على أي حال من الأحوال . وكانت فرنسا تقدر أنه لو دخلت إنكلترا الحرب فعلا ضد روسيا فإن الأمر يستلزم أن تدخل فرنسا

كذلك في هذه الحرب ، وإلا فستكون إنكلترا وحدها هي الحاكمة على نظام وتوازن الدول الكبرى الذي يعقب الحرب .

كان من المؤكد أن إنكلترا – تركيا المتفقة ، ستخضع روسيا ومن ثم ستبقى فرنسا مهملة بشكل أكبر ، وسوف لا تكون لها كلمة في السياسة العالمية ، ومن الطبيعي أن تخضع روسيا فورا تجاه اتفاق إنكلترا – فرنسا – تركيا ، أي أنه لن تكون الحرب طويلة الأمد ... هكذا فكرت باريس ، وانطلت حيلة رشيد باشا عليها . لم تقدر أبدا مدى جدية وضخامة الحرب التي أقدمت عليها .

أرسل القيصر الأمير Menčikof إلى إستانبول كسفير فوق العادة (1853/2/28) . قدم الأمير الذي يشغل مناصب والي فنلندا العام ، ووزير البحرية وأميرال كبير ، للباب العالي مذكرة إخطارية لمدة 5 أيام . طلب فيها تنحية الرهبان الكاثوليك ، وأن يكون الرهبان الأرثوذكس هم أصحاب الكلمة في الأماكن المسيحية المقدسة في القدس . أجاب الباب العالي في نهاية الـ 5 أيام (10 آيار) بأن الدولة العثمانية قد نظمت حقوق الأرثوذكسيين بفرماني فاتح والقانوني ، وأنه لا يمكن تغييرهما ، وأن هذه الحقوق تطبق بشكل كامل ، وأن البطريق الأرثوذكسي العالمي بالذات من التبعة العثمانية ، وأن البادشاه هو حامي المذهب الأرثوذكسي . كان هذا الجواب يعني رفض المذكرة ، ويعنى بالتالي قبول الحرب . استصحب الأمير منجيكوف في 21 آذار جميع العاملين بالسفارة الروسية في إستانبول – وهم كثير – وترك تركية . انقطعت العلاقة الدبلوماسية بين البلدين .

انتهت في 13 آيار (1853) صدارة داماد إبراهيم باشا التي استمرت 7 أشهر 11 يوما . وصار ، مصطفى نائلي باشا الذي هو أصلا عرنووط (ألباني) والذي يسمى « كريتلي » لشغله منصب والي كريت لمدة 20 عاما ؛ صدرا أعظم . كان رشيد باشا وزيرا للخارجية والصدر الأعظم المسن ، كان تحت وصايته .

بدأت الحرب بشكل فعلي بدخول 000 35 جندي روسي و 72 مدفعا إلى الإيالة العثمانية رومانيا (1853/7/3) . كان القائد العام لروسيا الأمير Gorçakof . أبلغت روسيا الدول الأوروبية بأنها لم تدخل حربا شاملة ، وأنها احتلت رومانيا لحين اعتراف

الباب العالي بحقوق الأرثوذكس في كنيسة قمامة Kamame في القدس ، وأنها سوف تنسحب فور هذا الاعتراف . يلاحظ أن هذه المذكرة تتعارض مع العرض الذي قدمه القيصر إلى إنكلترا في اقتسام الدولة العثمانية .

خلال هذه الفترة قامت كل من الدولتين المتخاصمتين بإعداد حشود على طول ألطونة في القفقاس . كان في جبهة الطونة (الدانوب) تجاه جيش الأمير غورجاكوف البالغ 000 152 جندي ، 000 133 جندي من جنود السردار الأكرم (القائد الأعلى) المشير عمر باشا ، الذي كان جيشه مجهزا - بالقياس إلى الجيش الروسي - بأسلحة أكثر حداثة ، هذا عدا أن لباسه كان أحسن .

وفي قفقاسيا كان جيش المشير عبد الكريم نادر (عبدي) باشا البالغ 000 150 جندي تجاه جيش Muraviev البالغ 000 160 جندي ، وهؤلاء من الجنود الذين دربوا تدريبا حديثا وإن لم يكونوا قد سلحوا بالدرجة التي سلح بها الجيس التركي في ألطونة .

بدأت الحرب في جبهة ألطونة بقصف المدفعية التركية (1853/10/23) . اجتاز عمر باشا في 27 ت1 منحنى نهر ألطونة في Vidin ودخل رومانيا ، واحتل Kalafat . أدخل إلى رومانيا فرقتين الأولى من Tutrakan والأخرى من يركوي Yerkoy . انهزم الجيش الروسي في الحرب الميدانية Dljeniça الدائرة على الضفة المقابلة لـ Tutrakan (1853/11/5) . أما في القفقاس فلم يتمكن عبد الكريم نادر باشا من التقدم ، رغم مساندة الشيخ شامل له من قفقاسيا الشمالية . عين بدلا منه لقيادة الجبهة رئيس أركان الجيش أحمد باشا .

قام أسطول البحر الأسود بقيادة ناخيموف بهجوم مفاجئ على 12 قطعة من قطعات الأسطول التركي الراسية في سينوب (1853/11/30) . أفنى الأسطول كاملا . استشهد 000 2 جندي عثماني تقريبا وتمكن 000 2 تقريبا من النجاة من الموت سباحة . يقال إن إرسال رشيد باشا أسطولا مكونا جميعه من مراكب بحرية قديمة كهذا إلى سينوب كان متعمدًا ؛ حيث إنه أراد بذلك أن يقضي على تردد إنكلترا وفرنسا في دخولهما الحرب تجاه روسيا ، ويلقي في روع لندن وباريس بأن المضايق قد فتحت للأسطول الروسي . ولقد نشرت بالفعل بعد غارة سينوب في صحف لندن وباريس مقالات شديدة حول الخطر الروسي .

على أثر انهزام الجيش الروسي في الحرب الميدانية جاتانا **çatana** قرب قالافات (1854/1/15) وعدم تمكنهم من دفع الجيش العثماني من رومانيا إلى ما وراء ألطونة ، رغم هجومهم الذي دام 5 أيام وانسحابهم بشكل مبعثر إلى بخارست ، عزل القيصر الأمير غورجاكوف . وعين الماريشال **Paskieviç** قائدا عاما .

راجع رشيد باشا امبراطور فرنسا ، وطلب إليه التوسط لدى روسيا للصلح . نابليون الثالث الذي انطلت عليه هذه الخدعة ، قدم مذكرة إلى بطرسبورغ لوقف الحرب ، وأفاد بأنه سوف يتوسط في تحقيق الصلح .

القيصر الذي لم يرض بوقف الحرب في وضع تتفوق فيه العثمانية ، أذاع بلاغا شديد اللهجة أعلن فيه أن الفرنسيين والإنجليز قد خانوا الدين المسيحي بانحيازهم للأتراك المسلمين ، يدخل ذلك في باب قصر النظر . قال القيصر : « أشعر أن يد السلطان علي خدّي » .

عرض نابليون على إنكلترا الاتفاق ضد القيصر قائلا « أشعر أن يد القيصر على خدي » . كانت لندن عازمة بشكل قطعي على مساندة العثمانية ، وكانت قلقة من احتمال اتفاق فرنسا مع روسيا . قبلت عرض فرنسا بحماس . كان القيصر قد خسر الحرب منذ البداية بالطرق الدبلوماسية ، وكان هذا هو المهم . انتصار عمر باشا في رومانيا في حروب ميدانية كان في الدرجة الثانية . غادر كل من سفيري إنكلترا وفرنسا بطرسبورغ (1854/2/6) . أثبت رشيد باشا أنه أكبر دبلوماسي في العالم بشكل لا يقبل الجدل .

أثبتت معاهدة إستانبول (1854/3/12) موافقة ملكة إنكلترا فكتوريا وإمبراطور فرنسا نابليون 3 ، على دعوة السلطان عبد المجيد لاتفاقهما مع الدولة العثمانية . وقع على المعاهدة رشيد باشا عن تركية ، تتضمن المعاهدة ألا تعقد أي من دول الاتفاق الثلاث صلحا منفردا مع روسيا . يكون لجيش الاتفاق قائد عام واحد ، يتفاهم قواد دول الاتفاق الثلاث في حربهم تجاه روسيا . تكون الوحدات الإنكليزية والفرنسية والسفن الحربية التي ستأتي إلى إستانبول خاضعة للقوانين العثمانية .

وفي هذه الظروف العصيبة ظنت اليونان الصغيرة بأن العثمانية تورطت مع روسيا

وأن إنكلترا وفرنسا ستستمران في سياسة المساندة لها ، وأرادت الحصول على مقاطعة Epir (Yanya) من العثمانية . أخرج الباب العالي سفير الأورطة اليوناني من تركيا ووضع يده على كل السفن والأموال اليونانية في الأقطار العثمانية . جاء فؤاد باشا إلى Epir و Tesalya وشاهد الوضع . لم يكن بالإمكان أن تساند إنكلترا وفرنسا ، اليونان ، في ظرف وقعتا فيه معاهدة جنبا لجنب مع العثمانية . نزلت في 5 آيار ، فرقة فرنسية إلى Pire واحتلت أثينا مدة 3 سنين . سقطت الحكومة اليونانية الموالية لروسيا .

أعلنت كل من إنكلترا وفرنسا الحرب على روسيا بصورة رسمية في 27 آذار (1854) احتل الروس Dobruca . انتصر عمر باشا في 17 نيسان في الحرب الميدانية قالافات ، وطارد الروس مسافة 80 كم إلى حد Karayova . جاءت القوات الأولى للاتفاق إلى غاليبولي في 31 آذار . كان قائد القوات الفرنسية ، وزير الحربية الماريشال Leroy والماريشال Sainf – Arnaud ، وقائد الإنكليز الماريشال لورد Reglan . ذهب أسطول الحلفاء إلى أوديسا واستولى على 13 سفينة وقصفت المدينة بالمدفعية (1854/4/22) .

بدأ الروس بمحاصرة سلسترة ، القلعة التركية المهمة في Dobruca الجنوبية (1854/5/15) . خلال هذه الأيام ، نصبت إحدى أولى الشبكات اللاسلكية في العالم في تركية وهي خط إستانبول – فارنا – بالقلاوا (قرم) . وصلت أخبار الحرب الجارية في قرم خلال ثوان إلى إستانبول . توجه الماريشال القائد العام إلى سلسترة مع 130 مدفعًا . كان الفريق موسى باشا ، يدافع عن القلعة بواسطة 10 000 جندي . جرح Paskieviç بجرح بليغ في 9 حزيران وعاد إلى روسيا . أصبح الأمير غورجاكوف قائدا عاما للمرة الثانية . جرح هو الآخر في 13 حزيران . مات العميد Shildev وجرح العميد Luders بجرح بالغ إلى درجة قاتلة . رفع الجيش الروسي الحصار الذي دام 41 يوما بعد خسارته 15 000 قتيل و 25 000 جريح (1854/6/25) . مات 9 جنرالات روس ، وجرح جنرالان وماريشالان بجراحات بليغة . منح البادشاه رتبة مشير (ماريشال) إلى موسى باشا ، بعد رفع الحصار بـ 3 أيام . وفي اليوم التالي ، استشهد

موسى باشا بطلقة مدفعية . وفي اليوم الذي يليه شاهد رئيس أركان الجيش رفعت باشا انسحاب الروس مهزومين . (أكسبت مسرحية Vafan Yahud Silistre هذا النصر خلودا وسجلته في القلوب بشكل لا يمحى) . أخلى الروس الأفلاق (رومانيا) وانسحبوا إلى بغدان (مولدافيا) أمام جيش عمر باشا الفتي .

صار قبرصلي محمد باشا صدرا أعظم ، بدلا من مصطفى نائلي باشا الذي دامت صدارته سنة و 17 يوما (1854/5/29) . من كبار رجال التنظيمات الذين أكملوا تحصيلهم في فرنسا .

هزم عمر باشا الروس في 8 تموز ، في الحرب الميدانية يركوي Yerkoy . خسر الروس 6 000 قتيل ، اثنان منهم برتبة جنرال . استرجع عمر باشا أفلاق ، وجاءت الأساطيل التركية . قرر الحلفاء تحقيق عملية إنزال على قرم (1854/7/21) . دخل الجيش العثماني إلى بخارست وسط تصفيق الرومانيين الذين ضاقوا بالظلم الألماني (1854/8/6) .

نزل إلى قرم أولا 24 000 جندي فرنسي و 22 000 جندي إنكليزي و 7 000 جندي عثماني (1854/9/14) . دعم الإنزال 15 سفينة حربية فرنسية و 10 سفن إنكليزية و 9 سفن عثمانية . كان الأمير منجيكوف يدافع عن قرم مع 40 000 جندي ، وبمرور الزمن زادت قوات الطرفين .

حشد الحلفاء قوات كبيرة بواسطة (أكثر من 50 سفينة حربية وأكثر من 300 سفينة نقل) . دخل الروس الذين انهزموا في الحرب الميدانية Alma (1854/9/20) وخسروا فيها 7 000 قتيل و 600 أسير إلى القلعة البحرية المستحكمة سيفاستوبول ، واستماتوا في الدفاع عنها . كانت قوات الروس في سيفاستوبول في نهاية ت 1 حوالى 54000 جندي و 250 مدفعا . خسر الروس كذلك المعركتين الميدانيتين Balaklava (25 ت 1) و Inkermon في 5 ت 2 . لعب العثمانيون الدور الأساسي في Inkerman وخسر الروس 11 000 قتيل و 850 أسيرا . كانت خسائر الحلفاء 4 680 شخصا . مات الأمير Mençikof متأثرا بذلك وتسلم القيادة الأمير Gorçakof . سحبت روسيا جيشها من بغدان (مولدافيا) .

استقال قبرصلي محمد باشا لعدم احتماله سيطرة وزير الخارجية بيوك رشيد باشا ، بعد 5 أشهر و 25 يوما . صار رشيد باشا صدرا أعظم للمرة الرابعة (1854/11/23) .

بعد إخراج الجيوش الروسية من جميع الأراضي العثمانية في جبهة الطونة لم يبق للسردار الأكرم (القائد الأعلى) عمر باشا ما يعمله ، جاء إلى قرم في بداية شباط وكسر الجيش الروسي في المعركة الميدانية Gozleve (1855/2/17) . بلغت قوات الحلفاء المحتشدة في قرم خلال هذه الأيام 000 202 ، منها 000 55 تركية . مات في 2 آذار نيقولاي الأول ، رجل القرون الوسطى المتعصب ، عدو العثمانية والإسلام الكبير الذي أصر على تفتيش جيشه في البرد القارص وهو في أشد حالات مرضه . أصبح ابنه الكساندر الثاني الحر الفكر ، المتعقل ، قيصرا . وقعت معاهدة اتفاق بين العثمانية وملكية ساردونيا (Piemonfe) في 15 آذار . وقع على هذه المعاهدة الصدر الأعظم رشيد باشا ووزير الخارجية عالي باشا Vifforid Emanuele الثاني ملك ساردونيا الذي استهدف تحقيق الوحدة الإيطالية تحت تاجه ، أرسل إلى قرم 000 16 جندي تحت قيادة الجنرال لامارنورا . لم تكن ساردونيا في عداد الدول الكبرى لعدم تحقق الوحدة الإيطالية بعد .

احتل عالي باشا ، مكان رشيد باشا بعد 5 أشهر و 9 أيام ، وصار صدرا أعظم للمرة الثانية (1855/5/2) . كان رشيد باشا قد استقال بسبب معارضته لفتح قناة السويس حيث كان متأكدا من أن هذه القناة سوف تفتح شهيّة فرنسا وإنكلترا للاستيلاء على مصر .

احتل الحلفاء كرج Kerç (1855/5/24) ، و Anapa (1855/5/28) . وفي الهجوم العام الكبير الذي جرى على قلعة سيفاستوبول (1855/6/7) خسر الروس أكثر من 000 20 شخص و 73 مدفعا . كانت خسائر الحلفاء قرابة 000 5 شخص . مات في الجبهة الماريشال لورد Reglan قائد القوات الإنكليزية في قرم (1855/6/28) ، وخلفه الفريق الأول Simpson ، وكان الماريشال Sainf Arnaud قائد القوات الفرنسية قد مات قبله (1854/9/29) ، وخلفه أولا ، الفريق الأول Canrobert ، ثم في (1855/5/19) الفريق الأول Pelissier .

بدأت خلال هذه الأيام (1855/6/28) الدولة العثمانية ، ولأول مرة في تاريخها كله ، الاستدانة من الخارج . اقترضت مبلغ 5 ملايين قطعة ذهبية بفائدة قدرها 5٪ من إنكلترا لتغطية نفقات الحرب . استمر الاقتراض بعد ذلك دون انقطاع ووصلت الخزانة التركية قبل مضي 20 سنة ، إلى درك الإفلاس .

في المعركة الميدانية Traktir (1855/8/16) انهزم الروس وخسروا 7 400 شخص . كان الفريق الأول الروسي Read ، بين القتلى . كان الحلفاء يقصفون سيفاستوبول بـ 800 مدفع ، استولى الماريشال الفرنسي Duc de Mac - Mahon في 1855/9/8 على خندق Malakof الذي يشكل أهم موقع استحكام لحماية القلعة ، (هذا الماريشال من الملكيين وسينتخب في 1873 رئيسا للجمهورية لفرنسا) . بلغت خسائر الروس في المعركة الميدانية Malakof 13 500 ، وبلغت خسائر الحلفاء 12 340 . سقطت سيفاستوبول في اليوم التالي . استمر الحصار 11 شهرا وكان حصارا دمويا شديدا . عين لقيادة سيفاستوبول الفريق الأول الفرنسي Bazain الذي صار بعد ذلك ماريشالا (مشيرا) . قصف القلعة 800 مدفع للحلفاء بـ 1 600 000 طلقة ، قابلها 1 100 مدفع روسي ، استولى الأسطول الإنكليزي خلال ذلك على جزر Aland ، وانقطعت علاقة مدينة العرش الروسية بطرسبورغ بالبحر . لم يبق للروس مجال للاستمرار في القتال .

حاصر الروس الذين احتلوا بيازيد (Dogubayazit) (بيازيد الشرقية) ، قارص (1855/7/15) . دافع عن المدينة المشير محمد واصف باشا بـ 15 000 جندي تجاه 40 000 من جنود Muraviyef والي قفقاسيا العام . لم تكن استحكامات قارص جيدة كما يجب . كانت الإمدادات تصل للروس باستمرار . استمر الروس في القتال رغم خسارتهم في هجومهم العام الذي جرى في 29 أيلول 7 000 قتيل وأكثر من 10 000 جريح . صعد السردار الأكرم إلى Sohumkale ، في أقصى شمال – غرب كرجستان . كانت تحركات الشيخ شامل تجاه الروس في داغستان مفيدة جدا . شتّت عمر باشا الروس في المعركة الميدانية Ingur (1855/11/6) . وبينما كان على وشك الدخول إلى Kufayis ، توجه نحو قارص . لكنه لم يتمكن من اللحاق . استسلمت المدينة بسبب الجوع (1855/11/28) ، بعد حصار استمر 4 أشهر و 15 يوما . لم يبق في القلعة ما يؤكل من الحشيش والنبات . وهكذا شهدت قارص احتلالا روسيا آخر بعد 27 سنة .

انتهت الحرب فعلا ، بسقوط قارص ، لكن روسيا لم تكن راغبة في الصلح . ايقنت بعد المذكرة التي قدمتها النمسا ، بأن دولة محاربة جديدة ستقف ضدها . ثبت بروتوكول فينا ، قواعد الصلح (1856/2/1) . وعلى هذا ، تكون حرب قرم قد استمرت مدة تتجاوز الـ 2.5 سنة . حاربت الدولة العثمانية في السنة الأولى منها ، مدة تزيد على السنة وحدها (1853/7/3 – 1854/9/14) . واتضح أن التهيؤ الحربي للجيش العثماني الحديث ، أثر محمود الثاني ، لا يقل عن التهيؤ الحربي للجيش الروسي . سيعقد الآن مؤتمر الصلح في باريس ويتبوّأ نابليون الثالث ذروة شهرته . كان قد أدخل إلى فرنسا الصناعات الكبيرة والنهضة التجارية خلال مدة قصيرة .

مدّت الإمبراطورية العثمانية التي طورت الخطوط اللاسلكية خلال مدة قصيرة ؛ أول خط لاسلكي في 9 أيلول 1855 . وقد احتلت مكانها في المرتبة الخامسة بعد أمريكا ، وإنكلترا ، وروسيا ، وفرنسا بمدها 95063 كم من الخطوط اللاسلكية حتى عام 1870 . شرعت تركيا في مد أول خط حديدي بين أزمير – طورغودلو . ولكن ذلك التطور الذي حدث في الخطوط اللاسلكية لم يحدث في السكك الحديدية . كان قد تم حتى 1875 ، مد 4632 كم من السكك الحديدية وبهذا تحتل العثمانية المرتبة التاسعة بين الدول العظمى . ومع ذلك ، لم يكن حتى 1875 لا في الصين ولا في اليابان أي خط حديدي (Almanaeh de Gotha - 1873 ص 869) .

12 – المرسوم الهمايوني لإصلاحات عام 1272 هجري (1856/2/18)

انتهت حرب قرم ، أكبر حرب على وجه الأرض جرت بين حروب نابليون وحرب بروسيا – فرنسا (1815 – 1870) . نشر السلطان عبد المجيد ، بعد فرمان (أمر سلطاني) التنظيمات بـ 16 سنة و 3 أشهر و 15 يومًا فرمانًا على نفس الدرجة من الأهمية اشتهر باسم « إصلاحات خط همايوني » (ومختصرا 1272 خطي ، أي أمر 1272) .

هذا الفرمان هو من صنع عالي باشا ، وقد نشر بقصد كسب الرأي العام الأوروبي ، والخروج بربح من معاهدة باريس ، وإكساب العثمانية طابع الدولة الأوروبية . ومع ذلك تعرض هذا الفرمان لانتقاد الكثيرين ومن بينهم رشيد باشا ، وأبدى المواطنون

المسيحيون والمسلمون كذلك عدم ارتياحهم له . وقد بقيت أحكام هذا الفرمان سارية المفعول حتى نهاية الإمبراطورية كجزء من دستور النظام الجديد .

وينص الفرمان على أنه :

– لا يجوز للبطارقة أو الأساقفة أو الرهبان جمع إعانات من جماعاتهم ، وسوف يتقاضون الرواتب كالموظفين الحكوميين (هذه المادة أغضبت جميع الرهبان) .

– يكون تشييد الكنائس الجديدة أو إنشاء أوقاف ، بإذن من الباب العالي ، كما كان في السابق ولا حاجة للإذن في إصلاح القديم منها .

– للمواطنين المسيحيين نفس حقوق المواطنين المسلمين ، وتلغى جميع الفروق الموجودة بينهم .

– تجريم استعمال تعبيرات تحقر المسيحيين (لا يجوز تسمية « الكاوور » بكلمة « كاوور » أي لا يجوز تسمية الكافر بكلمة « كافر ») ؛ إذ إن السلطان محمود قال بصورة رسمية « إنني لست خليفة للمسلمين فقط ، إنني بادشاه (سلطان) لجميع مواطني الدولة مسيحيين وموسويين » . وقد صدرت فرمانات مشابهة لهذا في زمن فاتح والقانوني . ونتيجة لذلك ، سوف يمكن قبول غير المسلمين في جميع المدارس الحكومية عدا المدارس الدينيّة ، وستكون جميع وظائف الحكومة مفتوحة لهم .

– تنظر المحاكم الكنسية ، كما كان في السابق ، الدعاوى المدنية التي تحصل بين غير المسلمين ، أما الدعاوى الجزائية فسوف ينظر فيها الحكام العثمانيون ، كما كان في السابق أيضا ، لكنه سوف يكون من الممكن أن يوجد في المحكمة حاكم أو مدع عام مسيحي .

– يجند المسيحيون الذين لم يجندوا حتى هذا التاريخ ، ومن ثم فسوف تلغى الجزية ، وللمسيحيين الذين لا يرغبون في أداء الخدمة العسكرية دفع البدل النقدي .

– يمثل المسيحيون في مجالس الولايات (الإيالات) ، السناجق (الولايات ، الألوية) ، الأقضية ، بنسبة عدد نفوسهم .

كان تعيين غير المسلم حتى عام 1856 في وظائف الدولة ، أمرًا عرضيًا واستثنائيًا .

واعتبارا من عام 1856 وحتى عام 1922 ستستخدم الدولة العثمانية موظفين غير مسلمين . سوف نجد من نالوا رتبة الوزير ، والي فعلي لإيالة ، سفير ، ناظر (وزير) ، وحتى وزير خارجية من بين الرعايا الروم ، ثم الأرمن ، ولكن قليلا جدا من الموسويين وأقل جدا من الأقوام المسيحية الأخرى (العرب المسيحيين ، الألبان المسيحيين ، الخ) من نالوا هذه الرتب . لن نشاهد أي صدر أعظم ، سر عسكر (وزير الحربية + رئيس أركان الجيش) . سيبقى قبول غير المسلمين في المدارس العسكرية حبرا على ورق ، لن نشاهد حتى نهاية الإمبراطورية ، ليس فقط جنرالا ، بل وحتى ضابطا موظفا غير مسلم . إن الجنرالات المسيحيين الموجودين في الجيش العثماني ، ليسوا غير مسلمين من المواطنين العثمانيين ، وإنما هم عسكريون خبراء جُلبوا من الدول الأوروبية لاستخدامهم بعقود لقاء أجر معين . ومن الواضح أن اسم الجزية قد بدّل وسمي بدلا نقديا .

13 – معاهدة باريس (1856/3/30)

افتتح مؤتمر باريس في 25 شباط ، ووقعت المعاهدة بعد 34 يوما . اشترك في المؤتمر كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا وتركيا والنمسا وبروسية وساردونيا لاشتراكها في الحرب ، رغم أنها ليست من الدول العظمى . مثل تركيا الصدر الأعظم عالي باشا وسفير باريس الوزير محمد جميل باشا الابن الأكبر لبيوك رشيد باشا . وممثل فرنسا الكونت Walewski وزير الخارجية ، الابن غير الشرعي المولود من Maria Walewska عشيقة نابليون الكبير الشهيرة . وممثل ساردونيا رئيس الوزراء الكونت Cavour ، وممثل إنكلترا Of Clarendon (كونت) Earl . وتنص هذه الاتفاقية الهامة التي خططت الوجهة السياسية لأوروبا العصر 19 ، مع اتفاقيات فينا 1815 وفرساي 1871 وبرلين 1878 ، على ما يلي :

يخلي الروس قارص ويتم تسليمها للعثمانية ؛ ويخلي الحلفاء قرم ويعيدونها إلى روسيا . تعود قوات الحلفاء إلى أوطانها خلال أقصر مدة ممكنة . تنسحب روسيا من دلتا الطونة وتعيد بيسارابيا الجنوبية (بالتركية : بوجاق) ، مع مركزها إسماعيل إلى إمارة بغدان (مولدافيا) التابعة للعثمانية . أما جزر ييلان Yilan فتنتقل إلى العثمانية .

أهم مادة في المعاهدة هي جعل البحر الأسود منطقة محايدة وغير عسكرية . كانت هذه المادة كارثة بالنسبة إلى روسيا ، ذلك أنه لن يجوز بعد الآن أن توجد لا للروس ولا للعثمانية أي سفن حربية أو ميناء لصنع السفن العسكرية وتصليحها في البحر الأسود . تسحب روسيا سفنها العسكرية من البحر الأسود وتنقلها إلى بحر البلطق . ليس لهذا المنع ، أهمية بالنسبة للعثمانية ؛ لأنها سوف تتمكن في حالة الحرب من أن تمرر أسطولها من بحر مرمره والمضيق إلى البحر الأسود خلال ساعات . أما روسيا ، فلأنها لن تتمكن بأي حال من الأحوال من وضع سفن حربية أو إدخالها إلى البحر الأسود ، فهذا يعني أن البحر الأسود قد ترك فعلا إلى السيطرة البحرية العثمانية . وقد وضعت هذه المادة المتشددة لأن غارة سينوب أفزعت الحلفاء وجعلتهم يتحسبون لدخول الروس إلى المضايق. سوف تنوء روسيا سنوات طويلة تحت نير هذه المادة . ستقوم الدول الأربع : إمبراطوريتا تركيا والنمسا وملكيتا بافيرا ورتنبورغ التي لها سواحل على الطونة بوضع نظام المرور في نهر الطونة على أسس النظام الحر ، بواسطة لجان مشتركة . ورغم ذلك لم يستحسن رشيد باشا المعاهدة لعدم الحصول على مكاسب أكثر . أراد الاشتراك في مؤتمر باريس بنفسه وكوزير خارجية ، لكن نابليون الثالث اعترض على ذلك لحقده الشخصي تجاه رشيد باشا .

14 ـ وفاة بيوك مصطفى رشيد باشا (1958/1/7) وشخصيته

انتهت صدارة عالي باشا الثانية بعد سنة و 6 أشهر (1856/11/1) . تصدر رشيد باشا للمرة الخامسة . وبعد 7 أشهر و 7 أيام عين للصدارة مصطفى نائلي باشا للمرة الثانية (1856/8/6) . وبعد شهرين و 17 يوما (1857/10/22) صار رشيد باشا صدرا أعظم للمرة السادسة . مجموع صدارتي نائلي باشا سنة و 3 أشهر ويومان .

دامت صدارة رشيد باشا حتى وفاته مدة 7 أشهر و 16 يوما (1858/1/7) . مات وسنة لا تتجاوز الـ 57 عاما بـ 9 أشهر و 26 يومًا . مجموع صداراته الست 6 سنوات و 10 أشهر و 18 يوما (السادس والعشرون في تسلسل المدة في تاريخ تركيا) ، مجموع وزاراته الثلاث للخارجية 6 سنوات و 3 أشهر و 4 أيام (الثامن في تسلسل المدة بين وزراء الخارجية) ومن ناحية أخرى كسفير في لندن 10 أشهر و 15 يوما ، كسفير في

باريس 6 سنوات و 22 يوما . وشغل عدا ذلك وظائف عديدة . هو أعظم رئيس وزارة في التاريخ التركي بأجمعه وأحد أكابر الدبلوماسيين النادرين . بدأ عمله في إمبراطورية كبيرة أشرفت على شفا هاوية الاضمحلال . وعند وفاته ، كانت هذه الإمبراطورية مرفهة ، منتصرة وقوية . رشيد باشا كذلك ، هو المؤسس الأصلي للبيروقراطية والدبلوماسية التركية الحديثة . كانت آراء رشيد باشا تتلخص في : أنه لا يمكن إدارة إمبراطورية كهذه بالديمقراطية والمجالس كما في إنكلترا ، بسبب عدم وجود فارق بين الوطن الأم والإيالات التابعة واعتبار كل إيالة وطنا أما ، وأنه يمكن تشكيل مجالس شعبية في الإيالات ويمكن أن تكون هذه المجالس استشارية ، وإنه يحظر اشتغال البادشاه بأمور الحكومة ، لأن هذا الاشتغال سيرهق البادشاه صحيا ، وأنه يجب أن يتولى إدارة الدولة موظفو الإدارة العليا ، ويقتضي هذا بصورة حتمية التثقف بالثقافة الغربية بالإضافة إلى الثقافة الشرقية . كما كان يرى أن بقاء الإمبراطورية يتعلق بـ 4 مبادئ : الدين الإسلامي ، خاقان من بني عثمان ، إستانبول كمدينة عرش (عاصمة) ، التركية كلغة رسمية .

وكانت آراؤه في السياسة الخارجية تتلخص في محاولة انتهاج سياسة خارجية موازية على قدر الإمكان لأعظم دولة في العالم ، ومحاولة عدم مجابهتها ، وإن انتهاج مثل هذه السياسة هو العنصر الرادع لتصورات جميع الدول الأخرى ضد العثمانية .

كانت إنكلترا هي أعظم دولة في العصر ، ومن ثم فإنه يجب عدم الدوس على ذنب الأسد البريطاني ، وإن أمكن التعايش مع فرنسا بشكل جيد ، وإن لم يتسنّ ذلك فتترك السياسة الفرنسية لحالة التموج (التقارب تارة والإعراض تارة أخرى) (كانت قضية احتلال فرنسا للجزائر ، لا تزال ضمن منهاج عمل الباب العالي في هذه المرحلة) . كان من غير الممكن جعل روسيا تترك أطماعها تجاه الإمبراطورية العثمانية ، سدت تركيا هذا الطريق عليها . لذا ، كان يلزم الدخول تجاه روسيا ، من خلال توازن الدول العظمى . يجب المحافظة على حداثة الجيش والأسطول والتوسع فيهما . لا يجوز للضابط التدخل في السياسة بأي شكل من الأشكال . لم تترك إيران فكرة عدم التعاون مع العثمانية ، رغم كونها مسلمة ورغم إدارتها من قبل سلالة تركية (القاجاريون) . لم تغير إيران هذه السياسة التي ولّدت وستولّد نتائج سيئة لها . يجب الحذر من اليونان

رغم صغرها ؛ حيث إنها كانت تعامل معاملة طفل أوروبا المدلل ، ويقتضي الأمر التشدد معها في كل مناسبة . حيث إنه ، في حالة التساهل معها ، لن تتوقف طلباتها عند حد .

ومن أعمال رشيد باشا الأخرى الموفقة جدا ، عمله مع فريق (طاقم) جيد ، إيمانه بالعمل على شكل فريق ، دهاؤه في اختيار القابليات أصحاب الاستعدادات والقدرات ومساعدته شخصيا في إعدادهم وعدم تردده في توجيه أخطر الأعمال ذات المسئولية إلى أصغرهم سنا . ومن مشاهير الذين عني بإعدادهم ، عالي باشا ، وفؤاد باشا وجودت باشا وضياء باشا وأحمد وفيق باشا وصفوت باشا وشناسي . لم يتوصل أي رجل دولة عثماني منذ عهد السلطان سليمان القانوني إلى منزلة رشيد باشا بشأن إعداد الصفوف التالية ولن يصل بعده إلى يومنا هذا من يضاهيه في هذا المجال . ويمكننا القول إن فكرة الفريق الممتازة لرشيد باشا في التاريخ السياسي التركي ، قد ماتت بموته . سيفضل أصحاب السلطة الذين تلوه ، التعاون مع الشخصيات الضعيفة والأضعف على مر الزمن ، وسيعنون بدقة بعدم اختيار الشخصيات القوية للسلطة . إن هذه العقلية ، ستدمر الدولة .

لم يحقق رشيد باشا نجاحاته هذه ، التي لا يستوعبها العقل ، وسط التصفيق وهتافات التقدير . تمكن من تحقيقها في محيط مليء بالحسد ، بالمنافسة ، بوضع العراقيل ، بالانتقادات غير البناءة ، بالاتهامات وحتى بمحاولات الاغتيال . الواقع أنه كان تحت الحماية الدائمة للسلطان محمود وابنه السلطان مجيد . لكن مجرد نجاحه في جو كهذا ، يكفي للحكم على مبلغ عظم دهائه . وفي الإدارة الداخلية ، أكمل أثر السلطان محمود ، وتمكن رشيد باشا من تطهير بقايا الإقطاع في الإمبراطورية مثل الأعيان وأمثالهم . أسس نظام التنظيمات المركزي جدا .

صار الصدر الأعظم بعد رشيد باشا ، أشهر تلامذته ، عالي باشا للمرة الثالثة وأصبح صديقه الحميم فؤاد باشا وزيرا للخارجية . وبعد سنة و 9 أشهر و 12 يوما صار قبرصلي محمد باشا صدرا أعظم للمرة الثالثة (1859/10/18) . وبعد شهرين و 6 أيام احتل مكانه مترجم رشدي باشا (1859/12/23) . وبعد 5 أشهر و 5 أيام جاء

إلى السلطة قبرصلي محمد باشا للمرة الثالثة (1860/5/27) . وهو الصدر الأعظم الأخير للسلطان مجيد .

وبموجب معاهدة باريس 19 آب 1859 ، تم اتحاد الإمارتين الرومانيتين (بالعثمانية : مملكتين) أفلاق وبغدان . ولأول مرة في التاريخ ، وولدت رومانيا كاملة . كانت مستمرة في تبعيتها للدولة العثمانية . وقع على المعاهدة فؤاد باشا ، أصبح Couza بك أميرا على رومانيا (1859/9/25) .

بدأت مرة ثانية بعد 15 عاما في جبال لبنان (جبل لبنان) اضطرابات أكثر شدة (1860 – 61) . وعلى أثر انحياز فرنسا لأحد الطرفين المتخاصمين ، المارونيين الكاثوليك العرب ، انحازت إنكلترا للدروز المسلمين . امتد العصيان إلى الشام كذلك ، قتل القنصلان الأمريكي والهولندي . كان في هذه الأثناء المجاهد الجزائري الكبير الأمير عبد القادر ، يسكن الشام . حال دون قتل المسلمين للمسيحيين واقتحام السفارة الفرنسية . حصل على أرفع وسام شرف Légion dHonneur من نابليون 3 . نُقل وزير الخارجية فؤاد باشا إلى سورية . أمر بإعدام 185 شخصا . انتقد بشدة إعدامه المشير أحمد باشا قائد الجيش للوجود في الشام رميا بالرصاص بسبب عدم سيطرته على الوضع . أحمد باشا ، من ضباط الأركان الأوائل . شغل منصب قيادة الحربية ، انتصر في المعركة الميدانية جاتانا Gatana أمام الروس . ساق فؤاد باشا كذلك إلى ديوان الحرب (المحكمة العسكرية) ضابطا واحدا برتبة الباي (زعيم) ، ضابطين برتبة يارباي (عقيد) ، ضابطين برتبة بكباشي (رئيس أول) وأعدموا رميا بالرصاص . حيل دون ابتلاع نابليون 3 لبنان . ظل فؤاد باشا سنة ونصف سنة في سورية . كان وضع سفير باريس أحمد وفيق أفندي الذي لا يرضى بالتعويض ، يغضب الإمبراطور الفرنسي جدا . شكل الباب العالي في جبال لبنان لواءً له استقلال ذاتي (1861/6/9) . يكون متصرف هذا اللواء البالغ 100 3 كم² مسيحيا ، وكان مركزه دير القمر . أما القسم الأكبر من لبنان ، فسوف يشكل إيالة بيروت . سيسدد اللواء المستقل سنويا 500 3 ثم 000 7 كيس من الضرائب المقطوعة إلى إستانبول . ألغي الاستقلال الذاتي لهذا اللواء بعد 53 عاما في نهاية عام 1914 .

15 ـ وفاة السلطان عبد المجيد خان الثاني (1861/6/25) وشخصيته

مات السلطان عبد المجيد وسنه تزيد على الـ 38 عاما بشهرين (1861/6/25) . دفن في فناء جامع السلطان سليم ، بجوار ضريح ياووز سلطان سليم ، واحتراما له ، دفن في قبره الذي تعمد أن يكون أقل منه ارتفاعا . دامت سلطنته مدة تقل عن 22 سنة بـ 5 أيام .

شخصيته : كان حاكما عظيما . شيد آثارا عمرانية كثيرة . كان كريما ، مسرفًا ، فارسًا ممتازا ، كان مولعا بأولاده ونسائه ، كان له اعتبار كبير في أوروبا . ذهب لأول مرة صالة الرقص . قبل السلطان مجيد من نابليون 3 في حرب قرم أعلى رتبة من وسام Legion d'Honneur ، ومن الملكة فكتوريا وسام رباط الركبة وأرسل إليهم أوسمة بالمقابلة . كان حتى ذلك الحين لا يتقبل البادشاهات الأوسمة من الحكام الأجانب .

شيوخ الإسلام في عهده مصطفى عاصم أفندي (للمرة الثالثة 1833/2/8 ـ 1846/11/20) ، عارف حكمت أفندي (حتى 1854/3/21) ، مشرب ـ زاده محمد عارف أفندي (حتى 1858/12/27) خواجه ـ زاده محمد سعد الدين أفندي (حتى 1863/11/23) .

ولد مولوده الأول في 1840/5/31 ، وولده السادس والأخير محمد وحيد الدين في 1861/2/22 . ولد له 11 ابنا و 15 ابنة ماتوا قبل بلوغهم سن الـ 3 سنوات . أولاده الآخرون مدونون أدناه . استمرت السلالة من السلطان مجيد باسم « مجيد يلر » (المجيديون) ومن أخيه السلطان عزيز باسم « عزيز يلر » (العزيزيون) إلى يومنا هذا . الأول هو الفرع الكبير ، والثاني هو الفرع الصغير . أبناؤه هم :

1 ـ السلطان مراد الخامس (1840/9/22 ـ 1904/8/29) .

2 ـ السلطان عبد الحميد الثاني (1842/9/22 ـ 1918/2/10) .

3 ـ السلطان محمد رشاد الخامس (1844/11/2 ـ 1918/7/4) .

4 ـ أحمد كمال الدين أفندي الذي توفي عندما كان ولي عهد ثانيا (1848/7/16 ـ 1905/4/26) .

5 – محمد برهان الدين أفندي الذي توفي عندما كان وليا للعهد (1843/5/23 – 1876/11/4) .

6 – محمد نور الدين أفندي الذي توفي عندما كان ولي عهد ثالثا (1852/3/31 – 1885) .

7 – سليم سليمان أفندي الذي توفي عندما كان ولي عهد ثانيا (1860/7/25 – 1909/6/16) .

8 – السلطان محمد وحيد الدين السادس (1861/2/22 – 1926/5/16) .

أولاد أبنائه الأربعة الذين لم يجلسوا على العرش : نور الدين أفندي ، تزوج مرتين ، ليس له أولاد ، وكمال الدين أفندي صار له ابنة واحدة ، وابنة أخرى له ماتت بعد عدة شهور – السلطانة منيرة (1880/11/13 – 1939/10/7) زوجها أمير اللواء داماد محمد صالح باشا (1884 – 1913) (ابن الصدر الأعظم تونسلي خير الدين باشا) (صار لهما ابن واحد) .

أولاد سليمان أفندي : محمد عبد الحليم أفندي (1894/9/28 – 1926/5/26) ، السلطانة أمينة ناجية (1896/11/28 – 1957/12/5) ، داماد محمد شرف الدين أفندي (1904/5/19 – 1966) . السلطانة ناجية زوجها داماد أنور باشا (1881 – 1922) ، ناظر الحربية ووكيل القائد العام (2 خانم – سلطانة ، 1 سلطان – زاده) ؛ السلطانة ناجية ، تزوجت بعد ذلك بالدماد محمد كامل باشا (1886 – 1962) (1 خانم – سلطانة) . ابنة شرف الدين أفندي : السلطانة مبجل بزم عالم (الولادة 1930/10/27) (1 سلطان – زاده) . أولاد عبد الحليم أفندي : السلطانة فاطمة سامرة (الولادة 1920/6/21) وجنكيز أفندي (1925/12/23 – ت1/1950) . السلطانة سامرة زوجها داماد دكتور حسين شوقي بك أفندي (من سفراء مصر) (1 خانم – سلطانه) .

أولاد برهان الدين أفندي (1849 – 1876) : السلطانة فلانة (1876 – 1890) وإبراهيم توفيق أفندي (1847/9/25 – 1931/12/31) . أولاد الشهزاده توفيق أفندي : السلطانه عارفة قدرية (1895/3/1 – 1933/4/5) زوجها داماد فناري – زاده محمد

رشيد بك أفندي (وفاته بعد 1955) (2 خانم - سلطانه) ؛ السلطانة فاطمة زهراء (1895/3/20 - 1965/5/26) زوجها داماد سلامي بك أفندي (وفاته قبل 1950) (ابن المشير كاظم باشا وابن الصدر الأعظم أسعد باشا) (1 خانم - سلطانه (أمير) ؛ السلطانة رابعه نيلوفر (1913/1/22) (تزوجت مرتين ، 1 سلطان - زاده) ؛ السلطانة عائشة فتحية (1914/5/8 - 1946) زوجها داماد رشيد بك أفندي (ابن شفيق باشا) (2 خانم - سلطانه) ؛ برهان الدين جم أفندي (1920/4/5) (ابنه : الشهزاده توفيق أفندي 1953) ؛ بيازيد أفندي (1924/11/5) ؛ السلطانة فوزية (1927/12/6) زوجها داماد محمد بك أفندي (ابن جركس محمود خيري باشا والأميرة قدرية حسين كامل) .

بنات السلطان عبد المجيد خان الأول :

1 - السلطانة فاطمة (1840/11/1 - 1884/8/26) زوجها الأول داماد وزير علي غالب باشا (1829 - 1858) (ابن الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا) (وزير خارجية ، أوقاف ، تجارة) أنجبت خانم - سلطانة واحدة توفيت وهي طفلة ؛ زوجها الثاني داماد محمد نوري باشا (1840 - 1890) ، وزير ، مشير مابين ، ووزير دوله (ابن الفريق عارف باشا) أنجبت منه 1 سلطان - زادة و 1 خانم سلطانة ماتا طفلين) .

2 - السلطانة بهية (1841/2/22 - 1847/6/3) .

3 - السلطانة رفيعة (1842/2/7 - 1880/1/4) زوجها داماد مشير محمود أدهم باشا (1836 - 1886) (ابن الا . . الأعظم داماد محمد علي باشا) أنجبت خانم - سلطانة واحدة توفيت وهي . . لة .

4 - السلطانة جميلة (1843/8/17 - 1915/2/26) زوجها داماد وزير جلال الدين باشا (1836 - 1884) (ابن الداماد أحمد فتحي باشا) (وزير التجارة ، مشير طوبخانة) أنجبت فتحية خانم - سلطانة (1859 - 1887) ، التوأمين محمد محمود جلال الدين بك أفندي (1864 - 1916) وثاقب بك أفندي 1864 - 1897 ، عائشة صديقة خانم - سلطانة (1875 - 1937) ، فاطمة خانم - سلطانة (1879 - 1890)

سلطان ـ زاده (أمير) توفي في الثانية من عمره .

5 ـ السلطانة منيرة (1844/12/9 ـ 1862/6/29) زوجها الأول داماد وزير قاوالالي إبراهيم هامي (الهامي) باشا (الولد الوحيد لوالي مصر عباس باشا) (1836 ـ 1860) ؛ زوجها الثاني داماد فريق إبراهيم باشا (1828 ـ 1880) (ابن السر عسكر مشير جهان سر عسكري رضا باشا) . أبناؤهما : السلطان ـ زاده علاء الدين بك أفندي 1861 ـ 1915) .

6 ـ السلطانة بهيجة (1848/8/26 ـ 1876/11/30) زوجها داماد خليل حميد بك أفندي (1854 ـ 1888) (حفيد ، حفيد الصدر الأعظم خليل حميد باشا) .

7 ـ السلطانة سنيحة (1851/12/5 ـ 1931/9/15) زوجها داماد وزير محمود جلال الدين آصاف باشا (1854 ـ 1903) (ابن داماد مشير خليل رفعت باشا) . أبناؤهما : محمد صباح الدين بك أفندي (1877 ـ 1947) وأحمد لطف الله بك أفندي (1880 ـ بعد 1955) .

8 ـ السلطانة مديحة (1856/7/31 ـ 1928/11/7) زوجها الأول داماد وزير أحمد نجيب باشا (1855 ـ 1885) (ابن وزير سامي باشا) أبناؤهما : عبد الرحيم سامي بك أفندي زوجها الثاني الصدر الأعظم داماد محمد فريد باشا (1854 ـ 1923) .

9 ـ السلطانة نائلة (1856/9/30 ـ 1882/1/18) زوجها داماد مشير قبة صاقال جركس محمد باشا (1846 ـ 1909) (زوجة الباشا الثانية : السلطانة أسماء ابنة السلطان عبد العزيز) .

16 ـ جلوس السلطان عبد العزيز خان (1861/6/25)

لم يكن سن السلطان عبد العزيز خان ، عند وفاة أبيه السلطان محمود الثاني ، قد بلغ تسعةأعوام ونصف العام . شغل منصب ولي عهد طيلة مدة سلطنة أخيه الكبير عبد المجيد البالغة 22 عاما . أمه السلطانة ـ الوالدة برتو ـ نيال (1812 ـ 1883/2/5) من كبيرات الخيرات . جلس عبد العزيز خان الذي يسميه الشعب « سلطان عزيز » ، على العرش وسنه تزيد على الـ 31 عاما بـ 4 أشهر و 16 يوما . يصغر أخاه الكبير بـ 6

سنوات و 9 أشهر و 23 يومًا . ملحن.، مولوي ، خطّاط ، أستاذ في العزف على الناي ، عازف على البيانو، لوطه جي ، شاعر ، رسام ، أخصائيٌ في السفن ، مصارع ؛ عسكري كامل من حيث النشأة والخلق والمعلومات . كان مثل أخيه الكبير كريما ومسرفا . لكنه لم يكن يتعاطى المشروب مثله . لم يكن مفرطا في ولعه بالنساء ، وكان يعنى بدقه بإبعادهن عن أمور الدولة . لم يتخذ له جواري عدا زوجاته . ذكي ، فعال ؛ يعشق الجيش ، الأسطول والإعمار ، شديد الثقة بنفسه . ذو سطوة ، ذو مهابة ، وقور ، وقف نفسه لإعلاء شأن الدولة . على خلاف أخيه ، لم يتعلم الموسيقى الغربية . عزل قبرصلي محمد باشا عن صدارته الثالثة بعد جلوسه بـ شهر و 11 يوما . مجموع صداراته الثلاث سنة و 10 أشهر و 11 يوما . صار عالي باشا الذي كان وزيرا للخارجية ، صدرا أعظم للمرة الرابعة (1861/8/6) . وبعد 3 أشهر و 17 يوما صار فؤاد باشا صدرا أعظم وعالي باشا وزيرا للخارجية (1861/11/22) .

استقال فؤاد باشا ، الشخصية الثالثة للتنظيمات بعد رشيد باشا وعالي باشا ، بعد سنة وشهر 10 أيام (1863/1/2) . صار يوسف كامل باشا الذي ينحدر من سلالة آق قيونلولر Akkoyunlu صدرا أعظم . احتفظ عالي باشا بوزارة الخارجية ، في هذه الوزارة ؛ أما فؤاد باشا ، فأصبح ناظرا (وزيرا) للعدل . أخمد عصيان قره داغ ، من قبل عمر باشا (آب 1862) . وعند عصيان العربيين في بلغراد ، أمر قائد القلعة عشير باشا بقصف العصاة بالمدافع (1862/6/15) . قتل قسما من شعب بلغراد . ثارت أوروبا . أخليت النقاط العسكرية العثمانية التي كانت موجودة في مدينة بلغراد التي أقرتها اتفاقية إستانبول (1862/9/8) وأعطيت خنادق القلعة إلى الصربيين . انسحب العثمانيون بشكل تام إلى داخل قلعة بلغراد . ترك العثمانيون قلعتين صغيرتين للصرب ، بقيت لدى العثمانية عدا بلغراد 3 قلاع أخرى . هاجر آخر المسلمين من الأراضي الصربية .

17 – تغيير وراثة مصر (1866/5/28) . سياحة السلطان عزيز إلى مصر (نيسان 1863) :

غادر السلطان عزيز إستانبول ، لزيارة مصر بواسطة باخرة فيض جهاد

(1863/4/3) . يرافقه أبناء أخيه الثلاثة الذين تبلغ أعمارهم 19 و 21 و 23 (أبناء السلطان مجيد) وأول 3 من ورثة العرش ، ولي العهد مراد ، شهزاده (أمير) عبد الحميد ، شهزاده محمد رشاد أفندي . اشترك في هذه السياحة الصدر الأعظم السابق ، حاليا سر عسكر (ناظر الحربية) كيجه جي - زاده دكتور بيوك محمد فؤاد باشا ، قريب السلطان عزيز قبطان دريا آتش محمد باشا ، رئيس أساتذة البادشاه خواجه سلطاني وشيخ الإسلام في المستقبل حسن فهمي أفندي . صار نائب السلطنة في إستانبول ، خلال مدة السياحة ، الصدر الأعظم يوسف كامل باشا . شغل المنصب الذي لم يتمكن قاوالالي محمد علي باشا من نيله أبدا ، صهره . سيكون ابن أحد أبناء محمد علي باشا صدرا أعظم فيما بعد .

لم تطأ قدم أي بادشاه ، أرض مصر ، منذ عهد السلطان ياوز سليم . حيث كان هنالك محاذير في ابتعاد الخاقانات العثمانية وذهابهم إلى إيالات بعيدة وتركهم العاصمة ، عدا الحملات الهمايونية . كان من الممكن الآن السياحة بسرعة بوسائط بخارية . انتهى عهد السياحة على الحصان . ولذلك احتشدت مصر كلها . جرت مراسم استقبال السلطان - خليفة ، بود عميق ، حيث كانت مصر تشاهد سلطانا ثانيا بعد مرور 345 عاما . كان والي مصر أثناء ذلك ، إسماعيل باشا حفيد محمد علي باشا وابن إبراهيم باشا .

دامت صدارة يوسف كامل باشا البالغة سنه 55 عاما ، مدة 5 أشهر . وعند العودة من سياحة مصر ، صار فؤاد باشا صدرا أعظم للمرة الثانية (1863/6/1) وظل محافظا على منصب سر عسكر . ولأنه كان متزوجا من عمة إسماعيل باشا والي مصر ، صار يوسف كامل باشا - الذي هو زوج أخته - ناظرا للعدل مرة أخرى .

كان إسماعيل باشا واليا على مصر لكونه أكبر الأفراد الذكور لسلالة قاوالالي محمد علي باشا وذلك بموجب أحكام الفرمان المؤرخ 1841/5/24 الذي قدمه السلطان مجيد إلى محمد علي باشا . كان سيخلفه أخوه مصطفى فاضل باشا . لكن إسماعيل باشا أخذ يحاول منذ سنوات عديدة حجب وراثة مصر عن أخيه وإعطاءها إلى ابنه . وقد أنفق لتحقيق هذا الغرض الملايين من النقود الذهبية على رجال الدولة في استانبول . وفي النهاية لم ير الصدر الأعظم فؤاد باشا وصديقه المقرب الذي لا يفارقه وزير الخارجية

عالي باشا ، بأسا في تغيير وراثة مصر . وطلبا إلى السلطان عزيز نشر فرمان حول نظام مصر (1863/5/28) .

ويقضي هذا الفرمان ، بانتقال ولاية مصر من الأب إلى الابن الكبير ؛ أي أن الذي سيخلف إسماعيل باشا في الولاية ، هو ابنه محمد توفيق باشا .

فقد مصطفى باشا ، أخو إسماعيل باشا ، حق الوراثة ، أو على الأصح ابتعد جدا عن هذا الحق ؛ حيث إنه يلزم لكي يأتي عليه الدور في الولاية ، ألا يكون لأخيه الكبير إسماعيل باشا أي ابن أو حفيد على قيد الحياة . والحال أن لإسماعيل باشا ، أولادًا كثيرين جدا .

كان فاضل مصطفى باشا وزيرا لمالية الدولة العثمانية . تنكر للدولة ، وانتقاما من عالي باشا وفؤاد باشا ، أخذ يدعم الجمعية السياسية غير الرسمية المعارضة لهم المسماة بني عثما نليلر (العثمانيون الجدد) الأكثر راديكالية والتي تطالب بالحكم بواسطة المجالس النيابية . فر زعيما الجمعية ضياء بك (باشا) ونامق كمال بك إلى أوروبا تاركين وظائفهما العالية في الدولة ، وبدآ المعارضة بإدخال الصحف التركية التي يصدرونها في الخارج إلى الدولة العثمانية ، بغرض التأثير على البادشاه لإسقاط ثنائي الباشوات عالي – فؤاد ، وتنصيب ضياء بك صدرًا أعظم ونامق كمال وزيرا للخارجية كان كلاهما شاعرا وأديبا يملكان حظا وافرا من الدهاء ، لكن السلطان عزيز ، رغم أنه أرسل إلى ضياء بك الموجود في جنيف ، مبلغ ألف قطعة ذهبية لم يفكر في المساس بالثنائي عالي – فؤاد .

وبناء على ذلك ، صارت مسألة الوراثة المصرية ، على أساس أن بني عثمانليلر (العثمانيون الجدد) سيستمرون في معارضتهم خارج الدولة العثمانية وذلك بحصولهم على الدعم المادي من مصطفى فاضل باشا ، وفي حالة اعتلاء ضياء بك منصب الصدر الأعظم سيعيد إلى مصطفى باشا حقه في مصر حتى ولو أدى الأمر إلى أن يعزل إسماعيل باشا ويعينه واليا على مصر !

لكن ، وخلال مدة قصيرة ، أدرك مصطفى فاضل باشا عدم إمكان نجاح هذه الخطة

وقرر التقرب إلى البادشاه وذهب وقبل قدمه معتذرا . وعندما رفع دعمه المادي عن العثمانيين الجدد ، ظهر « العثمانيون الجدد » في أوروبا باسم « جون تركلر » وأخذوا في هذه المرة يبتزون إسماعيل باشا .

وبموجب فرمان 28 أيار ، أعطيت إدارة قضاء سواكن التي هي ميناء السودان ومصوّع (أريتره) ، إلى إيالة مصر . وخوّل والي مصر حق رفع جيشه من 18 000 إلى 30 000 جندي ، وزيدت الضريبة السنوية التي تقدمها مصر إلى إستانبول ؛ من 80 000 إلى 150 000 كيس . وبفرمان (مرسوم سلطاني) آخر ، صدر بعد خمسة أيام (1866/6/2) ، تقرر أن يحمل والي مصر لقب « خديو » الذي يعادل تماما مفهوم اللقب الذي أطلقته إنكلترا ، خلال تلك الأيام ، على الولاة العامين لإنكلترا في الهند وهو « Vice - Roi = نائب الملك » .

رغب السلطان عزيز في الزواج بابنة إسماعيل باشا الكبيرة توحيدة خانم . عارض فؤاد باشا ذلك بشدة . كان يرى أن إكتساب إسماعيل باشا لقب أب زوجة السلطان سيكون سببًا في حيازته على نفوذ كبير . كانت توحيدة خانم في سن الـ 16 . تزوجت بعد سنتين بوزير منصور باشا ابن وزير أحمد باشا من فرع عائلة قلوالأليلر المسماة يكن لر Yegenler . عزل فؤاد باشا عن صدارته الثانية التي دامت 3 سنوات و 4 أيام (1866/6/5) . مجموع صدارتيه 4 سنوات وشهر و 14 يومًا (الـ 45 في التسلسل) ، مجموع مدة وزارته للخارجية لـ 5 مرات هي 7 سنوات و 11 شهر و 4 أيام (السادس في التسلسل) . شغل منصب سرعسكر (وزير حربية) 3 سنوات و 3 أشهر . صار مترجم محمد رشدي باشا ، وزير العدل ، صدرا أعظم للمرة الثانية .

ترك الباب العالي 4 قلاع موجودة داخل إمارة صربيا إلى الإمارة ، وسحب جيشه شرط أن يرفرف العلم العثماني فيها (1867/4/10) وهذه القلاع هي بلغراد ، سمنديره ، بوغورده لن ، فتك الإسلام . كانت قلعة بلغراد قد فتحت في أول حرب همايونية بقيادة السلطان سليمان القانوني قبل 345 سنة و 7 أشهر و 3 أيام . آخر قائد لقلعة بلغراد ، هو الفريق جزائرلي علي رضا باشا ـ الذي صار بعد ذلك مشيرًا ـ ألف عددا من الكتب القيمة .

كانت المشكلة الأخرى خلال هذه السنوات ، هي مشكلة كريت . كانت إنكلترا قد منحت اليونان في 1864 جزر أيونيا Iyonya (يونان) المسماة الجزر السبع التي كانت تحت حماية العثمانية حتى أوائل القرن 19 . وبهذا بلغت مساحة اليونان 51371 كم² وتعدادها 1,5 مليون نسمة . وبعد حصولها على هذه الجزر زادت أطماعها ، وأثناء حرب قرم أخذت تفكر في Epir وإن أمكن Tesalya ، ولما لم يتحقق أملها أخذت تفكر في فتح موضوع كريت . كان يعيش في الجزيرة ، الإيالة العثمانية التي تبلغ مساحتها 8379 كم² ، حتى ذلك التاريخ 240 000 نسمة . كان عدد اليونانيين قد زاد زيادة طفيفة على عدد المسلمين الذين يتكلمون اليونانية . كانت روسيا تحشد السلاح في كريت وتحرض ملك اليونان Yorgi (1863 – 1913) المتزوج بدوقة روسية . كانت فرنسا تؤيد روسيا في السياسة الخارجية واليونان في مسألة كريت ؛ ولقربها الشديد من اليونان ، حشدت في الجزيرة كمية كبيرة من الأسلحة والجنود اليونانيين وبدأ العصيان (1866/9/2) . لم يتمكن 40 000 جندي عثماني من إخماد العصيان ؛ لأنها لم تكن حربا اعتيادية ، كان العصاة يختلطون بالقرويين في حالة تطويقهم ، وعند انسحاب العثمانيين يقتحمون القرى الإسلامية ويذبحون أهاليها . أُرسِل إلى الجزيرة لمدة ستة أشهر ونصف ، الصدر الأعظم السابق المسن مصطفى نائلي باشا الذي يجيد التكلم باليونانية والذي يسمى « كريتلي » (كريتي بالنسبة إلى كريت) لشغله سابقا وظيفة والي الجزيرة مدة 30 عاما . لكنه لم يتمكن من التفاهم مع الروم الذين لا يريدون سوى الانضمام (باليونانية : Enosis) .

استقال مترجم رشدي باشا من صدارته الثانية بعد 8 أشهر و 6 أيام (1867/2/11) . صار وزير الخارجية علي نائلي باشا ، صدرا أعظم للمرة الخامسة ، وصار فؤاد باشا وزيرا للخارجية ورشدي باشا سر عسكر (وزير الحربية) .

جاء الصدر الأعظم عالي باشا بنفسه إلى كريت (1867/10/2 – 1868/2/29) وفي الوقت الذي كان عمر باشا ، على وشك إفناء العصاة ، قدمت كل من فرنسا وروسيا وبروسيا وإيطاليا مذكرة رجت فيها الباب العالي ، وقف الحركات العسكرية . لم تشترك إنكلترا والنمسا والمجر في هذه المذكرة . أصدر عالي باشا ، الذي جاء إلى خانيا ، عفوا عاما (1868/1/4) . وتلا بنفسه الفرمان الذي ينظم الإيالة مجددا في 13 شباط .

بقي في الجزيرة مدة 4 أشهر و 29 يومًا . بموجب الفرمان أصبح أحد المعاونين الاثنين لوالي الجزيرة روميًا ، ونصف المتصرفين الـ 5 و القائمقامين الـ 19 أرواما ، ويكون معاونوهم رومًا إن كانوا هم مسلمين ، ومسلمين إن كانوا هم أرواما . وافقت العثمانية على أن تكون اليونانية لغة رسمية مع اللغة التركية . عين مشير حسين عوني باشا واليا وقائدا للفيلق للإشراف على تطبيق النظام الجديد .

لما كان الغرض الحقيقي هو ضم الجزيرة إلى اليونان ، فإن هذه الامتيازات ، عدا أنها آذت الشعب المسلم ، لم يعرها الروم أي أهمية . بدأت سياسة إفناء الشعب المسلم الموجود في الجزيرة وإجباره على الهروب رغم تكلمهم اللغة اليونانية .

18 – سياحة السلطان عزيز لأوروبا (1867/6/21 – 1867/8/7) :

كانت سياحة السلطان عزيز لأوروبا التي استغرقت 46 يوما ، هي السياحة الوحيدة التي أجراها بادشاه لقطر أجنبي في التاريخ العثماني . حتى عام 1950 لم يزر أي رئيس دولة تركي أي قطر أجنبي .

زار السلطان عزيز الإمبراطور نابليون الثالث والملكة فكتوريا بصورة رسمية ، بناء على دعوة منهما . كان ضمن الوفد ولي العهد مراد أفندي البالغ عمره 27 عاما ، وولي العهد الثاني عبد الحميد أفندي البالغ عمره 25 عاما ، الابن الكبير للسلطان عزيز - يوسف عز الدين أفندي البالغ عمره 10 سنوات . عمر فهمي أفندي أستاذ السلطان الذي صار شيخا للإسلام بعد مدة قصيرة ، ووزير الخارجية كيجه جي – زاده فؤاد باشا ، ورئيس مترجمي الديوان الهمايوني صدر أعظم المستقبل عارفي بك ، وسفير فرنسا في إستانبول Bourée والمسؤولين الآخرين . كانت عدة سفن تركية مدرعة ترافق يخت الخاقان . ظل الصدر الأعظم عالي باشا في إستانبول كنائب للسلطنة .

وفي مدخل مضيق جنا قلعة ، رافق الأسطول الفرنسي الأسطول العثماني . أما الأسطول الإيطالي فشيّع الموكب من Messina إلى كورسيكا . نزل السلطان عزيز إلى اليابسة (1867/6/29) بمراسم عظيمة جدا ، بعد بربروس خير الدين باشا بـ 324 عاما . تغدى فيها وتعشى في مرسيليا التي وصلها بالقطار . استقبله نابليون الثالث في

محطة قطار ليون لباريس في الساعة 11 من صباح يوم 30 حزيران . جلس مع الإمبراطور الفرنسي في عربة مفتوحة وذهبا إلى سراي Tuileries وسط مظاهرات هائلة . تعرف هناك الخاقان - خليفة ، على الإمبراطورة Eugénie . خصص قصر Elysée لإقامته ، وهو القصر المخصص لإقامة رؤساء جمهورية فرنسا حاليا . تعرف في اليوم التالي على القيصر الكسندر الثاني للموجود في باريس . نال ولي العهد مراد أفندي الوسيم الطلعة ، الممتلئ حيوية والذي يتكلم الفرنسية بطلاقة إعجاب الجميع . شيّع نابليون الثالث السلطان عزيز في 10 تموز في محطة القطار ، بعد بقائه في باريس مدة 10 أيام . ركب السفينة في Boulogne . ترك الأسطول الفرنسي ، الوفد التركي ، في بحر المانش لمرافقة الأسطول الإنكليزي ونزل في ميناء دوفر . استقبله أدوارد الـ 7 أمير غال . التقى في لندن مع الملكة فكتوريا . خصص لإقامته سراي باكنجهام المحل الذي يقيم فيه الحكام الإنكليز حاليا ، (كانت الملكة فكتوريا تسكن سراي وندسور خارج لندن) . بقي السلطان عزيز في لندن 11 يوما ، أكل الطعام مع الملكة وذهب معها إلى المراقص ، الدعوات الرسمية ، المسارح ، المعارض ، مجلس العموم ، مصنع السفن في بورتسموث . منحه رئيس بلدية لندن براءة مواطنة فخرية من الدرجة الأولى . شاهد مع الملكة مناورات السفن الإنكليزية . ذهب إلى دار رئيس الوزراء Palmerston الذي توفي قبل سنتين ، وكان صديقا للأتراك وعدوا للروس ، وواسى عائلته . قابله الشعب بالتصفيق الشديد إلى درجة الجنون . وهنا كذلك ، ولّد ولي العهد مراد أفندي ، حوله هالة من الإعجاب الشديد وانتسب إلى الماسونية تحت إلحاح أمير غال Edward الأستاذ الأعظم لمقصورة أسكتلندا الذي يعتبر كبير ماسونيي العالم . تأسست في إستانبول مقصورة مراد . ورغم التفكير في تزويج مراد أفندي بابنة الملكة فكتوريا الرابعة البالغ عمرها 19 عاما ؛ فإن السلطان ع[illegible] عارض ذلك .

ودّع السلطان عزيز في 23 تموز [illegible] فكتوريا الجالسة على العرش منذ 30 عاما والبالغ سنها 48 عاما . شيّعه الأسطول الإنكليزي من دوفر إلى كاله . وركب القطار منها ووصل في اليوم التالي إلى بروكسل عاصمة البلجيك . تغدى مع الملك ليوبولد الثاني وتحرك في نفس اليوم . زيارته لبلجيكا ، غير رسمية . جاء في اليوم التالي (25 تموز) إلى Koblenz على نهر الراين بالقطار . كانت تلك الأراضي بروسية . استقبله في كوبلنز ملك بروسيا ولهلم الأول والملكة .

دعي السلطان عزيز ، خلال وجوده في باريس إلى برلين من قبل سفير بروسيا في باريس باسم مليكه . اعتذر له البادشاه وأخبره بأن منهاجه قد استوجب القطيعة ، عند ذلك حضر ملك وملكة بروسيا إلى كوبلنز التي تبعد عن برلين 460 كم بترتيب من لأمير بسمارك Bismarek ، وتقابلا مع السلطان عزيز . تثير هذه الزيارة الانتباه من حيث الإشارة إلى هيبة واعتبار العثمانية في ذلك العصر ، ذلك أن دبلوماسية الأمير بسمارك لم تكن لتأخذ بعين الارتياح اعتذار السلطان عزيز عن مقابلة حاكم بروسيا في الوقت الذي قابل فيه السلطان حكام إنكلترا وفرنسا والنمسا ، كما قابل القيصر في باريس ، وبخاصة أن بسمارك يعلم ، أن ولهلم الأول هذا سيكون إمبراطورا لألمانيا ، عند تحقق الوحدة الألمانية بعد 3 سنوات ، وكان بسمارك يستعد لذلك . ولما كان كل من نابيون الثالث والملكة فكتوريا قد أطلعا السلطان على الجيش والبحرية حيث أعد نابليون الثالث استعراضًا عسكريًا كبيرًا في Champ de Mars في باريس ؛ كما رتبت الملكة فكتوريا مناورة بحرية لعرض أسطولها ، فقد عرض الملك ولهلم – حتى لا تكون بروسيا أقل شأنا من فرنسا وإنجلترا – في كوبلنز جيشه على السلطان عزيز وجعله يفتشه وأجرى له مناروة كبرى . قال السلطان عزيز لجنرالات العثمانية عند عودته ، إن جيش بروسيا سيكون المنتصر في حرب فرنسية — بروسية . لم يشارك أي جنرال عثماني البادشاه هذا الرأي ؛ حيث كان جيش فرنسا البري هو الجيش الأول في العالم . دار هذا الحادث على الألسن بكثرة أخيرا كمثال لبيان المعلومات العسكرية وبعد نظر السلطان عزيز .

في محطة قطار فيينا استقبل إمبراطور النمسا وملك المجر Franz Joseph الخاقان في 28 تموز . كانت الإمبراطورية النمساوية ، قد تحولت قبل عدة أشهر (1867/2/8) إلى سلطنة ثنائية تتكون من دولتين اتحاديتين إمبراطورية النمسا + ملكية المجر . كان فرانز جوزيف ، ترب السلطان عزيز (كلاهما في سن 37) ، لكنه كان جالسا على العرش منذ 19 عاما . مكث البادشاه 3 أيام في فيينا . جاء بيخته إلى بودابست على نهر ألطونه . استقبل المجريون حفيد حاكمهم السابق بمظاهرات تأييد كبيرة . مكث يوما واحدا في بشته . استقبل في السراي الملكي أعضاء الحكومة المجرية وأشرافهم . غادر باليخت ووصل الحدود العثمانية في ألطونة في 3 آب ، وبعد مدة قصيرة دخل Vidin ، ثم جاء بعدها إلى روسجوك مركز إيالة ألطونة (بلغاريا) . استقبل مدحت باشا ، الذي كان واليا لإيالة ألطونة ، البادشاه في بودابست . صعد لحضور السلطان عزيز ،

متبوعة Karol أمير رومانيا (الملك فيما بعد) الذي جاء إلى روسجوك في 5 آب . في 6 آب جاء إلى فيينا بالقطار من روسجوك . وفي اليوم التالي ، عاد إلى إستانبول من فارنا بواسطة يخته وأسطول تركي . أنيرت إستانبول مدة 3 ليال وأطلقت قذائف الأفراح الهوائية . كانت سياحة ناجحة جدا .

19 – تشكيل مجلس شورى الدولة (1868/4/1) :

كان فؤاد باشا قد أعلن قانون « تشكيل ولايت » (تشكيل الولاية) ، (1864/11/7) . نظمت بهذا الإصلاح الإيالات التي تسمى « ولاية » بنظام وتسلسل جديد ، وبشكل حديث . تشكلت مجالس الولاية في الولايات (الإيالات) ، ومجالس اللواء في الألوية (ولاية = بالتركية : IL) ، ومجالس القضاء في الأقضية (بالتركية : Ilce) . ينتخب ممثلو الشعب في هذه المجالس بالنسبة إلى عدد المنتسبين إلى أديانهم ومذاهبهم . لم تكن لهذه المجالس في الحقيقة صلاحية إجرائية . كانت صلاحياتها استشارية فقط . لكنها على كل حال كانت تشكل مرحلة مهمة في إشراك الشعب في الإدارة ، ومع أن هذه المجالس تجتمع بصورة مستمرة ، فقد كان أعضاء ومجالس جميع الأقضية التابعة لكل ولاية يجتمعون مرة واحدة سنويا في مجلس الإيالة ويعدون تقريرا للوالي .

كان قانون شورى الدولة الذي أعلنه عالي باشا في 1 نيسان 1868 ، متمما مهما لهذا الإصلاح . تأسس « مجلس عالي تنظيمات » ومن ثم « مجلس والا » (مجلس العدل) ، بغرض أن تنال الحكومة مساندة الطبقة العليا من البيروقراطيين . يقسم بهذا القانون « مجلس والا » إلى قسمين ، سمي أحدهما شورى الدولة والآخر ديوان الأحكام العدلية . الأول كان يعنى بأمور الدولة الإدارية العليا ، أما الثاني فبالأمور القضائية العليا . سيطلق على رئيس ديوان الأحكام العدلية اسم « عدلية (ومذاهب) ناظري » ويكون تسلسله في بروتوكول الوزارة ، الرابع بعد الصدر الأعظم ، شيخ الإسلام ، سر عسكر (كان رئيس مجلس والا ، عضوا في الوزارة) ، كذلك كان رئيس شورى الدولة ، عضوا في الوزارة ووزيرا وهو الخامس في تسلسل البروتوكول .

لم تكن شورى الدولة التي استمرت حتى نهاية السلطنة ، عبارة عن محكمة إدارية

عليا ، كما في دانشتاى (شورى الدولة) للجمهورية التركية . كانت إما أن تضع بذاتها جميع قوانين الدولة ، أو تصوغ القوانين التي تقرها الدولة وتضع لها شكلها النهائيّ . أي أنه كان نوعا من المجلس التشريعي الذي تشكله الطبقة العليا من البيروقراطيين .

كانت الميزانية كذلك ، من أعمال شورى الدولة ، لكونها قانونا من قوانين الدولة . وبالأصح ، فإن الميزانية التي تعدها وزارة المالية ، تعرض أولا على الدائرة المالية لشورى الدولة ، ثم على عموم المجلس ، وبعد أن يعطى لها شكلها النهائيّ ، تعرض على الأمر السامي (تصديق الصدر الأعظم) ، ثم على الإرادة السنية (تصديق الخاقان) . ومن ناحية أخرى ، كان هذا المجلس يقوم بواجبات الديوان العالي وله صلاحية محاكمة الوزراء . يحضر سنويا الأعضاء المنتخبون من الإيالات إلى إستانبول ويعلمون شورى الدولة بمشاكلهم وطلباتهم ، تدرس هذه المشاكل ، أولا ، في الدائرة المدنية لشورى الدولة ومن ثم لدى الهيئة العامة للمجلس ، وتتم مناقشتهاوتبادل الآراء فيها مع الممثلين القادمين كذلك .

أما دائرة التنظيمات التي تعتبر أهم قسم في شورى الدولة ، فتراجع ملاءمة القوانين مع نظام التنظيمات ، وهي مسئولة عن تطبيق التنظيمات في الإمبراطورية ، أي أنها تقوم بواجبات محكمة الدستور حاليا . لا يتدخل شورى الدولة ولا الديوان العدلي بالأمور الدينية ، ويترك هذا المجال تماما إلى المشيخة .

ينقسم ديوان الأحكام العدلية إلى دائرتين كبيرتين هما : التمييز والاستئناف . لا يمكن عزل أعضائه ويعينون مدى الحياة . كان المرجع الأخير لجميع الدعاوى الجزائية والتجارية عدا دعاوي الحقوق المدني . كانت الجرائم المرتكبة ضد الدولة والتي تنظر من قبل محاكم الإدارة العرفية ، خارج نطاق المحاكم .

أراد عالي باشا ، في مجال الحقوق المدني ، اقتباس **القانون المدني الفرنسي (Code Napoléon)** وتطبيقه على الكيان العثماني ، ولكن صديقه جودت باشا ــ أكبر مؤرخ وحقوقي عثماني في العصر 19 ــ منعه من ذلك . دوّن أحكام الحقوق المدني بالتعاون مع هيئة ، باسم **مجلة الأحكام العدلية** . هكذا ولدت **المجلة** التي تعتبر الذروة في القانون العثماني ، والذي تطبق أحكامه في بعض الأقطار العربية إلى يومنا هذا وطبق في تركيا

حتى عام 1926 . وأصبح القانون المدني لجميع المسلمين في الدولة العثمانية . وقد عدّلت بعض أحكامه ونشرت في عائلة حقوقي قرارنامه سي التي نشرت عام 1914 . وأصبح الزواج بأكثر من امرأة واحدة متعذرا من الناحية العملية ، وإن كان ذلك ما يزال متفشيا بين القرويين في الأناضول بصورة فعلية إلى يومنا هذا .

تلك هي الحدود النهائية للديمقراطية التي وضعها نظام التنظيمات للإمبراطورية . واجتياز هذه الحدود ، لم يكن يلائم بنية الإمبراطورية للوزائيكية المكونة من مزيج من الشعوب والأديان والمذاهب المختلفة . كانت الديمقراطية التامة خلال هذه الأيام ، لدى النظام الأنكلو – سكسوني ، كانت لدى إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية و لم تكن تشمل أقطارها التي تعتبر مستعمرة لها . ومن الدول العظمى الأخرى فرنسا ، بدأت الديمقراطية التامة فيها اعتبارا من 1871 فقط . أما الدولتان الأوروبيتان العظيمتان : روسيا وأسبانيا ، فكان نظامهما بالنسبة إلى تركيا التنظيمات ، أقسى سلطة ونفوذا .

أوشكت ، في شتاء عام 1868 – 69 ، أن تنشب حرب مع اليونان . قدّم الباب العالي إلى سفير الأورطة لليونان جوازاته (1868/12/2) . طوق الأسطول التركي جميع الموانئ اليونانية بما في ذلك Pire . قدّم إلى اليونان مذكرة إخطارية في 11 ك1 . وبينما كان الباب العالي يتوقع أن ترفض هذه للذكرة وتوقّف اليونان عند حدها ، طلب انعقاد مؤتمر بباريس باجتماع شتى الدول الكبرى . لم يسمح باشتراك اليونان في المؤتمر لكونها دولة صغيرة ، أبلغ المؤتمر اليونان بالأسس التي تتضمنها المذكرة التركية وهي : وقف تدفق السلاح إلى كريت ، ومنع المظاهرات المعادية للعثمانية في أثينا (1869/2/18) . وافق الممثل العثماني للوجود في المؤتمر . لم تتحقق فكرة عالي باشا في إعلان الحرب ضد اليونان .

توفي كيجه جي زاده بيوك محمد فؤاد باشا الركن الثالث من أركان التنظيمات ، أثناء استراحته في نيس (1869/2/12) . نقلت جثمانه سفينة حرب فرنسية إلى إستانبول في 28 شباط ودفن في قبره الكائن قرب سلطان أحمد . أعلن الحداد العام في ذلك اليوم وأغلقت المتاجر . فقد عالي باشا مساعده الأكبر ، وبقي وحده . استمرت عائلة كيجه جي – زاده إلى يومنا هذا وشغلت مناصب مهمة في الدولة العثمانية .

حادثة مهمة أخرى لهذا الدور ، هي افتتاح قناة السويس (1869/11/19) . شرع في حفر القناة في 1859/4/24 واستغرق الحفر 10 سنوات و 6 أشهر و 25 يوما . عمل 60 000 فلاح في حفر القناة البالغة 162,5 كم والتي تمتد بين مينائي السويس في البحر الأحمر وبورسعيد في البحر الأبيض ، لم تكن القنال عميقة وعريضة كما هي اليوم ، لكنها تختصر المسافة جدا بين المحيط الهندي والأطلسي ، وتقضي على احتكار طريق رأس الرجاء الصالح وتعيد إلى البحر الأبيض وضعه الممتاز الذي فقده منذ ما يقارب 4 عصور . وفي نفس الوقت ، كانت تثير أطماع فرنسا وبخاصة إنكلترا حول مصر .

20 ـ وضع الدولة العثمانية عند وفاة عالي باشا (1871/9/7) :

انتصرت بروسيا في الحرب البروسية ـ الفرنسية 1870 ـ 71 ، خلافا للتخمينات . توحدت ما يقارب 30 دولة ألمانية كانت تساندها ومستقلة استقلالا تاما منذ 1806 على شكل اتحاد . أنتخب ملك بروسيا إمبراطورا على ألمانيا . ولم تنته سلالات الـ 30 دولة ، على عكس الاتحاد الإيطالي ، بل استمروا في سلطناتهم بعناوين ملك ، دوق كبير ، دوق أو أمير .

أصبحت إمبراطورية ألمانيا هذه التي تكونت حديثا ، الدولة العظمى الثانية في العالم بعد إنكلترا . فقدت فرنسا مرتبتها الثانية وتركيا مرتبتها الثالثة وهبطت إلى مراتب بعد هذه الدولة وبعد روسيا .

انتهى الحكم الإمبراطوري في فرنسا . تأسس نظام الجمهورية الثالثة . لم يستقر هذا النظام الجمهوري الغريب الذي يشكل فيه الملكيون الأكثرية في المجلس ، كجمهورية ديمقراطية ، إلا بعد مضي سنوات طويلة .

احتلت ألمانيا ، مكان فرنسا من حيث حيازتها الجيش البري الأول في العالم . كانت ألمانيا تخشى بحرية وأسطول فرنسا المغلوبة وإنكلترا الدولة الكبرى في الاستعمار .

بدأ رئيس الوزراء الأمير بسمارك بتأييد روسيا في السياسة الخارجية . تغير الميزان الدولي الأوروبي ، كان عالي باشا ، هو الدبلوماسي الداهية الوحيد الذي يمكنه تطوير الدولة في ضوء هذا الميزان الجديد ، إلا أنه مات في مثل هذا الظرف .

بعد مؤتمر دام 57 يوما ، اعترفت معاهدة لندن (1871/3/13) ، بحق روسيا في وجود أسطول وميناء لصنع وإصلاح السفن في البحر الأسود . والواقع أن تأسيس أسطول لروسيا في البحر الأسود ، سيستغرق سنين عديدة . بهذا أصيبت معاهدة باريس بضربة شديدة .

توفي عالي باشا ، أثناء ذلك (1871/9/7) . كانت سنه 56,5 عام . صدارته الأخيرة دامت 4 سنوات و 6 أشهر و 24 يوما . تبلغ مجموع صداراته الخمس سنوات و 3 أشهر و 19 يوما (تسلسله الثامن عشر) ، مجموع سنوات وزاراته للخارجية الخمس تبلغ 14 سنة و 4 أشهر و 4 أيام وهي أطول مدة لوزارة الخارجية في تاريخ تركيا منذ تأسيس النظارة (الوزارة) إلى يومنا هذا . وعدا ذلك ، شغل منصب سفير لندن ووزارات أخرى لمدة سنتين و 10 أشهر و 25 يوما . اتفقت صحافة أوروبا بعد وفاته على أنه أعظم سياسي في أوروبا .

منح الخديو إسماعيل باشا الذي كان يحلم بالاستقلال ، رئيس كتابه في اللغة التركية – كان له رئيس كتاب في اللغة العربية كذلك – مبلغ 1000 قطعة عندما بشره بوفاة عالي باشا . لم يخف ضياء بك (باشا) ونامق كمال رئيسي « العثمانيين الجدد » الداهيتين ، سرورهما بوفاة عالي باشا ، كان عالي باشا ـــ كأستاذه رشيد باشا ـــ قد وفق في إنجاز أعماله الكبيرة رغم وجود معارضين أشداء من أمثال هؤلاء حصل على شهرة عظيمة في أوروبا ، كان له نفوذ تام لدى البادشاه . أظهر السلطان عزيز تعقلا باقتفائه أثر أخيه الكبير السلطان مجيد ، ولم يرفض له طلبا و لم يتدخل بأمور الحكومة . كان أحد نجاحات عالي باشا الأخيرة دخول اليمن وعسير تحت إدارة الدولة مجددا . أصبحت صنعاء مركزا للإيالة الجديدة وللجيش السابع الذي تأسس حديثا (أيلول 1871) .

21 – فساد أسس التنظيمات (1871/9/7 – 1876/5/30) :

بدأت في الدولة العثمانية بعد عالي باشا ، دورة « قحط الرجال » . قل مع مرور الزمن ، في كل المجالات رجال الدولة الذين يمكنهم إدارة إمبراطورية كبيرة كما يجب . الصدور الأعظم الذين أعقب بعضهم البعض ، كانوا قاصرين عن أن يسدوا الفراغ الذي أحدثه عالي باشا . أكثر هؤلاء كانوا وزراء موفقين في وزارات عالي باشا وفؤاد باشا وتحت إشرافهما . لكنهم لم يوفقوا كصدور أعظم . يتمكنوا من تشكيل طاقم في العمل ولا شخصية . بدأ الواحد منهم يحفر الحفرة للإيقاع بالآخر . أصبحت غايتهم الرئيسية ، الحصول على المنصب وتسخير الدولة في جمع الثروة والغنى الشخصي . أعقب عالي باشا ، خلال الـ 5 سنوات ، الصدور الأعظم التالية أسماؤهم :

محمود نديم باشا (1871/9/7) ، وبعد 10 أشهر و 24 يوما أحمد شفيق مدحت باشا (1872/7/31) ، وبعد شهرين و 19 يوما مترجم محمد رشدي باشا للمرة الثالثة (1872/10/19) ، وبعد 3 أشهر و 27 يوما أحمد أسعد باشا (1873/2/15) ، وبعد شهر و 28 يوما شيرواني – زاده محمد رشدي باشا (1873/4/15) ، وبعد 9 أشهر و 29 يومًا حسين عوني باشا (1874/2/13) ، وبعد سنة وشهرين و 10 أيام أسعد باشا للمرة الثانية (1875/4/25) ، وبعد 4 أشهر ويوم محمود نديم باشا للمرة الثانية (1875/8/26) ، وبعد 8 أشهر و 16 يوما مترجم رشدي باشا للمرة الرابعة (1876/5/11) . مجموع صدارتي محمود باشا الاثنتين سنة و 7 أشهر و 11 يوما . ومجموع صدارتي أسعد باشا الأثنتين 5 أشهر و 29 يومًا .

كان محمود نديم باشا مرشح العثمانيين الجدد (أي للمعارضة) . كان العثمانيون الجدد يضغطون على البادشاه منذ سنوات لعزل عالي باشا وتعيين محمود نديم باشا بدلا منه .

محمود نديم باشا هو ابن مظلوم باشا أحد الوزراء ، شاعر ، مثقف ، طموح ، مخلص للعائلة المالكة ، لكنه لص ، عديم الأخلاق ، كذاب ، مذبذب ، عديم الكفاءة . ورغم أنه كان قد نشأ كرجل دولة للتنظيمات . والي إيالة ، ووزيرا لها ، لكن سرعان ما ظهرت السجية الإنكشارية المتفسخة المندسة في طبيعته . دمّر أسس التنظيمات وقلبها رأسا على عقب خرب البيروقراطية . لم تبلغ صدارته مدة السنة . جاء مكانه مدحت باشا ، ألمع ولاة الإيالات الذي أنجبه دور التنظيمات ، لم يتمكن من البقاء في السلطة أكثر من 3 أشهر . نشر الفرمان الذي يجيز للخديو إسماعيل باشا الاقتراض من الخارج (1872/9/28) . وزع إسماعيل باشا ، رشا على رجال الدولة والسراي بمقدار مائة إلى مائتي ألف قطعة ذهبية لكل منهم في سبيل صدور هذا الفرمان . من المعلوم أن الاقتراض من الخارج مكّن إنجلترا من السيطرة على مصر . اتضحت بعد سنوات حكمه إصرار عالي باشا — سنين عديدة — على عدم منح هذا الفرمان للخديو . تورطت مصر ، وفقد الخديو كذلك عرشه . تمكن إسماعيل باشا من استصدار فرمان يجمع جميع الامتيازات المعطاة لولاة مصر تحت متن واحد (1873/6/10) . وبينما كان يعتقد أنه سينال الحكم الاستقلالي ، إذ به ينزل الضربة على سياسة الخلافة للسلطان عزيز ويحطم الوحدة الإسلامية ويرمي بمصر ، قرة عين العالم الإسلامي ، في أحضان الإمبريالية الغربية .

أعطى مدحت باشا بيانا كاذبا للبادشاه (يعتبر ذلك أكبر جرم في النظام العثماني) ، بقوله : « إن هنالك فائضا في الميزانية التي تعاني العجز » . حصل حسين عوني باشا على عمولات ضخمة في مبيعات الأسلحة من الشركات الأمريكية والألمانية . تعاقبت الحكومات . زال الاستقرار . عاد محمود نديم باشا إلى الصدارة . ترك العثمانيون الجدد الذين يسمون للشروطيين (مؤيدي الحكم البرلماني) ، مرشحهم للصدارة محمود باشا ، وأخذوا في تأييد مدحت باشا بكل ما يملكون من قوة . أحدث هذا شعورًا بعدم الارتياح لدى المحافظين من مؤيدي التنظيمات وللعارضة وحتى لدى البرلمانيين الراديكاليين ، تجاه السلطان عزيز الذى عاد وعين محمود باشا للسلطة مجددا بعد 3 سنوات .

أحاطت بالدولة على أيام صدارة محمود باشا الثانية ، أزمات كبيرة ؛ استمر عصيان هرسك ، وتعذر إخماده نتيجة عدم المبالاة وتزويده بالأسلحة من قبل روسيا ، من ناحية والنمسا والمجر من ناحية أخرى . أشرفت مالية الدولة على الإفلاس . كلفت مصروفات الجيش والأسطول الحديث الذي أسسه السلطان عزيز والخطوط الحديدية وإنشاء السرايات مبالغ باهظة . حيازة الأسطول العالمي الثالث بعد إنكلترا وفرنسا ، والجيش العالمي الرابع بعد ألمانيا وروسيا وفرنسا ووجود 750000 جندي تحت السلاح (50000 منهم من صنف البحرية) ، كل ذلك ، كان يزيد من أعباء الميزانية ويرهقها .

تلفظ البادشاه عفوا بعزمه على استرجاع قرم ، فلفت أنظار روسيا ، وللتمويه على روسيا ، عين محمود نديم صديق الروس صدرا أعظم ، فسبب هذا إثارة شبهات إنكلترا .

كانت إنكلترا ، تريد أن ترى ولي العهد مراد أفندي على عرش العثمانية ، ومدحت باشا في السلطة . لن تترك إنكلترا هذه الخطة مدة 10 سنين ولحين وفاة مدحت باشا .

كان مراد أفندي ، الصديق الشخصي لولي عهد إنكلترا ، أدوارد السابع في المستقبل وكان مزاجه لا يسمح له بالتدخل في شئون الدولة . أما مدحت باشا ، فكان يعتبر

من رجال إنكلترا . وكانت إنكلترا تريد أن ترى حسين عوني باشا الذي كان له علاقات معها ، على رأس الجيش العثماني . ولأول مرة في تاريخ تركيا نشاهد دولة أجنبية تنشغل بالسلطة الداخلية للدولة العثمانية ؛ ومحاولة أعظم دولة في العالم تنظيم هذه السلطة حسب مقتضيات مصالحها وتوزيع الأدوار لرجال العثمانية . تكالبت .C.I.A ذلك العصر (Intelligence Service) على العثمانية ، بكل قوتها ؛ ببنوكها ، بمقصوراتها الماسونية ومؤسساتها . بدأت بدسائسها الشيطانية المظلمة وحيلها الخفية . ولأن الدولة العثمانية ، لم تكن معتادة على هذا النوع من التدخل ، فقد أصابها الكثير من التردد وعاشت فترة من الحيرة .

بلغت الديون الخارجية في 1876 مبلغ 200 مليون قطعة ذهبية (كانت في 1861 – 25 مليون سكة ذهبية) . يقتطع من الميزانية سنويا مبلغ 14 مليون قطعة ذهبية ، للديون الخارجية . لم يكن هذا المبلغ كافيا ، وكان يستلزم سداده الاستدانة مجددا . كان هنالك عجز في الميزانية يقدر بـ 5 ملايين قطعة ذهبية .

أذاع محمود نديم باشا **6 رمضان قرار نامه سي** (قرارات 6 رمضان) (1875/10/6) : أعلن هذا القرار من جهة واحدة ، أي دون أخذ موافقة الدول لدائنة إنكلترا وفرنسا ، وهو يتضمن تخفيض فائدة الديون إلى النصف . احتجت إنكلترا وفرنسا . تضرر المواطنون العثمانيون الذين اشتروا سندات قرض وتأملوا الربح منها . ويروي أن الفريق الأول الكونت Ignatiev السفير الروسي في إستانبول وزعيم التيّار المسمى Panslavist (الرابطة السلافية) ، قد أغرى الصدر الأعظم بهذا العمل لإذلال كرامة العثمانية لدى الدول الغربية . هبطت في اليوم التالي ، قيم السندات إلى النصف حدثت اضطرابات كبيرة . باع كل من محمود نديم باشا ومدحت باشا الموجود في الوزارة كوزير مالية ووزير التجارة داماد محمود جلال الدين باشا ، والكونت Ignatiev السندات التي بحوزتهم قبل يوم واحد ، وحصلوا على أرباح طائلة . أما السلطان عزيز الذي لم يسلك هذا المسلك ، فقد خسر 3 ملايين قطعة ذهبية .

قام البلغار بعصيان كبير في بلغاريا (إيالة ألطونة) (1876/5/2) ، كانت روسيا قد خططت له من قبل . اشترك في العصيان 55 قرية بلغارية . اجتاحوا القرى المسلمة

وقتلوا 1000 مسلم بوحشية كبيرة . كان عدد نفوس الأتراك يفوق قليلا عدد نفوس البلغار في إيالة ألطونة . واجه المشير عبد الكريم نادر (عبدي) باشا ، العصاة بفرقتين ، قتل 4500 متمرد وأخمد العصيان . نقلت الصحافة الأوروبية الخبر على أن الأتراك قتلوا عشرات الألوف من المسيحيين وهدموا مئات القرى البلغارية وجعلوها قاعا صفصفا . اجتاحت أوروبا موجة دعاية معادية للأتراك . وفي 6 آيار ، قتل الشعب المسلم – نتيجة تدبير روسي يوناني وقنصلي ألمانيا وفرنسا – في سلانيك . ازداد التوتر بشكل كبير . وفي هذا الظرف ، ظل الذين قرروا خلع السلطان عزيز ووضع يدهم على الدولة ، متفرجين ، كان على رأس هؤلاء حسين باشا ، ويدعمهم مدحت باشا .

22 – خلع السلطان عزيز (1876/5/30) :

وزع مبلغ مجيديه واحدة (خمس القطعة الذهبية) على كل فرد من الـ 1000 طالب تقريبا من طلاب المدارس الدينية العالية الذين يسمون « طلبة علوم » والتحق بهم عدة أشخاص من مدرسي العلوم الدينية وجماعة من العاطلين من الشعب ودبرت مظاهرة ضد الصدر الأعظم ، في الباب العالي . هذه الدراهم أخذت من ولي العهد مراد أفندي . وفي اليوم التالي 11 مارس عزل السلطان عزيز ، محمود نديم باشا ظنا منه أن هذه المظاهرات المدبّرة تعبر عن رغبة الشعب . عين مترجم رشدي باشا ، صدرا أعظم . طلب رشدي باشا البالغة سنه 65 عاما ، موافقة السلطان على وزارته التي عين فيها المشير والصدر الأعظم الأسبق حسين عوني باشا البالغة سنه 55 عاما ؛ سر عسكر أي رئيس أركان الجيش ، وحسن خير الله أفندي البالغ عمره 42 عاما ، شيخا للإسلام حيث كان قد شغل هذه الوظيفة سابقا لعدة مرات لفترة من الزمن ، وافق البادشاه . هكذا سلم السلطان عزيز جيشه ليد أعدى أعدائه عوني باشا .

منصب سر عسكر ، كان يشمل وظائف وصلاحيات وزير الدفاع الحالي إلى جانب رئيس أركان الجيش بالإضافة إلى قائد القوات البرية . كان الأسطول وللمعامل العسكرية فقط ، خارج نطاق صلاحياته . وإضافة إلى ذلك ، كانت المدارس العسكرية بما فيها الأكاديمية العسكرية ، تحت أمر السر عسكر . كان الذي يشرف على الأسطول ، هو القبطان دريا والوزير الذي يسمى منذ عدة سنوات ناظر البحرية قيصر لي أحمد باشا ؛

بحريا كبير السن ونشأ في البحرية منذ أن كان جنديا وهو مطيع لعوني باشا . كان عوني باشا ، أحد الضباط الأركان الخمسة الذين تخرجوا في الدورة الأولى من الأكاديمية الحربية . ولم يكن قسم الأركان موجودا قبلها في الدولة العثمانية كما هي الحال في بقية الأقطار .

كان حسين عوني باشا ذكيا ، مثقفا ، يجيد لغة أجنبية ، ناجحا عسكريا . منظما . ذا سيطرة . لكنه من عائلة سيئة ، معقد ، مسلّط على أعراض الناس ، مقامر ، لص ، لا يرحم ، ظالم ، حقود إلى درجة ليس لها نظير . تمكن حتى من خلال قواعد نظام التنظيمات ، من دس السم لمنافسيه شيرواني - زاده رشدي باشا ، ومشير أسعد باشا من الصدور الأعظم السابقين . كان عدوا لدودا للبادشاه بسبب نفيه من قبل السلطان عزيز إلى بلده أسبارطة لمدة سنة واحدة ، بعد أن خلع عنه رتبته وأوسمته بموجب المادة التي تقضي بذلك على من يعتدي على أعراض الناس . لكن السلطان عزيز ، كان غافلا إلى درجة أن يعفو عنه ويمنحه أعلى الرتب . عوني باشا ، كان جنرالا ، تدرج في المناصب تحت حماية كيجه جي - زاده فؤاد باشا . كان قد ذهب إلى لندن وأسس فيها علاقات .

إنكلترا ، خشيت من سياسة البادشاه البحرية ونقدته بصورة علنية وتساءلت بصورة رسمية عمّا سيفعله بهذا الأسطول . لم تلق نهضة العثمانية لرتياحا من إنجلترا ، وكما حدث في السابق عندما تم خلع زعيم النظام الجديد سليم الثالث ، لعرقلة النهضة ، فسوف تتكرر نفس اللعبة .

كان مدحت باشا على علاقات مباشرة مع إنكلترا ، وهو الذي أدخل سفير إنكلترا في إستانبول (1867 - 77) Lord Elliot ، ضمن أعضاء زمرة الخلع وتحرك بموجب توصياته . ورغم أنه كان يكره العثمانيين الجدد في قرارة نفسه ، لكن تأييده لفكرة المشروطية (الديمقراطية المتوجة) للعثمانيين الجدد الذين رفعوه إلى السماء بواسطة الصحافة ؛ كان بسبب رغبته في البقاء في الصدارة مدى الحياة . لم يكن في استطاعة مدحت باشا خلع البادشاه ، لولا وجود عوني باشا ، كانت تعوزه هذه الواسطة . كان يرجح التفاهم مع البادشاه على أن يتعاون مع عوني باشا الذي يكرهه . لقد دهش الجميع من اشتراك وزير كبير السن مثل رشدي باشا ، في ثنائي عوني - مدحت

لغرض بقائه في الصدارة إلى نهاية حياته هو كذلك . أما خير الله أفندي ، رابع رجال الدولة الذين يسمون الأربعة الكبار أو أركان الخلع ، فكان مغرورا بفخفخة مقام المشيخة ، شابا ، طموحا ، تافها ، متعصبا تعصبا أعمى ، محتقرا ومكروها من قبل طائفة العلماء ، معروفا باسم « مفسد إمام » (الإمام المفسد) ومتملق عادي من متملقي السراي .

الذي خلع السلطان عزيز من العرش بصورة فعلية ، هو أمير اللواء سليمان باشا . كان قائدا للمدرسة الحربية ، اشتهر بكتبه الأدبية والتاريخية ، عمره 38 عاما . خدع طلاب الحربية وكتيبتين من الجنود الذين جلبوا من سورية قبل عدة أيام ولا يحسنون التكلم بالتركية ، ثم أخبر البادشاه بأن هنالك حادث اغتيال مدبرًا ضده وأن سراي دولمه بقجه سوف يطوق لغرض حمايته ، وفي صباح يوم (1876/5/30) ، استصحب البادشاه معه بالقارب وذهب به إلى سراي طوب قابو وخلعه من العرش . خطط عوني باشا ، مع أصدقائه الوزراء الآخرين الذين أخبرهم بالانقلاب ، بأنه في حالة فشل الانقلاب ، سيلقي الذنب كله على سليمان باشا ، وسيقبض عليه فورا ويعدمه عوني باشا رميًا بالرصاص ، وبهذا يكون عوني باشا قد حقق أمله كذلك في بقائه في الجيش مدى الحياة بصفته منقذ حياة البادشاه . كانت هذه فكرته .

دامت سلطنة السلطان عزيز 14 سنة و 11 شهرًا و 5 أيام وبتعبير آخر 15 سنة إلّا 25 يوما . تقسم فترة السلطنة هذه إلى قسمين : القسم الأول قبل وفاة عالي باشا والثاني بعد وفاته . الدور الأول الذي دام 10 سنوات و 3 أشهر ، هو دور الشوكة والعظمة والنهضة والنظام . والدور الثاني الذي دام 4 سنوات و 8 أشهر و 6 أيام هي سنو الاضطرابات والخيانة والتفكك والفساد . تدخل السلطان عزيز للتزايد في الأمور الحكومية ، خلافا لتعليمات التنظيمات ، بعد مشاهدته عدم كفاءة الصدور الأعظم ، كثّفت الانتقادات ضده .

نهب سراي دولمه بقجه يوم الخلع . سرق الجنود والضباط والجنرالات الذين دخلوا السراي الكثير جدا من الحاجيات . اقتسمت الجواهر الثمينة جدا بين الشخصيات ذوي لرتب العالية الذين اشتركوا في الخلع . أعطيت بقية الجواهر الثمينة التي يقدر

ثمنها بمليون قطعة ذهبية ، إلى صراف السلطان مراد الرومي خريستاكي لبيعها في باريس . يرجع خريستاكي بعد ذلك إلى تركيا و لم يبعث ولا بقرش واحد من ثمن الجواهر . أعطيت سندات القرض العائدة إلى السلطان عزيز البالغ قيمتها 000 400 7 قطعة ذهبية إلى البنك العثماني لتسديد الديون الخارجية . أما النقود الذهبية فوزعت على أفراد الجيش الأول الذين أخذوا يتهامسون مدعين بأنهم غشّوا . وفي اليوم الذي تلا الخلع ، منح كل ضابط من ضباط الجيش الأول رتبة أعلى . ظهرت علامات عدم الارتياح الشديد لدى الجيش السادس الموجود في الخارج . وتشتّتت وحدة الجيش . صرح عوني باشا ، ـــ الذي حقق عملا لا يتقبله العقل ، كخلع السلطان عزيز دون سفك ولا قطرة من الدماء ـــ إلى إحدى الصحف الأجنبية مفتخرا ، بأن الذين كانوا يعلمون بمؤامرة خلع السلطان هم 68 شخصا فقط ، وأن الآخرين انضموا إلى عملية الخلع دون أن يعرفوا ماهية عملهم .

23 – عائلة السلطان عزيز :

تزوج السلطان عزيز بـ 5 قادين أفندي (زوجة السلطان) ،ولم تقم علاقة بينه وبين أي جارية أخرى . زيجته الأولى في 1856 عندما كان شهزادة (أميرًا) ، زيجته الأخيرة في 1873 . بناته ـــ عدا 3 بنات وابن ـــ ماتوا قبل إتمامهم السنة الأولى من أعمارهم ، وهم :

1 – السلطانة صالحة (1862/7/11 – 1941) : زوجها داماد مشير ذو الكفل أحمد باشا (ابن مشير خاتون أوغلو كرد إسماعيل حقي باشا) ، رزقا بابن مات في سن السادسة . هذه السلطانة ، كانت في سن طفولتها مخطوبة لإبراهيم حلمي باشا أحد مشيري العثمانية وابن الخديو إسماعيل باشا . لكن عبد الحميد الثاني الذي يكره إسماعيل باشا ، فسخ الخطبة عند جلوسه على العرش .

2 – السلطانة ناظمة (1866/2/25 – 1947) : زوجها داماد مشير علي خالد باشا (1862 ؟ – 1950 ؟) (ابن سر عسكر مشير لوفجالي إبراهيم درويش باشا) . لم يرزقا أولادا .

3 – السلطانة أسماء (1873/3/21 – 1899/5/7) : زوجها داماد مشير قبة صاقان جركس محمد باشا (1846 – 1909) : (زوجته الأولى : ابنة عبد المجيد الأول ،

السلطانة نائلة) . وُلد لها من هذه الزيجة 3 سلطان - زاده (أمير) ، ومن ناحية أخرى سلطان - زاده مات طفلا وخانم - سلطانة (أميرة) .

4 - السلطانة أمينة (1874/8/24 - 1920/1/29) : زوجها داماد وزير جاودار أوغلو أحمد شكري باشا) (رئيس شورى الدولة ، وزير معارف والنافعة (الأعمار) ، مؤلف) رزقا بـ خانم - سلطانة توفيت وهي طفلة .

أبناء السلطان عزيز :

1 - يوسف عز الدين أفندي (1857/10/11 - 1916/2/1) : مشير ، صار وليا للعهد مدة 6 سنوات و 9 أشهر و 4 أيام ، 1909/4/27 - 1916/2/1 . أولاده ، عدا ابن واحد مات طفلا : محمد نظام الدين أفندي (1908/12/18 - 1933/3/19) ، السلطانة خديجة شكرية (1906/2/24 - 1972/4/1) ، السلطانة مهربان مهرشاه (1916/6/21) . السلطانة شكرية ، تزوجت 3 مرات أول أزواجها هو شهزادة داماد محمد شرف الدين أفندي بن سليمان أفندي بن عبد المجيد الأول . لم تنجب من أي منهم . السلطانة مهرشاه ، تزوجت بالشهزاده داماد عمر فاروق أفندي عام 1948 ، لم ترزق بأولاد ، عمها ، ابن عبد المجيد الثاني .

2 - محمود جلال الدين أفندي (1862/11/14 - 1888/9/1) : توفي عندما كان ولي عهد سابعا .

3 - الخليفة عبد المجيد خان الثاني (1968/5/29 - 1944/8/23) : (للتعرف على أولاده انظر البحث) ، هو آخر من توفى من أحفاد محمود الثاني الذكور ، أما حفيدته ، فهي السلطانة نظيمة الأخت الأكبر منه التي توفيت عام 1947 .

4 - محمد شوكت أفندي (1872/6/5 - 1899/10/22) : توفي عندما كان ولي عهد تاسعا . ابنه : محمد جمال الدين أفندي (1891/3/1 - 1947) . أبناء هذا الشهزاده : محمود حسام الدين أفندي (1916/8/25 - 1966/8/7) وسليمان سعد الدين أفندي (1917/11/20) . حصل لسعد الدين أفندي شهزاده (أمير) واحد وسلطانة (أميرة) واحدة ، والشهزاده الذي ولد عام 1955 هو الأمير الوحيد الذي سيديم فرع السلطان عزيز .

5 – محمد سيف الدين أفندي (1874/9/22 – 1927/10/19) : ملحن عظيم ، كان في 1922 ولي عهد ثالثا . أولاده : محمد عبد العزيز أفندي ، ومحمود شوكت أفندي (1903/7/30 – 1973/1/31) وأحمد توحيد أفندي (1904/12/2 – 1966/4/24) وهو توأم السلطانة فاطمة جوهري (1904/12/2 – 1980/12/10) . تزوج شوكت أفندي ، السلطانة نعيمة ابنة عبد الحميد الثاني والسلطانة عادلة خانم – سلطانة ابنة داماد مشير نور الدين باشا ابن غازي عثمان باشا وأنجب من هذه الزيجة السلطانة حميدة نرمين نزاهت (1923/1/27) ، تزوجت ثم انفصلت عن زوجها .

الابن الكبير لسيف الدين أفندي ، هو محمد عبد العزيز (الثاني) أفندي (1901/9/26 – 1977) . كان رئيسا للسلالة العثمانية مدة 4 سنوات من 1973/5/22 حتى وفاته . تزوج بركمال خانم أفندي (السيدة) ، ابنته السلطانة خرّم (1940) .

24 – وفاة السلطان عزيز (1876/6/4) :

قتل السلطان عزيز ، بعد 5 أيام من خلعه (1876/6/4) . فصد القتلة شرايين ذراعيه ، بشكل يشبه الانتحار ، خطط الجناية ، حسين عوني باشا . وأعلنت الدولة انتحاره ببيان رسمي ، لكن الشعب لم يصدق ذلك . ذرف الأتراك والعرب ، وجميع المسلمين الذين يشكلون الدولة العثمانية ، الدموع الدامية ، كتبوا ولحّنوا فيه المراثي كانت سن البادشاه تتجاوز الـ 46 عاما بـ 3 أشهر و 14 يوما . نهضت على زمانه الدولة نهضة كبيرة ، أنفق على إنشاء الخطوط الحديدية فقط مبلغ 20 مليون قطعة ذهبية ، فتح العديد من المدارس الحديثة ، جهز الجيش بأحدث الأسلحة الموجودة في ذلك العهد ، جدد القلاع واستحكاماتها ، كوّن بجهوده الشخصية وبتعشقه العميق للشئون البحرية ، بحرية عظمى ، حوّر مصنع السفن بشكل يمكن المصنع من إنشاء بوارج . كان شابا ، صحته جيدة . خطط تنفيذ أعمال كثيرة . الدول الأجنبية التي استشعرت خطورة هذه النهضة ، دبرت مؤامرة خلعه واستعملت قسما من رجال الدولة العثمانية أداة لتحقيق ذلك . أخل بأهم مبدأ من مبادئ التنظيمات وهو مادة عدم إشراك الضباط في السياسة إخلالا كبيرا . أقحم الجيش في السياسة ، وفي خضم العراك على السلطة . صارت السياسة غذاء لطالب الحربية الشاب . كأنما بعث للوجود ، نوعًا جديدًا من الإنكشارية .

كان حسين عوني باشا مستبدا عظيما . عدوا لإعلان المشروطية (الحكم بواسطة مجلس) وإعلان الدستور . اتخذ طور الدكتاتور الكامل . لكن سلطنته لم تدم أكثر من 16 يومًا . اقتحم مرافق الهنكار وأخو زوجة السلطان عزيز البكباشي (الرئيس الأول) جركس حسن بك ، أثناء اجتماع الحكومة ليلة 15 جزيران 1876 مكان الاجتماع ، وقتل بمسدسه عوني باشا وناظر الخارجية رشيد باشا مع عدة أشخاص آخرين .

واقعة جركس حسن زادت في إخلال التوازن العقلي للسلطان مراد . أثر على عقله خطأ وقع يوم خلع عمه ، حيث ظن أن العسكري الذي دخل غرفته لدعوته إلى الجلوس على العرش ؛ قد أرسل من قبل عمه لغرض اعتقاله ، فقد كان الانقلاب قد قدّم عن موعده يوما واحدا ، دون أن يخبر مراد بذلك . خلع السلطان مراد – أمل العثمانيين الجدد ومؤيدي المشروطية – اضطراريا بعد 3 أشهر . وشفي تماما ، بعد مدة وجيزة .

25 – السلطان مراد خان الخامس (1876/5/30 – 1876/8/31) :

السلطان محمد مراد ، هو الابن الكبير للسلطان عبد المجيد الأول وأول الحفداء الذكور لمحمود الثاني . أمه السلطانة – الوالدة شوق أفضاء (1820/12/12 – 1889/9/17) ، أصبحت الزوجة الثالثة للسلطان مجيد في 1839 والثانية في 1849 . لعبت دورا سيئا جدا في واقعة السلطان عزيز .

كان السلطان مراد ولي عهد ثانيا ، طيلة مدة سلطنة والده وفور ولادته ، وولي عمد السلطنة طيلة مدة سلطنة عمه التي دامت 15 عاما . جلس على العرش وهو في سن تتجاوز الـ 35 عاما بـ 8 أشهر و 9 أيام . خلع بعد 93 يوما . عاش بعدها 28 عاما ، لم يخرج خلال هذه الفترة من سراي جراغان الذي خصص له ولعائلته وتوفي في 1904/8/29 بمرض السكّر . كانت سنه تنقص عن الـ 64 عاما بـ 24 يوما . دفن في قبره الكائن في يني جامع . مدة سلطته ، هي أقصر مدة سلطنة في التاريخ العثماني .

نشأ السلطان مراد مجهزا بالثقافة الأوروبية ، أكثر من أبيه . وكان يملك شخصية على النقيض من شخصية عمه السلطان عزيز المتبحرة في الإسلام ، الشرقية ، العثمانية ، التي نشأت على الثقافة والتربية التركية . كان تحصيله كاملا . كان يجيد كلا من الموسيقى الغربية والتركية ، لكنه كان ينشغل أكثر بالموسيقى الغربية . يسير بين

الشعب ، مدمنًا على الشرب ، وسيم الطلعة جدا ، يعزف موسيقى الساز المختلفة ، شاعرًا ، نجارا دقيقا . انتسب إلى الماسونية عام 1867 . أظهر حرصا شديدا وقبيحا قبل أوانه في الجلوس على العرش مكان عمه . ولم يكن بإمكانه ملء الفراغ الذي أحدثه عمه . أصبح آلة بيد إنكلترا والوزراء الذين يلعبون لعبة مؤيدي المشروطية (الحكم البرلماني) . كان معارضا لقتل عمه . كان رجلا رحيما يكره رؤية الدم كأبيه . بنات السلطان مراد ، عدا ابنيه اللذين ولدا وتوفيا في نفس العام ، هن :

1 – السلطانة خديجة (1870/5/5 – 1938/3/13) : زوجها الأول داماد وزير علي واصف باشا (1870 – 1918) ، انفصلت عنه وتزوجت زواجها الثاني بالداماد رءوف خير الدين بك أفندي (1871 – 1936) (دبلوماسي ، حقوقي) . ولد لها من زيجتها الأولى الخانم – سلطانة عائشة (1902) ، تزوجت باشكدرالي – زادة جلال باشا . رزقت من زيجتها الثانية ، عدا ابن واحد مات طفلا ؛ خيري بك أفندي (1912) وخانم سلطانة سلمى (1914 – 1942) التي تزوجت بنواب كتوارا Kutwara في الهند ورزقت منه ابنة . (استلهم الروائي التركي الشهير رفيق خالد قاراي في روايته Turk Prensi Nilgun من سلمى خانم – سلطانة هذه) .

2 – السلطانة فهيمة(1875/8/2 – 1929/9/15) : زوجها الأول داماد وزير علي غالب باشا (1871 – 1950) افترقت عنه وتزوجت زوجها الثاني محمود بك . ليس لديها أولاد .

3 – السلطانة فاطمة (1879/6/19 – 1932/11/20) : زوجها داماد قرة جهنم – زادة رفيق إيريس بك أفندي (وفاته 1952) (دبلوماسي) (ابن العين قره جهنم – زاده فائق بك والي قونية) . وعدا 2 سلطان – زادة ، ولد لها الخانم – سلطانة عائشة خديجة (1909 – 1968) وتوأمها محمد علي إيريس بك أفندي (1909) وجلال الدين إيريس بك أفندي (1916) .

4 – السلطانة عليّة (1880/٨/24 – 1903/9/19) : لم تتزوج .

الابن الوحيد للسلطان مراد ، هو محمد صلاح الدين أفندي ، توفي عندما كان ولي عهد ثالثا (1861/8/15 – 1915/4/29) . وهو من طلاب سليمان باشا الذي أسقط

السلطان عزيز وحقق الانقلاب وصار مشيرا بعد فترة وجيزة . بنات صلاح الدين أفندي :

1 – السلطانة بهية (1881/8/21 – 1947) : زوجها داماد أمير اللواء حافظ إسماعيل حقي نوري باشا (1878 – 1915) (استشهد عندما كان قائدا للجيش الثالث) ، ليس له أولاد .

2 – السلطانة جليلة (1882/2/3 – 1899/11/24) : لم تتزوج .

3 – السلطانة رقيّة (1885/6/1 – 1971/6/16) : زوجها داماد شريف عبد المجيد بك أفندي (1889 – 1965) (سفير الأردن في لندن وباريس وأنقرة) (ابن وزير شريف علي حيدر باشا ناظر الأوقاف وأمير مكة ، عين الرئيس الثاني لمجلس الأعيان) ، لم يخلّف أولادا .

4 – السلطانة عادلة (1887/2/10 ت 1973/1) : زوجها الأول داماد فائق بك أفندي (ابن مشير عارف باشا ، استمر عقد النكاح 3,5 سنة وحصل الطلاق قبل الزفاف . زوجها الثاني داماد مورالي – زاده صلاح الدين بك أفندي (1885 – 1918) (حفيد مشير مورالي إبراهيم باشا) . ابنتهما الخانم – سلطانة نيلوفر (1916) تزوجت نواب شجاعت علي خان معظّم – جاه وبقيت في عصمته مدة 21 عاما ثم طلقت وتزوجت مرة ثانية . معظّم – جاه ، هو الابن الصغير لعثمان خان نظام حيدر آباد .

5 – السلطانة صفيّة (1887/5/20 – 1911/2/20) : لم تتزوج .

6 – السلطانة أمينة عطية (1892/1/3 – 1978/10/10) : زوجها سركاتبي – زاده عثمان هاني أفندي (حقوقي ، دبلوماسي) (1890) (ابن وزير عثمان فريد باشا) ، ليس له أولاد .

ابنا صلاح الدين أفندي ، عدا ابنيه اللذين توفيا فور ولادتهما ، هما :

1 – أحمد (الرابع) نهاد أفندي (1883/7/6 – 1954/6/4) : صار رئيسا للسلالة العثمانية مدة 9 سنوات و 9 أشهر و 12 يومًا (1944/8/23 – 1954/6/4) .

2 – عثمان (الرابع) فؤاد أفندي (1895/9/26 – 1973/5/22) : أصبح رئيسا

للسلالة العثمانية مدة 18 سنة و 11 شهرًا و 18 يومًا (1954/6/4 - 1973/5/22) . تزوج بالأميرة كريمة عباس حليم ثم طلقها ، ليس له أولاد . تخرج في الأكاديمية العسكرية البروسية . من أبطال الحرب العالمية الأولى ، عين في ك 1918/2 قائدا على الجبهة الليبية برتبة فريق أول . ركب الغواصة من تريسته ونزل في ليبيا ، وتسلم الجبهة . حارب الإيطاليين بنجاح على رأس المجاهدين الليبيين ومع الضباط العثمانيين . وفي المدنة ، أمر الباب العالي الشهزاده بالتسليم إلى الإيطاليين . لم يطع الأمر رغم مرور أسابيع عديدة . أخفى مجاهدية ، ووزّعهم . اعتقله الإيطاليون ، وسجن في نابولي في أحد القصور مدة سنة تقريبا . كانت له معرفة سابقة بليبيا ؛ لأنه كان قد دافع عن ليبيا تجاه الإيطاليين مع أنور بك (باشا) عندما كان طالبا عمره 16 عاما . درس رومل حرب العصابات التي نفذها فؤاد أفندي في حركات ليبيا . وعند استيلاء رومل على ليبيا ، منحت إنكلترا رتبة الزعيم والصلاحية الكاملة لفؤاد أفندي لتدريب الليبيين وتجهيزهم ضد الألمان . أعلم الأفندي بأنه لا يمكنه لبس اللباس العسكري الإنكليزي ، ولا يمكنه مقاتلة زملائه في السلاح ، القدامى . وعند إخراج السلالة من تركيا (1924) ، كتب أتاتورك إليه رسالة يبدي له فيها تأثره لعدم تمكنه من استثناء زميله في السلاح . وفي المدنة ، قام بحماية الزعيم عصمت بك (اينونو) ، وأسكنه في قصره أشهرا عديدة .

ابن أحمد (الرابع) نهاد أفندي : داماد علي واصب أفندي ، رئيس السلالة العثمانية منذ 1977 . ولد في 1903/10/14 . تخرج في غلطه سراي والكلية الحربية مثل جميع الشهزادات المتأخرين . تزوج بالسلطانه أمينة مقبلة حفيدة السلطان محمد رشاد (1931/4/24) . أبناؤه الشهزاده عثمان صلاح الدين أفندي (1941) ، وأولاد هذا الشهزاده هم شهزاده نهاد رشاد أفندي (1978/9/17) شهزاده محمد مراد أفندي (1972) وسلطانة واحدة (1974) .



المبحث التاسع

السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩)



1 – جلوس السلطان عبد الحميد خان الثاني (1876/8/31) ، فترة إمارته :

عبد الحميد الثاني هو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد خان الأول ، الذي ولد بعد مراد الخامس . هو يصغر مراد الخامس بسنتين بالضبط . ولد في الساعة الخامسة من صباح يوم 22 أيلول عام 1842 في السراي الهمايوني جراغان القديم . كان عند ولادته ، ولي عهد ثالثا . وظل كذلك طيلة مدة سلطنة والده . كان ولي العهد عمه عبد العزيز أفندي وولي العهد الثاني أخاه الكبير مراد أفندي .

والدة شهزاده عبد الحميد أفندي ، هي زوجة السلطان الرابعة تير مشكان ، جركسية الأصل كزوجات أكثرية السلاطين المتأخرين . رفعت في 1849 إلى رتبة الزوجة الثالثة . توفيت السلطانة نعيمة التي ولدتها ، قبل ولادتها لعبد الحميد أفندي ، في سن 2,5 بمرض الجدري (1840/10/11 – 1843/5/1) ، مدفونة في مقبرة لاله لي . عاش شهزاده محمد عابد الذي ولدته بعد ذلك 15 يوما فقط (1848/4/22 – 1848/5/7) ، دفن في مقبرة السلطانة رفيعة في يني جامع . تير مشكان (1819/٨/16 – 1852/10/3) من قبيلة شابصغ « كانت خضراء العينين ، ذات شعر أصفر فاتح ، ذات جلد أبيض شفاف ، نحيفة البنية » . ماتت بمرض السل وسنها 33 عاما ، مدفونة في مقبرة مراد الخامس في يني جامع .

هكذا فقد عبد الحميد أفندي والدته وعمره 10 سنوات . كان من السائد إعطاء أولاد البادشاهات الذين توفيت أمهاتهم إلى زوجات البادشاهات اللواتي لم يلدن ، أو اللواتي فقدن أولادهن ، للعناية بهم ، وليكن أمهات معنويات لهم .

كانت خلال هذه الأيام ، باش إقبال بره ستو خانم – أفندي الزوجة الخامسة للسلطان مجيد ، ولم تكن قد رزقت أولادا بره ستو Perestu قادين أفندي التي كانت في آيار 1861 زوجة السلطان الرابعة (بالفارسية : بيرستو = سنونو) (1830 – 1904) كانت الابنة المعنوية للسلطانة « كوجوك » أسماء (1778 – 1848) الأخت الكبرى لمحمود الثاني المشهورة (السلطانة أسماء ، لم ترزق أولادا) ، زوجتها بابن أخيها السلطان عبد المجيد . من قبيلة أوبوخ الجركسية « كانت ذات عينين زرقاوين ، ذات شعر ذهبي أصفر ، وجلد شفّاف ، ونحيفة ، وصغيرة الجسم » (هذه

الأوصاف نجدها عند السلطانة عائشة ، ابنة عبد الحميد الثاني ووالدتها مشفقة قادين أفندي) .

فاطمة خانم ، أخت بيرستو قادين أفندي تزوجت بفاضل بك وولدت طبيب العيون الدكتور أسعد باشا وهو أب حسن أيشيق وزير الخارجية عام 1965 . أخو فاضل بك ، منابير – زادة نوري بك (1840 – 1916) ، هو أخو السلطان حميد بالرضاعة ، من العثمانيين الجدد .

كانت ، بيرستو قادين التي عهد إليها بالسلطان حميد أفندي البالغ عمره 10 سنوات كابن معنوي ، تكبره بـ 12 سنة . وقد أولته حبها وعنيت بتربيته كأم حقيقية . كانت السلطانة جميلة (1843 – 1915) وهي أخت السلطان حميد التي تصغره بـ 11 شهرا . قد فقدت كذلك أمها دزد دل Duzd - Idil قادين أفندي (1825 – 1845/8/18) عندما كانت في سن الثانية من عمرها وأعطيت إلى بيرستو قادين أفندي قبل السلطان حميد بـ 7 سنوات . وبناء على ذلك ، تكون نفس امرأة الأب قد قامت بتربية كل من السلطان حميد والسلطانة جميلة . وهذا هو سبب المحبة الخاصة من السلطان حميد لها أكثر من أخواته الأخريات .

كانت بيرستو قادين من صاحبات الخير . وعند وفاة زوجها السلطان مجيد عام 1816 ، سكنت السراي الذي أهداه لها السلطان عزيز أخو زوجها ، الكائن في ماجقا . سكنت هذا السراي حتى وفاتها (مدته 43 عاما) . أنشأت في إستانبول حنفيات لتوزيع المياه مجانا ، [illegible] مسجد طوبجوباشي (سيوري قابوسي ، تكيه زقاق) ، حنفيات للوضوء ، [illegible] (دار توقيت الزمن) ، ابنية (1893 – 5) (61 ، Istanb[illegible] Sebilleri ؛ 298 ، 1 ، Istanbul çesmeleri) توفيت عن عمر يناهز الـ 74 عاما ، دفنت في قبرها الكائن في منطقة أيوب .

بحت بيرستو قادين ، السلطانة – الوالدة مدة 28 سنة . منح السلطان حميد والدته المعنوية عند جلوسه على العرش رتبة السلطانة – الوالدة (1876/8/31) . هي السلطانة – الوالدة الوحيدة التي لم تلد السلطان بالفعل . وفي نفس الوقت ، هي آخر سلطانة – والدة في التاريخ العثماني . حيث إن السلاطين الذين جاؤا بعده ، جلسوا

كلهم على العرش بعد أن توفيت أمهاتهم بمدة طويلة . كانت السلطانة ـ الوالدة بيرستو ، سيدة فاضلة قضت حياتها في إعانة المعدمين ووهبت نفسها ، خاصة للنساء والبنات الفقراء ، وفضلا عن أنها لم تكن تتدخل في السياسة ولا تقابل السياسيين فقد كانت لطيفة ، ذات خلق ليّن ، بعيدة عن حرص السلطنة ، وقورة ، متواضعة . ماتت شريفة كريمة وسط جو من المحبة والاحترام . هي الثانية بعد السلطانة خديجة تارخان في التاريخ العثماني ، من حيث مدة شغلها منصب السلطانة الوالدة .

تلقى عبد الحميد الثاني الذي يسميه الشعب السلطان حميد دروسه خلال فترة إمارته (شهزاده) على أيدي الشخصيات التالية : تعلم الموسيقى الغربية والبيان على يد أمير اللواء Guatelli باشا ، وأمير اللواء Dussep باشا ، وأمير اللواء Lombardi بك ، والعزف على البيان على يدي Aleksan أفندي ، والخط عن جلال الدين أفندي واعتبارا من 1850 على يدى القضعسكر (القاضي العسكري) توسيالي مصطفى عزت أفندي والعزف على الكمان ، على يدى الكماني هدايت بك ، والفارسية على يدي قضعسكر روملي عجم علي محوي أفندي والصدر الأعظم صفوت باشا . والعربية على يدي القضعسكر شريف أفندي ، وفريد أفندي ، وشيرين حافظ أفندي ، وعمر خلوصي أفندي وتلقى الفرنسية عن مشير نامق باشا و Mosyo Gardet ، والتركية ، والأدب العثماني والعلوم الإسلامية وخاصة الحديث (البخاري) عن كموشخانة لي كردانقيران عمر خلوصي أفندي ، والاقتصاد السياسي عن وزير المعارف وزير محمد طاهر منيف باشا عام 1876 ، والتاريخ العثماني ، عن مؤرخ الوقائع القضعسكر لطفي أفندي ، والرياضة والفروسية عن مربيه محمد صادق آغا وبعد وفاته في 1857 عن مابينجي عثمان بك ، والأدب الفرنسي عن الصدر الأعظم إبراهيم أدهم باشا ، وآداب الطريقة الشاذلية عن شيخه طرابلس غربلي محمد ظافر أفندي ، وبعد وفاة هذه الشخصية ، تلقى آداب الطريقة القادرية على يد شيخه عبد الله أفندي ، ودرس علوم التصوف اعتبارا من 1879 على يد شيخه قضعسكر روملي حلبلي (خان سيحون) صيّاد ـ زاده أبو الهدى أفندي ، وتعلم العسكرية على يد ضباط عديدين قاموا بواجب زرافق المنكار (السلطان) . أشرف على تدريسه جميع هذه الدروس وامتحنه فيها ، وزير أحمد كمال باشا (1808 – 1887) الذي صار وزيرا للمعارف 6 مرات ، وللأوقاف مرتين .

السلطان حميد من السلاطين النوادر الذين لم ينتسبوا إلى المولوية . مربياته هن أولا – نركس – مثال خلقه ، ومن ثم دلبر – جنان خلقه . أجرى له عملية الختان وزير دكتور حكيم إسماعيل باشا في قصر حيدر باشا عام 1847 عندما كان في الـ 5 من عمره وبدأ الدراسة في نفس اليوم . أخوته في الرضاعة هم مناعير – زادة نوري بك ، أثوابجي باشي عصمت بك (1842 – 1906) ، طيّار – زادة أحمد بك الذي توفى في سن الـ 6 . ومع أن تربيته جرت على يد بيرستو قادين أفندي ، فإن السلطانة – الوالدة برتونيال والدة السلطان عزيز أشرفت كذلك على تربيته . نظم السلطان حميد عدة أشعار ، وهو أيضا رسام ، وعازف على البيان ، وعازف على الكمان ، وخطاط ، كتب عدة الحان على طراز الموسيقى الغربية . لم يتعلم الموسيقى التركية . لكن استعداداته في الفنون الجميلة تجلت في نجارته الدقيقة ، ويعتبر أثاث الصالون الذي صنعه بيده من أرفع آيات الفن النّجاري . بعض هذه القطع موجودة في المتاحف ، والتي منها مملوكة لأشخاص ، تشترى وتباع بمبالغ ضخمة جدا . تعلم النجارة عن خيل أفندي .

كانت سن عبد الحميد أفندي – أحب الأولاد لأبيه ، عند وفاة أبيه – تتجاوز الـ 18 عاما بـ 8 أشهر و 9 أيام . وعند جلوس عمه ، صار ولي عهد ثانيا ، وظل في هذا المنصب طيلة 15 عاما . اشترك في سياحات عمه التي زار فيها مصر وأوروبا . تقابل مع الحكام والأمراء الذين زاروا إستانبول على عهد عمه ، وأهم الذين زاروا عمه من هؤلاء الحكام إمبراطورة فرنسا Eugénie (1869) ، وإمبراطور – ملك ، النمسا – المجر Franz Joseph (1869) ، ولي عهد بروسيا (ثم الإمبراطور – ملك) Friedrich الأول (1869) ، أمير غال (ثم الملك ادورد السابع) (18621869-) ، ناصر الدين شاه (1873) ، ولي عهد فرنسا الأمير نابليون . وتقابل كذلك مع مجاهدي المسلمين والعرب العظام كالشيخ شامل والأمير عبد القادر .

وخلال فترة إمارته ، كانت له شقة خاصة في دولمة بقجة . لكنه لم يكن يسكنها بصورة دائمة بسبب كثرة المراسم في قصر البادشاه ، كان يمكث معظم الوقت في مزرعته الكائنة في طرابيا ، قصر مسلخ الكائن في كاغدخانة ، سراي والدته المعنوية بيرستو قادين الكائن في ماجقة .

كان عبد الحميد أفندي ذا صحة جيدة ، يزاول الرياضة ، وركوب الخيل واستعمال السلاح . مارس الشراب فترة من الزمن ثم تركه . لم يكن يتوانى أبدا في أداء واجباته الدينية . كان مقتصدا ، لكنه لم يكن شحيحا . لديه قدرات وبخاصة في الأمور المالية . كان أغنى الشهزادات (الأمراء) ؛ ففي الوقت الذي بلغت فيه ديون أخيه الكبير مراد أفندي مليون قطعة ذهبية عام 1876 تقريبا . بلغت قيمة مزارعه وأمواله غير المنقولة وسنداته وجواهره ونقوده ملايين القطع الذهبية . حذرا ، كتوما جدا ، قليل الكلام كثير الإصغاء . كان ولوعا جدا بتمحيص أخلاق البشر والنفوذ إلى نقاط ضعفهم . من الصعب جدا غشه . كان أبوه يقول له عند تودده إليه « ابني الشكّاك والصامت » انتمى إلى جمعية العثمانيين الجدد في بداية تشكيلها كأخيه الكبير ، وخلال سنة ، اكتشف غاية الجمعية ووجدها مضرة بمصالح الدولة وسحب يده منها ، بينما ظل أخوه مرتبطا بها إلى النهاية . كان يقابل الشعراء والفنانين والصحفيين ورجال الدولة والأجانب ويحميهم ويهتم بهم ، لم يكن يحضر كأخيه موائد الشراب ويتكلم بما لا يعني . كان يحب عمه بإخلاص ويحترمه ، لم يستطع أن ينسى حتى نهاية حياته فاجعة خلع عمه وقتله . كان قد ترعرع مع أخيه الكبير مراد أفندي ، كانا صديقين ، يحب أحدهما الآخر من صميم قلبه . لكنه لم يكن يستصوب طريقة حياة أخيه . وبخاصة عندما شاهد اشتراكه في الدسائس ضد عمه ، وكان يبتعد عنه بنفس مقدار تورطه . لم تكن له علاقة مع أخيه محمد رشاد أفندي الذي خلفه ، لم تكن طباعهما متفقة . أما أخوه أحمد كمال الدين أفندي الذي ولد بعده ، فكان يحبه جدا ويصادقه . وكان هنالك فارق كبير في العمر بينه وبين أخيه برهان الدين أفندي الذي ولد بعد ذلك ، فكان يحبه ويقوم بحمايته كابنه . لم يكن محبا لأخوته المؤخرين نور الدين وسليمان أفندي . كان يحب أصغر أخوته ، وحيد الدين أفندي الذي سنه ، سن ابنه ، وكان يبسط عليه حمايته .

كان عبد الحميد أفندي يشبه عمه السلطان عزيز في طريقة حياته . يعيش محافظا على التقاليد الشرقية ، الإسلامية ، العثمانية ، التركية . وكان من مؤيدي المحافظة عليها . كان يرى أنه ينبغي الوقوف عند اقتباس تكنولوجيا وعلم الغرب فقط ، والاطلاع على الثقافة الغربية ، دون تقليد الغرب في معيشته ، وبذلك كان تفكيره يختلف عن تفكير أبيه السلطان مجيد وأخيه الكبير السلطان مراد ، لم يرتح لتفرنجهم . كان مؤمنا بنظام

التنظيمات ، وكان معجبا بجده السلطان محمود . كان يعلم أنه ورشيد باشا ، أنقذا الامبراطورية من التبعثر والعاقبة التي لحقت بتركستان وقفقاسيا ، كان قد درس ذلك جيدا ، وكان تفكيره مثل تفكير رشيد باشا ، الذي يعتنق مبدأ الانتفاع من التوازن الدولي . وقد كانت كل الدول تعيش على هذا النمط ، ومن غير الممكن أن تشذ العثمانية على ذلك . كان يعشق السياسة الخارجية وله فى هذا الجانب قدرات ممتازة ، وكان مولعا بمعرفة كل ما يجري في العالم ، يتابع الصحافة يوميا .

عاش عبد الحميد الثاني الذي له هذه السجايا ، مدة تزيد على الـ 33 سنة ، لم يفكر فيها قط في السلطنة . كان عمه كالأسد صحة ، وكان أخوه الكبير شابا . ويحتمل ألا يلحقه الدور . لكن عمه خلع بشكل لا يخطر على البال . وأظهر أخوه الكبير علامات عدم التوازن العقلي يوم جلوسه على العرش . أحدثت واقعة جركس حسن ردود فعل على نطاق عالمي . شاهد العالم حرص وطمع رجال الدولة ، كما شاهد الظالم الجبار المسمى حسين عوني باشا ، ورأي الأطماع السريّة المستندة على القوى الأجنبية لشخص كمدحت ، والرياء والتملق الخسيس لشخص كالمترجم رشدي .

شعر عبد الحميد أفندي باقتراب دور سلطنته ، كانت مدة ولاية عهده عبارة عن مدة سلطنة أخيه الكبير وهي 93 يوما . ولو عاش حسين عوني ، لما أمكن خلع السلطان مراد . كان قصده أن يجعل صلاح الدين أفندي ابن السلطان مراد البالغ عمره 15 عاما نائبا للسلطنة إلى أن يتم شفاء أبيه ، وأن يبقى هو دكتاتورا مدى الحياة . اقنع عبد الحميد أفندي ، مترجم رشدي باشا الكبير السن بإيحائه إليه بأنه سيبقي مدحت باشا في الصدارة مدى الحياة ، وقدم إليه هدايا من البرلنت والماس ، متظاهرا أنه من مؤيدي المشروطية . الحقيقة أنهم لم يقتنعوا ، ولكن لم يكن لهم بد من ذلك . كان من المتعذر أن يبقى بادشاه مختل الشعور على العرش . لم يجر حتى احتفال السيف والتتويج للسلطان مراد . بدأ الهمز واللمز والقيل والقال على نطاق واسع ، كان أكثرية الوزراء والمشيرين يرون أنه لا مخرج من ذلك إلا بإجلاس عبد الحميد أفندي .

صوت كل النظّار (الوزراء) فى اجتماع وزاري لصالح إجلاس عبد الحميد أفندي ، عدا رأي واحد أيد بقاء مراد خان .

أعلن عبد الحميد أفندي ، خاقان ـ خليفة بلقب « السلطان عبد الحميد خان الثاني » . كان عمره آنذاك 34 عاما إلّا 19 يوما .

جلس على العرش الذي أخرج إلى فناء سراي طوب قابو وتقبل البيعة (1876/8/31 ، الساعة 12) . وفي 7 أيلول جرت مراسم السيف . زار دائرة السر عسكر (رئاسة أركان الجيش) ، نظارة البحرية والمشيخة والمستشفيات العسكرية وأكل القاراوانه (الطعام المطبوخ بقدر كبير) مع الجنود كعمه . أقام مأدبة لرجال الدولة في السراي وخطب فيهم . خرج الشهزادات مع رجال الدولة إلى البحر الأسود وإلى بحر مرمرة باليخت . ذهب إلى المساجد فجأة وصلّى بين الشعب . أخرج أغوات الحرم (الخصي) من البروتوكول ، وأصبحت الرتب التي يحملونها معتبرة داخل السراي فقط . سوف نرى فيما بعد سلسلة الحوادث التي أجبرت السلطان حميد ـ الذي شوهد في صورة الحاكم الديمقراطي ـ على ملازمته سراي يلدز ، خلال مدة قصيرة .

استقال مترجم رشدي باشا من صدارته الرابعة بعد 7 أشهر و 9 أيام (1876/12/19) . تصدّر للمرة الثانية مدحت باشا رئيس شورى الدولة . استقال رشدي باشا ؛ لخشيته من المشروطية التي تمت الاستعدادات لإعلانها ، ولسأمه من دسائس مدحت باشا التي يحيكها لإسقاطه . ولو كان يملك العزيمة القوية التي تمكنه من الاتفاق مع البادشاه ، لكان من المكن تنحية مدحت باشا وأعوانه . كانت لديه هذه المقدرة ، لكنه رجح الاستقالة .

ومن ناحية أخرى فإن اقتراب حرب روسية الجديدة ، كانت قد أخافت الدول العظمى . اجتمع مؤتمر ترسخانة في إستانبول برئاسة ناظر الخارجية صفوت باشا . عقدت 9 جلسات (1876/12/23 ـ 1877/1/20) . وبينما كان عصيان بوسنة ـ هرسك والاضطرابات في كريت مستمرة ، أعلنت كذلك إمارتا صربيا وقرة داغ العصيان ، وحتى الخديو إسماعيل أرسل وحدات مصرية إلى البلقان . وفي 29 ت1 (1876) تمكن الفريق (غازي) عثمان باشا من الانتصار بسهولة على الجيش الصربي الذي يقال إن الفريق الأول الروسي çernayef « فاتح طاشقند » كان يقوده متنكرا ؛ في المعركة الميدانية Aleksinaç . وبينما كان على وشك دخول بلغراد ، قدمت

روسيا مذكرة . منح الباب العالي إلى تبعته الصرب والقرة داغيين العصاة هدنة لمدة شهرين . مثّل في مؤتمر Tersane ، كل من إنكلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا وتركيا والنمسا والمجر وإيطاليا ، عدا سفرائهم الموجودين في إستانبول ؛ رئيس مفوض من كل منهم . كان أهم هؤلاء وزير الهند لورد (ماركيز) سالزبوري Salisbury ، صديق الأتراك ، عدو الروس الذي سيكون بعد 4 سنوات رئيسا للمحافظين ورئيسا للوزارة . استقبل البادشاه ، هذا اللورد في 20 ك1 وتكلم معه بواسطة مشير المابين سعيد باشا الملقب « إنكليز » الذي قام بالترجمة . افاد سالزبوري ، بأنه يمكن تفادي الحرب بتقديم تعويضات طفيفة ، وإن إنكلترا ستبقى على الحياد ولا تحارب بجانب روسيا في حالة وقوع حرب ، وعلى العكس من ذلك فإن ألمانيا سوف تساند روسيا . ناقش مدحت باشا البادشاه وأصر على أن اللورد يكذب ويتكلم باسمه هو وليس باسم رئيس وزراء إنكلترا . لم يكن القيصر المصلح الكساندر الثاني ، الذي أطلق حرية 20 مليونا من اسراء الأراضي ، يريد الحرب . لكن كان في روسيا ، كما هي الحالة في تركيا صقور ، وهم الرابطة السلافية ، شنوا حملة واسعة لسحق تركيا . وفي جو كهذا ، بدأت المشروطية الأولى في الدولة العثمانية .

2 – إعلان المشروطية الأولى (1876/12/23) نفي مدحت باشا (1877/2/5) افتتاح مجلس المبعوثان (النواب) (1877/2/19) :

يمكن اعتبار نظام « المشروطية الأولى » التي تسمى (الديمقراطية المتوجة) الذي عاش مدة قصيرة جدا والمعروف كذلك باسم « مشروطية 93 » (بالنسبة إلى السنة الرومية 1293) ، أثرا لمدحت باشا . أعلن القانون الأساسي (الدستور) بصورة رسمية (1876/12/23) ، وبقي ساري المفعول حتى عام 1960 .

لم يحدث إعلان الدستور لدى الدول الأوروبية تأثيرا مواليا للعثمانية ، على عكس ما كان يتصوره مدحت باشا . لكن الباشا الذي لم يدرك ذلك ، استمر على تحريضه لإشعال نار الحرب . مؤتمر ترسخانة ، كان يضغط على الباب العالي لإجراء إصلاحات في إيالات ألطونة (بلغاريا) وبوسنة – هرسك . شكّل مدحت باشا في الباب العالي مجلسا فوق العادة يتألف من : 240 شخصا (60 منهم مسيحيون) لغرض مراجعة

مقترحات المؤتمر (1877/1/18). خطب في هذا المجلس بشكل اتهم فيه مقدما ، الذين يصوّتون ضد الحرب بأنهم غير محبين لأوطانهم بل واتهمهم بالخيانة . وفضلا عن أنه هاجم روسيا بألفاظ لا يصح أن تصدر من رئيس حكومة ، فإنه تطاول على الدول الأوروبية الأخرى كذلك . رفض المجلس اقتراحات مؤتمر ترسخانة ، ووزع الباشا الدراهم على طلاب المدارس الدينية وعلى صنف العاطلين ورتب مظاهرات ساقها حتى نافذة البادشاه تنادي بـ « الحرب » . لم تكن الصحافة العثمانية الجديدة بأقل من الباشا تحريضا على إشعال نار الحرب . ذهب السكون وبدأت ريح الانقلاب تعصف . كان من الطبيعي ألا تسري قواعد الدبلوماسية في مثل هذا الجو ، وإن سرت فإن نتيجتها سوف تكون عكسية . متملقا مدحت باشا الاثنين الجهلة ؛ داماد محمود جلال الدين باشا ومشير رديف باشا ، أفادا للبادشاه بأن الجيش كذلك يطلب الحرب وأن روسيا سوف تندحر ، وأن إنكلترا بطبيعة الحال ستقف بجانب تركيا في الحرب . ورغم أن عبد الحميد الثاني لم يقتنع بهذه المعلومات ، لم يكن بوسعه منع وقوع الحرب ؛ إذ أن الذين يتشبهون بزعماء الثورة الفرنسية الكبرى ، سوف يخلعونه عن العرش ويجلسون أخاه الكبير السلطان مراد الذي قيل أنه شُفي ويعلنون الحرب . صادق الخاقان على رفض مقترحات مؤتمر ترسخانه . عين جميع سفراء الدول العظمى الموجودين في إستانبول ، قائمين بالأعمال بدلا عنهم وتركوا العاصمة العثمانية . أصبحت تركيا بمفردها وجها لوجه أمام روسيا . بالرغم من كل هذا لم يتراجع مؤيدو الحرب عن تفكيرهم .

لم تدم صدارة مدحت باشا الثانية ، في غمرة هذا الجو الهائج ، أكثر من 47 يوما . عزل عبد الحميد الثاني ، الصدر الأعظم (1877/2/5) . لم تدم صدارتا مدحت باشا ـــ الذي أصبح اسمه حديث الجميع والذي روّج أنه أدار دفة الإمبراطورية سنين طوالا ـــ أكثر من 4 أشهر و 6 أيام . ومجموع مدة عضويته في وزارات الإمبراطورية كرئيس لشورى الدولة ، ووزير للعدل ، ووزير للدولة عبارة عن سنتين و 4 أشهر و 12 يوما . نشأت شهرته من كونه أقوى والي لإيالة انجبته التنظيمات . صار واليا عاما على كل من إيالة ألطونة التي تزيد مساحتها على بلغاريا الحالية ، إيالة بغداد التي تزيد مساحتها على العراق الحالية ، وإيالة سورية ، وإيالة آيدن التي مركزها أزمير وتشمل منطقة إيجه

بكاملها ، إيالة أدرنة التي تشمل كامل تراقيا ، إيالة نيش التي تشمل كل صربيا الجنوبية ، سلانيك (مكدونيا الجنوبية) . شهرته الأولى عمّت في إيالة ألطونة . وضع هنا أسس النهضة لبلغاريا الحالية . وإضافة إلى تأمينه استتباب الأمن والنظام بشكل جيد جدا ، تمكن من تحقيق أعمال كبيرة في المجالات الاقتصادية والتجارية والاعمارية والمواصلات ، مستندا على عشق السلطان عزيز الشديد للاعمار . أثنت عليه الصحافة الأوروبية كثيرا وقدّمته على أنه من أقوى الولاة في العالم . وفى الداخل قامت الصحافة ــ التي يوجهها العثمانيون الجدد ــ بنفس العمل . وبينما اتخذ العثمانيون الجدد من مدحت باشا وسيلة لتحقيق غرضهم وجعل زعيمهم الشاعر ضياء باشا صدرا أعظم ؛ إذا به يدوس على ظهور العثمانيين الجدد ويعتلي بواسطتهم السلطة ، وتتأزم علاقته مع الزمرة القيادية للعثمانيين الجدد . وعندما أسس علاقات متينة مع إنكلترا ، وشاهد الصدور العظام وحتى السلاطين ، احتضان لندن في مختلف المناسبات ، لمدحت باشا ، اضطروا إلى منحه السلطة رغم عدم محبتهم له . والسبب في أنه لم يكن محبوبا ، أنه كان أنانيا إلى درجة مذهلة ، يقيم كل الأمور من زاوية نفعه الشخصي ، يرتب كل ليلة موائد الشرب ، يضع أكبر أسرار الدولة المحظورة النشر موضع نقاش وجدل ، يحاول إخافة البادشاه وأصدقائه الوزراء ويهددهم بصحافة إنكلترا والصحافة العثمانية . لم يتمكن أبدا من النجاح في الإدارة المركزية كنجاحه في إدارة الإيالات ؛ كان يجهل السياسة الخارجية تماما لعدم نشوئه في السلك الدبلوماسي . ولذلك فقد ارتكب أخطاء كبيرة وعديدة . ولأن الدولة العثمانية ، لم تكن دولة شعب واحد بل اتحادا لمختلف الشعوب ، فهي تكوين سياسي لا يمكن أن يديره صدر أعظم ووزراء لا يتقنون السياسة الخارجية إتقانا جيدا .

لم يكتف عبد الحميد الثاني بعزل مدحت باشا ، بل نفاه خارج حدود العثمانية . وقد استند في ذلك على المادة التي أدخلها مدحت باشا إلى الدستور خلافا لأسس التنظيمات والتي تمنح الحاكم حق نفي الأشخاص الذين يرى أن بقاءهم مضر من الناحية السياسية . مدحت باشا الذي استند على هذه المادة ، خلال صدارته القصيرة ، في نفي عدد من مخالفيه من رجال الدولة ؛ مهد في ذلك السبيل للخاقان الشاب . والسلطان عبد الحميد الذي شاهد مبلغ سهولة تطبيق هذه المادة ، طبقها أولا على أستاذ هذه المادة .

صار إبراهيم أدهم باشا ، الذي أصبح قبل مدة رئيسا لشورى الدولة بعد أن كان في سفارة برلين ، صدرا أعظم مكان مدحت باشا . كان مدرسا للّغة الفرنسية للبادشاه في عهد إمارته . أخرج مدحت باشا بسفينة خاصة ، إلى برنديزي بناء على طلبه .

افتتح مجلس النواب ، بعد نفي مدحت باشا ، على أيام صدارة أدهم باشا (1877/3/19) . كانت عضوية مجلس سناتو الإمبراطورية التي تسمى « مجلس أعيان أعضاليغي » (عضوية مجلس الأعيان) ، مدى الحياة . أما انتخابات النواب فكانت على مرحلتين . حتى الإيالات البعيدة كاليمن ، ليبيا ، بوسنة .. فانتخبت نوابا وجاءوا إلى إستانبول . بعضهم كان يحضر إستانبول لأول مرة في حياته . كان بعضهم يحسن التكلم بالتركية بالدرجة الكافية، وبعضهم لا يستطيع التكلم بالمرة . ولأن اللغة الوحيدة في المناقشات هي اللغة التركية ، فقد كانوا فقط يرفعون أصابعهم . افتتح المجلس السلطان عبد الحميد الثاني بخطاب . اشترك في الافتتاح أخواه ولي عهد السلطنة محمد رشاد وولي العهد الثاني أحمد كمال الدين أفندي . ترأس المجلس أحمد وفيق أفندي (باشا) . وأخذ في تنظيم وإدارة الجلسات ، حيث لم تكن ماهية النظام البرلماني ، (ما يجب وما لا يجب عمله) ، معروفة ، كانت الأصوات تعلو من كل جانب .

وقعت خلال ذلك ، الدول الأوروبية الـ 6 العظمى — التي سحبت سفراءها من إستانبول ، فيما بينها ، عدا العثمانية — بروتوكول لندن (1877/3/31) . يعرض هذا البروتوكول على الباب العالي شروطا أخف من شروط مؤتمر ترسخانة . يؤمن حدود العثمانية مقابل إجرائها بعض الإصلاحات في الإيالات البلقانية لصالح الرعايا المسيحيين ، وكانت روسيا بالذات مشتركة في هذا التأمين . كان البروتوكول يطلب إعطاء قضاءين من سنجق (ولاية) هرسك المسكونة بالصرب الأرثوذكس ، إلى إمارة قره داغ . سوف تستمر قره داغ في تبعيتها للعثمانية . ويطلب المؤتمر كذلك انسحاب كل من الجيشين العثماني والروسي واللذين احتشدا في الأشهر الأخيرة على الطونة بشكل متقابل ، وإعادتهما إلى العدد كانا عليه كل منهما في وقت السلم . وافق القيصر على ذلك . ورفض الباب العالي هذه الشروط (1877/4/10) . وبناء على ذلك ، أبلغ القيصر الكساندر الثاني الذي لا يريد الحرب ، الباب العالي طالبا إعطاء قضاء Niksik فقط إلى قره داغ ، وبهذا فقط يمكنه إرضاء الوطنيين من الرابطة السلافية الموجه [illegible] روسيا والذين

يريدون الحرب ، وقره داغ هي أساسًا قطعة من الإمبراطورية التركية . صار رفض الباب العالي لهذا الاقتراح الأخير فاجعة على العثمانية . لم يفكر الباب العالي فيما سيفقده ويضحى به مقابل عدم إعطاء قضاء تافه مسكون بالمسيحيين إلى قره داغ ، بدعوى أنه « مخالف للقانون الأساسي » (مغاير للدستور) . دُعي القائم بالأعمال العثماني في بطرسبورغ توفيق بك (توفيق باشا آخر صدر أعظم للدولة العثمانية) إلى وزارة الخارجية وأعطي له جواز سفره . زار القائم بالأعمال Nelidof لسفير روسيا في إستانبول الفريق الأول الكونت Ignatiev الموجود في أوروبا ، وزير الخارجية صفوت باشا ، وقدم مذكرة إعلان الحرب لقيصره ، بكل احترام ؛ استصحب معه منتسبي السفارة ، اثنان منهم أمير ، وركب يخته وذهب إلى أوديسا . بدأت الحرب الكبرى (1877/4/24) . أن هذه الحرب الروسية - التركية التي اشتهرت في التاريخ العثماني باسم « حرب 93 » إذ إنها حدثت سنة 1293 الرومية ، هي أكبر حرب عالمية جرت خلال الفترة بين الحرب الألمانية - الفرنسية عام 1870 - 71 والحرب الروسية - اليابانية عام 1904 - 1905 .

بلغ تعداد العالم خلال هذه الأيام (أوائل 1876) 1326 مليونا (1137 مليونا في 1850) . كان تعداد سكان الدول العظمى 898 مليون نسمة في 1850 ، 1108 ملايين نسمة في 1876 . وبينما كان تعداد جميع الدول الأخرى في 1850 ، 219 مليون نسمة ، هبطت في 1875 إلى 189 مليون نسمة . كانت الدول العظمى في 1876 بالنسبة إلى تسلسل الأهمية هي : إنكلترا ، ألمانيا ، روسيا ، فرنسا ، تركيا ، النمسا - المجر ، الصين ، الولايات الأمريكية المتحدة ، إيطاليا ، أسبانيا . وخلال ربع قرن (1850 - 1875) ارتفع تعداد إنكلترا مع مستعمراتها من 259 مليونا إلى 303 ملايين ، وألمانيا من 17 مليونا (بروسيا فقط) إلى 42 ، وفرنسا من 39 مليونا إلى 45 ، وروسيا من 68 مليونا إلى 89 ، وتركيا من 54 مليونا إلى 64 ، والنمسا من 39 مليونا إلى 38 ، والصين من 380 مليونا إلى 430 ، وأمريكا من 23 مليونا إلى 45 ، وإيطاليا إلى 27 مليونا ، وأسبانيا من 19 مليون إلى 25 .

وفي 1850 ، زاد عدد المدن التي يربو تعداد سكانها على مليون نسمة من 5 إلى 8 ، والتي عدد سكانها بين نصف مليون ومليون من 6 إلى 14 ، والتي عدد سكانها بين

المائة ألف ونصف مليون من 104 إلى 169 ، والتي بين الخمسين ألف والمائة ألف من 187 إلى 192 ، وجميع مدن العالم التي يزيد عدد سكانها على الخمسين ألفا من 291 إلى 375 . وفي 1876 كان عدد المدن التي يتجاوز سكانها الخمسين ألفا في إنكلترا 86 ، وفي تركيا 39 ، وفي الصين 34 ، وفي ألمانيا 28 ، وفي فرنسا 26 ، وفي أمريكا 23 ، وفي روسيا 16 ، وفي أسبانيا 15 ، وفي إيطاليا 14 ، وفي اليابان 13 ، وفي النمسا 11 ، وفي هولندا 10 ، وفي إيران 9 ، وفي جميع بقية الدول 51 مدينة .

وفي هذا التاريخ ، ولأول مرة في العالم يصل تعداد سكان مدينة إلى 4 ملايين : لندن 4 ، باريس 2,2 ، نيويورك 1,9 ، بكين 1,7 ، إستانبول 1,2 ، برلين 1,2 ، فينا 1 ، كانتول 1 مليون .

3 - حرب 93 (1877/6/22 - 1878/1/31) :

كان السردلر الأكرم مشير عبد الكريم نادر باشا قائدا لجبهة ألطونة وكان يعرف بين الشعب باسم « عبدي باشا » ، كان مقره العام في مدينة شومنو في دلي أورمان . كانت مجموعة جيوش ألطونة لعبدي باشا ، 3 جيوش : مركز جيش الغرب Vidin (مشير عثمان باشا) ، ومركز جيش الشرق روسجوك (مشير أحمد أيوب باشا) ، مركز جيش الجنوب قيزانلق (مشير سليمان باشا) . لم يكن جيش الجنوب قد احتل مكانه عند بدء الحرب ، كان ينتظر قدومه مع فرقة سليمان باشا الموجودة معه في Mostav (هرسك) . وعدا مجموعة الجيوش هذه ، كان لكل من الولاة العسكريين ولي باشا في بوسنة سراي ، ومشير علي صائب باشا في إشكودرا ، ومشير محمد علي باشا في يني بازار فرقة ، يشكلون جبهة تجاه امارتي صربيا وقره داغ العاصيتين . ومن ناحية أخرى كانت توجد في كل من Epir (Yanya) ، Tesalya ، Girit فرقة تجاه اليونان . وبين هذه الجيوش ، تبلغ مجموعة جيوش ألطونة ، 200 000 جندي وأكبر وحدة فيها ، هي جيش أيوب باشا الذي يحتوي على 100 000 جندي تقريبا .

كانت قوات الروس عند بدء الحرب في جبهة ألطونة تبلغ 250 000 جندي و 800 مدفع . وكان احتياطهم كبيرا إلى درجة لا تقبل القياس مع احتياطي العثمانية . كان الخيالة الروس قد جهزوا تجهيزا فائقا . كانت الأسلحة النارية ، لدى العثمانية ، أحدث

وأمتن . ومن ناحية أخرى ، كان على رأس وحدات العصاة في إمارة صربيا جنرالات وضباط روس . وكان في إمارة رومانيا التابعة للعثمانية جيش حديث مكون من 000 50 شخص (4 فرق) .

كانت نقاط الضعف الاستراتيجية والعسكرية متعادلة في كلا الطرفين المتحاربين . ونقاط الضعف هذه كانت كبيرة في كلا الطرفين . إمبراطوريتاهما كانتا مترامیتي الأطراف . روسيا تمتد بين المحيط الهادي وبحر البلطيق ، وبين بحر الشمال الجليدي والخزر والبحر الأسود ؛ أما العثمانية ، فكانت تمتد بين أوروبا الوسطى وأفريقيا الوسطى . بناء على ذلك ، لم تكن كل من الإمبراطوريتين قادرة على حشد قواتها العظمى والحرب في جبهات ضيقة كجيوش ألمانيا وفرنسا البرية . الجبهات كانت واسعة . لم يكن بإمكان كل الإمبراطوريتين إخلاء أقطارها البعيدة من الجيش وحشده في الجبهة . كان الجيش العثماني السابع في اليمن ، كان لدى العثمانية فرقة في كل من الحجاز واليمن ، كما كان لها قوات في الحدود الإيرانية . لم يكن اشتراك هذه القوات في القتال ، واردا في أي وقت من الأوقات . المواصلات في العثمانية ، كانت أسوأ مما كانت عليه في روسيا ، كانت العثمانية من حيث التعداد ، أقل من روسيا بشكل لا يقبل النسبة ؛ حيث كانت جماعة المسيحيين الكبيرة ، لا تشترك في الخدمة العسكرية .

وضع رومانيا كان حرجا . طلبت رومانيا صديقة الأتراك وعدو الروس عند بدء الحرب من الباب العالي أن يمنحها الاستقلال وأن تنفصل عن كيان الإمبراطورية العثمانية ، وفي هذه الحالة تبقى على الحياد في الحرب . رفض الباب العالي هذا الطلب بخشونة . وهكذا رمى بشعب لاتيني في أحضان روسيا التي تتزعم السلاف ، واشتراك القوات الرومانية الفتية في الحرب بجانب روسيا ، قضى على التوازن للوجود في جبهة ألطونة . وسنرى فيما يلي ، الوضع في الجبهة القفقاسية .

اجتاز الجيش الروسي ألطونة بنجاح ، بعد إعلان الحرب بشهرين . تمكن ، ليلة 21 حزيران (1877) الجنرال الروسي ، الألماني الأصل Zimermann من عبور ألطونة من ماجين قرب إبرائيل مع جيشه البالغ 000 40 شخص . واجتازت خلال 4 أيام قوات كبيرة من Zistovi إلى الطرف المقابل . وهكذا تم انتقال الروس من رومانيا إلى بلغاريا

ودوبروجا عند حلول شهر تموز . هذا الاجتياز السهل للروس ، أدهش العالم وجعل العثمانية تخسر الحرب منذ البداية . المسئول عن ذلك هو ضابط ركن نشأ في فيينا لكن معلوماته العسكرية كانت قديمة ، هو عبدي باشا الكبير السن . لم يستفد من عدم سماح السردار الأكرم عمر باشا للروس عبور الطونة في حرب قرم وحيلولته دون ذلك بإجرائه حروبا ميدانية متتالية أثناء محاولتهم العبور . احتل الروس في 7 تموز Tirnova وفي 16 منه Nigbolu ، وفي 19 منه ممر شبقا Sipka . إن الجنرال Gurko باستيلائه على ممر شبقا ، وقطعه بذلك خطوط اتصال القوات العسكرية العثمانية التي بقيت في شماله وجنوبه قد أحرز نصرا كبيرا . وبالنسبة للجانب العثماني ، كان ذلك خطأً فادحا وتقصيرا كبيرا لذا عزل عبدي باشا في 17 تموز . صار المشير محمد علي باشا قائدا عاما . كان عسكريا ممتازا ، أكمل تحصيله العسكري في ألمانيا ، لكنه لم تكن لديه التجربة الكافية لإدارة حرب كبرى كهذه ، فضلا عن تحويلها إلى انتصار . ولصغر سنه لم يكن بمكنته السيطرة على المشيرين الآخرين ، بقدر ما كان ممكنا لعبدي باشا . وأثناء ذلك سار عثمان باشا البالغ عمره 45 عاما ، والذي رقي إلى رتبة مشير قبل سنة ، مع أقسام الوحدات الباقية خارج قلاع جيش الغرب ، بمسيرة إجبارية من Vidin وجاء إلى Plevne . أخذ بتحصين بلونة التي ليس لها قلعة بسرعة وبدهاء عسكري في الاستحكام يفوق عصره . كان مقتنعا بأنه بذلك يمكنه منع زحف الروس من جبال البلقان إلى الجنوب . ولكن لتحقيق ذلك ، كان يجب إمداده من الجيوش الأخرى . أما سليمان باشا فقد ركب مع 000 25 جندي مجهز بتجهيزات كاملة ، الأسطول العثماني الذي كان بانتظاره في ميناء Bar (بالإيطالية : Antivari) على بحر Adria ، وخلال 17 يوما وصل عن طريق البحر إلى السفوح الجنوبية لممر شبقا (1877/7/26) . نقل جيشه عبر البحار وأنزله في ميناء ده ده آغاج ، ونقله من هناك إلى قيزانلق ودمج الوحدات الموجودة هنا ، وشكل جيش الجنوب .

أدرك الجنرال الروسي ، الألماني الأصل Childer - Sehuld نية عثمان باشا وأراد المجيء بسرعة إلى بلونة لكنه شاهد الباشا الذي وصلها قبل 6 أيام بمسيرة جبرية لا تصدق مختبئا تحت الاستحكامات الترابية . أراد قصف جنود عثمان باشا الذين أعياهم حفر الخنادق والمسيرة الإجبارية ، قبل إتمامهم استحكاماتهم وتسلمهم الإمدادات .

انسحب بعد أن ترك 2847 قتيلا ومهمات على نطاق واسع (انتصار بلونة الأول 1877/7/20) . أيقن من عدم كفاية قوته وأخذ ينتظر الإمداد .

تسلم الجنرال Krudner الذي جاء حديثا القيادة ، وهو ألماني . هجم على بلونة مع 50 000 جندي و 184 مدفعا . خسر 7305 قتلى وانسحب للم شعث جيشه المشتت (انتصار بلونة الثاني ، 1877/7/30) . كانت أضرار العثمانية 100 شهيد و 400 جريح فقط . تحولت أنظار العالم إلى بلونة . كثيرون من مراسلي الحرب والملحقين العسكريين الأوروبيين جاءوا إلى طرفي بلونة الروسي والعثماني وأخذوا في متابعة الوضع . نقلت الخطوط اللاسلكية وضع بلونة إلى العالم ساعة بساعة .

سليمان باشا ، الذي أخرج Gurko من Zagva القديمة ورماه إلى شبقا (1877/7/31) ، جعل مقره قزانلق . كان يريد المرور من ممر شبقا والاتصال مع الجيشين الموجودين في الشمال . دفع بالجيش العثماني بعناد مدة 7 أيام و 7 ليال دون أن يبالي بتساقط الجنود بدفعات الرشاشات التي ترش عليهم من فوق رءوسهم أثناء عبورهم من ممر شبقا الضيق والقائم عموديا بشكل مخيف (20 – 1877/8/26) . تابع القيصر والبادشاه حركات شبقامدة أسبوع دون أن يتركوا أماكنهم ليلا قرب جهاز اللاسلكي . وفي 26 آب سحب سليمان باشا جيشه إلى قيزانلق بعد أن أيقن عدم إمكان اجتيازه الممر وتكبده خسائر جسيمة . إن مسئولية إعطاء موقع إستراتيجي كهذا إلى العدو في بداية الحرب ، يقع بلا شك على عاتق عبدي باشا . وفي ليلة 17 أيلول قام سليمان باشا بهجوم مفاجئ تجاه الجنرال لكنه لم يوفق في اجتياز الممر .

كان علي باشا في الشمال في مواجهة أخ القيصر Granduk Nikolay . دافع عن دلي أورمان . ورغم انتصاره في المعارك الميدانية آيازلر (22 آل) ، قهرمان (30 آب) ، قاجيلوفا (5 أيلول) وآبلوفا . لم يتمكن من الوقوف في مواجهة الروس الذين يتسلمون إمدادات مستمرة لا تنضب . وبذلك لم يتمكن لا من تطبيق خطة فتح الممر في هذه المرة من الشمال والوصول إلى شبقا ودحر غوركو ، ولا من تطبيق فكرة الذهاب إلى بلونة وإنقاذ عثمان باشا من الحصار . ومع ذلك كان القتال شديدا . لم يزل الوضع بالنسبة للروس مضطربا وغير واضح في مستهل شهر أيلول . في 21 أيلول

انتصر الغراندوق Nikolay ، على محمد علي باشا في الحرب الميدانية جاقيركوى . قضى محمد علي باشا أسبوعين وهو في ذهول ، ولم يتمكن من الذهاب لا إلى شبقا ولا إلى بلونة خشية فقدانه جنوده . وفي 28 أيلول عزل ، وصار مشير سليمان باشا ، قائدا عاما لجبهة الطونة . جيء به للقيادة بسبب جرأته . حيث إن عامل الجرأة فقط ، هو الذي يمكن أن يجدي نفعا في هذه الحال .

جاء القيصر ألكساندر الثاني مع أخيه قائد عام جيش الطونة الماريشال غراندوق نيقولاي أمام بلونة . قامت مظاهرات مضادة للحكومة في بطرسبورغ . بدأت المحافل العسكرية الأوروبية تستهزئ بالروس . أخذ حشد الوحدات في التزايد أمام بلونة . تسلم عثمان باشا كذلك مساعدات أقل . لكن القوات الروسية لم تكن كافية . وبناء على رجاء القيصر ، انضم الأمير كارول الأول ، مع 50 000 من الجنود الرومانيين (فرقة خيالة ، 3 فرق مشاة) ، إلى 6 فرق روسية . أعطى القيصر قيادة جيش بلونة إلى الأمير كارول . كان رئيس أركان الجيش الجنرال Tottleben ألماني الأصل كأمير رومانيا واشتهر بتشييده استحكامات سيفا ستوبول في حرب قرم . ولأول مرة في التاريخ ، أخذ الجيش الروماني الفتي ، مكانه بجانب أعدى أعدائه الروس بدافع الحصول على استقلال رومانيا . وفي هذه الأثناء اشتد القتال مع صربيا وقرة داغ . كان جيشان عثمانيان يقاتل كل منهما كلا من هاتين الإمارتين بنجاح . كان العدو يقصف بلونة ليلا ونهارا بواسطة 432 مدفعا . كان لعثمان باشا 30 000 جندي و 58 مدفعا . كانت هنالك في الضواحي وحدات تابعة لعثمان باشا ، لكن ارتباطها مع بلونة أخذ في الانقطاع على مر الزمن . وكان سليمان باشا في الجنوب يحاصر شبقا لمنع اجتياز الأعداء . كان يلزم القضاء على بلونة أولا مهما كلف الأمر . قام الروس بهجومهم العام الكبير ظنا منهم أن بلونة أصبحت ملائمة إلى درجة كافية للحملة عليها . استمر الهجوم 12 ساعة . لم تنقطع إطلاقات رصاص البنادق ولا لحظة واحدة خلال مدة الـ 12 ساعة بكثافة لم يشهدها تاريخ الحرب في العالم . خسر العدو 15 553 قتيلا 3 منهم برتبة جنرال و 350 منهم برتبة ضابط . كانت خسائر العثمانية 3 500 تقريبا بين قتيل وجريح (انتصار بلونة الثالث ، 1877/9/11) .

كانت خـ ـئر الروس في أواسط شهر أيلول ، أمام بلونة فقط 50 000 قتيل

وجريح . لم يقدموا في أي قطاع خسائر جسيمة بهذه الدرجة . وباحتلال لوفجة Lofca في 3 أيلول ، أصبحت بلونة محاصرة من ثلاث جهات . كان طريق صوفيا في الجنوب – الشرقي مفتوحا فقط . بالإمكان تسلم العتاد من صوفيا . قطع الجنرال غوركو في 28 ت1 طريق صوفيا – بلونة بواسطة 35 000 جندي . وبهذا تمت محاصرة بلونة . اشترك شعب بلونة رجالا ونساءً في القتال ، لكن العتاد قل بشكل خطر . لم يكن المشيران التركيان الآخران يساعدان عثمان باشا – أكبر عسكري تركي أنجبه العصر التاسع عشر – الذي طبقت شهرته الآفاق . نشرت وثائق هذا الوضع المشين ، بعد ذلك بمدة طويلة . منح عبد الحميد الثاني ، عثمان باشا لقب « غازي » على أثر انتصار بلونة الثالث . ورغم أن سليمان باشا أمر ، كلا من المشير محمد علي باشا والمشير رءوف باشا ، لفتحهما طريق بلونة ، فقد كان كلاهما لم يحاول ذلك . انتصر فريق دلي فؤاد باشا في 4 ك1 ، في المعركة الميدانية Elena وغنم 11 مدفعا روسيا . لكن سليمان باشا خسر المعركة الميدانية ماجقة Maeka و لم يتمكن من استعادة Tirnova . حل الشتاء وحل معه البرد والجوع والمرض .

أراد عثمان باشا ، في هذه الليلة الخروج من بلونة ، بطلعة ليلية . إلا أن يهوديا من رعايا العثمانية في مدينة بلونة ، هرب خفية إلى طرف الروس وأخبرهم بأن جيش عثمان باشا وشعب بلونة سيخرجون ويذهبون . اتخذ الروس الذين لم يصدقوا في البداية ، كل التدابير . عثمان باشا ، الذي خسر في طلعته الليلية 2 500 شهيد و 3 500 جريح ، لم يشأ إتلاف جيشه أكثر من ذلك واستسلم (1877/12/10) . قتل الحصان الذي كان يمتطيه عثمان باشا برصاصة ، الرصاصة نفسها ، كانت قد جرحت الباشا في ركبته اليسرى . ضمّد الغراندوق نيكولاي احم عثمان باشا وجاء إلى الخيمة وأعاد له سيفه وهنّأه بسبب دفاعه المدهش . والمعلوم :: مقاومة بلونة ، جاءت بمبادىء جديدة في أصول الحرب الدفاعية وفي التعبئة للاستحكام . استقبل القيصر غازي عثمان باشا وهنأه . تم سوقه إلى روسيا ، لا كأسير بل كضيف إلى نهاية الحرب مع معيته الضباط . استقبل وودع بمراسم عسكرية في كل مدينة روسية . وعلى هذا تكون مقاومة بلونة قد استمرت 4 أشهر ، 23 يوما . تكاتف الجيش الروسي – الروماني البالغ 150 000 شخص بعد سقوط بلونة وهجم بكل قواه على جيوش الشمال والجنوب للعثمانية . حيث

تم القضاء على جيش الغرب لعثمان باشا ، سواء بوحداته الأساسية في بلونة ، أو بفرقه وأفواجه المنتشرة في الغرب . لم يعامل الروس الجيش التركي الذي استسلم في بلونة ، المعاملة نفسها التي عاملوا بها عثمان باشا . قتلوا القسم الأعظم من الجيش المستسلم في الطريق بحجة سوقهم إلى روسيا .

دخل الصرب إلى نيش في 14 ك1 . أخذ القره داغيون رصيف بار ولأول مرة خرجوا إلى الأدرياتيك (1878/1/10) . احتل الرومان Vidin (1878/2/24) . أدخلت اليونان 12 000 من جنودها إلى Tesalya دون أن تعلن الحرب (1878/2/2) .

إن العداوة الشديدة والمعيبة بين القائد العام سليمان باشا وقائمقام (وكيل) السر عسكر رفعت باشا ، قضت حتى على أمل إيقاف الروس في جبال البلقان . شتّت الجنرال Radetski بجيشه البالغ 50 000 جندي ، جيش الفريق ويسل Veysel باشا وفتح ممر شبقا نحو الجنوب (1878/1/9) . استسلم ويسل باشا مع 12 000 جندي و 280 ضابطا 4 منهم برتبة آلباي (زعيم) ، وفر النصف الآخر من الجيش متفرقا دون نظام و لم يتجمع بعدها . كان سليمان باشا قد انسحب من قيزانلق إلى تاتاربازارجكي . أخذ بالانسحاب لتفادي الانكسار تجاه جيوش Radetski وقائده Gurko الذي يطارده . انسحب حتى كمولجينه . وهكذا ترك روملي الشرقية (بلغاريا الجنوبية الحالية التي تقع في جنوب البلقان) تحت وطأة أقدام العدو . وسمح للعدو بالوصول إلى تراقيا بقليل من الجهد .

احتل الروس صوفيا (3 ك2) ، قيزانلق (8 ك2) ، Samakov (9 ك2) ، تاتاربازارجكي (14 ك2) ، جيربان (14 ك2) ، Tirnova (16 ك2) ، Filibe (17 ك2) ، جسر مصطفى باشا (19 ك 2) ، وفي النهاية في 20 ك2 (1878) ، احتل الروس أدرنة من أكبر مدن أوروبا . لم يدافع عن هذه الأراضي القائد العام الانقلابي الشهير المؤرخ والأديب « بطل شبقا » المشير سليمان حسني باشا . ترك المشير أحمد أيوب باشا ، أدرنة دون دفاع وانسحب إلى قيرقلارايلي لئلا تخرب المدينة . لكنه أثناء تفجيره العتاد الزائد ، قبل انسحابه ، تسبب في تخريب آثار تاريخية عديدة بسبب تطاير الشرر . والروس الذين دخلو المدينة ، خربوا كذلك آثارا تاريخية كثيرة جدا . جاء

في 26 ك2 القائد العام الماريشال الغراندوق Nikolay إلى أدرنة . سقطت Dimetoka (26 ك2) ، أوزون كوبري (Egene) (26 ك2) ، جورلو (29 ك2) سيليوري (5 شباط) ، جطالجة (6 شباط) . وحتى يشيل كوى إحدى ضواحي إستانبول احتلت كذلك . نصب الغراندوق مقره العام فيها .

وبذلك ، تكون الحرب ، في الجبهة الأوروبية قد انتهت بانتصار الروس الحاسم . جرت حروب كبيرة في جبهة الأناضول (القفقاس) كذلك وخلاصتها كما يلي : في بداية الحرب ، كان الجيش الرابع الموجود في الحدود القفقاسية عبارة عن 000 90 جندي ، 97 مدفعا صحراويا تحت قيادة بورصة لي أحمد مختار باشا المشير الشاب ذي المقدرة الممتازة والذي فتح قبل عدة سنوات اليمن وفتح عسير مجددا . ولا يدخل ضمن هذا التعداد الجنود الموجودون في القلاع ، ومدافع القلاع . وأهمها كانت قلعة أرضروم . كان مشير خانون أوغلي كرد إسماعيل باشا قائد موقع مستحكما فيها . وكان مشير لوفجالي درويش باشا مع جيش ، في باطوم . كان الخلاف شديدا بين هؤلاء المشيرين الثلاثة و لم يرق للاثنين الآخرين تعيين مختار باشا الأصغر منهم سنا للقيادة العامة للجبهة . وتجاه هذه القوات العثمانية ، كان للفريق الأول Melinkof الأرمني الأصل 000 125 جندي و 189 مدفعا . إلا أنه حصل على إمدادات مستمرة منذ الأشهر الأولى للقتال . أما الإمدادات التي حصل عليها الطرف العثماني ، فكانت لا أهمية لها .

بدأ القتال في هذه الجبهة قبل جبهة الطونة . احتل الروس بيازيد (1877/4/30) وأردخان (1877/5/17) وأثناء مسيرهم نحو قارص ، انهزم الجنرال Tergukasof في الحرب الميدانية Halyaz أمام أحمد مختار باشا (1877/6/21) . اتجه Melinkof إلى مختار باشا لكنه انهزم بدوره في الحرب الميدانية Zvin (1877/6/25) . عزل القيصر Melinkof ، وعين للقيادة العامة لجبهة القفقاس أصغر إخوته الثلاثة الغراندوق الماريشال Mihaylo الذي له أخ يكبره سنة واحدة Nikolay الذي كان قائدا عاما لجبهة الطونة . أنزل الفريق فاضل باشا فرقة واحدة عن طريق البحر بواسطة أسطول إلى سوخوم قلعة . انتصر مختار باشا كذلك في الحرب الميدانية كدكلر Gedikler (1877/8/25) . حصل من السلطان عبد الحميد الثاني على لقب « غازي » قبل عثمان باشا بـ 17 يومًا . ثم

هزم الروس مرة أخرى في الحرب الميدانية يخنيلر Yahniler (1877/10/4) . أحرز هذا الانتصار بجيش قوامه 34 000 في مواجهة 740 000 روسي . كانت خسائر العثمانية 2 500 والعدو 10 000 تقريبا . لكن الروس هزموا مختار باشا في الحرب الميدانية آلاجاداغ (1877/10/15) . جرت هذه الحرب في الجنوب الشرقي من قارص . هجم الروس دفعة واحدة بواسطة 254 مدفعًا ، 27 فوج خيالة و 29 كتيبة مشاة على قوات مختار باشا الضعيفة . ونظرًا لوقوع الفريق عمر باشا وحاجي راشد باشا ، أسيرين مع 6 000 جندي بأيدي الروس ، لم يستمر مختار باشا في القتال وانسحب . أدخل وحداته في 4 ت2 ، إلى أرضروم بشكل منظم جدا . كان رشيد باشا الذي وقع في الأسر رجلا دنيء النفس ، عين محافظا للبادشاه المخلوع في واقعة السلطان عزيز .

سقطت قارص (1877/11/18) . جاء الروس بكامل قواتهم إلى أرضروم واستولوا على استحكامات عزيزية . تمكن شعب أرضروم الذي دخل الخنادق والذي يشكل أكثريته النساء ، من إخراج الروس من استحكامات عزيزية بعد صدام بطولي يفوق الخيال . حصل الروس في نهاية شهر ت2 على انتصار حاسم في الجبهة الشرقية ، رغم عدم تمكنهم من احتلال أرضروم .

طلب عبد الحميد الثاني من الملكة فكتوريا لاسلكيا ، التوسط لعقد الصلح . رجت الملكة فكتوريا القيصر لاسلكيا عقد الهدنة (1878/1/19) . جاء كل من وزير الخارجية سروهر Server باشا ومشير نامق باشا إلى قيزانلق لمقابلة الغراندوق نيكولاي لعقد الهدنة . غير أن الغراندوق لم يقبل الهدنة إلا بعد الدخول إلى أدرنة (هدنة أدرنة ، 1877/1/31) . وبهذا تكون الحرب قد استمرت 9 أشهر ، 7 أيام . كان أحمد مختار باشا قد استدعي من جبهة القفقاس للدفاع عن استانبول وعين كرد إسماعيل باشا للقيادة العامة لجبهة القفقاس . لم يكن سقوط استانبول محتملا ؛ وكانت قد اتخذت ترتيبات عسكرية فائقة ، هذا علاوة على أن أوربا سوف تتكتل ضد الروس في حالة دخولهم إلى إستانبول ، خاصة أن أسطول البحر الأبيض الإنكليزي جاء أمام إستانبول بحجة الزيارة ، والحقيقة أنه جاء لمنع تعدي الروس على المدينة .

عزل إبراهيم أدهم باشا البالغ سنه 60 عاما عن الصدارة بعد 11 شهرا ، 4 أيام

وأرسل إلى سفارة فيينا (1878/1/11) . ولم يتمكن وزير الداخلية أحمد حمدي باشا من البقاء في السلطة أكثر من 24 يوما . أبعد بعد إعطائه ولاية آيدن (أزمير) . كانت سنه 51 عاما . صار أحمد وفيق باشا ، الدبلوماسي الكبير والأديب الشهير البالغ عمره 55 عاما ، صدرا أعظم (1878/2/4) . كان رئيسا لمجلس النواب وهو الذي أعد لائحة تعطيل المجلس إلى أمد غير معلوم .

4 – تعطيل مجلس النواب ونهاية المشروطية الأولى (1878/2/13) ، واقعة علي سعاوى (1878/5/20)

دامت المشروطية الأولى ، اعتبارا من تاريخ إعلان الدستور ، مدة سنة ، شهر ، 21 يوما ، ظل مجلس النواب مفتوحا خلال الأشهر الـ 10 و 25 يومًا الأخيرة . عطّل المجلس بقرار الحكومة الموشح بالإرادة السنية لأمد غير معلوم (1878/2/13) . سوف يستمر هذا التعطيل مدة 30 سنة ، 5 أشهر ، 9 أيام . هذه المدة التي استغرقت 30 سنة ونصف سنة ، هي دور الإدارة الشخصية للسلطان حميد والتي أطلق عليها معارضو النظام الحميدي « دور الاستبداد » . لم يكن البادشاه قد ألغى أو نحّى الدستور (بالعثمانية : قانون أساسي) . أفصحت الدولة عن عدم إلغائها الدستور بنشرها متن الدستور في النشرة السنوية الرسمية للدولة مدة 31 سنة متوالية ودون انقطاع ، وإن كانت أحكام الدستور لم تطبق فعليا . وطبعا كان هناك على رأس هذه الأحكام ، المجلس الشعبي الذي جاء بالانتخابات . وواقع الأمر أنه لم يكن هنالك مجلس ولا نائب منذ 30 سنة .كانت الحياة التشريعية لنواب (بالعثمانية : مبعوث) المجلس الأول عبارة عن 11 شهرا . ولم يجتمع كذلك سناتو الإمبراطورية المسمى مجلس الأعيان ، وإن كان الأعيان ، قد استمروا في تقاضي رواتبهم واستعمال صفة الأعيان بصورة رسمية مدى الحياة . وعند إعلان للمشروطية الثانية في 1918 ، لم يبق على قيد الحياة من الأعيان الذين عينوا مدى الحياة سوى 3 ، واشترك هؤلاء في مجلس عام 1908 كأعضاء طبيعيين .

وعلى هذا الأساس فإن عبد الحميد الثاني ، بإدارته الدولة دون مجلس ، عاد إلى نظام التنظيمات لرشيد باشا وعالي باشا . لكنه تعدى إلى ما وراء هذا النظام وأخذ يدير الدولة شخصيا مثل جده محمود الثاني . وفي الوقت الذي لايجيز فيه نظام التنظيمات تدخل السلطان في شئون الحكومة ويجيز له إجراء السلطنة فقط ، أخذ عبد الحميد الثاني بإدارة الدولة شخصيا وباشتراكه بشئون الحكومة خلافا للتنظيمات والمشروطية التي لم يلغها بصورة رسمية . وفي الوقت الذي تعتبر فيه التنظيمات ، البادشاهات ، رءوسا للإجراء شكلا وقانونا صار هو رأسا حقيقيا وفعليا لها ولهذا اتخذ هوية بادشاه - دكتاتور ؛ حيث إنه استعمل في نظام غير ملغي صلاحيات لم تعط له . ولو كان عدّل أسس المشروطية (الديمقراطية المتوجة) والتنظيمات بصورة فعلية ، لاعتبر آنذاك قد استعمل صلاحياته الطبيعية كما فعل جده محمود الثاني ، لكنه لم يتخذ هذا الطريق .

إن كارثة 93 والتي تسمى واقعة السلطان عزيز - التي سنلخصها فيما بعد - هي النتيجة الطبيعية لقيام عدة أشخاص بخلع السلطان عزيز بدافع الحقد والانتفاع خلافا لأسس التنظيمات . خرج عن طوره ، بهذه الواقعة نظام الدولة ، الذي جاهد كل من محمود الثاني ، ورشيد باشا ، وعالي باشا وسخروا كل ما يملكون من جهد ودهاء في سبيل تقويمه وتنسيقه . كان من الواضح ومن طبيعة قوانين التاريخ ، بعد عدم الكفاءة التي أبداها الذين أعدوا فاجعة نادرة الوقوع في التاريخ التركي كفاجعة 93 ، أن يظهر سيزارا Sezar لوضع قانون جديد . إن هذا الـ Sezar هو عبد الحميد الثاني . لو كان هذا أو ذلك الباشا ، لاضمحلت الدولة . وبهذا يكون عبد الحميد الثاني قد أطال عمر الدولة 30 سنة أخرى .

ولأن فترة سلطنة السلطان حميد التي دامت 1 سنة ، 5 أشهر ، 13 يوما التي تسبق الإلغاء الفعلي للمشروطية الأولى ، قد مرت دون تدخله في أمور الحكومة ؛ فإن هذه الفترة لا تدخل ضمن فترة إدارته الشخصية ، لقد كان نفوذه في هذه الدولة قليلا ، وقد تمكن من حيازة النفوذ الحقيقي ، نتيجة انكشاف سوء تصرف معارضيه وسوقهم الدولة إلى الدمار بصورة فعلية . وبناء على ذلك ، فإن عبد الحميد الثاني غير مسئول عن هذه الدورة التي دامت سنة ونصف السنة .

ولو راجعنا محاضر جلسات مجلس المبعوثان (مجلس النواب) للمشروطية الأولى ، لشاهدنا عدم تفهم النواب ما هية المسئوليات والواجبات التي يلقيها عليهم النظام البرلماني ومحاولتهم التدخل في التنفيذ ، والأدهى من ذلك ، علاقة كل نائب من نواب الأقلية مع إحدى الدول الأجنبية وحصوله على تأييدها وتقاضيه دراهم منها وسعيهم ضد الإمبراطورية التي هم نواب لها . ظهر نواب دافعوا عن التخلي عن كريت ، Tesalya ، Epir إلى اليونان . ونواب طلبوا تأسيس إمارة أرمنية في الأناضول الشرقية . لم يكن السلطان حميد قد عثر على هذه الدولة عن طريق الصدفة ولم يكن كذلك قد ورثها عن مدحت باشا . وإنما انتقلت إليه عن أجداده . لذلك فقد حل هذا المجلس . وانقذ الإمبراطورية من الاضمحلال في تلك السنوات . ولو حدث غير ذلك ، لأصبحت تركيا في 1920 ، في وضع تدافع فيه عن قونية وسيواس وليس عن إستانبول وأزمير . كانت الإمبريالية والاستعمار في هذه الفترة في قمة الشراسة والجنون .

استصوب الأمير فون بسمارك Von Bismarek رئيس الوزراء الفدرالي للإمبراطورية الألمانية ، أكبر رجل دولة وسياسي في عصره ، حل المجلس وعلق على ذلك بقوله « إن لم يكن قوام الدولة شعبا واحدا ، فإن ضرر مجلسها يكون أكبر من نفعه » . تنفس القيصر الصعداء . حيث كان اليساريون في روسيا يطالبون بمجلس . كانوا يعيرون القيصر صراحة بأنه حتى العثمانية لها مجلس . أما الديمقراطيات الحقيقية مثل إنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا فلم تكن مهتمة بالنظام الذي تسير عليه العثمانية وإنما تهتم فقط بمصالحها لدى العثمانية . كان لديهم أعوان من النواب في المجلس ؛ تأثروا لفقدانهم ، لكن الذي خفف عنهم هو اقتناعهم بأنهم سوف يتمكنون من إيجاد مؤيدين لهم من بين رجال الدولة العثمانية ، ما دامت لديهم نقود .

لكن إنكلترا كانت متأثرة . كانت دولة دنيوية (بالفرنسية : Puissance Mondiale) بالمعنى الصحيح . كانت لها مصالح خاصة في كل قطر من أقطار العثمانية . كانت تريد ، بصورة مطلقة ، أن تكون إدارة هذه الإمبراطورية المسنّة من الأشخاص المقربين لإنكلترا . كانت تتخيل إمبراطورية عثمانية ، على عرشها خاقان – خليفة مراد الخامس ، يتصدرها مدحت باشا ، وعلى رأس جيشها

بصفة ـ سرعسكر ، عوني باشا . كان قد توفي من بين هؤلاء حسين عوني باشا . ومدحت باشا في أوروبا في المنفى . كان يدبر مع المسئولين الإنكليز خلع عبد الحميد الثاني وإعادة إجلاس أخيه الكبير ـ الذي شفي من اختلال الشعور ـ مراد الخامس . ومن الطبيعي أن يعين مدحت باشا ـ في حالة عودته إلى الصدارة ـ لمنصب السر عسكر ، ماريشالا صديقا لإنكلترا .

والواقع أن إنكلترا ، لتحقيق هذا الأمل ، في دولة كبرى أذهلتها الحرب الروسية ، في الإمبراطورية العثمانية ، أرادت ـ مستفيدة من تجربتها في واقعة السلطان عبدالعزيز ـ أن تحقق مؤامرة أخرى . كان يقف خلف المؤامرة الماضية اللورد Elliot سفير إستانبول . عين بدلا منه قبل مدة قصيرة الأركيولوجي الشهير Lord Layard الذي أعد انقلابا جديدا مع وكيل إستانبول للمخابرات الإنكليزية Intelligence Service . اختاروا لهذه المؤامرة الصحفي علي سعاوي أفندي ، من العثمانيين الجدد . وزع سعاوي أفندي النقود على قسم من المهاجرين المساكين القادمين من روملي الناجين من سيوف الروس والبلغار والذين تجمّعوا في إستانبول وأحالوا مدينة العرش إلى يوم حشر . اقتحموا سراي جراغان çiragan الهمايوني ، محل إقامة مراد الخامس الكائن على المضيق ؛ ولذا سمي هذا الحادث بواقعة علي سعاوي أو اقتحام جراغان (1878/5/20) .

دخولهم إلى السراي بسهولة رغم وجود الجنود في كل مكان ، دليل على وجود خيانة . هب محافظ بشكتاش حسن باشا ، وتناول عصا من أحد الحراس أهوى بها على رأس الصحفي التركي غير المتوازن وقتله . كان سلطان مراد أثناء ذلك يخرج من السراي مع سعاوي أفندي الذي يتأبطه .

كان علي سعاوي ، متزوجا بامرأة إنكليزية « جميلة جدا وأنيقة جدا » اسمها ماري . وعند عدم تسلمها الإشارة المتفق عليها من جهة جراغان ، أحرقت أوراق زوجها السرية وهربت بسفينة أجنبية تنتظرها في الميناء . ذهبت إلى لندن ، تزوجت هناك بشخص أرمني واستقرت في باريس . غضب البادشاه بشدة لعدم القبض على المرأة وحرق الأوراق . حرق الاتحاديون أوراق سراي يلدز المتعلقة بهذا الحادث في ميدان بيازيد مع الوثائق الأخرى عام 1909 . ولا يزال الأرشيف الإنكليزي يمتنع عن فتح

أضابير من هذا القبيل إلى المؤرخين . غير أنه من الواضح أن ماري سعاوي من المخابرات الإنكليزية .

مات في الاقتحام 23 متمردًا ، 15 منهم جرحوا . حوكم الكثيرون في ديوان حرب عرفي (المجلس العرفي العسكري) (لم يصدر حكم بالإعدام) . تمت السيطرة على المؤامرة خلال ساعتين . لكن تأثير هذا الحادث ، شوهد في تصرفات عبد الحميد الثاني طيلة 30 عاما . وكلف الشعب الكثير من الأذى . عبد الحميد الثاني الذي شاهد خلال 3 أشهر ، خلع سلفيه ، ومقتل عمه المفجع ، زادت أوهامه وشبهاته بشكل كبير ، بعد محاولة مؤامرة كهذه جرت في زمن غير متوقع أبدا ، وبزعامة شخص غير متوقع أبدا . تجربة تدبير مؤامرة غريبة قلما تقع حتى في جمهوريات الموز والكاكاو في أمريكا اللاتينية ، ووقوعها في إمبراطورية كبرى تقف على شفا هاوية ، جيوش الأعداء على أبواب مدنها ، أسفرت من حيث النتيجة ، عن نظام بوليسي . شكل السلطان حميد بعد ذلك ، تشكيلات أمن سرّيّة مرتبطة به شخصيا ، أطلق موظفو هذه التشكيلات الذين يسمون « خافيه » (تحري) راحة الشعب بشكل كبير طوال 30 عاما وحددوا حرياتهم الطبيعية . ولا يسعنا هنا إلا أن نذكر أن هؤلاء ، خدموا أمن الدولة طيلة الـ 30 سنة .

عزل عبد الحميد الثاني ، الصدر الأعظم صادق باشا ، الذي يعتقد أنه وراء هذا الحادث . كان صادق باشا ، الذي صار صدرا أعظم (1878/4/18) بعد صدارة وفيق باشا التي دامت شهرين ، و 9 أيام ، في الـ 52 من عمره . جيء بدلاً عنه ، بعد 40 يوما بمترجم رشدي باشا للمرة الخامسة . كانت إنكلترا قد أومأت للبادشاه بتعيينه للصدارة ، كان السلطان حميد أثناء ذلك ، في وضع يستند فيه – لعقد الصلح الروسي – في الدرجة الأولى ، على الإنكليز الذين يكرههم في الأصل أكثر من الروس . صدارة رشدي باشا البالغ سنه 67 عاما الخامسة هذه ، كانت 7 أيام . مجموع صداراته الخمس سنتان ، 23 يوما . أشهر صداراته هي الثالثة التي اشتهرت بإدراكه دور 3 بادشاهات . وفي صدارته هذه الثالثة كان رشدي باشا ، صدرا أعظم أخيرا لعبد العزيز خان ، الوحيد لمراد الخامس ، والأول لعبد الحميد الثاني . صار صفوت باشا صدرا أعظم وهو من صنائع رشيد باشا ، دبلوماسي مجرب في الـ 63 من عمره . شغل 6 مرات منصب وزير الخارجية وسفير .

5 ـ معاهدتا آياستافانوس (1878/3/3) وبرلين (1878/7/13)

أرادت روسيا أن تملي على العثمانية المغلوبة ، شروطها في الصلح بمعاهدة آياستافانوس (باليونانية : Aya Stephanos بالتركية : يشيل كوي) (1878/3/3) قبل تدخّل الدول العظمى الأخرى . وقع كل من وزير الخارجية صفوت باشا وسفير برلين سعد الله بك (باشا) وهما يذرفان الدموع ، على هذه المعاهدة ، التي لم يعمل بها في أي وقت من الأوقات . وقع عن روسيا الجنرال كونت Lgnatief و Nelidof . وبموجب هذه المعاهدة المكونة من 29 مادة (والتي أصبحت بمعاهدة برلين بعد 4 أشهر ، 11 يوما كأن لم تكن) .

تشكل إمارة بلغارية بسعة غير طبيعية ، حيث أن هذه الإمارة التابعة للعثمانية امتدّت حتى بحر إيجة .

تقسم أراضي روملي العثمانية إلى ثلاث .

تعطى بلغاريا ، مكدونيا ، تراقيا الغربية ، قيرقلارايلي ، إلى هذه الإمارة المستقلة ذاتيا والتي تقرر أن تكون ألعوبة بيد الروس .

تعطى روسيا ولايات قارص ، أردخان وبيازيد (آغري) وقضاء باطوم .

تترك ولاية نيش إلى صربيا ، وتوسع مساحة قره داغ .

حال عبد الحميد الثاني بجهد جهيد ، دون إعطاء 6 بوارج من أحدث سفن الأسطول العثماني كجزء من غرامات الحرب إلى روسيا .

تلقت الدول العظمى معاهدة آياستافانوس ، التي تؤمن التفوق الروسي في البلقان على حساب العثمانية والنمسا ، والتي توصل روسيا إلى إيجة ، بواسطة بلغاريا المستقلة ذاتيا ، وبطريقة غير مباشرة إلى البحر الأبيض ، وإلى البحار الدافئة والبحار المفتوحة ؛ برد فعل . بدأت مرحلة الدبلوماسية الشخصية لعبد الحميد الثاني التي ستستمر 30 سنة والتي ستحافظ على الإمبراطورية هذه المدة ؛ بمحاولاته لهدم معاهدة اياستافانوس. استخدم الخاقان في هذا السبيل ، كامل دهائه الدبلوماسي . عمل كل ما بوسعه لإنقاذ الدولة من المصيبة بأقل ضرر ممكن . تمكن من التوصل إلى أسس معاهدة برلين ، وحيث

كان يريد الحصول على مساندة إنكلترا بالدرجة الأولى ، فقد أعطى إنجلترا في مقابل هذه المساندة لواء قبرص . سيستمر الحكم العثماني في الجزيرة ، لكن ستكون إدارتها من قبل إنكلترا ، سوف لا تعطي إنكلترا إدارتها إلى أية دولة أخرى عدا العثمانية ، وفي حالة إعادة الألوية الثلاثة في شمال – شرقي الأناضول إلى العثمانية من قبل روسيا ، تنتقل عندئذ ، إدارة قبرص كذلك إلى العثمانية مجددا (1878/6/4) . وهكذا خطت إنكلترا خطوتها نحو غرب البحر الأبيض (جبل طارق) ، وسط البحر الأبيض (مالطة) ثم شرق البحر الأبيض .

اشتركت في مؤتمر برلين عدا روسيا وتركيا ؛ ألمانيا ، إنكلترا ، فرنسا ، النمسا – المجر وإيطاليا . كان الأمير فون بسمارك ، رئيس وزراء اتحاد الإمبراطورية الألمانية ، رئيسا . أصبحت معاهدة برلين ، آخر اتفاقية عدّلت الجغرافية السياسية لأوروبا للعصر 19 بعد معاهدات فيينا 1815 ، باريس 1856 ، فرساي 1871 . أطالت حياة العثمانية في البلقان مدة 35 عاما بدلا من معاهدة آياستافانوس التي كانت تجعل من الروس سادة البلقان وتودي بنفوذ العثمانية إلى درجة يرثى لها . وطبعا ، كانت تركية قد غلبت وسحقت بشكل مفجع .

تعتبر معاهدة برلين ، إحدى المعاهدات الأكثر جورا ضد الأتراك التي وقعوا عليها طوال التاريخ ، عدا آياستافانوس . كلتا للمعاهدتين تعتبران وثيقتين مهمتين لبيان الفرق بين عقلية مدحت باشا وعقلية عبد الحميد الثاني ومبلغ توفيق كل منهما في السياسة الخارجية .

لم تعط معاهدة برلين لروسيا إلا الشيء اليسير . لا تعتبر تعويضا لتضحياتها العسكرية والمالية الكبيرة ، ولّدت في روسيا عدم ارتياح ، وشعورا بالخيبة ، على نطاق واسع . أما الشعوب البلقانية ، فكانت استفادتها كبيرة ، وهؤلاء من غير المؤكد أن يشعروا بالامتنان تجاه روسيا التي أدت بهم إلى هذا الوضع . ظهرت ، نتيجة 20 جلسة عقدها المؤتمر خلال 31 يوما ، اعتبارا من يوم 13 حزيران ، تتألف المعاهدة من 64 مادة (1878/7/13) .

من المواد المهمة جدا تلك المواد التي أجبرت العثمانية على إجراء إصلاحات في 6

إيالات (بالعثمانية : ولايات ست) في الأناضول الشرقية في صالح الأرمن وفي 3 إيالات (بالعثمانية : ولايات ثلاث) في مكدونيا في صالح البلقان، لم يسر مفعول هاتين المادتين و لم يطبقهما أبدا عبد الحميد الثاني . ولتأمين ذلك ، لعب السلطان دوره بمهارة من خلال المصالح المضادة والتوازن سواء للدول العظمى أو لدول البلقان . كلهم أخذوا يتكالبون ضده ، لكنهم لم يتمكنوا من توحيد مصالحهم لإجباره على تطبيق هاتين المادتين .

ومادة أخرى مهمة جدا ، هي الحكم القاضي بتثبيت غرامات الحرب التي ستسددها العثمانية إلى روسيا وهو 55 مليونا من المسكوكات الذهبية والتي كانت 245 مليون في معاهدة آياستافانوس ، وتدفع هذه على أقساط قدر كل منها 000 350 قطعة ذهبية . سدد عبد الحميد الثاني ، هذه الأقساط بدقة طوال مدة سلطنته .

معاهدة برلين ، هي للمرحلة المهمة الثانية بعد معاهدة كارلوفجة 1699 في تصفية العثمانية من أوروبا ، وسوف تستكمل هذه التصفية معاهدة لندن 1913 . تعترف تركية بالاستقلال التام لثلاث إمارات تابعة لها هي رومانيا ، صربيا وقره داغ . وهكذا أنبثقت من اليونان 3 دول بلقانية مستقلة قبل مضي نصف قرن . (هذه الدول البلقانية أرثوذكسية) هذا ، علاوة على إعطاء نيش إلى صربيا . أما قره داغ ، فتتوسع بمقدار الضعفين من ناحية المساحة والنفوس ، وتبلغ مساحتها 500 9 كم² ، أصبح لها منفذ إلى البحر (الإدرياتيك) بفضل رصيف بار Bar . وإضافة إلى ذلك . تأخذ رومانيا ، لواء دوبروجه ، لكنها تعيد لواء بوجاق (بيسارابيا الجنوبية) الذي أخذته من روسيا بمعاهدة باريس 1856 إلى روسيا . ومن بين الدول التي حصلت على استقلالها بعد 1878 ؛ كل من رومانيا فى 1881 ، صربيا في 1882 ، قره داغ في 1913 حصلت على الاستقلال وارتفعت من درجة الإمارة إلى الملكية . وهكذا ولدت ولأول مرة في التاريخ ، دولة رومانيا المستقلة استقلالا تاما .

ورغم بقاء بوسنة وهرسك لدى العثمانية في معاهدة آياستافانوس ، أجتثت في برلين . تبقى الإيالة تحت حكم العثمانية ، لكن إدارتها تترك إلى النمسا ـ المجر . تضع النمسا جنودا في لواء يني بازار (بالصربية : Novibazar) الذي يفصل صربيا عن قره داغ ويحول

دون حصولهما على حدود مشتركة . اضطر النمساويون على إبقاء والي الإيالة العثماني (أحمد مظهر باشا) في مقامه سنوات طويلة وجابهوا مصاعب كبيرة في السيطرة على البلاد . حيث قام البوشناق المسلمين ، في سبيل إبقائهم لدى العثمانية ، والصرب الأرثوذكس لانضمامهم إلى صربيا ، بحرب عصابات لسنوات طويلة . أما الخروات الكاثوليك الموجودون في القطر، فتقبلوا الإدارة النمساوية - المجرية بامتنان . أدى جشع النمسا الذي سلقها إلى وضع يدها على بوسنة - هرسك بصورة فعلية ، إلى عدم إمكان تحسين علاقاتها مع روسيا بعد ذلك التاريخ وشكلت أحد الأسباب الرئيسية للحرب العالمية ، حيث اعتبر ذلك في البلقان عاملا ضد السلاف وفي صالح الجرمانية .

تأسست إمارة بلغارية مستقلة ذاتيا ، تابعة للعثمانية بين نهر الطونة وجبال البلقان . أما في جنوب جبال البلقان ، فأسسوا إيالة روملي الشرقية . مركزها Filibe ، ميناؤها كان بورغاز . حدودها الجنوبية ، كانت بالنسبة إلى بلغاريا الحالية ، على الشمال أكثر ، في صالح العثمانية سواء من جهة تراقيا أو من جهة مكدونيا . اعترفت بحقوق كثيرة لصالح البلغار في إيالة روملي الشرقية . ينتخب واليها من بين رجال الدولة المسيحيين للباب العالي . عين لهذا المنصب الوزير الرومي Aleki باشا من الرجال المقربين لمدحت باشا الذي أظهر تعصبه بتشتيت السكان المسلمين بالتقتيل والاضطهاد في روملي الشرقية كما أظهر بذلك ماهية الأشخاص الذين تعامل معهم مدحت باشا في الماضي .

يترك لواء تيساليا Tesalya إلى اليونان لغرض توطيد التوازن بين دول البلقان . تلكأ عبد الحميد الثاني في تطبيق هذا الحكم لعدة سنين ، لكنه اضطر في النهاية إلى إخلائها وإعطائها إلى اليونان . أعطيت في شمال - شرق الأناضول ، ألوية قارص ، أردخان ، آرتفين ، قضاء باطوم إلى روسيا . لا يجوز للروس احتلال باطوم (آجارستان) عسكريا ، وتستعمله فقط كميناء . بقي لدى العثمانية لواء آغري ، الذي أعطته آياستافانوس إلى الروس . ورغم وعد فرنسا بإيالة تونس في كواليس مؤتمر برلين ، فإنه أنه لم يدرج في متن المعاهدة . احتلت فرنسا ، تونس بعد عدة سنوات .

خسرت الدولة كل ما ذكر ، في سبيل عدم ترك قضاء لقره داغ . أما الخسارة المهمة جدا ، فهي تشتيت السكان المسلمين الموجودين في بلغاريا . هرب ما يقارب

المليون تركي من إيالة الطونة ، سواء من إمارة بلغاريا ، أو من أراضي روملي الشرقية ، وتركوا أوطانهم التي سكنوها طوال خمسة عصور . أسكنوا في إستانبول ، في بورصة ، في الأناضول الغربية ، في روملي العثمانية وفي جميع المناطق . وما يقارب النصف مليون تركي ذبحوا بشكل جماعي بالقتل العام من قبل الروس والبلغار الذين سلحهم الروس . وإحدى هذه المذابح الجماعية المثالية التي حققها لجنرال Gurko في زاغرا Zagra المدينة التركية . انتقلت ليد المسيحيين ثروات المسلمين التي لا يمكن إحصاؤها ، آلاف الآثار العمارية . امّحت عائلات عثمانية عريقة وكريمة يعود تاريخها إلى 500 سنة مضت .

إجمالي الأراضي التي خسرتها العثمانية في حرب 93 المثبتة في معاهدة برلين ، يمكن حصرها كالآتي :

لواء دوبروجه مع إمارة رومانيا 135000 كم² – 5 300 000 نسمة (تعداد عام 876) .

أما صربيا مع لواء نيش 45 427 كم² – 1 564 000 نسمة .

إمارة قره داغ بشكلها الجديد 9 427 كم² – 180 000 نسبمة .

لواء تيساليا 13 488 كم² – 340 000 نسمة .

بوجاق 13 800 كم² – 500 000 نسمة .

مجموع الخسائر المذكورة في أوروبا : 217 298 كم² –7 884 000 نسمة :

يضاف إلى ذلك في آسيا ألوية قارص وآرتفين الحالية وآجارستان (باطوم) .

ويلزم أن تحتسب تونس كذلك ، باعتبارها اللقمة التي أصابتها فرنسا في هذه النهيبة العثمانية .

وفي النهاية ، يلزم أن يضاف إلى كل ما مضى بلغاريا ، روملي الشرقية ، بوسنة وهرسك ، يني بازار ، قبرص اللواتي اعترف باستقلالهن الذاتي وتركن للإدارة الأجنبية ، رغم بقائهن تحت الحكم العثماني . يعيش اليوم (1985) في جميع هذه الأقطار التي فقدت أو أصبحت على وشك الفقدان ، 48 مليون نسمة .

كانت كل هذه الخسارة المخيفة ، نتيجة العمل غير الشريف الذي حقّقته الزمرة الموتورة في واقعة السلطان عزيز .

6 – صدور أعظم دور السلطان حميد

عندما حل عبد الحميد الثاني البرلمان ، وضع يده على إدارة الإمبراطورية ، كان أحمد وفيق باشا صدرا أعظم . الصدور الأعظم الذين خلفوه هم : محمد صادق باشا (1878/4/18) بعد شهرين و 9 أيام، ومترجم رشدي باشا للمرة الخامسة (1878/5/28) بعد 40 يوما، ومحمد أسعد صفوت باشا (1878/6/4) بعد 7 أيام و وتونسلي خير الدين باشا بعد 6 أشهر (1878/12/4) ، وأحمد عارفي باشا بعد 7 أشهر و 26 يومًا (1879/7/29) ،وكوجوك محمد سعيد باشا بعد شهرين و 20 يوما (1879/10/18) ، وجناني – زاده محمد قدري باشا بعد 7 أشهر و 20 يوما (1880/6/9) ، وسعيد باشا للمرة الثانية (1880/9/12) بعد 3 أشهر و 3 أيام ، وكرميان أوغلو عبد الرحمن نور الدين باشا (1882/5/2) بعد سنة و 7 أشهر و 20 يومًا ، وسعيد باشا للمرة الثالثة (1882/7/11) بعد شهرين و 10 أيام ، وأحمد وفيق باشا للمرة الثانية (1882/12/1) بعد 4 أشهر و 21 يوما (مجموع صدارتيه شهران و 11 يوما) ،وسعيد باشا للمرة الرابعة (1882/12/3) بعد يومين ، وقبرصلي محمد كامل باشا (1885/9/25) بعد سنتين و شهر و 23 يوما ، وقابا آغاجلي – زاده محمد جودت باشا (1891/9/4) بعد 5 سنوات و 11 شهرًا و 9 أيام ، وسعيد باشا للمرة الخامسة (1895/6/8) بعد 3 سنوات و 9 أشهر و 4 أيام ، وكامل باشا للمرة الثانية (1895/10/1) بعد 3 أشهر و 23 يوما ، وخليل رفعت باشا (1895/11/7) بعد شهر و 6 أيام ، وسعيد باشا للمرة السادسة (1901/11/9) بعد 6 سنوات ويومين ، وآفلونيالي محمد فريد باشا (1903/1/14) بعد سنة وشهرين و 5 أيام ، وسعيد باشا للمرة السابعة (1908/7/22) بعد 9 أيام ، وكامل باشا للمرة الثالثة بعد 13 يوما ، يصادف إعلان المشروطية الثانية صدارة سعيد باشا للمرة السابعة . وسوف نرى فيما بعد صدور أعظم دور المشروطية الثانية لعبد الحميد الثاني .

لا يوجد بين الصدور الأعظم السالف ذكرهم أي رجل دولة قدير بالمعنى الصحيح . يحتمل أن يكون كامل باشا أفضلهم . أما سعيد باشا الذي جلبه السلطان حميد للصدارة بإصرار ، من سلك الصحافة ، فهو رجل مثقف ، لكنه جامد ، جبان ، ثرثار متملق ، ميال للخيانة .

من الحوادث المهمة التي جرت في دور إدارة السلطان حميد الشخصية ، تأسيس مؤسسة الديون العمومية (1881/12/20) .

في هذا التاريخ ، بلغت الديون الخارجية 252 مليون قطعة ذهبية . أقنع السلطان حميد الدول الدائنة إنكلترا وفرنسا بتأسيس الديون العمومية وإسقاط 146 مليونا ، ولتسديد الـ 106 ملايين ليرة ذهبية الباقية ، وضعت بعض إيرادات الدولة الرئيسية تحت تصرف مؤسسة الديون العمومية . والحقيقة أن هذه المؤسسة كانت كوزارة مالية ثانية . وقد أمكن بهذه الوسيلة تسديد الديون الخارجية لدولة عثمانية خرجت من الحرب الروسية مدمرة حيث سدت السبل المؤدية لنهضتها ، وتدنّت منزلتها . ويعتبر إسقاط أكثر من نصف الدين نجاحا ماليا حقيقيا . سدد السلطان حميد حتى نهاية سلطنته ، القسم الأعظم من الديون الخارجية وخلّف للإدارة التي أعقبته قليلا من الدين الخارجي . كان حريصا على عدم الاستدانة من الخارج ، فلم يقترض في عهده ، من الخارج إلا القليل .

ومن الحوادث المهمة أيضا في دور إدارة السلطان حميد الشخصية ، أحكام محكمة يلدز (1881/7/28) ؛ فقد حوكم المسئولون عن قتل السلطان عزيز في محكمة جنائية في جلسة واحدة دامت 3 أيام . حكم بالإعدام على مدحت باشا ، وداماد محمود جلال الدين باشا ، داماد نوري باشا وعدة أشخاص آخرين ليسوا على هذه الدرجة من الأهمية . بدل بأحكام الإعدام السجن المؤبد مدى الحياة في قلعة طائف في الحجاز . نجا من هذا العقاب مترجم رشدي باشا لمرضه ووفاته بعد مدة قصيرة ، أما شيخ الإسلام خير الله أفندي ، فلأنه كان منفيا في الحجاز ، فقد أراد معارضو السلطان حميد استعمال محكمة يلدز وسيلة للتنديد به . إلا أنه كان من الضروري أولا معاقبة مسئولي واقعة السلطان عزيز وإن كان ذلك العقاب قاصرا أو حتى لو كان بعد سنوات ، كما كانت هنالك ضرورة أيضا للتخلص من مدحت باشا الذي أصبح بلوى مسلطة على رأس الدولة والذي كان ما يزال يهدد الدولة بواسطة إنكلترا .

وعدا محاولات إنكلترا الجديدة لتهريب مراد الخامس من سراي جراغان ، استمرت في علاقاتها مع مدحت باشا سواء عندما كان منفيا في أوروبا ، أو عند عودته إلى تركية

وسكناه في كريت ، أو عندما كان واليا على إيالات سورية آيدن (أزمير) . لم تكن إنكلترا ترغب في أن ترى على عرش تركية خاقانا داهية في السياسة الخارجية ، واقفا بالمرصاد لمحاولات الإمبريالية ، مواليا للعالم الإسلامي كعبد الحميد الثاني .

استمرت إنكلترا في محاولاتها لتقديم مراد الخامس - كخاقان - خليفة للدولة العثمانية ومدحت باشا كصدر أعظم . لم يترك مدحت باشا التفكير في إنكلترا ، حتى في مذكراته التي كتبها والتي بلغت مجلدين في غرفته في قلعة طائف مع خادمه بين صياح وصراخ شعب جده المعارض . كان رئيس الوزراء (مع الأسف) عدوا للإسلام والأتراك بشكل لا يتصور . كان متعصبا إلى درجة ضربه القرآن الكريم على الكرسي في مقصورة مجلس العوام . وعند تسلم الأحرار الحكم بدلا من المحافظين ، ارتاحت العثمانية نسبيا ، انتهت تماما مرحلة وجود رؤساء وزراء وسلطة موالية للعثمانية في إنكلترا . حاولت صحافة إنكلترا بمختلف الوسائل إنقاذ مدحت باشا وداماد محمود جلال الدين (الذي هو أحد رجاله) ، من أحكام محكمة ييلدز . اشترك سفير إستانبول كذلك في تلك الحملة الصحفية . أرسلت إنكلترا طرادا إلى مياه جدة لإنقاذ مدحت باشا ومحمود باشا . وقبض في الطائف على إنكليزي متنكر بزي عربي ، لم تجد كل المحاولات التي بذلت في إنقاذ الباشوات ، لكنه عندما تأكد بأن هذه المحاولات لن تتوقف ، اقتحم الجنود غرفة مدحت باشا ومحمود باشا في الطائف وخنقاهما (1884/5/6) . ترى هل أعطي هذا الأمر من قبل يـيلدز ، أو من قبل العسكري الجريء جدا مشير عثمان نوري باشا والي إيالة الحجاز وقائد فرقتها ؟ إن هذا الأمر موضوع نقاش . لكن ، لم تجر تحقيقات مع عثمان نوري باشا ، وأغلق الملف .

اعتبر معارضو عبد الحميد الثاني ، مدحت باشا البالغ عمره 62 عاما ، بطلا للحرية والديمقراطية . إذا كان البادشاه هو الذي أعطى أمر القتل فعندئذ ، يكون ذلك الحادث هو الجناية السياسية الوحيدة خلال سلطنة عبد الحميد الثاني الطويلة . عاقب عبد الحميد الثاني من لهم علاقة بواقعة السلطان عزيز باعتدال ورباطة جأش كبيرين ، بعد تحليله شخصياتهم والأضرار التي سببوها للدولة تحليلا جيدا . مما تجدر الإشارة إليه أن عاقبة كل من اشترك بهذه الواقعة ، لم تكن جيدة .

7 – القضية الأرمنية (1895 – 1896)

عاش الأرمن في الدولة العثمانية حتى حرب 93 في رفاهية وسعادة ، وأثروا بفضل مزاولتهم وظائف كالتجارة والصيرفة وصياغة الذهب . كان تعدادهم داخل الدولة العثمانية ، المليون تقريبا . كانت العائلات الأرمنية المعرفوة تعيش في إستانبول كالأمراء ، وشوهد بعد 1856 من حصل منهم على منصب وزير وهي أعلى رتبة مدنية في الدولة ؛ كان الوزير آكوب باشا وزير الخزينة الخاصة ، أحد رجال السلطان عبد الحميد المعتمدين . .كانت حرية الأديان والمذاهب مؤمنة بشكل حقيقي . أكثر الأرمن ينتمي إلى مذهب أرثوذكس – كريكوريان ، وهنالك من كان منهم كاثوليكيا ومن كان من البروتستانت . كان لبطارقة الأرمن ، مكانتهم في بروتوكول الدولة سواء كانوا كريكوريان أم كاثوليك . كان الأتراك يحبون هذا الشعب الوديع ، المنصرف لأعماله ، المتقبل للثقافة التركية بشكل كبير والمتفهم لهذه الثقافة إلى حد ما . وكما يشاهد في الوثائق الرسمية ، كان يطلق عليهم اسم « ملت صادقة » (الشعب المخلص) .

تبدل الوضع في منتصف العصر . وضعت الدول الإمبريالية روسيا ، إنكلترا ، فرنسا يدها على هذا الشعب وقامت وخاصة روسيا بتجريض الأرمن لغرض ابتلاعها أناضول الشرقية . حيث كان لها رعايا أرمن أسكنتهم في حدود الأناضول الشرقية في روان (بالأرمنية : Erevan) الذي كان قطرا تركيا بحتا حتى النصف الثاني من القرن 19 (أسمته حديثا « أرمنستان ») .

كانت المادة 61 من معاهدة برلين تطلب إجراء إصلاحات لصالح الأرمن في 6 ولايات هي : (أرضروم ، دياربكر ، سيواس ، خربوط = العزيز ، وان وبتليس) ، لم يضع السلطان حميد هذه المادة موضع التنفيذ أبدا . رفض جميع الضغوط التي أجرتها الدول العظمى لتنفيذ هذه المادة (إذا كانت أناضول الشرقية اليوم ، داخلة ضمن تركية فهي نتيجة لتلك السياسة) وحيث لم يكن الأرمن يشكلون الأكثرية في الـ 20 ولاية التي تشكل الـ 6 إيالات هذه ، فإن نسبة نفوسهم لم تكن تبلغ الـ 20٪ في الولاية التي يشكلون فيها كثافة سكانية . وفي إحدى المناسبات ، أبلغ السلطان حميد السفير الألماني بأنه يرجح الموت على أن يطبق هذه المادة السخيفة ، وتمكن من اكتساب مساندة

النمسا ـ المجر . لم يكن ضغط إنكلترا وفرنسا وروسيا كافيا لوضع هذه المادة موضع التنفيذ . ومما لا شك فيه أنه كان يراد إفناء للمسلمين الذين يتكلمون التركية وخاصة الكردية بالقتل العام وإجبارهم على الهروب ولو من قسم من هذه الأراضي وجعله وطنا أرمنيا . كانت هذه الخطة قد طبقت بنجاح في كثير من الأقطار العثمانية وفي تاريخ أقرب في روان الوطن التركي منذ ألف سنة وفي قرم .

كان أمل روسيا الاقتراب إلى البصرة وخليج الاسكندرون بواسطة إمارة أرمنية تكون ألعوبة في يدها . وكذلك كانت إنكلترا تريد إمارة أرمنية تكون ألعوبة في يدها للحيلولة دون اقتراب روسيا إلى هذه الخلجان . أما فرنسا فكانت ترغب في أن تكون لها أرمنستان ، تحت نفوذها ، لإحياء الذكرى البائدة للحروب الصليبية . تم تأمين سلاح وافر للأرمن من كل الجهات ، خاصة من روسيا . كان الأرمن المتمركزون في الأقطار الأوروبية الحرة كسويسرا ، يخططون لهذه السياسة . قتل الأرمن جميعا باقتحامهم القرى المسلمة التي تتكلم اللغة الكردية كل من صادفهم دون التفريق بين النساء والأطفال . وكثيرا ما علّقوهم على الكلاليب ، كانت وسائلهم في القتل الجماعي شاذة لا يتصورها العقل ؛ كبقر بطون النساء الحوامل وإخراج الجنين بالرماح ، قطع أماكن العورة من الرجال ودسّها في أفواههم ، ملء الجوامع والتكايا والمدارس الدينية بالمسلمين وحرقها . كان القصد إجبار المسلمين على الهروب من هذه الأماكن . كانت روسيا في البداية شديدة الرغبة في تأسيس « أرمنستان » لكنها بعد ذلك أخذت في الابتعاد عن هذه الخطة على مر الزمن ، أخذت إنكلترا على عاتقها مهمة تحقيق خيال تأسيس أرمنستان . لأن الإرهابيين الأرمن ، كانوا قد شرعوا في التحرك ضد النظام القيصري في روسيا . كانوا يريدون توحيد أرمنستان التي يزعمون أنهم سيؤسسونها في الأناضول الشرقية مع أرمنستان روسيا في قفقاسيا الجنوبية .

حاولت جمعية خنجاك Hinçak التي أسست في سويسرا عام 1886 التحكم في أرمن العثمانية عن طريق الإرهاب . كان الأرمن راضين عن الإدارة العثمانية ، بل يحتمل أنهم كانوا يشتركون في إدارة هذه الإمبراطورية بنسبة تفوق نسبة نفوسهم . لم يشاهد و لم يسمع في الدول الاستعمارية كإنكلترا وفرنسا وروسيا التي يسكنها عشرات الملايين من المسلمين ، وزير أو حتى نائب مسلم واحد . بينما كان من الممكن في الدولة

العثمانية أن يكون هناك وزير من الأرمن . وعلى هذا الأساس بدأ الخنجاك بإرهاب الأرمن المخلصين الذين لا يرغبون في تنفيذ رغباتهم . وبعد أن اقتحموا قرى أرمنية كثيرة في الأناضول الشرقية وقتلوا كامل نفوسها ، نقلوا هذه الأخبار إلى الصحافة الغربية على أنها مظالم العثمانية ، وفي الوقت نفسه ، أظهروا بذلك مصير الأرمن الذين لا يؤيدونهم .

اتخذ مشير زكي باشا ، قائد الجيش الهمايوني الرابع – المتمركز في أرزنجان والمنتشر في جميع أنحاء الأناضول – تدابير جذرية بأمر السلطان عبد الحميد . لم يتأخر في مكافحة الإرهابيين العصاة الذين سلف ذكر أعمالهم الوحشية . وبناء على ذلك بدأت الصحافة الأوروبية بحملة عنيفة استهدفت شخص البادشاه . استعمل المؤرخ الشهير الكونت Albert Vandal عضو الأكاديمية الفرنسية لقب « Le Sultan Rouge » لأول مرة . الاتحاديون الذين ترجموا هذا التعبير إلى « السلطان الأحمر » ، سوف يتخذون من الأرمن في 1915 مواقف أشد ، سيضطرون إلى تهجيرهم . استعمل بعض الكتاب كذلك ، في عهد الجمهورية ، الذين لا يعلمون السبب في إطلاق تعبير « السلطان الأحمر » على خاقان تركي وخليفة إسلامي ، نفس التعبير الخائن الوقح ، بحق السلطان عبد الحميد الثاني . ومما لاشك فيه أن يصاب الشعب والدولة بكل أنواع البلايا في مثل هذا المحيط الذي حرّف فيه الشعور الوطني بهذا الشكل .

كان الأرمن على درجة من الهياج بحيث وجدوا في أنفسهم الشجاعة على القيام بعصيان في مراكز الإيالات كسيواس وطرابزون وأرضروم ووان وديار بكر كذلك . تم إخمادهم في قطاع الجيش الرابع الذي أعلن فيه الأحكام العرفية .

وتجاه ذلك ، كان من الطبيعي تهيئة الشعب المسلم الذي يتكلم الكردية للدفاع عن النفس ضد الخطر الأرمني . شكل السلطان حميد « أفواج الخيالة الحميدية » . انتخب ضباطها من بكوات وأولاد الأكراد . كانت الرتب المعطاة لهم والتي أكبرها رتبة آلباي (زعيم) ، معتبرة لدى أفواجهم فقط . قامت القيامة لذلك في أوروبا . إن الدول الأوروبية الاستعمارية تبعد جيوشها عن المشاكل المحلية قدر الإمكان وتشكل قوى شعبية غير عسكرية على هذه الشاكلة لتقضي على الأقطار الأجنبية من الداخل . أما الأفواج الحميدية فكانت لغرض الدفاع عن حياة قرويي الأناضول الشرقية . قامت بواجبها

هذا بنجاح حتى إلغائها عام 1908 . إن كان هنالك اليوم شعب في الأناضول يتكلم الكردية ، فذلك بفضل تلك السياسة .

إن القضاء الذي بلغ فيه تعداد الأرمن أعلى نسبة ، بالمقارنة لتعداد المسلمين ، كان قضاء Sason بين زعرت وموش . كان يسكن فيها 12 000 أرمني و 15 000 مسلم . أراد المتمردون إثارة عصيان كبير فيها . مات أثناء إخماد العصيان 5 000 أرمني تقريبا ومئات المسلمين . هرب زعيم العصيان Hamparsum Boyaeiyan ، ونجا من الموت . سيجعل الاتحاد والترقي هذا الشخص بعد 13 عاما ، نائبا لهاربوت . وبعد شهر من حادث Sason (ت1894/2) عصى الأرمن في ديار بكر ، مات في هذا العصيان 1190 أرمنيًا .

كان الأرمن يعلمون أنه لا يمكنهم الحصول على نتيجة بهذا الشكل . لكنهم كانوا يريدون لفت أنظار الدول الأوروبية العظمى بمثل هذه الاضطرابات . قدمت إنكلترا وفرنسا وروسيا مذكرة مشتركة (1895/5/11) وطلبت من الباب العالي تطبيق المادة 61 من معاهدة برلين فورا وتعيين ولاة جدد في الإيالات الست وأخذ موافقتهم حول أسماء هؤلاء الولاة وإلغاء الأفواج الكردية وتأسيس وحدات جندرمة (درك) من الأرمن .

دخلت سياسة عبد الحميد الشخصية دور التأزم . الحقيقة أنه كان قد أمّن عدم اشتراك ألمانيا والنمسا - المجر وإيطاليا في هذه المذكرة . لكن كان يجب تنحية إنكلترا وفرنسا وروسيا . نجح في فصل روسيا وفرنسا عن إنكلترا . يروى أن عبد الحميد الثاني أعطى رشوة ضخمة لوزير الخارجية الفرنسي المؤرخ الشهير Hanotaux : الذي منح بصورة رسمية وسام الامتياز الذي يقدم للحكام الأجانب ، حتى ذلك التاريخ . علم السلطان حميد بأن إنكلترا سوف تبقى دون مؤيد لها . رفض المذكرة المؤرخة 11 مارس (1895/6/3) . إنكلترا التي أيقنت من عدم إمكان وقوفها وحدها بحركة مسلحة تجاه تركيا ، سحبت أسطولها الذي سارت به إلى مدخل مضيق جناقلعة لإرهاب البادشاه .

ورغم ذلك ، لم يدرك الأرمن ما جبلت عليه الدول العظمى في لعبها مع الشعوب

الصغرى وسوقها إياهم نحو ما تقتضيه رغباتها ومصالحها ، ثم تركها إياهم وجها لوجه مع الدولة التي حرضتهم ضدها . استمر الأرمن الذين كانوا يغذون بكثير من الدراهم الأوروبية في تنفيذ عملياتهم . وعند عدم نجاحها في الشرق ، رتبت حركة أخرى في إستانبول ، أمام أعين العالم كله . سلّح أزميرليان بطريق الأرمن ، عدة مئات من الأرمن . تم إفناؤهم في منطقة قادرغة بعد مقاومتهم 3 أيام و 3 ليال . كان قصدهم المجيء إلى الباب العالي والقيام بمظاهرات معادية للحكومة . لكنهم عندما قطع طريقهم في منطقة سلطان أحمد ، أنسحبوا إلى منطقة قادرغة التي يكثر فيها نفوس الأرمن . كان هذا هو أول شغب تقوم به الأقلية في مدينة العرش منذ فتح إستانبول حتى ذلك الحين . كان الروم الاستانبوليون ، قد خططوا شيئا من هذا القبيل في بداية الاحتلال اليوناني ، لكنهم لم يجرأوا على تطبيقه .

أعقب الشغب الأرمني الأول (1895/9/30) في إستانبول ، الشغب الأرمني الثاني في إستانبول كذلك (1896/8/26) . اكتشفت رجال التحريات خطة الأرمن في تفجير المصرف العثماني قبل تنفيذها . اعترف المتمردون بعزمهم على تفجير المصرف والباب العالي (رئاسة الوزارة) ، قبض عليهم وهم ممسكون بأسلحة وقنابل . حرض البطرق ، على أثر ذلك ، قسما من أرمن إستانبول على العصيان وأخبرهم ـ غشا ـ أن أساطيل الدول العظمى على وشك المرور من مضيق جنا قلعة . أطلق أحد الأرمن رصاصة مسدس على الصدر الأعظم خليل رفعت باشا ، لكنها لم تصبه . قوبل الشرطة والدرك والجنود العثمانيون بالأسلحة والتحقير من الشبابيك ، عند دخولهم أزقة محلات الأرمن . وبناء على ذلك سحب عبد الحميد الثاني من المحلات الأرمنية الشرطة والجيش . أغار حمالو ميناء إستانبول ـ الذين كانوا حينذاك كثيري العدد وجماعات ضمن المنظمات العمالية ـ على المحلات الأرمنية بعصيهم ودون أن يحملوا أي آلة نارية أو جارحة . اتضح أن هذه العصي قد صنعت خصيصا في مصانع ييلدز . عزل أزميرليان ونفي إلى القدس .

تركت الدول العظمى الأرمن الذين أقحمتهم في هذه الورطة لحالهم .

8 ـ احتلال إنكلترا لقبرص (1882/9/15)

لم تتمكن فرنسا التي تفاهمت في كواليس مؤتمر برلين ، مع الدول العظمى حول

تونس ، من الصبر على احتلالها ، أكثر من ثلاث سنوات ، خاصة أن لإيطاليا كذلك أطماعا فيها . ساقت 23 000 جندي من الجزائر و 8 000 عن طريق البحر وشتّت جيش تونس الصغير . وبمعاهدة Bardo (بالعربية : قصر سعيد) أدخلت هذه الإيالة العثمانية المستقلة ذاتيا تحت حمايتها (1881/5/12) ولم تلحق كمستعمرة مثل الجزائر . تأسس نظام الحماية واستمر البايات (جمع باي) من عائلة حسيني ، كحكام لتونس في عهد الفرنسيين كذلك . طلب باي تونس الوزير محمود صادق باشا ، المساعدة من الباب العالي . سارت قطعة من الأسطول العثماني ووصلت إلى مياه جزيرة كريت . صدر إلى قطعة الأسطول أمر الانسحاب والعودة ، عند تهديد فرنسا الباب العالي بالحرب . هكذا فقدت تونس صفتها كقطر من أقطار الدولة العثمانية بعد نصف قرن من فقدان الجزائر. لم يعترف الباب العالي في أي وقت من الأوقات بالاحتلال الفرنسي لتونس . بيد أن تركية ، اعترفت في معاهدة لوزان 1923 بانفصال تونس عن تركية . ويشاهد في كل النشرات السنوية العثمانية الرسمية حتى نهاية الإمبراطورية ، تدوين تونس كإيالة عثمانية تحت الاستعمار الفرنسي غير الشرعي .

كانت المادة 24 من معاهدة برلين تنص على ترك لواء تيساليا Tesalya وقضاء Nadra (باليونانية : Arta) التابع لإيالة أبير Epir (يانيا) إلى اليونان . تباطأ الباب العالي في ذلك لعدة أعوام . لكنه أخلى هذه الأماكن وتركها لليونان (1881/7/2) إزاء الضغوط الكبيرة . كانت Tirhala ويني شهر في تيساليا مدينتين تركيتين تشكلان مركزين ثقافيّين عثمانيّين كبيرين . هاجر أكثرية المسلمين من هذه الأقطار إلى الأراضي العثمانية . وهكذا ارتفعت مساحة الأراضي اليونانية إلى 74859 كم^2 .

لكن المسألة الكبرى ، كانت قضية مصر . فعندما تمكن الخديو إسماعيل باشا من حصوله من الباب العالي على الفرمان الذي يجيز لمصر الاقتراض من الخارج ، اقترض مبلغا يزيد على 100 مليون ليرة ذهبية من فرنسا وإنكلترا خلال فترة 10 أعوام . وفي تلك الفترة ، كانت الأقطار كالسودان ، أريترة ، أوغندا ، تابعة لإيالة مصر . باع الخديو باشا في ت1875/2 إلى إنكلترا السندات التي يملكها في قناة السويس ، ورغم ذلك لم يتمكن من تسديد ديونه . بدأت كل من إنكلترا وفرنسا في مضايقة القاهرة وإستانبول بطلبات الديون . وإزاء هذا الضغط ، ولغرض الحد من المصروفات ، اضطر الخديو إلى

خفض عدد جنوده من 30 000 إلى 11 000 وإحالة 2 500 ضابط على التقاعد . أعلن الضباط تحت قيادة العقيد أحمد عرابي بك تمردهم على إنكلترا التي زاولت هذا الضغط وعلى إسماعيل باشا الذي خضع لهذا الضغط . أظهر عبد الحميد الثاني تأييده لعرابي بك بترقية رتبته إلى لواء (بالعثمانية مير لواء) Tumgeneral ومنحه رتبة الباشوية (كانت أكبر رتبة يتمكن الخديو من إعطائها شخصيا هي رتبة عقيد « آلباي ») . اضطربت البلاد . أحيل على التقاعد الضباط الذين هم من أصل عربي ، وبقي في الوظيفة أكثرية الذين أصلهم تركي . كان هذا الوضع سببا في شحذ الشعور القومي العربي في مصر . إن القوميين العرب كانوا يقولون إن مصر للمصريين ، لكنهم كانوا يظهرون ارتباطهم بعبد الحميد الثاني ، معلنين أن زعيمهم الأعظم هو الخليفة عبد الحميد الثاني الذي كان يتحين الفرص للإيقاع بالخديو ، عزله (1879/7/25) مستفيدا من هذه الفرصة ، وأصدر الفرمان الذي يعين فيه ابنه محمد توفيق باشا واليا على مصر بلقب « خديو وبدرجة الصدارة » . لم يرغب البادشاه ، في البداية ، حتى في رؤية إسماعيل باشا في إستانبول ، لكنه منحه إذن الإقامة في إستانبول بغرض إبقائه قريبا منه . قضى إسماعيل باشا بقية عمره في قصره الخاص في بيازيد في إستانبول ، وفي قصره الساحلي في إميركان . توفي في إستانبول عن عمر يناهز الـ 65 (1895/3/2) . كان يسمح له مع بقية الوزراء ولعدة مرات في السنة ، في مراسم المعايدات ، أن يحظى بحضور البادشاه ليقبل أطراف عرشه . والمشهور عن عبد الحميد الثاني أنه قبل زيارته طوال هذه السنين ، دون أن يلتفت إليه ودون أن ينطق ولا بكلمة واحدة . حيث إنه كان بالنسبة لعبد الحميد الثاني الشخص الذي كان سببا في استيلاء الإنجليز على قطر كمصر ، قرة عين العالم الإسلامي ، بسبب حرصه الشديد على السلطنة . حكم إسماعيل باشا الذي قام بأكبر نهضة وحركة تجددية في مصر بعد جده محمد علي باشا ، مدة سنتين ، 5 أشهر ، 14 يوما بلقب والٍ ، و 12 سنة ، وشهر ، 23 يوما بلقب خديو . كان السلطان عزيز قد أهدى له جزيرة ياصي آدا من جزر إستانبول كملك شخصي للخديو . استرجع السلطان حميد هذه الجزيرة التي لم يسكنها الباشا . أول ملك على مصر هو فؤاد ، وهو الابن الصغير لإسماعيل باشا ، والملك فاروق حفيده .

لكن القضية المصرية لم تهدأ بعزل الخديو . أنهى عرابي باشا خدمات الموظفين الأجانب العاملين في مصر . احتجت كل من إنكلترا وفرنسا على الباب العالي ، ولم تستطع أيّ منهما التدخل العسكري لخشيتها من الأخرى ، وطلبتا بصورة مشتركة قدوم الجيش العثماني إلى مصر . لم يوافق السلطان حميد . كان لا يمكنه أن يتولى كخليفة إخماد الحركة القومية في مصر لحساب الدول الأوروبية الإمبريالية . وخلال فترة ، فكر في إلغاء الاستقلال الذاتي لمصر وجعلها كالإيالات الأخرى . لكنه وجد أن هذا لا يحل القضية المصرية ؛ إذ إن المصريين كانوا قد تعودوا على إدارة أنفسهم دون الحاجة إلى الغير ، وشيء آخر ، بالنسبة للسلطان حميد ، ذلك أن تعرض إنكلترا لمصر قد بات أمرا مفروغا منه ، وعندئذ سوف تقف مصر أمام العثمانية بسبب مخالفة العثمانية الفرمان الذي أعطي لمحمد علي باشا .

على أثر ذلك بلّغت إنكلترا كل الدول بأن الأمن مختل في مصر وأن حياة المسيحيين والأوروبيين في خطر ، وأنها راجعت الباب العالي لتأمين استتباب الأمن ، لكن الدولة العثمانية ، التي تتبعها مصر ، لم توافق على إرسال قوات عسكرية وأنه لم تعد هناك طريقة لحماية المصالح الأوروبية في هذا القطر سوى أن تقوم إنكلترا بذلك . عرابي باشا ، صار رئيسا للوزارة . في 11 حزيران ثار شعب الإسكندرية حيث قتل كثيرون وجرح 4 قناصل . قصف قائد أسطول البحر الأبيض لإنكلترا الأميرال Seymour ، الإسكندرية مدة ٦,5 ساعة بصورة مستمرة واحتلها في اليوم التالي (1882/7/12) . وفي معركة التل الكبير تمكن من تشتيت جيش عرابي باشا ، (1882/9/12) . دخل الجيش الإنكليزي القاهرة . وبذلك دخلت مصر تحت الاحتلال الإنجليزي بصورة فعلية (1882/9/15) . نفي عرابي باشا إلى سيلان .

كان وضع مصر والسودان من نهاية عام 1882 حتى عام 1914 كما يلي : وعدت إنكلترا ، مرات عديدة ، بالجلاء من هذه الأقطار ، لم تبر بوعدها . كان المصريون وكذلك الدولة العثمانية والدول العظمى الأخرى يريدون هذا الجلاء . لم يكن لاحتلال إنكلترا لمصر سند شرعي . كان أمرا واقعا . استمر هذا الاحتلال الغريب ، بهذا الوضع . فكرت إنكلترا ، أكثر من مرة وبصورة جدية بالجلاء من هذا القطر ، لكن الباب العالي استمر مترددا في إرسال الجيش ، وقد استمر الحكم العثماني ، رغم الاحتلال العسكري

في القطر ، ورغم تدخل اللورد الإنكليزي المسمى « المندوب السامي » في الإدارة المدنية بشكل واسع ، ورغم وضع اليد على قناة السويس ظلت مصر ترسل ضرائبها السنوية إلى إستانبول حتى عام 1914 ، وكذلك ظل منح الرتب التي تعلو على رتبة عقيد (آلباي) من قبل البادشاه . عاش معظم حكام مصر (خديو) في إستانبول .

ومن المميزات المهمة لهذا الدور ، اتحاد إمارة بلغاريا مع إيالة روملي الشرقية (بالعثمانية روملىء شرقي إيالة ممتازة سي) (1885/9/18) . اعترف الباب العالي بهذا الوضع ووافق على أن يكون أمير بلغاريا بعد الآن واليا على روملي الشرقية كذلك (1886/3/24) . إلا أن ناحيتي Rupeoz وقيرجة علي ، سلخت عن روملي الشرقية وادمجت ضمن إيالة أدرنة .

9 – الحرب التركية – اليونانية (4/18 – 1897/5/20)

اليونان التي سلبت تيساليا في كارثة 93 ، والتي كانت شهيتها تزداد كلما أطعمت ، ركزت أنظارها في هذه المرة على إيالة Epir (يانيا) وولاية كريت التي كانت مستقلة ذاتيا . أدخلت اليونان رجال العصابات إلى هذه الإيالات . وهللت لسحق جنود العثمانية لهذه العصابات ، مستثمرة ذلك في الإعلان عن استمرار الظلم التركي في أوروبا . كان عبد الحميد خان يعلم أن أوروبا ستنحاز للجانب المسيحي في أي حرب تنشب بين دولة مسيحية ودولة إسلامية ، مهما كلفها ذلك ، وإنها سوف تنقذ تلك الدولة ولا تعترف بأي حق للدولة الإسلامية ، كان يتحاشى الحرب في سبيل الأقطار العثمانية التي منحت الامتياز والحكم الذاتي ، لكنه لم يفقد مقاومته في سبيل الأراضي العثمانية التي لم تمنح الامتياز بعد . وقاوم كذلك في سبيل الأناضول الشرقية ومكدونيا بالرغم من معاهدة برلين . ولم يكن في نيته إعطاء أبير لقمة سائغة .

أخرج الباب العالي الرعايا اليونانيين الساكنين في الأراضي العثمانية من الإمبراطورية خلال أسبوعين ووضع يده على جميع الممتلكات اليونانية . أعلنت اليونان على أثر ذلك نفيرا عاما كاملا (1896/12/4) ، أما العثمانية فأعلنت التعبئة الجزئية ، بمقدار ربع التعبئة الكاملة (1897/2/15) وشرعت في الاستعداد للنفير للثلاثة أرباع الباقية في حالة تدخل الدول الأخرى . وإذ تمكن السلطان عبد الحميد من تجريد دول

البلقان الأخرى ، كان قد وضع في اعتباره عدم تمكن الدول الأوروبية العظمى (بالعثمانية دول معظمة) من الاشتراك في الحرب . سلم عاصم بك ، السفير العثماني في أثينا ، مذكرة إعلان الحرب إلى وزير الخارجية اليوناني (1897/4/18) . هكذا بدأت الحرب اليونانية التي ستستمر شهرا في 1313 (رومي) (1897) .

بدأت الحرب باختراق الجيش التركي الحدود في 18 نيسان . انهزمت اليونان في الحرب الميدانية Pirnar . استشهد في هذه الحرب أمير اللواء الكبير السن حافظ عبد الأزل باشا الذي اشترك في حرب قرم وحرب 93 . وفي اليوم الثاني ، انتصر الأتراك في حرب Losfaki كذلك ، رغم استشهاد أمير اللواء جلال باشا . كان القائد العام المشير أدهم باشا . كان القائد العام اليوناني ، الأمير – ولي العهد قسطنطين البالغ عمره 29 عاما والذي أصبح ملكا بعد ذلك . كان المقر العام اليوناني في ترخالا Tirhala في تيساليا . احتل الجيش التركي ترخالا (1897/4/24) وفي اليوم التالي يني شهر (باليونانية : Larissa) . كان قد بقي في كلتا المدينتين قسم من الأتراك . استقبل هؤلاء ، الجيش العثماني بمظاهرات عارمة . وقعت في يد الأتراك مهمات حربية على نطاق واسع .

انهزم بشكل حاسم الأمير قسطنطين الذي أراد إغلاق ميناء Golos (باليونانية : Volos) في المعركة الميدانية جتالجة (باليونانية : Farsala) (1897/5/5) . جاء أدهم باشا الذي انتصر في معركة Velestin كذلك إلى Domeke مع 48.000 جندي . أدخل قسطنطين جنوده البالغ عددهم 000 35 داخل الخنادق المستحكمة . أخرج الجيش التركي اليونانيين من الخنادق ودخل Domeke . امتطى الأمير جواده في ظلمة الليل وهرب (1897/5/17) . سقطت الوزارة في أثينا . راجعت الوزارة الجديدة الدول العظمى طالبة الصلح . خسر اليونانيون في جبهة أبير كذلك وعلى أثر برقية رجاء من القيصر إلى البادشاه ، وافق على الهدنة لقاء إعادة تيساليا ودفع غرامات حربية قدرها 10 ملايين قطعة ذهبية . استمرت الحرب 32 يوما ، تقدم الأتراك 150 كم نحو الجنوب واقتربوا من أثينا بمسافة 150 كم ، وأهم ما في الأمر أن أثينا كانت مفتوحة . إذ لم يعد هنالك جيش يوناني ليتمكن من حمايتها .

افتتح مؤتمر الصلح في إستانبول (1897/6/3) ، برئاسة وزير الخارجية توفيق باشا . استمر مدة طويلة . وفي النهاية وقعت معاهدة إستانبول التي تتكون من 16 مادة (1897/12/4) . أهدى السلطان عبد الحميد إلى توفيق باشا ، الذي ينحدر من عائلة خاقانات قرم ، البناية التي سميت فيما بعد بارك أوتيل والتي يملكها حاليا أحفاد الباشا تقديرا لخدماته . وعدا تعديلات الحدود التي أجريت في صالح العثمانية ، تخلى تيساليا وتعاد إلى اليونان . تسدد اليونان إلى العثمانية غرامات حربية قدرها 000 100 4 قطعة ذهبية . هدّدت كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا العثمانية بالحرب . أمّنوا كذلك ، منح الاستقلال الذاتي التام لكريت (1897/12/18) . سيترك الجيش التركي الجزيرة على مراحل ، ينتخب الوالي من الأهالي الروم ، ستستمر الجزيرة في كونها من جملة الأراضي العثمانية التي تدفع الضرائب . ترك خلال فترة 16 عاما (مابين هذا التاريخ وعام 1913) ، عشرات الألوف من مسلمي جزيرة كريت في مواجهة الضغط الذي مارسه الروم . فقدت الجزيرة هويتها كقطر مسلم .

هذا ما آلت إليه الحرب التي كسبتها العثمانية والتي أفنت فيها الجيش اليوناني خلال ثلاثة أسابيع ووصلت أبواب أثينا . الكلمة الأخيرة كانت للدول العظمى ؛ لأن اليونان كانت مسيحية ، ولأن العثمانية كانت مسلمة ، ضعيفة ؛ فقد كانت في مواجهة اتفاق أوروبي خاص لعرقلة اكتسابها القوة . الإمبريالية الأوروبية ، كانت تحكم العالم . لم تبتعد أوروبا كثيرا عن التعصب والعقلية الصليبيّة ، رغم ادعائها الفكر الحر وتظاهرها بالإنسانية . كانت أوروبا قاسية تجاه الأقوام غير المسيحية . وفي مستهل القرن 20 لم يبق على وجه الأرض ، إلا عدد قليل من الدول التي لم تعتنق المسيحية . ورغم أن المسيحيين يشكلون 1 من 3,5 من مجموع نفوس العالم ، فإنهم حازوا على القسم الأكبر من الكرة الأرضية . أوشكت الإمبريالية والتوسع الاستعماري أن يصل إلى أقصاه ، سوف يصل إلى الذروة في القريب . كان على العثمانية أن تحافظ قدر الإمكان على ما بحوزتها حتى ذلك الحين ، وذلك هو الممكن الوحيد في السياسة . وبالفعل كانت هي سياسة عبد الحميد الثاني .

10 ـ نظام السلطان عبد الحميد ، سياسة الاتحاد الإسلامي

كانت الدول العظمى في مستهل القرن 20 حسب تسلسل أهميتها ، عبارة عن :

إنكلترا ، ألمانيا ، فرنسا ، روسيا ، الولايات المتحدة ، أوستريا ـ المجر ، تركية ، اليابان ، إيطاليا والصين . خرجت أسبانيا من عداد الدول العظمى عند اندحارها أمام الولايات المتحدة الأمريكية عام 1898 وتركها مستعمراتها . حدث تغيير في مجموع النفوس خلال 1875 إلى 1900 وبضمنها المستعمرات ، في إنكلترا من 303 ملايين إلى 382 مليون نسمة ، في ألمانيا من 42 مليونا إلى 66 مليون نسمة . في فرنسا من 45 مليونا إلى 76 مليونا ، في روسيا من 89 مليونا إلى 133 . في الولايات الأمريكية من 45 إلى 86 مليونا . في النمسا من 38 مليونا إلى 45 مليونا . في تركية من 64 مليونا إلى 57 مليونا ، في اليابان من 33 مليونا إلى 56 مليونا ، في إيطاليا من 27 مليونا إلى 33 مليونا ، في الصين من 430 مليونا إلى 348 مليونا ، في أسبانيا من 25 مليونا إلى 19 مليونا . تعداد العالم الذي كان في 1875 هو 000 000 328 1 ، ارتفع في 1900 إلى 000 000 491 1 .زاد مجموع نفوس الدول العظمى من 000 000 108 1 إلى 000 000 282 1 في 1900 . أما نفوس بقية الدول جميعها فزادت خلال الفترة 1875 - 1900 من 189 مليونا إلى 209 ملايين نسمة .

كانت الدول المسلمة المستقلة على وجه الأرض ، هي عبارة عن تركية ، إيران ، أفغانستان وفاس ، أما الدول الأخرى غير المسيحية فكانت : الصين ، اليابان ، سيام . جميع الدول المستقلة الأخرى كانت مسيحية (كانت كل من روسيا ، رومانيا ، صربيا ، اليونان ، قره داغ ، الحبشة أرثوذكسية المذهب ؛ والبقية كانت كاثوليكية وبروتستانتية) .

كان عدد المدن التي يتجاوز عدد نفوسها المليون نسمة عام (1875) ، 8 وفي (1900) ، 17 ؛ وعدد المدن التي يتراوح عدد نفوسها بين النصف المليون والمليون ، في (1875) ، 169 ، وفي (1900) ، 241 مدينة . وبينما كان عدد المدن التي يزيد عدد نفوسها على المائة ألف ، في (1875) ، 191 مدينة ، ارتفع عددها في (1900) إلى 288 مدينة . كانت الزيادة في النفوس ، خاصة في المدن الأوروبية ، كبيرة وسريعة خلال ربع هذا القرن . فقدت هذه الزيادة سرعتها اعتبارا من عام 1900 .

كان عدد المدن التي يتجاوز عدد نفوسها المائة ألف في 1900 ، في إنكلترا وبضمنها

المستعمرات 69 . في الولايات الأمريكية 37 . في ألمانيا 29 . في الصين 24 . في روسيا 23 . في فرنسا 18 . في تركيا 11 . في إيطاليا 11 . في اليابان 9 . في النمسا 8 . في أسبانيا 8 . وفي بقية الدول الأخرى 41 مدينة .

وبينما كانت إستانبول أكثر مدن العالم كثافة في النفوس حتى عام 1815 ، سبقتها لندن في هذا التاريخ وأنزلتها إلى المرتبة الثانية . وفي 1852 ، فاقت باريس كذلك إستانبول . وفي 1875 كانت إستانبول في المرتبة الخامسة من حيث كثافة السكان ، وهبطت إلى المرتبة الثانية عشرة عام 1900 . المدن التي يبلغ تعدادها المليون أو أكثر عام 1900 هي : لندن 6,1 ، نيويورك 4,5 ، برلين 2,4 ، شيكاغو 1,7 ، فيينا 1,7 ، فيلادلفيا 1,5 ، طوكيو 1,4 ، بطرسبورغ (لنينغراد) 1,4 ، أسّن 1,3 ، كلكتا 1,3 ، إستانبول 1,3 . موسكو 1,1 . مانشستر 1,1 . كلاسكو – 1 . بكين ثم هامبورغ 0, – أكثر المدن كثافة في السكان في الإمبراطورية العثمانية بعد إستانبول عام (1900) هي المدن التالية : القاهرة 684 ، الإسكندرية 352 ، أزمير 221 ، بغداد 160 ، الشام 154 ، حلب 140 . وكذلك كانت ضمن الدولة العثمانية عام 1900 ، 46 مدينة يتراوح عدد نفوسها بين 40 و 100 ألف نسمة .

موقف الدول في البلقان كان على الشكل التالي : ملكية رومانيا 156 135 كم^2 و 000 913 5 نسمة . ملكية صربيا 427 45 كم^2 و 000 500 2 نسمة . إمارة قره داغ 427 9 كم^2 و 000 228 نسمة . ملكية اليونان 859 64 كم^2 و 000 534 2 نسمة . إمارة بلغاريا التابعة لتركيا (بلغاريا الأصلية) 751 63 كم^2 و 000 644 2 . روملي الشرقية 594 31 كم^2 و 000 100 1 نسمة (345 96 كم^2 و 000 744 3 نسمة) . كريت التابعة لتركيا 379 8 كم^2 و 000 304 نسمة . بوسنة – هرسك تحت إدارة النمسا – المجر التابعة لتركيا 564 51 كم^2 – و 000 737 1 نسمة . الأراضي البلقانية التي تحت إدارة العثمانية مباشرة 344 155 كم^2 – و 000 954 6 نسمة (أوروبا العثمانية وبضمنها الممالك التابعة لها : 632 311 كم^2 – و 000 732 10 نسمة) .

كانت إنكلترا قرابة عام 1900 في المرتبة الأولى في العالم في جميع المجالات تقريبا – عدا الجيش البري – لكن الفروق بين الدول العظمى الأخرى ، أخذت في

التضاؤل . فمثلا ؛ أمريكا وألمانيا ، اقتربتا من إنكلترا بدرجة كبيرة في المجال الصناعي ، بل وأوشكتا أن تسبقاها . وبينما كان الجيش البري الألماني يحتل المرتبة الأولى بشكل لا يقبل القياس ، كانت البحرية الألمانية كذلك على وشك أن تحتل المرتبة الثانية بعد إنكلترا . كانت الصناعات الثقيلة في روسيا في مرحلة التأسيس ، وهذه تحتاج إلى رءوس أموال وخبرة تكنولوجية أجنبية كبيرة . كانت فرنسا ثم روسيا تليان ألمانيا في قوة الجيش وقدرته . كانت اليابان قد أسست جيشها وأسطولها الحديث وصناعتها الثقيلة ، وسحقت الصين حديثا واستولت منها على أقطار عديدة . كانت تستعد الآن للوقوف أمام التقدم الروسي في الشرق الأقصى . رفعت أسبانيا يدها في 1898 عن قارتي أمريكا وآسيا ، واستولت الولايات الأمريكية من أسبانيا – التي انهزمت أمامها – على كوبا ، بورتوريكو ، الفلبين . كانت الولايات المتحدة قد ضمت إليها حديثا إمارة جزر هاواي الكائنة في أوقيانيا ، ووطئت القارات الأخرى وسبقت ألمانيا في معدل سرعة نهضتها ، كانت في مقدمة الدول العظمي . إيطاليا ، خسرت في الحبشة ، وأخذت الصومال من العثمانية ، واتجهت أنظارها نحو الأراضي العثمانية كليبيا واليمن . كان وضع الصين كوضع الدولة العثمانية ، بل أسوأ . لأنها بقيت بعيدة جدا عن حركات التجدد التي حدثت في العثمانية . جميع الدول الإمبريالية الاستعمارية ، كانت قد اتجهت أنظارها نحو 10 ملايين كم² من كل من الأراضي العثمانية الشاسعة في الشرق الأوسط وعلي الأراضي الواسعة للإمبراطورية الصينية في الشرق الأقصى كذلك . كانت الدول الأفريقية المستقلة عبارة عن فاس ، الحبشة ، وجمهوريتي ليبيريا وأفريقيا الجنوبية ، وبعد سنوات ستبقى ليبيريا والحبشة فقط من هذه الدول . أما في قارة آسيا فقد كانت الدول المستقلة هي : تركيا ، إيران ، الأفغان ، الصين ، اليابان وسيام فقط .

بوفاة عالي باشا في 1871 ، فقد الاستقرار في الإدارة المركزية في الدولة العثمانية . تمكن عبد الحميد الثاني من تأمين الاستقرار عام 1880 فقط ، وبصورة قطعية قرابة عام 1882 . الانتصار في الحرب اليونانية عام 1897 والذكرى الـ 25 لجلوسه عام 1900 والاحتفال بها من قبل دول العالم بشكل باهر بإرسال الهدايا والتهاني ، كانت القمة في حكم السلطان حميد . سوف تبدأ مرحلة التقلص بعد هذا التاريخ . عصيان مكدونيا 1902 - 1903 وعدم ارتياح الطبقة المثقفة في الداخل ، خاصة لدى الشباب الجامعي ،

الرغبة في اقتسام ، وإن أمكن ، الاستحواذ على السلطة تحت شعار الحرية ، كانت من دواعي إضعاف البادشاه .

ما الصفة المميزة لإدارة السلطان عبد الحميد الشخصية التي استمرت 30 عاما على جزء كبير ومهم من العالم؟ ما مميزاته ؟ سوف تجيب عن ذلك بإيجاز .

يمكن أن يقال إن أهم ميزة هي كيفية إرتباط جميع مؤسسات الإمبراطورية وكذلك كل القضايا بشخص البادشاه . إن تحقيق طراز إداري طويل الأمد كهذا في دولة تتشكل من اتحاد شعوب مختلفة ، وليست دولة تتكون من شعب واحد ، لم يكن بفضل استعمال القوة القسرية ، على عكس ما يُدعى . كانت القوة القسرية موجودة طبعا ، الشرطة (بالعثمانية الضابطة) ، تحريات قوات الأمن الوطني (بالعثمانية خفيّة) ، لكن ليس أكثر من ذلك . لم يستعمل الجيش أبدا ف ي السياسة الداخلية . كان استعمال الجيش في السياسة الداخلية من أساليب الاتحاديين ، (اتخاذهم مؤامرة حسين عوني باشا في 1876 نموذج واضح) . استعمل الجيش فقط ، تجاه الزمر المسلحة التي عصت ضد الدولة بشكل سافر . كذلك ، لم تكن في هذه الإدارة الشخصية عقوبة الإعدام أو أسلوب الاغتيال . عقوبات السجن كانت نادرة وخفيفة . كانت عقوبات السجن لأسباب سياسية تستبدل بعد مدة وجيزة وفورا إلى نفي في أي مدينة من مدن الإمبراطورية تحت اسم « الإقامة الجبرية » . لم يكن عدد معارضي وأعداء السلطان الألداء قليلين . وحتى بين المسلمين والأتراك ، لم يكن عددهم قليلا . واستمرار الإدارة الشخصية طيلة هذه المدة الطويلة – رغم ذلك – لم يكن إلا على أساس شخصية السلطان . استعمل السلطان عبد الحميد صفة رئاسته لكل مسلمي العالم ، كخليفة وصفة كونه حاكما شرعيا للعثمانيين ، بمهارة فائقة . وبقدر ما طغى تأثيره على الأفراد ؛ طغى على الجماعات والأقوام والملل والشعوب كذلك . هنا يكمن سر دهائه . أكد بمهارة منقطعة النظير أنه أقدر مسلم وتركي على وجه الأرض . ولتوضيح شخصيته يكفي أن نقول ، صار من الواضح أنه أصبح رمزا للمسلمين والأتراك في نظر أعداء المسلمين والأتراك ، وأصبح هدفهم القضاء على هذه الشخصية ذات القدرة المتميزة ، إذ إن القضاء عليه سيؤمن لهم المكسب الرئيسي الذي يتمنونه ، وسيمكنهم بعد ذلك من القضاء على

المسلمين والأتراك بسهولة . وما أصاب المسلمين والأتراك بعد إسقاطه يكفي لإثبات كونه سياسيا قديرا . لقد استطاع عبد الحميد أن يكون رأيا عاما مؤداه أن الذين يشككون في صفاته هذه هم خارجون على الإسلام والعثمانية والأتراك . إن نظاما هذه فلسفته ، أثبت فعليا في الربع الأخير من العصر 19 قابليته للتطبيق . ترى ما وضعه عند التطبيق ؟

كان السلطان عبد الحميد يعزل وينصب الصدور الأعظم والنظار كيفما يشاء . كان من النادر أن يستشير الصدر الأعظم ويطلب رأيه حول النظّار . ويعتبر ذلك مخالفا لأسس التنظيمات . هكذا ربط النظار بشخصه وسلخ من الصدر الأعظم صفة كونه رئيسا تنفيذيا وثبت وضعه على أنه رئيس لهيئة النظار (بالعثمانية هيئة وكلاء) . كل ناظر ، كان مسئولا أمام شخص الخاقان . درجة مسئوليته تجاه الصدر الأعظم كانت مبهمة . أخذت الرقابة التي وضعت على الصحافة والنشر ، الصحف ، المجلات والكتب تشتد . صار الكتاب لا يطبع ما لم يراجع من قبل لجنة ذات صلاحية . كان أعضاء اللجنة ذات الصلاحية هذه متعصبين أكثر من البادشاه . حدث عدة مرات عدم الموافقة على طبع كتب لا محظور فيها . أصبح السلطان عبد الحميد أسيرا للنظام الذي أسسه هو ، ظل ساكتا تجاه تعاظم الاستبداد . أخذت تقارير الخفية (التحريات) ، خاصة في المدة الأخيرة ، في التنكيل بالأفراد وتسبيب نفيهم بدون داع . الحقيقة أن المنفيين من موظفي الدولة ، كانوا يتقاضون رواتبهم في المنفى ؛ لكنهم كانوا يتقاضون هذه الرواتب دون عمل وإضافة إلى ذلك ، كانوا يفارقون عائلاتهم ، إلى جانب هذا كانت هناك حالات نفي ممتازة حيث كان يعين هؤلاء في أماكن نائية ، يبقون فيها سنين ، ويمكنهم استصحاب عائلاتهم معهم . كان من هؤلاء ولاة إيالات وموظفون من ذوي الرتب العالية جدا .

وإذا قيل ما مدى ارتياح الشعب لهذا النظام وهذه الفترة من الحكم ؟ فإنه من المؤكد أن الشعب كان مقتنعا بأنه يساس بشكل جيد ، وأن الدولة تدار من قبل صاحبها الحقيقي والشرعي . وهذا يثبت أن فكرة التنظيمات وخاصة فكرة المشروطية ، لم تسر في سواد الشعب ، وبقيت منحصرة لدى طبقة المثقفين . لكن السبب البارز لهذا الارتياح هو سير التضخم في خط قريب جدا إلى (الصفر) . كانت الحياة رخيصة

إلى درجة لا تصدق . لم تكن الحاجات متعددة في الربع الأخير من القرن 19 ، كما في العصر 20 ، كانت محدودة . كان الشعب قنوعا ، وكان يؤمن عن طيبة قلب بأن الرخاء والنعيم هما فقط من حق العائلات المتميزة . كان يعتبر خطيئة ، أن تتطلع عائلة لا تملك الثروة ، إلى رخاء العائلات الكبيرة . كان الشعب متدينا جدا . كانت الكتلة المسلمة من الشعب الأكثر وطنية وإخلاصا في العالم ، هم أتراك العثمانية . لا يتراخى أبدا في قضاء عبادته ، ويقوم بها حبا في الله ولله فقط . المساكن كانت رخيصة . كل عائلة كانت تملك بيتا له باب خارجي . لا يسكن المسلم التركي في عمارة . كان بالإمكان تحويل الليرة العثمانية الورقية الواحدة إلى ليرة ذهبية واحدة في جميع أنحاء العالم . وكان لا يزال النقد الذهبي والفضي يتداول أكثر من العملة الورقية .

كانت الزمرة غير الراضية هي الشباب والضباط الذين يدرسون في المدارس العالية والمتميزة . إن عدم الرضى الكبير والذي أخذ بالتعاظم ، كان في « مكتب حربية شاهانة » (المدرسة الحربية الإمبراطورية) والمدرسة الطبية العسكرية الإمبراطورية . كان هنالك الكثير من الذين يشكون من النظام بين شبان المدارس المتميزة الأخرى كالمدرسة الملكية (المدنية) الإمبراطورية والمدرسة الطبية الملكية (المدنية) الإمبراطورية ، ومدرسة الأركان الحربية الإمبراطورية ، وكذلك بين شبان الكتب السلطاني (كلية غلطة سراي الإمبراطورية) الممتازة الوضع جدا (رغم عدم كونها مدرسة عالية) . ويظهر أن عدم الرضا في المدارس الأخرى والمدارس الدينية العالية ، كان في حده الأدنى . ويجب أن لا يخطر على البال أن الطلاب كافة مخالفون للنظام ، فقد كان هذا غير ممكن ، حيث إن أولاد القائمين بإدارة النظام يدرسون في معظمها . لكن الشباب معارضي النظلم ، أخذوا في بث الدعاية بين رفاقهم . وهذه الدعاية التي كانت عام 1900 غير مهمة ؛ توسعت وعظمت بشكل لا يصدق في الأعوام القليلة التي تلت هذا التاريخ . ومما يلفت النظر ، أن أول من قام بالدعاية المضادّة من الشباب ، هم الشباب القادمين من روسيا ، أولاد العائلات القاطنة مدة من الزمن في أوروبا ، أولاد الأقوام المسلمة غير التركية . كانت الناحيتان اللتان أولاهما السلطان عبد الحميد أهمية مكثفة في السياسة الداخلية ، هما المعارف في الدرجة الأولى ، وفي الدرجة الثانية الإعمار . قال الصحفي الشهير حسين جاهد يالجين ، أحد كبار أعداء نظام السلطان حميد وأحد

أركان جمعية الاتحاد والترقي: « لو كان بالإمكان الحفاظ على السلطة السياسية بالإعمار ، لبقي السلطان حميد محافظا على عرشه حتى وفاته » . إذن ، هل كان السلطان قد أهمل الحياة الثقافية ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال أمر معقد جدا ، فمن الحقائق المسلم بها أن الحرب الثقافية كانت مجهولة في ذلك التاريخ . لكن فتح المدارس كان مستمرا ، وحسب أقوال محرري الاتحاد والترقي أخيرا ، فإن عدد متعلمي القراءة والكتابة قد زاد خمسة أضعاف ، وفي بعض المدن عشرة أضعاف ، خلال فترة الـ 33 سنة من جلوس السلطان حميد حتى خلعه ، وكانت الثقافة والتعليم يتطوران . كان الإعجاب بأوروبا يزداد . كانت أوروبا في هذه الآونة في قمة عظمتها . العثمانية كانت تذكر الأزمان التي كانت هي فيها في تلك القمة بتحسر . كان الشاب العثماني يتساءل بينه وبين نفسه ، لماذا يتدنى اليوم . كان يرى أن العلة في النظام ، ويجدها في عدم نيل الحرية . لتأت الديمقراطية ، وكل شيء سوف يستقيم في طريقه . كانت هذه فكرة مدحت باشا ، وكان مدحت باشا بطلا بالنسبة لهؤلاء الشباب . كان الناظر ، يشخص الأمر على الفور ، بأن الشخص الفرد والمطلق الذي يوقف هذا النظام القاصر على قدميه ، هو عبد الحميد الثاني . إذن ، كان يجب إسقاط السلطان عبد الحميد .

لاشك أن للمثقفين حقا في بعض ما ينقدونه . لكن التأثيرات الخارجية كانت قوية كذلك . إن هذه التأثيرات الخارجية ، لم تكن تفكر في سلامة العثمانية . سوف يدركون ذلك بعد فوات الوقت تماما . لاشك أن الشباب كانوا حريصين على السلطة . قسم منهم كان يؤمن من صميم قلبه بأن شعيرات لحية السلطان حميد البيضاء أو الممتزجة بالبياض تدير الدولة خيرًا مما يديرها وزراؤه ومشيروه وقضاته العسكريون .

استفحل الشعور بعدم الرضا بين الضباط والشباب . إن عدم الرضا الذي كان نادرا بين العقداء ، وقليلا بين الرواد (بكباشي) ، أخذ في التعاظم بين الرتب الأصغر ، بين الذين تخرجوا حديثا في المدرسة أو الأكاديمية الحربية ، خاصة بين الذين خدموا في البلقان المجاورة لأوروبا . معارضو النظام بين الجنرالات كانوا معدومين تقريبا . سبب ذلك مادي . والسلطان هنا مذنب من ناحية وفي نفس الوقت معذور من ناحية أخرى ؛ معذور ، لأن موارد الدولة كانت محدودة ، مذنب ، لأنه لم يدرس سبب

عدم الرضى لدى الضابط الشاب ليعالجه . كان سبب عدم الرضا هو أن الدولة بدأت ـ خاصة في السنوات الأخيرة ـ بدفع 6 رواتب بدلا من 12 راتبا إلى الموظفين ومن بينهم الضباط . وهذه الحالة خفّضت مستوى المعيشة إلى النصف . الحقيقة ، أنه كان بالإمكان ، في ذلك الوقت ، المعيشة بالرواتب الستة دون الحاجة إلى أكثر . لكن الموظفين أخذوا يشعرون بأنهم دائنون للدولة وأن الدولة مدينة لهم . ومن ناحية أخرى ، كان الفرق بين الحد الأدنى والحد الأعلى لرواتب الإمبراطورية العثمانية كبيرا جدا ، كما كان الأمر كذلك في جميع أقطار العالم . وكذلك اليوم هو كبير جدا ، لدى أقطار العالم الشيوعية والرأسمالية . زاد البعد بين الحد الأدنى والحد الأعلى بشكل خطر في الجمهورية التركية فقط . كان راتب المشير (الماريشال) في السنوات الأخيرة لعهد السلطان حميد ، 300 قطعة ذهبية شهريا ، وراتب اللواء 60 ، والعقيد 25 ، الرائد 12 ، النقيب المتقدم 10 ، النقيب 5 ، الملازم الأول 3 ، الملازم 2 ليرة ذهبية . وبسبب رخص تكاليف الحياة ؛ فإن الحاجيات التي تصنع وتشترى اليوم بـ 2,5 ليرة ذهبية ، كان ممكنا صنع وشراء ما يعادلها في ذلك الحين بـ ليرة ذهبية واحدة . رواتب الضباط في إنكلترا للسنوات ذاتها ، الفريق الأول 240 ، اللواء 90 ، العقيد 32 ، الرائد 23 ، النقيب 20 الملازم الأول والملازم 7,5 إلى 9,5 (للخيالة والمشاة) ليرة ذهبية شهريا . ولو قورنت مع رواتب الضباط العثمانيين لشوهد فورا التوافق في رواتب الرتب العليا ، وعدمه في الرتب الدنيا . وبذلك يكون كل من الملازم والنقيب العثماني مقتنعا بأنه لم يتسلم حقه ، ولا يدخل في اعتباره كون إنكلترا أغنى إمبراطورية في العالم تمتص موارد 6 قارات . أصبح الوضع وخيما عند هبوط الرواتب إلى مرة في كل شهرين . وربما زاد من وخامة الأمر أن الجيش الأول المتمركز في إستانبول ، وخاصة الفرقة الأولى التي مقرها في ييلدز التي تشكل أكبر قوة ضاربة للإمبراطورية ، أخذت تتقاضى 12 راتبا في أكثرية الأحيان . أما ضباط الجيش الإمبراطوري الثالث في مكدونيا ، فكانوا يتقاضون راتبا واحدا في كل شهرين ، رغم أنهم وجها لوجه أمام العدو ، وفي صراع مستمر ليلا ونهارا مع الثوار . أخذ كل ضابط من الضباط الشباب في الجيش الثالث ـ الذي كان كل واحد منهم في حالة حرب فعلية مع المتمردين ـ يستعدون للمعارضة العلنية ويفتحون آذانهم لمعارضي النظام . وشيء آخر ، لم يكن هنالك من

لم يسمع بأن الضباط والموظفين المقربين للسراي كانوا وما زالوا يتقاضون رواتب إضافية وشهريا من الخزينة الخاصة ، أي من جيب السلطان الشخصي . كان السلطان حميد يبدل بصورة مستمرة الضباط الموجودين في يلدز وفي إستانبول ، وينقلهم من جيش إلى جيش ، كان تفكيره أن مصاريفهم في العاصمة إستانبول كبيرة ؛ لذا يجب إرسالهم إلى المناطق النائية ليعتادوا على التقشف والاقتصاد ، لكن هذه الفلسفة لم تعد تهمهم في شيء . لم يعثر على حل لذلك و لم يتيسر إيجاد ما يصلح هذا الوضع وكما قال الأستاذ مكرمين خليل ييناج Ord . Prof Mukrimin Halil Yinaç « سقط السلطان حميد لعدم تمكنه من دفع رواتب الضباط في حينه » .

إن التهامس ضد النظام في عام 1900 لم يكن يستهدف شخص البادشاه . اشتد الكلام ضد الخاقان مع حلول العصر 20 أخذ المثقفون يبحثون عن الجو الحر لنظام التنظيمات خلال الأعوام 1839 – 1871 . و لم يفكروا في أن ذلك الجو قد نتج – ولو جزئيا – من عظمة الإمبراطورية في تلك السنوات . تقبل الناس هذه الفكرة – ولهم كل الحق في ذلك – وهي أن الدولة كانت في ذلك الدور تملك رجالا إداريين مقتدرين وإن هذا الدور خال منهم ، إن الإداري الداهية الفرد اليوم ، هو السلطان عبد الحميد . لكن الأشخاص المحيطين به لم يكونوا يساوون ربع القرش . كان واضحا أن الرجال الذين يدير البادشاه الدولة بواسطتهم ، لم يكونوا على مستوى الرجال في الأدوار الماضية ، شاع اصطلاح « قحط الرجال » ولكن اتضح بعد 1908 أن الشباب الذين وضعوا هذا النقد لم يكونوا حتى على مستوى رجال السلطان حميد علما وتجربة .

وبناء على ذلك فإن السلطان حميد ، كان قد وسّع وطور المعارف والإعمار بشكل كبير . لكن ذلك لم يكن عنصرا كبيرا في الاعتبار ، كان العنصر المتفق عليه تقريبا هو كون السلطان عبد الحميد داهية في السياسة الخارجية ، هذا العنصر شهد له به حتى أعداؤه .

كان البادشاه ، الذي أخذت عرى الروابط تتباعد بينه وبين طبقة الشباب من شريحة المثقفين الذين ثقفوا بمعارف التنظيمات التي زودتهم بالثقافتين الشرقية والغربية ، معتمدا

على الشعب بقوة . كان يعلم أن جميع الأقوام المسلمة في الإمبراطورية تكن له المحبة الصادقة ، وأن الذين لا يدينون بالإسلام يؤمنون بأنه شخصية جديرة بالاحترام يخشى جانبها . وخلال هذه الفترة التي تفشت فيها الفاقة (بالفرنسية : disette) والمجاعة (بالفرنسية : Famine) في معظم الأقطار العالمية ، ومات الملايين في إيرلندا والهند بسبب قلة التغذية ؛ لم تكن في الدولة العثمانية مشاكل من هذا القبيل . لم يكن هنالك شخص جائع وبلا مسكن . كان التعاون الاجتماعي متينا بفضل النظام القويم للدين الإسلامي في هذا الجانب . كان طراز الحياة التي يحيونها ، إسلامية . لا يترك أعزب أو أعزبة في محلة أو في أية قرية ، إلا وزوّجوا ، يؤمن عمل للعاطلين . لا يسمح للشباب بأن يكونوا عاطلين وشذاذ آفاق . وبسبب قلة النفوس وعدم اشتغال المرأة ، كانت مشكلة البطالة في حدها الأدنى . موسرو المحلة ، القرية وأشرافها كانوا الحماة الطبيعيين للمعوزين . وبسبب ذلك ، كان الموسرون يلقون احتراما من قبل الشعب كرجال الدولة . استمر هذا البناء الاجتماعي ، حتى الحرب العالمية الأولى . ولذلك فلم يكن ينتظر رد فعل من قبل الشعب ، تجاه النظام الحميدي . وقد جذب هذا اهتمام وأسف معارضي حميد من الاتحاديين . وحاولوا كثيرا استمالة الشعب إلى طرفهم .

السلطان حميد ، كان بالنسبة لأوروبا رجل دولة ، غير محبوب ، يمسك في قبضته ملايين المسيحيين ، وبصفة خلافته ، له نفوذ على رعايا الدول الأوروبية المسلمين ، يثير الفتن بين الدول المسيحية ، لكنه رجل دولة يجب الحذر أو تجوز الخشية منه أو الشعور بالاحترام تجاهه . وكلما ابتلعت الدول الأوروبية قطرا إسلاميا ، زادت عداوتها تجاه السلطان عبد الحميد . كانت خشيتهم الكبرى من صفة خلافته . كان على رأسهم إنكلترا التي كانت مصممة على إلغاء الخلافة ، أو على الأقل نقل الخلافة إلى شخص آخر ، وإن أمكن إلى مسلم صديق لإنكلترا . وجود الخلافة لدى أقوى حكام المسلمين ، كان يزيد من غضب إنكلترا ، إذ كانت إنكلترا آنذاك الدولة التي تشتمل إمبراطوريتها على أكبر عدد من المسلمين في العالم . والعثمانية ، كانت الثانية .

السلطان حميد ، الذي وجد منذ أوائل أيام سلطنته أنه لن يتمكن من إيجاد مجال للتفاهم المتقابل مع الدولة العظمى الأولى في العالم ، حاول مضطرا أن يجذب الدولة العظمى الثانية لصفّه . إذ كان هذا ، قانون دبلوماسية رشيد باشا في التنظيمات . إذ

إن سياسة الانفراد كانت ستجلب على العثمانية ما جلبته على الصين .

الدولة العظمى الثانية ، هي الدولة الاتحادية المغرورة المكونة من إمبراطورية ألمانيا – ملكية بروسيا . كان لألمانيا كذلك مصالح كثيرة جدا في الاقتراب من العثمانية . الإمبراطور – الملك ولهلم ، زار السلطان حميد مع إمبراطورته مرتين بصورة رسمية . لم تكترث برلين بعدم قيام البادشاه برد هذه الزيارات . أبناء الإمبراطوري وضمنهم الأمير – ولي العهد ، زاروا السلطان حميد مرات عديدة . زار الإمبراطور السلطان حميد بصورة رسمية في 1889/11/2 و 1898/11/30 . أحدثت هذه الزيارات أصداء كبيرة في جميع أنحاء العالم . اغتاظت لذلك إنجلترا وفرنسا ، لكن لم يكن هنالك بد من ذلك ، ولا يمكن لتركيا أن تبقى وحيدة . كان أعداؤها يتمنون إمبراطورية عثمانية وحيدة لتكون لقمة سائغة . زار البادشاه في تواريخ مختلفة كلا من 3 أبناء الإمبراطور ، وأخيه ، وأخته كذلك . والملكة فكتوريا كذلك ، أرسلت إبنها وحفيدها ، ولي عهد النمسا – المجر ،إمبراطور وإمبراطورة البرازيل ، ملك إيطاليا Vittorio Emanuele لمرتين ، أبناء القيصر ، إخوته ، ملكة رومانيا ، ملك وملكة السويد – النرويج وثم ولي عهده ، 3 أمراء إمبراطوريين من اليابان ، الرئيس السابق للولايات الأمريكية المتحدة لمرتين ، شاه إيران وأمراؤه ، ، ملك الصوت ، حكام ألمان كثيرون وأمراؤهم ومن فرنسا Poincaré وكثيرون آخرون دخلوا سراي يلدز وخرجوا منه . وكلهم صرحوا بأنفسهم فيما بعد بأنهم سعدوا بلقاء البادشاه . أما أمير بلغاريا Ferdinand – الذي كان في الأصل ألمانيا – فكان يرتدي بفخر ملابس مشير عثماني ومرافق البادشاه ويكتب التقارير إلى يلدز بتوقيع « عبدكم فرديناند » وكان يقبل رداء البادشاه في إستانبول . أما أمير قرة داغ نيقولا الكبير السن فلم يتمكن من ترك ما تعوده سابقا ، وأخذ يوقع على الرسائل حتى 1908 بتوقيع « عبدكم نيقولا » هذا ، رغم كونه حاكما مستقلا منذ 1878 . وكان معلما بالأصل ، تسلم راتبا سريا من السلطان حميد طيلة مدة بقائه على قيد الحياة . أما أمراء العالم الإسلامي ، فكانوا يدخلون قصر يلدز بخشوع ، رغم كون أكثريتهم من الرعايا الإنكليز ، إذ إنهم كانوا فقط يحيّون الحاكم الإنكليزي ، بينما كانوا ينكبون على الأرض – رغم منع السلطان حميد ذلك بصورة قطعية – في حضور أمير المؤمنين .

منع التدريس باللغة التركية في إيران لفترة ما ، رجا البادشاه بنفسه مظفر الدين شاه فصدر الإذن باستئناف التدريس بالتركية . كان السلطان حميد قد حصل على أعلى الأوسمة ودرجات الشرف في العالم . إن هذه الأوسمة ، نهبت في نهيبة يلدز عام 1909 .

أقيمت علاقات صداقة مع النمسا – المجر . روسيا ، التي لديها مشاكل كبرى في الشرق الأقصى وآسيا والتي تخشى ألمانيا كثيرا ، أصبحت محايدة ، لا يخشى شرها تقريبا تجاه العثمانية . لم يكن السلطان حميد يميل إلى فرنسا ، بسبب كونها جمهورية ولترويجها الآراء الثورية وتسميته باسم « السلطان الأحمر » . لكنه كان يحب الثقافة الفرنسية ، والموسيقى الإيطالية . كانت الثقافة الغربية السائدة في العثمانية ، هي الثقافة واللغة الفرنسية . الإنكليزية ، كان يتعلمها الضباط البحريون فقط تقريبا . أخذ عدد متعلمي اللغة الألمانية بين الضباط الأركان في الازدياد . أدخلت اللغة الألمانية مع اللغة الفرنسية في المدارس العسكرية . أما في المدارس البحرية ، فكانت اللغة الأجنبية ، هي اللغة الإنكليزية منذ القدم . اتخذ محمود الثاني ، النظام الفرنسي أساسا لتكوين الجيش التركي الحديث . وكان الجيش الفرنسي أساسا حتى 1871 أعظم جيش في العالم . حل محله في التدريس بعد ذلك ، النظام البروسي . استدعي الكثيرون من الضباط الألمان وبدأوا في التدريس في المدارس العسكرية . ويمكن القول بأن النظام البروسي ظل معتبرا حتى 1945 . جدد النظام بعد هذا التاريخ على أساس الطراز الأمريكي .

كان قد تم تأسيس التوازن ، سواء في أوروبا أو في البلقان . أصبح غير ممكن بعد الآن لإنكلترا ، روسيا ، فرنسا ؛ أن تستقطع أجزاء من العثمانية طيلة استمرار النظام الحميدي . إذ لم يكن بإمكان ألمانيا ، النمسا – المجر ، استقطاع شبر من الأراضي دون إعطاء حصة لإيطاليا . أما اقتسام كهذا ، فلم يكن ممكنا . وعلى هذا الأساس كان شخص السلطان حميد عاملا أساسيا وضمانا لسلامة وصيانة وحدة الإمبراطورية ، كشخص Franz joseph في النمسا . ولكن على الجانب الآخر أخذت النظرة إلى شخص السلطان حميد تتجه إلى تقييمه على أنه مانع كبير للدول الاستعمارية وعلى رأسها إنكلترا ، أخذت فكرة إسقاط هذا الحاكم بصورة مطلقة ، تكتسب ثقلا في لندن وباريس .

كان نجاح السلطان حميد الكبير في السياسة الداخلية ، يتمثل في ربطه الأقوام المسلمة في الإمبراطورية ، مع الدولة والعرش بشكل متين . كان مخلصا في عمله هذا ، والأقوام المسلمة التي لمست هذا الإخلاص ، قابلته بالمثل . إن سياسة إثارة الأقوام الإسلامية غير التركية في الإمبراطورية العثمانية ، وفصلهم عن الإمبراطورية والسيطرة عليهم تحت شعار القومية التي انتقلت عن الدول الإمبريالية الغربية ؛ لم تعط أية نتيجة جدية . لم تكن لدى الدول الغربية نية للاعتراف باستقلال أي شعب إسلامي ، وسوف لا تكون لديها هذه النية فيما بعد ذلك بكثير . ولذا ، فإن كل قوم مسلم إنفصل عن العثمانية ، كان لقمة طبيعية للاستعماريين الغربيين .

إن الناطقين باللغة العربية ، هم أكثر الأقوام الإسلامية كثافة في النفوس في الإمبراطورية ، بعد المسلمين الناطقين باللغة التركية . كان العرب راضين عن إدارة السلطان حميد . استمر السلطان حميد في السير على التقاليد العثمانية القديمة حول عدم المساس بتقاليد وأعراف وعادات العرب . كان العرب بالنسبة للعثمانيين « القوم الشريف » بل « أشرف الأقوام » بسبب ظهور الرسول ﷺ . الحقيقة أن اللغة التركية ، كانت معتبرة في جميع الأقطار العربية . لكن اللغة العربية كانت تدرس كذلك في جميع المدارس الدينية في الأناضول وروملي . وكانت اللغة العربية تدرس إجباريا مع الفارسية دون استثناء في جميع المدارس المتوسطة وجميع المدارس المدنية والعسكرية ذات الدرجة العالية التي فتحتها التنظيمات . لا يوجد تركي أنهى الدراسة المتوسطة (رشدية) لم يدرس العربية .

وكانت كل من اللغتين العربية والفارسية وآدابها إجبارية أيضا في المدارس الثانوية (إعدادي) على شكل أوسع .

كان الأكراد مرتبطين بإخلاص ، راضين عن البادشاه الذي حماهم ولم يقدمهم لقمة للأرمن . كان الجركس والأقوام القفقاسية الأخرى ، على الوضع نفسه . أنقذتهم العثمانية من سيف الروس ، فتحت لهم أبواب الدولة . وقد كانت والدة السلطان حميد ووالدات العديد من السلاطين ، من الجركس .

كان من الممكن للمسلم في إستانبول – دون أي تفريق بين التركي وغير

التركي – أن يعتلي أي مقام من مقامات الدولة ، عدا مقام السلطنة . كان بإمكانه بسهولة أن يكون صدرا أعظم . وبإمكانه أن يكون ضابطا ، جنرالا وماريشالا . عمل الأتراك في العسكرية بأكثرية فائقة ؛ كان بسبب عدم تحمل الأقوام المسلمة الأخرى ، مشاق المدارس العسكرية نسبيا ، وعدم رغبتهم في ذلك . لم يكن التفريق سببا في ذلك ، إذ لم يكن التفريق موضع بحث على الإطلاق . ومع أن الأكثرية الساحقة للعسكريين كانت من الأتراك ، كان هنالك بين الضباط الجنرالات والماريشالات ، عدد غير قليل ممن هم من أصل عربي ، ألباني (عرنووط) ، كردي ، جركسي ، تتري (تركي شرقي) ، بوشناق ، أباظة ، جاجان وبينهم من كانت له شهرة كبيرة . كان للبوشناق ، الجركس وخاصة الألبانيين ولع في دخول المدارس العسكرية كلما سنحت لهم الفرص وكان هؤلاء يستتركون بسهولة . أن استتراك العرب ، أي تركهم اللغة العربية وتكلمهم التركية كلغة أم أساسية ، كان أمرا صعبا . وفي مقابل ذلك ، استعرب ملايين الأتراك بعد عدة بطون سواء في عهد السلاجقة أو في الأدوار العثمانية في كل الأقطار العربية تقريبا . استعراب الأتراك ، جرى بسهولة كبيرة .

لاشك أن سياسة السلطان عبد الحميد ، الدقيقة والمخلصة تجاه الأقوم العربية ، كانت من إيجابيات خلافته . لكن عنايته الخاصة بالقوم الألباني كانت معلومة . وبسبب استقرار الدول البلقانية الجديدة في 1878 هناك ، وقرار معاهدة برلين بإجراء الإصلاح لصالح العناصر المسيحية في مكدونيا ، رأي البادشاه ضرورة الاستناد على الألبان المسلمين في غرب روملي على أطراف البحر الأدرياتيكي ، لدرجة أنه اشترط ذلك للحفاظ على روملي . ويقال إن إبقاء السلطان حميد لآخر صدر أعظم له ، التركي الأصل والذي صار ألبانيا على مر الزمن ، المنحدر من عائلة ألبانية عريقة وقديمة جدا Avlonya آفلونيالي – زاده لر ، الإداري اللّامع محمد فريد باشا ، سنوات طويلة في الحكم له علاقة بسياسته هذه .

وقع في 10 تموز 1894 في مدينة إستانبول ، أحد أكبر الزلازل في تاريخها . كانت كارثة كبيرة . أصلحت الأماكن المخربة بسرعة ، أوليت عناية خاصة بالمتضررين . وبينما كان طبيعيا ، في مثل هذه الكوارث ، أن تضعف الإدارات ، فإن هذا الوضع قد زاد في اعتبار السلطان حميد .

أصبحت ييلدز مدينة مستقلة داخل إستانبول . كان يعيش بداخلها عشرات الألوف من الناس والجنود . كل شيء صار مرتبطا ومرهونا بييلدز . أصبحت الدولة تدار من السراي بشكل لم يسبق له نظير . انكسرت سلطة الباب العالي ، وأصبح لا يمكنه البت في شيء دون استشارة السراي . صار واضحا أن البادشاه ، لم يعد يتمكن من الاعتماد على تسليم إدارة الدولة إلى زمرة النظار الذين خلعوا عمه وسكتوا على مقتله . كان تطورا سيئا جدا بلا شك. لم يمكن منع تحكم ييلدز في كل شيء . بالعكس فقد ازدادت حصته في التدخل . لم يكن في أي وقت من الأوقات ، لا سراي طوب قابو للقانوني ، ولا جانقايا لأتاتورك ، مرجعا فردا بهذا الشكل . هذا الوضع أضعف الخاقان ، ضعضع اعتباره . إذ بدأت كل النواقص تعزى إلى ييلدز ، فبدلا من أن يكون المرجع الطبيعي لشكاوى الشاكين ، الباب العالي ، اتجهت نحو ييلدز . ومع أن نية السلطان عبد الحميد ، لم تكن هذه بلاشك ، فإن ذلك زعزع اعتبار العائلة . وكرد فعل لذلك ، أخرج الاتحاديون إلى الساحة في هذه المرة ، رجل دولة من طراز ضعيف - السلطان رشاد - لقد كان من طراز لا مثيل له في أية دولة أخرى . إن هذا الطراز سبّب في هذه المرة ضربة معاكسة ثانية للسلالة . أما السلطان وحيد الدين الذي خلفه ، فقد فقد كل اعتباره لاحتلال العدو لمدينة العرش ، على عهده . ودنت نهاية أقوى السلالات استقرارا في التاريخ .

والمعلوم ، أن السراي يقسم إلى قسمين ، مابين همايون وحرم همايون والقسم الثاني هو دار البادشاه الذي يسكنه مع عائلته ، وليس له علاقة بأمور الدولة . ما بين همايون (البلاط) ، هو القسم الذي يقوم فيه البادشاه بواجب رئيس الدولة . والآمر الأكبر لهذا القسم ، يسمى مشير المابين . بقي غازي عثمان باشا ، ناظر السراي حتى وفاته في هذه الماريشالية . وعند وفاة عثمان باشا ، آخر مشير للمابين في التاريخ العثماني ، احتفظ السلطان حميد بهذا المنصب شاغرا ، مدة 8 سنوات ولم يعين خلالها أحدا . لكنه لم يلغ المنصب . والآمر الكبير الثاني للمابين هو باشما بينجي (رئيس المابين) والموظف الثالث هو كاتب المابين الهمايوني (سر كاتب حضرت شهرياري) . إن هذه المناصب كالنظارات ، والذي يشغلها يصبح له نفوذ أكبر من النظّار . يحتوي السراي على عسكريين مرتبطين رأسا بشخص عبد الحميد الثاني الذي يسمى في السراي

« هنكار » ، وبين الشعب « بادشاه » ، ورسميا « خاقان » ، ولدى العالم الإسلامي « خليفة روي زمين ، أمير المؤمنين » ، كما يحتوي على مشاورين من كل صنف ، مئات المرافقين وضباط الخدمات ، دائرة رئاسة الكتابة (التحرير) التي تحوي على تشكيلات ، أكبر من النظارة ، مكاتب البرق ، غرف الشفرة ، غرف الترجمة والمترجمين ، أركسترا (جوقة) خاصة ، باندو ، فرقة الموسيقى التركية (الساز) ، جيش من الأطباء ، وتشكيلات الأمن الوطنية المرتبطة بشخص البادشاه . ويسمى رئيس تشكيلات الأمن السرية هذه « سر خفية حضرت شهرياري » أي « رئيس استخبارات البادشاه الخاص » . شغل الفريق الأول الإنسان والمثقف جدا أحمد جلال الدين باشا ، هذا المنصب لسنوات طويلة . وآخر من شغل مقام كتبة المابين ، اثنان أحدهم ثريا باشا ثم تحسين باشا الذان بقيا مدة طويلة في الوظيفة . كانت كل المكاتبات ورئاسة التحرير باسم البادشاه ، تجري عن طريقه .

وظيفة الإخباريات ، تحولت إلى عمل غير أخلاقي . شوهد تقديم إخباريات من قبل أشخاص معروفين ضد خصومهم . وبينما تنحصر أعمال تشكيلات الشرطة السرية (الخفية) ، بالتحري عن الجرائم التي ترتكب ضد الدولة والبادشاه فقط ، أخذت هذه الحدود في التوسع بشكل خطر واعتباطي . ومع ذلك ، فقد شاهد الاتحاديون بدهشة ، في نهبي سراي ييلدز صناديق كثيرة العدد مغلقة ومليئة بالإخباريات ، ولم يفتح أي ظرف من الظروف التي تحتويها . ورغم ذلك لم يمنع البادشاه تقديم الإخباريات .

وفي الوقت الذي استقر فيه النظام على هذه الشاكلة ، بنواحيه الحسنة والسيئة ، فإن الاضطرابات التي بدأت في مكدونيا ، أخذت بالتزايد وسبّبت الحط من الهيبة وفي النهاية هدم النظام الحميدي . إن عامل تغيّر الزمن في هذه المسألة مهم جدا . لم تكن الإدارة الشخصية للحاكم غير مألوفة ولم تكن مستغربة كثيرا في السنوات التي تلت عام 1876 ، لم تكن مستغربة كذلك ، حتى في أكثر الأقطار حرية في نظامها . خرج النظام الحميدي عن كونه نظاما معاصرا . وإذ يقتضي أن يكون أكثر ليبرالية وحرية على مر الزمن ، أصبح أكثر تعقيدا ، واستبدادا .

كثر البحث عن سياسة السلطان عبد الحميد البانسلامية **Panislamizm** (بالعثمانية

اتحاد إسلام) ، بدأت هذه السياسة على يد السلطان عزيز وخاصة في سنواته الأخيرة ، ثم خلع . سار السلطان حميد في طريق عمه من ناحية ، لكنه عالج هذه السياسة الإسلامية بدقة أكثر ، وبنجاح أكثر وعلى مدى أوسع . أضافت هذه السياسة التي كانت لأجل الإسلام واستنادا إلى واجب الخلافة ، الدول الغربية بشكل كبير ، أخذوا ينظرون إلى البادشاه ، على أنه أعدى أعداء سياستهم الاستعمارية . وكان هذا مما عجّل بانهيار السلطان حميد وحال دون بقاء السلطان حميد على عرشه حتى وفاته عام 1918 وصيانته للدولة من الكارثتين الكبريين ، حرب البلقان والحرب العالمية الأولى .

إن البادشاه الذي عزز صفة الخلافة بشكل واضح ، هو السلطان عبد الحميد . وقد لقي هذا قبولا حسنا لدى العالم الإسلامي . وحتى اليوم ، يذكر العالم الإسلامي ذلك بمحبة . كان العالم الإسلامي في وضع حرج بسبب ضغط الاستعماريين . اجتمع بكل امتنان حول زعامة السلطان عبد الحميد المعنوية . شوهد بدهشة في صحف إستانبول عام 1967 ، خبر تلاوة الخطبة في مساجد بعض المناطق النائية في أفريقيا ، باسم عبد الحميد . وإنني موقن أنه حتى اليوم ما زالت تقرأ الخطب في أماكن كهذه باسم السلطان حميد . بينما جاء بعده 3 خلفاء آخرين .

من السهل ملاحظة مدى الرعب الذي أصاب كلا من روسيا وفرنسا وبخاصة إنكلترا من سياسة عبد الحميد في شأن الاتحاد الإسلامي ، وذلك من خلال الوثائق الدبلوماسية لتلك الفترة . ساح رجال الدين والضباط الذين هم مخبرو الخليفة في كل العالم الإسلامي . ذهبوا إلى جاوة ، سنغافورة ، ماليزيا ، سومطرة ، الصين ، تركستان ، الحبشة وأفريقيا السوداء . بعثوا بتحية الخليفة وجلبوا الهدايا . جابوا الهند . أرسل إلى سلطان فاس الضباط العثمانيين الذين طلبهم ، لكن فاس سقطت في قبضة الفرنسيين ، قبل تمكنهم من إصلاح الجيش الفاسي .

سببت سكك حديد الحجاز وبغداد ، زيادة صلابة أوروبا وخاصة إنكلترا تجاه عبد الحميد الثاني . كان البادشاه مصمما على مد خطوط إستانبول ـ صنعاء ، إستانبول ـ كويت ، إستانبول ـ أرضروم . أظهرت روسيا عدم ارتياح شديد بالنسبة للخط الأخير ؛ لذا

ترك للمرحلة الأخيرة . لكن خط بغداد ، شيّد برأس مال ألماني . وهكذا دخل في الحساب عدم إمكان اقتراب إنكلترا إلى خليج البصرة أكثر من ذلك ؛ حيث إن ألمانيا صاحبة الاعتماد ، ستحول دون ذلك . أما خط الحجاز فشيّد بدراهم العثمانية والمسلمين . أرسلت الإعانات من كل أماكن العالم الإسلامي لربط المدن المقدسة بمركز الخلافة إستانبول . أكبر مبلغ قدم من قبل البادشاه من خزينته الخاصة . وصل الخط إلى المدينة ، وقبل وصوله إلى مكة ، ترك السلطان حميد العرش .

أقلق خط الحجاز إنكلترا بشكل كبير . حيث إن ذلك سيؤمن نقل الجيش بسهولة إلى شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر . وقد أعلن بصورة رسمية التسهيلات التي جرت على سياحة الحجّاج .

والحادث المهم جدا الذي أقام أوروبا ضد السلطان حميد ، هو رفض البادشاه لطلب إسكان المهاجرين اليهود في فلسطين (بالعثمانية قدس شريف صنجاغي) (لواء القدس الشريف) . كان مؤسس الصهيونية الصحفي اليهودي هرزل Theodor Herzl (1860 – 1904) قد جمع في بازل في سويسرا 1897 المؤتمر الصهيوني الأول . فتح اعتمادا بمساندة أصحاب البنوك والممولين اليهود لغرض تأسيس وطن يهودي . جاء هرزل إلى إستانبول . توسط سفير النمسا – المجر في طلبه لمقابلة البادشاه . قابله (1901/5/19) حيث عرض هرزل ، طلب قبول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، مفيدا أن العثمانية قد قبلت في العصر 15 اليهود المطرودين من أسبانيا والبرتغال ، وأن رئيس الحاخامين في إستانبول قد أبلغه بأن القطر الذي لم يضغط فيه على اليهود ، على وجه الأرض ، هو الإمبراطورية العثمانية . وأضاف إلى ذلك أن المهاجرين اليهود الذين سيستوطنون في الأراضي الخالية سيكونون من رعاياها الجيدين وأنه يتكلم نيابة عن يهود العالم أجمع ، وأن مساندة يهود العالم ستكون بجانب العثمانية والبادشاه ، وسوف يقدم للبادشاه في الحال عدة ملايين من الليرات الذهبية كضريبة ودين عرفان . استمع السلطان عبد الحميد لهذا الصحفي الذي تجاسر على تغليف تقديم الرشوة له، بمهارة . كان يعلم من هم الذين وراءه ، ومن بينهم أصحاب البنك الملّي الإنكليزي روتشيلد . أدرك في الحال أن قصد اليهود هو تأسيس وطن لهم في فلسطين وليس السكن ، وفور

تحقيق أكثرية سكانية ، سيطلبون الاستقلال الذاتي ، ويحتمل الاستقلال التام مستندين على الدول الأوروبية .كان أبوه السلطان مجيد قد دخل الحرب في قرم بسبب عدم اعترافه بحقوق فوق العادة للمسيحيين في القدس . والآن ، ليس بإمكانه هو أن يعترف بهذه الحقوق للموسويين . أخرج هرزل من حضرته بشكل عنيف ، تاركا طبعه المعتاد في اللطف ، لا لطلبه ، ولكن لعرضه المغلف للرشوة . لم ينقطع الرجاء في قبول البادشاه المهاجرين اليهود إلى فلسطين . وحتى صديق البادشاه للقرب الإمبراطور ولهلم الثاني ، كان يقول إنه ليس هنالك ضرر في قبول عدد من اليهود المساكين في فلسطين . يظهر أنه كان يريد التخلص من قسم من اليهود (Yidis) المسيطرين على الاقتصاد الألماني . كان القيصر ، يهاجم القرى اليهودية في أوكرانيا ويقتل اليهود بواسطة القوزاق بشكل جماعي . عدد كبير جدا من نفوس اليهود ، لم يستطع السكن في أوروبا وأخذ يهاجر إلى أمريكا . والآن ، يراد إلقاء مشكلة أوروبا هذه على عاتق الإمبراطورية العثمانية دولة المشاكل ، لم يقدم عبد الحميد الثاني أي تعويض . وهذا مما سهّل جدا انهياره . أخذت تشكيلات الجماعة اليهودية التي تمتلك قدرة عالمية ، تنظر إلى شخص السلطان عبد الحميد ، على أنه هو العائق الأعظم لقضية فلسطين . أوعزت إلى جمعية الاتحاد والترقي السريّة في مكدونيا ، التي أخذت بتوزيع الدراهم بواسطة عضو الجمعية اليهودي عمانوئيل كاراسو Emanuel karaso الذي كان عميلا أجيرا لإيطاليا .

أعلن أمير تركستان الشرقية يعقوب بك خضوعه للعثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ، وضرب النقود باسم البادشاه ودعا ضباطا عثمانيين . إن هذه التابعية ، استمرت في أوائل عهد السلطان عبد الحميد كذلك . ثم استولت الصين مرة أخرى على تركستان الشرقية . لكن مخبري السلطان حميد ، تحت كسوة الأئمة وغيرها انبثوا بين مسلمي تركستان الشرقية والصين الـ (دونكر) .

تمكن عدد محدود جدا من اليهود من الدخول إلى فلسطين في عهد السلطان حميد ، لم يفتح الاتحاديون هذا الباب ولكنهم واربوه . دخل إلى فلسطين خلال 1908 – 1918 قسم من اليهود وأسسوا مزارع . تأخر الاتحاديون في اكتشاف لعبة الصهيونية ، و لم يدركوها إلا بعد فوات الأوان .

إن الامتيازات الحقوقية والتجارية والاقتصادية المسماة كابيتولا سيون **Capifulation** التي اعترفت بها الإمبراطورية العثمانية للأوروبيين القاطنين فيها ؛ عرقلت حركة السلطان حميد في بعض الأمور . لم يستعمل الأوروبيون هذه الحقوق في تركيا فقط ، بل كانوا يستعملونها في إيران ، الصين ، البرازيل ، فاس وحتى 1900 في الإمبراطورية اليابانية وفي الدول الأخرى . أراد عالي باشا إلغاءها ، ووفق فقط في الحصول على تعويضات غير كافية .

لم يكن السلطان حميد معارضا للشعور القومي لدى الأقوام الإسلامية ، وإنما كان ضده عندما أصبح هذا الشعور يهدد الاتحاد المعنوي الإسلامي ، والاتحاد العثماني ويكون آلة لأوروبا . قدّر أن الشعور القومي الحي ، سوف ينعش المسلمين ويحركهم للتخلص من تحكم الإمبريالية . ساند القوميين للصريين كعرابي باشا ، مصطفى كامل باشا ، ومنحهما رتبة الباشوية . وساند الحركة القومية التركية . احتضن الأتراك القادمين من روسيا . قوّى التيارات القومية في الإستانبول . قام بحركات قومية ذات مغزى كبير . تحرك بدقّة كبيرة في إيقاد الشعور القومي ؛ ولذا ، فقد بيّن مؤرخون عديدون ، اتباعه لسياسة الاتحاد التركي « **Panfurk** » بجانب اتباعه لسياسة الاتحاد الإسلامي « **Panistam** » . لكن ، يمكن القول بأن سياسته في الاتحاد التركي ، هي جزء من سياسته في الاتحاد الإسلامي . حيث إن جميع الأتراك كانوا مسلمين وكتلة كبيرة من الأتراك ، كانوا يعيشون حياة الاستعمار والاستعباد في روسيا .

عبد الحميد الثاني ، كان قوميا ، على غرار مفهوم القومية التي يتفهمها ثنائيّ ضياء - كال . لكنه لم يشترك معهما في أفكارهما البرلمانية **Parlamentorizm** ، وبقي في هذا الشأن صادقا مع مدرسة رشيد باشا . وأساسا ، كان كل من ضياء باشا ونامق كال قد تركا تأييد المشروطية والحياة البرلمانية بعد كارثة 93 . هذا ويمكن تلخيص هدف السياسة القومية هذه بالشكل التالي ، تكوين جامعة تركية حيّة يمكنها صيانة الاتحاد العثماني ، والاتحاد المعنوي الإسلامي ، وتعطي لصفتي الخاقان والخليفة الاعتبار اللائق بهما وتستطيع تطوير الثقافة الإسلامية والتركية .

11 – ثـورة مكدونيا (1902 – 1903)

كانت مكدونيا تحوي 3 إيالات عثمانية (بالعثمانية ولايات ثلاث) . كان يعيش في الإيالات الثلاث بضمنها كرسوفا (مركزها أسكب) (الأخريان سلانيك ومناسطر) البالغ مساحتها جمعا 400 96 كم² ؛ 4 ملايين نسمة تقريبا . إيالة أشكودرا ، الواقعة في الشمال على البحر الإدرياتيكي في الناحية الغربية وكذلك إيالة يانيا (Epir) الواقعة في الجنوب لم تكونا ضمن مكدونيا . كانت مكدونيا ، مؤلفة من عناصر مختلفة العرق والدين والمذهب . المسلمون (الأتراك والألبان) يتجاوزون قليلا الـ 50٪ من النفوس . البقية مسيحيون أرثوذكس وقليل من الكاثوليك والموسويين . كان 25٪ من مجموع النفوس مكـدون – بلغار . يتكلم المكدون والبلغار ، لهجتي اللغة البلغارية . والجماعة المسيحية الكبيرة الثانية هم اليونانيون في الجنوب ، ثم الصرب في الشمال . كان هنالك قسم من Ulah (الرومان) وعدد قليل من العناصر الأخرى . كان في الإيالات الثلاث 15 ولاية (IL) ، 9 منها ، حاليا لدى يوغسلافيا ، 4 في اليونان ، 2 لدى ألبانيا ، وعدة أقضية فقط في بلغاريا . كان الأتراك والألبان أقوياء في إيالة كوسوفا (Uskup) ، والصرب في إيالة مناسطر واليونانيون في إيالة سلانيك .

كان هنالك عداء شديد بين الأقليات المسيحية . كانت سياسة عبد الحميد الثاني ، هي عدم السماح بانتصار كل من الصرب ، اليونانيين ، البلغار – المكدونيين والرومان بعضهم على بعض ، وجعلهم يستمرون في عدم تفاهمهم ، وبهذه الطريقة حال دون اتفاقهم ضد المسلمين . كانت سياسة واقعية . لكن المادة 23 من معاهدة برلين ، كانت تجبر تركية على إجراء الإصلاحات في مكدونيا لصالح الأقلية المسيحيّة ، كالمادة 61 التي أجبرت كذلك تركية على اجراء إصلاحات لصالح الأرمن في 6 إيالات في الأناضول الشرقية . جابه عبد الحميد [illegible] الضغوط الدورية للدول العظمى وحال دون اتفاق الدول المسيحية الست الكبرى (بالعثمانية دول معظمة) في الضغط على العثمانية . وتحاشى إجراء إصلاح من شأنه أن يؤدي إلى استقلال مكدونيا .

كان البلغاريون قد اتجهت أنظارهم بشكل قطعي إلى مكدونيا أو على القسم الأكبر منها على أقل تقدير . إن Megalo idea البلغاريين ، كانت مكدونيا ، وما زالت كذلك

اليوم . لذا كان يجب أولا قمع اليونانيين والصرب . وبعد إزاحتهم جميعا يفرغون للأتراك ، وبفضل الدول العظمى ، سيستقطعون مكدونيا من العثمانية . كانوا معتمدين على المادة 23 . أسسوا في 1893 جمعية ثوار مكدونيا والأعضاء المنفذون لهذه الجمعية هم العصابات . وشكل اليونانيون والصربيون وحتى الرومانيون ، عصابات للدفاع عن أنفسهم . ساند الباب العالي هذه العناصر الثلاثة الأخيرة لئلا يسحقهم البلغار . وسع البلغاريون حركات عصاباتهم المنفردة في مكدونيا ، اعتبارا من 1902 بشكل يمكن أن يقال عنه حرب عصابات حقيقية . شرعوا في قتل البلغاريين الذين لم ينضموا إليهم . كانوا يضعون القنابل في كل مكان . وفي أواخر 1902 ، تحولت حرب العصابات البلغارية إلى ثورة حقيقية . أخمد الجيش الهمايوني الثالث الثورة خلال شهر واحد (1902/9/21) . عصى البلغار مجددا قبل مضي سنة واحدة (1903/8/2) . كانت الثورة في إيالة مناسطر دامية . وقد شغلت الجيش الثالث وقوات الدرك (الجندرمة) العثمانية كثيرا ، كان الضباط المتحمسون جدا والمتخرجون حديثا في المدرسة البحرية ، يرسلون إلى الجيش الثالث ، وهؤلاء خلال مدة قصيرة ، وقبل أن يتعلموا فن القيادة انصبوا إلى عناصر حرب عصابات ، كانوا في كل لحظة تحت تهديد قنبلة بلغارية ، أخذوا يتطورون إلى عصابات تركية ، كانت حالتهم الروحية كأفراد عصابات ، كحركيين . كان ضباط الجيش الآخر السادس المستعدون لحرب نظامية ، يشاهدون ملازمي ونقباء وبعض رواد الجيش الثالث بدهشة . إن شباب الجيش الثالث هؤلاء ، سوف يطبقون ما تعلموه في مكدونيا اعتبارا من 1908 ، في كل أنحاء الإمبراطورية طيلة 10 سنين . أن إدارة إمبراطورية ، هي أدق طراز إدارة في العالم وتحتاج إلى دراية كبيرة ، وعدا أنهم فقدوا الإمبراطورية ، فسوف يصلون إلى الحد الذي يخشى فيه فقدان الوطن الأم .

زادت ضغوط الدول العظمى لإجراء إصلاحات في مكدونيا . كانوا يقولون إن دماء مسيحية كثيرة سالت في مكدونيا . لقد سالت دماء الكثيرين من المسلمين كذلك ، لكن ، لا توجد دولة إسلامية كبيرة عدا العثمانية ، لتدافع عنهم . ولغرض مراقبة الباب العالي الولايات الثلاث من خلال يد واحدة ، أرسل والي اليمن الوزير حسين حلمي باشا (سيكون صدرا أعظم بعد ذلك) إلى سلانيك بشكل دائم باسم مفتش عام الولايات الثلاث ، ووضع الجيش الثالث تحت أمره (1902/2/1) . ومن ناحية

أخرى ، تم في الباب العالي تأليف لجنة إصلاح ولايات روملي الثلاث برئاسة والي إيالة قونية الوزير آفلونيالي محمد فريد باشا ، وبعد مدة وجيزة ، أصبح فريد باشا صدرا أعظم (1903/1/14) . وهي الإشارة المؤكدة لسياسة السلطان عبد الحميد في جعل الألبانيين بشكل قطعي في جانب الأتراك . لكن مكدونيا ، لم تكن في خطر مؤكد ؛ حيث إن العداوة الكائنة بين الدول البلقانية ، كانت شديدة وعدا ذلك ، كان تفاهم أوستريا - المجر مع روسيا كذلك حول البلقان غير ممكن ، أحدهم يمثل الجرمانية والآخر يمثل السلافية ، كان كلا منهم يدعي ذلك .

12 - حادث القنبلة (1905/7/21)

أراد الحركيون الأرمن جذب انتباه الدول العظمى وتشويش الدولة العثمانية وذلك بقتل البادشاه . خططت المؤامرة في سويسرة ، وجود إنكلترا خلفها شديد الاحتمال . اتفقوا مع المتآمر المحترف البلجيكي Jorris . لم يكن لجوريس أية علاقة بالقضية الأرمنية أو بالأرمن . كان أجيرا يحقق رغبة من يدفع له الدراهم . كانت أوروبا في دور اشتدّت فيه تيارات الإرهابيين الذين يرومون قلب النظام الأوروبي القائم واللاشيئيّين العدميّين (Nihilst) الذين يفخرون بعدم إيمانهم بأي شيء . لا يوجد في هذه الآونة رئيس دولة لم يتعرض لمؤامرة . وبفضل تدابير الحراسة الشديدة ، لم يكن بالإمكان الاقتراب إلى السلطان حميد . وبسبب سحقه اليونانيين في الحرب ، ورفضه طلب اليهود في إسكانهم في فلسطين ، وقمعه حركات الأرمن في الأناضول الشرقية ؛ شكّل كل من اليونانيين والروم واليهود والصهيونية العالمية والأرمن جبهة ضد البادشاه .

جاء جوريس إلى إستانبول متنكرا كسائح مع رجاله (وكان بينهم نساء) . ومن خلال مراقبته ، ثبت أن ليس بالإمكان الاقتراب من البادشاه خارج مراسم صلاة الجمعة (سلاملك) ، وأن خروج السلطان من جامع ييلدز وركوبه عربته يستغرق دقيقة واحدة ، 42 ثانية ، وأن هذه المدة ، لا تتغير أبدا . جلب العربة التي صنعت في فيينا ، إلى إستانبول على شكل قطع . وضع على هذه العربة ، القنبلة الدقيقة الصنع المسماة ماكينة جهنم (بالفرنسية Machine infernale) التي تحتوي على 80 كغم من المواد

المتفجرة و 20 كغم من المواد المعدنية الجارحة . كان من الأصول المتبعة أن يتفرج الأوروبيون على البادشاه في مراسم السلاملك . ركب العربة جمع من الرجال والنساء ثم تركت في اللحظة الأخيرة على الطريق . كان البادشاه ، قد خرج من الصلاة . وخلافا للعادة ، اعترض شيخ الإسلام جمال الدين أفندي طريق الخاقان ، وعرض عليه بعض الأمور . انفجرت القنبلة قبل عدة ثوان . والأصح أنها انفجرت عندما كان البادشاه على عتبات الجامع . و لحظة من التأخر التي أنشدها توفيق فكرت في شعره ، هي التي نجّت حياة الخاقان . نفرت جياد الحرس الخاص الخيالة وتداخلت مع بعضها من شدة الانفجار . مر الخاقان من بين قطع الأجساد البشرية وجثث الخيل ، دون أن يبدو على وجهه أدنى تغيير ، وبالخطى نفسها التي كان يخطوها سابقا وركب عربته المفتوحة التي قادها بنفسه وعاد إلى سراي ييلدز . تقبّل زيارات التهنئة بالسلامة من السفراء الذين كانوا يحضرون المراسم عادة ، لم أكن بعيدا عن البادشاه . هز الانفجار المخيف الأرض التي أدوس عليها ، وكأنما دفع بي إلى الهواء . أعجبت بثبات البادشاه . كانت قسمات وجهه ساكنة . صان برج الساعة الخاقان من شظايا القنبلة المتناثرة . البرج كان متينا جدا ، لم يتأثر من القنبلة . لو انهدم لبقي الخاقان تحته . لم يصب الأمراء (الشهزادات) بضرر . لكن مات حصان أحد الشهزادات . مات اثنان من مربي الأمراء ، وكثير من الجنود . كان الميدان ، كأنه ساحة حرب قصفت بنيران المدافع . أحد جنود الخدمات منكبّ فوق ضابطه الميّت ، أحد السفراء ، كان يحاول بتقزز رمي ساق حصان سقط على حضنه (الفريق البحري Sir Henry Woods ، ص 161 – 3) .

هزة أرضية شديدة ، حصلت كذلك قبل مدة في صالة المعايدة في دولمة بقجة أثناء تلقي البادشاه التهنئة بالعيد ، اضطربت الصالة عند سقوط قطع كبيرة من الثريا التي تزن 4,5 طن على رءوس رجال الدولة . لم يتحرك الخاقان وبقي جالسا على عرشه الذهبي ، ورفع يده فقط داعيا الحاضرين إلى السكينة ، لكن خلال ذلك ، كان العديد من رجال الدولة قد هرب من السراي وخرج إلى الشارع .

تسلم السلطان حميد برقيات التهاني بالسلامة من جميع رؤساء الدول في العالم . قبض على المتآمرين وعوقبوا . وكذلك تم القبض على جوريس . منحه البادشاه 500 ليرة

ذهبية وأخلى سبيله . أرسل جوريس في السنوات المتعاقبة معلومات مفيدة جدا من أوروبا إلى السلطان عبد الحميد .

13 – قصبة العقبة (1906)

كان إنشاء خطوط بغداد والمدينة الحديدية ، حائلا دون أطماع إنكلترا في شبه الجزيرة العربية . يظهر أن وجود الجيش الإمبراطوري الخامس في الشام والجيش الإمبراطوري الرابع في بغداد ، والجيش الإمبراطوري السابع في صنعاء ، كان لغرض حماية شبه الجزيرة العربية وخاصة تجاه إنكلترا . ومن ناحية أخرى ، كانت في مكة فرقة مستقلة (ليست مرتبطة بأي جيش) ، تحت إمرة والي الحجاز . كان الأمراء السعوديون الوهابيون في نجد وفي جبل شمّر وأمراء الرشيدي الوهابيين كذلك وأمراء الكويت وأمراء قطر وأمراء حضرموت ولحج ، كانوا موالين للدولة . كان البادشاه يتلطف معهم في كل مناسبة . وحتى الإمام الزيدي في اليمن ، كان كذلك . كانت مراكز إيالات العثمانية في البلاد العربية هي صنعاء ، مكة ، شام ، حلب ، بيروت ، بصرة ، بغداد وموصل .

أسس السلطان عبد الحميد في 1901 ، في برشيبة التاريخية المكونة من عدة أكواخ ، مدينة بئر السبعة وركز فيها حامية عثمانية . تقع في صحراء نجف بين غزة وبحيرة لوط . كان واضحا أنها أساسًا ضد الإنكليز على طريق الحجاز ومصر (جرت معركة غزة الميدانية الثانية ، تجاه الإنكليز وحلفائهم هنا في 17 – 19 نيسان 1917 ، خسر الإنكليز ما يقارب 10 000 شخص ؛ كانت الجيوش الإمبراطورية الرابع والسابع والثامن ، المسماة رهط جيوش الصاعقة ، موجودة في الجبهة) . أثار الإنكليز عصيانا في اليمن عام 1905 . أخمد العصيان ، ولكن سال دم عثماني كثير . حدثت وفيات كثيرة بين جنود الجيش التركي المكون من جنود الأناضول وروملي الذين لم يطيقوا مناخ إقليم اليمن .

إنكلترا عندما لم تتمكن من الإحاطة بالبحر الأحمر من الجنوب ، بدأت في هذه المرة ، في المحاولة من الشمال . أرادت افتعال حادثة من لا شيء على الحدود المصرية . كان أساس المسألة ، قصبة عقبة التي هي الآن الميناء والمنفذ الوحيد للأردن إلى البحر

(البحر الأحمر) . كانت العقبة تدخل ضمن لواء كرك (الأردن) وليس مصر . إلا أن العثمانيين كانوا قد سمحوا منذ زمن طويل بوجود جماعة أو جماعتين من الجيش المصري لغرض مراقبة الحجاج المصريين . أرسلت إنكلترا جيشا إلى هناك ، مدعية أن هذه القصبة هي قطعة من مصر ، وأرادت السيطرة على رأس خليج العقبة ، وبهذا أظهرت قصدها في قطع طرق الحج وربما قطع سكة حديد الحجاز . أرسل السلطان عبد الحميد أحد مرافقيه ـ الذي صار جنرالا بعد ذلك ـ العقيد رشدي بك (هو والد فطين رشدي زورلو وزير الخارجية) مع سريتين من الجند ومدفع واحد فقط إلى العقبة . دخل رشدي بك القلعة ، وأخبر الجنود المصريين بأن البادشاه سمح لهم بالعودة إلى مصر ، وأرسلهم إلى بلدهم . احتل قصبة طابا التي يوجد فيها جنود مصريون كذلك وهي قرب العقبة . ورغم هجوم بضعة آلاف من خيالة البدو بقوة الذهب الإنكليزي الباهر في العقبة ، فلقد شتّتوا .

كان وضع إنكلترا في مصر ، من الناحية العسكرية ، ضعيفا وذلك بسبب احتلالها مصر بواسطة 5 000 جندي فقط وبسبب وجود أكثرية هؤلاء في القناة . حشدت وحدات جديدة في مصر . أعلن أسطولها في البحر الأبيض حالة الطوارئ . قام الشعب في القاهرة والمدن الأخرى بمظاهرات أثنى فيها على السلطان عبد الحميد ولعن الإنكليز . كان الاحتلال الإنكليزي لمصر غير شرعي وكان عبارة عن أمر واقع ، لم تعترف به ولا دولة واحدة . دعا السلطان عبد الحميد ، السفير Sir O'connor واستفسر منه عما إذا كان عليه استئذان إنكلترا في إرسال جنود إلى قصبتين من مصر التي هي ولايته . إلا أن إنكلترا أرسلت إخطارا لمدة 10 أيام ، إلى الباب العالي تطلب خلاله إخلاء العقبة وطابا وفي حالة عدم الاستجابة ، ستقوم حالة الحرب بين الإمبراطوريّتين . أجاب الباب العالي مبينا أن مصر ليست أراض عثمانية ، وإن تعديلات الحدود مع إيالة مصر سوف تجري بين الضباط العثمانيين والمصريين ، ولا حق لأي إنكليزي بالاشتراك في هذه المفاوضات ، وأن احتلال إنكلترا لمصر غير شرعي ومؤقت ، وأن إنكلترا كذلك وافقت على كونه موقتا . تم تعديل الحدود بين الضباط العثمانيين والمصريين (1906/10/1) . تم التعديل على أساس حدود مصر الحالية في سيناء ، بقيت طابا لدى مصر ، والعقبة لدى العثمانية . كانت طابا أساسا قد احتلت لغرض تقديمها كتعويض عن العقبة .

14 – تشكيل جمعية الاتحاد والترقي السياسية وتطورها

أدركت سلطنة السلطان عبد الحميد عام 1908 سنتها الـ 32 وسلطنته الشخصية سنتها الـ 30 . كانت هذه إدارة طويلة ، وكانت إدارة فيها رفاهية وخالية من الويلات ولكنه ، في الوقت نفسه ، كانت إدارة كبت . (حتى في أحسن الإدارات الطويلة الأمد ، تظهر بين الشعب آثار عدم الارتياح أو الملل على أقل تقدير) . في دور السلطان سليمان القانوني ، الذي هو أفخم دور في التاريخ التركي منذ 2 500 عام وأحد أعظم أدوار التاريخ العالمي ، ظهر عدم الامتنان لدى بعض جماعات الشعب . أما السنوات الأولى للعصر العشرين ، فلم تكن أصلا سنوات جيدة . ولا يمكن حتى مقارنتها مع دور القانوني . كانت حصة المسلمين الأتراك والعثمانية في الدنيا ومنزلتها قد هبطت إلى الحد الأدنى . وسيستمر هذا الهبوط حتى العشرينيات .

لا يمكن القضاء على الأفكار ، لم يخترع سلاح لذلك . والفكر ، لا ينتج الخير دائما ، فهنالك الفكر السيّئ الذي يسوق الشخص والجمعية والدولة ، حتى العالم إلى الدمار . إن فكرة التنظيمات ونظامها كانت قد استقرت وأصبحت مألوفة . لم يكن هنالك أحد يريد استبدال نظام التنظيمات بالنظام القديم الذي يقطع فيه الرأس بمجرد صدور كلمة تخرج من فم الخاقان أو من يمثله ، والذي يجري فيه كل شيء ، دون قانون يستند عليه غير الوجدان والأخلاق ، والذي صار فيه هروب الجيش (القابوقولو والإنكشارية) من ساحة الحرب وقدومه إلى المدينة ليقوم بأعمال الشدة والنهب تجاه شعبه ؛ مألوفا وكأنه واجب . لم يكن هنالك أحد يقول : اغلقوا المدارس الجديدة ، ألغوا الجيش الحديث . لكن هنالك أيضا للشروطية ، أي فكرة الدستور والمجلس التشريعي ، فلسفة الديمقراطية ذات التاج ، التي تتعدد فيها الآراء . لم يكن السلطان عبد الحميد يؤيد هذه الفكرة ، ولم تقترب منها أبدا . لكن المجدّدين العظام ، كانوا هم شخصيات العصر التاسع عشر الكبيرة . كان السلطان حميد سياسيا يقف على مدرج العصرين . وأثناء تخطية الخطوة الأولى نحو العصر العشرين ، سوف يستطيع تكييف نفسه مع هذا العصر ، بقدر ابتعاده عن صورة رجل العصر التاسع عشر . كان السلطان عبد الحميد أساسا بعيدا جدا عن إنكار فكرة المشروطية بصورة رسمية . كان دستور 93

المسمى القانون الأساسي « قانون أساسي » لا يزال ساري المفعول . إن مادته الأساسية الوحيدة التي لم تطبق ، هي كون المجلس التشريعي مجمدا ، عدم إجراء الانتخابات ، عدم انتخاب نواب ، صدور القوانين عن شورى الدولة وليس عن المجلس .

لا يمكن الادعاء بأن الشعب كان راغبا في مجلس ، أما المثقفون فكانوا منقسمين إلى قسمين . أكثرية الشباب كانوا يريدون إمبراطورية ذات مجلس . بذلك كان يمكنهم التخلص من بيروقراطية التنظيمات التقليدية ومشقة الترفيع التي تستغرق سنين طويلة والاشتراك في الحكم ويحتمل السيطرة على الحكم رأسا . أما المثقفون متوسطو العمر والمسنّون فكانوا - باستثناء قليل منهم - لا يريدون المجلس . أولا ، لأنهم كانوا يخشون من استناد النواب المختلفي الشعوب والأقوام ، كل منهم ، على دولة أجنبية وتمزيقهم الإمبراطورية ، ثم لم يكن هنالك مجلس مثقف بثقافة التنظيمات التي نشأوا هم عليها . وأخيرا ، كانوا لا يريدون اقتسام المناصب مع الشباب ، ويريدون الحفاظ على مناصبهم مدة أطول .

إن شخصية خاقان الدولة العثمانية وخليفة مسلمي العالم التي يسميها الشعب بادشاه ، كانت غير مصونة بشكل تام في نظام التنظيمات ، وكذلك في دستور 93 . كان بالإمكان خلعه في حالة خيانته الوطن ، جنونه أو خروجه على الدين (كفره علنا) . لكن هذه الشروط ، من الواضح أنها وضعت بالنسبة للحاكم الذي لا يدير الدولة شخصيا . أما السلطان حميد فكان يدير الدولة شخصيا ، مخالفا في ذلك ، ليس أسس المشروطية فحسب ، بل أسس التنظيمات كذلك . أجبرته الحوادث على اتخاذ هذا الدور لنفسه وإعلان سيزاريته Sezar ، وهكذا نجت الإمبراطورية . ولكن حتى الذين آمنوا بعدم إمكان إنقاذ الإمبراطورية ، إلا بالسيزارية ، أخذوا في التفكير والتساؤل : هل يسوّغ له هذا إدارة الدولة شخصيا مدى الحياة ، أم لا ؟ وبهذا السؤال تبلورت في الأذهان ، الحالة النفسية الجماعية التي تنجم عن الأنظمة طويلة الأمد . كان من المتعذر القضاء على هذه الفكرة ، فقد كانت تترعرع على مر الزمن . اللهم إلا إذا فتحت صمامات الأمان ، وذلك بسحب البادشاه يده من الإدارة ، ووضعه نظام الوزارة المسئولة في حيّز التنفيذ بشكل كامل . واتضح في غضون أوائل العصر العشرين ، أنه حتى ذلك لا يكفي . حيث فتحت المجالس في روسيا 1905 ، وفي إيران 1907 ، رغم معارضة

القيصر والشاه . غير أن العثمانية ، لم تجابه هزيمة مفجعة كهزيمة روسيا تجاه اليابان ، ولم تكن سابحة في خضم الفوضى كايران . لكن محيطها ملئ بالدول ذات المجالس . العصر العشرون هو عصر المواصلات السريعة ، المخابرات السريعة ، التأثرات السريعة .

لم تندثر أفكار العثمانيين الجدد وذلك بسبب تركهم مؤلفات وكتابات وأشعارا ذات قيمة أدبية كبيرة ، ما زالت حيّة جدا بين طبقة المثقفين ومشوقة وجذابة بالنسبة للشباب . كان مدحت باشا بطل المشروطية ، وشهيد الحريّة ! كان هؤلاء الشباب لا يعلمون أي عميل إنكليزي لعين هو ، وكذلك لم يكن من مصلحتهم معرفة ذلك . لأنه كان يلزم لحصولهم على الحكم ، أن يرفعوا نوعا من الشعارات أو المثل ، حتى ولو كانت مفتعلة . من هو أكبر معارض لنظام حميد ؟ مدحت باشا ! إذن ، هو بطل . كان معارضو السلطان حميد الشباب ، لا يريدون التفكير حتى في كونه مستبدا ، ولا في تهيئته الجو الملائم لفاجعة 93 ، ولا جهله بكيان الإمبراطورية ، ولا في احتوائه فكرة المشروطية (الحياة البرلمانية) التي أخذها عن العثمانيين الجدد ، ووضعها في جيبه أو رأسه في سبيل حصوله على السلطة مدى الحياة . ويجب أن نبين أهمية ، أنهم كانوا متأثرين من صميم القلب ، بتناقص أطراف الدولة العثمانية في العالم على مر الزمن ، وانكسار شوكة المسلمين والعثمانية والأتراك . كانوا يعتقدون أنهم سيستطيعون معالجة هذا المرض وهذه المحنة بنظام آخر . كانت الدولة والشعب يتحدان باسم الدين والأمة ، في هذه المحنة ، سواء كان الشعب من منتسبي التيار الإسلامي ، أو العثماني ، أم التركي (قومي تركي) ، أم خارج هؤلاء – مع أن عددهم قليل جدا – من معتنقي الأفكار اليسارية والراديكاليين أكثر . كان اتحادا مدهشا . إذ كان اتحادا ضد البادشاه ، وللجماعات والأفكار التي ليست قريبة لبعضها . كان الشاعر الشاب المؤيد للدين محمد عاكف ، والشاب المفكر القومي ضياء كوكالب الشباب المؤيدون للعثمانية الذين يشكلون الأكثرية ، يتفقون في سقوط نظام السلطان حميد . بدأت الانتقادات بعد الآن تستهدف شخص البادشاه . كان هذا سيئا من ناحية كونه عبثا بكرامة وهيبة السلطنة والخلافة . كان عبثا يمزق الإمبراطورية إربا إربا . إذ إن الإمبراطورية ، في الحقيقة ، كانت تقوم على هذا الاعتبار فقط . لا يمكن لنظام إمبراطوري أن يستمر ويقف على قدميه في سلالة تضعضع اعتبارها ، لا في العثمانية فحسب ، بل حتى في

روسيا وألمانيا والنمسا وبريطانيا . يمكن أن يستمر فقط في الدول القومية التي يشكلها شعب ذو قومية واحدة . ومن الممكن كذلك أن تكون السلالة ليست ضرورية في الدول القومية . إذن ، فإن بذور نظام آخر تنثر . الحقيقة ، أنه ليس هنالك معارض ، إلا وهو من مؤيدي نظام السلطنة ، لم يكن يوجد شخص جمهوري واحد . لكن أي أحد لم يشعر بإعدادهم وسطا كهذا .

أدرك عبد الحميد الثاني في 1908 سن الـ 66 . كان قد تعب نتيجة سعيه المرهق . كان ملولا وغير مكترث ولا يمكن الادعاء بأن أفكاره ظلت على صورتها وبريقها السابق . نابليون Ausferlitz ، لم يكن هو نابليون Mropzig .

مضى على تعطيل عبد الحميد المجالس بالإرادة السنيّة 30 عاما و 5 أشهر و 6 أيام . كان دائما هو صاحب الكلمة الأخيرة في إدارة الدولة ، خلال هذه الفترة . تأخر في اكتشاف تغيّر العصر . ألّف هيئة في السراي وبدأ بترجمة الدساتير المشهورة في العالم . يستفاد من ذلك شيئان : الأول ، عدم إمكان استمرار دولة ، إذا لم يكن دستورها مطبقا بصورة فعلية . الثاني ، أن فكره لم يتغير أبدا في أن دستور 93 سيشتت الدولة ، حيث لو كان قد تغير ، لوضع الدستور المرعي حقوقا في حيز التنفيذ بصورة فعلية ، ولما حاول البحث مجددا عن سبل تعديله وتحويره ليلائم بنية الدولة . لكن القيامة ، قامت قبل أن يكمل البادشاه استعداداته هذه .

أقامت القيامة الجمعية السريّة للاتحاد والترقي . شكلت هذه الجمعية بصورة سرية عام 1890 من قسم من طلاب الحربية والطبية العسكرية ضد نظام السلطان حميد . اكتشفت تنظيمات الجمعية عام 1897 وشتّتت . نفي الكثير من أعضائها ، قسم منهم هرب إلى باريس . ذهب الفريق الأول أحمد جمال الدين باشا ، رئيس شعبة الاستخبارات الوطنية المسمى (سر خفيه ء حضرت شهرياري) ، إلى باريس . أقنع أكثرية الشباب الهاربين . كل منهم حصل على وظيفة في الدولة . لكن أحمد رضا بك ، أصر على البقاء في باريس مع حفنة من مؤيديه .

لا يمكن ادعاء عدم وجود تحريض وصحافة غير منحازة في الغرب . كذلك لا يمكن أن تكون هنالك سياسة غير منحازة . أكثرية الأشخاص الذين تمتدحهم الصحافة

الغربية ، هم الذين يعملون في صالح الدولة المادحة . والذين تذمهم الذين يعملون ضدها ، وحتى في حالات كثيرة ، الذين لا يعملون في صالحها . وإذا كان الشخص موضوع البحث ، غير مسيحي ، تكون هذه المقاييس أكثر تركيزا . ولو نظرنا بدقة ، لشاهدنا أن السلطان حميد كان يذم لخداعه إياهم وعدم خدمته مصلحتهم . ولو أسس أرمنستان في الأناضول الشرقية ، لما لقب حتى بلقب « السلطان الأحمر » . ولو أسكن اليهود في فلسطين ، لكان يصعب جدا خلعه . إذ حتى إنكلترا كانت لن تنشغل كثيرا لشخص آوى اليهود . ولو نشر بيانا يبلغ فيه مسلمي الهند بأنه لا يريد تلاوة اسمه في خطب الجمعة بعد الآن ، لامتدحته لندن . ولو اتفق مع الروس في البلقان ، واعترف لهم ببعض الحقوق في المضايق ، لما بقي لروسيا حساب معه .

لم يعمل ذلك ، لأنه كان يمثل الأتراك والعثمانيين والإسلام . حاول تحقيق هذا التمثيل بوقار في شروط العصر الداخلية والخارجية السيئة جدا . لكنه وجد أمامه صحافة الاتحاديين السرّية . أخذت تصدر ضده صحف كثيرة جدا في أوروبا . وأضيف إلى هذه صحف باللغات العربية والفرنسية وحتى الإنكليزية والأرمنية والألبانية . ولو جمعت الصحف الدورية ، التي طبعت ضد السلطان حميد في الخارج وأدخلت بصورة سرية إلى الأقطار العثمانية ، في مكان واحد لشكّلت مكتبة . ونحن المؤرخين نعلم اليوم ، أن أكثر بكثير من تسعة أعشار ما كتب فيها افتراء ، وما يقارب تسعة وتسعين بالمائة منها نتيجة لتفهم خاطىء ونقد مبالغ فيه . إن صحيفة « مشورت » التي أصدرها أحمد رضا بك في باريس ، أصبحت أكثر تلك الصحف استمرارا وأكثرها انتشارا . كان شخصيا ، رجلا مستقيما . أبوه علي رضا بك (وفاته 1886) أحد أعيان مجلس المشروطية الأولى . جده أحمد أفندي ، كاتب السر لسليم الثالث ولأنه من مؤيدي النظام الجديد ، استشهد في 1807 . (نورد هذا لأهمية إيضاح مبلغ تمركز الأفكار وتخمرها في الماضي البعيد) . سمّي علي رضا بك « إنكليز علي بك » أي (علي بك الإنكليزي) بسبب تحصيله في إنكلترا .

سبب ثبات أحمد رضا بك في باريس ، استمرار حركة الاتحاديين وعدم اندثارها . كان بإمكانه العودة والحصول من البادشاه على وظيفة كبيرة ، قاوم ثم شاهد كيف أن حزبه الذي ترأسه ، سبّب انهيار الدولة . مات في العهد الجمهوري بعد مدة وجيزة

من نشره مذكراته في جريدة جمهوريت ، التي اعترف فيها بعدم تفهمهم السلطان عبد الحميد ومدح فيها شخصية الخاقان وسياسته بشكل رفعه فيه إلى السماء . وقد اعترف كل من طلعت وأنور وجمال والزعماء الذين قلبوا الفكرة الاتحادية إلى مؤامرة ، بأنهم لم يستطيعوا فهم السلطان حميد وتركوا وطنهم في نهاية عام 1918 .

ساندت دول كثيرة على رأسها إنكلترا ، الحركة المعادية لحميد في أوروبا لضمان عدم خمودها . ويقتضي استثناء ألمانيا والنمسا – المجر من ذلك . ومع ذلك ، فإن الأخيرة هذه ، اشتركت في حركات كثيرة معادية للعثمانية في السياسة البلقانية .

هرب إلى أوروبا بروكسل في شباط عام 1899 الوزير المسمى داماد محمود جلال الدين باشا (1854 – 1903) ، ودون أن يخبر حتى زوجته السلطانة سنيحة (1851 – 1931) أخت السلطان حميد ، مستصحبا معه أبناءه سلطان – زادة ، صباح الدين بك أفندي (1877 – 1948) ولطف الله بك أفندي . كان ابنا للمشير خليل رفعت باشا رجل الدولة الشهير في فترة التنظيمات وصهر محمود الثاني . كان حانقا على أخي زوجته ، البادشاه ، بسبب عدم منحه امتياز أحد المعادن . مات هذا الشخص عديم المروءة والذي تقف وراءه إنكلترا ، في بروكسل بعد مدة وجيزة . نشر بيانات ضد سلطانه . تسلم مهمته بعده ابنه الكبير صباح الدين بك المسمى « Prinee » العميل الإنكليزي الخالص .

كان الأوروبيون يسمون الشباب العثمانيين الموجودين في أوروبا والذين أخذ عددهم في التزايد ويطعمون جيدا ؛ « جون تركلر » (بالفرنسية : Jeuncs Tures) أي الشبان الأتراك . اجتمع في باريس مؤتمر أحرار العثمانية (أحرار عثمانية) (4 – 1902/2/9) . اجتمع فيه أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، جميع معارضي النظام الحميدي . كان منهم الأتراك وغير الأتراك غير المسلمين . ويدعون كلهم أنهم عثمانيون ويدافعون عن الإمبراطورية العثمانية ويفكرون في إصلاحها وتطويرها وإنقاذها من إدارة الاستبداد .

اتخذ المؤتمر القرارات التالية : تؤسس في الإمبراطورية العثمانية إدارات محلية مستقلة على أساس القوميات . هذا القرار ، يتعدى شموله كثيرا المادتين 23 و 61 من معاهدة برلين التي لم يتمكنوا من إجبار السلطان عبد الحميد على تنفيذها . سيعطى فورا

الاستقلال الذاتي لكل الأقطار . صار البرنس صباح الدين بك ، أكبر ممزق للإمبراطورية بسياسته هذه (الاستقلال الذاتي) التي يسميها « عدم مركزيت » كان حينذاك شابا مسكينا في الـ 25 من عمره ، سقط في أحضان إنكلترا . لكن الإنكليز ، صرفوا الدراهم بسخاء على مصر وسوريا كذلك ، ووجدوا بين العرب عملاء لعدم المركزية (بالعربية لا مركزية) . قبل هذه القرارات من كل ممثلي الأرمن والروم والألبان المشتركين في المؤتمر . كل ممثل من هؤلاء كان عميلا أجيرا لكل من روسيا والنمسا ، وإيطاليا وإنكلترا وفرنسا أو لدولة من الدول البلقانية . بيّن صباح الدين بك للصحافة الأوروبية أن السلطان حميد ، قاتل للأرمن . توفيق فكرت في إستانبول ، حيا المتآمرين الذين أرادوا قتل السلطان حميد بأبيات مؤثرة من الشعر ووصفهم بالأبطال . رفض قرارات المؤتمر بصورة رسمية ، كل من رئيس المؤتمر علي رضا بك وعلي حيدر بك بن مدحت باشا الذي اشترك في المؤتمر ، ولم يوقعا . وعلى أثر ذلك ، انقسمت المعارضة ، وقرر الاتحاديون قيامهم بهذا العمل وحدهم في مكدونيا والحصول على تأييد الشباب من ضباط الجيش الثالث المرابط في هذه المنطقة ، وذلك بسبب وجود مخبرين كثيرين بينهم ، ووجود مؤيدين كثيرين للبادشاه في إستانبول والجيش الأول ، بأسره مؤيد للسلطان حميد . يكتسب هذا القرار أهمية جوهرية بالنسبة للتطورات التي ستحدث في الإمبراطورية العثمانية . خرجت باريس من كونها مركزا . أسس مركز سري في سلانيك . فتحت بعده فورا شعبة مناسطر . انتقلت الإدارة ليد أحد موظفي البريد الصغار المسمى طلعت أفندي (وبعد ذلك بك وباشا) .

وفي 1908 ، يمكن القول بقليل من المبالغة ، إن جميع الضباط الشباب وذوي الرتب الصغيرة ، كانوا اتحاديين . كان بإمكانهم الدخول إلى الجمعية بعد حلف اليمين على القرآن ، العَلَم والسلاح وعيونهم معصوبة ، كانوا يتسلمون الأوامر من أركان العصبة . يقتل الذين لا ينفذون الأوامر . ماذا يكون حال جيش ثالث يديره ضباط يتسلمون الأوامر ، لا من رؤسائهم ، بل من العصبة ؟ كل للملازمين والنقباء ، أعضاء في الجمعية . أخذ الرواد (بكباشي) كذلك في الدخول ، ودخل 1 أو 2 من المقدمين كذلك . وأساسا ، كان الاتحاديون لا يريدون إدخال ضباط كثيرين من ذوي الرتب العالية ، إذ لم يكونوا راغبين في تسليم الإدارة إلى الضباط ذوي الرتب العالية ، كانوا

يريدونها هم . أما الضباط ذوو الرتب العالية والذين رواتبهم ومناصبهم مؤمنة ، فكانوا لا يرغبون في الدخول إلى الجمعية ولكنهم كانوا على مر الزمن يغضون النظر - على نطاق واسع - عن مؤامرات الاتحاديين سواء بسبب عدم رغبتهم في إفساد وحدة الجيش أو بسبب خوفهم من القتل . كثيرون من المدنيين ، انتسبوا إلى الجمعية . كان قسم منهم موظفا صغيرا والقسم الآخر ، صاحب وظيفة حرّة . وفي النهاية ، شوهد دخول أشخاص من ذوي المناصب ، إلى الجمعية . أحدهم كان من أمراء قاوالالي ، محمد سعيد حليم باشا . حفيد قاوالالي محمد علي باشا (ابن ابنه) . كان عضوا في شورى الدولة في إستانبول ، كان عدوا لعبد الحميد الثاني لأنه لم يمنحه رتبة وزير . بينما كان من مؤيدي الوحدة الإسلامية ، وله مؤلف في ذلك . وآخر ، كان من شباب قاوالالير الأمير عمر طوسون باشا (1872 - 1944) ؛ كان ابنا لحفيد محمد علي باشا ؛ كان الاتحاديون قد وعدوه بجعله خديوا بدلا من عباس حلمي باشا ، ثم عدلوا عن ذلك . هذا الأمير كان رجلا عالما ومن مشيري الجيش العثماني وكان صهرا لحسن باشا (ابن الخديو إسماعيل باشا) من عائلة قاوالالي أيضا . من المؤكد أن أمثال هؤلاء أدخلوا إلى الجمعية لدعمها ماليا .

إلا أن الأعضاء الأكثر فعالية في الجمعية ، كانوا ؛ طلعت أفندي ، الرائد الركن أنور بك ، بيادة قول أغاسي (نقيب متقدم) نيازي أفندي . كان هؤلاء شبانا حركيين ، متآمرين من الدرجة الأولى ، لا يهابون أي خطر . وقد دخل كذلك إلى هذه الجمعية أركان حرب قول أغاسي (نقيب ركن متقدم) مصطفى كمال أفندي (أتاتورك) ، انسحب بعد ذلك لأنه كان معارضا لتدخل الجيش في السياسة ، لأنه شاهد ضرر ذلك فورا ، وكذلك لأنه لم يتحمل سيطرة أنور وحسده .

من أشهر شعارات الاتحاديين « اتحاد أنصار » . ويعني ذلك أن جميع أقوام الإمبراطورية دون تفريق بين عرق ولغة ودين ومذهب سيكونون - بعد زوال الاستبداد وحلول الديمقراطية - سواء بصفة كونهم رعايا دولة واحدة . إن هذا الشعار يتعدى كثيرا الفلسفة العثمانية لضياء - كمال ، وفيه أيضا جهل بالسياسة العالمية . بدأ الاتحاديون بالتعاون مع الحركيين في البلقان بهذا الشعار . اتفق رجال العصابات البلغار واليونان الصرب الذين أهدروا الكثير من دماء المسلمين

مع الاتحاديين لغرض هدم النظام الحميدي . ليسقط سيزار أولا ، عندئذ سيكون من السهل عليهم القضاء على الاتحاديين . وبالفعل حدث ذلك . قدمت جمعية الاتحاد والترقي السرية ، مذكرة إلى قناصل الدول الأجنبية في مكدونيا وطلبت تدخل دولها لهدم « استبداد حاضر » و « إداره ء مستبدانة » أي لهدم الاستبداد الحالي والإدارة المستبدة . لكن الديمقراطية ، لم تكن نظاما عالميا لكي تتدخل هذه الدول من أجل الطراز الإداري في العثمانية . الحقيقة أن سقوط السلطان حميد ، كان في صالح جميع الدول الكبرى عدا ألمانيا والنمسا . إلا أنه لم يكن بالإمكان تحقيق تدخل بالمعنى الذي يريده الاتحاديون .

بدأ الاتحاديون بقتل الموظفين العثمانيين الذين لا يتعاونون معهم . الرائد أنور بك جرح بمسدسه زوج أخته ، قائد مركز سلانيك العقيد الركن ناظم بك (1908/5/29) . الملازم عاطف بك ، قتل في مناسطر الفريق الأول شمسي باشا بالمسدس (1908/7/7) . اقتحم دار المشير تتار عثمان فوزي باشا الذي أرسل إلى مناسطر بدلا منه ، 2 000 من عصابة الاتحاديين وخطفوه وأرسلوه إلى الجبل (1908/7/22) . رائدان ونقيبان ثلاثة منهم أركان ، شكلوا عصابة وصعدوا إلى الجبل وأشهرهم أنور بك . وكان قد صدر أمر بالقبض عليهم ، وكان البحث عنهم جاريا .

صار لقاء Reval الذي جرى في هذه الأثناء (9 – 1908/6/10) ، وسيلة لحملة كبرى للدعاية الاتحادية . ملك إنكلترا أدورد السابع الذي هو ابن أخ لقيصر روسيا نيقولا الثاني ، التقيا في ميناء (أستونيا) الروسي . كان الموضوع ، اتفاقا إنكليزيا – روسيا تجاه ألمانيا . ولغرض إخفاء هذا الموضوع عن ألمانيا ، أشاع عملاء الروس والإنكليز أن الموضوع هو إصلاحات مكدونيا . ادعى الاتحاديون أن كلا الحاكمين قد اتفقا حول اقتسام مكدونيا و لم يتركوا هذا الادعاء سنين طويلة . والحقيقة أن استيلاء إنكلترا وروسيا على مكدونيا من العثمانية ، دون التفهم مع ألمانيا والنمسا وإعطائهما حصة منها ، شيء غير ممكن . لكن العثمانية ، لم تخل من الكثيرين من ذوي العقليات التي لم تدرك الحقائق المنطقية الواضحة .

قرر عبد الحميد الثاني ، بعد سلسلة من الوقائع التي لا داعي لذكرها هنا ، استئناف تطبيق القانون الأساسي . جيء بكوجوك سعيد باشا إلى الصدارة للمرة الـ 7 – كأول

رئيس وزارة مسئول ـ محل آفلونيالي فريد باشا . عين أركان حربية عمومية رئيسي (رئيس أركان الجيش) رشدي باشا ، لأول مرة بلقب « حربية ناظري » (ناظر الحربية) ، مع عدم تغيير صلاحياته ، بدلا من محمد رضا باشا الذي كان « سر عسكر » منذ 17 عاما (كان يعتبر كذلك لقب قائد القوات البرية ، وواجبات هذا المقام ، كانت ملقاة على عاتق السر عسكر أو ناظر الحربية) .

حدث هذا التغيير قبل يوم واحد من إعلان المشروطية الثانية . لم تأت المشروطية الثانية بديمقراطية حقيقية . كانت تدّعي ذلك ، وتمكنت فقط من تأسيس الديمقراطية شكلا وتحولت رأسا إلى حزب واحد وحتى إلى دكتاتورية المركز العام . ومن ناحية أخرى ، كانت تحوي كل العناصر التي تمزق الإمبراطورية إربا إربا وتمزق الوحدة الوطنية والدولة ؛ كتسليم المناصب لغير أهلها ولعديمي التجربة والجهلة بالسياسة الخارجية ، والافتتان بالأجانب وعملائهم . ولو أعلنها السلطان حميد بإرادته الشخصية ، لكان الانتقال أكثر عقلانية . لكن البادشاه أصبح في وضع أعلن فيه المشروطية مضطرا . أثر هذا على سياسة الدولة وأصبحت الكلمة للرعاع . ورغم ذلك ، كانت المشروطية نظام العصر العشرين ونظام حميد عاش في العصر التاسع عشر و لم يكن استمراره ممكنا . لم تحرك الجيوش الستة للإمبراطورية – عدا الجيش الثالث – ساكنا تجاه ذلك بصورة عامة . تلقى الجيش الأول خاصة ، ذلك بعدم ارتياح كبير . إلا أنه لم تحدث حركة مخالفة صيانة لوحدة الجيش . وأساسًا كان لا يمكنهم معارضة نظام أعلنه البادشاه بنفسه . بالنسبة للقانون الأساسي ، كان البادشاه هو القائد الأعلى . ورغم أن مؤامرة 1876 قد حققها الجيش الأول ، فإن مؤامرة 1908 ، أخذها على عاتقه الجيش الثالث بسبب أن نبض الإمبراطورية كان ينبض في مكدونيا منذ عدة سنين وكون هذه المنطقة متعددة الجنسيات والأقوام والمذاهب ومتداخلة مع أوروبا . الأقطار ذات الأهمية الحيوية كمكدونيا وأبير وألبانيا التي تشكل أحد جناحي الإمبراطورية ـ التي ضعفت بعد كارثة 93 ـ الكائنة بين نهر مريج والبحر الأدرياتيكي ، كانت في عهدة الجيش الثالث .

لو كانت المشروطية الثانية نتيجة حركة شعبية ، لأمكن تخطي الخطوة الأولى للديمقراطية الحقة . لكنها لم تكن كذلك . كان الجيش الثالث وخاصة الاتحاديين من

ضباط هذا الجيش ، يقولون إن المشروطية هي صنيعتهم وحدهم دون غيرهم ، وأخذوا يكررون ذلك على الشعب يعيّرونه ويمنّون عليه حتى انقراضهم وذهابهم . وهذا أثر من آثار قلة التجربة وعدم تفهم الديمقراطية ، ويحتسب هذا الخطأ بالذات على الاتحاد والترقي .

إن الديمقراطية ممكنة بالأحزاب ، وليست ممكنة دون أن يكون هنالك حزبان على الأقل . نعم لقد تألفت أحزاب كثيرة بعد المشروطية . لكن الاتحاد والترقي استصغر شأنها ، وعلى مر الزمن ، أعلن عدم شرعيتها وخيانتها للوطن . أصبحت للمعارضة سرية ، وبهذه الحالة المعنوية ، أقدموا على الحركة التحررية والهدنة ، الأمر الذي أدى إلى حدوث أوضاع لا تليق بالشعب التركي . بدأ الاتحاد والترقي بحياة حزبية سيئة للغاية . وبناء على ذلك ، لم تتحقق الديمقراطية بسبب عدم إمكان تشكيل أحزاب سليمة وإعلان الاتحاد والترقي عن نفسه بأنه هو الحزب الوحيد الذي أنقذ الشعب والدولة وأنه بصفته هذه ، صار وصيا على الشعب والدولة . لكن الأسوأ من ذلك هو إشراك الجيش في السياسة والإخلال – بشكل خياني وسافر – بالمبادئ الأساسية للانقلاب الأكبر الذي حققه السلطان محمود في 1826 وهو عدم استعمال الجيش في السياسة الداخلية وعدم تدخل الضباط في السياسة . وقد شوهد في حرب البلقان انقسام الضباط الاتحاديين والمعارضين (الذين يسمون أنفسهم « خلاصكار » أي منقذين) إلى قسمين وقد عامل أحدهما الآخر ، معاملة خائن الوطن . إن جيشا هذا شأنه ، لا يمكنه الانتصار في الحرب ، وهذا ما حدث فعلا .

حكم العولم (الديماجوجية السياسية) ، هو العنصر الذي وضعته المشروطية في حياة المجتمع التركي بشكل تام . استعملت كلمة « مرتجع » (رجعي) بمعنى « مخالف » (معارض) . كما استعملت في تر ... بعد ذلك كلمة « فاشست » بمعنى « الشخص المعارض لتأسيس النظام الشيوعي » . من الواضح أن الاتحاد والترقي قد تأثر بعمق بالكثير من مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى . إن شعار الحزب هو « حريت ، عدالت ، مساوات ، أخوت » الذي ترجم طبق الأصل عن الفرنسية . الحقيقة أن الحزب أخذ يتدارك وضعه لكن كان هذا بعد فوات الأوان .

كان الذي يمثل النظام الاستبدادي ، شخصا واحدا . عند سحب السلطة من عبد الحميد الثاني ، ينتهي هذا النظام معه . أما الاستبداد الاتحادي ، فلم يكن يمثله شخص واحد . من ناحية كونه دمويا وتآمريا وإعداميا فإنه يمتاز بالشدة عن النظام السابق الذي يرفع التقارير وينفي فقط ، ومن ناحية حشر الضباط في السياسة ، فقد وضع الديناميت في قواعد الدولة وأصبح تثبيت مصدر السلطة مطاطيا إلى درجة . عاش الناس سكرة الحرية اللطيفة بعد ضغط النظام الحميدي ، مدة عشرة أشهر . ثم فتح دور ، ثلاثي طلعت - أنور - جمال ، الدكتاتوري الاستبدادي المطلق .

15 - إعلان المشروطية الثانية (1908/7/23) وأيامه الأولى

أعلن السلطان حميد إرادة سنيّة بين فيها أنه أعاد العمل بالقانون الأساسي ، وأنه أساسًا كان هو الذي أعلن هذا الدستور قبل 32 عاما ، وعطل المجالس في حينه نظرا لما تقتضيه شروط ذلك الزمن ، وأنه ستجرى الآن التحضيرات لأجل الانتخابات لتأسيس المجالس (1908/7/23) .

وبالنسبة لأحكام المشروطية ، يعين الحاكم الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فقط . وبالتعديل الجذري الذي أجري على القانون الأساسي ، يختار الصدر الأعظم نظّاره ، وتبدأ وزارته في العمل ، في حالة حصولها على اعتماد المجلس . للمجلس حق إسقاط الحكومة إذا رأى ذلك .

استمرت صدارة سعيد باشا السابعة 14 يوما . كان منافسه الأكبر كامل باشا ، الذي أصبح صدرا أعظم للمرة الثالثة (1908/8/4) . استقال بعد 6 أشهر و 10 أيام بسبب ملله من الضغوط السريّة المخالفة للدستور التي يمارسها الاتحاد والترقي (1909/2/14) . صار وزير الداخلية حسين حلمي باشا البالغة سنه 53 عاما ، صدرا أعظم مع احتفاظه بوزارة الداخلية . استقال بعد شهر واحد و 28 يوما على أثر واقعة 31 مارس (1909/4/13) . صار أحمد توفيق باشا البالغ سنه 64 عاما ، الصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد الثاني والأول للسلطان رشاد . دبلوماسي ، اشتهر بشغله منصب وزير الخارجية مدة 13 سنة و 3 أشهر و 17 يوما (الثالث في التسلسل) في أواخر عهد السلطان حميد .

16 – انفصال بلغاريا وبوسنة – هرسك عن الإمبراطورية (1908/10/5)

على أثر الخطأ الذي ارتكبه الاتحاديون بعدم تخصيصهم مكانا في البروتوكول لممثل أمير بلغاريا المسمى « قابو كتخداسي » بلّغت إمارة بلغاريا الباب العالي بأنها انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية وأعلنت الملكية من طرف واحد . وفي اليوم نفسه (1908/10/5) ، بلّغت النمسا – المجر ، بأنها ضمّت بوسنة – هرسك التي تديرها باسم العثمانية ، وأنها ستبقى تحت إدارة الحكم المطلق المزدوج ، أي أنها لن تنضم ، لا إلى الحكم المطلق للإمبراطورية النمساوية ، ولا إلى الملكية المجرية ، وأنها ستكون تحت الإدارة المشتركة لهما معا . وفي اليوم التالي (6 ت1) ، بلّغ مجلس إيالة كريت ، بأنه انفصل عن العثمانية والتحق باليونان .

بدأت المشروطية بمثل هذه الحوادث المؤلمة جدا . وأخذ يتضح مدى دهاء النظام الحميدي في السياسة الخارجية . وهكذا فقدت الإمبراطورية بلغاريا 345 96 كم² و 000 338 4 نسمة + بوسنة – هرسك 51564 كم² و 000 932 1 نسمة . لم تتمكن كريت من الانضمام إلى اليونان . لم ينقطع ارتباط (379 8 كم² و 000 344 نسمة) من الجزيرة مع العثمانية حتى 1913 . ترك الباب العالي في معاهدة إستانبول 1909/2/26 بوسنة – هرسك إلى النمسا لقاء تعويضات قدرها 2,5 مليون ليرة ذهبية .

منحت بلغاريا الاستقلال كذلك لقاء 5 ملايين ليرة ذهبية (معاهدة إستانبول ، 1909/4/19) . ظهرت دولة بلقانية مستقلة أخرى ، اتبعت سياسة خارجيه توسعية سبقت البلقانيين الآخرين . سحبت النمسا جيشها من لواء يني بازار الواقع بين صربيا وقرة داغ ، وجاء محله الجيش التركي .

فرضت المقاطعة على البضائع النمساوية لأشهر عديدة . تأثر الشعب بهذه الخسائر . علّموا الأطفال أناشيد « كريت حياتنا ، نفديها بدمنا » . جاء ملكا الصرب وبلغاريا ، إلى إستانبول . بقيت اليونان وحيدة ، لفترة من الزمن . كان ضم بوسنة – هرسك ، من قبل النمسا – المجر ، أحد أسباب الحرب العالمية . لأن الجرمانية ، غزت شبه الجزيرة البلقانية على العمق وفقدت روسيا – كرئيسة للسلافية ، منطقة نفوذ . دخلت صربيا بعد ذلك تحت حماية روسيا ، وبلغاريا تحت حماية النمسا وقسمت البلقان إلى كتلتين .

كانت صربيا وكذلك النمسا ـ المجر ، تطلبان بوسنة ـ هرسك ، وكانت تهدد كذلك من قبل بلغاريا .

17 – افتتاح مجلس المبعوثان (النواب) (1908/12/17)

جرت الانتخابات الأولى على مرحلتين ـ كما هي الحالة حتى 1946 – بشكل ابتدائي وبارتكاب مختلف الحيل . انتخب الشعب مرشحي الاتحاديين بقوة السلاح . استخدمت الأقليات دسائس دنيئة ، للحصول على مقاعد أكثر . كان 140 نائبا فقط من مجموع 275 نائبا تركيا . العرب 60 نائبًا (منهم مسيحي واحد) ، الألبان 25 نائبًا (بضعة منهم مسيحيون) ، الأكراد 2 ؛ أما من غير المسلمين ، الروم 23 ، الأرمن 12 ، اليهود 5 ، البلغار 4 ، الصرب 3 ، الرومان (Ulah) نائب واحد . لم يؤيد النواب الدولة منذ الجلسة الأولى ، على عكس ما كان يظن الاتحاديون ، بل أيّدوا الأقوام التابعين لها .

افتتح عبد الحميد الثاني مجلس المبعوثان (1908/12/17) . استصحب ابنه الأوسط المحبوب برهان الدين أفندي البالغة سنه 23 عاما ، بعربة السلطنة الذهبية وجاء إلى المجلس . لم يتردد في أن يشير في خطابه إلى شكّه في اتفاق النواب من مختلف الأقوام حول مصالح الدولة العليا . ورغم تأكيده بأنه هو الذي يعلن القانون الأساسي ، كما كان قد أعلنه هو قبل 32 عاما وكذلك يفتتح هذا المجلس كما افتتح هو المجلس الأول ، ورغم تشديده على هذه الكلمات ، كان الاتحاد والترقي ، بإدعائه الذي شق عنان السماء والأرض ، يعلم أنه هو صاحب « الانقلاب العثماني » . ولو أن الحزب ، تقبل بقوله أن البادشاه هو الذي أعاد العمل بالمشروطية ، وأن ذلك هو رأي الدولة الرسمي لأمكن صيانة سلطة الدولة . لقد عجز الحزب حتى عن إظهار هذه النظرة البعيدة .

وشيء آخر ، هو أن الأقليات لم ترتبط بالدولة ، على عكس إدعاء الاتحاديين بأن ذلك سيحدث فور تطبيق الديمقراطية ، أخذت الأقليات تستهزئ بشعار « اتحاد الأنصار » . عصى الأرمن في إيالة أدنة (1909/4/14) . كان الاتحاديون يتهمون السلطان حميد بسحقه الأرمن . لنرى الآن ماذا فعلوا هم ؟ .

صدر عفو عام عن أفراد العصابات ، البلغار ، الصرب ، اليونان ، الأرمن الذين

أهدروا دماء آلاف المسلمين . عادت مجددا كل العناصر الضارة الهاربة من الدولة العثمانية . فتحت كل الأبواب . أصبح تأمين الأسلحة من الأقطار الخارجية إلى الحركيين سهلا . لم يبق في جعبة الصحافة هراء ولغو لم تكتبه . أخذت مئات الصحف والمجلات في الصدور . والشوارع كل يوم تمتلئ بالمتظاهرين . فتحت جمعيتا طاشناق وخنجاك الأرمنيتان الإرهابيتان في الأناضول شعبا لهما بصورة رسمية وعلقت لوحاتها .

وفي مثل هذا الجو ، حدث تمرد في إستانبول . وفي اليوم التالي للتمرد ، أمر Museg مطران Kilikya الأرمن بالعصيان . هجم الأرمن بجوار أدنة على الناس ، الأعراض ، الأموال لمدة 4 أيام ، 4 ليال (16 – 19 و 24 نيسان 1909) . دافع الشعب المسلم عن نفسه بنفسه . الأرمن الذين قتلوا 1850 مسلما ، قدموا 17 000 قتيل . هرب Museg إلى مصر ولجأ إلى الإنكليز . واقعة أدنة هذه، كواقعة 31 مارت في إستانبول ، دبرتها وكالة المخابرات الإنكليزية **British Intelligenee Serviee** . غضب وزير الداخلية طلعت بك ، الذي ليست لديه خبرة إدارة قائمقامية قضاء . كان يرى أن المسلمين محقون في الدفاع عن أنفسهم . لكن لماذا لم يقتل من الأرمن بقدر ما قتل من الأتراك وخسائر مواطنينا الأرمن أكثر ؟ إن هذا يتنافى مع قاعدة المساواة ! أرسل صديقه المقرب ، المقدم الركن جمال بك ، كوالٍ لإيالة أدنة .

وبدلا من أن يحقق جمال بك في كيفية سماح قوات الأمن لحدوث عصيان أرمني ، أعلن الأحكام العرفية وأعدم 47 تركيا أحدهم مفتٍ ولرمني واحد فقط . ظن الاتحاد والترقي أنه بعملهم هذا سيضمنون إخلاص الأرمن للدولة ، وقدموا لهم نموذجا في العدالة !

18 – واقعة 31 مارت (1909/4/13)

بدأ الاتحاديون بقتل معارضيهم في الشوارع . قتل على هذا الشكل بالمسدس في شوارع إستانبول كل من إسماعيل ماهر باشا ، الصحفيّين الشابيّن أحمد صميم بك وحسن فهمي بك ، ونشرت الجملة المعهودة « رغم التحريات لم يعثر على القتلة » . لم تكن حوصلة الاتحاديين ، وخاصة زعيمهم طلعت بك ، تستوعب كيفية عدم

امتنان الشعب بأسره دون استثناء لهم رغم إسقاطهم حاكما لم يقدر أحد على إسقاطه مدة 30 عاما وجلبهم الحرية . بالنسبة لهم ، فإن كل شخص لا يقدّر خدمات وتضحيات الاتحاديين ، ولا يصفق لهم ، لا يعتبر ناكرًا للجميل فحسب ، بل خائنا للوطن . بدأ تحزّب مخيف استهدف إبعاد كل موظفي الدولة غير الاتحاديين . لم يكن من السهل تحقيق هذه التصفية بشكل كامل ؛ إذ إنه ليس لدى الاتحاديين كوادر لملء هذا الفراغ ، خاصة أنهم لم يتمكنوا إلا من تقديم ناظر أو ناظرين فقط للوزارة . لم يكن لديهم شخصيات كثيرة . كانوا مضطرين لإبقاء وزراء دور السلطان حميد في أعلى المناصب . ومن جملة هؤلاء ، سعيد باشا ، كان رجلا عديم الخلق . ورغم أنه كان من النوع الذي يمكنه عمل كل أنواع الدسائس والحيل لكسب ود الاتحاديين ، لكنه في الحقيقة ، لم يكن يميل إليهم بالمرة . أما كامل باشا ، فكان فقط يكره الاتحاديين ولا يتردد في التصريح بهذا . كان حسين حلمي باشا مقربا للاتحاديين ولكنه لم يكن منتسبا إلى الحزب .

كان الاتحاديون يشكّون في عدم تمكنهم من السيطرة على الدولة بشكل تام . كان العملاء الأجانب الذين يحيطون بهم – والذين كان الاتحاديون – يجهلون كونهم عملاء – والذين صفّقوا للذين أطلقوا عليهم اسم « جون تركلر » (الشباب الأتراك) مدة من الزمن – يدفعون بهذا الحزب ويحرضونه على القيام بحركات أوسع . كان السلطان عبد الحميد يمثل السلطنة فقط . ليست له علاقة بالحكومة والجهاز التنفيذي . لكن مجرد ظلّه كان يخيف الاتحاديين وكذلك الدول الأجنبية . كان لا يمكن تحقيق العديد من المشاريع مادام باقيا في مقامه . وفي النهاية ، اتفقت جميع قوي الشر على إسقاط حاكم هذا شأنه ، أكبر أستاذ خبير في الحكم والإدارة . العائق الوحيد ، كان الجيش الأول .

كان هذا الجيش المتمركز في إستانبول ، أكبر قوة ضاربة في الإمبراطورية ، خاصة فرقتيه الأولى والثانية ، كانتا قد جهزتا وسلحتا بشكل فوق العادة بالنسبة إلى ذلك العهد . وكان الجيش الأول مخلصا للبادشاه . والأهم من ذلك ، كان ضد الجيش الثالث . إذ إنهم كانوا قد بدأوا بالاستياء من غرور وزهو ملازمي ونقباء الجيش الثالث القادمين بعد المشروطية من سلانيك ومناسطر إلى إستانبول .

جاء الاتحاديون بأحد المشيرين الشباب محمود مختار باشا ــ وهو ابن غازي أحمد مختار باشا وصهر الخديو إسماعيل باشا القديم ــ لقيادة الجيش الأول . أرادوا بذلك منع الحركة المضادة في هذا الجيش . لكنهم لم يتمكنوا من توفير العناصر التي ستنفذ المؤامرة من بين هذا الجيش . جلبوا سرايا القناصة من فرقة الجيش الثالث في سلانيك إلى إستانبول باسم « نكهبان حريت » (حرس الحرية) و « محافظ مشروطيت » . وبهذا كسروا عزة نفس وأنفة الجيش الأول . حيث إن هذا يعني أن الجيش الأول لم تكن لديه القدرة على صيانة الحرية والمشروطية ، الأمر الذي جعلهم يجلبون عدة سرايا لذلك .

قاد العصيان المسمى 31 مارت والذي يصادف بالتاريخ الميلادي 14 نيسان 1909 ، سرايا القناصة التي سيقت إلى إستانبول . لم يكن على رأسهم ضابط واحد . عصى الجنود تحت إمرة العرفاء والرقباء ، بشعارات رجعية وواضحة جدا أنها مرتّبة . قتلوا ناظر العدلية ناظم باشا ، ظنا منهم أنه أحمد رضا بك ، ونائب لاذقية الأمير شكيب أرسلان ، ظنا منهم أنه الصحفي حسين جاهد بك ، وقبطان (رئيس الملاحين) البارجة « آثار توفيق » علي قبولي . استدعى السلطان حميد ، قائد الفرقة الثانية وأشار عليه بضرورة تشتيت هؤلاء العصاة . أفاد قائد الفرقة بأنه لم يتسلم من قائد الجيش أمرا كهذا ، لكنه إذا كان البادشاه يأمر شخصيا بذلك ، فإنه سوف ينفذ الأمر لأن البادشاه هو القائد الأعلى . تردد السلطان حميد . أشار عليه بمراجعة قائد الجيش وتنفيذ ما يأمر به . محمود مختار باشا الذي كان اتحاديا ــ الذي سيكون فيما بعد معارضا شديدا للاتحاديين ــ لم يأمر بذلك .

يتضح ، حتى من هذه الخلاصة المقتضبة ، مدى كون هذه الحادثة مدبرة . حادثة في منتهى القبح ، سبّبت أضرارا كبيرة للدولة ، دبرها الاتحاديون للتخلص من السلطان عبد الحميد . لكن الحقيقة هي أن الاتحاد والترقي ، صار آلة بيد إنكلترا . و لم ينكشف ذلك إلا بعد مرور فترة . كان إسقاط السلطان عبد الحميد ، هو الخطوة الحقيقية الأولى لتمزيق الإمبراطورية . وحتى اسمه كان شعارا يخيف العدو ويبعث الأمل في نفوس الشعوب الإسلامية المظلومة . بسقوطه ، لم تشعر الدول الأوروبية ودول البلقان فحسب بل شعرت كذلك المجتمعات الأرمنية واليهودية التي لا دولة لها ، بأنها اقتربت كثيرا من أهدافها .

واقعة 31 مارت ، حادثة قبيحة من كل الوجوه ، حادثة رجعية . لم تصدر عن الشعب . يحتمل أن يكون الشعب غير راض عن الاتحاديين . لكنه في نفس الوقت ، لم يكن الشعب هو الذي يفعل حادثة من هذا القبيل . إن سياسيين كثيرين من ذوي النوايا السيئة ، اتهموا الشعب التركي بالرجعية بعد هذا التاريخ ، وأومأوا بإصرار بأن الشعب التركي رجعي ، وبأنه يناصر الرجعية ، وبناء على ذلك يجب جعله تحت الوصاية . وهذا ، وسع الهوة ، بين الكادر الإداري والشعب بشكل كبير .

بدأ الاتحاديون بجمع قوات في سلانيك ونقلها بالقطار إلى إستانبول . سميت هذه القوة « حركت أوردوسي » أي جيش الحركة . الجيش الثالث ، كان يحتوي على قليل من الجنود النظاميّين . البقية عصابات يدّعى أنها متطوعة ، أكثرها من أفراد العصابات البلغارية ، الصربية ، اليونانية ، المكدونية والألبانية الذين أهدروا الكثير من الدماء التركية . تولى القيادة في الطريق ، الفريق الأول محمود شوكت باشا . كان قائدا للجيش الثالث . وكلّ نيابة عنه في سلانيك ، هادي باشا . ادعى جيش الحركة بأنه جاء لينقذ البادشاه من العصاة في إستانبو ل ، لكن قوة كهذه تسير نحو إستانبول يشكل أكثريتها المكدونيون قتلة المسلمين ، على رأسها جنرال عثماني معروف ، أثارت التردد لدى الجيش الأول .

مثل الجنرالات بين يدي السلطان عبد الحميد في إستانبول ، وطلبوا منه أمرا لمنع دخول هذه القوة إلى إستانبول . أمر السلطان بشكل قاطع بعدم التحرش بهم . نوقش هذا الأمر كثيرا ، إذ إن التطورات التي حدثت بعده ، كانت ذات تأثير وخيم على مستقبل وشرف الدولة التركية . وذكر بأنه لا يمكنه بعد هذا العمر أن يقتل المسلمين بالمسلمين ، وبالنسبة إلى قوانين المشروطية ، فإنه لا يمكنه التدخل في الإجراءات . وضح هنا ، عدم تركه سياسة بني عثمان ، في عدم استعمال الجيش في السياسة الداخلية ولو كان ذلك ضده . بلغ الأمر إلى حد أن السلطان عبد الحميد ، حصل من قائد الجيش الأول ناظم باشا والجنرالات الذين يرافقونه على قسم ، بعدم استعمالهم السلاح ضد جيش الحركة .

19 ـ خلع السلطان عبد الحميد الثاني (1909/4/27)

دخل محمود شوكت باشا ، إستانبول في 25 نيسان وسيطر على الوضع . أعلن الإدارة العرفية وأعدم الكثيرين من الأبرياء وشهرهم في الميادين . سطا أفراد العصابات البلقانية المتآمرة على قصر ييلدز ونهبوا الأشياء الثمينة التي تقدر بعشرات الملايين من الليرات الذهبية واقتسموها . وحتى عربة البادشاه الذهبية ، اقتسمت بعد تقطيعها إلى لوحات . نهبت ببغاآت السراي . (معروف من الذي سمح بهذا النهب) .

من ناحية أخرى ، كان الرئيس الثاني لمجلس النواب طلعت بك مسيطرا على المجالس ، بصفته الرئيس العام للاتحاد والترقي . دعا محمود شوكت باشا ، الذي دخل يشيل كوي في 22 نيسان ، مجلسي النواب والأعيان باسم « مجلس عمومي ملي » (المجلس الوطني العام) لاجتماع مشترك . حضر الذين استطاعوا الحضور . كان رئيس مجلس النواب ، الصدر الأعظم الأسبق كوجوك سعيد باشا ، قد اتفق حول موضوع خلع البادشاه . كان طلعت بك يخيف البرلمانيين المترددين باتهامهم بالرجعية . إذ كان قد شرع في إعدام الرجعيين . اختبأ رئيس مجلس النواب أحمد رضا بك الذي أخذت تتردى علاقته مع حزب الاتحاد والترقي الذي كان يرأسه في الماضي .

رفض « فتوى أميني » (المفتي الأكبر) التوقيع على فتوى الخلع . جلبوا أحد رجال الدين الجهلة وحصلوا على توقيعه . كان السلطان عبد الحميد متهما بتدبيره واقعة 31 مارت . ومع أنه قد وضح اليوم ، عدم وجود أية علاقة له بهذه الواقعة ، هذا علاوة على أن طلعت بك ، كان قد بين بصراحة وبصورة قطعية في حينه ، عدم وجود علاقة له بالحادث ، أما سعيد باشا فقد اكتفى بالإيماء فقط بعدم وجود علاقة له إلا أنه كان يلزم إيجاد سبب ديني لخلعه . أضيف إلى الفتوى ، إدعاء حرقه الكتب الدينية إلى جانب إدعاء تحريضه المسلمين على قتال بعضهم البعض . إن هذه الادعاءات مضحكة فقط . كان متهما بالإسراف ، رغم كونه أكثر الحكام اقتصادا . وكان يتهم بالظلم رغم كونه أكثر الحكام تحاشيا لسفك الدماء . وسوف يبين لنا الاتحاد والترقي ، بعد الآن ، وبشكل عملي كيف يكون الحكم الدموي .

إن طريقة إبلاغ قرار خلع السلطان عبد الحميد إليه ، لطخة لا يمكن محوها أبدا

من التاريخ التركي . كلّف 4 موظفين بتبليغ الخلع : نائب سلانيك عما نوئيل كراسو (Emanuel Carasso) يهودي عميل لإيطاليا وقد لعب دورا مشئوما في عملية ابتلاع إيطاليا ليبيا ؛ النائب رام أفندي الذي أباح دماء الكثيرين من الأتراك عند ترأسه الإرهابيين الأرمن ؛ نائب دراج Draç ، لواء الجندرمة (الدرك) الألباني أسعد طوبتاني باشا ، عميل لإيطاليا في استقلال ألبانيا الذي أهدر دماء الكثيرين من الأتراك والذي سبّب قتل الضباط العثمانيين ؛ النائب الكرجي الفريق البحري عارف حكمت باشا ، الذي تعاون مع دول الاحتلال خلال الهدنة . هكذا أخذ اليهود ، الأرمن ثأرهم من السلطان عبد الحميد . اعترف الاتحاديون بعد ذلك بأنهم اقترفوا خطأ كبيرا بانتخابهم هيئة كهذه . أبلغ الخليفة ، زعيم كل مسلمي العالم ، بالخلع بواسطة 2 غير مسلمين ، مسيحي واحد ، وموسوي واحد وباسم المجلس الوطني .

أركب السلطان عبد الحميد ، تلك الليلة فورا مع 38 شخصا من حاشيته ، القطار وأرسل إلى سلانيك . لم يسمح له بأخذ أية حاجة من حاجاته . صودرت كل أراضيه ، دراهمه النقدية ، سنداته التي كانت تعادل عدة مئات الملايين من الليرات الذهبية ، أكثرها تبدّدت . حرمت السلالة من هذه الثروة وصارت إلى وضع تمد فيه يدها إلى الدولة والحكومة . يا ترى ، أية قوة خفية هذه ، ولأي شيء تنتقم من بني عثمان ؟! رافق البادشاه في المنفى بناته الـ 3 اللواتي لم يتزوجن بعد و 2 من أبنائه . خصص له قصر Alatini في سلانيك . قضى هناك سنوات مفجعة جدا وتحت رقابة شديدة . لم يسمح له أبدا بقراءة الصحف .

20 ـ حول شخصية السلطان عبد الحميد الثاني

ظل السلطان عبد الحميد على رأس الإمبراطورية العثمانية حاكما مطلقا مدة طويلة جدا تنحصر بين الربع الأخير من العصر 19 وحتى أوائل العصر 20 وتحكم في مصير الشعوب كما تحكم في مصير الأفراد . اعتبر خلال هذه المدة الطويلة ، أحد أهم شخصيات العالم السياسية . وخلال مدة الـ 110 سنوات الماضية منذ جلوسه وحتى يومنا هذا ، نشرت عنه كتابات تستوعبها عربات قطارات عديدة ، صعد به بعضها إلى عنان السماء وهوى به البعض الآخر إلى القاع ، شخصيته غامضة ، معقدة ، ذات جوانب

عديدة . أثر بشكل كبير على السياسة الأوروبية . دامت سلطنته 32 سنة و 7 أشهر و 27 يوما وهي أطول مدة سلطنة في تركيا منذ 1687 وحتى يومنا هذا . وهو السادس بين آل عثمان في طول مدة السلطنة بعد أرطغرل غازي سليمان القانوني وعثمان غازي ومحمد الرابع وأورخان غازي . استمر حكمه بعد المشروطية الأخيرة ، 9 أشهر و 5 أيام . كان عند خلعه عن العرش في سن 66 عاما و 7 أشهر و 7 أيام .

توحدت الآراء بشكل يقرب من الاتفاق ، على أن دهاء السلطان عبد الحميد شوهد في مجال السياسة الخارجية ، كان هذا الاقتناع سائدًا في الخارج أكثر مما هو في الداخل وعندما كان السلطان على قيد الحياة . كانت الدول الخصوم ترى دائما أن سياسة السلطان عبد الحميد عنصر يخشى منه ، عادوه ، لكنهم لم يتمكنوا من إنكار قدرته . يمكن للقارئ عند قراءته المنشورات والصحف الغربية الناقدة لسياسة السلطان عبد الحميد ، أن يدرك ، بقليل من التفكير ، أن هذا النقد ، إنما كتب من أجل المصالح الأوروبية . صرح سفير إنكلترا – التي لا يمكن أن يقال إنها صديقة للخاقان – في إستانبول (1899 – 1907) Sir Nicolas D'Connor ، أن سياسة السلطان حميد ، هي أكبر عنصر توازن في أوروبا للحيلولة دون وقوع حرب عالمية ، إن نبوءة هذا الدبلوماسي الإنكليزي ، تحققت تماما . حيث إن نشوب حرب البلقان ، التي لم يسمح السلطان حميد بإشعالها أبدا ، نثرت جميع بذور الحرب العالمية . وقد وصف سفير فرنسا (1909 – 1914) Bonpard ، الذي لم يكن كذلك صديقا للأتراك ، السلطان حميد بأنه « أكبر دبلوماسي واقعي في أوروبا » . هنالك اقتناع يقارب الاتفاق التام ، بأن الشخص الذي لم يسمح أبدا باتفاق دول البلقان الصغيرة ، هو عبد الحميد الثاني . يتفق أكثرية المؤرخين ، وأكثرية الدبلوماسيين في ذلك العهد ، على أنه لو بقي السلطان حميد على العرش ، لما أمكن للدول البلقانية – التي عداؤها لبعضها ، أشد من عدائها للأتراك الذين كانوا من رعاياهم حتى يوم أمس – أن تتوحد وتشعل الحرب . والسلطان حميد ، عدا ذلك ، لم يسمح لروسيا وللنمسا – المجر أن تتوحدان تجاه البلقان . وبكسبه لألمانيا بجانبه ، نجا من ابتلاع إنكلترا له .

اشتهر عبد الحميد الثاني الذي فتح في مدن أدرنة ، المؤسسات التعليمية العالية

كالجامعات والكليات والمدارس التعليمية العسكرية أو المدنية ، بتشجيعه المعارف . وكذلك عني بالتعليم الابتدائي والتعليم المهني ، وعني كذلك بتعليم البنات . فتح في مركز كل صنجق (محافظة) مدرسة إعدادية (ثانوية ، وإن كانت ذات 4 صفوف تسمى « سلطاني ») وفي مركز كل قضاء مدرسة رشدية (متوسطة) ، يضاف إلى ذلك المؤسسات الثقافية كالمتاحف ، المكتبات ومؤسسات كثيرة أخرى في مجالات الإعمار والمواصلات . أرسل مئات من الضباط ، الأطباء والمتخرجين الشباب وأرباب المهن الأخرى إلى أوروبا وخاصة إلى فرنسا وألمانيا لغرض التحصيل . ارتقت العلوم العملية كالطب ، والعلوم الاجتماعية كعلم تدقيق الكتابات (Epigraphy) وعلم المسكوكات والمعادن (numizmaties) إلى المستوى الأوروبي . ربى جيلا مجهزًا بالثقافات واللغات الشرقية والغربية . أسس الترام في المدن كإستانبول ، بيروت ، أزمير ، سلانيك . سار في البداية بواسطة الخيل ثم بالكهرباء ، أدخل الهاتف والسيارة ، إلى المدن العثمانية في هذا الدور . تم إعمار مضايق إستانبول وجناقلعة ومنشآت عسكرية كثيرة أخرى . أمكن الدفاع عن جناقلعة عام 1915 بالاستحكامات التي أسسها السلطان حميد .

سدد الديون الخارجية بكامل الدقّة ، اقتصد ، دون أن يهمل المصروفات التي تقتضيها كرامة ومكانة الدولة ، قل ، في دوره الاقتراض . أثنى كثير من المؤرخين ورجال المالية على السياسة المالية للسلطان عبد الحميد .

عاش حياة منظمة ، لم يذق طعم المشروبات الكحولية ، لم يهمل أبدا عبادته ، قام مبكرا ، أظهر مقدرة ونشاطا مذهلا في العمل . كان مدمنا على التدخين وشرب القهوة . كان مولعا بالنساء دون إفراط ودون إسراف وخصص وقتا كثيرًا لهن . لم تكن له علاقة مع أية امرأة خارج حرمه ، ليس هذا فحسب ، بل إنه لم يلتفت إليهن بعين نابية . حافظ على سراي ييلدز ، كمأوى للعفة والأخلاق . عاش في دوره ، سواء القروي ، أم الحضري ، عيشة مرفهة ، بالقياس إلى الأدوار التي تلته . حدث دمار القرية التركية في سنوات الحرب التي تلت السلطان حميد . يجب قراءة أبيات الشعر التي يقارن فيها الشاعر محمد عاكف الذي لا يميل إلى السلطان حميد أبدا ، رفاه قرية الدور الحميدي بفاقة وفقر قرية دور المشروطية بشكل رائع . والمعروف عن ذلك

الدور ، قلة الحوادث الإجرامية فيه ، بسبب علو أخلاق الشعب التركي حينذاك .

ومن الطبيعي أن يكون لمقدرته ونشاطه المذهل في العمل هذا ، نواح منحرفة . شغل وقته بأمور فرعية كثيرة لا مصلحة وطنية عامة ترجى من انشغال حاكم بها . ولا شك أن ذلك يتعلق بشكه ووسوسته المشهورة . فإنه لم يعتمد – في الناحية السياسية – على أي شخص ، ولذا فإنه محّص الحوادث بعمق ، ورغم أنه كثيرا ما كان يعثر على الحقائق ، لكن هنالك حالات يطغى عليه الشك فيها ، ويصل بسبب ذلك إلى نتائج مضرة . وفي الحقيقة ، لم يكن تسلطه أكثر بكثير من معاصريه ؛ القيصر ولهلم الثاني ، القيصر نيقولا ، ولا يمكن حتى قياسه بالميكاد ومتسوهيتو . لكن هذه الإمبراطوريات كانت أقطارا متطورة . الأقطار العثمانية كانت متأخرة . إن هذا التأخر كان عاملا مهما . ولو قرئت أكثرية الانتقادات الموجهة لشخصه بدقة ، لتبين أنها في الحقيقة لا تعكس عيوب البادشاه ، بل إنها تعكس المشاكل الناجمة عن تأخر القطر .

وقد عرف بجانب دهائه السياسي ، بذكائه المتميز ، ذاكرته النادرة ، تجربته ومكره السياسي الذي فاق أكثرية معاصريه ، قدرته على التأثير على الأفراد ، لطفه العميق ووقاره ، مخاطبته بصوته الجهوري الرجالي المؤثر جدا . لم يخاطب أي أحد بخطاب « أنت » ، استقبل الجميع وهو واقف ، عدا معيّته . يخطر موظفو المابين (البلاط) ، كل الذين يمثلون بين يديه لأول مرة ، بعدم تقبيل الأرض . لكن المشاهدين يفيدون بأن أشراف المسلمين القادمين من الأقطار الإسلامية البعيدة ، والأمراء القادمين من خارج الأقطار العثمانية لا يبالون بهذا الإخطار ويخرون بين يديه على الأرض .

نفر من عقوبة الإعدام . صدّق خلال مدة سلطنته الطويلة على 5 عقوبات إعدام فقط ، وبدّل عقوبات الآخرين كلهم إلى عقوبة السجن المؤبد ، ومن بينها العقوبات التي حكمت بها محاكم الإدارة العرفية . نفّذ خلال دوره أقل عدد من عقوبات الإعدام في تاريخ تركيه كلها . لكنه لم يتردد في سوق الجنود لإفناء العصابات التي تقتل المسلمين بالأسلحة .

انتُقد كثيرا لإهماله الأسطول . أخذ المؤرخون البحريون في المدة الأخيرة ، يعتبرون

هذا النقد مبالغ فيه . لم يكن بالإمكان من الناحية المالية ، تجديد الأسطول الثالث في العالم بصورة مستمرة بعد هزيمة 93 . ومع ذلك ، فإن الرأي القائل بفقدان هذا الأسطول الذي أسسه عمه ، مكانته لدى السلطان عبد الحميد بسبب الدور الذي لعبه في خلع عمه – رأي صائب . ومع ذلك فقد ألحقت بالبحرية لأول مرة سفن جديدة من بينها غواصتين وطرادين ، كما تم توسيع وزيادة إمكانيات ميناء تصليح السفن ، كما تطورت مدارس البحرية .

تعتبر من الأمور الأكيدة ، محافظته على تركية من حروب البلقان والحرب العالمية ، لو كان قد بقي في العرش حتى موته الطبيعي ، لكانت سياسته الخارجية سوف تظل سائرة في هذا الاتجاه . لقد كان من الممكن عندما تحل سنوات إتمام الإمبراطوريات لأعمارها الطبيعية ، أن تقوم تركية بمحض إرادتها وبشكل أكثر عقلانية بإجراء التصفية ، فتمنح الاستقلال للأقطار غير التركية ، وترتبط معها بعلاقات مادية ومعنوية ، ويحتمل أن يكون أهم من كل ذلك أنها لن تتحطم ويصيبها الدمار في فترة الحروب التي دامت 10 سنوات بصورة مستمرة ، ولا يصيب عمرانها الخراب ، وأنها سوف تتطور أكثر ويحتمل أن يكون أهم من هذا أيضا ، أنها سوف لن تفقد في الحروب جيلا كله شباب لا مثيل له ، من حيث حيازته على الثقافتين الشرقية والغربية .

لو بقي في العرش ، لما انغمس الضابط العثماني ، حتى رقبته في السياسة ، ولوفق أكثر في سلكه . لكن السلطان عبد الحميد ، لم يتمكن من اجتياز هذا المنعطف والسَير نحو الليبرالية . وحتى في العصر الـ 20 ، يشاهد الكثير من الدكتاتوريين الذين لم يجسروا على السير نحو الليبرالية والحرية . ولهذا السبب ، فإنه يجوز ألا نتهم البادشاه بشكل مفرط . لكن من الواضح أيضا أنه لم يتمكن من الأخذ بنظام لإمبراطوريته يلائم العصر 20 و لم يتمكن كذلك الذين تسلموا السلطة منه من الأخذ بهذا النظام ، لكن هذا لا يشكل عذرا . إذ لو تمكنوا من ذلك لما تكبدت الدولة أضرارا عظيمة جدا . قال السلطان عبد الحميد يوم 30 تموز 1908 هذه الحكمة « لو تمكنوا من إدارة تركية مدة 10 سنين ، فليفرحوا بأنهم قاموا بإدارتها عصرا واحدا » قال ذلك وانسحب من السلطة . إن هذه العبارة التنبؤية إنما صدرت عن سياسي ذي تجربة كبيرة . وحتى

الشعراء المعارضون نظموا أبياتًا من الشعر كالبيت التالي الذي معناه **لو كان نعشك ، لا أنت يحكمنا ، لكان ذلك أليق بنا – ليعد ويجلس تابوتك على العرش العثماني .**

« إن مشروطية 1908 ، غيّرت مفهوم السلطة السياسية التقليدية في تركية . وهو مسألة اتفاق الجيش مع السلطة السياسية . لم يستعمل السلاطين ، في أي وقت من الأوقات ، القوة العسكرية في السياسة الداخلية . كان هذا اختراع الاتحاديين . وهكذا صارت قدرة مقاومة المثقفين السلطة السياسية قبل الاتحاديين ، عبارة عن مظاهرة بطولية خيالية ؛ ولذا فإن المشروطية الثانية ، في تاريخنا السياسي ، من ناحية السيطرة على السلطة ، هي حملة رجعية استبدادية ؛ حيث إن استبداد الزمرة ، حل محل الاستبداد الفردي ، وهذا أشد خطرا من الوضع الأول لأنه جعل المسئولية بشكل مائع ، لا يمكن تحديده » (الأستاذ الدكتور جاهد طانيول) .

كان حاكما ذا مهارة كبيرة في التجارة ؛ يجيد ركوب الخيل واستعمال السلاح ، ذا صوت جهوري ، له نغمة خاصة ، لطيفة ومؤثرة . جسور ، لطيف ، بعيد عن التعصب ، لكنه متديّن ، يتحاشى الإسراف بشدة ، يتفهم الأمور المالية ، دقيق ، حذر ، لكنه شكاك إلى درجة مفرطة . ولو نحّي عن العرش بالموت أو بعزله وجاء مكانه مراد الخامس مجددا ، أو احتل مكانه السلطان رشاد ولي عهده ، لانهارت الإمبراطورية العثمانية تحت شروط أكثر وخامة وشؤما وسرعة . لم يتمكن حتى الذين نظموا الفتوى لتنحيته عن العرش ، من إنكار كونه حاكما جيدا وممتازا ، وإذ بالغوا في بعض عيوبه ، ضطروا غير محقين ، إلى تحميله مسئولية حادث 31 مارت . إن الذين قاموا على أثر فاته بمراسم تشييع الجثمان الدولي الخاص بالأباطرة الجالسين على العرش ومشوا وراء جثمانه مطأطئين رؤوسهم ، هم أنفسهم الذين خلعوه عن العرش بالتحقير . ومع إن ئولاء ، لاشك في كونهم وطنيين ، فإنه لاشك كذلك ، وبنفس الدرجة ، في أن بينهم عملاء حركيين يخدمون أغراض الأجانب (ناهد سرّي أوريك **150 YilinTurk Meshurlari** آ 44 ، ص 195) .

إن مشاهدات الفريق البحري الإنكليزي السير هنري وودز **Sir Henry Woods** التي ونها في مذكراته التي حررها بعد عبد الحميد الثاني وبعد سقوط السلطنة في تركية ، فت النظر (ص 113 – 39 و 159 – 66) :

« بالنسبة لي ، إن السلطان حميد هو أحد الذين يشغلون أعظم موقع ممتاز بين سلاطين العثمانيين كافة . أحد الحكام الناجحين جدا منذ تأسيس الدولة العثمانية ... كان يعيش عيشة هادئة وبعيدة عن التكلف . ينصت إلى الخبراء في حل مشكلة ما ، لكنه لا يكون أسيرًا لأفكارهم . كان عاقلًا ولطيفًا عندما كان شهزاده (أمير) ، وحينذاك أيضًا ، كانت الشخصيات الأوروبية الممتازة القادمة إلى إستانبول ترغب في زيارته ، ولولا وجود السلطان عبدالحميد ، وإدارته الإمبراطورية بذكائه وإطالته عمرها ، لما أمكن كذلك ، وجود حكومة أنقرة الحالية (1924) . إن تضميده جراحات حرب 93 الروسية ، التي استنزفت طاقة تركية من الناحية النقدية والبشرية ورمتها في أحضان الفاقة وعرقلت تطورها ، مما يدعو إلى الدهشة . سدد الديون الخارجية ، قوى الجيش وأعاد إلى الدولة العثمانية مكانتها إذ جعلها دولة يخطب ودها والاتفاق معها . ولو لم يسقطوا السلطان عبد الحميد ، لما حدثت الحرب العالمية . وحتى لو فرضنا عكس ذلك ، لأبقى السلطان ، تركية على الحياد ، ولبرزت تركية غير المضعضعة أبدًا ، بين الدول المضعضعة ؛ لكن نظام « الخفية » كان سيئًا . كان مخبرو البادشاه ، مع الأسف ، يخبرونه يوميًا حتى بالعلاقات السرية التي بين الدبلوماسيين الموجودين في بك أوغلو ، وبين زوجاتهم وحياتهم الخاصة ، ومحادثاتهم الشخصية السرية . إن تأسيسه شعبة جاسوسية كهذه ، ولو أنها لم تكن ملائمة لسجية السلطان تمامًا ، لكنه لم يتمكن من تركها . انشغل بكل مشاكل طبقات الشعب المعوزة وتأثر لحالهم ، والحق يقال ، إنه لم يفرق رعاياه المسيحيين عنهم . استعمل ثروته الكبيرة جدًا في هذا السبيل . كان قد قرأ ماكيافيلي وتأثر به كثيرًا . بدل النظام السائد ، بنقله إدارة الدولة من الباب العالي إلى ييلدز . كان يتابع الصحافة الأوروبية يوميًا ويأمر بترجمة الكتب المهمة في نفس العام الذي تصدر فيه ويقرأها أو يستمع لقراءتها . وهكذا ترجم 6 000 كتاب ، وجدت في مكتبته على شكل دفاتر . قابله جوزيف شامبر لاين Joseph Chamberlain (أحد كبار رجال الدولة الإنكليز في عصره) . قال لي بعد المقابلة ، إن السلطان هو الرجل الوحيد الذي له شخصية رئيس دولة حقيقي بين الذين تعرف عليهم من الأتراك . الحقيقة أنه كان عدوًا لعدوه . لكن نفوره من المسيحيين ليس صحيحًا . و لم يكن عدوًا حتى للأرمن ، كان عدوا للأرمن المتآمرين . إن شخصين من الأشخاص الثلاثة الذين

يديرون الخزينة الخاصة (التي كانت بمثابة وزارة مالية حقيقية ثانية) برتبة ناظر (وزير) خلال مدة سلطنته الطويلة ، كانا أرمنيين وكان اعتماده على أولهما وهو الوزير آكوب الفندي كبيرًا إلى درجة أنه كان يستخدمه حتى في العلاقات الدبلوماسية السّرية . كانت المبادىء الأساسية لسياسته المضبوطة فى الخارجية هي برودة الطبع ، التريث ، اجتياز خطر الحرب ، تشخيصه السريع لنقاط عدم التفاهم الرئيسية ، العداوات ، الحسد الكائنة بين الدول واستعمالها لصالح العثمانية . كان يعمل منذ ساعات الصباح المبكر إلى ساعات متأخرة من الليل وينام قليلًا جدًا . أولى صفة الخلافة أهمية تفوق الأهمية التي أولاها السلاطين الآخرون . وبينما كانت هذه الصفة ، بالنسبة لأسلافه السلاطين ، واحدة من ألقاب الحكم العديدة التى يحملونها ، أعطاها هو مفهومًا جديدًا . اهتم بالمسلمين الموجودين فى كل أنحاء العالم . ربطهم باستانبول بروابط المحبة والاحترام . آلاف المسلمين كانوا يتواجدون فى استانبول . المسلمون في الأقطار الموجودة في أفريقيا الوسطى وحتى الصين يروحون ويغدون ، يلقنون ويتسلمون الأوامر ، كان حاكمًا أبًا للعائلة بكل معنى الكلمة ، حريصًا على أولاده ، معنيًا بتربيتهم بشكل جيد ، لطيف المعشر . ولو كان عزم على استعمال الجيش ، لما استطاعت أية قوة أن تخلعه عن عرشه . لكنه لم يقترب من ذلك . وبالأساس لم يكن يؤمن بالحرب والعراك ويؤمن بالدبلوماسية الدقيقة . كان جيش الحركة عبارة عن ثلاثة أو أربعة آلاف شخص . كان يشكل أكثريته الألبان ، اليهود ، الروم . ضباطه فقط كانوا أتراكًا . إن 8 000 من جنود الخاصة (حرس السلطان) المدربين تدريبًا جيدًا والذين رافقوه قبل عدة أيام فى استقبال الجمعة الأخير ، كان بإمكانهم تشتيت هذه القوة بمصادمة واحدة . توسل شوكت باشا إلى البادشاه أن يعمل ذلك ، لكنه لم يتمكن من الحصول على موافقته . كان الشعب يحبه جدًا . إن الشعب الذي كانت السماء والأرض ترن لهتافه « بادشاهم جوق باشا » (يعيش البادشاه) في مراسم استقبال الجمعة الأخير ، قبل خلعه بعدة أيام ؛ كان صادقًا ... » .

حرر المؤرخ عبد الرحمن شرف أفندي بعد موته هذه الأسطر : « كانت العلامات الخاصة بالسلالة العثمانية تشاهد وتتميز على ملامح وقوام السلطان عبد الحميد . كان ذكيًا وحساسًا ، لا يضيع وقته ، لطيفًا في معاملته الاعتيادية ، يملك صوتًا ذا حلاوة

خاصة . يؤدي بشكل تام ما يستوجبه وقار شخصية ومنزلة خلافته وسلطنته ، يتلطف تابعيه ، ويعلم كيف يسحر الأجانب الذين يقابلونه ، بحلاوة لسانه وجاذبية لطفه ورقته . كان قادرًا تمامًا على تحقيق وعيده ، ومقتدرا على إظهار شدته أو تسكين حدته عند اللزوم » .

شيوخ إسلام دور السلطان حميد هم خير الله أفندي ، خليل أفندي ، أحمد مختار أفندي للمرة الثانية (للمرة الثانية سنة ، 9 أشهر ، 4 أيام) ، عرياني ـــ زاده أحمد أسعد أفندي (4 / 12 / 1878 – 17 / 1 / 1889 = 10 سنوات ، شهر ، 14 يوماً ، الحادى عشر في التاريخ العثماني ، من حيث المدة) ، بودرملي حاجي عمر لطفي ، محمد جمال الدين أفندي (4 / 9 / 1891 – 14 / 2 / 1909) ، ثم محمد ضياء الدين أفندي . إن المشيخة الأولى هذه لجمال الدين أفندي دامت 5 / 17 سنة . رجل دولة قدير . مكث في هذا المقام مع مشيخته في المشروطية قرابة 17 سنة ، 11 شهرًا ، 13 يوماً ويعتبر السادس بين شيوخ الإسلام من حيث المدة ، وهو شيخ الإسلام الكبير الأخير . توفي في مصر في نيسان 1919 عن عمر يناهز الـ 71 عاماً . وعند ذهابه إلى مصر بعد المشروطية قامت الأرض وقعدت وقلق الإنكليز بشكل كبير ، رغم أنه كان قد ترك مقام المشيخة بصورة فعلية .

21 ـــ عائلة السلطان عبد الحميد الثاني :

سكن السلطان عبد الحميد الثاني في سراي دولمة بقجة في السنين الـ 8 الأولى من سلطنته فقط . سكن سراي ييلدز ، حتى خلعه . كان يذهب إلى سراي دولمة بقجة عدة مرات في السنة لغرض إجراء مراسم المعايدة ومرة واحدة في السنة ، إلى سراي طوب قابو . أصبح سراي ييلدز ، باستمرار إضافة الردهات إليه وبمرور الزمن ، مدينة داخل مدينة ، وإن صح التعبير ، أصبح فرساي إستانبول . سكن بعد خلعه قصر Alotini (1909 – 1912) ، ثم سراي بكلر بك الواقع في ضفة آسيا فى استانبول الذى استعمل منه غرفتين فقط ، رغم تخصيصه له (1912 – 1918) . السلطان عبد الحميد الذي خرج إلى الشوارع في مراسم تقليده السيف (13 / 9 / 1876) ، 600 000 شخص ، توفي في أواخر الحرب العالمية الأولى فى غرفة نومه المتواضعة في سراي بكلر بك (10 / 2 / 1918 ، الساعة 15) وعمره يتجاوز الـ 75 عاماً

بـ 4 أشهر ، و9 أيام . كان قد مضى على خلعه 8 سنوات ، و9 أشهر ، و13 يوماً وكانت الإمبراطورية تشتعل بنيران الحرب . دامت إقامته في قصر آلاتيني 3 سنوات و6 أشهر ، و5 أيام : وفي سراي بكلر بك 5 سنوات و9 أشهر و13 يومًا وخلال إقامته هذه ، لم يخرج من هذه الأماكن إلى الخارج « أبدا » . دفن في مقبرة عظماء الدولة التي خصصت لرجال التنظيمات والتي يسميها الاستانبوليون مختصراً « تربة » بمعنى (مقبرة) . بجوار جده محمود الثاني وعمه المحبوب السلطان عزيز وابن هذا وولي عهد السلطنة عز الدين أفندي .

إن فرع عبد الحميد ، هو فرع المجيديين ، هو أكبر فروع السلالة وأكثرهم عددًا . تزوج السلطان عبد الحميد زيجته الأولى عام 1863 من نازك ـ أداء عندما كان ولي عهد ثانٍ وعمره 21 عاماً ، وهي باش قادين أفندي (زوجة السلطان الأولى « رئيسة الزوجات » (1850 – 11 / 4 / 1895) . وهي والدة السلطانة علوية ، وظلت في رتبتها هذه باش قادين . أفندي » مدة 20 عامًا (1876/8/31)— 1895/4/11 توفيت وسنها 44 عامًا. « كانت سمراء ، ذات شعر أسود اللون وعيون سوداء ، طويلة القامة ، وعازفة على البيان » . احتلت مكانها بدرفلك ، إيلينجي قادين أفندي (زوجة السلطان الثانية) (4 / 1 / 1851 – 6 / 2 / 1930) ، أصبحت « باش قادين أفندي » مدة 14 سنة ، وهي والدة سليم وأحمد أفندي والسلطانة زكية ، « كانت زرقاء العينين ، شقراء » ، تزوجت السلطان حميد في 15 / 11 / 1868 . تزوج السلطان حميد بزوجته الثالثة صالحة ناجية قادين أفندي (زوجة السلطان) (1887 – 4 / 12 / 1923) بعد 41 عاماً من زيجته الأولى (4 / 11 / 1904) ، وهي والدة عابد أفندي .

أقرب الزوجات إليه والتي مكثت معه بعد خلعه بصورة دائمة ، هي دست زر عائشة مشفقة وهي قادين أفندي الرابعة (زوجة السلطان الرابعة) (10 / 12 / 1867 – 16 / 7 / 1961) . هي والدة السلطانة عائشة . تزوجت في 12 / 1 / 1886 . « كانت زرقاء العينين ، شقراء ، بيضاء الجلد ، ذكية جدًا ، ومرتبطة بزوجها بكل كيانها » .

شهزادات (أبناء) عبد الحميد الثاني هم :

1 – محمد سليم أفندي (11 / 1 / 1870 – 5 / 5 / 1937) : ولي عهد

18 / 11 / 1922 – 3 / 3 / 1924 ، الرئيس الثاني ، للسلالة 16 / 5 / 1926 – 5 / 5 / 1937 . أولاده : محمد أفندي (1887 – 1890) ، السلطانة أمينة نميقة (9 / 2 / 1888 – 1969) ، محمد عبد الكريم أفندي (27 / 6 / 1906 – 3 / 8 / 1935) . تزوجت السلطانة نميقة ، إبراهيم باشا – زاده داماد علي كنعان أسين بك أفندي (1884 – 1961) مهندس معادن ، مدير عام للمعادن ، مؤلف ؛ وهو الأخ الذي يكبر أخاه السفير سيف الله أسين بـ 22 عاماً . أولاده هم فاطمة فتحية خانم – سلطان (1912) ، كاظم بك أفندي ، (1918) ، أمينة ساطعة خانم – سلطان (1926) ؛ فتحية خانم – سلطان ، تزوجت سلطان – زاده إبراهيم أدهم بك أفندي ثم انفصلت عنه ؛ تزوجت ساطعة خانم – سلطان بالنائب البروفسور الدكتور عثمان طوران – أولاد الشهزادة عبد الكريم أفندي ؛ هارون أفندي (20 / 12 / 1930) ودندار أفندي (31 / 3 / 1932) . أولاد شهزادة هارون أفندي : أولاخان أفندي (25 / 8 / 1963) ، السلطانة نورخان (20 / 11 / 1973) وعبد الحميد أفندي .

اشتهر عبد الكريم أفندي بالحادث الغريب الذي أصابه والطريقة التي بات بها ؛ ذهب في 1932 إلى طوكيو واتفق مع الحكومة اليابانية على أن يكون خاقاناً لتركستان . وفي هذه الأثناء ، كانت اليابان قد فصلت منشوريًا عن الصين وجعلت إمبراطور الصين السابق إمبراطوراً لها . وفصلت كذلك تركستان الشرقية عن الصين وقررت إعلان عبد الكريم أفندي إمبراطورًا لها . ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية التى ترتبط بالصين ، والاتحاد السوفييتي الذي يخشى من اليابان كانا معارضين لهذا المشروع ، إلا أنه لم يكن هنالك ما يمكن أن يعملانه لمنع ذلك بصورة فعلية . قتل العملاء عبد الكريم أفندي بالمسدس في غرفته في الفندق الكائن في نيويورك وصّور الحادث على أنه حادث انتحار . والمعلوم أنه كان قد تقرر قبل الثورة الشيوعية في 1917 ، تعيين أحد الأمراء العثمانيين ، خاقانا على تركستان الغربية .

٢ – محمد عبد القادر أفندي (16 / 1 / 1878 – ك 2 / 1944) . توفي (30 / 1 / 1938) وهو رئيس ثانٍ للسلالة . أولاده : محمد أورخان أفندي (12 / 10 /

1909) ، الدكتور نجيب أرطغرل أفندي (27 / 3 / 1914) . علاء الدين أفندي (2 / 1 / 1917) ، السلطانة بيدار (3/ 1 / 1924 - 1943) ، عثمان أفندي (1925 - 1934) السلطانة صفوت نسل شاه (25 / 12 / 1925) . تزوجت هذه السلطانة داماد عوني بك أفندي ، أولادها هما صالح وعمر بك أفندي (من مواليد 1954 و 1959) . أولاد الشهزاد (الأمير) أرطغول أفندي ؛ سليم أفندي (1948) والسلطانة ليلي (1950) – أورخاي أفندي (1909) ، هو الرئيس الثاني للسلالة منذ 1978 . ضابط طيار تزوج نافعه يكن خانم أفندي من عائلة قاوالالي ثم انفصل عنها . أولاده السلطانة فاطمة نجلاء (14 / 9 / 1933) وسليم أفندي (1945) . تزوجت السلطانة نجلاء 3 مرات ، ابنها جم بك أفندي من زيجتها الثانية . زوجها الأول هو من عائلة قاوالالي الأمير داماد محمد سعيد حليم بك أفندي . الثاني داماد علي زكي مانكوس بك أفندي . انفصلت عن الثاني كذلك .

3 – أحمد نوري أفندي (12 / 2 / 1878 – 1944) : كان الرئيس الثاني للسلالة في الأشهر الأخيرة من حياته . اسمه الأصلي أحمد . لا ولد له .

4 – محمد برهان الدين أفندي (19 / 12 / 1885 – 15 / 6 / 1949) : توفي في 1944 وهو الرئيس الثاني للسلالة . أولاده : محمد فخر الدين أفندي (14 / 11 / 1911 – 1970) وأرطغرن عثمان أفندي (18 / 8 / 1912) ، كلاهما لا ولد له . – برهان الدين أفندي ، عازف بيانو ، ملحن ، رسام ، بحّار . انتخب في 1913 ملكاً علي ألبانيا ، لكنه رفض بسبب عدم تنازله عن حقه في عرش تركية . انتخب في 1912 ملكاً علي العراق من قبل العراقيين ، لكن الإنكليز أبطلوا ذلك بشكل دموي وأعلنوا حليفهم فيصل ملكاً .

5 – عبد الرحيم خيري أفندي (15 / 8 / 1894 – 1 / 1 / 1952) : مات في 15 / 6 / 1949 كان عند وفاته رئيسًا ثانيًا للسلالة . كان قد خطب السلطانة ناحية ، ضغط أنور باشا على السلطان رشاد وفسخ هذه الخطبة وتزوج هو بها . تزوج عبد الرحيم أفندي بأمينة خانم أفندي ، إحدي أميرات عائلة قاوالالي ثم انفصل عنها .

ابنته ، السلطانة مهرماه سلجوق (15 / 6 / 1920) ، تزوجت أمه بأمير من عائلة قاوالالي ، داماد راتب جزولي بك ، ثم انفصلت عنه ، وتزوجت بداماد إبراهيم عاصم بك أفندي ؛ أولاده هم خديجة - خانم سلطان (1941) ، تركان خانم سلطان (1943 - 1960) ، إبراهيم توران بك أفندي (1948) - كان عبد الرحيم افندي ضابطًا مدفعيًا ، أجري تدريبه في ألمانيا . كان في الحرب العالمية الأولى قائداً لكتيبة المدفعية ، لا أريد محو شهرتي هذه كقائد فرقة ؛ كان من الأمراء الذين يحبهم أتاتورك . إذ إنه ساند حركة التحرير الوطنية . كان موسيقياً بارعاً .

6 - أحمد نور الدين أفندي (22 / 6 / 1901 - ك 1 / 1944) : لا ولد له . هو توأم محمد بدر الدين أفندي (22 / 6 / 1901 - 13 / 10 / 1903) .

7 - الدكتور محمد عابد أفندي (17 / 5 / 1905 - 8 / 12 / 1973) : تزوج سنيه خانم أفندي ، أخت ملك ألبانيا أحمد زوغو ثم انفصل عنها ، لم ينجب أولاداً . تخرج في مدرسة غلطة سراي ، الحربية ، كلية الحقوق ومعهد العلوم السياسية في السوربون وقسم اللغة الفارسية في قسم اللغات الشرقية العالية في باريس ، دكتور في الحقوق . وخلال فترة أصبح سفيرًا لألبانيا في باريس . دعته اليابان لإعلانه امبراطورا علي تركستان بعد مقتل أخيه عبد الكريم أفندي ، رفض بعد مفاوضات طويلة ، عابد أفندي هو آخر من توفي من أبناء البادشاه من الدرجة الأولي أي ابن سلطان رأساً . ذهب إلي الحج في 1971 . توفي في بيروت . دفن في حديقة جامع السلطان ياووز سليم في الشام ، وهو الجامع الذي دفن فيه أكثرية منتسبي السلالة الذين توفوا في الخارج بعد 1924 .

بنات السلطان عبد الحميد :

1 - السلطانة علوية (1864 - 29 / 11 / 1870) : ماتت قضاء .

2 - السلطانة زكية (21 / 1 / 1872 - 1950) زوجها داماد مشير علي نور الدين باشا (1865 - 1953) ، الابن الأكبر لغازي عثمان باشا . بناتها : علوية شكرية خانم - سلطان (1890 - 1893) وعليه فاطمة خانم - سلطان (1891 - 1972) التي تزوجت بمحسن باشا من فرع يكن من عائلة قاوالالي ، وأنجبت ولدين ذكرين .

3 – السلطانة نعيمة (5 / 8 / 1876) – 1945) زوجها الأول داماد مشير محمد كمال الدين باشا ، هو الابن المتوسط لغازي عثمان باشا ، انفصلت عنه وتزوجت للمرة الثانية بداماد وزير اشكودرلي – زاده محمود جلال الدين باشا (1874 – 1944) . أولادها من زيجتها الأولى : داماد محمد جاهد بك أفندي (1899 – 1976) وعادله خانم – سلطان (1900) . تزوج سلطان – زاده جاهد بك أولا بالسلطانه درّية ابنة الشهزاده ضياء الدين . أما عادلة خانم – سلطان فتزوجت أولا بالشهزاده (الأمير) محمود شوكت أفندي وولدت السلطانة نرمين ؛ طلقت ثم تزوجت للمرة الثانية وصار لها ابن واحد و 3 بنات .

4 – السلطانة نائلة (1 / 1 / 1884 – 25 / 10 / 1957) تزوجت بكرميان أوغلو وزير معارف حكمت باشا (1872 – 1942) ، هو ابن نور الدين عبد الرحمن باشا ؛ عضو مجلس الأعيان . ناظر العدلية والمعارف . لم تنجب أولاداً ـــ وبعد السلطانة نائلة ، ولد للسلطان حميد ابنتان باسم السلطانة سنية والسلطانة سنيحة في 1884 و 1885 وتوفيتا في نفس العام .

5 – السلطانة شادية (1 / 12 / 1886 – 20 / 11 / 1977) . هي آخر ولد وابنة سلطان بقيت علي قيد الحياة . زوجها الأول داماد فاخر بك أفندي (1882 – 1922) ، دبلوماسي وحفيد عبد الله غالب باشا . ولد من هذه الزيجة سامية خانم – سلطان (1918) . زوجها الثاني داماد رشاد خالص بك أفندي (1885 – 1944) . كان سفيراً .

6 – السلطانة حميدة عائشة (2 / 11 / 1887 – 11 / 8 / 1960) ، هي مؤلفة المذكرات المشهورة Babam Sultan Abdulhamid (والدي السلطان عبد الحميد) . زوجها الأول داماد أحمد نامي بك أفندي (1873 – 1962) ، حفيد محمود نامي باشا . انتخب رئيساً للجمهورية في سوريا بالدعاية له بأنه صهر السلطان عبد الحميد . زوجها الثاني محمد علي بك أفندي (1877 – 1937) ، عقيد ركن وهو ابن المشير عبدي باشا – زاده سر عسكر مشير محمد رؤوف باشا (وفاته 1909) . ولد من زيجة السلطانه عائشة هذه ، عبد الحميد رؤوف بك أفندي (1921 – 1981) . ومن

زيجتها الأولى: محمد عمر نامي بك أفندي (1911) وعثمان نامي بك أفندي (1918) . وعاليـة ناميـه خانم - سلطـان (1913) توفـيت بعـد شهريـــن . السلطان - زاده عمر بك له ابنة واحدة ، أمها ، ابنة صدر أعظم باشا - زاده أمير اللواء سعيد باشا . أما عثمان بك ، فتزوج مرتين ، زوجته الأولى هي حفيدة مشير البحرية (أميرال كبير) أحمد راتب باشا ابن قبطان دريا (مشير البحرية) طوبجي باشي - زاده محمود باشا ؛ شغل أحمد راتب باشا بوظيفة والي الحجاز لمدة 16 سنة (1892 - 1908) . سلطان - زاده عثمان بك له ابنتان .

7 - السلطانة رفيعة (15 / 6 / 1891 - 1938) زوجها داماد علي بك أفندي (1885 - 1953) ، دبلوماسي ، ابن مشير أحمد أيوب باشا (1834 - 1892) . بناتها هما ربيعة خانم - سلطان (1911) وعائشة حميدة خانم ـــ سلطان . (1918 - 1936) . كانت السلطانة رفيعة ، مخطوبة في البداية إلي الملحن الشهير شمس الدين ضياء بك ابن جورلولو - زاده محمود جلال الدين باشا .

وعدا هؤلاء ، بنات عبد الحميد اللواتي توفين وهن صغار : السلطانات خديجة (1897 - 1898) علّية (1900 - 1900) ، جميلة (1900 - 1900) ، سامية (1908 - 1909) .



البحث العاشر

السنوات الأخيرة للإمبراطورية (١٩٠٩ - ١٩٢٢)



1 – جلوس السلطان محمد رشاد خان الخامس (27 / 4 / 1909) :

« السلطان رشاد » الذي يسميه الشعب رسميًا « السلطان محمد الخامس » ، هو الابن الثالث للسلطان عبد المجيد . والدته كل – جمال زوجة السلطان الرابعة (1826 – 16 / 11 / 1851) ، وهي كذلك والدة السلطانتين فاطمة ورفيعة . « كانت زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، أجمل امرأة شهدتها في حياتي » (من مذكرات الدكتور Spilzer الطبيب الخاص للسلطان مجيد) .

السلطان رشاد ؛ مولوي ، شاعر ، عازف على البيانو ، خطاط . ولد وهو ولي عهد رابع . ظل ولياً للعهد ، طيلة مدة سلطنة أخيه عبد الحميد الثاني الذي يكبره سنتين ، والتي استمرت 32 سنة و 7 أشهر و 27 يوماً (31 / 8 / 1876 — 27 / 4 / 1909) . اعتلى هذا المقام قبل إتمامه سن 32 . أما جلوسه على العرش ، فكان كأكبر بادشاه عثماني عمراً ، في سن 5 / 64 عاماً . مدة ولايته للعهد هي أطول مدة بعد ولاية عهد اورخان غازي . حمل رتبة المشير خلال مدة ولايته للعهد . عاش في قصره الموجود داخل مزرعته الكائنة في بالموجي . كان أخوه السلطان حميد حتى في السنوات التي كان فيها أميرًا يستصغر أخاه هذا ، هو البادشاه الوحيد ذو العينين الزرقاوين والأشقر تماماً . السلطان رشاد ، الذي لم يكن موضع عناية السلطان عزيز كذلك ، والذي ظل مهملاً ، المحب للانزواء ، الضعيف الثقافة الأوروبية ، لكن الجيد الثقافة الشرقية والذي يجيد الموسيقى الغربية ولم يتعلم الموسيقى التركية ؛ ليست له أية علاقة ، لا قريبة ولا بعيدة بدهاء أخيه الكبير السلطان عبد الحميد . ويعتقد أنه كان قليل الحظ من الذكاء ، وقد اشتهر بظهوره بمظهر قليل الذكاء أمام الاتحاديين .

إن السلطنة الحقيقية انتهت مع عبد الحميد . إخوته الذين خلفوه ، محمد الخامس والسادس ، لا يمكن أن يكونا إلا ظلال حكام . ظن السلطان رشاد أن رضوخه وموافقته على كل أعمال الاتحاد والترقي القانونية وغير القانونية ، المشروعة وغير المشروعة ، هي تنفيذ الحكم المشروطي ، لم يتمكن من تقديم نموذج جيد للديمقراطية ذات التاج .

ارتباطه بوطنه وشعبه بإخلاص وأخلاقه العالية ، لم يؤمنا له تأييد الشعب . ورغم أن الاتحاديين وضعوا ثقلهم في صفتي الخاقان والخليفة ، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً في رفع مكانته ؛ لأن الشعب أدرك في الحال أنه ألعوبة بيد الاتحاديين ، واكتفى بأن يظهر له المحبة الممتزجة بالشفقة ، واحترامه ، احتراماً لآبائه . من المؤكد أن الحوادث التي أصابت أخيه الكبير ، قد أخافته . وبالإضافة إلي ذلك ، فهنالك عدد آخر ، هو معاصرته لكارثتي الحرب البلقانية والحرب العالمية ، الشعب الذي تعود معرفة كل شيء من رئيس الدولة ، استصغر السلطان رشاد لعدم تمكنه من الحيلولة دون الدخول إلى هذه الحروب . وفوق ما تقدم فهنالك عذر أيضاً ، هو أنه لسوء حظه جاء خلفاً لحاكم فعّال جداً جعل العالم بأسره يتكلم عنه يومياً مؤيداً أم معارضاً .

2 ـ صدور أعظم فترة المشروطية :

استقال توفيق باشا ؛ من صدارته التي دامت 3 أسابيع بعد 8 أيام من جلوس السلطان رشاد ، صار حسين حلمي باشا ، صدرا أعظم للمرة الثانية (5 / 5/ 1909) . كان الصدر الأعظم الأسبق آفلونيالي فريد باشا ، ناظراً للداخلية . اضطر مجبراً علي الاستقالة . صار طلعت بك ناظراً للداخلية . سبب إجبار فريد باشا على الاستقالة ، بالتهديد ، هو محاولة الاتحاديين إعدام الكثيرين بادعاءآت وتهم سخيفة كترتيب حادث 31 مارت ، الرجعية ، مؤيد دور السلطان حميد . صار طلعت بك ناظرًا للداخلية ، هيأ لهم هذا الجو . ولكـن لـم يتحمل ضغوط الاتحاد والترقي ، حتي حسين حلمي باشا استقال بعد 7 أشهر ، 24 يوماً (28 / 12 / 1909) . مجموع صدارتيه 9 أشهر ، 21 يوماً . عمل كناظر للعدل وسفير في فيينا وتوفي في 1923 عن عمر يناهز الـ 68 عاماً .

صار سفير روما إبراهيم حقي بك برغبة الاتحاديين ، صدرا أعظـم وكان عمره حينذاك 48 عاماً ، رغم أنه لم يكن وزيراً وبرتبة « بالا » تخرج في المدرسة الملكية (الحقوق) رجل قانون ، أخصائيٌ في القانون الدولي ، قوي الثقافة الغربية ، جاهل تمام الجهل بتركيا ، معتاد علي الحياة الأوروبية ، متفرنج ، غافل ، قليل الذكاء ، محروم من الشعور بالمسئولية . صار قائد جيش الحركة محمود شوكت باشا ناظراً للحربية في هذه

الوزارة . ولأجل إنقاذ حقي باشا من الإعدام بسبب فاجعة طرابلس الغرب أشير عليه بالاستقالة بعد سنة و 9 أشهر و 3 أيام (29 / 9 / 1911) . مات في برلين عام 1918 عندما كان سفيراً لتركيا فيها .

صار كوجوك سعيد باشا ، صدراً أعظم للمرة الثامنة عندما كان رئيساً لمجلس السناتو (بالعثمانية مجلس أعيان رئيسي) أي رئيس مجلس الأعيان . استقال بعد 3 أشهر ، يوم (30 / 12 / 1911) وألّف في اليوم التالي وزارة جديدة . استقال من صدارته التاسعة هذه بعد 6 أشهر و 17 يوماً (16 / 7 / 1912) . ومجموع صدارته الـ 9 : 7 سنوات ، شهر ، 20 يوماً (تسلسله 24) . ضرب رقماً قياسياً في عدد مرات تصدره مقام الصدارة وهو 9 مرات ، بينما لم يزد من شغل هذا المقام في العهد العثماني على 6 مرات فقط ، صدارته الأولى عام 1879 ، كان عندئذ في سن 41 عاما . مات بعد مدة وجيزة (29 / 2 / 1914) عن عمر يناهز الـ 76 عاماً . ظل رئيساً لمجلس الأعيان حتى وفاته . جعله الاتحاديون صدرًا أعظم لكونه أذكى وزراء السلطان حميد ، مؤملين فيه أن يتدبر الأمر في أزمة الحرب الإيطالية . لكنه لم يستطع عمل شيء ، هرب من المسئولية بصورة مستمرة وحاز على نفور الشعب كله .

الاتحاديون الذين شاهدوا وضع الإمبراطورية الحرج ، اتجهت أنظارهم هذه المرة إلى قاطرجي أوغلو غازي أحمد مختار باشا الكبير السن العسكري الحريص الذي له شهرة عسكرية كبيرة وأعطوه مقام الصدر الأعظم . تمكن من البقاء في السلطة 3 أشهر ، 8 أيام . استقال وانسحب (29 / 10 / 1912) . قضى هذه المدة تحت تحكم وسيطرة ابنه محمود مختار باشا الذي أدخله في وزارته كناظر للبحرية . مات عن عمر يناهز الـ 82 عاماً (22 / 1 / 1919) .

جاء بدلاً عنه قبرصلي محمد كامل باشا للمرة الرابعة . سقط في حادث اقتحام الباب العالي بعد شهرين ، 25 يوماً . الحقيقة أنه كان عدواً للاتحاديين ، لكنه جيء به إلى السلطة للتخلص من حرب البلقان بأقل ضرر ، مجموع صدارته الأربع 6 سنوات ، 9 أشهر و 20 يوماً (تسلسله 27) . صدارته الأولي في 1885 . توفي بعد عدة أشهر

عن عمر يناهز الـ 81 عاماً .

ألف محمود شوكت باشا ، بعد كامل باشا وزارة نصف اتحادية (23 / 1 / 1913) . كان فريقاً أول . جعل صدرًا أعظم بعد ترفيعه إلى رتبة مشير وتكليفه بنظارة الحربية . لم يمنحه الاتحاديون الفرصة مثل كامل باشا ، قتل بعد 4 أشهر ، 19 يوماً (11 / 6 / 1913) . ولد محمود شوكت باشا في بغداد من عائلة قفقاسية ، كان عسكرياً ركنا له مؤلفات عسكرية قيمة . يجيد بشكل ممتاز اللغات العربية ، الألمانية ، الفرنسية . صار أخوه رئيساً للوزارة في العراق بعد ذلك . صار صدراً أعظم رغم اعتراض السلطان رشاد ، لأنه يميل إلى الاتحاديين . لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يصف الاتحاديين بكلمات « مخلوقات عديمة المخ » .

جعل الاتحاد والترقي ، محمد سعيد حليم باشا ، صدراً أعظم ، رغم اعتراض السلطان رشاد أيضًا . كان أميرًا موسراً جداً من عائلة قاوالالي . كان عضواً في مجلس الأعيان . جي به إلي الصدارة بعد ترقيته إلي رتبة وزير . صار ألعوبة مسخرة بيد الحزب إلى درجة أنه لم يبّلغ بالدخول إلى الحرب العامة من قبل الثلاثي الاتحادي . مدة صدارته 3 سنوات ، 7 أشهر ، 23 يوماً . استشهد في روما على يد حركي أرمني وكان عمره 58 عاماً (6 / 12 / 1921) . كان أخوته الثلاثة اتحاديين ، أحدهم عباس حليم باشا الذي صار ناظراً للمالية وواليا على خداوندكار (بورصة) . صار محله طلعت بك الذي لا يحمل أية رتبة صدراً أعظم بعد منحه رتبة وزير ، وهذه الحادثة ، هي الوحيدة في التاريخ العثماني . وبالأساس ، كان هو ناظر الداخلية والرأس الحقيقي في وزارة سعيد حليم باشا . ظل في مقامه هذا مدة سنة ، 8 أشهر ، يومين وهو الصدر الأعظم الأخير لمحمد الخامس ، والأول لمحمد السادس . استقال عند خسران الحرب العالمية (8 / 10 / 1918) . وعندما استشهد على يد حركي أرمني في برلين ، كان عمره 5 و 46 عاماً (15 / 3 / 1921) . هو أصغر من ولد بين الصدور العظام في التاريخ العثماني . الذين تلوه ، كانوا أكبر منه سنّاً . كان سعيد حليم باشا ، ناظراً للخارجية في وزارة محمود شوكت باشا وشغل هذا المنصب كذلك لمدة من الزمن في وزارته هو (11 / 6 / 1913) . وعند قتله في الـ 58 من عمره ، دفن في حديقة مقبرة السلطان محمود . أما رفات طلعت باشا فجلبت من برلين عام 1944 إلي استانبول ودفنت في الحرية الأبدية

جنب محمود شوكت باشا.

شيوخ إسلام دور السلطان رشاد هم ، محمد ضياء الدين أفندي ، بيري - زاده محمد صاحب أفندي ، جلبي - زاده حسين حسني أفندي ، موسى كاظم أفندي ، عبد الرحمن نسيب أفندي (الذي اعتلى هذا المنصب عندماكان قاضياً على مصر) ، محمود جمال الدين أفندي للمرة الثانية ، محمد أسعد أفندي ، أوركوبلي مصطفى خيري أفندي وموسى كاظم أفندي للمرة الثانية . موسى كاظم أفندي الذي جيء به من عضوية مجلس الأعيان والذي ظل في منصبه هذا مدة 3 سنوات ، 10 أشهر ، 27 يوماً ، هو من معّممي الاتحاديين واشتهر بكونه ماسونياً . أما أوركوبلو زاده خيري أفندي ، الذي بقي في هذا المقام مدة سنتين ، وشهر ، 23 يوماً ، كان رجل دين ودولة قدير ، اتحادي معتدل ، هو والد سعاد خيري أوركوبلو ، أحد رؤساء وزارات عهد الجمهورية .

3 ـ السنوات الأولي للسلطان رشاد وسياحة روملي (1909 - 1911) :

خصص سراي جراغان ، أعظم سراي في دور التنظيمات ، الواقع في الضفة الأوروبية من المضيق في أورطه كوي والذي شيده السلطان عزيز ، لاجتماعات المجالس (مجلس النواب والأعيان) ، مخالفاً للأصول ورغم اعتراض السلطان . احترق السراق ، حتي قواعده بشكل يجلب الشك (19 / 1 / 1910) . كانت المجموعات التي أمكن إنقاذها من نهبية يبلدز قد نقلت إليها . تلفت هي الأخرى . خصص سراي فندقلي للمجالس إلي أن أغلق بحراب الإنجليز في آذار عام 1920 . وبعد مرور سنة احترقت كل من نظارة الداخلية في الباب العالي ، شورى الدولة ودوائر الصدارة بصورة تامة وأصبحت رماداً (4 / 1 / 1911) . حرق الاتحاديون أرشيف سراى يبلدز بدعوى أن جميعها تقارير الشرطة السرية وحرقوا قسمه الأكبر في ميدان بيازيد . أصبح معلومًا بشكل قطعي الآن أن أكثرية الاتحاديين قدموا تقارير سرية للبادشاه تلت هذه الحوادث ، عضيان الدروز في حوران (سورية الجنوبية) ، الزيديين في اليمن ، والألبانيين (العرنووط) في إيالة اشكودرا في كوسوفا كانت وراء كل منها دولة أجنبية . لكن عدم نجاح السياسة الاتحادية كان له أثر كبير في ذلك . أراد محمود شوكت باشا إخافة الألبانيين بقوة كبري مكونة من 82 سرية مشاة كأنها استعداد لفتح حرب تجاه دولة أجنبية . ولم ينتج هذا سوى

إضعاف ارتباط الألبانيين بدولتهم . ولأجل مجاملتهم قرروا إخراج البادشاه لسياحة .
لم تطأ قدم أي بادشاه هذه الأراضي منذ عهد القانوني .

أبحر السلطان رشاد بواسطة أسطول ، يرافقه كبير وصغير أولاده الثلاثة ، الصدر الأعظم حقي باشا ، وعدد من النظّار (5 / 6 / 1911) . نزل في سلانيك من مدرعة « بربروس » بعد يومين . جاء إلى اسكوب بالقطار . صلى الجمعة يوم 16 حزيران في مشهد خداوندكار في صحراء كوسوفا مع 100 000 ألباني . استشهد في هذه المنطقة قبل 522 عاماً ، فاتح البلقان السلطان مراد خداوندكار وهو جده في البطن 18 ، بعد إفنائه الجيش الصليبي . مئات الألوف من الألبانيين ، داس بعضهم فوق بعض على امتداد الطريق لرؤية البادشاه . بهذا تم تأمين كسب مشاعر الدولة التي لم يتمكن محمود شوكت باشا من تأمينها بواسطة 82 سرية . لكن الدول الأجنبية التي ألقت شراكها على ألبانيا ، استمرت في تسخير عملائها الذين كانوا عبارة عن عدد من النواب العثمانيين . ذهب البادشاه بالقطار إلى مناسطر كذلك ، وهي مركز إيالة أخرى . عاد إلي استانبول في 26 حزيران . استمرت السياحة الهمايونية مدة 3 أسابيع . مرصيف 1911 هذا ، في جو مشروطي (ديمقراطي ذو تاج) لطيف . كان في انتظار الدولة ، منذ الأيام الأولي للخريف ، أولى المفاجآت المّرة التي سوف لن تنقطع .

4 ـ الحرب مع إيطاليا بسبب ليبيا (29/ 9 / 1911 ـ 1912/10/15) :

اقتسمت كل من إنكلترا وفرنسا ، بينهما ، القسم الأكبر من الكرة الأرضية ، تأخرت كثيراً كل من ألمانيا وإيطاليا في الحركة الاستعمارية ، وتمكنتا من حيازة أراض قليلة . أخذت إيطاليا من العثمانية ، الصومال الجنوبية ، أرادت أخذ الحبشة ، لكنها لم توفق . كانت تفكر في تونس ، إلا أن فرنسا بادرت إلى استعمارها . كان هدفها منذ سنين عديدة ، ليبيا التي تبلغ مساحة أراضيها ضعفي مساحة تركيا الحالية والتي تحتوي أراضيها علي تشاد ونيجيريا ويعيش فيها 1 230 000 نسمة . كانت هنالك الإيالة العثمانية (طرابلس الغرب) ولواء (بنغازي) المنفصل الذي لا يرتبط بهذه الإيالة . كامل ليبيا ، كان مقسماً إلى 28 قضاء . كان فيها فرقة عثمانية مركزها طرابلس ولا ترتبط هذه الفرقة بأي جيش ، كانت مرتبطة بنظارة الحربية رأساً . كان السلطان

حميد قد أبقي هذه الفرقة في هذا القطر بإصرار ، إذ إنه كان يعلم بأطماع إيطاليا تجاه ليبيا . أما في طرابلس ، فعين فيها منذ مدة طويلة العسكري للمشير رجب باشا بوظيفة والي على الإيالة وفي نفس الوقت ، قائد لهذه الفرقة . كان السلطان حميد ينفي معارضيه الأكثر شراسة إلى فيزان في ليبيا الجنوبية . كانت فيزان أصعب مكان للنفي . كان المنفيون يتسلمون رواتبهم ، ويؤجرون بيوتهم ويعيشون حياة حرة في مركز لواء فيزان . وبعد بقائهم فيها لسنة أو سنتين وإعلانهم أنفسهم أبطال حرّية ، يقوم رجب باشا بجلبهم إلى طرابلس ، ويزعم أنه يسمح لهم بالذهاب إلي أوروبا دون علم السلطان . كان رجب باشــا بطلاً بالنسبة لـ « الشبان الأتراك » (جون تركلر) الذين لم يخطر على بالهم بأن هذه العمليــة تجري بموافقة الخاقان ، حيث إنهم جعلوه ناظراً للحربية ، بعد المشروطية .

تركت ليبيا دون جيش ودون رئيس ، وكأنما قدمت دعوة لإيطاليا ، نتيجة لعبة قذرة لا لزوم لتفصيلها هنا . ورغم حيازة الدولة على فرق عديدة ، سيقت الفرقة الموجودة في ليبيا ، إلى اليمن . لم يبق في البلاد التي هي عبارة عن صحراء كبيرة جدًا والتي يسكن القسم الأكبر من نفوسها على سواحل البحر الأبيض ، أية قوة عسكرية عدا الجندرمة (الدرك) . وإضافة إلى ذلك ، لم يعين وإلٍ وبقي مقام الإيالة شاغراً . حدثت هذه الأوضاع ، في عهد صدارة إبراهيم حقي باشا الذي جاء إلى الصدارة من سفارة روما ، ولكونه متخصصاً في القانون الدولي ، كان يجب عليه أنْ يعلم أطماع إيطاليا تجاه ليبيا ، أفضل من أي شخص آخر . لعب الدور الأول في هذه اللعبة القذرة نائب سلانيك الاتحادي الشهير اليهودي عمانوئيل كاراسو (كتابتها على شكل « قره صو » خطأ ») الذي استغفل حقي باشا والاتحاديين .

أبلغت إيطاليا ، التي قدمت مذكرة إعلان الحرب إلى العثمانية في 29 أيلول ، الدول بأن هدفها ليبيا ، وأنها سوف لا تحتل أية منطقة أخرى من الأراضي العثمانية . أنول الأسطول الإيطالي الجنود واحتل طرابلس (4 / 10 / 1911) وبنغازي (19 / 10 / 1911) . وخلال 3 أسابيع استولت تقريباً على كامل ساحل البحر الأبيض العظيم الواقع بين تونس ومصر ، لكنها لم تتمكن من التقدم ولا كيلو متر واحد نحو الداخل . كان نشأت بك وكيل الوالي وكان هو القائد . جاء 3 ضباط أركان عثمانيين إلى ليبيا

وتقاسموا الساحل بينهم . كان ثلاثتهم في سن 31 عاماً ، الرائد أنور بك ، الرائد فتحي بك (أوقيار) ، قول أغاسي (نقيب متقدم) مصطفى كمال بك (أتاتورك) . ساعد السنوسيون ، هؤلاء ودربوا وجهزوا الشعب المحلي الذي يشكل أكثريته قل أوغوللري . كان السلطان حميد قد أسس تشكيلات القل أوغوللري هذه كجيش شعبي . لعب هؤلاء دوراً مهماً في الدفاع . ترك الضباط العثمانيون البلاد عند نشوب حرب البلقان . تمكن أفراد قول أوغوللري برتبة باش شاويش (رقيب أول) من الاستمرار في الدفاع عن الوطن و تمكن الشعب الليبي من الفتك بكثير من الإيطاليين طيلة سنوات عديدة . جاء في الحرب العالمية ، أحد الأمراء (الشهزادات) العثمانيين برتبة فريق أول عثمان فؤاد أفندي ، مع أركانه ونظم الدفاع مجدداً . لم تدخل البلاد تحتَ الطاعة ، إلا بعد 20 عاماً وبمساندة القوة الجوية في عهد موسوليني .

الأسطول الإيطالي الذي لم يتمكن من تسلم ليبيا ، أخذ بالضغط على جناقلعة لكنه لم يتمكن من اجتياز المضيق . احتل رودس مركز جزر البحر الأبيض (جزائر بحر سفيد) (4 / 5 / 1912) . وهكذا دام الحكم العثماني في طرابلس التي فتحها طرغد باشا من فرسان Saint – Jean ، مدة 360 سنة ، شهر ، 11 يوماً ، والحكم في رودس والجزر الاثنتى عشرة التي فتحها قبلها السلطان سليمان القانوني ، من نفس الفرسان مدة 389 سنة ، 4 أشهر ، 7 أيام . ليبيا ، كانت الأرض العثمانية الوحيدة في أفريقيا التي تدار رأساً ، كانت مصر والسودان مرتبطة بالعثمانية من الناحية القانونية فقط . استقال حقي باشا ، بعد اعترافه الحزين في اجتماع الوزارة قائلاً : « كان السلاطين قديماً يأمرون بقطع رءوس الذين هم في مثل وضعي على حجر مسلة ركوب الخيل » . اتهم نواب ليبيا ، الحكومة في المجلس ، وطالبوا برأس حقي باشا . حل البادشاه المجلس بتوصية الاتحاد والترقي ، نتيجة لعبة برلمانية قذرة لا لزوم هنا لذكر تفاصيلها وحال دون مناقشة التقرير الذي قدم ضد حقي باشا . أرسل الباشا إلى لندن على عجل وأنقذ حياته . انحل المجلس الأول الذي انتخب في ك 1 / 1908 . وشكل المجلس الثاني بالانتخابات الجديدة التي جرت في 1912 وأعلنت الإدارة العرفية التي ترفع بعدها أبدا . انقسم الضباط إلى زمرتين إحداهما معادية للأخرى ، اتحادي وخلاصكار . شكلا عصابات وأخذ القتال يجري بينهما . كان هذا في صالح دول البلقان .

أنهت معاهدة لوزان أو (Ouchy) (15 / 10 / 1912) حرب إيطاليا التي استمرت سنة ، 17 يوماً . تركت ليبيا ، إلى إيطاليا . إلا أن موظفاً عثمانيًا بمنزلة وزير سيمثل البادشاه في البلاد بلقب « نائب السلطة » . سيعين الموظفين الدينيين الكبار من استانبول . ستسدد إيطاليا ، إلي الباب العالي سنوياً مبلغ 000 90 ليرة ذهبية ضريبة عن إيالة ليبيا . تخلى جزيرة رودس والجزر الاثنتا عشرة وتعاد إلى العثمانية . توافق إيطاليا علي إلغاء الكابيتولا سيون (الامتيازات الأجنبية) .

5 - الحرب البلقانية (1912/10/18) وتطورها :

نتيجة ضيافة وغفلة لا يقبلها العقل ، نشرت حكومة حقي باشا قانون الكنائس والمدارس المشهور (3 / 7 / 1910) وصار هذا القانون حكمًا بين الأقليات البلغارية ، الصربية ، اليونانية الموجودة في مكدونيا وسببًا في مصالحتها بعضها البعض ورفع الخلاف الكبير الموجود بينها . ونتيجة غفلة لا يقبلها العقل كذلك ، سرّحت 120 سرية من الجنود المدربين ، على أثر تقديم روسيا للباب العالي ضمانات كاذبة ، بأنها سوف لن تسمح لدول البلقان بأن تشعل نار الحرب في البلقان . أرسل بدلاً عن قسم منهم ، على عجل ، أفراداً لا يجيدون حمل السلاح . والمعلوم أن صربياً دولة برّية ، لا ساحل لها . كانت قد ابتاعت من ألمانيا مدافع ثقيلة من طراز حديث ، لكن خصميها النمسا ـــ المجر لم يسمحا بمرور هذه الأسلحة من أراضيها إلى صربياً . سمح الباب العالي ، الذي يقوم بدور حمامات السلام والأخوة في البلقان ، بنقل هذه الأسلحة إلى ميناء سلانيك العثماني ومن ثم نقلها بواسطة سكك حديد العثمانية إلى بلغراد . كانت دول البلقان ، عدا رومانيا ، تتبادل فيما بينها وبين روسيا رسائل سرية جداً ضد العثمانية . لم يكن للعثمانية علم بهذه الرسائل التي كانت دبلوماسية عبد الحميد ، تقف على ما يجري فيها فوراً . اتفقت دول البلقان الأربع (بلغاريا ، صربيا ، قره داغ ، واليونان) فيما بينها ووقعت على اتفاقية عسكرية ، سياسية سرية لاقتسام الأراضي العثمانية في البلقان . في حالة الخلاف ، يحتكمون إلى القيصر الذي وافق على هذا التحكيم بصورة سرية ووعد مساعدة البلقان قدر المستطاع . أن وجود حالة الحرب بين العثمانية وإيطاليا خلال هذه الأثناء ، قصف الأسطول الإيطالي لميناء بيروت ومزاحمته مضيق جناقلعة ، كل ذلك هيأ فرصة جيدة بالنسبة للبلقان .

إن خطة قيام أربع دويلات بلقانية صغيرة ضد إمبراطورية ، كانت قد تركت إلى الصدف . لكن حظ الدول البلقانيـة كـان كبيراً ، لأنها كدول مسيحية كانت تعلم تماماً أن أوربا سوف تساندها ضد العثمانية كما هو الحال دائماً . قلقت الدول العظمى في بداية الحرب ، لإيقانها بانتصار العثمانية بشكل قطعي . أعلن Poincare في فرنسا ، بأنهم سوف لن يسمحوا أبداً بتغيير الـ Stqtu Quo (الحالة الراهنة) في البلقان في نهاية الحرب . هذا يعني أن العثمانية سوف لن يمكنها الحصول على أية أراض من الدويلات البلقانية .

أجاب ناظر الخارجية عاصم بك ــ الذي كان دبلوماسيًا مغفلاً يّدعي أنه ينحدر من سلالة طرغد باشا فاتح ليبيا في المناقشات التي جرت في مجلس النواب في 15 تموز ، النواب الذين أعلنوا أن هنالك حوادث تجري في البلقان وطلبوا اتخاذ تدابير ؛ بخطاب يحوي على جملته التاريخية « إنني معتمد على البلقان بقدر اعتمادي على إيماني » المشهورة جداً والتي تعتبر من شواهد أدب الغفلة . كان على مثل هذا الشخص الذي جاء من وظيفة سفير في سفارة صوفيا ، أن يعلم الأطماع الكبرى لبلغاريا . هدأت كلمات هذا المجلس وأمنت سكونه قال Gabriel Noradungi yan الدبلوماسي والمؤلف الأرمني الذي صار وزيرًا للخارجية بعده والذي خان الدولة العثمانية بعد ذلك ، للمجلس أن روسيا قدمت ضماناً قطعياً لتأمين الصلح في البلقان . وعلى أثر هذا الضمان ، سرحت الحكومة ، ــ بغرض الاقتصاد في النفقات ــ 120 سّرية من الجند في روملي ، و لم تتمكن طيلة مدة استمرار الحرب من إعادة تجميعهم وسوقهم إلي الجبهة ، لأن الضباط الذين كانوا منقسمين إلي زمرتين الاتحاديين وخلاصكار ، لم يكونوا يبالون بالعدو ، كان كل من الفريقين قد عزم على إفناء الآخر وتسلم الجيش الذي سيكون النصر الكبير في ذلك ، في النهاية ، حليفاً للاتحاديين . أحيل على التقاعد أكثر الضباط تجربة ، وخاصة ذوي الرتب العالية بسبب عدم رغبتهم في فتح المجال للضباط الاتحاديين ذوي الرتب الصغيرة وعدم رغبتهم في خدمة الاتحاديين ، وخاصة عدم رغبتهم في تسليم الجيش لتصرف الحزب . لم يكن بالإمكان أبدًا إلى الفراغ الذي أحدثه آلاف الضباط الذين أحيلوا على التقاعد والذين سيؤخذ قسم منهم إلى الخدمة ثانية في نهاية الحرب العالمية .

وبموجب اتفاقي بلغاريا – صربياً (13 / 3/ 1912) وبلغاريا – اليونان (29/ 5/ 1912) اللذين لم تستعلم العثمانية عنهما أبداً ؛ أعلنت أولاً قره داغ (8 / 10 / 1912) ، ثم بلغاريا وصربيا (18 / 10 / 1912) ، وبعد عدة أيام اليونان ، الحرب على تركية . كانت قوات العثمانية تجاه بلغاريا مكونة من 5 فيالق باسم « جيش الشرق » تحت قيادة الفريق الأول عبد الله باشا ، أما الفيلق الموجود في موقع مستحكم أدرنة ، فكان تحت قيادة شكري باشا . كان تجاه اليونان ، في سلانيك فيلق واحد وقوات الموقع المستحكم في يانيا ، وتجاه قره داغ ، كانت هنالك فرقة واحدة في اشكودرا . وكانت قيادة « جيش الغرب » في مكدونيا تجاه صربياً ، لدى الفريق الأول الذي صار صدراً أعظم بعد ذلك – علي رضا باشا . وعين على رأسهم جميعاً ، ناظر الحربية الفريق الأول ناظم باشا ، بلقب وكيل القائد العام . والمشهور عنه أن أحد أوامره الأولى التي أعلنها ، طلبه استصحاب الضباط لباس المراسم معهم إلي الجبهة . وقيل إن ذلك لارتدائها في الاستعراض الذي سيقام في صوفيا . جركس ناظم باشا هذا ، هو صهر رجل الدولة الكبير الصدر الأعظم عالي باشا . كان يتخيل طيلة حياته ، التوصل إلي درجة شهرة والد زوجته الذي توفي قبل 41 عاماً . كان من الجنرالات الذين نفر منهم السلطان حميد وأبعدهم واعتبرهم تافهين . كان مغفلاً ووضيعاً . كان المعلوم أن الجيوش ؛ الأول والثاني والثالث ، المتمركزة في استانبول ، أدرنة ، سلانيك قد جهزت بشكل يمكنها به بكل سهولة ، سحق الدول البلقانية الأربع ، لكن سرّحت الآن 120 سرية ، أحيل الضباط إلى التقاعد ، تشكيلات الجيش الفنية ، اللوازم ، النفير العام في حوزة إياد ليست لها خبرة وفي وضع رديء . لم يمكن سوق أية قوة جدية من الأناضول . وإضافة إلى ذلك ، كانت ألبانيا مضطربة وكان عملاء الدول الأجنبية الأجراء من النواب والأشراف الألبانيين ، يروجون الشائعات بأنه في حالة خسارة العثمانية ، سوف يؤسسون ملكية ألبانية مستقلة كبيرة تدخل بضمنها كوسوفا كذلك . لم يتمكنوا من إدراك وفهم عدم سماح أوروبا بتأسيس أية دولة إسلامية مستقلة مجدداً . وفي هذه الأثناء كانت فرنسا قد ابتلعت فاس ، وتعويضاً لذلك ، تغاضت عن ابتلاع إيطاليا ، ليبيا . إن الإمبراطورية العثمانية ، والإمبراطورية التركية في إيران ، اللتين لا تزالان مستقلتين ، كانتا من وجهة نظر المسيحيين تمثلان عدداً فوق الكفاية من الدول

الإسلامية ، كانت إنجلترا قد جعلت من الأفغان نصف مستعمرة ، ومنعتها حتى من تأسيس علاقات لها مع الدول الأجنبية . مع العلم بأنه لم يكن في البلاد جيش إنكليزي . كانت أوروبا والإمبريالية المسيحية في محاولة للوصول إلي نقطة القمة . وفي سبيل الوصول إلي هذه القمة ، كانت تستعد لمحاولة انتحارية كإشعالها نار الحرب العالمية ، لتهدم المدنية التي بنتها هي ، بأيديها . إن الرائد الحقيقي لمحاولتها هذه ، هي حرب البلقان . كانت تتمنى بلقاناً بلا عثمانية ، أوروبا وسطى بدون النمسا - المجر . ولم تضع في حسبانها أنه في حالة تصفية هاتين الامبراطوريتين وتقسيمهما فإن الأقوام والدول الصغيرة سوف تكون عناصر للاضطرابات ، للخصومة ، للثورة ، للحرب .

كانت العثمانية تقوم بإدارة البلقان ، والنمسا بإدارة أوروبا الوسطى منذ 500 سنة وكانت لهما تجربتهما الإمبراطورية (بالفرنسية .: experience imperiale) . كانت كيفية إدارة هذا الأمر من قبل الأقوام التي ليست لديها التجربة الإمبراطورية ، ولا حتي علي تجربة إدارة دولة ، مجهولة . وكما أن شعبًا أو ثقافة لا يمكن أن تتكون قبل مضي ألف سنة ، كذلك الدولة الحقيقية ، لا يمكن أن تتبلور قبل مضي عصر على الأقل ، وربما عدة عصور ، لا تتكون دول حقيقية بتخطيطها على الخارطة ومنحها الاستقلال . تخط الدول الحقيقية هذه الحدود بقدراتها التاريخية وبصورة فعلية على جغرافية الأرض وتحصل هي بنفسها على استقلالها . أما دول البلقان ، فكانت دولاً عثمانية بالأمس و لم تحصل أي منها على استقلالها بقدرتها . أمنت هذا الاستقلال ، الدول الأوروبية وعلى رأسها روسيا ، كما خططت لها حدودها .

لم تكن بلغاريا تملك حتى سفينة حربيه . قصف الأسطول التركي فارنا (19 — 21 ت ١) . لكن البلغار انتصروا في معارك سولو غلو وبينار حصار بين أدرنة وقير قلارايلي (21 - 23 ت 1) ومعركة لوله برغاز (28 ت 1 ÷ 2 ت 2) . انفرط جيش الشرق ، تفكك ، تشتت ، غلب على أمره ، انكسر . سقطت قيرقلارايلي . جاء العدو أمام جتالجه ، وأخذ يحاول بجهد كبير اقتلاع تحصينات جتالجه (15 - 19 ت 2) ، لم يوفق ، ظل مثبتاً أمام جتالجه .

كسر الصربيون جيش الغرب واحتلوا (كوسوفا ، 22 ت 1) وأخذوا في

الانسياب من Piristine نحو الجنوب بقيادة ولي العهد (الملك بعد ذلك) الكساندر ، استولوا على بني بازار (23 ت 1) والتقوا بقوات قره داغ من الغرب والقوات البلغارية القادمة من الشرق . استولي القره داغيون على أيبك Ipek (31 ت 1) و Yakova (2 ت2) . استولي اليونانيون على جزيرتي بوزجه آدا (20 ت1) وليمني (21 ت 1) وتمركزوا في مدخل مضيق جناقلعة . أخذوا سرفيجه Serfice (23 ت 1) ، Karaferya (25 ت 1) . دخلت القوات الصربية - البلغارية المشتركة إلى ايشتيب Istip (26ت 1) وإلى مركز الإيالة والمركز الثقافي التركي الكبير أوسكوب (26 ت 1) ، ثم إلى مركز إيالة أخري هي مناسطر . سقطت Prizrin (30 ت 1) .

احتل اليونانيون Preveze (6 ت 2) ، سار ولي العهد (الملك فيما بعد) قسطنطين ، بالقسم الأكبر من الجيش اليوناني نحو سلانيك . سلم تحسين باشا في 6 ت 2 فيلقه مع كامل أسلحته وأعطى سلانيك إلي اليونانيين دون أن يطلق رصاصة واحدة . ثم لجأ إلى اليونان . عرنووط تحسين باشا ، كان لواء جندرمه (درك) ، أعطاه الاتحاديون منصب قائد فيلق في سلانيك ، بدعوي أن السلطان حميد أهمله وظلمه و لم يهتم به أبداً . كانت سلانيك بالنسبة للاتحاد والترقي « مهد الحرية » ظل المركز العام للحزب ، بعد 1908 في سلانيك لسنوات عديدة ، ثم انتقل إلي استنبول . قام بواقعة 31 مارت رؤساء عرفاء (باش شاويش) سرايا القناصة الذين جلبوهم من سلانيك . سلانيك ، كانت عزيزة بل ومقدسة عند الحزب .

كانت مدينة متطورة ، ذات ميناء ، وكانت المركز التجاري الكبير للإمبراطورية العثمانية ، صارت إلى هذه النهاية . إن شبكة الخيانة التي حالت دون إطلاق رصاصة واحدة من فيلق كامل ، حلت مسألة سلانيك بهذا الشكل . كان الصربيون وكذلك البلغاريون يريدون سلانيك . إعطاؤها إلي اليونان ، ولد عداء كبيراً بينهم . وفي الواقع ، كان اليونانيون هم الذين احتلوا المدينة ، لكنهم حصلوا على هذا الانتصار السهل إلى هذه الدرجة ، بفضل تشتيت القوات العثمانية على يد البلغاريين في الشرق والصربيين في الغرب . احتل الصربيون لش Les (18 ت 2) ، Debre و Drac (28 ت 2) ، Qhri (29 ت 2) ، Tirana وآقجه حصار (Kroya) . وعلاوة علي استيلائهم على ألبانيا

الشمالية ، فقد صعدوا إلى البحر الأدرياتيكي . استمرت في الدفاع فرقة جاويد باشا ، في ألبانيا الجنوبية وفرقة أخري انسحبت إلى القلعة في اشكودرا في الشمال .

غلب الأتراك في كل الجبهات خلال شهر ت 2 . كان الحلفاء قد استولوا علي كل الأقطار الموجودة بين جتالجه والأدرياتيك . وقلاع أدرنة ، يانيا واشكودرا . بعض القوات السيّارة فقط ، هي التي كانت تقاوم . كان الجيش التركي قد انسحب أساساً إلي خط جتالجه . استولي اليونانيون علي Nikarya (17 ت2) ، ميديلي (21 ت2) ، ساقيز (3 ك 1) وجزر بحر إيجه الأخري المتاخمة لآسيا (الأناضول) : كانت الخيانة قد سرت إلى الأسطول كذلك . التحم الأسطول العثماني مع الأسطول اليوناني ، لكن لم يستطع أحدهما أن ينتصر علي الآخر .

حاصر البلغار ، خط جتالجه (4 شباط و 10 – 30 آذار 1913) . لكنهم لم يستطيعوا اجتيازه . تكبد الطرفان خسائر جسيمة . سبب مرض التيفوس الذي ظهر في الجيش العثماني ، خسائر جمه . قاومت أدرنه 5 أشهر 5 أيام . لم يبق ما يؤكل حتى أنهم أكلوا قشور الأشجار . كان العتاد وافراً . استسلمت القلعة من الجوع (26 / 3 / 1913) . صافح الملك فرديناند ، يد شكري باشا وأعاد له سيفه ، هنأه وأطلق سراحه . دخل الجنود البلغاريون جامع سليميه وخربوه . استسلمت كذلك قلعة يانيا عاصمة Epir في الغرب وهي مركز إيالة ، كأدرنه إلى اليونانيين (6 / 3 / 1913) . كان اللواء الشاب حسن رضا باشا ، يدافع عن اشكودرا أمام القره داغيين الصرب . استشهد حسن رضا باشا بطلقة مسدس أطلقت علي ظهره بإيعاز من نائب Drac أسعد طوبتاني أحد أعضاء الهيئة المكونة من 4 أشخاص الذين أبلغوا السلطان حميد بخلعه ، بعد أن تناولا طعام العشاء معًا . وضع طوبتاي يده على اشكودرا وسلمها بيده إلي القرة داغيين (22 نيسان) الذين كانوا شعباً بلقانياً صغيراً يحمل عداءً وحشياً للمسلمين . استسلمت كذلك في 25 مارت ، فرقة جاويد باشا للصربيين . اليونانيون الذين دخلوا Ergeri في 14 آذار لم يتمكنوا من التقدم كثيرًا في جنوب ألبانيا ، لكنهم احتلوا منطقة آهلة بالسكان الألبانيين في شمال Epir التي لا زالت لدي اليونان . كانت اشكودرا ، أمل القره داغيين ، وكان أمير قره داغ نيقولا الذي أعلن نفسه ملكاً بعد الحرب ، أباً لزوجة ملك إيطاليا . كانت إيطاليا ، حامية لقره داغ ، كروسيا . لكن

الدول العظمى خيبت أمل قره داغ وأعطت اشكودرا إلى ألبانيا في 14 آيار .

6 – اقتحام الباب العالي (23 / 1 / 1913) :

اعترض في بداية حرب البلقان ، قبرصلي كامل باشا وشيخ الإسلام جمال الدين أفندي عضوا وزارة أحمد مختار باشا المشهورة في التاريخ باسم « بيوك كابينه » (الوزارة الكبيرة) سميت بذلك لاشتمالها على 3 من الصدور العظام السابقين كنظار ، وإن كانت صغيرة في إنجازاتها ؛ على إجراءات الاتحاد والترقي الاعتباطية ، غير القانونية . وعندماخسرت الحكومة القاصرة الحرب ، ألف الوزارة الجديدة ، كامل باشا الكبير السن . كانت تركية قد خسرت الحرب ، وكان يجب أن تنهي بالطرق الدبلوماسية بأقل خسارة ممكنة . نقل السلطان حميد ، من سلانيك إلي سراي بكلر بك ، قبل 8 أيام فقط من سقوطها . عبد الحميد الثاني الذي كان لقبه « خاقان سابق » و « خاقان مخلوع » ، دعا عليهم ، وهو يركب السفينة من سلانيك بهذه الكلمات : « ليقهر الله باسمه القهار ، الذين سببوا هذه الأحوال ، لقد دمروا الدولة » .

ضاق الاتحاد والترقي ذرعاً من وضع ناظر الداخلية أحمد رشيد (ري) بك الصلب تجاه سوء تصرفاتهم ومؤامراتهم . كامل باشا . كان كذلك من معارضي الاتحاد والترقي . ويقال إن السلطان رشاد فكر في جعل رشيد بك صدراً أعظم وإبعاد الاتحاد والترقي . لكنه كان يخاف كثيراً من الاتحاديين . كان يخشي من إذلاله بعد خلعه . لم يغرب هذا الخوف عن بال جميع السلاطين المتأخرين . لم يكن ذلك خوفاً علي حياتهم ، بل خوفاً علي شرفهم من الإذلال . أما ناظم باشا وكيل القائد العام وناظر الحربية في الوزارة ، فكان رئيساً لزمرة الضباط الذين سموا أنفسهم « خلاصكار ضابطان » (ضباط التحرير) . لكنه في نفس الوقت ، كان يرغب في التفاهم مع الاتحاديين ويلعب علي الحبلين ، كان يناقش ناظر الداخلية رشيد بك في كل اجتماع وزاري . التقي ناظم باشا في قصر الاتحادي الأمير سعيد حليم باشا المطل علي البحر في ينيكوي والذي هو بمثابة شبه سراي ، مع رئيس الزمرة الاتحادية المقدم الركن أنور بك البالغة سنه 31 عاماً والعقيد الركن جمال بك البالغة سنه 41 عاماً ، بصورة سرية . أقسم هذان الضابطان أمام قائدهما ، ناظر الحربية علي عدم اشتغالهما بالأمور السياسية . وعلي أثر ذلك ، كلف

كلاً منهما بوظائف عسكرية . كانت حرب البلقان مستمرة وفي أقسى حالاتها . كان كامل باشا في سن 81 عاماً ورجل دولة ذا تجربة واسعة . لم يصدق القسم الذي صدّقه ناظم باشا ، أراد إخراج ناظم باشا من وزارته ، لم يوفق . كان الاتحاديون قد غشوا الشعب بالدعاية الكاذبة بأن كامل باشا قد اتفق مع البلغار حول تسليمهم أدرنه .

كان صباح يوم 23 ك 2 / 1913 ، أتعس يوم شتاء بالنسة لتاريخ استانبول . اقتحم الباب العالي أي دائرة الصدارة (رئاسة الوزارة) المقدم أنور بك مع الحركيين الذين جمعهم من هنا وهناك ، الذين نجوا من الإعدام والإجلاس علي الأوتاد والذين يتزايدون زمراً زمراً ، البالغ عددهم 200 . كان العقيد جمال بك ، قد أبعد فصيلة حرس الباب العالي ، قبل ليلة واحدة . العصابة المكونة من ذوي السوابق ، قتلت 8 جنود وضابطين ودخلت الباب العالي . التقي الفريق الأول ناظم باشا الذي خرج على أثر ذلك من الاجتماع الوزاري ، مع أنور في السلالم ، وقال:« ألم تكن أنت الذي أقسمت أمامي بشرفك الشخصي والعسكري على ألا تتدخل في السياسة ، أنذال ، غششتموني » . استشهد فوراً برصاصة مسدس . جاء طلعت بك وأنور بك إلى كامل باشا وأجبراه على تحرير كتاب الاستقالة . نصب طلعت نفسه ناظراً للداخلية وبعث أمراً برقياً بذلك إلى كل الولايات . ذهب أنور إلى السراي وأرغم السلطان رشاد على إصدار الإرادة بتعيين محمود شوكت باشا صدراً أعظم ووزيراً للداخلية . أرسل إلي الجبهة ، كوكيل للقائد العام ، رئيس أركان الجيش الفريق الأول (المشير) أحمد عزت باشا الذي صار بعد ذلك صدراً أعظم . تم اعتقال كل من كامل باشا وجمال الدين أفندي ورشيد بك وناظر المالية وأخرجوا إلى خارج الأراضي العثمانية . مئات من المعارضين اعتقلوا ونفوا أو سجنوا .

عوملت الدولة العثمانية ، بعد حادث اقتحام الباب العالي ، من قبل موظفي هذه الدولة ، بالمعاملة التي تعامل بها جمهوريات الموز والكاكاو . آلّف محمود شوكت باشا وزارة أكثريتها من الاتحاديين ، بدعوى أنها وزارة محايدة ..

7 – معاهدة لندن (30 / 5 / 1913) :

إن معاهدة لندن (30 / 5 / 1913) التي أنهت الحرب البلقانية ، هي إحدى أقسى

المعاهدات التي وقع عليها الأتراك طوال التاريخ . حتي إدارته تركت في هذه المعاهدة إلي بلغاريا . ولكن مدينة العرش الثانية للدولة العثمانية ، استعيدت في الحرب البلقاينية الثانية التـي نشبت بعد قليل .

كانت الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب ، وبضمنها الدول التابعة لها 239 213 7 كم2 و 000 189 55 نسمة (ليبيا التي فقدت قبل فترة ، ليست ضمن هذا التعداد) وتعداد تركية نفسها ، عدا الدول التابعة والمستقلة استقلالاً ذاتياً ، 000 019 38 .

وكان وضع الدول البلقانية كم 345 96 BWSAJ»A : »W» 2A كم2 000 338 4 نسمة ، اليونان 859 64 كم2 000 041 3 نسمة ، صربياً 427 45 كم2 000 000 3 نسمة ، قره داغ 427 9 كم2 000 274 نسمة ، المجموع 058 216 كم2 و 000 854 10 نسمة . أما أراضي تركية الأوروبية ـ عدا كريت ـ فكانت 000 176 كم2 000 828 7 نسمة .

حصلت دول البلقان في الحرب من تركيا علي ما يلي : بلغاريا 257 25 كم2 000 984 نسمة ، اليونان 919 55 كم2 000 859 1 نسمة ، صربياً 783 41 كم2 000 942 1 نسمة ، قره داغ 590 5 كم2 000 161 نسمة . عدا ذلك ، انفصلت عن تركية ، ألبانيا ومساحتها 734 25 كم2 ونفوسها 000 800 نسمة .

وضع البلقان بعد الحرب : بلغاريا 602 121 كم2 000 322 5 نسمة ، اليونان 060 120 كم2 000 400 4 نسمة ، صربياً 300 87 كم2 000 942 4 نسمة ، قره داغ 017 15 كم2 000 435 نسمة .

فقد ، في نهاية الحرب التي دامت 7 أشهر و 22 يوماً حتي معاهدة لندن ، روملي الوطن التركي منذ 550 عاماً . تقلصت جغرافية العالم الإسلامي . كانت الإمبراطورية قد فقدت أحد جناحيها ، نصف روملي في كارثة 93 . وانفصل النصف الآخر في حرب البلقان . انحسرت حدود تركية من البحر الأدرياتيكي إلي مريج . مئات الألوف من الأتراك تركوا أوطانهم وهاجروا إلي الأناضول . وعشرات الألوف منهم ذبحهم البلغار في مذابح جماعية . القتل العام للأتراك الذي حدث خلال 1912 ـ 1913 ـ الذي جرى بموجب السياسة الرسمية للدولة البلغارية ـــ هو من أكبر عمليات الإفناء العرقي التي شهدها العصر 20 . لم يستثن النساء والأطفال . ضاعت الثروات ،

حصيلة العصور ، التي تعادل مليارات الليرات الذهبية . أضحت تركيا دولة ضائعة تماماً .

إن الأرقام المدرجة أعلاه ، تبين الوضع بعد الحرب البلقانية الثانية وتبين النتيجة القطعية للحرب . وفي الحقيقة ، كانت بلغاريا قد حصلت علي أرباح أكثر بكثير ، في الحرب الأولي وفي معاهدة لندن .

لم تف الدول العظمى التي حرضت ألبانيا تجاه العثمانية بوعودها . صيروا ألبانيا صغيرة جداً وبقي نصف الألبانيين في صربيا ومايزال الوضع كذلك حالياً .

انتخب الألبانيون وبموافقة الدول العظمي ، بهاء الدين أفندي الابن الأوسط للسلطان عبد الحميد الثاني ليكون ملكاً على الدولة الألبانية المستقلة . لم يوافق الشهزاده (الأمير) على ذلك مشيراً إلي أنه يرفض ذلك لعدم رغبته في التنازل عن حقه في العرش العثماني . وعلي أثر ذلك ، أرسلت الدول العظمي ، أحد أمراء الألمان الصغار إلى البلاد ليكون أميراً على ألبانيا ، فكانت النتيجة . تعيين حاكم مسيحي على قطر 70 ٪ من سكانه مسلمون ، وإضافة إلى ذلك ، لم تصبح ملكية وسمى أميرها « أمير ألبانيا » . أسست ألبانيا – التي حالياً على نفس حدودها السابقة – بضم لواءين من إيالة اشكودرا (التي تشكل كامل الإيالة) ، 3 ألوية من إيالة يانيا ، لواءين من إيالة مناسطر ، جمعاً من 7 ألويّة (صنجق) عثمانية . بقي في إيالة يانيا التي أعطيت لليونان سكان ألبانيون .

حصلت اليونان على إيالة سلانيك أي مكدونيا الجنوبية ، إيالة ينيا أي أبير ، عدا قسم صغير في الشمال أعطي إلى ألبانيا ، إيالة « جزائر بحر سفيد » أي جزر بحر إيجه المتاخمة لآسيا الصغرى وإيالة كريت .

أخذت بلغاريا اللواءين العثمانيين اللذين يشكلان تراقيا الغربية وعدة أقضية من مكدونيا وقضاء قيرجة علي ونفذت إلى البحر .

أخذت صربياً إيالتي كوسوفا (اسكب) ومناسطر أي مكدونيا الشمالية ولواء يني بازار وأصبحت حدودها ملاصقة لقره داغ ولم يبق لها حدود مع العثمانية .

فقدت العثمانية أراضي تبلغ مجموع مساحتها 312 167 كم² ونفوساً يبلغ عددهم

6 582 000 نسمة . أي أنها فقدت بالنسبة للتشكيلات الإدارية آنذاك ، 33 لواء يشتمل على 158 قضاء . إن هذه الألوية كانت تشكل 7 إيالات (سلانيك ، مناسطر ، كوسوفا = اسكب ، اشكودرا ، يانيا ، جزر البحر الأبيض ، كريت) وعدا ذلك ، لواءان من ألوية إيالة أدرنة التي تشكل تراقيا الغربية ، جزيرة سيسام ، كما كان من ضمن المفقودات شريط واقع في شمال تراقيا الشرقية .

8 – اغتيال محمود شوكت باشا (11 / 6 / 1913) :

أخذت الإدارة العرفية في محاصرة المعارضة . خمدت المعارضة وأصبحت سرية . عطل الاتحاديون الدستور وألقوا به في الدرج ، كما فعل ذلك السلطان حميد سابقاً ، كان يعلن فقط ، في النشرات السنوية الرسمية للدولة . اقترف محمود شوكت باشا ، منذ 1908 أخطاء وجرائم سياسية ، عسكرية وإنسانية كبيرة . والآن بعد أن نضج ، وأدرك بعض المفاهيم ، أخذ يسعى دون فتور لإنقاذ الإمبراطورية التي أخذت تتداعي أطرافها . ورغم أن جده من قفقاسيا الشمالية ، كان يتكلم العربية مع النواب والأشراف العرب ويقول : إنه عربي ويولي أهمية للتعاون معهم ، فالإمبراطورية بعد فقدان روملي ، أصبحت عبارة عن أتراك الغرب وعرب الشرق ، وظهور خلاف بين العرب ، من شأنه أن يقضي على الامبراطورية بشكل تام . اقتربت إنكلترا نحو خليج البصرة وأخذت تطالب العثمانية بالأقطار كالكويت ، قطر ، حضرموت . جاء الاتحاديون بشوكت باشا لمقام الصدارة ، رغم أنه لم يكن اتحادياً بصورة رسمية ، بسبب عدم وجود شخصية لديهم تليق بشغل مقام الصدارة . لم تكن علاقة محمود شوكت باشا مع البادشاه على ما يرام . تورط الباشا بالأمر الذي أصدره والذي لا مثيل له في أية دولة ، حول كتم أسرار الدولة عن البادشاه ، وزاد في ورطته ، تحكم الحزب . بدأ في تحقيرهم بشكل علني . خطط الاتحاد والترقي لإسقاط شوكت باشا بطريقة مناسبة . أخبر محافظ استانبول جمال بك ، أن المعارضة ترتب عملية لاغتيال الصدر الأعظم ، لكنه لم يخبر الصدر الأعظم الذي يرتبط به ، بذلك . رئي أن التخلص من الصدر الأعظم ، وفي الوقت نفسه اتهام المعارضة باغتياله وملاحقتهم ، سوف يلائم سياسة الحزب .

إن إطالة مدة الحرب 4 أشهر أخرى بعملية اقتحام الباب العالي ، في الوقت الذي

كان ينتظر فيه أن يحقق كامل باشا الصلح ؛ وسقوط يانيا واشكودرا وادرنة خلال هذه المدة ، وضيق سبل المساومة بالنسبة للباب العالي ، وبخاصة ترك مدينة كأدرنة إلي البلغار في معاهدة لندن ، ولدت النفور لدي الجميع . رتبت المؤامرة بادعاء عدم إعطاء أدرنة . تركت أدرنة في معاهدة لندن . كان التخطيط أن يتدخل قائد الجيش الموجود في أدرنة أحمد وأبوك باشا ، بعد عملية الاغتيال ، لكن أحمد باشا لم يجد في نفسه الشجاعة للقدوم إلى استانبول واحتلالها بعد الاغتيال . صار الاغتيال في صالح الاتحاد والترقي فقط . تطهيرهم زمرة « خلاصكار ضابطان » ومعارضيهم السياسيين ، وبقاء السلطة لهم وحدهم وبشكل مطلق . ومع هذا فمن الوارد وجود إنكلترا كذلك وراء مؤامرة اغتيال محمود شوكت باشا . أدركت انكلترا أن محمود شوكت باشا ، قد يتمكن من لم شعث الامبراطورية ، وأيقنت بأنها لن تتمكن من الحصول علي تعويض كاف لأطماعها في البلاد العربية ، من الصدر الأعظم ، وأعرضت عن الاتحاديين الذين تسميهم جون تركلر (الشباب الأتراك) . كانت إنكلترا تريد أن تجعل مؤيدها الأمير صباح الدين من العائلة المالكة ، صدراً أعظم .

في صباح 11 حزيران 1913 ، خرج محمود شوكت من نظارة الحربية (بيازيد) التي اعتاد أن ينام الليل فيها ، كان ذاهباً إلى الباب العالي . وعلى أثر مرور سيارته الرسمية من طريق ديوان يولي ، تعرض لهجوم 8 متآمرين . مات بعد إصابته بخمس طلقات . دفن في اليوم التالي مع مرافقه الذي قتل ، في القبر التذكاري الواقع في قمة « حريت أبدية » . وهكذا انسحب من المسرح رجل الدولة الذي يحتمل أنه كان الرجل الوحيد الذي يستطيع صيانة الدولة من كارثة الحرب العالمية والقضاء على مغامرات الاتحاديين . ولو بقي في السلطة ، لما تمكنت فلول الأعداء من القدوم أمام أنقرة . وكان هو كذلك ، الرجل الذي يستطيع تسيير علاقات الدولة مع العرب على أحسن حال ، وحمايتهم من الوقوع في أحضان إنكلترا وفرنسا .

أعدم الاتحاديون 29 شخصاً . ونفوا الكثيرين . أحالوا إلى التقاعد العديد من الضباط وموظفي الدولة ذوي التجربة . لم يبق شيء اسمه معارضة ، سيطر الاتحاد والترقي كذلك على المجالس وجعلوا منها حديقة ورد بلا أشواك .

أهم الذين أعدموا ، اللواء داماد صالح باشا وهو ابن الصدر الأعظم تونسلي خير الدين باشا . كان عسكرياً شاباً و لم يكن له ذنب بين . زوجته السلطانة منيرة ، خر عمه على قدم السلطان . أفاد السفير الفرنسي بأن إعدام الباشا سوف يضعضع مكانة الخليفة في تونس . لكن السلطان رشاد لم يستمع إلى هؤلاء ،واستمع إلى الرئيس العام للاتحاد والترقي طلعت بك ، الذي يهدده ويريد تأكيد إمكان إعدام أي شخص حتي لو كان منسوباً إلي العائلة المالكة ، صدق السلطان علي الإعدام . لم تقابل السلطانة منيرة بعد ذلك عمها حتي وفاته . أخرج الاتحاد والترقي جميع الضباط والموظفين فور الشك في إخلاصهم للحزب . كان من الواضح جداً بعد الآن ، أن كل هذا اقتبس عن الثورة الفرنسية الكبري .

أجبر الاتحاديون ، السلطان رشاد على تعيين الأمير سعيد حليم باشا للصدارة مع احتفاظه بوزارة الخارجية . لم يكن السلطان رشاد كذلك يميل إلي هذا الملياردير (صاحب المليارات) من عائلة قاوالالي ، كما كان السلطان حميد . إلا أن سعيد حليم باشا ، صار صدر أعظم مراسم . كانت السلطة بكاملها ، في الحقيقة في يد ناظر الداخلية طلعت بك . أعطيت لأنور بك ، رجل الحزب الثاني ، صلاحية مطلقة على الجيش ، وأعطي لجمال بك ، الشخص الثالث ، الأسطول أولاً ، وعندما لم يكتف بذلك ، أعطيت له صلاحيات إدارية مطلقة على كل الإيالات العربية في الامبراطورية . كان خليل منتشه بك ، هو الرجل الرابع للحزب . كلف هو كذلك بعد مدة بوزارة الخارجية . نبذ الرئيس العام السابق للحزب ، أحمد رضا بك ، وأخرج من رئاسة المجلس . صار خليل منتشه رئيساً للمجلس . أسست دكتاتورية كاملة تحت شعار المشروطية (الديمقراطية ذات التاج) . جيء بضياء كوكالب Ziya Gokalp إلى السكرتارية العامة للحزب وأخذ في تكوين الأسس الفكرية والفلسفية للدولة الموجودة في مخيلة الحزب وإخراجها إلي حيز الوجود . كلف بالأمور الثقافية والتعليمية .

9 ـ نشوب الحرب البلقانية الثانية (29 / 6 / 1913) :

نشبت الحرب البلقانية الثانية ، بعد 18 يوماً من مقتل محمود شوكت باشا . سبب الحرب هو : جشع وطمع بلغاريا التي أرادت سلب مكدونيا الشمالية من صربيا

ومكدونيا الجنوبية من اليونان ، وطلب رومانيا (التي أخذت تصرح بأن الميزان الدولي في البلقان قد اختل في غير صالحها) التعويض . كانت رومانيا تطلب شريطاً متواضعاً في دوبروجه . بلغاريا التي لم توافق علي ذلك ، كانت قد خططت لشن حرب خاطفة علي صربيا واليونان ، وبعد أن تستولي منهما على مكدونيا ، ستعود للتحاسب مع رومانيا . أغارت على جيوش حلفائها دون إعلان الحرب . لكنها تركت الشمال مفتوحاً . بدأ الرومان التقدم نحو صوفيا . أعلنت قره داغ كذلك الحرب على بلغاريا . استعادت تركيا أدرنة واحتلت تراقيا الغربية . لم تتعرض هنا لمقاومة بلغارية . بلغاريا التي أصبحت تجاه 5 دول ، تضعضعت أمام هجوم رومانيا في 10 تموز وتركيا في 18 تموز . أمر المقدم الركن أنور بك بعدم دخول المدينة قبل أن يدخلها هو ، دخل المدينة دون أن يطلق رصاصة واحدة (21 / 7 / 1913) . استمر حكم العثمانية في تراقيا الغربية ، الوطن التركي ، مدة شهرين . أخلت تركية تراقيا الغربية بناء علي ضغط الدول العظمي وأعطتها إلى بلغاريا . بقيت أدرنة ، التي شهدت احتلالاً بلغارياً مفجعاً مدة 3 أشهر و 26 يوماً ، في حوزة تركية . ترك قضاء Dimetoka كذلك إلى تركيا . سوف يعطي هدية إلى بلغاريا في 1915 لقاء اشتراكها في الحرب العالمية بصفة حليف . أما تراقيا الغربية فقد أخذت من بلغاريا وأعطيت إلى اليونان في نهاية عام 1918 . وهكذا خرجت بلغاريا من الحرب البلقانية التي تزعمتها ، دون أن تحصل على شيء تقريباً . واتخمت فقط بطون جاراتها عدواتها .

انتهت حرب البلقان الثانية بعد 42 يوماً بمعاهدة بخارست (10 / 8 / 1913) . أعطت بلغاريا دوبروجه الجنوبية (سيليستره) إلى رومانيا (حالياً لدى بلغاريا أيضاً) . تحقق الصلح النهائي بمعاهدات استانبول (29 / 9 / 1913) بين تركيا ــ بلغاريا ، وبمعاهدة أثينا (14 / 11 / 1913) بين تركية ــ اليونان ، وبمعاهدة استانبول (14 / 3 / 1914) بين تركيا ــ صربيا . لم توافق تركيا أبداً على ترك جزر بحر إيجه ميدلي ،يمني ، سيسام ، نيكاريا والجزر الصغيرة الأخرى ، إلي اليونان . وترك هذا الأمر لتحكيم الدول للعظمى . تركت الدول العظمى ، بوزجه آدا ، ايمروز ومثيس إلى العثمانية ، وبقية الجزر جميعًا ، إلي اليونان (16 / 12/ 1913) . ولّد هذا القرار غير العادل الذي يحاصر تركيا ويهددها ، النفور الشديد لدي العثمانية وهو القرار الجائر والسقيم الذي أعد الجو الملائم للدخول في الحرب العالمية الأولي . وإضافة إلي ذلك ، لم تخل إيطاليا رودس والجزر الاثنتي عشرة وتعيدها إلي تركية ، عند نشوب حرب البلقان ، خوفاً من

احتلالها من قبل اليونان . ثم تمادت في تأخيرها لهذه الإعادة ، نشبت الحرب العالمية الأولى ، بقيت الجزر لدى إيطاليا . أرادت ألمانيا عام 1945 إعطاء رودس والجزر الاثنتى عشرة إلى تركيا . رفضت تركيا ذلك . انتقلت الجزز إلى اليونان ، تمت حركة محاصرة اليونان للأناضول من الغرب . إن جميع هذه الجزر من ليمني إلى رودس ، سواء في المعاهدات والبروتوكولات التي أنهت حرب البلقان ، أو في معاهدة لوزان النهائية ، أعطيت إلى اليونان بالشرط الصريح الذي ينص على عدم إبقاء جنود بها وعدم احتلالها عسكرياً . تغاضت أنقرة بعد ذلك عن حكم اليونان - حليفتها في الناتو - لهذه الجزر .

10 - نحو الحرب العالمية الأولى (1914) :

انتقلت الإمبراطورية العثمانية لإدارة ثلاثي طلعت - أنور - جمال المطلقة . طلعت بك ، الرئيس العام لحزب الاتحاد والترقي ، وناظر الداخلية والرئيس المطلق لإدارة حكومة الإمبراطورية . كان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ألعوبة بيده . كانت نظارة الخارجية في عهدة سعيد باشا ، وكان يسير وفق تعليمات الثلاثي . أصبح جمال لفترة ، ناظراً للإعمار ، ثم ناظراً للبحرية ، وكان الثالث في التسلسل من حيث النفوذ . كان يفوق زميليه الآخرين من ناحية السن ، والتجربة والثقافة .

أعطي الجيش كاملاً لسيطرة المقدم أنور بك المطلقة . مقدم ركن ، لم يقم حتى بقيادة كتيبة على رأس جيش إمبراطورية ... شيء يصعب تصديقه ، لكنه حدث فعلاً . رفعت رتبة أنور بك إلى لواء دون أن يصبح عقيداً وصار ناظراً للحربية (3 / 1 / 1914) . كان في سن 5 . 32 عام . تزوج ناجية ، ابنة الشهزادة سليمان أفندي وحصل على لقب « داماد » (صهر) . كان تأثير هذه المرأة الجميلة ، الحديثة السن جداً ، الحريصة ، الولوعة بالسياسة والسلطانة التي هي ابنة أخ السلطان رشاد ؛ على أنور باشا كبيراً ومعروفاً . ويقال : إن هذا التأثير كان حسناً في بعض الأحيان كما أدي في بعض الأحيان كذلك إلى كبح جماحه ووقفه وإيقافه عند حده . رزق أنور من زيجته هذه بـ 3 أولاد . أنور باشا ، مسلم مؤمن ومتدين جداً ، قومي متحمس للعرق التركي ، جسور ، جريء لكنه megalo – manyak (مجنون كبير) . لا يستشعر المسئولية ،

متبلد ، مغامر ، كان عديم الاحترام للمشروطية (الديمقراطية) . أحال إلى التقاعد أكثرية الضباط الذين يفوقونه رتبة والذين ضحى السلطان عبد الحميد بالكثير في سبيل تدريبهم وإرسالهم إلى أوروبا للتدريب . أخذت علاقته تسوء مع ثالث أعضاء الثلاثي ، الأقدم منه بكثير والذي يميز عن الباشوات الآخرين في عهده من بين الذين يحملون اسم جمال بلقب « الكبير » « الملتحي » ، ولكن سوء العلاقة لم يصل إلى درجة العراك . وعند نشوب الحرب العللية ، أدرك جمال باشا ، عدم إمكانه العمل في استانبول مع أنور . عين والي الشام . كان تعييناً غريبًا . صار قائداً على الجيش الهمايوني الرابع مع احتفاظه بنظارة البحرية . أعطيت سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، الحجاز لإدارة جمال باشا بصلاحيات استثنائية .

كان جمال باشا ، Francophile (محبًا لفرنسا) ، يختلف عن طلعت وأنور من حيث كونه ميالاً للسياسة الخارجية الفرنسية . ولو أمكنه التفاهم مع فرنسا وعن طريقها ، مع إنكلترا ، لكان باستطاعته منع الاشتراك في الحرب العالمية بجانب ألمانيا . إلّا أن لندن وباريس ، لم تقتربا لمثل هذا الاتفاق وتركتا جزر الأناضول لليونان ووضعت إنكلترا يدها ، فور نشوب الحرب على بارجين عثمانيتين من الوزن الثقيل تم إنشاؤهما في مصانع السفن الانكليزية وسدد ثمنهما مقدماً ، مما تسبب في دفع جمال إلى جانب ألمانيا .

كان أنور ، ملحقاً عسكرياً في برلين لفترة من الزمن . أظهر القيصر ولهلم الثاني الذي يشهد المراقبون المعاصرون الأجانب أنه قد تملق في حينه بشكل سافر السلطان عبد الحميد ، عطفاً شديداً وإكراماً لهذا الرائد (بكباشي) الشاب . اغتر أنور الحريص جداً . بالنسبة لأنور ، فإنه كان يرى أنه ليس هنالك على وجه الأرض قوة بإمكانها أن تتغلب على الجيش الألماني . آمن بذلك بكل قلبه . وعلى مر الزمن ، نقل إحساسه هذا المؤيد للجرمانية إلى طلعت الذي تأثر به .

طلعت ، قومي متحمس للقومية التركية ، شعوره لديني غير كاف ، ذكي ، مكار كالثعلب ، مخاتل ، حركي لا يهاب أحداً ، جاهل من حيث العلم . كل عالمه ، كان الاتحاد والترقي ، كان عديم الرحمة تجاه غير الاتحاديين لم يتعرض الثلاثي كثيراً للشعراء والكتاب ذوي الشهرة العظيمة للعارضين للاتحاد ، لم يكن هؤلاء ذوي أهمية كموظفي دولة .

إلا أنه لم تمنح الحرية للصحافة المعارضة . الرقابة على الصحافة ، التي أخذت تشدد علي مر الزمن ، وصلت إلى درجة تهون معها رقابة السلطان حميد . كانت معاملة الاتحاد والترقي شديدة تجاه معارضيها في القطاعات المدنية والعسكرية والعلمية ، عدا المثقفين ذوي الشهرة .

يجب الإشارة هنا ، إلى أن الحزب ، عند إدراكه عام 1914 ، كان قد اكتسب تجربة لا بأس بها وأظهر عزمه على تبديل تشكيلات الزمرة ، إلى تشكيلات حزب طبيعي . أخذت الاتهامات ضد السلطان عبد الحميد ـــ الذي كان يسمي « خاقان سابق » والذي كان على قيد الحياة ـــ تقل ، وفي النهاية ، منعت الكتابة ضد السلطان السابق . حيث أصبح دهاء الخاقان ، وخاصة في السياسة الخارجية ، يزداد شهرة سنة بعد أخري . بدأ كل من أنور بك وطلعت بك في الذهاب إلى سراي بكلر بك والحصول علي توصيات من الخاقان السابق . لكن المعروف عن السلطان عبد الحميد ، أنه خاطب طلعت بقسوة وطرده من حضوره . أخذت كتلة الشعب التي تذكر بتحّسر دور السلطان حميد في الازدياد . لم يكن في عهده عائلات تقدم شهداء ، ولا مهاجرون طردوا من أراضيهم التي كانوا يسكنونها طوال عصور ، ولا فاقة ، ولا مجاعة . كان هنالك خفية (شرطة سرية) ، التقارير ، الرقابة ، النفي . إن هذه الحريات على محدوديتها ، لم تكن موجودة الآن ، وعلاوة علي ذلك ، فهناك الفاقة المادية ومنصة الإعدام والحرب .

كان الاتحاد والترقي ، قد تسلم الحكم معلناً شعار « اتحاد أنصار » أفلس هذا الشعار . دفع هذا الوضع الحزب إلى الحركة القومية التركية والطورانية . تركت الفلسفة العثمانية القومية ـ الدينية التي كان يسير علي نهجها ضياء ـ كال والتي كانت سائدة في عهد السلطان عبد الحميد كذلك ، وطبقت الفلسفة القومية الطورانية . ما دام ليس هنالك للتركي حق حياة في أوروبا ، فإنه سوف يبحث عن حقه هذا في مواطن الأتراك في آسيا . أسست علاقات متينة مع الأتراك في الخارج . كان السلطان حميد كذلك ، قد أسس هذه العلاقات بذكاء فائق ؛ كان يهتم بالمسلم الجاوي والنيجيري ، كاهتمامه بالتركي التركستاني أو أنه كان على الأقل يظهر ذلك . كان يأمل أن يؤمّن الوحدة بين المسلمين

في الخارج تحت ظل لقب الخلافة . يفهم من ذلك أن السلطان حميد ، كان يعلم ضرورة أن تقف العثمانية علي قدميها ، إلي أن يحل الموعد الذي قدره لتدهور الامبريالية من قمتها . أما الاتحاديون ، فبدأوا بمحاسبة سبب الوجود الروسي في الأقطار التركية . الحقيقة أنهم أقاموا الشعب التركي على قلميه بهياج . لكنهم ألقوا ببذور الشعور بالشك والتردد ، حتي بين الأقوام الإسلامية الأخرى .

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها ، تجهيز أنور باشا ، الجيش العثماني بصورة فائقة ، خلال مدة قصيرة جداً وبجهود جبارة . تمكن من تأسيس قوة برية ، ذات طاقة حربية عالية جداً يخشي جانبها وأزال آثار هزيمة حرب البلقان . لكن ما الفائدة ؟ فهذا الجيش العظيم ، بدلاً من أن يكون حارساً ومحافظاً علي مصالح العثمانية ، أتلف في جناقلعة وصاري قامش ، فور مرور سنة واحدة . اعتمد في إصلاح الجيش علي ألمانيا ، وبذلك زاد توتر العلاقات - التي لم تكن أصلاً جيدة - مع إنجلترا - فرنسا - روسيا . ألغى الباب العالي الامتيازات الممنوحة للدول الأوروبية المسماة « Capitulations » (9 / 9 / 1914) بعد 14 عامًا من إلغاء اليابان لها (1900) . كانت الدول الأوروبية قد دخلت الحرب ، فلم تتمكن من الاعتراض . لو كانت العثمانية قد تمكنت من تفويت سني الحرب وهي محافظة - علي حيادها ، لما أمكن للدول الأوروبية أن تعترض علي أي عمل تجريه من هذا القبيل . ولما أمكن الطرف المنتصر أن ينتقم من العثمانية . فقد عجزت إنكلترا عن إرسال فرقة واحدة لنجدة اليونانيين الذين أنزلوا جيشهم في الأناضول وفي إمبراطورية عثمانية منهارة . أما حلفاؤها ، فلم يخطر علي بالهم شيء من هذا القبيل . ولو لم تشترك في الحرب ، لما أمكن في نهاية عام 1918 أية دولة أن تعترض علي العثمانية ذات الجيش الفتي للهيب ، وغير المضعضع . لقد فاتت الإفادة من هذه الفرصة الكبيرة .

كان تسلسل الدول العظمى ، من ناحية أهميتها ، عند بدء الحرب العالمية الأولى في نهاية عام 1914 كما يلي ، إنكلترا ، ألمانيا ، الولايات الأمريكية المتحدة ، فرنسا ، اليابان ، النمسا - المجر ، إيطاليا ، تركيا ، الصين . تغير عدد النفوس خلال 1900 -

1914 ، في انكلترا - بضمنها المستعمرات والدول التابعة لها - من 382 مليونا إلي 461 ، مليونا . ألمانيا من 66 مليونا إلي 79 ، أمريكا من 86 مليونا إلي 111 ، فرنسا من 76 إلي 84 ، روسيا من 133 إلي 181 ، اليابان من 56 إلي 78 ، النمسا من 45 إلي 52 ، إيطاليامن 33 إلي 38 ، تركيا من 57 إلي 29 ، الصين من 384 إلي 398 . مصر - السودان وقبرص ، لا تدخل ضمن الرقم الثاني 29 لتعداد نفوس تركيا ، حيث كانت إنكلترا قد احتلتها في نهاية عام 1914 وانقطعت علاقتها بالعثمانية .

نفوس العالم خلال الـ 15 عاماً هذه ، زادت من 000 000 491 1 إلي 000 000 782 1 . توزيع هذه النفوس بالنسبة للدول العظمي عام 1900 ، كما يلي : 000 000 282 / 1 منه لدي الدول العظمي و 209 ملايين منها لدي الدول الأخري.. وبعد 15 عاماً ، ارتفعت هذه الأرقام إلي 0000 000 411 1 مليون و 371 مليون .

وخلال الـ 15 سنة هذه ، ارتفع عدد المدن التي يتجاوز عدد نفوسها المليون من 17 إلي 25 ، والمدن التي عدد نفوسها يتروواح بين نصف مليون ومليون من 30 إلي 50 ، والتي عدد نفوسها يتراوح بين مائة ألف ونصف مليون من 241 إلي 377 ؛ ومجموع المدن التي يزيد عدد نفوسها علي المائة ألف ، من 288 إلي 402 .

وفي 1915 ، كان عدد المدن التي يزيد نفوسها علي مائة ألف - بضمنها جميع المستعمرات - لدي إنكلترا 90 ، الولايات الأمريكية 59 ، روسيا 39 ، ألمانيا37 ، الصين26 ، فرنسا 22 ، اليابان 16 ، إيطاليا 15 ، تركية 13 ، النمسا 11 ، أسبانيا 10 ، هولندا 10 ، البرازيل 6 ، لدي جميع بقية الدول الأخري 48 .

أكثر مدن العالم كثافة في بداية عام 1915 : لندن 3 . 7 مليون ، نيويورك 1 . 7 ، باريس 6 . 4 ، برلين 8 . 3 ، إسن الكبيرة 3 . 3 ، شيكاغو 5 . 2 ، فينا 2 . 2 ، بيتروغراد (لنينغراد ، سابقاً بطرسبورغ) 1 . 2 ، طوكيو 1 . 2 ، فيلادلفيا 2 ، بونس آيرس 8 . 1 ، غلاسكو 5 . 1 ، إستانبول 4 . 1 همبورغ 4 . 1 ، أوساكا 4 . 1 ، برمنكهام 4 . 1 ، مانجستر 4 . 1 ، ليفربول 4 . 1 ، بوستون 3 . 1 ، هانيكو 3 . 1 ، كلكوتا 3 . 1 ، ريو 1 . 1 ، بومباي مليون واحد ، شنغهاي مليون واحد .

وفي مستهل عام 1915 ، كانت نفوس مدن تركيا الكبيرة بعد إستانبول هي كما يلي : أزمير 400 ألف ، الشام 300 ، حلب 240 ، بيروت 168 ، بغداد 156 ، أرضروم 144 ، أدرنة 135 ، أفيون 114 ، مانيسا 108 ، القدس 101 ، بورصه 100 ، الموصل 100 . وكانت نفوس 23 مدينة تتراوح بين 50 و 100 ألف نسمة .

وقبيل الحرب العالمية ، كانت قدرة ألمانيا قريبة جدًا من قدرة إنكلترا وهذا أحد أسباب الحرب . كانت القوة البرية الألمانية ، القوة الأولى في العالم دون نقاش) وقوتها تفوق مجموع القوتين البريتين للدولتين العظميين اللتين تأتيان بعدها . كانت الصناعة الألمانية ، قد بدأت تفوق بقليل الصناعة الإنكليزية . أما الولايات الأمريكية فكانت قد فاقت إنكلترا في الصناعة وأصبحت الأولى في العالم ، لكنها لم تكن تملك جيشًا بريًا كما يجب .

فرنسا ، كانت تملك الجيش العالمي الثاني بعد الجيش الألماني وأكبر إمبراطورية استعمارية بعد إنكلترا والرابعة في العالم في الصناعة . لكن المسافة التي بينها وبين ألمانيا ، كانت قد اتسعت في جميع المجالات بشكل خطير ، وأصبح متعذرًا تمامًا أن تحارب فرنسا ، ــ وحدها ــ ألمانيا .

روسيا استندت على رءوس الأموال الإنكليزية والفرنسية في سباق الصناعة والرأسمالية والنهضة ، وكانت تملك الجيش القوي الثالث في العالم . كان الروس كما هم اليوم ، يشكلون نصف نفوس الإمبراطورية فقط .

قامت اليابان بحملة كبيرة وأصبحت دولة صناعية ، وأسست جيشًا وأسطولاً قويًا ، وأصبحت تمتلك مستعمرة ، وبدأت بالتدخل في الصين .

النمسا – المجر ، أصبحت صناعية ، وكانت مرتبطة بسياسة برلين الخارجية أشد الارتباط ، تخشى كثيرًا من روسيا .

إيطاليا ، كانت تبحث عن أراض خالية لتقوم باستعمارها .

كانت الصين تحت ضغط الإمبريالية الغربية واليابان المخيفة . وفي 1912 ، ألغت نظامها الامبراطوري الذي يمتد عبر آلاف السنين ، وادعت أنها أصبحت جمهورية ،

أصيبت بانقسام جذري عميق في سياستها الداخلية ، علي أيدي دكتاتورين غير جديرين .

كانت انكلترا ، لا تزال الدولة الأولي في القدرة . لكن المسافة التي بينها وبين الدول الأخرى ، لم تعد شاسعة مثلما كانت عليه قبل ربع قرن . كان أسطولها لا يزال في المرتبة الأولى بصورة قطعية . الأسطول الألماني ، ارتقي إلى الدرجة الثانية ، وقد شكل هذا ــ كذلك ــ أحد أسباب الحرب العالمية .

مثل هذا التغيير الكبير الذي حصل في الـ 15 سنة الأخيرة ، كان قد حصل في الامبراطورية العثمانية . وكان تمامًا في غير صالحها . كان التغيير الكبير ، قد حدث خلال الـ 4 سنوات التي تلت 1908 . وخلال هذه المدة ، كان نصف الامبراطورية قد تبعثر . وإذ قطعت الأقطار المرتبطة بالامبراطورية ، والحائزة على الاستقلال الذاتي ، كل علاقة لها بالعثمانية ، كبلغاريا ، روملي الشرقية ، بوسنة هرسك ، كريت ، سيسام ، بعض الأماكن في البلاد العربية ؛ وألحقت إنكلترا مصر والسودان وقبرص عند دخول العثمانية الحرب في نهاية 1914 ولم تبق للعثمانية أية علاقة مع تلك الأقطار . كذلك ليبيا التي كانت تحت إدارة العثمانية المباشرة ، قد فقدت وفقدت ألبانيا ، مكدونيا ، كوسوفا ، يني بازار ، أبير ، تراقيا الغربية ، جزر بحر إيجه الشرقية) كانت الأراضي الموجودة في حوزة العثمانية في 1915 بحدودها الحالية عبارة عن تركيا ، العراق ، سورية ، لبنان ، إسرائيل ، الأردن ، اليمن والعربية السعودية . كانت قلرص وآرتفين ، خارج الحدود العثمانية . وكان النفوذ العسكري العثماني موجودًا في بعض الأماكن من البلاد العربية ، ليبيا وبعض الأقطار . الدولة التي انسحبت بشكل حاسم من الأدرياتيك إلي مريج ، كانت لا تزال محتفظة بخليج البصرة ، البحر الأحمر ، مضيق باب المندب وشرق البحر الأبيض .

كانت الدول المسيحية الكبري في أوروبا قد انقسمت قبل الحرب إلي كتلتين ، انكلترا ــ فرنسا ــ روسيا وألمانيا ــ النمسا ــ إيطاليا بالاتفاقات المتشعبة الكائنة بينها . لكن إيطاليا ، لم تدخل الحرب ، واشتركت في 1915 في الحرب ضد حليفاتها ألمانيا ــ النمسا . لكن ، لم تكن إيطاليا هي التي سببت اختلال التوازن ، بل كانت الولايات

الأمريكية التي دخلت الحرب في 1917 وسبّبت خسارة الألمان الحاسمة . ومع أن اليابان دخلت الحرب ضد ألمانيا ، فإنها اكتفت بوضع اليد على قسم من مستعمرات ألمانيا الموجودة في أوقيانيا ، و لم تشترك في الحرب بجيشها . ولأول مرة في تاريخ العالم تقابلت قوات هائلة لا يتصورها العقل . حدثت حرب خنادق بدرجة لا يتصورها العقل ، استمرت سنين طويلة . كثافة النار ، استهلاك العتاد فاق حدود الخيال . .

1 – الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) :

أوقد شرارة الحرب ، مقتل ولي عهد النمسا – المجر في بوسنة سراي على يد إرهابي صربي . أعلنت النمسا الحرب ضد صربيا .

روسيا ، التي لا تسمح بسحق صربيا وازدياد النفوذ الجرماني في البلقان ، أعلنت الحرب ضد النمسا .

أعلنت ألمانيا الحرب ضد روسيا خشية أن تسحق حليفتها النمسا .

أعلنت فرنسا الحرب ضد ألمانيا والنمسا ، ودخلت بجانب روسيا لئلا تبقى أمام ألمانيا – التي من المؤكدأنها ستنحي روسيا — وحيدة . كان الاعتقاد أن إنكلترا سوف لن تزج بنفسها فيالحربالبرية ، لكن كان من المؤكد أن ألمانيا – النمسا سوف تهزم فرنسا – روسيا . عندئذ تبقي ألمانيا وحدها أمام إنكلترا وتزاحمها في الأسطول والمستعمرات . ولهذا السبب ، اشتركت إنكلترا كذلك في الحرب . حدثت هذه الإعلانات المتتالية لدخول الحرب خلال أيام .

دخلت كل أقطار أوروبا الحرب عدا أسبانيا ، سويسرا ، هولندا ، السويد ، النرويج ، الدانمرك .

كان تعداد العالم 000 000 782 1 ؛ 000 735 170 1 منه ، تشكله الدول المشتركة في الحرب ، وذلك علي الوجه التالي : دول المحور (Coalition) المسمي الإمبراطوريات المركزية : ألمانيا 79 + النمسا 55 + تركية 29 + بلغاريا 3 . 5 = 3 / 168 مليون نسمة . وفي مقابل ذلك دول الائتلاف أو الاتحاد (Coalition) المسمي (الحلفاء) : إنكلترا 461 + روسيا 181 + الولايات الأمريكية 111 + فرنسا 84 + اليابان 78 + إيطاليا 38 + بلجيكا 16 + البرتغال 15 + رومانيا 8 + الصربيا 5 + اليونان 5 + قره داغ 4 = 10024 مليون نسمة .

اشتركت تركيا في الحرب بـ 9 جيوش مقسمة إلي 63 فرقة . كان من المعتقد أن الحرب تنتهي بعد عدة شهور ، أو خلال سنة علي أكثر تقدير . كانت هذه قناعة الطرفين .

كان دخول تركية الحرب ، وعدم تمكن الحلفاء من اجتياز جنا قلعة واندحار روسيا ، من الأسباب الرئيسية لإطالة الحرب إلي ضعف ما هو مقرر أي سنتين وهو نصف مدة الحرب . ألقي رئيس الوزارة الإنكليزية Lloyd George - المتعصب وعدو الإسلام والأتراك بدرجة لا يتصورها العقل - مسؤولية إطالة الحرب لسنتين أخرين ، علي الدولة العثمانية بصورة رسمية ، وأعلن رسميًا أنه سوف يحاسب تركية علي مائدة الصلح ، علي هذا الأساس .

اشترك في الحرب بصورة فعلية من كلا الطرفين خلال الـ 4 سنوات 6 . 65 مليون جندي : 9 . 22 مليون منهم جنود دول المحور و 42.7 مليون منهم جنود دول الائتلاف (الحلفاء) ؛ دول المحور ، ألمانيا 11 مليون ، النمسا - المجر 8 . 7 ، تركيا 9 . 2 بلغاريا ، 2 . 1 مليون جندي . دول الائتلاف (الحلفاء) : روسيا 12 مليون ، انكلترا 9 . 8 ، فرنسا 4 . 8 ، إيطاليا 6 . 5 ، الولايات الأمريكية 75 . 4 ، اليابان 8 . - ، صربيا 8 . - ، رومانيا 75 . - ، بلجيكا 3 . - ، اليونان 25 . - ، البرتغال 1 . - ، قره داغ 05 . - مليون جندي .

كانت خسائر الطرفين 000 481 38 جنديًا منهم 000 323 9 قتلي . وقتل 10 ملايين من المدنيين لأسباب مختلفة كالمجاعة ، والمرض والقصف . كانت خسائر الطرفين من الجنود وعدد القتلي كما يلي : ألمانيا 000 300 7 (000 950 1 قتيل) ، النمسا - المجر 000 000 7 (000 200 1) ، تركيـة 000 050 1 (000 400) ، بلغاريـا 000 270 (000 90) = 000 620 15 (000 640 3 قتيل) . الطرف الآخر : روسيا 000 150 9 (000 700 1 قتيـل) ، فـرنسا 000 300 6 (000 390 1) ، إنكلتـــرا 000 190 3 (000 910) ، إيطاليا 000 350 2 (000 650) ، صربيا 000 740 (000 450) ، رومانيا 000 540 (000 340) ، الولايات الأمريكية 000 320 (000 120) ، بلجيكا 000 180 (000 100) ، البرتغال 000 40 (000 10) ، اليونان 000 30 (000 10) ، قره داغ 000 20 (000 3) ، اليابان 000 1 (300) = 000 861 22 (300 683 5) .

كان أساس الخطة الحربية للماريشال Schlieffen على الشكل الآتي : ستكون ألمانيا مضطرة للدخول إلى الحرب في الشرق تجاه روسيا وفي الغرب تجاه فرنسا في نفس الوقت . وفي هذه الحالة ، ستستسلم فرنسا في الحرب الخاطفة أثناء الحرب الدفاعية في الشرق . ثم تعود الجيوش إلى الشرق وتكون عاقبة روسيا كعاقبة فرنسا . سيدخل الروس إلى قسم من الأراضي الألمانية في الشرق ، خلال الحرب مع فرنسا . سوف تضحي ألمانيا بذلك مؤقتًا .

عند نشوب الحرب ، كان الفريق الأول Von Moltke – ابن أخ مولتكة الكبير – رئيسًا لأركان الجيش الإمبراطوري والقائد الفعلي له (كان القائد الاسمي Koyzer) .

لم يوافق الإمبراطور على سحبه قوة من الحدود الروسية وسوقها إلى حدود فرنسا ؛ حيث اعتبر دخول الروس إلى قسم من الأراضي الألمانية لا يليق بهيبة القيصر . لذا تعذر زيادة القوات الألمانية في الغرب إلى العدد الذي تتمكن به من القضاء على قوات المتفقين (الحلفاء) الفرنسية – الإنكليزية – البلجيكية دفعة واحدة . تمكن الفرنسيون من إيقاف الألمان على مسافة 30 كم من باريس (معاهدة Marne ، 6 – 12 أيلول 1914) . وهذا يعني إفلاس خطة Schlieffen ؛ حيث أن هذه الخطة كانت معلومة لدي العالم بأسره وكان العالم كله يعلم أن الألمان سيقضون على فرنسا بالحرب الخاطفة . إن القتال الدموي الذي يفوق الخيال ، الذي جرى على ضفة نهر Marne ، كذب هذا الاعتقاد وأوضح أن الحرب ستطول بعد الآن إلى أجل غير معلوم وفي غير صالح ألمانيا . ستطول الحرب ضد ألمانيا لعدم استسلام فرنسا ، كما وأنه في حالة اشتراك إنكلترا في الحرب بجانب فرنسا فإنها ستستطيع حشد ملايين الجند في الجبهة الفرنسية بالإضافة إلي أن إيطاليا – حليفتها على الورق – لم تكن قد اشتركت في الحرب بجانب ألمانيا – النمسا ، واتضح أنها سوف لن تشترك بل وأنها ستنضم إلى إنكلترا – فرنسا – روسيا – . لكن الشيء الأهم من كل ما مضى هو : أنه في حالة عدم تمكن ألمانيا من الانتصار بحرب خاطفة ، فإنها سوف تخسر الحرب في حالة حرب طويلة الأمد ؛ لأن الذي يسيطر على البحار المفتوحة ، هم الحلفاء وليست الامبراطوريات المركزية (دول المحور) . ولهذا السبب سيستطيع الحلفاء تأمين كل أنواع المهمات والمواد الخام ،

واستيرادها . أما في الدول المركزية فسوف تبدأ الحاجة إلى المهمات والمواد الخام بشكل كبير . ...

هكذا ارتكبت العثمانية بسهولة عملا جنونيًا كدخولها الحرب بجانب ألمانيا في هذه الأثناء ، أي بعد معاهدة Marne ، أي بعد إفلاس خطط ألمانيا الحربية . كان رائد هذه الكارثة أنور باشا . طلعت بك وجمال باشا (بوجه خاص) ، وافقاه دون أن يكونا راغبين مثله . ثم أعلن الاتحاد والترقي كرأي رسمي للدولة ادعاء أن سفينتين من سفن الحرب الألمانية لجأتا إلي العثمانية ، واجتازتا المضيق إلى البحر الأسود دون علم العثمانية وقصفتا الموانئ الروسية ، وأن روسيا ومن ثم حلفاؤها ، قد أعلنوا الحرب على تركية . ظل هذا الادعاء يتكرر إلى يومنا هذا ، ولم يسمح ، لعدد من الأسباب ، بتحليل مبلغ مجانبة هذا الادعاء ، للعقل والمنطق . واليوم بعد أن نشرت الأوامر العسكرية (عسكري أمرنامه) لجمال باشا ، وكيل القائد العام لأنور باشا ، نجد الرسائل التي بعثها إلى الأسطول العثماني بصفته ناظرًا للبحرية ، وبتوقيعه ، حول كيفية الإغارة على الموانئ الروسية وقصفها وإغراق أية سفينة روسية حربية كانت أم تجارية . وأساسًا فإن قبول إمرار بارجتين ألمانيتين وفتح مضيق جناقلعة لهما وعدم تجريدهما من الأسلحة خلافًا للاتفاقات الدولة والاكتفاء بإلباس طاقم السفن الطرابيش وتركهم على حالهم ، تظهر نوايا ثلاثي الاتحاد . ودليل آخر هو : معاهدة الاتفاق السري الذي وقع مع ألمانيا . كان أنور باشا موقنًا من هزيمة روسيا وأخذ العثمانية قفقاسيا وتركستان . اضمحلت روسيا ، لكن العثمانية لم تتمكن من أخذ قفقاسيا وتركستان ، اكتفت بأخذ ولايتي قارص وآرتفين . إذ إن الحرب كانت حربًا عالمية . لم تكن حربًا ألمانية – عثمانية – روسية . كانت قد شملت العالم كله . عقلية أنور ، لم تستوعب هذه الاستراتيجية . أصدر أمر قصف الموانئ الروسية إلى الأسطول العثماني الذي انضمت إليه بارجتان ألمانيتان . ثم عاد فكذب على المجالس ، وأفاد بأن السفينتين الألمانيتين وضعتاهم أمام الأمر الواقع ، ولذا فإننا دخلنا الحرب مضطرين وإننا سوف ننقذ مصر وأفريقيا الشمالية من الاستعمار الإنكليزي والفرنسي .

تم الاشتراك في أكبر حرب سجلها التاريخ ، وفي الطرف المحتمل خسارته ، دون علم

البادشاه ، الصدر الأعظم ، الحكومة ، البرلمان . كل هذه أجهزة تسلمت هذا القرار من الأشخاص الثلاثة الذين يشكلون الثلاثي وطبقوه ، وفي إحدى الروايات يقال إنهم أحاطوا خليل منتشه به علمًا كذلك . ولو لم تدخل العثمانية الحرب ، لخسرت روسيا واستسلمت ؛ لأنها ستغلق المضايق ، وسوف تتمكن روسيا من تسلم الإمدادات من حليفاتها الغربيات ، سيكون في نهاية الحرب جيش عثماني يقف على قدميه ، لا تجسر أية دولة على أن تمسه بسوء ، ولو لم تدخل العثمانية الحرب لما تعرضت لضياع الثروات والبشر بالقدر الذي يفوق الخيال ، ولما تهدمت واحترقت الأناضول ولما هلك في جنا قلعة ، صاري قامش ، صحراء سيناء وفي صقاريا شباب محبون لوطنهم جمعوا بين الثقافتين الشرقية والغربية ونشأوا نشأة خارقة للعادة . وعندئذ كانت تركيا سوف تصفي إمبراطوريتها في الوقت المناسب بإرادتها الشخصية ، ويحتمل أن يكون ذلك في 1945 كما عملت ذلك إنكلترا وفرنسا ، ولما تركت الأقطار العربية تحت وطأة الإنكليز والفرنسيين ، ولحصلوا على استقلالهم وهم أصدقاء للأتراك ، لا كأعداء نتيجة لدعايات الدول الأجنبية .

يجب هنا أن نسجل أن الجنرالات والضباط الأركان الأتراك قد نبهوا أنور باشا بإصرار مرات عديدة ، وبعضهم بتقارير عسكرية حول عدم دخولنا الحرب ، لكن أنور ، كان يسمع مستشاريه الجنرالات الألمان الموجودين في وزارة الحربية . كان من بين الذين نّبهوا أنور بشدة ، حول عدم دخولنا الحرب ؛ أركان لعبوا أدوارًا ذات أهمية فائقة في التاريخ التركي فيما بعد ، ككمال أتاتورك ، عصمت أينونو وكاظم قره بكر .

إن سرد وقائع الحرب العالمية الأولى ، وحتى أعمال العثمانية في هذه الحرب ، يطيل موضوعنا كثيرًا . إلاّ أنه من الضروري أن نبحث بعض المواضيع ، التي أثرت فيما بعد على تاريخ تركية والأقطار العربية والتاريخ العالمي بشكل مهم ، وسنكتفي بهذا القدر .

بدأت الحرب في 28 تموز 1914 . اشتركت العثمانية في 29 ت 1 / 1914 . إيطاليا (23 / 5 / 1915) والولايات الأمريكية (6 / 4 / 1917) اشتركتا فيما بعد في صف الحلفاء . (اليابان 23 / 8 / 1914) . أما الدولة الوحيدة التي اشتركت بجانب 3 إمبراطوريات مركزية (ألمانيا ، النمسا ، تركيا) فهي بلغاريا (14 / 10 / 1915) .

اشتركت رومانيا (27 / 8 / 1916) واليونان (27 / 6 / 1917) بجانب الحلفاء . وأعلنت الصين كذلك الحرب على الإمبراطوريات المركزية (14 / 8 / 1917) .

لا شك أن اجتياز مضيق جنا قلعة واحتلال استانبول وتنحية العثمانية والاتصال بروسيا ، من شأنها أن تقصر أمد الحرب سنتين . وابتداء من آذار 1915 بدأت القوات البحرية والبرية الجهنمية المشكلة من القوات الإنكليزية ، الفرنسية ، الاسترالية ، النيوزيلندية بالتشديد على مضيق جناقلعة من البحر . وعندما غرقت السفن الممتازة للأسطول الإنكليزي – الفرنسي بنيران المدافع التركية ، تقرر الإنزال من البر . أنزل الجنود في شبه جزيرة غاليبولي . اشتركت في الإنزال كتيبة يهودية وأخرى يونانية من المتطوعين . انهزم الحلفاء هزيمة عظمى . أثبتت العثمانية بصورة فعلية أنها حتي وهي في سكرات الموت فإنه بإمكانها أن تبدل مجرى التاريخ العالمي ، إلا أنه استشهد في جبهة جنا قلعة فقط 000 250 تركي وقتل من الحلفاء 000 250 جندي تقريبًا . الجرحى ، والمرضى ، والمفقودون ، والأسرى خارج هذا العدد .

حتى ألمانيا ، حليفة العثمانية دهشت لمعجزة جنا قلعة . وبينما كان يولى الجيش العثماني أهمية كبيرة – خاصة في الحرب الدفاعية – قبل هزيمة البلقان ، أخذت الدول الأوربية تستصغر وتستخف بالجيش العثماني بعد حرب البلقان . وحتى برلين كانت تعتقد ذلك . كانت برلين تريد إشراك العثمانية في الحرب لتستفيد من صفة الخليفة للبادشاه ، ومن وضع تركية الجغرافي – الاستراتيجي ، أكثر من تفكيرها في الاستفادة من قدرتها العسكرية . وعند دخول العثمانية الحرب ، وجد أن جيشها قد ملأ فراغًا كبيرًا . بينما كانت الاستفادة من صفة الخليفة للبادشاه أقل بكثير مما كان يؤمل . أحدث ذلك خيبة أمل في برلين وفي إستانبول كذلك . كان السلطان رشاد ، قد أعلن الجهاد الأكبر والجهاد المقدس بصفة كونه خليفة ، لم يحدث ذلك صدى كبيرًا في العالم الإسلامي . لم تحدث ثورة في المستعمرات الإسلامية تجاه إنكلترا وفرنسا . عدا مسلمي الهند (باكستان وبنغلادش الحالية) الذين سببوا مشاكل كبيرة لإنكلترا . ولو كان عبد الحميد الثاني هو الذي أعلن الجهاد ، لكان من المحتمل أن يتغير هذا المشهد بعض الشيء . وعدا افتقاد السلطان رشاد للنفوذ والاعتبار الذي يملكه أخوه الكبير ؛ كان

العالم الإسلامي يعلم أنه صار ألعوبة مسخرة في يد الاتحاد والترقي . أما السياسة الإسلامية للاتحاد والترقي ، فلم تكن مرغوبًا فيها بدرجة سياسة عبد الحميد الثاني أبدًا . ومع ذلك فالمعلوم عن السلطان حميد الذي كان يسكن سراي بكلربك خلال هذه الأيام ، أنه عندما علم بإعلان الجهاد في نهاية عام 1914 ، قال « كان هذا سلاحًا كبيرًا ، وتأثيره يكون أكبر في حالة عدم استعماله ، ما كان يجب استعماله أبدًا » . وإن واقعية السلطان عبد الحميد الصلبة ، في السياسة معلومة . أما الاتحاديون ، فقد ورثوا تخيلات مدحت باشا غير الواقعية في السياسة الخارجية ، كما ورثوها في السياسة الداخلية .

خيبة الأمل نفسها ، شوهدت في حركات جمال باشا في قناة السويس . وّدع الباشا من إستانبول بصفة « فاتح مصر » وشُيّع من مقره الكبير في الشام ، بالشعارات نفسها باللغة التركية والعربية . هاجم جمال باشا والوحدات الممتازة للجيش الهمايوني الرابع ، القناة مجتازًا جهنم سيناء مرتين (الثانية 19 / 7 – 4 / 8 / 1916) ، لم يتمكن من اجتياز القناة . كان الإنكليز يصلون العساكر التركية بنيران رشاشلتهم الثقيلة التي ركزوها على القاطرات المصفحة المثبتة فوق سكة الحديد التي أنشأوها . استشهد ضباط أتراك ممتازون وجنود أتراك مدربون تدريبًا فائقًا . وخلافًا لما كان مؤملاً ، لم يعص المصريون أو يثوروا على أساس أن الجيش العثماني جاء إلى القناة ولم ينقضوا على الإنكليز بل على العكس ، أخذ في حشد وحدات كبيرة في مصر ، أخذت بالتعاظم على مر الزمن . إن علم إرسال هذه الوحدات إلى الجبهة الفرنسية ، صار في صالح ألمانيا ، تحقق قصد برلين . أما العثمانية ، فقد أصبحت في وضع لا تتمكن فيه من السيطرة على جبهة فلسطين بسبب مجابهتها وحدات الحلفاء المتزايدة في كل يوم . سالت دماء تركية غزيرة . كان اليهود قد أسسوا في فلسطين تشكيلات مخابرات سرية ، كانوا يخبرون الإنكليز بتحركات الوحدات العثمانية . عثر جمال باشا على قسم منهم وأفناهم . كان الشريف حسين باشا يضغط من الجنوب ، وكان البدو التابعون له يخربون باستمرار خط شام ـ مدينة الحديدي ويعرقلون كثيرًا المواصلات العسكرية العثمانية .

هلك الجيش الثالث بين الجبال الثلجية ، وفي بداية الحرب في هجوم صاري قامش الذي قاده بنفسه أنور باشا بعدم كفاءة كبيرة . استشهد 90 000 جندي .

احتل الإنكليز البصرة في بداية الحرب . دافع العراق ، الجيش الهمايوني السادس تجاه الجيش الإنكليزي - الهندي الذي أخذ يزداد على مر الزمن . العثمانيون الذين هزموا الإنكليز في سلمان باك ، أسروا في كوت العمارة فرقة إنكليزية كاملة (300 13 جندي) بجنرالاتها الخمسة وكامل أسلحتها (29 / 4 / 1916) . لكن ، في النهاية ، سقطت بغداد (11 / 3 / 1917) .

كان يقوم بالدفاع عن جبهة فلسطين ، جماعة القولات السريعة التي يشكلها الجيوش الرابع والسابع والثامن. انتصروا في حربي غزة الأولى والثانية . انتصر الإنكليز وحلفاؤهم في حرب غزة الثالثة . سقطت القدس (9 / 12 / 1917) .

من الناحية الأخرى احتل الجيش العثماني ، غرب إيران على العمق واقترب إلى قفقاسيا . انهارت روسيا وطلبت الهدنة (22 / 1 / 1918) . دخل الأتراك باطوم (15 / 4 / 1918) ، قارص (27 / 4 / 1918) ، آرتفين . أعادت معاهدة Brest Litovsk - التي وقع عليها طلعت باشا - قارص آرتفين وباطوم إلي تركية (3 / 3 / 1918) . دخل الجيش العثماني للمرة الثانية إلى تبريز (14 / 6 / 1918) ، ثم احتل الجيش التاسع الذي يقوده الفريق الأول نوري باشا أخو أنور باشا ، بالكو (14 / 9 / 1918) ووصل إلى حد بحر الخزر .

اشترك الفيلق التركي الأول في حركات رومانيا . كان ضمن قوات المحور التي دخلت بخارست ، ثم نقل إلى جبهة غاليجا وتحارب مع الروس . ثم جاء إلي مكدونيا . حارب هناك تجاه القوات الإنكليزية - الفرنسية - الصربية — اليونانية — الروسية - الإيطالية . كان قائد هذه القوات (30 فرقة) الماريشال الفرنسي Franchet d;Esperey . طلبت بلغاريا التي لم تطق الحرب ، الهدنة (27 / 9 / 1918) . وهكذا انقطع ارتباط العثمانية مع النمسا وألمانيا . عند خسران الحرب وطلبت كل من تركية والنمسا وألمانيا الهدنة ، لم تكن أية قطعة من الأراضي الألمانية محتلة (عدا مستعمراتها) . بالعكس ، كانت الجيوش الألمانية تحتل على العمق كلا من فرنسا ، روسيا ، بلجيكا ، إيطاليا ، صربيا ورومانيا . إلاّ أن النظرة الاستراتيجية التي لخصها السلطان عبد الحميد في قوله « الطرف الذي يسيطر على البحار ، يكسب الحرب » إلى طلعت باشا وأنور

باشا اللذين زاراه قبل سنوات عديدة ، قد تحققت .

إن المبادئ الـ 14 التي أعلنها رئيس جمهورية الولايات الأمريكية ولسن Wilson (8 / 1 / 1918) ، كانت من العوامل التي ثبطت عزم تركيا وحلفائها . إن هذه المبادئ لم تطبق في أي وقت من الأوقات ، لا من ناحية احترامهم الأسس القومية ، ولا من ناحية منحهم الاستقلال للأقطار غير التركية التي انفصلت عن العثمانية . وعلى عكس ذلك ، سلط اليونانيين والأرمن مرة أخرى ، على أراضي الأناضول . لكن وعد ولسن ، الذي هو نسخة طبق الأصل لروزفلت ، باسم الولايات المتحدة وحلفائها ، أثر بشكل بالغ على دول المحور وثبط عزمهم على الحرب . إن الـ 42 فرقة والمهمات الثقيلة التي أرسلتها الولايات الأمريكية للمتحدة إلى الجبهة الفرنسية ، أدخلت اليأس إلى قلب الألمان . كانت أمريكا ، قد أصبحت أغنى دولة في العالم . لكنها لم تتمكن على مائدة الصلح من الحيلولة دون أطماع حليفاتها ، وعادت ثانية إلى قارتها .

12 – تهجير الأرمن عام1915 :

كان عدد الأرمن من رعايا العثمانية الأرثوذكس ، الكريكوريان ، الكاثوليك (وقليل جدًا من البروتستانت) عام 1915 ، في استانبول ، الأناضول والأقطار العربية يقارب الـ 1 300 000 . كانوا يشكلون 5 ٪ من معدل نفوس الأناضول الشرقية . وفي نهاية عام 1914 (29 / 12 / 1914 – 2 / 1 / 1915)، جمد ومات من البرد معظم أفراد الجيش الثالث المكلف بالدفاع عن الأناضول الشرقية وجبهة القفقاس تجاه الروس في هجوم صاري قامش . أصبحت الجبهة بدون دفاع تقريبًا . أرسل الروس الأسلحة إلى الأرمن في الأناضول الشرقية . شكل الأرمن عصابات ، أخذت تغير على القري ثم القصبات والمدن المسلمة المحرومة من دفاع الجيش العثماني . نفذوا مذابح جماعية واسعة النطاق دون تفريق بين أطفال ونساء . وا لا يقتلون المدنيين بالرصاص ، بل يعذبونهم بألوان شتى من العذاب لمدة طويلة ويقطعون أوصالهم ثم يحرقونهم ويتركونهم للموت ، وكانوا بخاصة ينتهكون الأعراض ويمسون الشرف بسبب زيادة حرص المسلمين على ذلك . كان هدفهم إجبار المسلمين على الهرب من الأناضول الشرقية ، وربط هذه الولايات بروسيا قدر الإمكان . كانت وان ، مركز إيالة ومركزًا إسلاميًا مهمًا .

العصابات الأرمنية التي دخلت هذه المدينة ، قتلت المسلمين كافة (20 / 4 / 1915) . وعندما جاء الجيش الروسي ودخل وان (19 / 5 / 1915) ، شاهد بدهشة عدم وجود مسلم واحد فيها ، فاقت الوحشية الأرمنية ، حتى المخططات الروسية ، ولدينا بيانات وتقارير رسمية لعديد من الضباط الروس ، كانت تحاول الضغط على الأرمن لإيقاف القتل العام تجاه المسلمين . الروس الذين لم يتمكنوا من البقاء هناك ، أخلوا وان وسلموها إلى الأرمن (3 / 8 / 1915) . دخلت الوحدات التركية إلى وان ، بعد يومين فقط وشاهدوا بتأثر ، أجساد عشرات الألوف من المسلمين ، كما شاهدوا المساجد المحّرقة والمهّدمة .

حمى الأتراك السلجوقيون ومن ثم العثمانيون خاصة ، الأرمن الذين كانت تعتبرهم الإدارة البيزنطية مواطنين من الدرجة الثانية وتعاملهم بقسوة شديدة . الأكثرية الساحقة من أرمن إستانبول ليسوا أصلاً من إستانبول . وإنما جاء بهم السلطان محمد الفاتح من الأناضول وأسكنوا إستانبول . احترمت كثيرًا حرياتهم الدينية والمذهبية ، وأموالهم . ورغم أن رجال الدولة في التنظيمات لم يستحسنوا تبديل الأرمن الأرثوذكس الكريكوريان مذهبهم واعتناقهم المذهب الكاثوليكي وتبعيتهم للبابا ، بالتعليمات القادمة من أوروبا ، لكنهم لم يحولوا دون ذلك فعليًا ، عدا نصحهم بعدم تركهم مذهب آبائهم . وكذلك سمحوا للأرمن الكاثوليك بتأسيس تشكيلات البطريركية . والأرمن سواء كانوا كريكوريان أم كاثوليك ، أشغلوا بعد 1856 مناصب وزير (أعلى المراتب الشرفية) ، والي إيالة ، سفير ، موظف كبير في سراي البادشاه ، ناظر (وزير) (وحتى أحدهم شغل منصب ناظر الخارجية) . تسعة أعشارهم ، خدموا الدولة العثمانية بإخلاص كبير ، لم تفرق الدولة بينهم وبين الوزراء المسلمين ، فقط لم يكن بإمكانهم أن يصبحوا ضباطًا ، وهم بالذات لم يرغبوا بذلك . كان من بينهم أطباء عملوا بالجيش . وعدا ذلك ، كانت لهم امتيازات ، لم يحصلوا عليها في أي قطر من أقطار العالم . كان الأرمن هم الشعب المسيحي الذي تقبل الثقافة التركية ، أكثر من غيره . موسيقاهم ، أشعارهم ، مطبخهم ، لباسهم ، أعيادهم وكثير من أعرافهم اقتبست من الأتراك . برز من بينهم ملحنون عظام في الموسيقى الكلاسيكية التركية . فتحت أمامهم أرقى المدارس المتوسطة والعالية ، كذلك قاموا بالتدريس بلغتهم في مدارس الأوقاف

الابتدائية والمتوسطة كما شاءوا ، وتمكن الراغب منهم من الذهاب إلى أوروبا للدراسة العليا . لا يشاهد لدى عبد الحميد الثاني وطلعت باشا اللّذين أعلنا أنهما أكبر عدوين لهم ، أو لدى أي تركي آخر ، أي أثر لكراهية الأرمن واستصغارهم كقوم . تعاونًا مع كثيرين من الأرمن وقدما لهم مناصب عالية . تمكن نواب الأرمن من التكلم في مجلس النواب بجسارة تفوق زملاءهم الأتراك .

غير أن الباب العالي ، لم يظهر التسامح للأرمن الذين يتلقون التعليمات من الخارج ويتسلحون ، ويشكلون جيوشًا شعبية منظمة ويخرجون لقنص المسلمين وقتلهم الجماعي . كان أرمن الأناضول أناسًا متوحشين لم يستفيدوا من الثقافة العثمانية ، مثل أرمن إستانبول . أعمالهم ، كانت من النوع الذي يليق فقط بالمجتمعات المتوحشة جدًا ، نشرت كل الوثائق المتعلقة بهذا الشأن . كانت قد أخملت حركات التمرد التي قاموا بها في السابق بإشارة من إنكلترا وفرنسا وروسيا . وقد صرفت الجهود والدقة اللازمة لغرض عدم إضرار البريء مع المذنب . وقد روعي عدم المساس بالشخص الذي لا يحمل السلاح . سعوا كثيرًا ضد عبد الحميد ، لعدم سماحه بتأسيس إمارة أرمنية ذات حكم ذاتي علي 6 إيالات من الأناضول الشرقية . سعوا مع الاتحاديين حتي تم إسقاط السلطان عبد الحميد ، ثم انقلبوا عليهم وقاموا بالحركة ضدهم .

شروع الأرمن المتكرر وعمليات القتل الجماعي للأهالي المدنيين بغرض فتحهم الطريق للجيش الروسي الذي استعد للاستيلاء علي مدن الأناضول الشرقية ، مستفيدين من التلف الشديد الذي أصاب الجيش الثالث في حركات صاري قامش ، أجبر عملهم هذا — في أكبر حرب بقاء أو فناء شهده التاريخ — الباب العالي على اتخاذ تدابير أشد وأكثر راديكالية . وبأمر من وزير الداخلية طلعت بك وتصديق الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، تم إبعاد الأرمن الموجودين في الأناضول الشرقية والوسطى البالغ عدده نصف مليون تقريبًا ، عن طريق الجيش الروسي وسيقوا إلى الأقطار الجنوبية من الإمبراطورية . الأماكن التي أرسلوا إليها ، وهي حاليًا سوريا ، لبنان ، الأردن ، العراق ، كانت أكثر رفاهية من الأناضول الشرقية . وهي أقطار الدولة نفسها . جرى « التهجير » (الهجرة الجبرية) في نيسان عام 1915 . هذا الموسم ، هو موسم شتاء في الأناضول الشرقية

ولا يزال كذلك . الأناضول الشرقية ، كانت بدائية في طرقها . كانت الأمراض متفشية بين الشعب والجيش التركي . إعاشة الجيش ، لم تكن منتظمة . وفي مثل هذه الأحوال ، خرج إلي الطريق ما يقارب نصف مليون أرمني مع عملائهم من الأناضول الشرقية متجهين نحو وادي الرافدين ، سورية ولبنان وتحت حماية الجيش . حدثت وفيات بينهم في الطريق ، ولكن حدثت أيضًا وفيات بين الجنود الأتراك مسلمي الأناضول الشرقية الذين يريدون الانتقام لعائلاتهم من الأرمن ، كانوا يندسون بين قوافل الأرمن ويطلقون النار ، وكان الجنود الأتراك يطلقون النار عليهم ويحمون الأرمن . لقد تم إسكان الأرمن في الإيالات العربية خلال عدة أشهر . ولأنهم شعب مجد ونشط ، تمكنوا من المعيشة تحت شروط أحسن مما كانوا يعيشونها في الأناضول الشرقية والوسطى بعد أن لقوا عونًا من الإدارة العثمانية . وقسم كبير منهم هاجر بعد انتهاء الحرب ، إلى فرنسا والولايات الأمريكية والأقطار الأخرى . إن الأرمن الموجودين اليوم في أوروبا وأمريكا ، هم أبناء أرمن الأناضول هؤلاء . ولو كانت حركة 1915 قتلاً جماعيًا وليس تهجيرًا ، كما يدعون ، لما كان هناك أرمن الآن في أوروبا وأمريكا .

يصادف وقت التهجير ، الأيام التي كانت تقوم فيها تركيا بمعركة حياة أو موت في جناقلعه ، نقلت خزينة سراي طوب قابو ، إلي قونية خوفًا عليها من احتلال إستانبول ، رفض البادشاه الذهاب إلي قونية .

وأخيرًا ، يجب ألا يغرب عن البال أن هذا التهجير ، حدث في وقت تجري فيه حرب الشوارع مع عصابات الأرمن المسلحة وتعقب فلولهم .

الحقيقة ، أن إخراج شعب من الأراضي التي عاش فيها عصورًا طويلة ، شيء غير مستحسن أبدًا . لكن الحكومات تكون مضطرة في أوقات الحرب ، إلى أن تتخذ تدابير شديدة تجاه جميع الشعب ، دون تفريق بين قوم وزمرة . لن أتحدث عن دولة كروسيا ، وإنما أكتفي فقط بأن أشير إلى أن معاملة الإنكليز للأيرلنديين في الحرب العالمية الأولى ، والأمريكيين لمواطنيهم اليابانيي الأصل في الحرب العالمية الثانية ، مما كان يقع من هذه الدول معلوم لدى الجميع وبالإمكان سرد أمثلة كثيرة جدًا في هذا المجال . جمعت الولايات الأمريكية المتحدة في ك 2 عام 1942 كل رعاياها الأمريكيي الجنسية

المنحدرين من أصل ياباني ، وأرسلتهم إلى معسكرات التركز في أريزونا المحاطة بالأسلاك الشائكة والتي يحرسها جنودٍ مجهزون بالرشاشات و لم يخل سبيلهم حتي انتهاء الحرب . إن هؤلاءِ ، لم يشهروا السلاح تجاه دولتهم كالأرمن . لكن كان هناك مجرد اشتباه في إخلاصهم فحسب . كان هؤلاء يحملون الجنسية الأمريكية وولدوا في أمريكا واعتنقوا الديانة المسيحية ، ينطقون بالإنكليزية ولا يجيدون اليابانية . إن وزارة العدل الأمريكية اعترضت على هذا التهجير ، لكن الرئيس روزفلت أصدر أمر التهجير بناء علي طلب الجيش .

وخلال استمرار الكفاح الوطني ، وقعت كل من جمهورية أرمنستان في روسيا ، وكذلك الاتحاد السوفيتي مع حكومة أنقرة علي معاهدات ، وافقت فيها كل منهن على حدود تركيا الحالية مع أرمنستان وكرجستان . وكانت هذه المعاهدات معتبرة ، في معاهدة لوزان كذلك . من الواضح أن أرمنستان التي فكروا في تأسيسها بمعاهدة سيفر ، والتي لم يصدق عليها البادشاه ورفضتها أنقره بشدة و لم تطبق أبدًا ، إنما أرادت بها الدول الإمبريالية أن تكون أداة في أيديهم لتحقيق رغباتهم والانتقام من الأتراك والمسلمين . رفضت في لوزان .

والمعلوم ، أن العصابات الأرمنية وجمهورية أرمنستان في قفقاسيا التي كانت لفترة من الزمن دولة مستقلة ، كانت قد احتلت ، مرة أخرى بعد الحرب العالمية الأولى نواحي من الأناضول ، اقترفت المظالم نفسها وطارد فلولها الفيلق 15 لكاظم قره بكر ، إلى حدودها الحالية . ثم وقعت المعاهدات التي حصل فيها التطابق على الحدود الحالية مع جمهورية أرمنستان وظهيرها الاتحاد السوفييتي .

13 – عصيان الشريف حسين باشا المسمى « الثورة العربية » :

شك السلطان حميد في إخلاص الشريف حسين باشا الذي كان برتبة وزير . أسكن حسين باشا وأبناؤه في إستانبول مدة ربع قرن ، خلال إدارة السلطان حميد ومنع من الذهاب إلي الحجاز . كان قد كلف بوظائف جيدة . ووفق لسياسة الاتحاد والترقي ، فإن جميع « المنكوبين » في النظام الحميدي ، يعتبرون مقبولين إلي أقصى درجة . ولهذا السبب ، جعل الاتحاديون عند مجيئهم إلي الحكم ، حسين باشا شريفًا على مكة ،

بينما كان هنالك كثيرون من فروع وأعضاء السلالة الهاشمية .

كان اتصال حسين باشا بإنكلترا - بواسطة المندوب السامي الإنكليزي في القاهرة - ضد الدولة العثمانية ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . وفي نهاية الاتصالات ، حصل اتفاق مع إنكلترا (30 / 1 / 1916) . ستعترف إنكلترا بحسين باشا بأنه « ملك العرب » . وستكون جميع البلاد العربية ، العراق ، سورية ، فلسطين ضمن حدود هذه الدولة . ترى هل صدّق حسين باشا وأولاده هذه الوعود ، أم تظاهروا بالتصديق ؟ على أساس أنه لا ضير من تحصيل ما يمكن تحصيله ، عمومًا هذا موضوع قابل للمناقشة . أعلن حسين باشا نفسه ملكًا على الحجاز وانفصل عن الدولة العثمانية (7 / 6 / 1916) . وبعد 3 أيام ، انتصر على الحامية التركية الصغيرة في مكة وتمكن من السيطرة على المدينة ، ثم على طائف وجدّة بعد مناوشات صغيرة . كانت الفرقة الموجودة في مكة ، قد انسحبت بسبب الحرب . والي الحجاز العثماني ، لم يتمكن من المقاومة أكثر من ذلك . إلاّ أنه كان يوجد في المدينة ، فيلقًا بقيادة الفريق فخر الدين (توركان) باشا . وهو مرتبط بالجيش الرابع الموجود في الشام . أعلن الملك حسين ، نفسه ملكًا على كل العرب ودعا جميع العرب للقتال « ضد الأتراك » (29 / 10 / 1916) . لكن إنكلترا ، حتى عند استمرار القتال ، اعترفت به « ملكًا للحجاز » فقط (15 / 12 / 1916) ولم تقبل الموافقة على لقب ملك العرب . لم ينبه هذا حسين باشا وأبناءه . لعب العقيد لورنس Lawrence من أفراد الـBis (وكالة المخابرات البريطانية) ، دورًا سيئًا . ضرب البدو التابعين لحسين باشا ، الجيش العثماني بصورة مستمرة . وفي هذه الأثناء تمكن الإنكليز من الدخول إلى فلسطين بعد أن مدوا سكة حديدية وخط أنابيب ماء في سيناء، ومن ثم استولوا من العثمانية على غزة (21 / 12 / 1916) ، ثم رفح (9 / 1 / 1917) ، ورغم أن الإنكليز خسروا معركتي غزة : الأولى (26 - 27 / 3 / 1917) والثانية (17 - 19 / 19 / 1917) نظموا جيشهم وبدأوا بالتقدم في فلسطين ، بعد تسلم اللورد اللنبي Lord Allenby القيادة (28 / 6 / 1917) . ضرب قوات حسين باشا الأتراك بصورة مستمرة ، في وضع كهذا ، مزّق الوحدة الإسلامية وأخزاها ، وفرّق بين شعبي العالم الإسلامي الكبيرين لسنوات طويلة . إلاّ أن الفاجعة التي سبّبت برود تركية تجاه العرب وجعلتها تجيب بالرد على طلب سورية المساعدة في كفاحها ضد الفرنسيين هي :

عندما استولت القوات الإنكليزية - الفرنسية علي الشام من العثمانية (2 / 10 / 1918) ، أخذت الوحدات التركية المنهزمة تنسحب نحو الشمال . حاصر فيصل ، أحد أبناء الملك حسين ونائب جدّه في المجلس العثماني ، قسمًا من الوحدات التركية في أحد الوديان في الشام . كان بعض الجنود العثمانيين الفارين ، بدون سلاح . مضت أيام ، لم يذوقوا فيها الطعام ، ولاالمنام . استشهد عدد كبير جدًا من الضباط والجنود العثمانيين . ومن المؤكد أن هذه الواقعة الدموية القذرة ، كانت نتيجة تحريض إنكليزي - فرنسي . إذ لا نفع فيها للعرب . الجيش العثماني ، كان يترك سوريا .

الشام التي سقطت في (2 / 10 / 1918) ، بيروت (7 / 10 / 1918) ، حلب (26 / 10 / 1918) ، موصل (12 / 11 / 1918) اللواتي سقطن في فترات متقاربة جدًا ؛ هن مراكز إيالات الإمبراطورية العثمانية . استسلم فخر الدين باشا في المدينة بعد مدة طويلة (13 / 1 / 1919) . دافع عن الروضة المطهرة بشرف . كان عسكريًا متدينًا جدًا . أخلى الشهزاده الفريق الأول عثمان فؤاد ، ليبيا بعد الهدنة . استسلمت كذلك الوحدات العثمانية الموجودة في عسير ويمن ولحج . لم تبق للعثمانية صلة بالأقطار العربية . وافقت تركية في معاهدة لوزان (24 / 7 / 1923) بصورة رسمية ؛ على تركها سورية والعراق ولبنان والأردن وفلسطين ، الحجاز والبلاد العربية واليمن ومصر والسودان وتونس وقبرص .

بقي الأمير عبد العزيز آل سعود في نجد مرتبطًا بالعثمانية حتي 1916 . كان يعلم السياسة الإنكليزية بصورة جيدة للغاية . عقد في 1916 اتفاقية مع إنكلترا على أن يكون أميرًا لنجد . لكنه لم يوافق على حماية انكلترا و لم يشهر السلاح على جيوش الخليفة . أصبح ملكًا على نجد . فور انسحاب العثمانية من هذه الأراضي . ثم استولي على الحجاز كذلك من للملك حسين وأسس المملكة العربية السعودية ، انتقلت من دولة إسلامية إلى دولة إسلامية أخرى ، دون أن تقع تحت طائلة استعمار . والمشهور أن الذي دافع عن الحجاز تجاه السعوديين لحساب الملك حسين ، نقيب تركي وملازم أول تركي .

14 ـ قضية ديوان حرب (مجلس عرفي عسكري) عاليه (1916) :

اتخذ جمال باشا مقره في الشام كقائد للجيش الرابع وبصلاحيات مطلقة . كان صاحب صلاحية مطلقة في كامل أراضي دول سورية ولبنان وإسرائيل والأردن الحالية وفي الحجاز . كان ولاة إيالات حلب وشام وبيروت حجاز ومتصرف القدس ويتسلمون الأوامر من جمال باشا . ألغي لواء دير القمر الصغير الكائن في جبال لبنان والمستقل ذاتيًا . وضع اليد علي أرشيف القنصلية الفرنسية العامة في الشام وأخذ في دراسة الوثائق السرّية . اكتشف بدهشة أن الكثير من رجال الدولة العثمانية الذين هم من الطبقة السورية الراقية ، اسسوا علاقات ، منذ سنوات عديدة ، مع إنكلترا وفرنسا بوجه خاص ، ضد العثمانية وأخذوا منهم المساعدات . قدّم رجال الدولة العثمانية هؤلاء السوريين إلي المجلس العرفي العسكري (بالعثمانية ديوان حرب عرفي) الذي شكلوه في الضاحية الجميلة لبيروت ، عاليه .

توجد في الكتاب المسمي ، **علّية ديوان حرب عرفيسنده تدقيق أولونان مسألة سياسية حقنده إيضاحات ، دوردونجي أوردوي همايون طرفندن نشر ايدلمشدر ، در سعادات 1332** ، نسخ مصورة باللغات الفرنسية ، التركية ، العربية لوثائق كثيرة جدًا . وثائق كاملة لخيانة دولة . يشاهد بوضوح أن الأشراف السوريين الذين تزعمهم محمد شفيق مؤيّد بك آل العظم(*) (1861 – 1916) ، اتفقوا مع فرنسا . طمح شفيق بك ، في أن يكون أميرًا علي سوريا . كلفت فرنسا ، وقتئذ كيجه جي – زاده فؤاد باشا ، وفي 1914 جمال باشا ، أن يكونا خديوًا علي سوريا . رفض كل من فؤاد باشا بإباء ، وجمال باشا بازدراء ، والمعلوم أن كليهما صديق لفرنسا وقريب جدًا إلى الثقافة الفرنسية . من الواضح أن فرنسا تريد أن تصنع باي تونس آخر في شرق البحر الأبيض ، وعمومًا فقد نالت قصدها في نهاية الحرب . وفي ضوء ما تقدم ، فإن رأي سوريا الرسمي

(*) إن مؤلف هذا الكتاب من آل العظم من جهة الأم ، وشفيق بك الذي أعدم ، هو قريب المؤلف . جد المؤلف لأمه هو محمد جميل بك آل العظم (إستانبول 1868 – شام 1933) له مؤلفات عديدة عربية وتركية ، حصل علي رتبة ملازم من السلطان عزيز ، عندما كان في سن السابعة من عمره .

الذي يعتبر الذين حوكموا في عاليه مجاهدي الدولة العربية والدولة السورية المستقلين ، رأي غير صحيح . يا ترى ، هل الاستقلال الذي لم يتمكن من تأمينه سلطان فاس بهيبته التي تعود إلي 10 عصنور مضت تجاه الفرنسيين ، سيتمكن من تأمينه أحفاد كميك أوغوللري (بالعربية : آل العظم) بكوات التركمان الذين هاجروا في أواخر العصر 17 من قونيه إلي معّره ، والذين ليس لديهم تاريخ عدا أنهم شغلوا منصب ولاة عثمانيين لمدة طويلة ؟ هل سيتمكن آل العظم باعتبارهم أعلى أشراف سورية ، من تأمين ذلك ؟ هل سيعامل الاستعماريون الفرنسيون ، شفيق بك ، في حالة فصلهم إيّاه من الاتحاد العثماني معاملة متميّزة عما عوملت به السلالات ذات الأصل التركي كآل قاولالي في مصر من قبل الإنكليز ، والحسينيين في تونس من قبل الفرنسيين ؟ .

من هو شفيق بك ؟ هو الابن العاشر لأحمد مؤيد باشا (1800 – 1888) آل العظم وعم صادق مؤيّد باشا (1858 – 1910) العظم ، رغم أنه يصغره بـ 3سنوات . خدم السلطان عبد الحميد 8 سنوات كمترجم في المابين وصار مقربًا له . حصل من البادشاه علي رتبة بالا (رتبة مدنية تعادل رتبة فريق أول) ، وعلى وسام العثماني الأول ، ووسام المجيدي الأول . انفصل عن سراي يبلدز في 1908 ، لكنه دخل في العام نفسه ، مجلس النواب العثماني كنائب للشام وانتخب لدورتين أخريين . عند إعدامه ، كان لا يزال نائبًا للشام . ابن أخيه ، صادق مؤيد باشا ، تخرج في المدرسة الحربية في إستانبول ، كان مرافقًا حربيًا للسلطان حميد ، استعمله في أشد الأعمال سرّية . كان فريقًا أوّل عثمانيًا ومنح كذلك أوسمة العثماني الأول والمجيدي الأول ، هو من الجنرالات الذين قرر السلطان حميد قبل سقوطه بقليل ، ترقيتهم إلي رتبة مشير ، لكنه لم يسعفه الوقت . زوجة شفيق بك ، كانت أرملة الصدر الأعظم جواد باشا . 3 من بنات شفيق بك الـ 4 تزوجن بشبان أتراك من إستانبول . لا يزال أولادهم يعيشون في استانبول . إن شخصًا كهذا ، يسعى للقومية العربية ، شيء يصعب تصديقه . ابن شفيق بك ، واثق مؤيد بك (1880 – 1941) وكيل المندوب فوق العادة للدولة العثمانية في بلغاريا عام 1908 . وفي 1914 ، صار سفيرًا فوق العادة لمدريد . غضب لإعدام والده وتجنّس بالجنسية السورية عام 1919 ، وصار واليًا علي الشام في سوريا ،

وناظرًا للداخلية والمواصلات .

وبناء على قرارات مجلس عاليه العرفي العسكري ، أعدم 20 سوريا ، نصفهم في بيروت والنصف الآخر في الشام أمام الشعب (6 / 5 / 1916) . كان من بين من أعدموا ، أبناء وأحفاد المجاهد الجزائري الكبير الأمير عبد القادر . أكرمت الدولة العثمانية هؤلاء كثيرًا وأسكنتهم في الشام وفي 1916 ، كانت سن علي باشا ، ابن الأمير عبد القادر ، 56 عامًا . منحه السلطان حميد الباشوية . جعله الاتحاديون وكيلاً لرئيس مجلس النواب (المبعوثان) . كتب جمال باشا في مذكراته أن هذا كان ضمن شبكة الخيانة ، وأن مكاتباته مع فرنسا موجودة لديه ، لكنه عفا عنه بسبب عدم رغبته في نكبة عائلة أمير إسلامي بطل كعبد القادر .

إن آل العظم ، هي إحدى عائلات الوزراء العثمانية النموذجية التي قدّمت للدولة العثمانية 25 وزيرًا و 100 باشا تقريبًا . إن عظم – زاده (من عائلة عظم) أسعد باشا – زاده عبد القادر بك (1882 – 1962) ، صهر شفيق بك ، عين متصرفًا (محافظ ولاية) على جناقلعة بعد إعدام والد زوجته . كان متخرجًا في المدرسة الملكية (العلوم السياسية) . وعظم – زاده علي باشا – زاده محمد فوزي باشا (1858 – 1920) هو الشخص الذي جعله السلطان مديرًا لمجلس إدارة سكك حديد الحجاز برتبة الباشوية ، وصار نائبًا عثمانيًا من عام 1911 إلي 1920 . اشترك في وزارة الغازي أحمد مختار باشا ، كناظر للأوقاف ، وقام بوظيفة النائب الأول لرئيس مجلس النواب . ابنه خالد بك ، صار رئيسًا للوزراء في سورية أربع مرات . عابد – زاده عرب أحمد عزت حلو باشا (1850 – 1924) صهر لآل العظم وهو أصلاً من بكوات الأكراد ، كان كاتبًا ثانيًا للمابين (البلاط) في الـ 13 سنة الأخيرة للسلطان عبد الحميد . كان بمرتبة وزير وحاملاً لأعلى 4 أوسمة من أوسمة الإمبراطورية .

كيف يخون بعض من أفراد عائلة كهذه ، دولتهم أثناء استمرار الحرب ؟ إن وراء هذه القضية ، جمعية التشبث الشخصي وعدم المركزية التي أسسها عميل BIS (وكالة المخابرات الإنكليزية) ، سلطان – زاده حقي بك (1860 – 1955) (الذي صار بعد ذلك رئيسًا للوزارة في سوريا ورئيسًا للمجلس مرتين) ، شعبة القاهرة لجمعية الأمير

صباح الدين هذه باسم « لا مركزية » . حكم عليه بالإعدام في مجلس عاليه العرفي العسكري ، لكنه هرب إلى القاهرة ونجا . وصار مساعدًا في علاقات شفيق بك – الذى يستند على فرنسا – مع انكلترا . إن هذه الفعاليات بدأت في أواخر سني السلطان حميد وتكثّفت في 1908 . بينما كان الاتحاد والترقي ، حتى كارثة البلقان في 1913 ، ينتهج سياسة « اتحاد العناصر » فإنه بدأ يبدل هذه السياسة في 1913 بسياسة القومية التركية . وبناء على ذلك ، وبسبب بدء العلاقات السرية مع فرنسا وانكلترا قبل هذا التاريخ ؛ فإن ادعاء بأن مناداتهم بالقومية العربية كان بسبب أن الاتحاد والترقي نادى بالقومية التركية ، يعد غير صحيح تحت ظروف تلك السنين . كانت هنالك دولة إسلامية ، وكانت هذه الدولة ، هي الإمبراطورية العثمانية. أعطي الاتحاديون ، لمحمود شوكت باشا وسعيد حليم باشا المعروفين بأنهما من أصل عربي أعلى منصب في الدولة ، أعطوهما الصدارة . لم يبدر من الاتحاديين ، أي شعور بعدم الاحترام تجاه العروبة ، القوم العربي ، شعبه ، دينه ، ثقافته . هم فقط ، لم يتمكنوا من إدارة الدولة والسياسة كالسلطان عبد الحميد . لقد ولدت عدم كفاءتهم ، أضرارًا وكوارث كبيرة ، لكن القدر الأكبر من هذه الكوارث لم يصب رعايا الإمبراطورية العرب بالأصل ، بل أصاب مواطنيهم الأتراك . الاتحاديون لم يتمكنوا من إدراك التوازن الخارق للعادة لسياسة عبد الحميد الثاني في الاتحاد الإسلامي – الاتحاد التركي – الاتحاد العثماني التي تبدو وكأنها غير متوافقة إذا لم ينظر إليها من نقاط الاتفاق وليس من نقاط التناقض بالنسبة إلي عبد الحميد الثاني ، فإن الشعور القومي للشعوب الإسلامية ، كان مفيدًا للإسلام ، شرط ألا يضر بالاتحاد الإسلامي . إذ أن الأقوام التي ليس لديها شعور قومي ، كانت قد سيّرت الدين الإسلامي دين مستعمرات . الأقوام الحّية ، كان بإمكانها أن تكسب الإسلام عظمته السابقة . هكذا فهم السلطان حميد القضية وهكذا وضعها في إطار أن الشعور القومي فقط ، هو الذي بقي على قيد الحياة كقدرة سياسية حقيقية للإسلام في ذلك العصر ويجب الاّ يكون هذا الشعور عاملاً لإضعاف الدولة العثمانية التي تتولي الخلافة الإسلامية . كأن يفهم أن الواجب أن يكونوا قوميين تجاه أوروبا ، أما إيقاد الشعور القومي ، بتحريك من الدول الأوروبية ، فقد كان هذا ، هو أشد ما يثير نفور السلطان حميد ؛ فالأوروبيون لن يستحسنوا الشعور القومي في أي قطر إسلامي ، لكنهم

سوف يستغلونه لمآربهم .

والواقع أن الحركة القومية في الشعوب الإسلامية ، المضادة للعثمانية ، والمضادة للوحدة الإسلامية ، والمسايرة لرغبات الدول الاستعمارية ، بدأت في دور عبد الحميد الثاني . بدأت بين الألبان والعرب ، حقيقة ، إنها كانت وقائع فردية وحصيلة محاولات أفراد ، لكنها كانت موجودة . وبناء على ذلك ، فإن الذين قدّموا إلى مجلس عاليه العرفي العسكري ، هم أيضاً ، كالذين اتبعوا حسين باشا ؛ سلكوا هذا الطريق نتيجة سياسة الاتحاديين السقيمة ، وقد كان ادعاء أخذهم الدراهم من إنكلترا وفرنسا ، ادعاء كاذبًا .

ومما لا شك فيه ، أن للمسألة وجهة أخرى وهي وجهة جمال باشا . إذ إنه حتى علي فؤاد بك (أردن باشا) الذي كان وقتئذ رئيسًا لأركان جيش جمال باشا وارتقى بعدها إلي رتبة فريق أول ، يتهم قائده بالضغط على محكمة عاليه والتأثير عليها بأوامره لإصدار أحكام بالإعدام لا داعى لها . أما فالح رفقي آتاي ، الأديب والصحفي التركي الشهير الذي كان يقوم بوظيفة ضابط خدمة لجمال باشا ، فإنه يدافع عن الباشا بقوله إن الذين أعدموا هم عملاء أجراء للدول الأجنبية . موظفون كبار ، خانوا الدولة لمصالحهم الشخصية . أي الرأيين هو الصائب ؟ يجوز الدفاع عن كليهما . لأنهما مسألة اجتهاد في سياسة الحرب . جمال باشا ، كان عسكريًا شديدًا . وهولم يسع لأحكام إعدام لعداء نحو العرب ، فجمال باشا نفسه ، ألّف قبل 7 سنوات في أدنه مجلسًا عرفيًا عسكريًا أعدم فيه الكثير من أشراف أدنه بتهمة قتلهم الأرمن بلا داع ، في الوقت الذي كان فيه الأرمن يقومون بعصيان مسلح . إذن ، فإن الادعاء القائل بأن جمال باشا عمل ذلك لعداء نحو العرب ليس صحيحًا بأي حال من الأحوال . من الواضح أنه استهدف بذلك سياسة الشدة خلال الحرب للحيلولة دون ظهور حركات داخلية مماثلة . وإذا كان القرار الذي اتخذه غير صائب وغير سياسي وظالما ، فمسئوليته تعود إلى جمال باشا . كان الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، قد أعلم جمال باشا ، بأن خيانة الذين قدموا إلى المحكمة ثابتة ، وأنه لا يعترض على ذلك ، لكن يجب ألا يصدر أحكام إعدام ، ويكتفي بوضعهم في بيوتهم تحت المراقبة ، وفي عكس ذلك ، فإنه سيتيح لإنكلترا وفرنسا الدعاية بأن ذلك نتيجة ظلم الأتراك تجاه العرب . وهذا ما حدث

بالفعل . لأن إدارة الدولة لم تكن بيد مرجعها الطبيعي الصدر الأعظم ، كانت بيد الثلاثي . أقنع جمال باشا ، عضوي الثلاثي الآخرين أنور باشا وناظر الداخلية طلعت بك ونفذ الإعدام . كان الثلاثي الذي جرد الخاقان – الخليفة والبرلمان الصدر الأعظم والحكومة من صلاحياتهم ، قد كبّد الدولة والأتراك أضرارًا كبيرة جدًا . ويقع الآن على العرب نصيبهم من هذا الضرر . هذا هو التحليل الصحيح وغير للنحاز . وإضافة إلى ذلك أن جعل هذه المسألة مسألة عداء عربي – تركي ، هوخطأ تاريخي ، فإن هذه هي بعينها النظرة الاستعمارية الرسمية التي لقنتها فرنسا لسوريا . من الواضح أن آل العظم ، لم يلقوا في دور المشروطية ، العطف والإكرام – الذي ذكر قسم منه آنفًا – الذي لقوه من عبد الحميد الثاني . لكنهم صاروا كذلك نوابًا ونظّارًا.. إن فعالياتهم ضد دولتهم بسبب فقدانهم العطف السابق ، هو بلا شك ، ليس أكثر من قضية حساب شخصي ولا تسمح أية دولة بذلك . وعمومًا ، فإن الذين كانوا ينصبون شراكهم في عهد السلطان حميد ، على معارضي هذا النظام ، حاولوا التقرب في دور المشروطية إلى الذين حرموا من نعم النظام السابق . إن فعاليات المكتب الفرنسي الثاني ، أصبحت عالمية كفعاليات (British Intelligence Serivice) .

وأخيرًا ، صارت الأقطار العربية التي كانت أقسامًا من الإمبراطورية العثمانية متساوية الحقوق وأقطارًا عربية مستعمرة . لم تكن في الدولة العثمانية تفرقة الوطن الأم – مستعمرة كما هي الحال في الدول الاستعمارية . ولو كان كذلك ، لكانت الامبراطورية أكثر مقاومة ، وأطول عمرًا وأكبر اتساعًا ولما تلف العنصر التركي إلى هذه الدرجة . إن دعايات الدول الاستعمارية للأقوام التي تجهل التاريخ ، حول معيشتهم حياة استعمار في الإمبراطورية العثمانية ، مضحكة وباطلة . ومع الأسف ، إنها خدعت أقوامًا كثيرة ، وأقطارًا كثيرة انفصلت عن العثمانية ومزقت الاتحاد الإسلامي إربًا إربًا . وهذه كانت الغاية . كان تركيز هذه الدول في الأقطار المنفصلة عن العثمانية على الشعور بالنقص ، واتهامها إياهم بأنهم استعمروا هذه الأقطار لعصور طويلة إنما لكي تبرر استعمارها هي ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت تريد وقف الأتراك الشعب العسكري المسلم وذلك ببذر بذور العداء ضد الأتراك .

ورغم هذه الحقائق ، فإن مناقشة مسئولية ضغط جمال باشا ، في مجلس عاليه العرفي

العسكري ـــ على الحكام العسكريين الذين أرادوا إصدار حكم بإعدام 4 أو 5 أشخاص وإصدار أحكام دون ذلك على الآخرين ، وحصوله على 20 قرارا بحكم الإعدام وتنفيذه الحكم فيهم جميعًا ـــ مفتوحة . إن الحقيقة التاريخية الناصعة ، إلى الدرجة التي لا يدور حولها نقاش هي ، عرض هذه الحادثة القبيحة ، وإظهارها كأنها مظالم الأتراك تجاه العرب .

15 – موقع الحرب العالمية الأولى في التاريخ العالمي :

لتوضيح ما نراه من أن الحرب العالمية الأولى هي أهم حادثة في تاريخ العالم كله . نقول إن الحرب العالمية الثانية . كانت أكثر دموية وقد أسفرت عن مخترعات كالذرة وجلبت النظام الشيوعي إلى قسم مهم من العالم وأمنت استقلال أقطار كثيرة جدًا . إلاّ إن التجديدات التي أحدثتها في النظام العالمي ليست أكثر مما أحدثته الحرب العالمية الأولي .

إن المحدثات التي أحدثتها في المجال العسكري ، والحرب والانقلابات ، خارج نطاق موضوعنا . الذي يهمنا أساسًا هو المعطيات في المجال السياسي والاجتماعي ؛ وفي هذا الصدد فإننا نشير إلى النقاط التالية .

كان النظام العالمي السائد حتى 1918 ، هو نظام السلطنة والملكية . كانت الجمهورية ، نظام قارة لا ماضي لها كأمريكا . حيث إن بقية الدولة في قارة أمريكا ، إذا استثنينا الدول المتحدة التي أسست عام 1776 ، ـــ تشكلت جميعها في العصر 19 . كانت الجمهورية الحقيقية في أوروبا ، هي سويسرا فقط ؛ استتب نظام الجمهورية في فرنسا بصعوبة ، وكان له كثير من المعارضين . الجمهورية كانت مجهولة في آسيا . في الواقع ، شوهد إعلان الجمهورية في البرتغال والصين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية ، لكنها كانت حوادث عارضة . أما في 1918 ، فقد انقرضت سلالات عظيمة جدًا ، تاريخها يشكل التاريخ الكلّي للدول التي كان يعتقد أنها لن تنهار : بنو عثمان في تركيا ، عائلة Hohenzollern في ألمانيا . عائلة Habsburg في النمسا و عائلة Romanov في روسيا . ومن بين الدول المغلوبة ، تمكنت الدولة المحلية بلغاريافقط ، من الحفاظ على الملكية . عملت الدول الغالبة ما أمكنها للإقلال من شأن الملكية لدى الدول المغلوبة . كانوا يظنون ، أنهم بذلك سيتمكنون من قطع علاقة تلك الدولة بالتاريخ ،

وسيمكنهم إضعافها ، لكنهم بهذا أوقدوا الشعور بقوميتهم . وهيئوا — دون رغبة منهم — الوسط الملائم لظهور دول أقوى شعورًا بالقومية ، أقوى وطنية ، أكثر تجانسًا ، أكثر مركزية في الحكم .

إن الفترة خلال الحربين (1918 – 1939) تشكل الذروة في الدكتاتورية الشخصية في العالم . من الصحيح أن الدول المرتبطة بالديمقراطية ، إنكلترا ، فرنسا ، إيطاليا ، أمريكا ، كسبت الحرب ، لكنهم لم يتمكنوا من نشر الديمقراطية ، النظام الأقل من حيث المحاذير الذي عثرت عليه الإنسانية حتى يومنا هذا . الديمقراطية ، أصبحت كنظام محلّي للدول الغربية . الحقيقة أن حب الديمقراطية لم ينطفيء . لكنه لم يتطور إلى المدى المنتظر . فشلت تجارب الديمقراطية في دول كألمانيا ، إيطاليا ، أسبانيا . وولدت دكتاتوريات قاسية عدوة للشيوعية والديمقراطية في نفس الوقت . إن قطرًا كألمانيا ، يعيش فيه أرقى مجتمع في العالم ثقافة وصناعة ، انتقل إلى سيطرة شخص واحد بشكل لا يصدق . إن هذه الإدارات الشخصية ، كانت دموية ودموية جدًا في ألمانيا وفي روسيا . على وجه الخصوص . أسبانيا سقطت بشكل لا يصدق في مستنقع حرب أخرى خلال العصر 20 ، بسبب رغبة الشيوعية في وضع يدها عليها . وفي روسيا ، عرض لينين وخلفه ستالين ، نظامها ، كدولة شيوعية وحيدة في العالم . أما دكتاتوريو اليمين ، فكانوا كثيرين جدًا . نبعوا تقريبًا في كل قطر لا ديمقراطية فيه . السلطة ، انحصرت في شخص واحد بشكل لم يسبق أن شهده تاريخ العالم أبدًا . إن بعض هؤلاء ، سفكوا الدماء بشكل لا يمكن أن يتخيله أكبر مستبد يمكن أن يخطر على البال في التاريخ .

بناء على ذلك ، فالحرب العالمية الأولى لم تقم بحل أي شيء . وبقيت كمحاولة انتحارية للمدنية الأوروبية . وفي المحاولة الثانية ، كانت القارة قد فقدت ثقلها الذي دام عصرين .

كانت انكلترا هي المتصرة عالميًا في الحرب . وضعت يدها مجددًا على أقطار كبيرة . امتدت إلى ساحات واسعة (الإمبراطورية في (1925) بلغت 158 956 34 كم² ونفوسها 000 345 481 نسمة.(فرنسا كذلك استعمرت (353 530 12 كم² و 000 852 99 نسمة) . تقلصت ألمانيا (284 471 كم² و 000 367 63 نسمة) . الولايات الأمريكية المتحدة ،

أصبحت دولة رفاهية (253 700 9 كم^2 و 000 214 127 نسمة) اتسعت اليابان (258 682 كم^2 و 000 846 84 نسمة) . تقلصت روسيا 400 087 22 كم^2 و 000 493 145 نسمة) . وصلت إيطاليا إلى حدودها الطبيعية (302 698 2 كم^2 و 000 512 42 نسمة) . أصبحت الصين نصف مستعمرة لليابان (776 957 9 كم^2 و000 212 447 نسمة) . البرازيل (844 513 8 كم^2 و 000 871 34 نسمة) ، والدول كأسبانيا (565 836 كم^2 و000 717 23 نسمة) ، وهولندا (530 080 2 كم^2 و 000 530 58 نسمة) ، وبولونيا (930 388 كم^2 و 000 177 27 نسمة) حاولت أن يكون لها دور مع الدول العظمى .

صعد الاستعمار إلى قمته . الدول المستقلة الوحيدة في أفريقيا ، كانت ليبيا . الدول الآسيوية كانت ، تركيا وإيران والأفغان والصين واليابان وسيام ، العربية السعودية ، اليمن . وقسم منها (مثل الصين والأفغان) لم يكن قد تخلص تمامًا من سيطرة الاستعماريين ؛ ويمكن إضافة مصر إلى هذه الدول . كانت فترة حكم الدول الأوروبية لأفريقيا وآسيا .

استبدلت الثروة مالكيها . القسم الأعظم من العائلات القديمة ، فقد ثروته . انتقلت هذه الثروات إلى أيادي أشخاص جدد . وبانهيار أنظمة يعود تاريخها إلى عصور ، حدثت تغييرات كبيرة في العرف والعادات والأخلاق . ترك قسم كبير من التراث والعادات ، بل وضعف الشعور الديني . وبناء على ذلك يكون وصف ، كيسنجر Kissinger للحرب العالمية الأولى بقوله « أكبر جناية ، أكبر ذنب إنساني قضى على التوازن والتناسق الدولي» وصفًا في محله.

العثمانية ، أدخلت رأسها في هذا الجحيم دون دراية . شهدت الأناضول الاستيلاء لأول مرة منذ 700 عام (استيلاء تيمور ، هو استيلاء قوم مسلم تركي آخر) ولأنها كانت بمثابة مانعة الصواعق للإسلام ، تفيّأت أوروبا بما تملك من سموم حقدها على تركيا وكانت إنكلترا في المقدمة في هذا الشأن . تلفظ اللورد اللنبي Lord Allenby ، عند احتلاله القدس من الأتراك ، هذه الجملة التاريخية : « اختتمت الحروب الصليبية اليوم بالنصر » إن إنكلترا التي كانت في حينها تصر على أن الدولة العثمانية عنصر لا يستغني عنه من عناصر التوازن في أوروبا ، أطالت الحرب لسنتين أخريين في محاولتها لإفناء

العثمانية ، وتكبدت خسائر يصعب تلافيها . هكذا يكتب Lawrence of Arabia Richard Aldongton ، لندن 1955 ، ص 138 : Aldongton ، لندن With conciderable » 138 aid From the Russions and some from the French, the British Government expended 750.000.000 pounds, passed welle over a million troops in all through that war area, and took four years to defeat this « very very siok » Turkey »

وبمساعدة الروس وأيضًا الفرنسيين ، ساقت الحكومة الإنكليزية تجاه تركية فقط أكثر من مليون جندي ، وللانتصار على تركيا التي قيل عنها إنها مريضة إلى هذا الحد ، حاربت 4 سنوات وصرفت 750 مليون جنيه (ذهب) (استرليني) .ويفيد (World History William Langer ، لندن 1948 ، ص 951 ب) ، إن المصروفات العسكرية في الحرب العالمية الأولي بلغت 332 مليار دولار ذهبي ، والأضرار التي حصلت والثروات التي فقدت ، لا يمكن حسابها .

16 – وفاة السلطان محمد رشاد خان الخامس (4 / 7 / 1918) :

توفي السلطان رشاد ، بعد وفاة أخيه الكبير عبد الحميد الثاني بـ 4 أشهر ، و 23 يومًا (4 / 7 / 1918) . في الأشهر الأخيرة للحرب العالمية . كانت سنّه تتجاوز الـ 73 عامًا بـ 8 أشهر ويوم واحد . عاش أقل من أخيه الكبير بسنتين . دفن في أيوب سلطان في قبره المشيد من المرمر . دامت سلطنته 9 سنوات وشهرين و6 أيام . له 3 أبناء فقط ، عدا ابنته رفيعة التي توفيت في اليوم نفسه من عام 1888 :

1 – محمد ضياء الدين أفندي (26 / 8 / 1873 – 30 / 1 / 1938) : كان ولي العهد الثاني عند تركه تركية (1924) . وفي الـ 9 أشهر الأخيرة له ، كان الرئيس الثاني للسلالة . طبيب أخصائي في الأمراض الجلدية ، عازف علي القانون ، ملحن متخرج في المدرسة الطبية والحربية ، كانت رتبته فريق أول ، أولاده : ١ – السلطانة بهيّة (8 / 11 / 1900 – 1950) ، زيجاتها حسب التسلسل ، طلقت من داماد الأمير قاوالالي عمر حليم بك أفندي ابن الصدر الأعظم سعيد حليم باشا دون أن يحصل الزفاف ، ثم بزواج عرفي من جمال الدين بك ابن أخي الفريق الأول كرميان أوغلو زلفى إسماعيل باشا ، انفصلت عنه وتزوجت الدكتور داماد حافظ زكي أفندي رئيس أطباء

الملك فؤاد الأول ، ولدت من الثاني ، رشاد بك (1930) ومن الثالث رشيد بك أفندي (1936) . 2 ــ السلطانة درية (3 / 8 / 1905 ــ 15 / 7 / 1922) تزوجت بالسلطان زاده داماد محمد جاهد بك أفندي الذي هو ابن السلطانة نعيمة ابنة السلطان عبد الحميد الثاني وابن غازي عثمان باشا ـ زاده كمال الدين باشا . 3 ـ السلطانة رقيّة (11 / 10 / 1906 ـ 20 / 2 / 1927) ، تزوجت بداماد عبد الباقي إحسان بك أفندي الضابط وابن الفريق الأول عبد الكريم باشا وولدت الخانم ـ سلطان أمل نور جهان (1926) . 4 ـ السلطانة خيرية (16 /2 /1908 ــ 5 / 3 / 1943 لم تتزوج . 5 ـ السلطانة لطفيّة (20 / 4 / 1910) ، تزوجت بكمال باشا ـ زاده داماد حسن بك أفندي وولدت أحمد بك أفندي (1933) ، رشاد بك أفندي (1934) ، الخانم ــ سلطان بربزادة (1936) . 6 ـ محمد ناظم أفندي (26 / 10 / 1910 ـ 14 / 11 / 1984) ، أبناء هذا : جنكيز أفندي (1942) ، حسن أفندي (1946) ، ضياء الدين أفندي (1948) 7 ــ عمر فوزى أفندي (13 / 11 / 1912) ، تزوج بمقدّس خانم ـ أفندي من فرع يكنلر من سلالة قاوالايلر . 8 ـ السلطانة مهرماه (2 / 1923) زوجها داماد الأمير نائف بك إفندي (1915) ، أولاده الأمير عاصم بك أفندي والأمير علي بك أفندي ؛ الأمير نايف ، ابن مالك الأردن عبد الله .

2 ــ محمود نجم الدين أفندي (23 / 6 / 1878 ـ 27 / 6 / 1913) : عند وفاته في عهد سلطنة أبيه ، كان الوريث الـ 11 للعرش ، لم يتزوج .

3 ـ عمر حلمي أفندي (2 / 3 / 1886 ـ 2 / 11 / 1935) : ابنته ، هي السلطانة أمينة مقبلة (30 / 12 / 1911) وابنه هو محمود نامق أفندي (25 / 2 / 1914 ـ 1965) . السلطانة مقبلة تزوجت علي واصب أفندي ، رئيس بني عثمان منذ عام 1978 (انظر فصل عائلة مراد الخامس) . نامق أفندي ، تزوج شهرزاد خانم ـ أفندي وهي ابنة أميرة من عائلة قلوالالي . أولاده شهرزاده عبد العزيز عمر أفندي (ك 1 / 1941) .

17 ـ جلوس السلطان محمد وحيد الدين السادس (1918/7/4) :

هو أصغر أبناء السلطان عبد الحميد الذي اعتلى العرش بلقب « محمد السادس » والذي يسميه الشعب « السلطان وحيد الدين » . عند جلوس السلطان رشاد على العرش ، كان يوسف عز الدين أفندي الابن الأكبر للسلطان عزيز وليا للعهد ، استمرت ولايته للعهد 6 سنوات و 9 أشهر و 4 أيام . قتل بسبب انتقاداته المستمرة حول

استعمال الجيش التركي في الجبهات المختلفة ، والتفريط في الجيش خارج القواعد العسكرية الوطنية ، وأيضا إلقائه المسئولية علي مدحت باشا وعدم اكتراثه بالتنبيهات ، تم تصوير قتله علي أنه انتحار ، واعتبرت المسألة منتهية بهدوء خلال الحرب (1 / 2 / 1916 . صار ولي العهد بدلاً منه ابن عمه وحيد الدين أفندي . ولو استمرت سلطة الاتحاد والترقي ، خلال عهده ، لما كان لهذا البادشاه مستقبل ؛ حيث إنه كان عدوًا كبيرًا للاتحاد والترقي بين بني عثمان وكان مؤمنًا أشد الإيمان بأن هذا الحزب قد هدم الدولة .

والدة السلطان وحيد الدين هي كوليستو (كلستان) قادين أفندي (زوجة السلطان) الرابعة (1831 – آيّار 1861) كانت قد توفيت منذ مدة طويلة ، وهي أيضًا والدة السلطانة مديحة زوجة الصدرالأعظم داماد فريد باشا . جلس السلطان وحيد الدين علي العرش وعمره 57.5 عام بعد سنتين ، 5 أشهر ، ويومين من قيامه بواجب ولاية العهد . كان عازفًا علي البيانو ملحنًا قديرًا في الموسيقي التركية ، حقوقيًا . كان يحمل رتبة ماريشال الإمبراطورية الألمانية ورتبة مشير عثماني . زار ألمانيا والنمسا عندما كان وليًا للعهد ، اشترك في زيارته هذه اللواء مصطفي كمال باشا (أتاتورك) كمرافق فخري ، وعند اعتلائه العرش ، استمر في مرافقته الفخرية . قلّد السلطان وحيد الدين سيف عمر (رضي الله عنه) من قبل الشيخ أحمد الشريف السنوسي ومحمد بهاء الدين ولد (ايزبوداق) جلبي ، بصورة مشتركة .

صدور عظم دور السلطان وحيد الدين هم : محمد طلعت باشا (4 / 2 / 1917) ، أحمد توفيق باشا (11 / 11 / 1918) ، داماد فريد باشا (4 / 3 / 1919) ، علي رضا باشا (2 / 10 / 1919) ، خلوصي صالح باشا (8 / 3 / 1920) ، داماد محمد فريد باشا (5 / 4 / 1920) ، أحمد توفيق باشا (21 / 10 / 1920 – 4 / 11 / 1922) . بقي فريد باشا في السلطة خلال حكوماته الخمس التي ألفها ، مدة 1 سنة ، 1 شهر ، 15 يومًا . أما مجموع صدارات توفيق باشا الأربعة فتبلغ ستين ، 4 أشهر ، 28 يومًا . صار طلعت باشا صدرًا أعظم لمدة سنتين ، 8 أشهر ، 8 أيام وكان هو الصدر الأعظم الأخير للسلطان رشاد والأول للسلطان وحيد الدين .

شيوخ إسلام دور السلطان وحيد الدين وآخر شيوخ إسلام الدولة العثمانية هم موسي كاظم أفندي للمرة الثانية (8 / 5 / 1916) . داغستانلي عمر خلوصي أفندي (14 / 10 / 1918) ، حيدري – زاده إبراهيم أفندي (11 / 11 / 1918) ، مصطفي صبري أفندي (4 / 3 / 1919) ، حيدري – زاده إبراهيم أفندي للمرة الثانية (2 / 10 / 1919) ، درّي – زاده عبد الله أفندي (5 / 4 / 1920) ، مصطفي صبري أفندي للمرة الثانية (31 / 7 / 1920) ، مدني محمد نوري أفندي (26 / 9 / 1920 – 4 / 11 / 1922) . كان مصطفي صبري أفندي ، رئيسًا لحزب الحرية والائتلاف ومعارضًا كبيرًا للاتحاديين . إن (تعيين الائتلافيين ، رجال العلمية المنتسبين للحزب في هذا المنصب الرفيع ، كالاتحاديين ، قد حط من شأن مقام المشيخة بشكل كبير .

تركت الدولة العثمانية الحرب ، بمهادنة Mondros (30 / 10 / 1918) قبل مضي 4 أشهر علي جلوس السلطان وحيد الدين . أثبت الإنكليز ، باحتلالهم مدينة الموصل (4 / 11/ 1918) بعد الهدنة وقبل جفاف حبر الاتفاقية ، بأنهم لن يلتزموا أبدًا بأحكام هذه الاتفاقية . وبموجب الاتفاقية ، فتح مضيق جناقلعه وجاء أسطول حليف إلي استانبول (12 / 11 / 1918) ورست السفن موجهة مدافعها نحو سراي دولمه بقجه ويلدز . بلغ ضغط الإنكليز علي الباب العالي حده الأقصي باحتلال الحلفاء (الإنكليز – الفرنسيين – الإيطاليين) استانبول بشكل بشع ومناف لاتفاق الهدنة (16 / 3 / 1920) ، وبتفريق مجلس النواب بالرماح ونفي نواب كثيرين إلى مالطة . انضم النواب الذين تمكنوا من الهرب إلى الذين انتخبوا حديثًا واجتمعوا في أنقرة بشكل « توركية بيوك ملت مجلسي » (المجلس الوطني التركي الكبير » (23 / 4 / 1920) . انتخبوا مصطفي كمال باشا رئيسًا للمجلس . قام هذا المجلس بإدارة الحرب مع الأرمن في الشرق أولاً والفرنسيين في الجنوب ، ومن ثم مع اليونانيين في الغرب . إن سياسة رئيس وزراء إنكلترا LloydGeorge السقيمة ، كإنزاله جنودا يونانيين في أزمير ، الأمر الذي سبب استمرار تركية في القتال 4 سنوات أخرى بعد الحرب العالمية الأولى . أملى الحلفاء معاهدات الصلح التي أرادوها على ألمانيا المغلوبة والنمسا والمجر وبلغاريا ، وتمكنوا من إجبارهم على قبول شروطهم الصعبة جدا . أما معاهدة سيفر فإنه بالرغم من توقيعها من قبل مفوضين عن العثمانية ، فإن البادشاه لم يوقع عليها . وعند عدم تصديق البادشاه عليها ، امتنعت عن تصديقها مجالس رؤساء دول ، الدول الحليفة . المجلس الوطني التركي كذلك ، لم يصادق ، وأساسا ، فإن السلطة الحقيقية في تركيا والجيش منذ 1920 ، كانت تحت إدارة أنقرة . لم يتمكنوا

من إجبار استانبول وأنقره علي قبول معاهدة سيفر ، رغم تعديلهم بعض بنودها . بقيت معاهدة سيفر كوثيقة تاريخية ، لم تطبق في أي وقت من الأوقات ، شاهدة علي ما يمكن أن تحكم به الدول الإمبريالية الأوروبية علي الدول المغلوبة وبخاصة إن كان هذا المغلوب مسلمًا وعلي وجه أخص إذا كان تركيًا .

18 – إلغاء السلطنة (1 / 11 / 1922) :

المغلوب الوحيد الذي لم تتمكن الدول الغالبة ، في نهاية الحرب العالمية الأولي ، من إجباره علي قبول معاهدة ، كان تركية . وقد سجل التاريخ أن القطر الإسلامي الوحيد الذي لم يذق طعم الاستعمار في أي وقت من الأوقات خلال تاريخه ، هو تركيا أيضًا .

ألغى المجلس الوطني التركي الكبير ، السلطنة (1 / 11 / 1922) . إن فكرة عدم إمكان عقد الصلح بأقل ضرر ممكن ، إلاّ بتأسيس علاقات حسنة مع المنتصر الأول في العالم ، إنجلترا. إنما ألقاها في روع السلطان وحيد الدين ، زوج أخته ، الوزير عديم العقل داماد فريد باشا ؛ أصبحت هذه الفكرة عقيمة علي إثر نجاح حكومة أنقره ، وإلقاء الأعداء في أزمير في البحر (9 / 9 / 1922) . لم يعترض المجلس الوطني، حتى هذا التاريخ ، على صفات البادشاه – الخليفة ، ورفع شعار إنقاذ الخاقان من إسار العدو ، كأحد أهداف الكفاح الوطني . لكن القائد العام المنتصر المشير الغازي مصطفى كمال باشا ، كان يريد الجمهورية . اعترض رئيس الوزراء رءوف (أورباي) بك ، لأسباب هي : إن حدوث الصراع السياسي في مقام عال كرئاسة الدولة ، أمر مضر . من الطبيعي أن يكون رئيس الجمهورية عضوًا أو مؤيدًا لحزب . أما الحاكم فليس كذلك ، فهوحيادي تام ، إذ إنه ليس بحاجة لمساندة أي حزب لأجل انتخابه . وعدا ذلك ، فإن الشعب التركي ، يؤمن فقط بمقام أو شخص سام جدًا ، في القضايا ذات الخطورة البالغة . ويحتمل ألا يتمكن رؤساء الجمهوريات المتعاقبون من توفير هذا الإيمان . ومن المحتمل أيضًا أن يأتي لرئاسة الدولة ، شخص ليس بوسعه تمثيل الشعب بصورة تامة أي من جميع الوجوه . ومن المؤكد أن السد المنيع لنظام اليسار المتطرف والأخطار ، هو النظام الملكي والسلطاني ، لا توجد ملكية يسارية . لكن وجهة النظر هذه لم تقبل .

وعلى هذا يبقي السلطان وحيد الدين بصفته خليفة فقط . وبسبب عدم رضائه عن إسقاط صفة الخاقانية (السلطنة) عنه وكذلك خشية من احتمال تعرضه بعد الآن لإذلال أشد ، ترك استانبول (18 / 11 / 1922) (إن عملية خطف الصحفي الشهير ، أحد نظّار عهد المدنة ، علي كمال بك قبل فترة وجيزة ، وجلبه إلى أزمير وقيام الشعب بقتله ، تأتي على رأس التطورات التي أخافت البادشاه) .

دامت سلطنة السلطان وحيد الدين 4 سنوات ، 4 أشهر ، 15 يومًا . كان عمره يناهز الـ 62 عامًا . مر على مالطة ، حجاز ، مصر وسكن في سان روميو في إيطاليا . عاش بعد مغادرته إستانبول مدة 3 سنوات ، 5 أشهر ، 28 يومًا . أصبح أيضًا رئيسًا للسلالة ، بعد إلغاء الخلافة إلي أن مات بعد سنتين ، 3 أشهر ، 14 يومًا . توفي في سان روميو وسنه تتجاوز الـ 65 عامًا بـ 3 أشهر ، 13 يومًا (16 / 5 / 1926) . نقل جثمانه إلي الشام ودفن في حديقة مسجد ياووز سلطان سليم . كانت له ابنتان ، عدا السلطانة منيرة التي ولدت وماتت عام 1888 ومحمد أرطغرل أفندي الذي توفي دون أن يتزوج .

السلطانة فاطمة علويّة (12 / 9 / 1892 – 25 / 1 / 1967) ، تزوجت أولاً (1916 – 1922) داماد إسماعيل حقي (أوكداي) بك أفندي (1881 – 1977) . طلعت وتزوجت داماد علي حيدر (كرميان أوغلو) بك أفندي في (1923) ولد من زيجتها الأولى سعادة حميراء خانم ـــ سلطان 1917 . إسماعيل حقي بك ، الابن الكبير للصدر الأعظم توفيق باشا ، صار عقيد ركن وقنصلاً عامًا ينحدر من خانات قرم . علي حيدر بك ، هو ابن الفريق الأول زلفي إسماعيل باشا (1857 – 1925) الذي هو ابن حفيد سلاحدار علي باشا (1772 – 1829) أحد صدور أعظم دور محمود الثاني .

البنت الصغرى للسلطان وحيد الدين هي رقيّة صبيحة (1 / 4 / 1894 – 26 / 8 / 1971) . تزوجت (29 / 4 / 1920) بالشهزاده عمر فاروق أفندي (29 / 2 / 1898 – 28 / 3 / 1969) ابن عبد المجيد الثاني ثم طلقت (ك 2 / 1948) . وبشأن بناته السلطانات الـ 3 سيأتي ذكرهن عند الحديث عن أولاد عبد المجيد الثاني .

19 – خلافة عبد المجيد الثاني (18 / 11 / 1922) ونهاية بني عثمان بإلغاء الخلافة (3 / 3 / 1924)

عبد المجيد الثاني ، هو الابن الأوسط للسلطان عبد العزيز (1861 – 1876) .

والدته ، حيران دل قادين أفندي (زوجة السلطان) الثانية (2 / 11 / 1846 – 26 / 11 / 1895) وهي أيضًا والدة السلطانة ناضمة (1866 – 1947) . إن عبد المجيد الثاني الذي صار خليفة بلقب « عبد المجيد أفندي » ، كان وليًا للعهد طوال سلطنة السلطان وحيد الدين . كانت رتبته فريق أول . كان ملحنًا في الموسيقي الغربية ، عازفًا علي البيانو ، عازفًا علي الكمان ، شاعرًا ، خطاطًا ، نحّاتًا ، رسّامًا ومؤلفًا . أكثر بني عثمان تقدمًا في مجال الموسيقي والرسم . له 300 لوحة ، تعد ذات قيمة كبيرة وتعرض في المتاحف . كان قد تعلم بصورة جيدة 6 لغات شرقية وغربية . وفي عهد السلطان حميد ، كان وريث العرش الخامس إلي أن بلغت سنه الـ 37 عامًا . انشغل بهذه الأعمال ، لأن الشهزادات (أبناء السلاطين) كانوا تحت ضبط صارم . وفي عهد المشروطية ، أخذ يتجول بين الشعب ، كما كان يعمل في حينه ابن عمه مراد الخامس . أفرط في هذه الخصوص وزاد عليه أيضًا في هذا الشأن الابن الكبير للسلطان رشاد ، ضياء الدين أفندي . استغرب الشعب . لم تنشر مذكراته المخطوطة والتي تكون 12 مجلّدًا ، والمحفوظة لدي ابنته . قام أثناء ولايته للعهد بفعاليات واسعة . أيد في البداية أنقرة ، وعندما شعر بعد ذلك باتجاه مصطفي كمال باشا نحو الجمهورية ، بقي علي الحياد التام بين استانبول وأنقره .

اعتلى مقام الخلافة وعمره 5 . 54 . احتفل بجلوسه بقبول البيعة على العرش الذهبي الذي أخرج إلى فناء جناح البردة الشريفة في سراي طوب قابو يوم 24 ت 2 . خرج في اليوم نفسه ، إلى صالة استقبال الجمعة في مسجد فاتح . تليت الخطب باسمه في كل أنحاء العالم الإسلامي . دامت خلافته سنة ، 3 أشهر ، 15 يومًا . صار هو ، الخليفة الثاني بعد المائة للمسلمين باعتبار الخليفة الأول أبو بكر – رضي الله عنه – . اهتمت إنكلترا كثيرًا ، بألا يأتي خليفة بعد ذلك التاريخ . وعمومًا لم يظهر في نطاق العالم الإسلامي – عدا بني عثمان – شخص له هذا الاعتبار . الشريف حسين والملك فؤاد ، كانا من الذين حدث بهما الرغبة في أن يكونا خلفاء . عبد العزيز بن السعود الذي يعلم سياسة انكلترا في هذا الشأن ، لم يجابه إنكلترا . والمعلوم أن انكلترا ، كانت حتى عام 1940 لازالت الدولة العظمى الأولى في العالم وكانت تُخشى سياستها الخارجية.

أعلنت الجمهورية (29 / 10 / 1923) بعد ترك قوات الاحتلال استانبول ودخول القوات الوطنية (قواي مليّة) (6 / 10 / 1923) . أصبحت أنقرة مركزًا (عاصمة) للجمهورية التركية واستانبول مركزًا للخلافة الإسلامية . كان الخلفية يسكن سراي دولمه بقجه . لكن السرايات القديمة كسراي طوب قابو وسراي ييلدز ، كانت تحت أمره . وخلال هذه الأيام ، قرر المجلس الذي كسب الكفاح الوطني الانتخاب المبكر . كان من المحتمل أن يكون إصدار قرار إلغاء الخلافة من المجلس الأول صعبًا . وافق المجلس الثاني علي إلغاء الخلافة (3 / 3 / 1924) . كانت سن عبد الحميد الثاني ناهزت الـ 56 .

وفي ليلة المعراج ، في الساعة 30 . 5 من صباح يوم 4 آذار ، أخذ الخليفة مع المقربين إليه من سراي دولمه بقجه وسيق إلى جتالجه بالسيارات ثم أركب القطار وأخرج إلى خارج تركية . حدد آخر موعد لترك تركية بالنسبة للشهزادات (الأمراء) منتصف الليلة التي يبدأ بها يوم 6 آذار ، وللسلطانات والبقية ، مدة أسبوع واحد . وألزمهم القانون ببيع جميع أموالهم الموجودة في تركية وتصفيتها خلال سنه بواسطة وكلائهم . كان أتاتورك يفكر في إخراج الأمراء (الشهزادات) فقط . أقنع رئيس الوزراء عصمت (اينونو) باشا ، أتاتورك بإخراج السلطانات (زوجات السلاطين) ، الخانم - سلطانات وسلطان - زاده (أولاد السلاطين) ، الداماد (أزواج السلطانات) والخانم أفندي (زوجات أبناء السلاطين) . وفي الواقع ، فإنه في النظام العثماني ، لا يحق لغير الشهزادات (أبناء السلاطين) اعتلاء العرش . أدى إخراجهم من الجنسية (التابعية) التركية وإجبارهم علي تصفية أموالهم في تركية ، إلى انقراض السلالة . ثم بيع الأموال غير المنقولة ، بأسعار مضحكة وانتقلت إلى أيدي أشخاص لم يخدموا الدولة العثمانية وليس لهم أي تاريخ في خدمة الكفاح الوطني . أصيب أعضاء السلالة ، خلال سنوات نفيهم الطويلة بضيق شديد . تمكن زوجات السلاطين والشهزادات الذين توفوا وأزواج السلطانات اللاتي توفين ، من البقاء في تركية .

أقام بنو عثمان في أماكن مختلفة وتنقلوا من مكان لآخر . يلاحظ أن أكثريتهم أقام

في بيروت ونيس وباريس . ومنهم من سافر إلى الولايات الأمريكية المتحدة . رفض الملك فؤاد في البداية دخول بني عثمان إلي مصر ، ثم أقامت أكثرية السلالة في القاهرة والإسكندرية . لم يكن بينهم من ذهب إلي إنكلترا وألمانيا . تمت الموافقة بالقانون المؤرخ في 25 / 4 / 1949 على دخول زوجات الشهزادات (الأمراء) والأصهار ، إلى تركية . وكان قد سمح في 1939 بدخول أولاد أنور باشا الذين يسمون سلطان - زاده (أبناء بنت السلطان) وإضافة إلى ذلك لاثنتين خانم - سلطان (حفيدات السلطان) ، إلى تركية . وفي 16 / 6 / 1952 سمح بدخول جميع أعضاء السلالة - عدا الشهزادات أبناء السلاطين - إلى تركية . وقد استمر خطر دخول الشهزادات الذين ولدوا في المنفي ، خارج تركية ، إلى تركية . ثم سمح في 1947 أي بعد 50 عامًا بالضبط من النفي ، بدخولهم إلى تركية . إن عملية النفي المريرة غير الضرورية هذه ، أهلكت السلالة .

توفي الخليفة عبد المجيد خان الثاني في باريس (في الساعة 21 من يوم 23 / 8 / 1944) كانت سنه قد تجاوزت الـ 76 عامًا بشهرين ، 24 يومًا . قضي في المنفي 20 سنة ، 5 أشهر ، 16 يومًا . صار رئيسًا للسلالة بعد وفاة السلطان وحيد الدين (16 / 5 / 1926) ، مدة 18 سنة ، 3 أشهر ، 8 أيام . دفن في الحرم الشريف ، في المدينة (30 / 3 / 1954) .

سكن الخليفة ، خلال 1924 - 38 19 في السراي القديم الخاص بولي عهد إنكلترا في نيس ، بالأجرة . وعند انتقاله إلى باريس عام 1938 - ولوفاة الملك فؤاد كذلك - ذهب أكثرية أعضاء السلالة الذين يسكن معظمهم في نيس ، إلى القاهرة وأقام فيها . دفعت لجنة خلافة الهند ، إلى البادشاه ، حتى وفاته راتبًا كبيرًا ، نظام حيدر آباد ، مول القسم الأعظم منه . كان الخليفة ، قد أوصي بدفنه في استانبول في المقبرة المسماة « تربه » جوار جده السلطان محمود ، أبيه السلطان عزيز ، أخيه الكبير يوسف عز الدين أفندي وابن عمه عبد الحميد الثاني . ماطلت أنقره في تلبية طلب أولاد الخليفة ، هذا . انتظر الجثمان مدة 10سنوات في مسجد باريس . وافقت حكومة أنقرة في 1953 علي نقل الجثمان إلى تركية وكانت قد وافقت قبل مدة وجيزة على دخول أعضاء ومنتسبي

السلالة عدا الشهزادات ، إلى تركية . أحيلت عريضة ابنة الخليفة ، حول السماح بإدخال الجثمان ، إلى لجنة العرائض في المجلس الوطني التركي الكبير . وقد كانت الموافقة على العريضة ، ستصبح تلقائية ، في حالة عدم اعتراض أي نائب من نواب المجلس ، خلال مدة شهر واحد . اعترض نائب قيرشهر ، أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الأميرال المتقاعد رفعت اوزدش ، مفيدًا إن منع قدوم الشهزادات إلى تركية ، لا يزال مستمرًا ، لذا فلا يمكن السماح بدخول الموتى منهم أيضًا . أخذت ابنة الخليفة ، التي فقدت الأمل ، نعش أبيها من باريس ونقلته إلى المدينة ودفنته بجوار الرسول ﷺ .

خلف عبد المجيد الثاني ابنة واحدة وابنًا واحدًا فقط ، ولدا من والدتين مختلفتين . ابنته ، السلطانة خديجة خيرية عائشة درشهوار (24 / 2 / 1914) . خطّاطة ، رسامه ، كاتبة ، تجيد 8 لغات . جاءت إلى تركية – بهوية زوجها – في 1945 وتكلمت مع اينونو بشأن جثمان أبيها ، لم تتمكن من إقناعه (كان قد منع حتي مرور منتسبي السلالة من تركية كسواح) . تزوجت (14 / 11 / 1931) أمير برار (ولي عهد حيدر آباد) داماد هدايت علي خان نوّاب مير والاشان أعظم جاه بهادور (ميلاده 1907) . هو الابن الأكبر لعثمان خان الذي كان نظامًا لحيدر آباد منذ 1911 . ولد من هذه الزيجة الأمير بركت علي خان مكرّم جاه بهادور آصاف جاه الثامن (6 / 10 / 1933) والأمير كرامت علي خان مفخّم جاه بهادور (27 / 2 / 1939) ، أخذ الأول لقب نظام حيدر آباد بدلاً من جده . تزوج كل منهم ببنت تركية .

داماد عمر فاروق أفندي (29 / 2 / 1898 – 28 / 3 / 1969) . هو ابن عبد المجيد الثاني (ترك تركيا عندما كان برتبة رائد ومتخرج في الأكاديمية الحربية في بروسيا . أصبح الرئيس الثاني للسلالة مدة 15 عامًا اعتبارًا من 2 / 6 / 1954) . دفن في استانبول في مقبرة السلطان محمود بجوار جده السلطان عزيز . تزوج أولاً (29 / 4 / 1920) . بابنة السلطان وحيد الدين الصغرى السلطانة صبيحة (1894 – 1971) ، ثم طلّق (ك 2 / 1948) . تزوج بعد ذلك (31 / 7 / 1948) بابنة عمه يوسف عز الدين أفندي الصغري ، السلطانة مهرشاه (1916) . رزق من

زيجته الأولي 3 بنات : السلطانة فاطمة نسلشاه (4 / 2 / 1921) ، السلطانة زهراء هانزاده (19 / 9 / 1923) ، السلطانة نجلاء هبة الله (15 / 5 / 1926) .

تزوجت (1940) السلطانة نسلشاه بابن الخديو عباس حلمي باشا ، ولي عهد مصر (1899 – 1914) ، آخر نائب لملك مصر الداماد الأمير محمد عبد المؤمن بك أفندي (1899 – 1979) . أولادها هما السلطان – زاده (الأمراء من نسل كريمات السلطان) الأمير عباس حلمي بك أفندي (1941) ، والأميرة إقبال خانم – سلطان (الأميرات من نسل ابنة السلطان) (1944) – تزوجت (1940) السلطانة هانزاده بولي عهد مصر الثالث قاوالالي الأمير داماد محمد علي إبراهيم بك أفندي (1900 – 1977) . أولادها هما الأميرة صبيحة فاضلة خانم – سلطان (1941) والسلطان – زاده الأمير رفعت أحمد بك أفندي (1944) . قتل ملك العراق الأخير فيصل الثاني ، عندما كانت الأميرة فاضلة مخطوبة له ، ثم تزوجت بابن رئيس الوزراء سعاد خيري أوركوبلو (1903 – 1982) وانفصلت عنه – السلطانة نجلاء ، تزوجت (1943) بأخ داماد محمد علي إبراهيم بك أفندي ، الداماد الأمير عمرو إبراهيم بك أفندي (1903) . ابنها هو السلطان – زاده الأمير رفعت عثمان رفعت بك افندي (1951) .

هكذا حكم بنو عثمان مدة 693 عامًا من 1231 حتي 3 / 3 / 1924 . شغلوا مقام الخلافة مدة 407 سنوات ، 6 أشهر ، 5 أيام (29 / 8 / 1516 – 3 / 3 / 1924) . عبد المجيد الثاني ، هو الخليفة العثماني الـ 40 ابتداء من الخليفة الأول أرطغرل غازي .

تنتهي السلطنة الفعلية لبني عثمان باحتلال استانبول وافتتاح مجلس الأمة التركي الكبير بعده بقليل (23 / 4 / 1920) وسيطرته الفعلية علي تركيا . لكنهم استمروا في استعمال لقب الامبراطور ، بادامتهم السلطنة حتى عام 1922 والخلافة حتي بداية عام 1924 .

يشكل السلجوقيون المرحلة الأولى ، والعثمانيون المرحلة الثانية والكبري ، والجمهورية التركية المرحلة الثالثة من تاريخ الدولة التركية التي تأسست في 1074 . أن دور الإمارات الأناضولية التي تشكلت في الفترة التي تتخلل مجيء بني سلجوق وبني عثمان ، لا تشكل دورًا حقيقًا ، وهو عبارة عن دور فتور .

البحث الحادي عشر

السراي والسلالة



شجرة السلالة العثمانية

1ـ ارطغرل غازي بن كندز ألب (امير مقاطعة حدودوية : 1231-1281)

2ـ عثمان غازى (امير مقاطعة حدودية : 1281-1300)
(امير مقاطعة حدودية كبير : 1300-1324)

3ـ اورخان غازى (1324-1362)

4ـ مراد الاول (خداوندكار) (1362-1389)

5ـ يلدرم بايزيد (1389-1402) (وفاته : 1403)

6ـ سليمان الاول (1402-1410)

7ـ محمد جلبى (1413-1421)

8ـ موسى خان جلبى (1410-1413)

9ـ مراد غازى الثانى (1421-1444 +1445 + 1446-1451)

10ـ محمد الثانى (الفاتح) (1444+1445+1445+1446+1451+1481)

11ـ بايزيد الثانى (1481-1512)

12ـ ياوز سليم (1512-1520)

13ـ سليمان الثانى (القانونى) (1520-1566)

14ـ سليم الثانى (1566-1574)

15ـ مراد الثالث (1574-1595)

16ـ محمد الثالث (1595-1603)

17ـ احمد الاول (1603-1617)

18ـ مصطفى الاول (1617-1618+1622-1623) (وفاته : 1639)

19ـ عثمان الثانى (الشاب الشهيد) (1618-1622)

20ـ مراد الرابع (1623-1640)

21ـ ابراهيم (1648-1640)

22ـ محمد الرابع (الصياد) (1687-1648) (وفاته : 1693)

23ـ سليمان الثالث (1691-1687)

24ـ احمد الثانى (1695-1691)

25ـ مصطفى الثانى (1703-1695)

26ـ احمد الثالث (1703 ـ 1730) (وفاته : 1736)

27ـ محمد الاول (1754-1730)

28 ـ عثمان الثالث (1754-1754)

29ـ مصطفى الثالث (1774-1757)

30ـ عبد الحميد الاول (1789-1774)

31ـ سليم الثالث (شهيد) (1808-17789) (وفاته : 1808)

32ـ مصطفى الرابع (مقتول) (1808-1807)

33ـ محمود الثانى (1808-1839)

34ـ عبد المجيد الاول (1861-1839)

35ـ عبد العزيز خان (1861-1876)

36ـ مراد الخامس (1876) (وفاته : 1904)

37ـ عبد الحميد الثانى (1909-1876) (وفاته : 1918)

38ـ محمد الخامس (رشاد) (1918-1909)

39ـ محمد السادس (وحد الدين) (1922-1918)

40ـ عبد المجيد الثانى (1922-1924) (وفاته : 1944)

1 – بادشاه :

يستهل منجم باشي شيخ أحمد ده ده ، أحد عظماء المؤرخين الذين أنجبهم الأتراك خلال تاريخهم الطويل ، المجلد الثالث من كتابه المسمى **صحائف الأخبار** الذي حرره في أواخر العصر 17 باللغة العربية والذي يبحث عن العثمانيين بما يلي :

« اعلم أيها القارئ ، أن الذين أسسوا هذه الدولة ، هم أقدر وأعظم حكام التاريخ العالمي . أنهم أصحاب أقوى سلطة ومالكو أوسع أقطار العالم على وجه الأرض . أصحاب عقول راجحة وقوّة لا تضاهى . فتح الله عليهم حظوظهم وقسمهم أنصبتهم . يعملون الكثير من الخير والكثير من الإحسان . لا نهاية لشوكة سلطانهم . هم أصحاب أحدّ السيوف وأمضى الرماح . لا يضاهيهم فرد على وجه الأرض في الثروة ، المال ، الجنود والسلاح . ليس هنالك من يناظرهم بالتأثير والقوة . يطرقون أقوم السبل . رأيهم صائب وبيّن . هم سادة الشرق والغرب ، البر والبحر وحماة مكة والمدينة . شرّفهم الله بشوكة لم ينلها أحد بعد النبي سليمان . إن هذا بيّن لدي من يدقق حياتهم . لم يرتق حكام هذه الدولة بالظلم والإساءة إلى أسلافهم الحكام والدول وشعوبها . لم يرتكبوا ما ينافي الحق . كان العدل رائدهم على الدوام . فتحوا القسم الأعظم من بلادهم من يد الكفار والظلمة . أسسوا هذه الدولة ووسعوها بحدّ سيوفهم ونصال رماحهم . لم يرثوا أحدًا ولم يحتلوا السلطنة بالتعدّي على حقوق الغير . ملئوا الفراغ الذى كان على سرير السلطنة . لم يسبق أن جاءت على وجه الأرض سلالة بهذه الأوصاف » .

إن الصفات التي يحملها البادشاه ، أعظم حاكم في العالم اقتدارا من 1447 إلى 1771 وحاكم عالمي حقيقي من 1517 إلى 1683 ، كثيرة إلى درجة يصعب تعدادها ، يحمل 4 تيجان إمبراطوريات : هو خاقان ، لكونه أكبر حاكم للأتراك ، خليفة . لزعامته العالم الإسلامي وكونه الخلف الشرعي للرسول ﷺ ، قيصر ، لكونه إمبراطورًا لروما الشرقية وسلطان ، لكونه حاكمًا على مصر . إن أهم التيجان الملكية التي يحملها هي المجر ، صربيا ، بوسنة ، بلغاريا ، يمن ، تونس ، Tlemsen (الجزائر) كرجستان ،

ارمنستان ، قره مان ، Ertana ، العراق ... جمع في شخصه العديد من تيجان الحكم التي تقل درجتها عن الملكية .

كانت ألقاب البادشاه كثيرة جدًا : خان ، خاقان ، خاقان الخواقين ، سلطان . سلطان السلاطين ، خليفة روي زمين ، أمير المؤمنين ، ظل الله في الأرض ، خليفة ربع مسكون ، شاه ، بادشاه ، هنكار ، خداوندكار ، بادشاه جهان ، جهان بادشاهي ، بادشاه عالم بناه ، ذات شاهانه ، ذات أقدس همايون ، قيصر ، قيصر روم ، مليك الغزاة ... كان الشعب غالبًا ما يسميه «بادشاه» ، والأوروبيون « التركي الكبير » أو « سلطان » ، العاملون في السراي « هنكار » . لقبه الرسمي « شوكتلو » ويمكن إضافة عدة ألقاب علي ذلك : كشوكتلو عظمتلو ، جلادتلو ... وأقصر الألقاب التوقيرية عند مخاطبته شخصيًا ، هو « أفنديمز » أي سيدنا ، وبصفة أكثر رسمية « ذات شاهانه لري » ، « ذات هما يونلري » و « شوكتمئابلري » ، وإذا كان الذي يخاطب السلطان من أفراد الشعب أو من المقربين له ، يقول « بادشاهم » أو « هنكارم » وكانت أمه فقط تخاطبه بكلمة « أرسلانم » أي أسدي . إن لقب « شوكتلو » أي صاحب الشوكة ، لقب رسمي خاص بالبادشاه العثماني فقط ولا يستعمل لأي حاكم آخر ، ويستعمل لقب « حشمتبلو » أي صاحب الحشمة إلى الملوك وكل الحكام المسيحيين والمسلمين بدرجة إمبراطور ، ويقال « شهامتلو » أي صاحب الشهامة إلى شاه إيران فقط .

كانت السلالة حنفية قحة ، وغير شيعية كجميع الأتراك . ليس بين بني عثمان من هو غير حنفي المذهب ، وقد كانت المذاهب السنيّة الأخرى (الشافعية ، المالكية ، الحنبلية) تعامل بالمساواة والاحترام . لكن يشاهد أن المسئولين في المركز في إستانبول ، كانوا حنفيين إضافًا ، وأن بعض السلاطين كانوا يدعون الشافيين للانتساب إلى المذهب الحنفي . كانت روملي والأناضول الأصلية حنفية المذهب . وأساسًا كان الأتراك السنّة قد انتسبوا إلى المذهب الحنفي فقط . لكن ، كان في الأقطار الأخري الملايين من تبعه البادشاه من المذاهب الأخري ، كان هو سلطانهم وخليفتهم كذلك . كان القضاة الذين يرسلون من إستانبول إحنافًا . لكن المفتين ، كانوا من مذهب ذلك المكان . كان في

المدن الكبيرة مفتي منفصل لكل من المذاهب الأربعة .

يتبع البادشاه ، حكامًا عديدون إلى درجة لا يمكن إحصاؤهم ، سواء كان بصفته خاقانا أو خليفة ، ومتبوعيّته بنسبة درجة مقام كل واحد منهم . وبالنسبة لبعضهم ، هو متبوع متبوعهم . لم تجبر الدولة العثمانية أكثرهم علي إعلان تبعيتهم وتبعوا البادشاه برضاهم . لكن يشاهد أن الحكام المرتبطين بشخص البادشاه (وهم الحكام العظام) يميزون عن الحكام المرتبطين بالدولة والحكومة العثمانية رأسًا . ويوجد حكام وسلالات صغار ، يتبعون ولاة إيالات العثمانية الذين يسمون بكلر بكي (أمير الأمراء) وحتى ولاة المحافظات الذين يسمون سنجق بك .

وبالطبع فإن هؤلاء الحكام ليسوا جميعًا مسلمين . وحتي غير المسيحيين منهم كثيرون ، يوجد بينهم عبدة أصنام ، بوذي ، براهمي .

ظل بنو عثمان في استانبول مدة 407 سنوات ، 6 أشهر ، 6 أيام (29 / 5 / 1453 – 4 / 3 / 1924) . أقام « بادشاه جيهان » (سلطان العالم) في إستانبول التي تسمى « باي تخت جهان » (عاصمة العالم) . ادرنه ، مدينة العرش الثانية وبورصة ، الثالثة . إن السلاطين الذين أقاموا في أدرنة سنين طويلة وفي إستانبول مدة أقل ، هم الذين عاشوا في النصف الثاني من العصر 17 . وقبل فتح إستانبول ، كانت أدرنة مدينة العرش (العاصمة) في أوروبا وبورصة مدينة العرش في الأناضول ، فتحتا في 1326 و 1326 . أصبحت بورصة العاصمة الأصلية منذ 1326 حتي كارثة أنقرة عام 1402 ، وأدرنة من 1402 إلي 1453 .

هكذا أصبحت إستانبول عاصمة ملك العثمانية التي تسمي « سلطنت جهان » ومركزًا للعالم الإسلامي مدة 4 عصور . وقد اتفق الأشخاص ذوو الصلاحية من الدرجة الأولي في الأزمنة الحديثة على أن مدينة إستانبول هي أكثر ملاءمة بين مدن العالم ، لدولة كهذه سواء من الناحية الاستراتيجية ، أو العلمية ، أو الجمال الطبيعي . قال نابليون : « لو كانت الكرة الأرضية عبارة عن دولة واحدة ، لوجب أن تكون عاصمتها إستانبول » ؛ وقال قبله بطرس الكبير : «من يحكم إستانبول يحكم العالم بأسره » (جودت 1 ، 37 ، 356) . « أسّست إستانبول في أصلح وفي ألطف مكان في الكون » (Voyage

(au Levant, Tournefort ، باريس 1717 ، 1 ، 464 – 5 » . « استانبول ، أجمل مدينة في العالم ، هي المدينة الأولى بين جميع مدن العالم ، مركز الإسلام » La Vie 35, 20,)
Quotodienne à Constantinople, Mantran

31 من بني عثمان ، البالغ عددهم 40 ، ابتداء من عهد أرطغرل غازي إلى عبد المجيد الثاني ، مكثوا في هذه المدينة ، الـ 29 الأواخر من هؤلاء ، كانوا في الوقت نفسه خلفاء أمراء مؤمنين وأئمة مسلمين .

توضح كلمات منجم باش الوجيزة التي أسلفنا ذكرها الصفات المميزة المشتركة بين حكام العثمانية . ولا شك أن هنالك كثيرين منهم لا تتشابه صفاتهم بالمرّة ، إن ذلك موجود بكثرة حتى بين الأخوة . إن أبناء السلطان عبد المجيد ، مراد الخامس ، عبد الحميد الثاني ، محمد رشاد ، محمد وحيد الدين ، الذين تعاقب جلوسهم على العرش من 1876 إلي 1922 ، يمثلون أربع سجايا متباينة ، رغم أنهم إخوة . لكن من الممكن دون شك إيجاد الخطوط المشتركة بينهم كذلك .

من الممكن إيجاد خطوط مشتركة لجميع السلاطين . أحدها ، بعدهم عن الشعور بالخوف . إن هذه الصفة تفترق بعض الشيء عن الجسارة . الجسور ، هو الشخص الذي لا يعتريه الخوف رغم معرفته الخوف . أما لدى بني عثمان ، فإن الشعور بالخوف كان في حكم المعدوم . هكذا كان يجري تعليمهم . صفة مشتركة أخرى ، هي احترامهم الدين . يوجد بينهم من هو قوي التدين أو ضعيفه ، من لا يراعي بعض قواعد الدين ، مثلاً من يشرب الخمر ، من لا يصلي الأوقات الخمسة . لكن لم يكن من بينهم ولا شخص واحد قصّر في احترامه الدين ، الله ، الرسول والصحابة . وصفة مشتركة أخرى ، جدّيتهم في رئاسة الدولة . نعم كان هنالك من لم يتمكن من تأدية واجبه بشكل جيد ، لكن لم يكن هنالك من بينهم من لم يولِ هذا الواجب حقه . قليل منهم ظالم كمراد الرابع . كان أكثريّتهم رحماء . وأكثرهم انشغل بفرع واحد على الأقل من فروع الفنون الجميلة . ولا يوجد تقريبًا من لم ينظم قطعًا من الشعر . كثيرون منهم لهم دواوين شعر معتبرة . قليل منهم من لم يزاول فنون الموسيقي والخط ، أو من لم يهتم بها على أقل تقدير . ولم يكن عدد الموسيقيين المشهورين بينهم قليلا أيضًا .

إن سبب امتداد جذور السلالة بشكل لا يتكرر ، هو جلوس أشخاص دهاة على العرش ، في العصور الأولي . إن هذا الحدث الذي لم يشاهد في أية سلالة أخري والذي يشبه المعجزة وكأنه غير طبيعي والذي دوّخ حسابات التخمين والاحتمال ، كسقوط الكرة في لعبة الروليت ، خمس عشرة مرة بصورة متعاقبة على نفس الرقم ؛ لم يقتصر فقط على إطالة عمر السلالة . ورغم وجود سلالات منافسة في مقابل كل سلالة تركية ، إسلامية وأوروبية ؛ لا يوجد في التاريخ العثماني شيء من هذا القبيل . إن أحرص الناس وأشدهم طمعًا لم يتخيلوا الجلوس على العرش العثماني قصارى الأمر أنهم فكروا فقط في وضع اليد على الدولة باسمهم ، وقد كان هذا طبعًا ربحًا كبيرًا لصالح الدولة ؛ إذ حمى الدولة من الصراع ، الذي يحدث في الدول الأخرى ، للحصول على المقام الأول وعاشت الدولة وتوسعت بانصرافها للأمور الخارجية بصورة مستمرة .

إن السلالة العثمانية ، هي أكثر السلالات بركة في تربية وتجهيز الرجال العظام بين السلالات الأخري الحاكمة على وجه الأرض (Plus feconde en grands hommes qu, aucune de) celles qui ont règne sur la foce du globe) (Jouann in - Van Gaver, Gover, و ب 8 ص ، 1840 ، باريس) Turquie, « إن كل فرد من ملوك العثمانية منذ بداية الدولة العلية حتى يومنا هذا ، الذين اعتلوا وزينوا أريكة إمارة السلطنة Turquie والخلافة ؛ هو فريد عصره ووحيد دهره ، الحق أنه لم يسبق أن حصل في أية دولة ، أن يحكمها عشرة ذوات كهؤلاء » (جودت باشا ، 1 ، 41 – 2) .

« إن الجدّية العالية في تدين الأتراك الممتزجة مع التفاني في الخدمة والشعور بالالتزام بالواجب للدولة العثمانية التي لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي ، بما في ذلك دور خلافة العرب ، تبرز للرائي فورًا . مثلاً ، أي خليفة من الخلفاء العباسيين ، وصل إلى درجة يمكن فيها قياسه مع المرابطة ومتانة الحالة المعنويّة والدينية التي بعثت في سلاطين العثمانيين الأوائل ، زخم الحركة ؟ أي من هؤلاء الخلفاء ، كان يملك ذلك الشعور الجبار بالالتزام بالواجب الذي يسوق شخصًا كسليمان القانوني المسن والمشرف على الموت ، إلى حملة حربية جديدة ويضعه وجهًا لوجه أمام مصاعب هذه الحملة ، وينقله من راحة مدينة العرش إلى صعوبات المعسكرات وإلى الموت الأكيد ؟ » Bernard Lewis ، The Emergence of Modern Turkey ، ص 13) .

وخاصية أخري في نجاح الدولة العثمانية ، هي ارتباط وإطاعة المجتمع العثماني المخلصة الصادقة ودون عوض للبادشاه . بالنسبة للعثماني أن هذه السلالة ، سوف تستمر إلى يوم القيامة ، ولا يشك أحد في ذلك . (وفي مصراع من بيت شعر لعاشق باشا ـ زاده « اعلم أن نسل بني عثمان باق إلى الأبد « منشورات آدسيز » . يحكم البادشاه علي القسم الأكبر من الكرة الأرضية . إن الارتباط والإعجاب والاحترام الذي يظهره الأتراك تجاه إمبراطورهم ، كان يجب أن يكون من صفاتنا النموذجية نحن المسيحيين . (74, 21, 1, 1677 Rouen « L'Etat Present de L'Empire OttomanLord Ricault»)

إن مكانة البادشاه في الخارج ، كانت هكذا أيضًا . وفي 1785 ، خلع سلطان فاس بردته من كتفيه وألبسها لرسول عبد الحميد الأول إسماعيل أفندي محتضنًا إياه ومقبلاً له أربع مرات قائلاً : « إنني مطيع ومنقاد للبادشاه ؛ مالي وملكي ملك له ؛ إن البادشاه هو سيّدي » (جودت ، 3 ، 272) . وفي 1787 ، قال إمبراطور الأفغان تيمور شاه لعلمدار محمد أغا رسول عبد الحميد أيضًا ، « البادشاه ، قبلة العالم » (جودت 5 ، 251 ، 342 — 6) .

البادشاه ، مقدس كالعلم . ويمثل الدولة كالعلم أيضًا . العلم ، هو رمز الدولة غير الحي المصنوع من القماش ، أما البادشاه فهو رمزه الحي . يمكن أن يقتل البادشاه ، لكنه لا يمكن أن يحقّر . كل شيء يعود للبادشاه ، وكل شيء يجري باسمه . وفي الحقيقة ، يستعمل هنا اسم البادشاه ، عوضًا عن الدولة . الدولة مفهوم معنوي ، وقد صار البادشاه رمزًا علي هذا الشكل لأنه شخص حي . يرث البادشاه الملك ، عن أجداده الذين أسسوا الدولة بقوة السيف وسيّروها إمبراطورية . جلس علي العرش ، لأن الله أراد ذلك . يستمد إرادته من الله رأسًا وهو مسئول أمام الله ، هو صاحب كل شيء . له كل الصلاحيات . إلا أن هذه الصورة ، هي في الواقع من الناحية النظرية ، ذلك لأننا نجد من الناحية العملية الفعلية ، أن البادشاه مقيد بقيود وثيقة . من هو أكثر السلاطين استبدادًا ؟ هل هو مراد الرابع ؟ آمل ألا يتهمني قرائي ، إذا قلت بأن صلاحياته لا تفوق كثيرًا صلاحيات الرئيس روزفلت . ومن الممكن القول بشكل جازم ، إن مظاهر استبداده ، تظل متواضعة بشكل يرثى له ، إذا ما قيست بمظاهر

استبداد شخص كهتلر ، أو ستالين .

2 - علامات السلطنة :

1 - الخطبة : تلي اسم الخليفة العباسي في القاهرة فقط ، قبل اسم البادشاه في خطب الجمع وصلاة العيد من 1335 إلي 1516 . كان هذا الوضع داخل حدود الدولة العثمانية . واعتبارًا من 1516 حتي 1922 ، لم يتل ضمن حدود الامبراطورية ، اسم أي شخص على قيد الحياة ، قبل اسم البادشاه في أية خطبة . وقبل 1335 ، تلي قبل تلاوة أسماء عثمان غازي وأورخان غازي ، ليس فقط اسم الخليفة الموجود في القاهرة ، بل أسماء سلاطين الإيلخانيين والسلاجقة . والمعلوم أن الخطبة ، تأتي في مقدمة حقوق الحكم في الدول الإسلامية .

2 - المسكوكات النقدية : وعلامة أخري من علامات السلطنة ، هي سك النقود المعدنية (الذهبية ، الفضية ، النحاسية والبرونزية) . لم يعثر حتي اليوم ، علي مسكوك باسم عثمان غازي . الاحتمال الأقوي أنه سك نقوده باسم البادشاه السلجوقي (إلا أنه عثر على مسكوك باسم عثمان غازي ، انظر غالب بك ، تقويم مسكوكات عثمانية) . أما أورخان غازي ، فإن مسكوكه الفضي الأول (آقجة) الموجود لدينا والمضروب باسمه فقط ، ضرب بعد جلوسه (1324) بعدة سنوات . منذ ذلك العهد وحتى 1922 ، لم يشاهد على المسكوكات العثمانية اسم آخر عدا اسم البادشاه . ومع أن الدولة العثمانية قد سمحت لتابعيها الممتازين كخانية (بالنسبة إلى خان) قرم بسك النقود باسم حكامها ؛ لكنهم كانوا يكتبون على المسكوكات اسم البادشاه قبل اسم حكامهم .

3 - الطّبل : هو من الآلات الموسيقية الرئيسية للموسيقي العسكرية التركية التي تسمى مهترخانه وهو مقدّس كالعلم . إن إحدى علامات السلطة في الدول التركية ، هي إسماع الشعب الموسيقي العسكرية ، في أوقات معينة من اليوم أمام سراي الحاكم أو والي الإيالة الذي يمثله وأمام القلاع . ولذا ، فإن البادشاه السلجوقي ، عندما أرسل في بداية عام 1300 ، إلى عثمان غازي ، الشارة (طوغ) والراية معلنًا إياه بأنه أمير كبير لإمارة حدودية (أوج بك) وأنه تابع له ، لم يهمل إرسال الطبل كذلك . عند

عزف فرقة المهتر ، كان إلزامًا قانونيًا على الجميع بمن فيهم ولي العهد ، القيام واستماع الموسيقى وقوفًا ، عدا البادشاه الذي كان يستمع وهو جالس . يظهر من ذلك بأن هذا ، كان يعتبر نوعًا من النشيد الوطني . وحتى مجيء السلطان فاتح ، كان البادشاه كذلك ، يستمع وقوفًا ، فاتح ، استثنى البادشاه من هذه القاعدة (عالي ، كنه الأخبار ، 5 ، 30) . والواضح أن المهتر ، كان يعزف باسم البادشاه السلجوقي من عام 1300 حتي سقوط بني سلجوق عام 1308 . أما الخطبة ، فتبدأ قبل 12 عامًا مع فتح قره جه حصار في 1288 ؛ تليت بذكر اسم عثمان غازي كذلك ، للمرة الأولى .

4 – العلم والراية : إن هذين اللفظين اللذين يرادفهما باللغة التركية كلمتا بيرق وسنجق ، يعنيان قطعًا من القماش ركبت على رمح . ويمثل هذا ، سلطة الدولة ، السلالة البادشاه والشعب . وهو مقدس بشكل قطعي . يضحى بكل شيء في سبيل عدم إسقاطه على الأرض . وقد حدث وأن فضّل عدة وزراء الشهادة ، الواحد تلو الآخر ، على أن يسقط العلم أو الراية على الأرض . اللون الأحمر الذي ليس أحمر تمامًا ، قريب إلى الطرنجي ، بلون اللهب ، نوع من الأحمر الفاتح ، هو لون السلالة لخاقانات الأتراك . تقبّل بنو عثمان كذلك اللون الأحمر ، لون السلالة للسلجوقيين وسلاجقة الأناضول ، باعتبارهم الورثة الشرعيين لهم (راحة الصدور ، 144 ، 148) . وهو لون العلم التركي اليوم كذلك . لكن العثمانيين كي يبينوا حيازتهم على الخلافة وأنهم الخلف الشرعي للرسول ﷺ ، حملوا الراية الخضراء كذلك وهو لون الهاشميين . يشاهد في أماكن عديدة الرايات الحمراء والخضراء بصورة متقابلة . منحوا الدول التابعة لهم حق رفع علمهم ؛ ويشاهد اليوم كذلك في كثير من الدول الفدرالية ، أعلامها الخاصة ، بجانب العلم الفيدرالي . لكن الراية (اللواء) ، يرمز إلى الاستقلال بصورة قطعية . يوجد في الراية ، هلال ، وهو رمز وطني منذ عهد أتراك كوكتورك (النجمة رمز جديد) . إن العلم الذي كان لدى العثمانية وحاليًا على شكل هلال – نجمه ، كان لدى أتراك كوكتورك ، على شكل رأس ذئب رمادي اللون .

5 – توغ : هي شارة السلطنة الملّيّة ومكانتها تقارب مكانة العلم . توغ ، عبارة عن ذيل حصان مركب على رمح . يصبغ الذيل باللون الأحمر . رأس الذئب الذي كان علمًا لأتراك كوكتورك في الشارة ، لا يوجد في شارة (توغ) العثمانية . يمثل البادشاه بواسطة 9 (بعضًا 7) شارات ، وهذه تعد سعدًا لدى الأتراك القدامى . إن الشارات التي يحملها الوزراء والمسؤولون الآخرون ، يحملونها باسم البادشاه فقط . وعلى هذا الأساس يحمل الصدر الأعظم 5 شارات ، الوزير السردار (القائد) 4 ، الوزير 3 ،

بكلر بك (الفريق الأول) 2 وسنجق بك (لواء) 1 شارة . يحمل كل شارة (توغ) في الاحتفالات والحروب ، جندي خاص يسمي توغجي (حامل الشارة) ويرفعها عاليًا . يوضع في البحرية ، بدلاً من الشارة فنار . يعلق كل من القبطان دريا (مشير البحر) 3 ، بكلر بك (فريق أول) البحري 2 وسنجق بك (لواء) البحرية فنارًا واحدًا على سفنهم لبيان رتبهم .

6 – كلمتا « همايوني » و « شاهانه » : تضاف صفات « همايون » و « شاهانه » إلي كل شيء وحاجة تعود إلى البادشاه ، ولا تستعمل هذه الكلمات لأي حاكم آخر عدا حكام العثمانية . اقتبسوا كلمة « همايون » عن السلاجقة (روضة الصفا ، 4 ، 26 ؛ ابن بي بي ، نشريات Houtsma 57, 132, 168, 236, 288) . أما كلمة « شاهانه » ، فقد استعملت في العصور المتأخرة مع كلمة همايون سوية : ذات شاهانه وذات همايون ، هو السلطان العثماني : كل شيء باسم البادشاه : أوردوي همايون (الجيش الهمايوني) دونانماس همايون (البحرية الهمايونية) ، يدنجي أوردي همايون (الجيش الهمايوني السابع) ، الفيلق الهمايوني الخامس عشر ، سراي همايون ، حرم همايون ، اندرون همايون (تشكيلات السراي الداخلية الهمايونية) ، الحملة الهيمايونية ، مكتب أركان حربية شاهانو ، مكتب ملكية شاهانه ، مكتب طبيه عسكرية شاهانه ، مكتب طبية ملكية (مدنية) شاهانه ، عساكر شاهانه ، ممالك محروسة ، شاهانه ...

7 – الطغراء : وتسمي بالعربية التوقيع أيضًا ، وهو توقيع البادشاه بشكل متداخل ومنمّق بطراز فنّي جدا : السلطان محمد مراد المظفر دائمًا . هي طغراء السلطان محمد الفاتح . تنقش الطغراء علي كل بناء شيّده البادشاه أو الدولة على كل فرمان (تعليمات) . تكون مذهبة علي الأكثر . مقتبسة من السلاجقة .

8 – مراسم تقليد السيف : بالعثمانية (قيلج آلايي . هي مراسم تقليد السيف للبادشاه في الجمعة الأولي مناعتلائه العرش ، وذلك بالذهاب إلى جامع أبي أيوب الأنصاري الذي يحوي قبره والذي شيّده باسمه في استانبول السلطان فاتح ، وإجراء مراسم تقليد السيف داخل القبر . يقلّد سيف الرسول ﷺ ، عمر ــ رضي الله عنه ــ ، عثمان غازي وسيوف أحد من أمثالهم من الرجال العظام أو اثنين منهم . ويكون ذلك بإجراء مراسم عسكرية كبري . يذهب من السراي على ظهر الحصان إلى منطقة أيوب ، ثم يرجع بواسطة قارب السلطنة . يزور البادشاه ، أثناء عودته في الطريق ، قبر أبيه ، جده ، فاتح أو من يرغب من قبور أجداده ، ويوزع صدقة كبيرة . يخرج

مئات الألوف من البشر لمشاهدة البادشاه . وهذا ، يقابل مراسم التتويج في الغرب . إن إخفاء وفاة البادشاه السابق لحين جلوس البادشاه الجديد وزيارة البادشاه الجديد لقبور أبيه وأجداده ، اقتبست من السلاجقة (ابن بي بي ، 47 ,82 ,87) . يقلد السيف للبادشاه ، إما شيخ الإسلام ، أو القاضي العسكري ، أو نقيب الأشراف أو أحد أحفاد مولانا ورئيس الطريقة المولوية الذين يسمون جلبي ، وأحيانًا يقوم شخصان معًا بعملية تقليد السيف . قلد ، السلطان سليمان القانوني ، السيف ، من قبل المتوكل آخر خليفة عباسي في استانبول عام 1520 (أولياء جلبي 10 ,38) .

9 – لقب « شوكتلو » : هو كألقاب « خاقان وهنكار » لا يحق لأحد أن يحمله عدا البادشاه .

10 – إكرامية البيعة والجلوس : إن حصول الحاكم الجديد ، فور اعتلائه العرش على قسم الطاعة المتبع في الإسلام ، من كبار مسئولي الدولة المسمي البيعة ، كما هو متبع لدي جميع حكام المسلمين . ثم يوزع مبلغ كبير لكل فرد من أفراد و-ـدات تشكيلات المركز للجيش المسماة « قابوقولو » حسب رتبة كل منهم ، ويسمى ذلك « إكرامية الجلوس » . آخر إكرامية للجلوس دفعت في 1757 ، ثم ألغيت بعد هذا التاريخ .

11 – المعايدة : يتقبل البادشاه تهاني العيد مرتين في السنة ، في عيد الأضحي وعيد الفطر وهو جالس علي عرشه الذهبي من كبار رجال الدولة فردًا فردًا وبمراسم تشريفاتية دقيقة وبالنسبة إلي تسلسل قائمة تشريفات الدولة . وبعد أن يقدم الصدر الأعظم تهانيه يقف علي قدميه على يمين العرش . ويقدم إلى البادشاه جميع القادمين فردًا فردًا مع بيان أسمائهم بصوت عال . يبارك البادشاه بالتحية باليد اليمني من الأرض وتقبيل حاشية غطاء العرش الذي أخذ مشيرى المابين في المدة الأخيرة يمسكونه . إن الهيئات الدبلوماسية المعتمدة في استانبول ، تفرجت علي هذه المراسم مدعوة واشتركت هي كذلك في هذا التبريك . إن حفلات التبريك التي كانت تجري في السنوات الدورية بمناسبة اليوم الأول من محرم ، المولد النبوي والليالي المباركة الثلاث الرغائب ، المعراج والبراءة ، في ميلاد البادشاه وجلوسه ، كانت بسيطة ولم تكن أعيادًا رسمية .

12 – زيارة السلطان : المثول بين يدي السلطان وتسمي بالعثمانية « حضور

همايون » بشكل رسمي أو خصوصي . كانت تقبل فيها يد البادشاه حتي 1574 ، وبعد هذا التاريخ ولحين نهاية السلطنة والخلافة كان يقبل رداؤه . إن كان الزائر امرأة ، كانت تسفر عن وجهها . إذ إن تغطية المرأة لوجهها في حضور السلطان ، كان من الأمور المعيبة . لأن البادشاه هو في نفس الوقت أب لجميع النساء. وهن كذلك كن يدخلن وينصرفن من حضوره بنفس الوضع .

13 – مراسم الجمعة : وتسمّى بالعثمانية « جمعة سلاملغي » . كان البادشاه يذهب في كل جمعة ، لتأدية صلاة الجمعة ، إلي أحد الجوامع الكبيرة التي يرغب الصلاة فيه ، سواء كان في استانبول أم في مكان آخر . وهذا يسمي « سلاملك رسم عاليسي . كان يتجمع جميع الشعب ، لرؤية خاقانه ، والمسلمون القادمون من جميع أنحاء العالم ، لرؤية خليفتهم ، والأجانب ، لرؤية الحاكم العثماني . إن المراسم التي كانت دينية داخل الجامع ، كانت في الطريق في الذهاب والإياب ، عسكرية على نطاق واسع جدًا . كان رجال الدولة الكبار ، ينضمّون إلى هذه المراسم بملابسهم الرسمية وأوسمتهم . البادشاه ، كان يمتطي الحصان . السلاطين الأربعة الأواخر ، امتطوا العربة . كان يمكن للراغب أن يقدم عريضة موجهة إلى شخص البادشاه في الطريق ، طيلة المسيرة . يجمعها المرافقون ويسلمونها إلى البادشاه دون فتح مظاريفها .

14 – قارب السلطنة : القارب الموجود في المضيق ذو الشراع الأحمر ، ذو الـ 3 فوانيس مذهبة ، والـ 26 زوج مجداف ، رفيع طويل ، ذو مقصورة ، يسير كأنه طائر ، كان مخصصًا لركوب البادشاه فقط . قوارب الشهزادات (أبناء البادشاه) الرسمية ، 26 زوج مجداف ، ذات شراع أزرق ، قارب السلطانات (بنات السلطان) وزوجات السلطان (قادين أفندي) ، 24 زوج مجداف وشراع أبيض ؛ قارب الصدر الأعظم 24 زوج مجداف وشراع أخضر ؛ قارب شيخ الإسلام 22 زوج مجداف والقوارب الأخري علي هذا المنوال ، تتميّز بهذا الشكل عن قارب السلطنة الخاص بالبادشاه .

15 – اللباس الرسمي : كان البادشاه ، يتميّز عن البقية بوضعه علي غطاء رأسه شارة تسمي « صورغوج » وهي شارة مزينة بالجواهر القيّمة والريش النادر . أصبحت

هذه الشارة ، توضع بعد عام 1826 على القلنسوة ومن ثم على الطربوش . وإذا ارتدى البادشاه اللباس العسكري ، كان يرتدي بزة المشير أو مشير بحري (أزيرال كبير) الاعتيادية ، بفرق واحد وهو أن قسم الصدر كان مشغولاً بالخيوط المذهبة . أي أنها كانت مزيجًا من لباس المشير والوزير ، وكان هذا خاصًا بالبادشاه في دور التنظيمات . لأن المشيرين كانوا يضعون على أكتافهم شارة المشير فقط هذه فيها خيوط ذهبية ، ولا تكون على صدورهم تزيينات مذهبة ؛ أما الوزراء المدنيون فكانوا يرتدون بدلات صدورها مشغولة بالذهب ولكن ليس فيها شارات على أكتافهم .

16 – السرادق الهمايوني : يسمي بالعثمانية « أوطاغ همايون » يعطي هذا الاسم لسرادق البادشاه وهوشبه سراي سيار مكون من شقق عديدة . يخرج زوج من هذه السرادق ، عند سياحة البادشاه (سياحت همايون) وإن كانت لغرض الحرب (سفر همايون) ويسار بها إلى المحل المقصود وتنصب الثانية على بعد منزل من الأولى . ألغي السرادق في دور التنظيمات لركوب السلاطين في القطر الخاصة . يركب البادشاه في سياحاته البحرية ، اليخت الخاص وترافقه عدة قطع من السفن البحرية . وفي الأدوار القديمة ، كانت تجهز لشخص البادشاه سفينة الأميرال الكبير .

17 – الراية الشريفة : وتسمي سنجق شريف . هي راية الرسول ﷺ الموجودة حاليًا في قسم البردة الشريفة ضمن الأمانات المقدسة في سراي طوب قابوه ، كانت هذه الراية تلازم البادشاه في الحروب ، في الثورات الأربعة . إن هذه الراية التي يخدمها فصيلة من الجند ويقفون احترامًا لها ، كانت لا تخرج من محفظتها ولا تفتح لئلا تبلى . وبذلك كان البادشاه يظهر صفة خلافته .

18 – فرمان همايون وخط همايون : إن كل أمر كتابي تصدره الحكومة حول أي عمل يخص الدولة يصدر باسم البادشاه وموشح بطغرائه ، يسمي « فرمان » . له قوة القانون ، يحل قتل من لا يطيعه . أما خط يد البادشاه ، فكان يسمي « خط همايون » . كان يحرر للمسائل المهمة ومخاطبة الصدر الأعظم على الأكثر . كان البادشاه يذيل على الأكثر بخط يده الـ (تكليفنامه) التي تسمي « عريضة » والتي يقدمها إلى الصدر الأعظم بكلمات قصيرة جدًا (« أولسون » أو « مقبول همايونمدر » وما شابه ذلك)

أي « يجري اللازم » ، و « حازت القبول السلطاني » . إن الكتاب الذي يهمش بملاحظته ، يسمي كذلك خط همايون . أمر التعيين لوظيفة عليا يسمي فرمان ، أما توجيه الرتبة فكان يسمي « منشور » .

3 ـ السلطانة ـ الأم :

وتسمى بالعثمانية والده ـ سلطان . في البروتوكول الإمبراطوري ، أم البادشاه ، هي الشخص الثاني عند اعتلاء البادشاه العرش إن كانت علي قيد الحياة . يسمي الموقع الذي تشغله « مقام مهد عليا » ، هي الإمبراطورة الفريدة . لا تعد زوجات البادشاه ، إمبراطورات فى النظام العثماني . السلطانة ـ الأم ، تسبق ولي العهد في البروتوكول العثماني . ولي العهد هو الثالث في التسلسل وتدوم رتبة السلطانة ـ الوالدة ما دام ابنها على العرش . وفي حالة وفاة أو خلع ابنها عن العرش ، تعتبر هي كذلك مخلوعة إن كانت على قيد الحياة ويطلق عليها بالعثمانية اسم « والدة عتيق » أي الوالدة السابقة أو القديمة وتفقد تسلسلها في التشريفات .

إن عدد والده ـ سلطان 21 وهذا يقل عن عدد السلاطين بمقدار النصف تقريبًا بسبب وفاة أمهات السلاطين الآخرين قبل اعتلائهم العرش . أصبحت اثنتان منهن والده ـ سلطان لسلطانين بسبب جلوس ابنين لكل منهما علي العرش . إحداهن كوسم مهبيكر سلطان وهي والدة مراد الرابع وإبراهيم خان ، والأخرى عروستها الصغيرة (زوجة ابن ابنها) رابعة أمة الله كلنوش سلطان . وهي والدة مصطفى الثاني وأحمد الثالث .

إن كان البادشاه طفلا ، تصبح الوالدة ـ نائبة السلطنة . وفي أوقات خروج البادشاه إلي الحملة أو السياحة لا تعطي النيابة المسماة « محافظ العرش » إلى الوالدة ـ سلطان ، تعطي إلى ولي العهد أو إلى شهزاده آخر للبادشاه ، أو إلى الصدر الأعظم أو إلى وزير آخر . إن عدد « الوالده ـ سلطان » اللواتي أصبحن نائبات السلطنة 3 ، هن : السلطانة ، والدة مصطفى الأول ، ولأن ابنها كان مختل العقل ، فقد أصبحت نائبة السلطنة خلال مدة سلطنته التي تتخللها 4 سنوات ، جمعا سنة ، 6 أشهر ، 26 يومًا ـ أصبحت كوسم سلطان أولاً ، نائبة خلال مدة طفولة ابنها

الكبير مراد الرابع (8 سنوات ، 8 أشهر ، 28 يومًا) . ثم أصبحت نائبة لحفيدها الطفل محمد الرابع (3 سنوات ، 26 يومًا) . مجموع كليهما 11 سنة ،9 أشهر ، 24 يومًا – أصبحت خديجة تارخان سلطان ، نائبة لابنها الطفل محمد الرابع بعد سقوط كوسم سلطان (5 سنوات ، 12 يوما) ويتضح من ذلك أن مجموع مدة هذه النيابة في التاريخ العثماني هو 18 سنة ، 5 أشهر ، ويومان .

شغلت 21 والده – سلطان « مقام مهد عليا » لمدة مجموعها 225 سنة تقريبًا ، وبقي مقام الإمبراطورية فارغًا في الأوقات الأخرى . 6 من والده – سلطان عشن بعد وفاة أبنائهن السلاطين وأصبحن « والده – سلطان سابقة » ؛ أما 15 منهن ، فتوفين خلال سلطنة أبنائهن .

بعضهن شغلن مقام والده – سلطان لمدة قصيرة جدًا (والدة محمد الأول دولت خاتون لمدة 6 أشهر ؛ والدة مصطفي الأول التي كانت في ذات الوقت نائبة 1 سنة ، 6 أشهر ، 26 يومًا ؛ خنذان سلطان والدة أحمد الأول سنة ، 11 شهرًا ، 6 أيام ؛ صالحه دلاشوب سلطان والدة سليمان الثالث سنة ، 11 شهرًا ، 27 يومًا ؛ شهسوار سلطان والدة عثمان الثالث سنة ، 4 أشهر ، 15 يومًا ؛ عائشة سينه برور سلطان والدة مصطفى الرابع سنة ، شهرين ؛ شوق – إفضاء سلطان والدة مراد الخامس 3 أشهر ، يومين .

وبعضهن بقين في هذا المقام مدة طويلة ؛ خديجة تارخان سلطان والدة مراد الرابع 34 سنة ، 10 أشهر ، 28 يومًا ؛ رحيمة بيرستو سلطان ، الأم المعنوية وامرأة أبي عبد الحميد الثاني 28 سنة ؛ كوسم مهبيكر سلطان والدة مراد الرابع وإبراهيم خان 24 سنة ، 10 أشهر ، 28 يومًا ؛ أمة الله رابعة كلنوش سلطان والدة مصطفى الثاني وأحمد الثالث 20 سنة ، 8 أشهر ، 28 يومًا ، مهرشاه سلطان والدة سليم الثالث 16 سنة ، 6 أشهر ، 9 أيام ؛ برتونيال سلطان والدة عبد العزيز خان 14 سنة ، 11 شهرًا ، 5 أيام .

قتلت من بين أمهات السلطان اللواتي شغلن مقام والده – سلطان ، كوسم سلطان فقط ، الأخريات توفين بأجلهن . هي المرأة الوحيدة التي قتلت من بين المنتسبين إلى السلالة . لا توجد بين زوجات وبنات البادشاه أيضًا امرأة قتلت .

كانت والده – سلطان ، هي رئيسة الحرم الهمايوني . يخصص لها أكبر شقة في سراي ابنها . إن الوالدة الوحيدة التي سكنت خارج سراي ابنها في مكان منفصل ، هي بيرستو سلطان ، زوجة أبي عبد الحميد الثاني .

4 – ولي العهد والأمراء الآخرون :

يطلق علي الأمراء الذين ينحدرون من جهة الأب من صلب عثمان غازي اسم « شهزاده » . الشهزادة أمير امبراطوري . وليس من الضروري أن يكون أبوه بادشاه . إن ابن الشهزادة كذلك يسمي شهزادة . كما هو الحال في السلالات الأوروبية . لكن جميع الذين يعتلون العرش ، هم أبناء سلاطين . لم يعتل العرش أمير (شهزاده) ابن أمير . ومع ذلك ، فإنه من المتفق عليه تمامًا أنهم هم كذلك ورثة العرش . إذ لو استمرت السلطنة في تركية ، بعد وفاة السلطان عبد المجيد في 1944 ، لجلس على العرش أحمد نهاد أفندي ابن صلاح الدين أفندي ابن مراد الخامس بلقب « أحمد الرابع » ، بموجب النظام الوراثي على أساس أنه أكبر الشهزادات سنًا .

إن ولي العهد الذي يسمى « أولو شهزاده (الأمير الكبير) والذي سمي بعد ذلك » « ولي عهد سلطنت » (ولي عهد السلطنة) ، كان حتى 1687 ، هو الأمير الأكبر سنًا في السلالة . يدخل ضمن قواعد التشريفات التي تطبق علي الأمراء الآخرين . لكن تسلسله في التشريفات يكون الثالث بعد والده – سلطان ، والثاني في حالة عدم وجود والده – سلطان .

أطلق لقب بك وجلبي علي الشهزادات قبل فتح استانبول ؛ ثم سمّوا بعد ذلك سلطان ،خان . وبعد 1826 قصرت ألقاب سلطان وخان ، على البادشاه ، وأطلق علي جميع الشهزادات ومن بينهم ولي العهد عنوان « أفندي » وكانت ألقابهم « دولتلو نجابتلو » أي صاحب الدولة والنجابة . إن لقب « نجابتلو » ، كان خاصًا فقط بأمراء العثمانيين . كان الشهزادات ، يأخذون أماكنهم في المراسم بتسلسل أعمارهم . ولا يمكن أن يقدم ، في المراسم ، علي الشهزاده لا أخواتهم السلطانات (الأميرات) ، ولا زوجات البادشاه اللواتي يسمون قادين افندي ، ولا أي مسئول آخر . إن

السلطانات (أميرات الامبراطورية) يدخلن في المراسم حسب تسلسل أعمارهن ، حتى بعد الشهزاده الذي ولد حديثًا .

عند اقتراب الشهزاده من سن البلوغ (لكن قبل بلوغه) ، يرسل إلي السنجق (اللواء) ويسمي ذلك « الخروج إلى السنجق » . يرتَاَل كوال على إحدي الولايات في الأناضول بصحبة أساتذته ، مربي من الرجال ومربيّة من النساء ومعيّنه الكبيرة . وكان يعطي كذلك سنجق (لواء) إلي الشهزادات أولاد الشهزادات . لا تعطى لهم ألوية خارج الأناضول في مناطق روملي أو في الأقطار العربية . واستثني من ذلك ياووز سليم إذ أعطي لواء في روملي ، لمدة قصيرة . وشوهد كذلك إعطاء السلطان سليمان القانوني وأحد أعمامه لواء في قرم . كان ولي عهد ـ شهزاده ، يرسل على الأكثر إلى مانيسا ـ ولم يكن ذلك قاعدة ضرورية ـ ويجلس على عرش ساروهان . إن عدد الشهزادات الذين منحوا إيالات (إمارات يديرها بكلر بك) قليل جدًا . وهذه عبارة عن إيالات قره مان . إذ أرسل الشهزادات لمدة طويلة إلى قونيه ، بعد سقوط بني قره مان ورجّح الشهزادات الذين أمهاتهم من بني قره مان . لأن شعب هذه المنطقة كانوا مرتبطًا جدًا بأمرائهم (بك) القدامي ، ولم يطع إلاّ من كان منسوبًا إلي سلالة تفوق سلالتهم السابقة .

أن آخر شهزاده ، صار سلطانًا بعد مجيئة من السنجق ، هو محمد الثالث (1595) . والأمراء الذين تلوه ، لم يخرجوا إلى اللواء ومكثوا في سراي آبائهم . إذ كانوا أطفالاً . توفي السلطان إبراهيم ، عندما كان يستعد لإرسال ابنه الكبير إلى مانيسا في 1648 ، ومن ثم تركت هذه العادة تمامًا . لكن الشهزادات استمروا في الخروج مع آبائهم السلاطين إلى الحملات والسياحات .

لم يُتح للأميرات (الشهزادات) أن يخلفن أولادًا ، لمدة عصرين تقريبًا ، اعتبارًا من النصف الثاني للعصر السابع العشر وفي العصر الثامن عشر والنصف الأول من العصر التاسع عشر . يستثني من ذلك ابنتا عبد الحميد الأول الذي اعتلي العرش في 1774 واللتان ولدتا في فترة إمارته .

كان الأمراء يعيشون مع أمهاتهم في الأجنحة المخصصة لهم في سراي آبائهم . وفي عهد التنظيمات خصص للأمراء عند إدراكهم سن البلوغ سرايات منفصلة ، عدا أجنحتهم

الخاصة في سرايات البادشاه . يسكن فيها مع أمهاتهم ، الأمراء الذين توفي آباؤهم ، وفي عهد التنظيمات أيضًا خصصت كلمة « سراي » لأماكن إقامات الأمراء والأميرات ، أما السرايات الخاصة بإقامة البادشاه والتي لا يمكن أن يرثها أحد والتي تنتقل من سلطان إلى سلطان آخر فسميت « سراي همايون » لتمييزها عن الآخر . رفع اسم سراي من الأماكن التي لا تسكنها السلالة مهما كانت واسعة ، وسميت « كوناك » بمعني قصر أو منزل كبير .

كان الأمراء يدفنون في قبور أحد السلاطين و على الأغلب في قبور آبائهم ، والأميرات كذلك . شيّدت قبور خاصّة لبعض منهم فقط . يشيّع جثمانهم ، كما يشيع جثمان السلاطين بمراسم الدولة الكبرى ، يصلي عليهم شيخ الإسلام ، ويحضر الصلاة الصدر الأعظم ، الوزراء ، القضاة العسكريون ، رجال الدولة والشعب . يوضع علي نعش الأمراء والأميرات (أبناء وبنات السلطان) 8 نطق مرصعة بالجواهر ، وعلى نعش زوجة السلطان (قادين أفندي) نطاقان مرصعان بالجواهر ، و على نعوش زوجات البادشاه اللواتي يطلق عليهن اسم « إقبال » ، زوجات الشهزادات ، الأميرات بنات البادشاه ، الأمراء أبناء بنات البادشاه يوضع نطاق واحد من الجواهر .

لا يجوز تقبيل وملاطفة الأمراء البادشاه باليد من قبل أي كان ، عدا آبائهم ، أمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، كما هو الحال في الأميرات بنات البادشاه ، ولا يخاطبون بأسمائهم ، مهما كانت سنّهم . و لم يكن البادشاه بنفسه يخاطب أبناءه وبناته بأسمائهم المجردة ، وكان يناديهم بالألفاظ التالية » ، محمد خان ، عائشة سلطان ، أحمد أفندي » .

لا يلتحي الأمير أبدًا » لكن كان بإمكانه إطالة شاربه . ويلتحي فور جلوسه علي العرش (Baron de Memoires Tott 71. 1) .. ياووز ووحيد الدين فقط لم يكونا ملتحيين . أما عثمان الثاني ، فلم يتمكن من إطالة لحيته بسبب عدم إدراكه السن الكافية لإنبات لحيته بكثافة .

يخصص لخدمة الأمير فور ولادته 20 جارية ، وعند إكماله السنة الأولي يرتفع عدد المعنيّين بخدمته إلى 6,03 منهم عقيد الغرفة الخاصة (7,96,7 d'Ohsson) . شروعهم بالقراءة

وختانهم ، كان يجري بمراسم كبيرة . ولادتهم ، كانت كذلك . لكن زواجهم ، كان يجري بمراسم بسيطة في أجنحتهم الخاصّة ، عدا السلطانات (الأميرات) ، كان يجري زواجهن باحتفالات كبيرة رائعة ومفتوحة للشعب على الأغلب .

5 ـ السـلطانات :

بالعثمانية « سلطان » . أطلق اسم « سلطان » منذ 1453 وحتي يومنا هذا ، علي ابنة البادشاه أو الشهزادة (الأمير) ، أي علي الأميرات الامبراطوريات المنحدرات من جهة الأب من صلب غازي عثمان ، ولأجل المبالغة في الاحترام واللطف يقال « سلطان أفندي » . كان يطلق عليهن قبل فتح استانبول اسم « خاتون » . إن 5 دفعات من الإطلاقات المدفعية ، في كل دفعة 70 إطلاقات تطلق من ساحل سراي طوبقابو وقلعة ديكوله ، تشعر شعب استانبول بميلاد شهزادة و 3 إطلاقات ، تشعر بميلاد سلطانه .

إن زوجات البادشاة أو الشهزادات ، عند ولادتهن شهزاده أو سلطان ، سواء كانت قادين أفندي (زوجة السلطان) أم خانم أفندي (زوجة الأمراء) مضطرات للولادة وسط جمع غفير من النساء . ويحتم القانون عرض المولود عند ولادته فورًا ، علي رجال الدولة الذين ينتظرون أمام الباب .

إن السلطانات اللواتي يدركن سن البلوغ ، يلبسن الرداء الطويل ويغطين الرأس ، ولا يستعمل حجاب الوجه ، إذ إن الوجه ، يظهر تمامًا من وراء الغطاء (الياشماق) الشفّاف . ولم تكن تخفي وجهها عن الشعب على أساس قاعدة عدم نظر أي رجل بنظرة سوء إلى بنات بني عثمان . يهدي البادشاه تاجا في زواج كل سلطانة . كانت تلبس هذا التاج في المراسم . البادشاه والشهزاده ، لم يلبسوا التاج أبدًا . اعتبر التاج في النظام العثماني ، زينة تخص النساء . تمنح السلطانة الطفلة راتبا، ومخصصات سنويّة قدرها 5 000 ليرة ذهبية واعتبارًا من زواجها ، يصبح راتبها السنوي 40 000 ليرة ، وعدا ذلك ، تأخذ عندزواجها 900 000 ليرة ذهبية ، وكذلك تمنح سراي مستقلا ومؤثثا تأثيثًا كاملاً . تمنح الأميرات (خانم ـ سلطان) ، اعتبارًا من تاريخ زواجهن 1 800 ليرة ذهبية سنويًا . كانت هناك سلطانات كثيرات ، على درجة من الغني ، لا يمكن قياسها بهذه الرواتب . إذ إنهن كن قد اغتنين بالأموال الطائلة التي انتقلت إليهن

عن آبائهن ، أمهاتهن ، أزواجهن . تمنح تيجان إلى زوجات البادشاه ، زوجات الشهزادات (الأمراء) ، الأميرات ، بنات كريمات البادشاه كذلك ويلبسنها في الاحتفالات . لكن هذه التيجان ، أصغر من تيجان السلطانات (بنات البادشاه) وأكثر تواضعًا .

يقوم بعقد قران السلطانات (كريمات السلطان) شيخ الإسلام وبنات كريمات السلطان (خانم - سلطان) قضعسكر (القاضي العسكري) روملي . كان هذا ما ينص عليه القانون . يكون آغا (آمر) دار السعادة وكيلاً للسلطانة ، ويكون الصدر الأعظم أو أحد الوزراء ، وكيلاً للصهر . السلطانات ، كن يتزوجن بشرط حيازتهن على حق تطليق أزواجهن . وقد استعمل بعضهن هذا الحق . لا تتمكن كريمة السلطان أو حفيدة السلطان من الزواج ، ما لم يوافق ويستصوب ذلك البادشاه .

كان للسلطانات كذلك ، كما للشهزادات وزوجات البادشاه ، قوارب رسمية بألوان خاصة وعدد مجاديف معيّنة وعربات ذات 4 خيول . إن العربة ذات الـ 4 خيول ، خاصة بالشهزادات أما السلطانات وحتى الصدر الأعظم ، فكانت عربته ذات حصانين .

كان يطلق اسم « داماد شهريلري » على أزواج السلطانات بصورة رسمية واختصارًا « داماد » (صهر) . إن لم يك باشا . كانوا يستعملون لقب « بك أفندي » وتلفظ « بي أفندي » . تطبق عليهم مراسم التشريفات المخصصة للأمراء من نسل كريمات السلطان (سلطان - زاده) . ورغم أن السلطانات ، كن يدخلن المراسم بحسب تسلسل أعمارهن ، كان الأصهار يدخلون مراسم التشريفات بتسلسل تواريخ زواجهم . لا يمنح أزواج السلطانات راتبًا إضافيًا لاتصافهم بصفة داماد (صهر) . كلهم . كانوا موظفي دولة . كانوا يتقاضون رواتب وظائفهم . الأصهار الذين لم يحصلوا على رتبة وزير . قليلون جدًا . كان اختيار الأصهار يجري من بين الرجال العسكريين ونادرًا من بين الرجال المدنيين أو من بين أولادهم . لا ينتخب الأصهار أبدًا من بين رجال الدين .

يسمى أبناء السلطانات « سلطان - زاده » و « بك أفندي » (بعضهم باشا) ؛

وتسمي بنات السلطانات « خانم ـ سلطان » . هؤلاء كانوا أمراء وأميرات . لكنهن لم يكن أميرات إمبراطورات. كأمهاتهن السلطانات ولم يكونوا أمراء امبراطوريين كالشهزادات كانوا أميرات وأمراء اعتياديين . اعتبرت السلطانات كريمات السلطان) والشهزادات (أبناء السلطان) فقط : أعضاء للسلالة . إن أبناء بنات السلطان (سلطان ـ زاده) وبنات كريمات السلطان (خانم ـ سلطان) كانوا أمراء وأميرات كزوجات البادشاه والشهزادات وأزواج السلطانات ، لكنهم كانوا « منسوبين إلي السلالة » . لا يحق للسلطان ـ زاده أن يعتلي العرش . لأن النسب يأتي عن طريق الأب نسب الأم ، لم يكن معتبرًا .

كان بالإمكان عقد النكاح علي السلطانات الأطفال . يصبح زوجها « داماد » (صهر) بصورة رسمية حين عقد النكاح . لكن لا يجري الزفاف أبدًا ، ما لم تدرك سن البلوغ . ولا يمكنها أن تخرج إلي سراي منفصل قبل الزفاف ، وتبقي في سراي البادشاه . سلطانات كثيرات ، أصبحن أرامل دون زفاف ، لوفاة أزواجهن قبل إدراكهن سن البلوغ ، وتسمي هذه الزيجات ، زيجات « صورية » . إن متوسط أعمار بنات عبد المجيد الأول (1839 ـ 1861) الـ 8 وقت تواريخ زواجهن الحقيقي ، هو 6 / 17 سنة . أما متوسط أعمار بنات ، ابنه عبد الحميد الثاني (1876 ـ 1909) الـ 7 في تواريخ زواجهن ، 1 / 20 سنة . ثبت زواج 6 سلطانات ، في سن 12 بالزفاف ، وسلطانتان تزوجتا بعد سن الـ 30 . هنالك سلطانات جرى زواجهن 8 مرات بسبب وفاة أزواجهن بصورة متعاقبة .

السلطانات ، لا يخرجن من استانبول . كان لا يمكنهن مصاحبة أزواجهن في حالة اشتغال أزواجهن بوظائف في مختلف أنحاء الامبراطورية . لا يمكنهن الحصول علي موافقة لأداء الحج . وكانت تحصل استثناءات قليلة جدًا لكل ذلك . تم تزويج بعض السلطانات ، قبل العصر 16 بأمراء (بكلربك) الأناضول أو بحكام مسلمين آخرين (مثلاً سلطان المماليك) . ثم تركت هذه العادة بشكل قطعي . إن السلطانات اللواتي تمكن من مصاحبة أزواجهن في الأقطار الخارجية ، كان خروجهن بعد عام 1908 .

إن أطول زيجة سلطانة ، هي زيجة البنت الكبري لعبد الحميد الثاني ، السلطانة زكية

بالمشير داماد نور الدين باشا . الابن الكبير لغازي عثمان باشا ، انتهت في سنتها الـ 61 بوفاة السلطانة عام 1950 . وأقصر زيجة فعلية هي التي حصلت بزواج السلطانة بهيجة ، إحدي بنات السلطان عبد المجيد بالداماد حميد بك أفندي ، انتهت بوفاة السلطانة بعد 14 يومًا (1876) . يشاهد أن السلطانات عشن مدة أطول من الشهزادات ، وأن اللواتي توفين وهن كبيرات السن جدًا ، لسن قليلات .

إن لقب السلطانات الرسمي ، كان « دولتلو عصمتلو » (صاحبة الدولة صاحبة العصمة) ويضاف إلي نهايات أسمائهن عبارة « عليّة الشأن » مثلاً كان الاسم في الكتابة على هذا الشكل : دولتلو عصمتلو عائشة سلطانعلية الشأن حضرتلري .

6 – زوجات البادشاه والشهزادة (أبناء البادشاه) :

البادشاه والشهزادات ، حتي 1520 تقريبًا ، كانوا يتزوجون بأميرات الإمارات الأناضولية التركمانيات أو بأميرات مسيحيات من البلقان . أصبحت الإمبراطورية في هذا التاريخ دولة عالمية عظمي بحيث لم تبق سلالة مجاورة للحصول علي ابنتها . لم تكن حينذاك عادة طلب البنت من العائلات العثمانية الكبيرة . كان البادشاه لا يرغب في تأسيس روابط قرابة مع عائلات من رعيته . كانوا يتحاشون جدًا أن يظهر أشخاص كأب زوجة البادشاه ، أخ زوجة البادشاه . إن زواج عثمان الثاني بابنة شيخ الإسلام ، حادثة استثنائية . والمعلوم أن عائلة بني عثمان ، كانت تعتبر العائلة العريقة الوحيدة للدولة . مجرد ولادة الشخص من بني عثمان ، كان امتيازا بالولادة بحد ذاته . لم يعترف لأية عائلة ، بامتياز الولادة . ولهذا ، فإن النظام العثماني علاوة علي كونه مضادًا للنظام السلالي الأوروبي ، فإنه يختلف كذلك عن السلالات الإسلامية والتركية الأخرى .

وبناء على ذلك ، يبقي مصدر واحد ، وهو الزواج بالجاريات عديمات النسب . يشاهد أن السلاطين والشهزادات الذين تزوجوا بجاريات متنوعات الجنسية خلال العصر 16 ,17 ؛ استقروا في العصرين الذين يليانه على الزواج بالجاريات القفقاسيات والجركسيات بصورة عامة .

كان الحرم الهمايوني بحاجة مستمرة إلي جاريات . كن يجلبن وهن صغيرات السن

جدًا . كان يجب أن يكن « جميلات لا عيب فيهن ويكن ابكارًا » (Ricault, I, 119) .
يساق هؤلاء إلى الصنف المبتدىء ، تعلمهن الجاريات المسنّات اللغة التركية ، الديانة ، القراءة والكتابة وبالنسبة لمهارتهن ، تعطى لهن دروس في الأدب ، الموسيقى ، الرقص ، النقش ويعلّمن أدب وأصول السراي . ثم يتم توزيعهن على أجنحة الجواري ذوات الرتب ، زوجات البادشاه ، السلطانات . وتختار زوجات للسلاطين والشهزادات ، من بين الجواري اللواتي أكملن تحصيلهن وتخلصن من صفة « البنت المبتدئة » (عجمي قيز) وتوصلن إلى سن الزواج (وعلى العموم سن 15) ، سلطانان فقط اختار كلاهما زوجة له من بين المبتدئات . إن الجارية التي أكملت تحصيلها و لم تكن زوجة لبادشاه أو شهزاده ، والتي خدمت براتب مدة 9 سنوات بعد مدة التحصيل ، في حالة عدم إصرارها على عدم استمرارها في الخدمة في السراي ؛ كانت تزوّج بإعطائها بائنة ضخمة وتسمى هذه « جراغ ايديلر » أي تزوج بإعطائها بائنة . إن هؤلاء يعتبرن بنات معنويات للوالدة – سلطان أو للباشقادين افندي (زوجة السلطان الأولى) ، ولا يقطعن صلتهن بهن . يزوجن بأحد رجال الدولة أو بأحد أبنائهم . كن يسمين « سرايلي خانم » أي سيدات السراي ، ولأن تربيتهن تجري بشكل فائق ولكونهن جميلات ولأنهن قد وفرن رواتب 9 سنوات والعطايا والجواهر التي تعطى لهن ، كان رجال الدولة يرغبون في طلب يد سيدات السراي لأبنائهم . لا يجوز أبدًا لغير البكر ، للمتزوجة وللأرملة أن تخدم في السراي .

كانت تخدم في السراي ألف جارية تقريبًا ، على هذا الشكل . فمثلاً ، كانت تخدم في عهد السلطان عبد المجيد (1839 – 1861) 58 جارية في جناح ولي العهد ، 42 في جناح ولي العهد الثاني ، 34 في جناح ولي العهد الثالث ، 11 إلى 17 في جناح زوجات البادشاه (أرشيف سراي طوبقابو رقم E 4002) . وفي دور السلطان عبد العزيز (1861 – 1876) كانت تخدم في جناح والده – سلطان 43 ، جناح ولي العهد 47 ، في جناح كل واحدة من زوجات السلطان من 15 إلى 23 ، في أجنحة زوجات البادشاه اللواتي يسمين « إقبال » من 8 إلى 15 (أرشيف سراي طوبقابو ، E 4002) .

وفي دور محمود الثاني (1808 – 1839) كان راتب الجواري 30 – 100 آقجه في اليوم . 100 آقجه في اليوم ، تعادل حاليًا 200 5 دولار أمريكي في الشهر . كل مصروفات الجارية ، تؤمن من السراي ، ولأنها كانت توفر راتبها الذي تقاضته عن 9 سنوات من الخدمة ، وتتسلم من السلالة خلال هذه المدة هدايا قيّمة وبائنة كبيرة عند زواجها ودارًا للسكن أيضًا ؛ فإنه يتضح سبب رغبة الجميع في الزواج بآنسة سرّحت من السراي .

كانت الجارية المبتدئة التي لم تكمل تحصيلها ، تسمي « أعجمي » لا تقبض راتبا . تخدم بعد ذلك بلقب جارية ، ثم بلقب شاكرد (معاونه) ، ثم بلقب أسطه (ماهرة) مدة 9 سنوات . ويطلق على اللواتي أكملن خدمة الـ 9 سنوات ورغبن في الاستمرار في الخدمة « كذيكلي » أي متقدمة وهي رتبة أعلي . كن يحصلن علي هذه الرتب أو الدرجات بنسبة الرضي عن خدماتهن .

وفي نهاية العصر18 كان راتب زوجة السلطان الأولي (باشقادين افندي) السنوي 30 000 ليرة ذهبية . راتب الأخريات كان أقل . وإضافة إلي ذلك ، كانت كل زوجة من زوجات السلطان تمنح مبلغًا يتراوح ما بين 15 إلي 18 ألف ليرة ذهبية عند كل ولادة (d' Ohsson ,7 ,72 – 3) . فمثلاً ، كان البادشاه يلبس رأس زوجته عند ولادتها الأولى وهي علي فراش النفاس تاجًا ، هذا التاج يكون بعد ذلك ملكًا لها . (Ricault ,1 ,123)

تسمي زوجات السلاطين « هاسكي » « Haseki » (بالفارسية خاصّكي) ، ونادرًا ما سميت واحدة أو اثنتان من زوجات بعض السلاطين « هاسكي سلطان » واعتبارًا من العصر 18 ، استبدلت كلمة هاسكي بكلمة قادين أفندي واستمر ذلك إلي النهاية . حملت زوجات السلاطين ألقاب باشقادين أفندي (زوجة السلطان الأولي) ، زوجة السلطان الثانية ، الثالثة ، الرابعة نسبة إلي تواريخ زواجهن بالبادشاه . سواء أكانت أم الولد أم لم تكن ، فذلك لم يكن يغير من وضعهن وألقابهن . إن توفيت إحدي الزوجات يستمر تسلسل القدم ، عندئذ الباش إقبال تصير ، زوجة السلطان الرابعة .

إن زوجات البادشاه اللواتي يحملن لقب (قادين أفندي كن في التشريفات بمرتبة الملكة . لكن حتي زوجة البادشاه . الأولي لم تكن تعتبر إمبراطورة الإمبراطورة الوحيدة ، إن كانت علي قيد الحياة ، فهي لم البادشاه أي والدة ـــ سلطان .

إن زوجات البادشاه ، القادين أفندي والاقبال ، اللواتي أصبحن أرامل بعد وفاة أزواجهن السلاطين ، يمكنهن الزواج في حالة رغبتهن في ذلك . لكنّهن يفقدن ألقابهن . وحتي يكون زواجهن ممكنًا ، يشترط أن لا يكون لهن ولد ، شهزادة أو سلطان (ابنًا أو ابنة) . وإلا فسوف يظهر أب ثان للشهزادة أو السلطان ، وهذا ما لا يسمح به . وكذلك في حالة تطليق البادشاه زوجه ـ وهنالك عدة نماذج لذلك ـ ، تتمكن من الزواج بمن تشاء في حالة عدم وجود ولد لديها .

إن زوجات البادشاه اللواتي يأتين بعد القادين أفندي مرتبة ، يطلق عليهن اسم « إقبال » ويكون تسلسلهن على شكل باش إقبال ، ايكينجي ، أوجونجي ، دوردنجي إقبال (إقبال الأولى ، الثانية ، الثالثة ، والأربع) . وتسمي زوجات البادشاه الـ 4 اللواتي يلين الإقبال « كوزده » والأربعة اللواتي يلينها « بيك » Peyk . وبالطبع لم يكن لجميع السلاطين هذا القدر من الزوجات . الإقبالات الأخريات كن في التشريفات بمرتبة الأميرات . « الإقبالات » . كن مساويات في التشريفات للخانم ـ سلطانات (الأميرات بنات كريمات البادشاه) ، القادين أفندي ، كن مساويات ومعادلات للسلطانات (كريمات السلطان) ويشاهد في المكاتبات ، في الخطاب إلى القادين أفندي (زوجات السلطان) استعمال ألقاب « دولتلو عصمتلو » ـ كالسلاطين ـ ، ويطلق على الإقبالات لقب « عصمتلو » فقط ـ كالخانم سلطان ـ كان يطلق على الإقبالات لقب « خانم أفندي » . أما الـ « كوزده » والـ « بيك » فكان يطلق عليهن لقب « خانم » فقط وكن أصغر أميرات .

لم يكن هنالك فرق بين الزوجات اللواتي تزوجهن البادشاه عندما كان شهزاده (أمير) وبين اللواتي تزوجهن وهو بادشاه . ولأن اللواتي تزوج بهن عندما كان شهزاده ، يحصلن على لقب قادين أفندي بعد اعتلائه العرش ، عندئذ يكن أقدم من الأخريات .

كان يطلق على زوجات الشهزادات « خانم أفندي » بصورة رسمية ، كانت درجة هؤلاء مساوية لدرجة « الإقبالات » والخانم سلطان في التشريفات . كانت الزوجة الأولى للشهزادة تسمى « باشخانم أفندي » زوجات الشهزادات ، لم يكن أميرات

إمبراطوريات كأزواجهن ، كن فقط أميرات ، لا يتزوج الشهزادة بأكثر من 4 زوجات . وإن حدث ذلك ، تعتبر عندئذ جارية اعتيادية ، ولا يمكنها الدخول في التشريفات .

زوجات البادشاه ، القادين أفندي « والإقبالات » اللواتي يتوفى أزواجهن السلاطين ، كن يسكنّ مع أولادهن . ولا يسكنّ أبدًا في حرم البادشاه الجديد . إن كان لها سلطانات (بنات) متزوجات ، فتذهب إلى سرايهن ، أو تذهب إلى بيوت أبنائها الشهزادات ، وإن كن بلا ولد ، يخصص لهن شقة في السراي القديم الموجود في بيازيد أو يعطي لهن سراي أو قصر منفصل .

7 – **الحرم الهمايوني :**

الحرم الهمايوني ، هو قسم السراي الذي يعيش فيه البادشاه مع أولاده وزوجاته ، وينام فيه الليل . رئيسة الحرم هي السلطانة – الوالدة ، وعند عدم وجودها ، الباشقادين أفندي (زوجة البادشاه الأولى) . إلا أن الإدارة تحت سيطرة موظفين كبار جدًا أحدهما رجل خصي ، والآخر امرأة بكر : دار الشريفة أغاسي الذي يسميه الشعب « قيزلر أغاسي » (آمر البنات) وباشخزينة دار اسطه .

قيزلر أغاسي ، خصي زنجي أو حبشي . لا يجوز للأبيض أن يكون خصيًا . هو بدرجة وزير . وهو رئيس الخصيان الموجودين في الحرم . وينتخب من بين الأغوات الخصيان الذين يرتقون إلى مناصب كمنصب خزينة دار (المسئول عن الأموال والصرف) ووظيفة مصاحب ينظم علاقات الحرم مع الخارج .

إن إدارة الجواري الموجودات في الحرم ليست تحت إشراف قيزلر أغاسي ، بل تحت إشراف الجارية الكبيرة المسماة باشخزينة دار اسطة . درجتها معادلة لدرجة وزير وتتقاضى راتب وزير . تحمل بيدها عصا طويلة تمس الأرض . إن أحد أختام البادشاه الثلاثة ، لدي هذه الجارية (الآخران لدى الصدر الأعظم ولدى خاص أوده باشي « رئيس الغرفة الخاصة ») . كان راتبها في أواخر العصر 18 ، 000 15 ليرة ذهبية سنويًا ، هذا عدا عطايا البادشاه والسلطانة (3 – 72, 7, d'Ohsson) . الخزينة دار

الثانية والخزينة دار الثالثة ، مساعدتان لها ودرجتهما تعادلان بكلر بك (فريق أول) وسنجق بك (لواء) . إن عدد الخزينة دار 12 على الأكثر . إن هؤلاء جاريات في أعلى الرتب . إن واجب للابين الخاص بالسلطانة - الوالدة ، بالسلطانات في الحرم ، بزوجات البادشاه ، ملقي علي عاتق هؤلاء الجاريات . الخزينة دار الخمسة الأوليات ، يمكنهن الدخول إلى غرفة البادشاه بكل حرية ، أما رئيستهم الباشخزينة دار ، فيمكنها الدخول إلى غرفة البادشاه أثناء نومه وإيقاظه لأمر هام . وحتي زوجات البادشاه مجبرات على تنفيذ الإخطارات والتعليمات التي تصدرها حول تأمين النظام والتشريفات . إن الخزينة دار الـ 15 الأوليات مخولات بلفت النظر إلى التصرفات الخاطئة حتى لزوجات السلطان اللواتي يطلق عليهن اسم « إقبال » . إن الباشخزينة دار كانت تحفظ عن ظهر قلب وبصورة فائقة عادات وقواعد وأصول التربية والآداب المتبعة في السراي . وهي التي تنظم مراسم معايدات الحرم ، ترتدي في معايدات الحرم أفخر ألبستها الخاصة ، وتثبت على صدرها أوسمتها مع الختم الهمايوني الذهبي . لا يحق لها الذهاب إلى الاحتفالات خارج الحرم .

لكل خزينة دار جولري خصّصن لخدمتها ، وحصص للخدمة الشخصية للباشخزينة دار ، 20 جارية تقريبًا . ومن الواضح أن وظيفة الخزينة دار ، تقابل وظيفة ضابط خاص أوده في الاندرون همايون (تشكيلات السراي الداخلية) . وتتسلسل بعد الخزينة دارات 5 كاتبات برتبة « قلفه » يعنين بأمور التشريفات والزيارات ، ثم يأتي بعد ذلك بحسب تسلسل التشريفات الجواري المسميات جماشيرجي (غسالات الملابس) ، ابريقدار (المختصات بالأباريق) ، جشنكير (المعنيات بالاحتفالات) ، قوطوجي ، كيلرجي (خازنات الذخيرة) ، شربتجي (صانعات أو مقدمات المشروبات) . وتعمل في كل صنف من هذه الأصناف جاريات عديدات . فمثلاً ، تدعي أقدمهن باشقهوة جي قلفه ومعاونتها ايكنجي قهوه جي قلفه .

وأخيرًا ، كان للحرم فرقة بنات كاملة للموسيقي التركية (ساز) وفرقه (باندو) للموسيقي الغربية وهذه الفرق ألبست ملابس الرجال بعد التنظيمات ، برزت من بينهن ، دلحيات قلفه ، أعظم ملحنة تركية (1750 - 1820) . بإمكان المدرسين الرجال الدخول إلى الحرم للتدريس .

إن الجواري الأطفال أو البنات الشابات لزوجات البادشاه والسلطانات ، كن عنصرًا من عناصر العظمة . لا يقمن بأي عمل . كن يتعلمن بالرؤية والسماع . ظهر من بين هؤلاء خاصة ، زوجات سلاطين . الجواري ذوات الرتب كن يتجولن بكامل جواهرهن . لكن النديمات بصورة خاصة ، كن يتزيّن بشكل يمكن أن يقال عنه ، إنهن غرقي في بحر من الجواهر . تبقي هذه الجواهر لديهن ، عند زواجهن .

تتمكن مولّدة (قابلة) البادشاه ، مربيته ومرضعته إن كانت علي قيد الحياة ، من الدخول إلي الحرم كيفما تشاء . إن شاءت تتمكن من المعيشة في الحرم في إحدي الشقق ، أو في قصرها في المدينة . وكان وضع المربيات الشابات للسلطانات والشهزادات لا يختلف عن ذلك . إن السلطانات والشهزادات الأطفال ، كانوا ينادونهن بخطاب « آبا ، آبام » وهي محرفة عن « آبلا ، آبلام » أي الأخت الكبيرة ، أختي الكبيرة . كانت اللهجة الاستانبولية التي تعتبر نموذجًا للغة التركية ، تقسم إلي 4 لهجات أساسية وهي لهجات السراي ، الباب العالي ، المدرسة (المدارس الدينية) ، الشعب . واللهجة النموذجية ، كانت لهجة الباب العالي ، إن اللغة التي كان يتكلمها الكاتب أفندي في الباب العالي ، كانت أرقي وألطف تركية في العالم .

كان للشهزادات (أبناء البادشاه) وللسلطانات (كريمات البادشاه الأطفال خدام – مربون من رجال الأندرون المسنين والذين يسمون « تايا » . هؤلاء كانوا يستصحبون الشهزادات والسلطانات الأطفال من الحرم إلي الخارج ويقومون بخدمتهم . وعندما يكبر سن الشهزاده قليلاً ، يخصص له مربٍ ، رجل آخر يسمي (لالا) . يختار الـ « لالا » ، من بين رجال الدولة المتقاعدين المحترمين الذين شغلوا مناصب مهمة ، لكن مع ذلك ، كان يوجد لالات شباب كذلك . كان واجب اللالا أرفع كثيرا من واجب الـ « تايا » . كان أستاذ الشهزادة في العسكرية ، استعمال الأسلحة والركوب على الخيل .

8 – سراي طوب قابو :

أشهر سرايات البادشاه ، هو سراي طوب قابو . إذا تلفظت كلمة « سراي » في الأدب الأوروبي ، بمنطوقها التركي وبمفهومها المطلق ؛ يعني بها « سراي طوبقابو » . السراي ، في الذوق العماري التركي يتكون من أقسام (سرادق) ، سرايات منفصلة ، قصور ، أبنية كبيرة وصغيرة متناثرة داخل حديقة واسعة . إن السراي المشيد من قطعة

حجرية واحدة ، والخاص بأوروبا ، دخل إلي الفن العماري التركي - مقتبسًا من أوروبا - في العصر الـ 19 . إن سراي طوبقابو هو المجمع الذي شيد فيه باستمرار من نهاية العصر 15 إلي أواسط العصر 19 أقسامًا جديدة . هو ليس سراي من قطعة واحدة . إن هذه الأقسام متناثرة علي عرصة أو حديقة مساحتها 000 699 م^2 أي 7 كم^2 . إن سراي أباطرة البيزنطيين وقت عظمتهم ، كان 5 / — كم^2) .

كان يعيش في سراي طوبقابو ، نفوس مدينة كاملة . بلغ نفوس السراي قرابة عام 1640 ، 000 40 نسمة منهم 000 12 حرس عسكري وهذا أكثر ما توصل إليه . كان كالمدينة محاطًا بسور من جهة البر والبحر وكان في 6 من أبراج السور ، مدافع . سكن السلاطين ، في محل إقامتهم الرسمي هذا ، قرابة 5 . 3 عصر .

لم تكن السرايات ، أملاكًا شخصية للبادشاه لا يتمكن من بيعها ، وتوزيعها . كان ينقلها إلي خلفه فقط . جميع أثاثه ضمن هذا الحكم . ينسحب هذا الحكم أيضًا علي الأثاث الأثري والجواهر الموجودة في دائرة الخزينة . تنتقل من بادشاه إلي بادشاه آخر . إذ لو قسمت السرايات ودوائر الخزينة عند وفاة كل بادشاه بين ورثته ، لما بقي سراي لسكني البادشاه الجديد . يستثني من ذلك ، الدراهم النقدية النهبية والفضية الموجودة في الخزينة . بإمكان البادشاه أن يستعمل هذه النقود كما يشاء ، حتي أنه يتمكن من صرفها إلي آخر مليم .

سكن السلاطين ، قبل فتح أستانبول ، السرايات الموجودة في الأماكن كبورصة ، وأدرنة ، ديمتوكا Dimetoka وعند فتح استانبول ، شيّد السلطان فاتح سرايا في المحل الذي تحل فيه الآن البناية المركزية لجامعة استانبول . ولم يرقه ذلك بسبب كونه وسط المدينة . سمي هذا المكان « السراي القديم » وخصص لزوجات السلاطين المتفوقين . اختار السلطان بعد ذلك ، موقعًا خارج المدينة نسبيًا في نهاية المضيق علي بحر مرمره في الموقع الذي سيسمي بعد ذلك « سراي بورنو » ، وبدأ بتشييد الأقسام (السرادق) الأولي لسراي طوبقابو والسكن فيها . وسمي بالنسبة للسراي القديم « سراي جديد عامره » . لكن شعب استانبول ، استصعب تلفظ هذا الاسم وسماه « طوب

قابوسرايي » (السراي ذو الباب وذو للدافع) ، إذ إن فاتح كان قد أمر في 1478 بوضع مدافع أمام أحد أبواب السراي المحاط بالأسوار رمزًا للعظمة . سكن فاتح في سراي طوبقابو مدة 15 – 16 سنة ، خلال وجوده في استانبول والمعلوم أنه لم يتمكن من السكن في مدينة العرش لمدة طويلة بسبب حملاته المستمرة . وأساسًا فإن توسع السراي ، حدث بعده .

أضاف ابنه وخلفه بيازيد الثاني (1481 – 1512) بعض أقسام إضافية . سكن السلطان ياووز سليم مدة قصيرة في السراي ، بسبب حملات (1512 – 1520) . أما في عهد السلطان سليمان القانوني (1520 – 1566) فإن السراي توسع بصورة أساسية . لم يذهب أي بادشاه بعد القانوني ، إلى السراي القديم في بيازيد ، وأصبح سراي طوبقابو بعد ذلك محلاً قطعيًا للإقامة . طول الأسوار ينيف علي الـ 5 كم .

للسراي 6 أبواب كبيرة تفتح علي المدينة ثلاثة منها على أسوارها البحرية وثلاثة على أسوارها البريّة وأبواب صغيرة عديدة تسمى « قلطوق قابوسي » . البوابة الكبيرة الأصلية المسماة باب همايون ، هي اليوم المدخل لحديقة كلخانه « كلخانه باركي » . يدخل منه إلى الفناء الأول . لقد عني بكنيسة آيا ايريني البيزنطية الصنع الواقعة علي يسار الفناء ، جمعت فيها الأسلحة القديمة كذكرى تاريخية وأصبحت اليوم متحفًا عسكريًا غنيًا جدًا . وكانت دائرة المسكوكات النقدية الإمبراطورية (ضربخانة همايون) ، في أقصى اليسار . كانت النقود العثمانية في الأدوار السابقة في استانبول ، تسك فيها . وتسك فيها اليوم كذلك ، النقود المعدنية والذهبية الخاصة بالدولة يجتاز من الباب المسمي « باب السلام » والذي يسميه الشعب الباب الثاني والباب الوسطى ؛ من الفناء الأول إلي الفناء الثاني . الفناء الثاني ، يسمي « آلاي ميدان » (ميدان المراسم) . تجري فيه الاحتفالات الكبري وتوزع فيه علي أوجاقات (حاميات) القابوقولو رواتبهم المسماة « علوفة » في كل 3 أشهر باحتفال عسكري . الباب الوسطي ، هو اليوم باب المدخل إلي متحف سراي طوبقابو . كان بإمكان الشعب نهارًا ، الدخول بحريّة إلى الفناء الأول حتى الباب الوسطي بقصد التفرج والتنزه .

وفي يمين الفناء الثاني أو ميدان المراسم ، يقع « مطبخ عامرة » المطبخ الهمايوني ذو

الـ 20 مدخنة . ويشاهد بعد مسافة ، علي اليسار ، البناية المسماة « قبّة آلطي » (تحت القبة) . إن الصالة الصغيرة في هذا البناء ، وجّهت السياسة العالمية لعصور طويلة . إذ إن مجلس الوزراء الإمبراطوري المسمي ديوان همايون ، كان يجتمع فيها .

الباب الثالث ، يسمي باب السعادة . ومنه يجتاز إلى الفناء الثالث . وسماه الشعب أيضًا « آق أغالر قابوسي » (باب الأغوات البيض) حيث كان يحرسه في وقت ما الخصي البيض . وأغا (آمر) باب السعادة ، هو موظف السراي بدرجة وزير وكان رئيسًا للخصيان البيض ، ألغيت هذه الوظيفة وترك استعمال الخصيان البيض . وتوجد مقابل الباب تمامًا ، غرفة القبول التي تمسى « عرض أوده سي » . وهي صالة صغيرة وضع فيها العرش ، يقابل فيها البادشاه رجال الدولة والسفراء بصورة رسمية . ويشاهد خلفها مكتبة السلطان أحمد الثالث ثم جناح البردة الشريفة الذي يسمى « خرقه سعادت » ، جناح الخزينة وفي النهاية الحرم الهمايوني .

إن غرفتين من غرف دائرة الخزينة الهمايونية كانت مكدّسة بالأشياء التارخية والجواهر . كانت تختم بختم بلووز العقيق .

يحتوي الحرم الهمايوني على 380 غرفة وصالات عديدة . تخطيطه كأنه متاهة معقدة ، الصالات ، المماشي الدهاليز ، الممرات السريّة والظاهرة ، السلالم ، الحمامات كدّست الواحدة فوق الأخرى . مدخل الحرم ، يقع خلف بناية « قبة آلطي » ويطلق عليه اسم « عربة قابوسي » ، أي باب العربة . كانت السلطانات وزوجات البادشاه يركبن العربة من هذه الباب ويذهبن إلى المدينة . ومن المدخل المسمى « دولابلي قبه » ، يجتاز إلى الميدان المربع الشكل المسمى « فسقية لي آولو » أو « شادروانلي آولو » أي الفناء ذا الفسقية . وتقع « كوله قابوسي » (باب البرج) علي اليمين ، وبعد مسافة وجيزة ، يشاهد أحد جوامع السراي المشتمل على عدد من الجوامع . ويجتاز من باب البرج إلي برج العدل « عدل كوله سي » (42 م) يرتقى بواسطة 105 سلالم .

وبعد الممر الذي يلي « برده قابوسي » ، يظهر حمّام أغوات الحرم ، مدرسة الشهزادات ، أجنحة باشصاحب ، باشخزينة دار أغا ، الغرف والأجنحة الخاصة بأغوات الحرم ، ثم الطريق الذهبي ، ومنها إلي أرضية الوالدة ، ثم إلى جناح الجواري

المستجدّات وبعد النزول من اليمين من السلالم الحجرية ، ينتقل إلى رواق يحتوي على 25 عمودًا من المرمر ، جناح ولي العهد ، صالة هنكار ، صالة مراد الثالث من صنع المعمار سنان ، مكتبة أحمد الأول ، صالة الفاكهة لأحمد الثالث ، حمّام المنكار ، شقة والده ـــ سلطان ، الأرضية ذات الحديقة المعلقة والفسقية ، كشك عثمان الثالث ، صالة الموسيقي لسليم الثالث ، حوض الجاريات . شقة ولي العهد ، ذات ثلاثة طوابق وقصرين . تستمر بعد ذلك صالة المابين ذات المرايا لعبد الحميد الأول والحرم الهمايوني . سميت الصالونات باسم « أوده » . والغرف الاعتيادية التي تسمى « حجرة » ، ليس لها أسماء . ولا حاجة لوصف وتعداد أكثر مما سبق .

شيد جناح الأمانات المقدسة الذي يحتوي على البردة الشريفة ، السلطان ياووز سليم ويتكون من 4 صالات ثلاث منها مفتوحة اليوم للزوار . أما الصالة التي تحتوي على البردة الشريفة ، فتفتح حاليًا لحكام المسلمين فقط . وخلال للمدة التي تنحصر بين فتح السلطان ياووز سليم لمصر وعودته إلى استانبول في 25 تموز 1518 وإلغاء الخلافة في 3 آذار 1924 ، (405 سنوات و7 أشهر ، 9 أيام ، دقيقة واحدة وثانية واحدة) ، قرئ* القرآن خلال هذه لمدة في هذا الجناح من قبل 24 حافظًا ويوميًا 24 ساعة دون انقطاع ولا ثانية واحدة . يصف أكبر شاعر في العصر ، هذا التقليد المهيب بهذه الجملة « أحد الأسس المعنوية للدولة التركية » (يحيى كمال ، 120, Aziz Islambul) .

يحوي جناح « خرقة سعادت » (البردة الشريفة) الذي يحمل اسم البردة ، بردة الرسول ﷺ ، علم الرسول المسمى « سنجق شريف » (الراية الشريفة) ، سيف واحد لكل من الرسول ﷺ ، عمر (رضي الله عنه) ، عثمان (رضي الله عنه) ، قوس الرسول ﷺ وحاجيات أخرى للرسول والخلفاء الأوائل . جلب ياووز قسمًا منها من القاهرة وقسمًا منها ، سلّمه إلي ياووز شريف مكة الذي جلبها إلى القاهرة ، وقسمًا آخر جلب في الحرب العامة من المدينة ومن الروضة المطهرة ، وقسمًا منها تم الحصول عليه في أوقات مختلفة ومن أماكن مختلفة . توجد في استنبول بردة أخرى للرسول ﷺ ، تسمى « خرقة شريف » ، شيد جامع للحفاظ علي هذه البردة . تعرض علي المسلمين ، ليلة واحدة في السنة ، دون فتح صرتها (البقجة) .

(*) حسب معلومات مؤلف هذا الكتاب شرع اليوم في قراءة القرآن الكريم بصورة مستمرة في جناح البردة الشريفة ، وإضافة إلى ذلك فتح محفل المنكار والسلطان ، في جامع آيا صوفيا للعبادة

البردة الشريفة « خرقة سعادت » موضوعة وسط شبكة فضية مذهبة وداخل صندوق من الذهب الخالص داخل 40 طبقة من الصرر . الصندوق ، موضوع فوق مائدة فضية مطلية بالذهب . إن القناديل الموجودة في السقف ، من الذهب الخالص المرصع بالجواهر بصورة كثيفة . عدد السيوف العائدة لكبار رجال الدين ، 21 . أجربة السيوف صنع عثماني ، وكلها ذهب مطعّم بالجواهر .

توجد أكشاك كثيرة متناثرة ، في سراي طوبقابو وكلها آيات في الفن العماري . إن الكشكين اللذين شيدهما مراد الرابع ، كشك روان بمناسبة فتح روان عام 1635 ، وكشك بغداد بمناسبة فتح بغداد 1639 آثار كأنها قطع من الجنة . إن آخر بناء شيّد ، هو قصر مجيدية للسلطان عبد المجيد (1839 – 1861) وهو كبير بدرجة سراي مستقل . إن « جينيلي كوشك » (الكشك الخزفي) الشهير الذي شيّده فاتح ، أقدم شاهد للفن العماري المدني العثماني الذي صمد حتى يومنا هذا .

سراي طوبقابو ، مشهور كذلك بما يحويه من مجموعات . وتأتي على رأسها الخزينة . عرض قسم صغير من الجواهر الباقية في الخزائن المحفوظة في المخازن . المجموعات الأخرى كذلك ، على نفس الوضع ، لا يوجد مكان كاف لعرضها جميعًا . ألوف من القطع ، عرش ذهبي مرصّع ، عرش يدعى « عرش شاه إسماعيل » لكنه في الأصل ، يعود إلى بني تيمور في الهند ، عرشان يعودان إلى أحمد الأول ومراد الرابع ، حاجيات مختلفة مرصعة ، زمرد ولؤلؤ ملء صناديق ، ماسة قاشقجي الشهيرة 85 قيراطًا ، زوج من المائلات (شمعدانات) تحوي كل منهن قطعًا من البرلنت (الماس) عددها – بقدر عدد آيات القرآن – 6282 قطعة (أمر السلطان مجيد بصنعها عام 1841) ، حاجيات لبس وركوب مرصعة ومشغولة بالجواهر ، الجواهر زينة ، أسلحة .

واشتهر سراي طوبقابو كذلك ، بإحتوائه على أغنى مجموعة في العالم من الخزف (البورسلان) الصيني الذي جمعه السلاطين 700 10 صحن خزف صيني ، 000 4 منها « Seladon » ، بينها صحون مرصعة . وفيه كذلك أكبر مجموعة من الخزف (البورسلان) الاستانبولي ، البلّور ، جشم بلبل (عين البلبل) . مجموعة الأسلحة التي يحويها ، ليس لها مثيل . وإلى كل ذلك ، يمكن إضافة طقم ملابس واحد على الأقل

لكل بادشاه ، شارات رأس للسلاطين مرصعة ، أوسمة ، وأخيرًا ، أعظم الكتب الإسلامية المخطوطة قيمة في العالم وصورها « Miniature » ، ومذهباتها ، آلاف الكتب مع جلود بعضها المرصعة ، أرشيف لا يمكن أن يقدر بثمن . سيوف القانوني (عددها 29) وهو أكثر من له سيوف في السراي 6 سيوف لابنه بيازيد الثاني وسيف واحد لياووز . إن المجموعات المشتملة على 000 11 قطعة سلاح و 347 ساعة ، لا مثيل لها . توجد مجموعة أسلحة غنية جدًا كذلك ـ لكنها ليست ذات مجوهرات ـ في المتحف العسكري . ويجب إضافة 000 2 لوحة لأشهر الخطاطين ، وإضافة إلى كل ذلك ، توجد في السراي عدة مكتبات مليئة بالكتب المخطوطة . وأكثر الكتب قيمة ، 2367 كتاب محفوظة في مكتبة الخزينة .

9 - سراي أدرنة الهمايوني :

سراي البادشاه الذي حصل على شهرة تقارب سراي طوبقابو في الفترة الكلاسيكية ، هو سراي أدرنة الهمايوني . ولكون أدرنة أصبحت مدينة العرش خلال الفترة 1402 – 1453 ، توسع كثيرًا سراي إدرنه الذي كان موجودًا منذ 1362 . لكن التوسعة العظمى بعد 1453 وكانت في النصف الثاني من العصر 17 . مراد الثاني ، هو الذي بدأ بإدخال طراز البناء ذي الطوابق العديدة الذي لا يلائم كثيرًا طراز الهندسة المعمارية المدنية التركية وذلك بتشييده داخل مجمّع السراي قصر « جهانّما » المكون من 7 طوابق والمشهور بصالته ذات الحوض ، أكمل ذلك في 1453 . توسع علي مر الزمن سراي أدرنة الهمايوني ، وغطى مساحة من الأراضي قدرها 000 000 3 م^2 أي ٣ كم^3 ، وأصبح ، أكبر حتي من سراي طوبقابو (رفعت عثمان **Edirne Sarayi** , 21) كانت الأراضي فيمدينة استانبول محدودة وذات قيمة ، ومن ثم فقد كانت أدرنة أكثر ملاءمة . السراي كان مكونًا من 75 قصر ، وكشكًا وشقة (ولمعرفة أسمائها واحدًا واحدًا ، انظر **الكتاب نفسه** ، 52 – 5) . للسراي 17 بابًا تنفذ على المدينة (أسماؤها : انظر **الكتاب نفسه** ، 55 – ٦) . له 7 مساجد وجامع تقام فيه صلاة الجمعة (أسماؤها **الكتاب نفسه** ، 56) ، 22 حمامًا (**الكتاب نفسه** ، 56) كان له 6 جسور داخل أراضي السراي(ص 56 – 7) ، نفوسه 700 6 (ص 57) به 5 ميادين كبيرة (ص 62) ،

ومنها آلاي ميداني (ميدان ، ساحة المراسم) 43 000 ذراع مربعة . إن مساحة عرض أوده سي (صالة الاستقبال) الكائنة في ميدان جهانّما التي يستقبل فيها البادشاه رجال الدولة والسفراء ، كانت تبلغ 5 . 30 × 5 . 23 ذراع . اشتهر قصر جهانّما 000 1م^2 بشرفته الكائنة في طابقه الأول والتي تبلغ مساحتها 600 م^2 . كانت مساحة « قوم قصري » (قصر قوم) الذي شيّده فاتح ، 600 م^2 . كان جناح دار السعادة مكونًا من 8 غرف ، حمام واحد ، مساحته 28 x 20 ذراعًا . جناح الوالدة تارخان سلطان بطابقين ، ذو ديوانخانه (صالة القبول) كبيرة ، 9 غرف كبيرة ، حمّامه ذا حوضين ، وله مطبخ خاص و 9 غرف ، وأخرى مجاورة وصالتان مخصصتان لجواري الوالدة ـ سلطان .

إن مساحة حمام السلطان الذي شيده المعمار سنان تبلغ 625 م^2 . كان ارتفاع قصر ترازو الذي شيده القانوني بواسطة المعمار سنان أيضًا ، يبلغ 60 / 21 م .

بقي في حوزتنا اليوم من سراي أدرنة ، الشيء اليسير . بقي السراي تحت إشراف بوستانجيلر (حراس السراي) لتركه وعدم سكنى السلاطين له بعد 1703 ، أصابه الضرر في احتلال 1828 الروسي . أما في احتلال 1878 الروسي ، فقد تلف . وتلف سراي مانيسا الهمايوني كذلك لعدم سكناه من قبل أي أحد من الأمراء ولاة العهد بعد 1595 .

وعدا ذلك ، كانت توجد سرايات مخصصة للبادشاه في المدن كقونية ، حلقه لي ، بلغراد ، سمندره ، نيش ، Filibe, Dimetoka ، صوفيا ، بودين ، سلانيك ، يانبولو ، جورلو .

أما في استانبول ، فكانت فيها سرايات كثيرة خاصة بالبادشاه وأهم هذه السرايات التي يمر بها السلاطين بصورة أكيدة أثناء ذهابهم إلى أدرنة ، هي سراي داود باشا ، حدائق إسكندر جلبي الخاصة وقصره في فلوريا ، نشاط آباد في أورطه كوي ، كولشن آباد في جراغان ، همايون آباد في بيك ، مهر آباد في مرتفع قانليجة ، أمن آباد في فندقلي ، فرح آباد بين جنكلكوي وبكلر بك ، شوكت آباد في استافروز ، سراي إسكدار ، ترف آباد في شمسي باشا . وأخيرًا يجب ذكر المجموعة الكائنة في محيط قصر سعد آباد التي سكن فيها أحمد الثالث في دورلاله (171 ـ 1730) مدة طويلة . أما عدد

الحدائق الخاصة التي تشتمل على قصر واحد فهي كثيرة . وهي الأماكن التي يمر بها البادشاه للاستجمام والكائنة داخل الحدائق الكبيرة ، داخل بساتين الفواكه والخضراوات ، في أشهر الصيف ، البعض لمدة أسبوع أو أسبوعين ، أو ليوم أو يومين ، والبعض لعدة ساعات فقط . إن السرايات الصغيرة التي يمر بها السلطان فقط دون أن ينام فيها ، تسمى « بينيش قصري » . يمكن في هذا المجال ، ذكر قصر قلندر الكائن علي مرتفع في طرابيا ، قصر انجيرليكوي الذي شيّده القانوني ، قصر طوقات الذي شيده فاتح في هنكار اسكه سي . قسم قصور صيد . وأحد أكبر هذه القصور ، هو كشك اسكندر سراي همايون الذي انمحي في العصر 19 . وبالطبع فإن أكبرها ، كان السراي القديم أيضًا . لكن محمود الثاني ، أعطي هذا المكان إلى السرعسكرلك (القيادة العسكرية) في 1826 . واستعمل حتي نهاية الإمبراطورية (1922) ، قيادة عامة – نظارة الحربية . ثم أصبحت البناية المركزية لجامعة إستانبول .

سكن السلاطين مدة قصيرة في سراي طوبقابو بعد عام 1808 . لم يستحسن محمود الثانيْ ، السكن في هذا السراي . أقام منذ عام 1839 حتي وفاته في سرايات دولمة بقجه ، بكلربكي ، جراغان اللواتي لم يكن يحملن الأسماء ذاتها التي يحملنها اليوم . السرايات التي كانت موجودة في عرصاتها ، كانتْ خشبية على الأكثر . كان يطلق على سراي دولمة بقجه بشكتاش سراي همايوني ، وعلى سراي جراغان أوطه كوي همايوني . عاش ابنه عبد المجيد الأول (1839 – 1861) مدة من الزمن في هذه السرايات ، ثم شيد سرايات حديثة على الطراز الأوروبي مكونة من بناية حجرية رئيسية والتي يأتي على رأسها سراي دولمة بقجه . وانتقل إليه .

10 – سراي دولمة بقجه الهمايوني :

إن عرصة سراي دولمه بقجه ، كانت في حينها بحرًا ، وكانت قطعة من المضيق . ردمت في 1614 بأمر أحمد الأول . استمرت عملية الردم سنوات طويلة وتمت قرابة عام 1620 . وبناء على ذلك ، كان المضيق أصلاً في هذا القسم أعرض بكثير مما هو عليه الآن . شيّد عثمان الثاني هنا حديقة خاصة ، تحتوي على قصر . شيّد محمود الثاني (1808 – 1839) مكان هذ القصر سرايا خشبيا كبيرا وسكن فيه أكثر أوقاته ، إن

هذا السراي الذي كان بعض أقسامه من الحجر ، كان يسمي « سراي دولمة بقجه الهمايوني القديم » أو « سراي بشكتاش الهمايوني » . سكن ابنه ، السلطان عبد المجيد فيه كذلك ثم هدمه وشيّد مكانه السراي الحجري الحالي العظيم . كمل البناء عام 1855 . أطلق عليه اسم « سراي بشكتاش » . لكن عندما استمر الشعب علي تسميته « دولمة بقجه سرايي » وأصر على ذلك تقررت تسميته بهذا الاسم . وسبب تسمية الشعب له باسم دولمه بقجه (الحديقة المردومة أو المحشوة) هو أن أراضي هذا السراي كانت في حينه بحرًا وحصل عليها بواسطة حشو البحر بالتراب .

ثم صرف مبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ليرة ذهبية ، لتشييد السراي ، وصرف أكثر من ذلك علي مفروشاته . إن السراي الذي يستند علي رصيف مرمري طوله 600 متر ، شيّد من حجر أبيض جميل جدًا جلب من جزيرة مرمره . يطل القسم الخلفي كاملاً علي البحر . والقسم الأمامي يشرف علي بشكتاش والجنوبي ، علي « قبه طاش » ، شيّد هنا برج ساعة ظريف وعلي مسافة قريبة منه جامع دولمة بقجه المطل على البحر الذي شيّدته « بزم عالم » والدة ـ سلطان ، والدة السلطان عبد مجيد . البناية الأصلية ، شيّدت علي قطعة أرض مساحتها 16 670 م^2 . الأبنية الأخرى صغيرة . صنع القسم الداخلي من المرمر المسمي (صو مرمري) ومرمر السوماكي (المرمر الملون) . باب السلطنة يشرف على الشارع العام وهو بوابة عظيمة . كانت البوابة الجنوبية الكبيرة التي تقع في جهة الساعة ، خاصة بالزوار . وتوجد 10 أبواب فرعية بعضها تشرف على جهة البحر . أثث جميعه بشكل فائق . كان البادشاه يستعمل الصالة الزرقاء الكبري والتي تحتوي على أرغن ضخم لقبول تهاني النساء في العيد بعد انتقاله إليها من صالة المعايدة التي يتقبل فيها تهاني العيد مرتين في السنة . معايدة النساء ، كانت تجري على هذا الشكل والترتيب ، أولاً السلطانة ـ الوالدة ، 4 من زوجات البادشاه (قادين افندي) ، السلطانات (كريمات البادشاه) حسب تسلسل أعمارهن ، 4 « إقبال (الأربعة الثانية من زوجات الباشاه) ، حفيدات البادشاه (خانم ـ سلطان) ، ويليهن زوجات الصدر الأعظم ، شيخ الإسلام ، النظار ، الوزراء والمشيرون والقضاة العسكرون ونسوة رجال الدولة الآخرين كنّ يعايدن على البادشاه دون تغطية وجوههن ودون تقبيلهن العرش وغطاءه ، كن يحيّين البادشاه الذي يقف على قدميه بأصول »

التحية من الأرض ، وذلك بخفض أيديهن اليمنى حتى الأرض ثم رفعها إلى رءوسهن . والمعلوم أن جميع السلاطين الذين تولوا السلطنة خلال العصرين 19 و 20 ومن بينهم السلطان عزيز ، أكثرهم جدية ، عاملوا زوجات الوزراء ورجال الدولة برقة متناهية . أن معايدات النسوة هذه ، كانت تديرها وتقوم بتنظيمها وتقديم السيدات واحدة واحدة إلى البادشاه مع ذكر أسمائهن وصفات أزواجهن ، الباشخزينة داراسطه .

أما صالة المعايدة التي يتقبل فيها البادشاه على عرشه الذهبي وبمراسم دولية كبيرة معايدات الرجال مرتين في السنة ، فهذه الصالة ، هي إحدى أعظم وأشهر صالات العالم . مساحة الصالة 250 2 م^2 . ارتفاع سقفها الذي يستند على 56 عمودًا ، 36 مترًا . إن إحدي الثريات الـ 36 البلورية التي تضيء الصالة ، هي الثريا البلورية المدلاة وسط الصالة تمامًا والتي تزن 5 . 4 طن المشتملة على 750 شمعة . إن قيمتها المادية عدا قيمتها التاريخية تعادل 5 ملايين دولار . إن مجموع المصابيح الكهربائية التي تضيء صالة المعايدة هي 500 4 . افتتح عبد الحميد الثاني مجلس النواب الأول في هذه الصالة (19 / 3 / 1877) . الصالة مربعة الشكل تقريبًا وتقع وسط السراي تمامًا .

إن ارتفاع برج الساعة الذي شيد أخيرًا (1860 – 1863) ، 27 مترًا وهو مربع الشكل . إن مسرح السراي الشهير ، حول بعد ذلك إلى اسطبل خاص . إن أكثرية السجاد من صنع تركي هركه Hereke ولا يقدر بثمن . المزهريات التي تبلغ ارتفاعها القامة البشرية ، صنع الصين ، يثلدز ، فرنسا ، ألمانيا (Sèvres, Dresden) بالساعات المختلفة الأحجام التي تشاهد في كل مكان والمزهريات كلها ذات قيمة كبيرة . إن الساعة الموجودة في الصالة الكبرى مصنوعة من 80 كغم من الفضة الخالصة السميكة ، هي هدية الخديو إسماعيل باشا إلى عبد الحميد الثاني في 1877 تقريبًا ، سلالم السراي الخمسة الرئيسية المزينة بالكرات البلورية مشهورة كذلك . البناية الرئيسية تحتوي على أكثر من 200 غرفة .

قضى عبد المجيد الأول الأعوام الستة الأخيرة من حياته في هذا السراي . ثم أقام فيه أخوه السلطان عبد العزيز (1861 – 1876) ولكن كان يقيم بين الحين والآخر في سراي جراغا وبكلربكي . أقام فيه مراد الخامس مدة 3 أشهر (1876) . أما أخوه

عبد الحميد الثاني الذي أخذ مكانه ، فقد أقام فيه عدة أشهر تم تركه ، وانتقل إلي سراي ييلدز . كان يحضر مرتين في السنة لتلقي المعايدة ويعود دون أن يمكث فيه أبدًا ولا ليلة واحدة . إن النفور الذي أبداه جده محمود الثاني تجاه سراي طوبقابو ، أبداه هو كذلك – وله الحق في ذلك – تجاه دولمة بقجه . إقام أخوه محمد رشاد الخامس (1909 – 1918) في دولمة بقجه أكثر مما أقام في ييلدز ، ثم أقام محمد وحيد الدين السادس (1918 – 1922) في ييلدز أكثر من إقامته في دولمة بقجه ، أما الخليفة الأخير عبد المجيد الثاني (1922 – 1924) ، فقد سكن في دولمة بقجه . أعطيت إدارة السرايات في عهد الجمهورية إلى المجلس الوطني التركي . أقام في دولمة بقجه أول رئيسي جمهورية لمدد قصيرة ثم لم يسكنه أحد ، رغم أنه مفروش بشكل كامل كساري بكلربكي .

11 – سراي جراغان الهمايوني :

يقع سراي جراغان في أورطة كوي على الساحل الأوربي من المضيق بالقرب من شمال دولمة بقجه . كان في هذا الموقع أحد السرايات الساحلية ، كان خشبيًا يرتاده سليم الثالث ومحمود الثاني في أوقات الصيف ويمكثان فيه مدة ليست قصيرة . وسّع محمود الثاني السراي في 1839 ، لكنه توفي بعد مدة وجيزة . أقام ابنه عبد المجيد الأول مدة طويلة في قسم الحرم من هذا السراي المكون من 5 أبنية واشتمل على صالة كبير ، 50 × 20 (1000م^2 وحديقة واسعة . وبعد أن تم تشييد سراي دولمة بقجه في 1855 ، هَدَم جراغان لبنيه مجددًا على الطراز الأوروبي ، لكنه توفي قبل بدء الإنشاء. تمكن أخوه عبد العزيز خان ، خلال 4 سنوات) 1861 – 1865) من تشييد سراي يفوق في عظمته ، ما تصوره أخوه الكبير . كان طوله من جهة البحر 750 م . أخذ يقيم في جراغان اعتبارًا من 1865 أكثر من إقامته في دولمه بقجه . وصرف لتشييده ، مبلغًا مساويًا تقريبًا للذي صرفه لدولمه بقجه . وعند خلع مراد الخامس 1876 بعد سلطنة دامت 3 أشهر ؛ خصص سراي جراغان لإقامته مع عائلته . عاش السلطان مراد 28 عامًا دون أن يخرج من سراي جراغان ، وتوفي فيه في عام 1904 . وأصبح سكنًا لابنه صلاح الدين أفندي حتى 1908 . وفي المشروطية ، خُصص لمجلس الأعيان ومجلس

النواب (14 / 11 / 1909) . أراد السلطان رشاد أن يحول دون ذلك ، لكنه لم يوفق . إن سرايا كهذا يحوي حاجيات ثمينة ، لا يصح جعله برلمانا ، وإضافة إلي ذلك ، فقد جلبت من سراي يلدز بعض الحاجيات الثمينة ووضعت فيه فأصبح أعظم برلمانات العالم أناقة . إلا أن السراي احترق بعد شهرين بشكل غامض يوم 19 ك 2 / 1910 وكانت قد نقلت إليه قبل عدة أيام مجموعات من سراي طوبقابو . بقيت الجدران فقط . وحاليًا هو كذلك . كان مليئًا بالحاجيات المتحفية و لم ينقذ منه شيء ، ومن المؤكد أن الحريق كان متعمدًا .

12 – سراي يلدز الهمايوني :

سراي « يلدز الهمايوني » في التاريخ ، يعني « عبد الحميد الثاني » . أصبحت كلمة « يلدز » تستعمل مدة ثلاثين سنة من إلغاء المشروطية الأولي إلي إلغاء المشروطية الثانية ، بمعني نظام عبد الحميد . كما كان يقصد بكلمة « الباب العالي » ، الحكومة العثمانية ... إن الطاقم العظيم الذي تكوّن في سراي يلدز خلال هذه المدة ، أنشأ لنفسه صلاحيات فاقت صلاحيات الباب العالي ، وأخذ يحكم الامبراطورية . أصبحت يلدز مدينة داخل مدينة كما كان الحال سابقًا في سراي طوبقابو ، وسراي ادرنه .

كان هذا السراي ، يتكون كذلك من أبنية متاثرة علي مساحة كبيرة من الأرض كما هي الحال في سراي طوبقابو . كان حوالي 000 500 م^2 . كان سابقًا حديقة أميرية تحتوي علي كشك . كان بعض السلاطين المتأخرين يترددون علي هذا الكشك المطل علي المضيق وبحر مرمره . أخرج محمود الثاني لعدة سنوات الوحدات الأولي من الجيش التركي الحديث إلي رامي في الشتاء ، وإلي حديقة الخاصة هذه في يلدز لغرض التدريب وانضم إليهم بنفسه كضابط برتبة عقيد . لم يكن اسم السراي حينذاك يلدز . وعندما خصص السلطان عبد المجيد الكشك الموجود فيها ، لإقامة إحدي زوجاته من الدرجة الثالثة (كوزده) المسماة يلدز خانم ، اطلق عليه اسم « يلدز » ، والأصح أن هذا ما أراده الشعب الاستانبولي الولوع بإطلاق الأسماء علي كل شيء ، حسب ما يرغب ، وعندما جعل سرايا ، أصبح اسمه « يلدز » بصورة رسمية . وبعد أن شيّد السلطان عبد العزيز (1861 – 1876) هنا أكشاك يبوك ما بين الذي يعتبر سرايا بحد ذاته ،

مالطه ، جادر ، وكشك جيت ، أصبح عدد الأكشاك الموجودة في الحديقة السلطانية الخاصة ، مع الأكشاك الثلاثة الموجودة فيها سابقًا سبعة ونظمت الحديقة على شكل منتزه (بارك) ، وأخذ يتردد عليها صيفًا ويقيم فيها

وعند جلوس عبد الحميد الثاني في 1876 ، بعد إقامته مدة في دولمة بقجه ، انتقل إلي ييلدز لاشمئزازه منه بسبب مشاهدته فيه خلال 3 أشهر ، خلع عمه وأخيه الكبير ، وكذلك بسبب كون يلدز في منطقة أكثر حصانة ، (لم يسكن جراغان بسبب تخصيصه لأخيه الكبير) ، جعل منه مدينة عظمي لدرجة أنه أسس فيه معامل . ارتفع عدد نفوس سكان السراي إلى 12 000 . جعل مقر الفرقة الثانية الشهيرة التابعة للجيش الأول والمؤلفة من (15000 جندي ، على مقربة من السراي . شيد جامع يـيلدز ، خارج السراي (1885 – 1886) ، أضاف بجانبه برج ساعة (1891) . شيد مسرح ـــ أوبرا السراي . أسس مكتبة غنية جدًا ومجموعات غنية . وأرشيفًا . شيد حوضًا كبيرًا مساحته 240 000 م² كانت تسير بداخلة سفن صغيرة . الحديقة الخارجية ، هي اليوم بارك ييلدز . حديقة الحيوانات ، مستشفي الحيوانات ، محل ترويض الخيل وتعليم الفروسية ، حمام كبير ، 3 أكشاك ومرافق كثيرة أخري مهدمة حاليًا . أنتج معمل الخزف من 1896 إلي 1908 ، الحاجيات الخزفية ذات القيمة العالمية كالصحون والمزهريات ، المدافىء التي تتسابق المتاحف على حيازتها ، وكان السلطان حميد يرسل الهدايا إلي الحكام الأجانب من منتجاته . أعاد بنك سومر Sumer Bank إحياء هذه المؤسسة عام 1962 .

وفي العهد الجمهوري ، أصبح قسم من السراي ، أكاديمية حربية . وخصص قسم منه لأمر المجلس الوطني التركي ، وقسم منه لأمر بلدية استانبول . كشك « شاله » الذي يعتبر سرايا مستقلا ، يحتوي علي 64 غرفة وصالة تخص المجلس الوطني التركي . مساحة صالته الكبر 29 × 14 (406 م²) . سجاد أرضية الصالة قطعة واحدة مساحتها 406 م² ، (تزن 7 أطنان) ، صناعة تركية ، وهي إحدي أكبر وأثمن السجاد في العالم . له 4 أبواب من الصدف .

إن سراي ييلدز ، هو اسم القصبة التي تقع علي المضيق بين كوزكونجك في الجنوب

وجنكلكوي في الشمال . كان في هذه المنطقة سابقًا حدائق استافروس السلطانية الخاصة . وكانت إحدى مصايف السلاطين . كانت السلطانة الوالدة كوسم ماهبيكر ، قد ولدت مراد الرابع من صلب أحمد الأول في كشك حدائق استافروس السلطانية الخاصة (1612) . شيد محمود الأول بدلاً من قصر استافروس قصر فرحفضاء (1734) وعلى مقربة من شماله ، شيد قصر شوق آباد لأجل إقامةوالدته . وبدلاً من هذه القصور وفي الموقع نفسه ، شيد محمود الثاني (1808 – 1839) ، سراي استافروز الساحلي . سماه الشعب « سراي بكلر بكي » . أقام محمود الثاني وابنه عبد المجيد الأول ، مدة طويلة في هذا السراي والذي الجزء الأكبر منه خشبي . هدم السلطان عزيز (1861 – 1876) هذا السراي وشيد مكانه السراي الفخم الموجود الآن ، على الطراز الأوروبي . وأصلح جامع بكلربكي الذي شيده أبوه محمود الثاني . استفيد من أنقاض سراي بكلر بكي القديم الذي شيده محمود الثاني في 6 أعوام (26 – 1832) ، خلال إنشاء السراي الجديد (61 – 65) . كان السراي الجديد أصغر من القديم ، لكنه على الطراز المعماري الأوروبي ، بيد أنه لم يكن كبيرًا كسراي دولمة بقجه وسراي جراغان . يتكون من طابقين من الحجر الأبيض . يحتوي الطابق الأول على 6 صالات كبيرة و 24 غرفة . الطابق الثاني هو الحرم . حديقته منظمة على شكل حواجز وطوابق . يحتوي على حوض مساحته 70 × 40 (2800 م^2 وعمقه 20 . 3 متر . أقام السلطان عزيز في هذا المكان بعد صلاة الجمعة ومراسم قبول الجمعة (سلاملك) التي أقيمت في جامع بكلر بكي يوم 21 نيسان 1865 ، مدة من الزمن . اشتهر بصالته ذات الـ 16 عمودا من المرمر وحوضه . تحتوي أرضية الصالة على أحد أثمن أنواع السجاد في العالم .

خصص هذا السراي لعبد الحميد الثاني بعد إعادته من سلانيك في 1 / 11 / 1912 ، وتوفي 10 / 2 / 1918 ، بعد إقامته فيه مدة 5 سنوات ، 3 أشهر ، 9 أيام واشتهر بأنه استعمل غرفتين فقط من غرف السراي . خصص سراي بكلربكي على الأكثر للضيوف الأجانب القادمين إلى استانبول ، وأشهر زيارة ، هي زيارة إمبراطورة فرنسا أوجيني Eugènie (ت 1 / 1869) .

14 – سرايات إستانبول الأخرى لدور التنظيمات :

ومن بين سرايات السلاطين الأخرى في دور التنظيمات ، يجب أن نذكر أولاً سراي فرعية ، شيده السلطان عزيز مجاورًا لسراي جراغان لإقامة من يريد من السلطانات (الأميرات) والشهزادات (الأمراء) . قسم منها الآن يستعمل كأحد أقسام ثانوية غلطة سراي . لم تبق له قيمة كسراي ، لاستخدامه لأغراض مختلفة . والمعروف أن السلطان عزيز ، عند خلعه ، جيء به من سراي طوبقابولي هذا السراي ثم قتل .

قصر بيكوز الهمايوني ، شيد هذا القصر الواقع على الساحل الشمالي من الجانب الآسيوي للمضيق ، والي مصر محمد علي باشا وأهدي إلى السلطان عبد المجيد . داخل بستان مساحته 200 000 م^2 .

قصر جنكلكوي ، قصر مسلخ Maslak أو إيازاغا ، قصر باغلارباشي ، قصر جامليجه ، قصر أخلامور ، سراي فندقلي ، سراي أورطه كوي ، هي من أشهر السرايات الصغيرة لدور التنظيمات وجميعها داخل حدائق واسعة . أقام في أكثرها الشهزادات والسلطانات ولاة العهد .

قصر كوجوكصو الهمايوني ، ويقع في جانب الأناضول ، هو أحد لآلىء المضيق . اسمه الأصلي « قصر كوكصو » . يقع بين أناضولي حصار وقنديلّي . تصب من هذه المنطقة إلى البوغاز ساقيتان جميلتان ، كوكصو وعلى جنوبه كوجوكصو . شيد بقصر داخل مرعي مساحته 840 000 م^2 . هدمه السلطان مجيد عام 1857 وشيّد مكانه قصرًا أصغر منه . غيّر السلطان عزيز واجهته . وفتح المرعى الكبير للشعب بعد فصله عن القصر . هو قصر استراحة (بينيش) ولا يستعمل لأغراض الإقامة ، من المرمر . يتكون من طابقين فوق البدروم . كل طابق يحتوي على صالة وأربع غرف . بجانبه حنفية (جشمه) سليم الثالث الرائعة ومسجده ، هدم المسجد عام 1956 .

قصر عينه لي قاواق الهمايوني ، وهو ما تبقي حتى يومنا هذا من سراي ترسانة الهمايوني القديم . يقع على الخليج في قاسم باشا . داخل حديقة سلطانية خاصة وقريبًا من القيادة البحرية العليا (قبطان دريالك) . ولد السلطان إبراهيم من صلب أحمد الأول

والسلطانة كوسم ماهبيكر ، في هذا السراي (1615) . كان في هذه الحديقة آنئذ 12000 شجرة سرو وأشجار مشمش وخوخ تعطي فاكهة ممتازة جدًا ، يعنى بها 300 بستاني وتصاد هنا بعض الأسماك وأنواع المحّار الذي يحتاج إليه السراي . كانت الحديقة السلطانية الخاصة 9000 ذراع مربع والسراي 15000 ذراع مربع تقريبًا . له جامعان . إن الديوانخانه (صالة الاستقبال) التي يقابل فيها البادشاه الضيوف ، تبلغ مساحتها 979 ذراعًا مربعة وتحتوي على تخت (ديوان) سماه الشعب « آينالي قاواق سرايي » اي « سراي قاواق ذو المرايا » فور وضع المرايا لعمودية العظمى ، على جدرانها المختلفة التي أهداها رئيس جمهورية وقائد عام البندقية عام 1718 ونسي اسم ترسانهسراي . أعطي سليم الثالث في 1808 القسم الأكبر من السراي والحديقة السلطانية الخاصة إلى البحرية ومعمل المراكب ، بقصد تأسيس بحرية حديثة . ثم وضعت البحرية بعد ذلك يدها على أقسام السراي الأخرى عدا الديوانخانه (صالة الاستقبال) الشهيرة . وفي 1876 اجتمع مؤتمر ترسانة في هذه الصالة . وفي 1924 اجتمع المؤتمر التركي ـ الإنكليزي حول مسألة الموصل في هذه الصالة كذلك وانفض مثلما انفض مؤتمر ترسانة دون أن يحقق نتيجة .

15 ـ أندرون همايون :

« اندرون » كلمة فارسية تعني القسم الخارجي من الشيء وهي عكس الكلمة « بيرون » ومن 1453 حتى 1826 كان لفظ « اندرون همايون » يطلق على مجموعة المؤسسات الكائنة في قسم السلاملك (المحل الذي يسمح لدخول الرجال به) من السراي . ويطلق على مرافق السراي التي تعمل خارج هذا المحل « بيرون همايون » أما المرافق الداخلية جدًا ولتي يسكن فيها النساء ويرقد فيها البادشاه فتسمي « حرم همايون » .

الاندرون ، كان مشهورًا بجامعة السراي المسماة « مكتب اندرون » . كانت هذه الجامعة مكونة من قسمين ، قسم الأكاديمية الحربية ـ العلوم السياسية وأكاديمية الفنون الجميلة . وكان القسم الأول يخرّج الضباط لخدمة البادشاه والسراي وبعد أن يخدم مدة في السراي ، ينقل إلى الخارج للخدمة في الأماكن المختلفة . أما أكاديمية الفنون الجميلة ،

فكانت تخرّج فنانين للسراي . كانت تحتوي على أعظم مدرسة لتعليم للوسيقي وأعظم هيئة موسيقية .

لا يقبل الطلاب رأسًا ، في اندرون سراي طوبقابو . يقبل فيها من أنهى مرحلة مدارس السراي العسكرية المتوسطة الدرجة . أما بالنسبة لقسم الفنون الجميلة ، فيقبل الطلاب الذين تكون لديهم استعدادات فنية فوق العادة وإن كان قد شوهد أحيانًا قبول الأولاد الصغار للفنانين رأسًا إلى التحصيل الابتدائيّ .

كانت المدارس العسكرية ذات الدرجة المتوسطة التي ترسل متخرجيها إلى الاندرون هي : سراي غلطة ، سراي إبراهيم باشا في سلطان أحمد ، السراي القديم في بيازيد ، سراي اسكندر جلبي وسراي ادرنه في ادرنه . فمثلاً كان في سراي غلطه في 1802 ، 5.3 طلاب (أرشيف رئاسة الوزارة ، سراي ، 5354) . لا يحق لجميع المتخرجين ، الدخول إلى الاندرون وإنما يلتحق بها فقط الممتازون جدًا منهم ، والآخرون يصبحون ضباطًا برتب صغيرة ويدعون بالخدمة الفعلية .

تنقسم الصفوف في الأندرون التي تسمى « أوده » ، إلى 6 . أسماء هذه الغرف أو الردهات من الأدنى إلى الأعلى كما يلي : 1 – الصفوف الكبيرة والصغيرة . 2 – غرف الدوغانجي . 3 – غرفة السفرلي . 4 – غرفة الكلرْ . 5 – غرفة الخزينة . 6 – غرفة الخاصة .

وفي الوقت الذي يخدم فيه الطلاب السراي والبادشاه من الناحية العملية ، كانوا من ناحية أخرى ، يتلقون الدروس التربوية والتعليمية . يعتبر تعليم الأندرون هذا ، من أهم مؤسسات الدولة العثمانية وأهم مؤسسة للتحصيل العالي عدا تحصيل العلوم الدينية . ينتقي من بين الذين أنهوا مدارس السراي المتوسطة ، ذوو الأخلاق ، الذكاء ، الإمكانات ، المعلومات ، التربية ، الاستعداد ، السلامة من العاهات البدنية ، المهارة ، وينقلون إلى غرف الاندرون الصغيرة والكبيرة . كان أولاد موظفي السراي الكبار غير المتخرجين من مدارس السراي والذين أكملوا الدراسة نفسها في بيوت آبائهم ، يؤخذون للاندرون بإرادة البادشاه . « هاتان » الغرفتان « اللتان تحتويان على ما يقارب 400 طالب ، كانتا بمثابة صفوف تحضيرية للصفوف الأعلى منها . كانوا يتعلمون قواعد

السراي ، الرياضية ، استعمال الأسلحة ، الفروسية . ألغي هذا القسم التحضيري في 1675 لانتفاء الحاجة إليه . الذين حصلوا على هذه لمهارات والذين درسوا العلوم الدينية ، العربية والفارسية بدرجة كافية ، ينقلون فورًا إلى الردهة (الصف) المسماة « سفرلي كوغوش » . لأن صف الدوغانجي ، كان قد ألغي بالتاريخ نفسه . وبناء على ذلك ، أصبح آلاندرون عام 1675 ، عبارة عن الصفوف الأربعة الأخيرة (سلاحدار 648, 1) . طلاب الغرف الصغيرة والكبيرة كانوا مرشحين لأن يكونوا ضباطًا وكانوا يتقاضون خلال خدمتهم ودراستهم مبلغ 864 دولارًا شهريًا بالسعر الحالي .

غرفة سفرلي ، أسست عام 1635 وألغيت في 1831 . وفي 1675 نقلت إلى الأندرون وأصبحت المرحلة الأولى لتحصيل الشباب بصورة رسمية . عدد طلابها في (1772) ، 149 (عطا بك تاريخ أندرون ، 1 ,154) كلهم كانوا بدرجة ملازم . رئيس الدائرة ، عسكري بدرجة عقيد يسمي « سراي كتخداسي » وتحتوي الدائرة عدا المدرسين على 12 ضابطًا من الرتب الصغيرة و 4 ضباط من الرتب الكبيرة ، يقومون بتدريس الدروس العسكرية . وكان يقوم بتدريس الدروس العلمية ، مدرسون يأتون من الخارج . كان الطالب ، يقوم كذلك أثناء تلقيه العلوم ، بخدمات تتعلق بأمور ملابس وحمام البادشاه . الذي يتخرج من غرفة لسفر ، إما أن يرفع إلى غرفة الكلر ويستمر في تحصيله ، وإما أن يتخرج من السراي ويصبح ضابطًا في الجيش .

غرفة الكلر (كلمة تعني مخزن الأرزاق) ، كانت إدارة هذه الغرفة بيد العقيد المسمي كلرجيباشي . عدد طلاب هذه الغرفة عام (1772) ، كان 144 ضابطًا . كانوا في نفس الوقت نفسه يعنون بأمور مخزن البادشاه ، مائدته ، طعامه . 7 ملازم أول ، 15 نقيبًا ، كانوا تابعين لإدارة كلرجيباشي (تاريخ اندرون 1 ,165) .

غرفة الخزينة ، هي كغرفة كلر وغرفة الخاصة أسسها فاتح . عدد طلبتها في (1772) ، كان 157 طالبًا . رئيسها اللواء العسكري للسمى خزينة دلرباشي . مصانع السراي التي يعمل بها 2 000 عامل وماهر ، تحت مسئولية هذا الجنرال . يخدم في هذا القسم 5 ضباط بدرجة عقيد . يحافظون على خزينة البادشاه . سوف يأتي شرح ذلك فيما بعد .

16 — الغرفة الخاصة . خاص أوده باشي وسلاحدار :

أعلى مراتب تشكيلات الاندرون هي الغرفة الخاصة ، إن جميع منتسبي الاندرون م الذين يقومون بتحصيل العلوم العالية ويعملون في الوقت نفسه ، هم برتبة عقيد . يقدّم إلى البادشاه شخصيًا كل ضابط دخل الغرفة الخاصة ، كان البادشاه يختبر إخلاص كل واحد منهم . أديرت الإمبراطورية لعصور طويلة من قبل الوزراء من متخرجي الأندرون . لا يجوز لأحد أن يتكلم بصوت عال في السراي ، خاصة في الأندرون . كل شيء كان رهينًا بقاعدة . من النادر أن يخرج الضباط الصغار إلى المدينة ، وإذا خرجوا فإنما يخرجون تحت إشراف أغواتهم (رؤسائهم) . يجوز للضباط متوسطي الرتب الخروج إلى المدينة مرة واحدة في الأسبوع ، إلا أن الضباط ذوي الرتب العالية يمكنهم الخروج مرة واحدة في الأسبوع وقضاء الليلة في بيوتهم . لا يجوز زواج الضباط ذوي الرتب الصغيرة ، يجوز للذين لا يريدون اتباع هذا النظام ، ويرغبون في والزواج ، أن يطلبوا نقل خدماتهم إلى خارج السراي . كانت تعطي لهم الواجبات حسب درجاتهم .

وعندما فتح محمود الثاني الكلية الحربية ، ألغى الاندرون والمدارس العسكرية الأخرى في 1833 واكتفى بالحفاظ على قسم الموسيقي ، وحتى هذا القسم أخذ يتضاءل على مر الزمن .

17 — الخزينة الهمايونية :

الخزينة الهمايونية التي سميت « خزينة خاصة » في دور التنظيمات ، هي خزينة البادشاه الشخصية ، وهي دراهمة النقدية الذهبية والفضية وجواهره. أما في نظارة الخزينة الخاصة — التي ناظرها ليس عضوًا في الوزارة — التي أسست بعد دور التنظيمات ، قد اتسع مفهوم الخزينة الخاصة وامتد ليشمل جميع الأموال غير المنقولة للبادشاه كالأراضي والمزارع .

الخزينة قسمان : الدراهم النقدية والحاجيات . الحاجيات هي الجواهر والتحف التي لها قيمة مادية وتاريخية كبيرة والتي كانت تجمّع في غرف معينة من سراي طوقابو كذكرى ، وهي تشكل أساس المتحف والفن المتحفي . لاتباع ، لا تصرف ، لا تهدى .

وهي في الحقيقة وبطبيعة الحال كانت ملكًا للبادشاه ، لا يوجد مانع من أن يتصرف فيها كما يشاء . إلاّ أن تبديد الحاجيات التاريخية كان يعتبر مخلاً بالشرف . لم يحاول أي بادشاه بعثرة الجواهر ، شارات الرأس ، الملابس ، السيوف وما شابه ذلك من حاجيات أجداده السلاطين وإخراجها من يده . أما النقود الذهبية والفضية المسماة « آقجه » فيصرفها كما يشاء ، يعطيها كإحسان أو عطية . إن جميع مصروفات السراي ، تسدد من الخزينة الهمايونية . كذلك إكراميات الجلوس . جميع موظفي السراي كانوا يتقاضون رواتبهم من هذه الخزينة . كانت الخزينة الخاصة تعطي للمالية مبالغ كبيرة في الحروب الكبيرة وفي أدوار الأزمات ولا تستردها بعد ذلك . ولم يشاهد عكس ذلك ، لم يحدث أن أعطت المالية قرضًا إلى البادشاه .

المسئول عن صيانة الأثاث والأشياء التاريخية ضباط غرفة الخزينة في الاندرون ، كانت تحفظ في سراى طوبقابو في صالتين كل منهما ذات غرفتين ، أى كانت مجموعة في أربع صالات كبيرة . كل شيء كان مسجلاً في سجلين كبيرين . آمر الخزينة برتبة بكلربك (فريق أول) المسمى خزينة دارباشي هو المسئل عن غرفة الخزينة ، لا يفارق البادشاه ، سواء في الحرب أم في السلم . ومعاونه (خزينة كتخداسي) كان برتبة سنجق بك (لواء) . كان هو المسؤول عن غرف الخزينة الأصلية . لكن سجلات الخزينة ، كانت تحفظ لدى سلاحدار شهرياري أي القائد العام للاندرون .

لا تفتح الخزينة برغبة أحد ، عدا البادشاه ؛ كان يجب الحصول على أمر البادشاه الشخصي . لا يمكن لأي شخص على وجه الأرض أن يدخل دائرة الخزينة بمفرده ، عدا البادشاه . كان يدخلها 20 ـ 30 شخصًا دفعة واحدة وبمراسم خاصة . كان بإمكان البادشاه ، أن يدخل وحده .

ما هو مصدر دخل البادشاه ؟ خمس الغنائم ، كان تفرز للبادشاه ، يحول إلى عملة نقدية ويرسل إلى خزينة البادشاه . هذا حكم الشريعة . إن الرسول ﷺ أخذ الخمس من الغنائم . ورافد آخر يصب في خزينة البادشاه ، هو ريع الأراضي الخاصة للبادشاه والتي تسمى « خاصّ » وبشكل أعم « خواص همايون = الخواص العائدة للبادشاه » والتي يحصل عليها في الفتوحات . كانت خزائن سلاطين دور الفتوحات مليئة وتمكنوا

من تشييد آثار عمرانية كبيرة . ولفقدان السلاطين الذين أعقبوهم هذه الإيرادات لم يصبحوا مثلهم . لم يشيّدوا آثارًا أميرية بنسبة الذين سبقوهم .

يقدّر Du Loir الألماسة المثبتة على شارة رأس السلطان إبراهيم في مراسم تقليده السيف (1640) بـ 300 مليون دولار بالسعر الحالي (ص 126) ويسجل Tavernier (ص 129 وما بعدها) بأن ابنه محمد الرابع يملك 150 شارة رأس ذوات قيم مماثلة لتلك . وفي دور القانوني كدّست المسكوكات النقدية الذهبية والفضية في إحدى قلاع يديكوله ؛ لعدم توافر مكان لوضعها في سراي طوبقابو (نعيمًا ، 1 — 38) . ويسجل Lord Ricault سفير إنكلترا في استانبول ، أن البادشاه في العصر 17 كان يملك عشرات الألوف من قطع البورسلان (الخزف) الصيني يقدر سعر الواحدة منها بالسعر الحالي 000 40 دولار (1 -262) .

ويجب أن نسجل كذلك ، مع بالغ الأهمية ، الهدايا التي يرسلها الحكام الأجانب .

18 – مرافقو البادشاه وضباط خدمته وموظفو المابين :

في الفترة الكلاسيكية ، كان يطلق على موظف المابين (مابينجي) للبادشاه « قوبجي باشي » وتعني رئيس البوابين ولمرافقي البادشاه « جاووش » Cavus . كان عدد البوابين قبيل (1640 , 400 2) (عين علي ، 93 ؛ كوجي بك ، 93) . شوهد في فترة ما ، ارتفاع عدد المابينجي (موظفي المابين) وضباط الأمر (الخدمة) إلى 150 . إن الباشمابينجي هو الفريق الأول المسمى « باشقبوجيباشي » ، وعند تعيينه للخدمة في الخارج يصبح وزيرًا « ماريشالا » (Ricault , 2 - 576) . كانت جميع فرمانات الإرادات السلطانية) البادشاه ترسل إلى كل أنحاء الإمبراطورية بواسطة « قوجيباشي » ، حتى لو كانت صادرة من قبل الحكومة .

والمرافقون الذين يطلق عليهم « جاووش » يقومون بالواجبات نفسها ، لكنهم كانوا يقومون على الأكثر بأمور التشريفات . غالبًا ما يختار ، الذين يرسلون إلى الأقطار الخارجة بوظيفة سفير موقّت من بين الموظفين الذين يسمون جاووش . كان بينهم من يجيد عدة لغات (Ricault , 2 , 578) . وفي فترة ما ، ارتفع عددهم إلى 000 1

(راشد ، 2 -553) . إن تقديم السفراء إلى الحضرة الهمايونية ، تنظيم المراسم في الاحتفالات ، الإلاشراف على النظام وعقوبات مخالفته ، إجراء التشريفات اللازمة للذين يرفعون ويبلغون بذلك بحضور البادشاه ، كان كل ذلك من ضمن واجبات الجاووش . ألغى محمود الثاني وظيفة الجاووش في 1836 . واجبات الفريق الأول المسمى « جاووشباشي » .. أعطاها إلى مشيري المابين الذين شكلهم حديثًا . وكلّف موظفي المابين بواجبات « قبوجيباشيلر » (رؤساء المابين) ، واستحدث اسم « باشمابينجى » بدلاً من « باشقبوجيباشي » وكلف « هنكار سرياوري » (رئيس مرافقي السلطان) ببعض واجبات الـ « جاووشباشي » . وزعت الواجبات الأخرى ، على نظارات العدلية والخارجية التي أسست حديثًا ، وعلى « سر عسكر لك » (نظارة الحربية » . وهكذا أصبحت إدارة السراي ، أكثر حداثة وأضيق صلاحية

19 – خدمات السراي الأخرى :

متفرقة لر ، موظفو المتفرقة ، كان هذا صنف خدمات يتألف من 631 شخصًا تقريبًا برئاسة جنرال يسمى « متفرقة باشي » والذين سمّوا في دور التنظيمات « خدمة همايون » (ايّوبى افندى ، **قانونّامه** ، 15) . كان الوزراء كذلك لديهم موظفون من المتفرقة . كانوا يعنون بأمور صيانة سمعة البادشاه والسلطنة . إن تشكيلات **بلطه جيلر** الذين ارتفع عددهم إلى حوالي 813 و التابعين إلى دار السعادة أغاسي ، هم تحت إدارة عقيد يسمى « بلطه جيلر كتخداسي » . كانوا يؤدون الخدمات الخارجية لمنتسبي السلالة . قسم منهم كان في السراي القديم . **زلفلو بلطه جيلر** ، بمعنى الحطّابه الطوافون ،. كانوا 200 شخص تقريبًا من رجال الإطفاء يقومون بحمل الحطب إلى الحرم . **جاشنيكار لر** ، وبتعبير أكثر تركية جشنيجيلر ، عددهم 117 تقريبًا . كان هؤلاء خدمة مائدة (كارسون) يقومون بخدمات تقديم الطعام إلى البادشاه ، العائلة ، موظفي السراي الكبار .

بيكلر ، هؤلاء موظفو بريد السراي . ارتفع عددهم إلى 150 .

شاطرلر ، بمعنى المجتهدين ، عددهم 57 تقريبًا وهم موظفو بريد السراى الذين يرسلون إلى مسافات أبعد . تراهن رئيسهم العقيد المسمى شاطر باشى مع محمد الرابع

الرياضي القدير ، ذهب من أدرنه إلى Dimetoka ركضًا وعاد في ظرف 10 ساعات وربح الرهان من البادشاه وحصل منه على عطيّة .

مهتر لر ، هي موسيقى السراي العسكرية التابعة إلى « مهتر خانه همايون » . عددهم 200 تقريبًا (كوجى بك ، 93) . كانوا على الإطلاق يرافقون البادشاه في الحملات . رفع مراد الرابع في 1640 ، عددهم إلى 300 (أولياء جلبى ، 1 ,261) . وحتى في أواسط العصر 16 كان لدي العثمانية 200 1 من أفراد المهتر .

جادر مهترلري ، أي مهتر الخيم ، يختلفون عن البقية ، هم ليسوا موسيقيين . ارتفع عددهم إلى 000 2 (كوجي بك ، 93) . كانوا مكلفين بنصب ورفع سرادق البادشاه الكبير المسمى « أوطاغ همايون » في الحملات والسياحات .

أمير عالم ، كان هذا آمرًا للعقيد الموسيقي المسمى مهترباشي والعقيد قائد مهتران خيمة . وكذلك كان يطلق اسم مختبر على **سنجقدار وبيرقدار وتوغجيلر** أي حملة رايات ، أعلام ، شارات السلطنة . هذا عدا حملة أعلام وشارات وحداتهم وجنرالاتهم الخاصة .

سيم سقالر ، أي السقاة ، هم سقاة السراي وكان عددهم 36 . يحملون الماء ، ويغسلون خاصة الأرضية الحجرية لجناح البردة الشريفة (خرقه سعادت دائرة سي) ، كان على رأسهم رائد يسمى سقاباشي (رئيس السقاة) .

أئمة ومؤذنو الهنكار(السلطان) ، عددهم جمعًا 60 ,30 منهم . كان يتم اختيارهم من بين الموسيقيين . كان بين الذين زاولوا هذه الوظائف ملحنون قديرون جدًا . إن رتبة الإمام السلطاني والإمام الثاني كانت أعلى من رتبة المؤذن باشي أو سرمؤذن أي رئيس المؤذنين . ويشاهد منح رتبة القضعسكر (القاضي العسكري) إلى العديد من الأئمة السلطانيين أي إلى رئيس أئمة السلطان . كان الأئمة من حملة الرتبة العلمية (أي أنهم متخرجون في المدارس الدينية) ، لكن المؤذنين يحملون رتبة الاندرون (خريجو مدارس لسراي).

منجّمباشي (رئيس للنجمين) ، ومعاونه منجمباشي الثاني ، كانا تابعين لأمر حكيمباشي . كانا يقومان بالأمور التقويمية وبتحديد أشرف ساعات أي ساعة السعد

الفواكه والورد لحساب السراي .

قائد الحامية هو الجنرال الذي يسمى بوستانجي باشي . هو الشخص الوحيد الذي يمتاز بإطلاق لحيته داخل السراي ، عدا البادشاه . وحتى سلاحدار شهرياري لم يكن يمكنه إطلاق لحيته . كان مسئولاً عن ذوق وجمال الأبنية في الخليج والمضيق . كانت لديه صلاحية هدم الأبنية التي لا تروقه . وكذلك هو مسئول عن أمن سواحل المدينة . يمسك سجلاً بالأبنية للشيدة على السواحل مع أسماء مالكيها . **بوستانجي باشي دفترلري** ، أي سجلات البوستانجيباشي ، وهي وثائق قيّمة لأرشيف التاريخ العثماني . بوستانجيباشي أدرنه ، كان مستقلا . قوشيجباشي ، هو الضابط المفتش العام لغابات ومزارع البادشاه .

آرايجي ، بمعنى باحثين ، هم خدمة السراي الذين يفتشبون باستمرار مجاري مياه السراي والسواحل الرملية . كانوا يعثرون على الحاجيات الثمينةالتي تسقط من نسوة السراي في المياه سهوًا .

كانت توجد معامل ومصانع تعمل خارج السراي ، لتأمين احتياجت السراي . مثلاً **حلواجيان خاصة** كان عددهم في 1755 ، 6 أسطه .. (أستاذ ماهر) ، 100 خلفه (مساعد أستاذ) ، يصنعون الحلوى للسراي . **خبازون خاصة** ، هم الفرانون الذين يصنعون الصمون والخبز للسراي . كان عدد القصابين العاملين لخدمة السراي عام 1755 ، 17 قصابًا ، 23 صانعو اللبْن المختر والمعنيوين بشئون الحليب للسراي ، 31 خضراويًا ، 17 دجّاجيًا صانعوا المعجنات 23 صانعو الشموع ، 25 سقاة ، 15 طلاة القدور النحاسية ، صانعو الثلج 6 . وكان السراي يحتوي على 369 خياط ، 36 خياط ملابس رسمية . أما منظفوا ملابس السراي ، فكانوا كثيرين . وإضافة إلي ذلك ، كان في القطاعات والمجالات الأخرى 250 عامل أسطة (أستاذ) ، 3 مجلدين ، صانع حبر ، 7 نقاشين ، 8 صانعي أحذية ، 5 صانعي فرو (كركجي) ، 12صانع سيوف (قليجّي) ، و صانع قراب السيف (قينجي) .

21 ــ المطبخ السلطاني (مطبخ عامره) :

كانت تشكيلات مطبخ طوبقابو كبيرة . يطبخ الطعام لمنتسبي السراي . كان مطبخ

أو الساعة المناسبة ، ويقومان بتقوية الروح المعنوية . لكن يلاحظ أن الحكام كعثمان الثاني ، عبد الحميد الأول ، سليم الثالث هَزِمًا علنًا بساعة السعد ، شوهد أن مصطفي الثالث كان يؤمن بذلك . إن الشيخ أحمد ده ده رئيس منجمي محمد الرابع يحتمل أن يكون أعظم مؤرخ أنجبه العثمانيون .

باب السعادة أغاسي ، هو الفريق الأول رئيس الخصيان البيض . وإضافة إلى ذلك كان مديرًا لإدارة 70 جامعًا شيّد من قبل السلاطين . فقد أهميته بعد العصر 16 وصار اسمه « قابو أغاسي » بمعنى رئيس الباب . ومع ذلك فقد استمر حتي 1908 .

حكيمباشي ، هو رئيس 18 طبيبًا ، 10 جراحين ورئيس صيادلة السراي . وكان كالأطباء الذين في معيّته من صنف علماء الدين (11, 7, d' Ohsson) إن إبقاء طبيبين اثنين وجراحين اثنين في السراي في الخفارة لمدة 24 ساعة كان أحد نصوص القانون . إضافة إلى ذلك كان يوجد طبيب للعيون باسم كحّالباشي ومعه طبيبان آخران اضخرين . يقوم أحد الجراحين بختان الشهزادات . الحكيمباشي (رئيس الأطباء) المسمى « سر أطباي خاصة » ، كانت لديه الصلاحية لتدقيق شهادات وإجازات كافة الأطباء الموجودين في استانبول . يترك السراي برتبة قاضٍ عسكري . **أندرون** ، 193,1 - 4 ؛ واصف ، 285,2 ؛ راشد ، 235,3) .

20 ـــ بوستانجي أوجاغي (حامية الحرس) والخدمات الخارجية للسراي :

هي كتيبة حماية حقيقية للسراي وحدائق السلطان الخاصّة . وصل عددهم الأقصى إلى ما ينيف على 4 000 في 1595 ؛ 300 منهم يسمون خصكي Haseki يلبسون بدلة من الجوخ حمراء اللون ويحملون العصي ، جميعهم برتبة ضابط ومساعد ضابط ويشكلون وحدة تابعة للرائد المسمى خاصكي باشا . عند خروج البادشاه لتفقد المدينة متنكرًا (بالعثمانية : تبديل قياقت ، بالفرنسية Cognito) ، كان يستصحب معه عدة أشخاص من الخصكي بعد تغيير لباسهم . كانت في أدرنة حامية حرس (بوستانجي أوجاغي) كذلك . وصل عددهم إلى 954 . كانوا يعنون بالحدائق التابعة لسراي أدرنة . وكان تحت إمرتهم البستانيون الذين يستخدمون الحدائقيين . كانوا يبيعون الفائض من

السلالة والبادشاه منفصلاً . كان رئيس الطهاة (آشجيباشي) يشرف على ما يقرب من 400 طباخ يعملون في 9 أجنحة . كان مطبخ البادشاه والسلطانة ـ الوالدة منفصلاً ، واسم الأول « مطبخ خاص » .

يؤكل في السراي يوميًا ما يقارب 500 خروف من أجود الأنواع (قيويرجق) . لحم البقر ، لا يدخل السراي أبدًا . يؤكل الدجاج وطيور الصيد بكثرة . توجد مطابخ منفصلة للحلويات ، المشروبات ، المخللات . فمثلاً كان عدد العاملين في قسم الحلويات 400 تقريبًا .

وفي المطبخ السلطاني المسمي « قوشخانة » أو « خاص مطبخ » أو رسميًا « مطبخ خاص » ، كان يوجد 12 طباخًا لهم شهرة عالمية في مجالهم ، يطبخون لشخص (البادشاه) . يأتي هؤلاء من قصبة منكن Mengen التابعة لمحافظة بولو Bolu ، يرفّع الذين يبدون مهارة إلى رتبة طبّاخ المطبخ الخاص . كان يوجد أساتذة في الطباخة مختصون بصنع نوع واحد من الطعام ، يتعالون عن صنع نوع آخر ويعتبرون ذلك مذلّة . وإضافة إلى ذلك فللحرم فرن خاص ، كان ينتج 8أنواع مختلفة من الصمود والخبز . أما الصمون والخبز الخاص بموظفي السراي فكان يجلب من الخارج .

كانت أضخم مصروفات في ميزانية مطابخ السراي ، هي ميزانية علم 1670 . تعادل بالسعر الحالي الرائج 126 مليون دولار . بينما في دور القانوني ، دور العظمة ، كان هذا المبلغ يعادل 1 : 4.5 منه . يشاهد لزدياد الفخفخة وزياده عدد موظفي السراي على مر الزمن . يجلب إلى السراي من كل قطر أجود ما يمتاز به ذلك القطر من المحصول . مثلاً أرز السراي يجلب من مصر ، الحمّص والسكر ، من مصر كذلك ، الحنطة من المملكتين (رومانيا) ، الغنم من إيران ومن المملكتين ومن روملي ، التوابل من الهند ، الملح من قوجحصار ، العلك من استانكوي ، الفواكه جميعها تقريبًا من الحدائق الخاصة من استانبول .

22 ـ الاسطبل السلطاني (اسطبل عامره ، خاص آخرلر) :

كان الحصان هو وسيلة الركوب والنقل الوحيدة للسراي إلى نهاية الإمبراطورية .

لم يكن السلاطين المتأخرون يركبون السيارة أبدًا . تتجمع في الاسطبل السلطاني ، أجود أنواع الخيول في العالم . كانت مدربة بشكل فائق ويطلق على الخيول الخاصة للبادشاه تعبير « ركوب شاهانه يه مخصوص » أي خاصة لركوب السلطان . ويعتبر ركوب الغير عليها تجاوزًا كبيرًا لحدود الأدب . لكل حصان اسمه وشجرة نسبه . جميع السلاطين تقريبًا كان لهم ولع بالخيل . لكن لا يوجد سلاطين مولعون إلى درجة مرضيّة كما في السلالات الأخرى . كان الحصان الجيد بالنسبة لشخص ولوع بالصيد إلى درجة مرضيّة كمحمد الرابع عبارة عن واسطة لتسهيل الصيد الجيّد . والحصان بالنسبة إلى مراد الرابع ، أمهر خيال ومبارز ورام ومستعمل للسلاح في الامبراطورية ، عنصر لا يمكن التخلّي عنه في القتال . كانت توجد 8 خيول تعود لشخص البادشاه و 200 حصان تقريبًا يعود للسلالة . والخيول الباقية تعود لأفراد السراي .

عدد سياس الخيل 600 تقريبًا . آمر اسطبلات السلطان ، هو « أمير اخور شهرياري » الذي كان يسميه الشعب امراخورء » . كان معاونة يسمى « كوجوك أمراخور » (أمراخور الصغير) . كوجوك امرآخور ، كان آمرًا للعربات ولسائقي العربات « بيوك امرآخور » كان جنرالاً برتبة سنجق بك (لواء) . يترك السراي برتبة بكلر بك (فريق أول) . ارتفع عدد الضباط والسياسي العاملين في الاسطبلات السلطانية إلى 2 000 . يضاف إليهم ما يقارب 300 سرّاج و 300 نعّال ، كان يُعنى كذلك بـ 2 000 بغل لأجل السراي . على رأسهم عقيد يسمى « قاطر جيباشي » أو « خاربنده باشي » أي رئيس المعنيين بالبغال . العقيد المسمي سارباناشي أوده جـ ـي ، أي رئـ المعنيين بالجمال ، كان آمرًا لـ 4 000 جمل تحمل البضاعة للسراي ، و 450 سائس جمل . ولأنها الوسيلة الوحيدة لخدمات النقل كان عدد أفراد الاسطبلات الخاصة قد بلغ في عهد القانوني 3341 . ازداد هذا العدد في العصر 17 . ويتبع هذه التشكيلات ، 213 شخصًا يعنون بصيانة المزارع والمراعي الخاصة بالاسطبلات السلطانية يسمون (محافظي المراعي) وصنف يقوم بتربية الأمهار ويسمون « طايجي » . أما « آربا لميري » (أمير الشعير) فهو الشخص الذي يؤمن لاسطبلات السراي الحشيش والشعير والحبوب الأخرى .

كان لدي السلالة ومقربيهم في الأعوام القريبة من عام 1670 ، وهو دور الذروة

للامبراطورية بعنايتها بمظهرها الخارجي والفخفخة ، 9000 حصان ؛ 40 منها تخص البادشاه شخصيًا ، وما يقارب 400 حصان دربت بشكل خاص على السباق (هامّر ، 389, 9 – 90) . قال السائح Paul Lucas الذي شاهد حصان البادشاه « أجمل حصان في العالم » (75, 1) . أكثرية الخيول كانت من نسل أناضولي وهذا النسل غير موجود حاليًا . انقرض نسله . بعضها كان خيولاً عربية جلبت من البادية .

« رخط خزينة سي » (خزينة رخط) ، هي خزينة سلطانية منفصلة خارج دائرة الخزينة . وبسبب إغراق نقطات خيول البادشاه (طاقم الأعنة واللجم) بالجواهر ، كانت خزينة رخط الهمايونية بدرجة لا يمكن أن يتصورها خيال إنسان اليوم . يقدر السائح المسمى Baudier الجواهر الموجودة على لجام ونطاق حصان البادشاه فقط الذي شاهده بنفسه ، بـ 136 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا (ص 22) ، بينما المعلوم أن البادشاه يملك درازان عديدة وأشكالا مختلفة من جواهر الأحصنة هذه . إن خروج أو دخول أي شيء من وإلى خزينة رخط هذه يدوّن بالساعة والدقيقة . وفي 1837 أطلق محمود الثاني على أمراخور ، اسم « اسطبل عامره مديري » أي مدير الاسطبل السلطاني (لطفي ، 4 ,164 ,5 ,100) . وفي دور التنظيمات تم اختيارهم من بين الرجال المقربين إلى البادشاه .

كانت حديقة حيوانات البادشاه ، التابعة لسراي طوبقابو ، مفتوحة للشعب . كانت تسمى « ارسلانخانة » وبعضًا « فيلخانة » أي مكان عرض أو ترويض الأسد ومكان عرض الفيل . تروض بعض الحيوانات وتعلم بعض الفنون . اشتهر الأسد الذي كان يستصحبه معه السلطان عبد العزيز . كان وزراؤه ومشيروه ينفرون من هذا الأسد . إذ إنهم كانوا يخشون من أن يهجم عليهم بحضور البادشاه ، حيث إنهم لم يكونوا مطمئنين إلى تربيته بشكل جيد . واشتهرت كذلك طيور عبد الحميد الثاني الأجنبية ، الببغاوات وكل أنواع الطيور الحية ومجموعة ييلدز من الطيور المحنطة كلها نهبت في 1909 . شوهد أول كركدان في استانبول عام ١٩٧٩ . كان رمضان أوغلو أحمد باشا بكلر بك الحبشة قد اصطاده بصعوبة وأرسله . دعا مراد الثالث شعب استانبول كافة إلى السراي ليشاهدوا هذا الحيوان الذي لم يشاهد سابقًا ويعرف اسمه فقط . كتب Taranowski الذي زار استانبول 1569 ، أنه شاهد أول زرافة حيّة في حياته في البادشاه في حديقة استانبول . حديقة حيوانات السراي ، كانت

مجاورة لأياصوفيا .

23 – ما بين همايون (البلاط) :

جدد محمود الثاني تشكيلات السراي التي ذكرناها آنفًا بإسهاب ، عام 1834 وجعلها على غرار تشكيلات الحكام الأوروبيين العظام . ألغي المؤسسات البالية التي لا تلائم العصر والتي أصبحت لا فائدة فيها . أما مؤسسات السراي الأخرى ، فبدّل اسمها فقط . واستمر على تطبيق إجراءاتها تقريبًا . أسّس تشكيلات سراي أكثر ملاءمة للعصر 19 . ولو قيّمنا ذلك اليوم نحن كمؤرخين لوجدنا أنه قد أسس تشكيلات سراي راقية ومتقنة حقًا بالنسبة لذلك العصر . ألغى العديد من وسائل الفخفخة ، الأمر الذي سبّب إلغاء وظائف كثير من المواطنين أو قلّص دخولهم . لكنه في الوقت نفسه ، قلّل مصروفات البادشاه بشكل أساسي بالنسبة للسابق . ومن ناحية أخرى كانت هنالك ضرورة لذلك أيضًا ؛ حيث إن أكثر مصادر إيرادات السلاطين القدامى قد نفدت . والحقيقة أنه لم يكن هنالك سلطان يقيّم ذلك بواقعية حقّة ، كالسلطان محمود الذي إعتلى العرش عندما كان أميرًا شابًا وهو يلفظ هذا القول المأثور « Ya devlct basa, yakuzgün lese » الذي معناه « إما أن أوفق في هذا العمل الصعب أو أضع رأسي في الميزان » .

لنر الآن الخطوط الرئيسية والواجبات الأساسية لنظام تشكيلات السراي الحديث لبني عثمان في أعوامهم الـ 90 الأخيرة :

اسم اندرون همايون ، تبدل وصار مابين همايون وباسمه الكامل مابين همايون جناب ملوكانه . بلغت هذه التشكيلات أوجها في دور عبد الحميد الثاني . إن أكبر آمر للمابين **هو ما بين همايون مشيري** (مشير المابين السلطاني) . كان هذا ماريشال السراي (بالفرنسية : Marèchal dela Cour) وناظر السراي . كان أولهم أحمد فوزي باشا عام 1832 . وعند وفاة غازي عثمان باشا عام 1900 لم يعين مكانه أحد معاونو ، فريق المابين ومساعدوه الجنرالات الذين يسمون ألوية المابين . كان المشير يمتطي الجواد جنب البادشاه في مراسم قبول الجمعة (جمعة سلامليغي) وإن كان ممتطيًا عربته ، كان يجلس في العربة أمام البادشاه . يحضر أكبر المراسم . وهو المسئول عن أمن السراي .

لا يمكن لأي فرد أن يأمره ، عدا البادشاه . إن الصدور العظام ، الوزراء ، المشيرين ، القضاة العسكريين الذين يحضرون السراي لمقابلة البادشاه ، كانوا يمرون مجاملة بغرفة مشير المابين الرسمية ويتحدثون إليه . لم يكن يستقبل ويودع حتى الصدر الأعظم . إن هذا الواجب ، كان يقوم به الباشمابينجي (رئيس المابين) .

الموظف الثاني الذي يلي مشير المابين هو باشمابينجي . يكون إما برتبة بالا (بمعنى أعلى وهي رتبة مدنية تعادل رتبة فريق أول) أو وزير . لا يمكن لأحد من الخارج أن يقابل البادشاه دون علمه . ولحضوره كل مراسم القبول والمقابلات مع السلطان ، كان يسمي « سرقرين » (رئيس القرناء) أو يسمي كذلك « سرقرناي حضرت شهرياري » (رئيس قرناء جلالة البادشاه) . ثم يليه المابينجي الثاني وللمابينجي الثالث (موظف للمابين الثاني ، الثالث) والموظفون الذين لا تقترن رتبهم برقم . موظفو المابين كلهم مدنيون ومتخرجون من المدارس لللكية (العلوم السياسية) .

الموظف الكبير الثالث للمابين هو رئيس كتّاب المابين (سر كاتب حضرت شهرياري) . وهو برتبة بالا أو وزير . يقوم بتنظيم مراسلات وعلاقات الحكومة مع البادشاه . ثم يليه .. كاتب المابين الثاني ثم الثالث وعدة كتبة مابين آخرين لا يقترن برتبهم رقم . وهم أيضًا موظفون مدنيون .

والموظف الكبير الرابع هو المرافق الأول للبادشاه المسمي « سرياور حضرت شهرياري » ، رتبته على الأكثر فريق أول ، معيّنه ، مرافق السلطان الثاني والثالث ومرافقو السلطان ذوو الرتب المختلفة (رائد ، مقدم ، عقيد) كلهم ضباط وأكثرهم ضباط ركن . أصحاب رتب ملازم ونقيب ، لا يسمون مرافقين ويسمون « هنكار أمر ضابطي » (ضابط خدمة السلطان » . يقومون بتنظيم للراسم ، وبتبليغ أوامر السلطان .

موظفو المابين الهمايوني الذين يستحقون الذكر بين موظفي للمابين الكبار الآخرين ، والذين يعمل في دوائرهم عدد كبير جدًا من الموظفين ، هم الوزير ناظر الخزينة الخاصة ، رئيس أطباء البادشاه الذي يحمل الرتبة ذاتها والمسمى سر أطباي حضرت شهرياري ، الإمام السلطاني الأول برتبة قاضٍ عسكري ، الكاتب الأول للمكاتبات الأجنبية

(تحريرات أجنبية باشكاتبي) ، رئيس المترجمين (باشمترجم) ، ناظر مصروفات الحرم الهمايوني .

أما تشكيلات الحرم الهمايوني فقد ظلت كما كانت عليه سابقًا ، واكتفي فقط بتخفيض نفقاتها .

المبحث الثاني عشر

الدولة والحكومة



١) كلمة حول الصفاة المميزة للدولة العثمانية

''الامبراطورية العثمانية، امبراطورية فسيحة. لها اهمية غير متناهية من الناحية التاريخية ... مارد، اذرعة القوية تكمش 3 قارات بذات الوقت . وكجميع الامبراطوريات، ان سقطت يوما ما، فان الانقاض التى ستتركها في اسيا، افريقيا واروبا ستغمر هذه القارات الثلاث ... والامبراطورية العثمانية — حتى فى هذا اليوم (1835) — تضبط اقطارا اكبر وسعة من البيزنطية، فى قمة شوكتها ''. استهل فون هامر، التاريخ العثمانى الشهير المكون من 19مجلد، بالجملة آنفة الذكر (1835 Histoire del'Empire Ottoman، باريس ، 1 ، ص 1—2).

'' اسس الاتراك بعد مرور الاجتياح المغولى، امبراطورية دامت عصورا طويلة، بين ايران وفاس، وقرم واليمن. لم يشهد التاريخ الاسلامى، كيانا سياسيا متينا ومستقراً كالعثمانيين ... كانت الدولة الاكبر، الاوسع، الاكثر استقراراً والتى تملك موارد مالية اعظم في اوربا، وخاصة طوال كامل الغصرين 16،17، هي العثمانية . كان كيانا منتظما يحوى جهازا اداريا نظم على اساس صيانة مصالح الشعب العثمانى . اسطوله كان يحكم البحر الابيض برمته . ان النظام، احد اكبر مزايا الاتراك، كان يسود كل اطراف الامبراطورية. كانت استانبول، تبهر عيون كل سائح اوروبى يزورها، كأكبر مركز للمدنيّة في العالم'' (باريس 1943،ص 164).

'' كانت الامبراطورية العثمانية في العصرين 16— 15 ، الدولة العالمية بحق'' (Mehmed der Eroberer, Babinger) (reiehes Welt) ، ميونخ 1953،ص 469).

'' كانت الامبراطورية العثمانية دولة عالمية بحق (L'Empire du Levant, Rene Groussent) '' (vraimant mondiale Empire Ottoman, Puissanee) باريس 1949 ص 643) .

« أسس العثمانيون في آسيا وأفريقيا وأوروبا إحدى أوسع الامبراطوريات التي عرفها الكون » Morgenlhau ، ص 240) .

« الدولة العثمانية ، هي أحد مظاهر التاريخ المذهلة جدًا والخارقة للعادة جدًا . حاولت جمع كامل حضارات البحر الأبيض ، تحت ظل إمبراطورية واحدة » Soliman le Magnifique ; Downey ، ص 33) .

إن أعظم الدول قدرة اليوم ، هي دولة الأتراك » (le plus fort Etat qui paroissé pour le present au mond est celui des Tures (Montaigne, Essais, I, 273) .

« إن قدرة تركية اليوم ، تفوق قدرة مجموع بقية الدول جميعًا » (René Herpin ، Apologie ، جنيف 1629 ، ص6) .

إن الدولة الوحيدة التي جمعت تحت إدارتها الشرق الأدنى (الأوسط) ، طوال التاريخ كله ، هي الإمبراطورية العثمانية . لم توفق في ذلك ، لا امبراطوريات الفرس ، ولا روما ، ولا العرب . والذي جمع الأقوام العربية بأسرها ، والشعوب التي تتكلم العربية جميعًا تحت إدارته ، هي الامبراطورية العثمانية . لم تتمكن أية دولة من الدول التي احتلت مكان العثمانية في الشرق الأدنى ، سواء كانت أوروبية أم محلية ؛ من إدارة هذه المنطقة بشكل جيد كما أدارها العثمانيون . انكلترا ، فرنسا وإيطاليا الذين تقاسموا المنطقة فيما بينهم ، كانوا موقنين بأن إدارتهم لهذه الأقطار ستكون خيرًا من العثمانية ، لكن هذا لم يحدث . كان الوضع ذاته ، بالنسبة إلى روسيا التي كانت السبّب في فقدان الامبراطورية العثمانية لأقطار جنوب – شرق أوروبا . تمكنت جميع الدول الأوروبية هذه ، من أن تحكم بالظلم هذه الأقطار التي سلختها من العثمانية . وحتي الإدارة التركية إبان أواخر الدولة العثمانية – وهو أسوأ أدوار الامبراطورية – كانت بالنسبة للشعوب القاطنة في تلك الأقطار أحسن إدارة من إدارة الدولة التي احتلت مكانها . إن الدولة العثمانية كانت خلفًا لإمبراطورية روما بكل ما في الكلمة من معنى . لم تكن إدارة أيةَ دولة ، قديمة كانت أم معاصرة ، أفضل لشعوب وأقطار الشرق الأدنى وجنوب – شرق أوروبا ؛ من إدارة العثمانية » (A . J . Toynbee, The ohoman Stateand its place in World History Lieden 1947 ، ص 15 وما بعده) .

« كان السبب الرئيسي في نجاح العثمانية ، كمال تشكيلات الدولة والتفوق في التكنولوجيا العسكرية » (Histoire de l'Europe, Pirenne ، ص 390) . « إن العامل الأساسي في نجاح العثمانية ، هو سمو نظام العدالة وإنسانيته » (L'Age Noderne Henri ص 44 – 5) .

« إن سر توفيق العثمانية هو عدم اهتمامهم بأي شيء ، عدا المزايا واللياقة الشخصية . لا الدراهم ولا النسب يمكن أن يكون عاملين للامتياز . السلالة العثمانية هي الاستثناء الوحيد . وفي هذه العائلة فقط ، تكسب الوراثة والنسب ، امتيازات بالولادة . وبناء على ذلك فإن كيان المجتمع العثماني يختلف تمامًا عن كياننا نحن الأوروبيين » (Baron von Busbecq ، ص 35 – 6) .

قدمت لكم بعضًا من آراء المؤرخين والمشاهدين المعروفين جدًا القدامى والجدد ، حول الدولة العثمانية . يمكن تقديم آلاف الأمثلة من هذا النوع . (لم أختر أمثلتي من المؤرخين الأتراك).

من الواضح أن Pax Ottomana يعني نظامًا عالميًا جديدًا بعد Pax Romana . وقد ذكر السلطان محمد الفاتح ذلك في أواخر سني حكمه ، في اصطلاح وعبارة « نظام عالم » (النظام العالمي) المدون في **فاتح قانونامه سي** (قوانين فاتح) الذي هو بمثابة دستور للدولة . ترجم مؤرخو الغرب الحديثون « النظام العالمي » للعثمانية على شكل « Pax Ottomana » .

كان الدخول في هذا النظام ، هو الدخول في الحضارة . وعلى الذي يعارض النظام ، أن يتحمل النتائج . هذه كانت عقلية العثماني . يذكر كوجي بك في العصر 17 (ص 49) ما يلي : « إن دولة آل عثمان ، خلّدت خلافتهم إلى آخر الزمان ، هي الدولة العلية العظيمة التي يمكنها بأمر الله تعالى ، أن ترد بسهولة على جميع أعداء الدين والدولة المحيطين بها ، إذا ما اتحدوا وصاروا قلبًا واحدًا وجبهة واحدة وعزموا على الهجوم من جميع الأطراف .

2 ـ الصدر الأعظم :

شاهدنا البادشاه ، رمز الاتحاد والنظام في دولة كهذه ، طرز حياته وأطواره . وننتقل

الآن إلى الحكومة . كيف كانت تسير الأمور بصورة فعلية في هذه الدولة ومن الذي يسيّرها ؟ .

إن الرئيس الحقيقي للعاملين هو موظف الدولة الأول المسمى « الصدر الأعظم » . أطلق على الصدر الأعظم في الأدوار الأولى ، اسم « وزير أعظم » كذلك ، هو رئيس وزراء . لكن صلاحياته بالنسبة لرؤساء وزارات اليوم ، كانت أوسع بدرجة ليست قليلة .

حتى 1362 كان يوجد وزير واحد . هو رئيس الوزراء . وفي 1362 أصبح وزيران ، ثم ازداد عددهم بتوالي الزمن . كلمة « وزير أعظم » التي تطلق على رئيس الوزراء تعني « أكبر وزير » .

ولكي يكون الشخص صدور عظام ، كان يكفي : 1 – أن يكون مسلمًا سنّيا . 2 – أن يجيد اللغة التركية . 3 – أن يكون قد تدرج في خدمات الدولة المختلفة حتى توصل إلى المقام الذي يخوله ذلك . 4 – تعيينه لهذا المقام من قبل البادشاه بصورة رسمية . ولا يؤخذ بنظر الاعتبار بصورة قطعية اعتبارات أخرى كالنسب ، العرق ، لغة الأم ، الثروة .

كان الصدر الأعظم ، هو الوكيل المخوّل للبادشاه . ليس من السهل تصوّر شيء خارج صلاحياته . الحقيقة ، أنه ليس بإمكانه تغيير أحكام القاضي (لأحكام) (عدا الأحكام التي تتعلق بأمن الدولة) ، ولا يمكنه صرف أكثر من المبلغ المثبت في الميزانية ، كان مقيّدًا بمثل هذه القيود ، لكن كل هذه ، إنما كانت تدابير تتخذ لغرض الحفاظ على النظام وتأمين اشتغال الصدر الأعظم بانتظام أكثر . هو رئيس الحكومة . ورئيس الجيش وكالة عن البادشاه كان هو المسئول عن كل عمل في الجيش . يصادق على تعيينات شيخ الإسلام لصنف العلمية (رجال الدين) ، وفي حالة عدم رضائه وعدم تصديقه ، كان يلغي ذلك التعيين . كانت له صلاحية التدخل في كل عمل أيما كان ذا علاقة بالدولة أو لم يكن ، عدا المحاكم ، وتمحيص أية مسألة ، لكنه مع ذلك ، لا يمكنه الخروج عن المبادىء الإسلامية والأخلاقية .

كان يتقاضى مخصصات عظيمة ولديه معيّة عظيمة كذلك . كان يعيش في سراي حقيقي . وحتى في دور التنظيمات الذي فقد فيه الصدر الأعظم عظمته السابقة ؛ كان راتبه الشخصي كبيرًا . إن صدور عظام دور التنظيمات ، كانوا يتقاضون حتى عام 1922 رواتبًا تتراوح بين 250 و2 000 ليرة ذهبية شهريًا . إذ إن راتب الصدر الأعظم لم يكن محددًا . وإنما يثبت الراتب بالنسبة لثروة الصدر الأعظم الشخصية وبالنسبة لإمكانات الدولة في ذلك الحين . يشاهد أن أقل راتب تسلمه صدر أعظم في أحد العصور الأخيرة ، هو 200 ، وأكثر راتب هو 2 000 قطعة ذهبية . ويعادل ذلك بالنسبة للسعر الحالي من 3 000 إلى 30 000 دولار . إلاّ أن المعيشة وقتئذ كانت أرخص م اليوم بمقدار 5 / 2 مرة ، والقوة الشرائية للدراهم كانت أقوى بمقدار 5 . 2 مرة . أي إن الأعمال التي تجرى والحاجيات التى تشترى اليوم بـ 7 500 دولار ، كان بالإمكان تحقيقها في ذلك الزمن بـ 3 000 دولار . (تلاحظ نسبة التضخم التي تجعل الصورة أكثر اختلافًا بكثير عما ذكرنا) .

إن التشريفات الخاصة بالصدر ، كانت محددة بشكل دقيق إلى أدق تفاصيلها ، ولو أنها ليست بدرجة تشريفات البادشاه .

يسمى أمر الصدر الأعظم التحريري « بويرولتي » والشفوي « أمرًا ساميًا » .

كان لقبه الرسمي « دولتلو فخامتلو » وهو اللقب العثماني الذي كان يستعمل لأمراء أوروبا أيضًا إذ إن الصدر الأعظم في أوروبا ، معادل لـ « برنس » وكذلك شيخ الإسلام ويخاطبونهما كما يخاطب الأمراء بخطاب « altes » .

من يشغل منصب الصدارة ولو ليوم واحد ، يدخل ضمن تشريفات « البرنس » (الأمير) . لكن لقب الصدور الأعظم السابقين ، كان « دولتلو ابّهتلو » .

كان الصدر الأعظم ، يقبل يد البادشاه حتى 22 / 12 / 1574 . وبدأ بعد هذا التاريخ بتقبيل ردائه . تُرك تقبيل الرداء في التنظيمات ، وحلت مكانه التحية باليد اعتبارًا من الأرض . إن التحية باليد من الأرض ، لم تكن خاصة بالبادشاه والسلالة . إذ يحيّي الشخص الذي يراد إظهار احترام زائد له بهذه التحية ؛ كذلك كان من قواعد المجاملة أن يحيّي الطرفان أحدهما الآخر في الوقت نفسه بالتحية من الأرض .

كان الصدر الأعظم ، حتي 5 / 8 / 1650 ، يحادث البادشاه بجلوسه على كرسي يوضع أمامه ، ألغيت عادة جلوسه أمام البادشاه ، بعد هذا التاريخ . أصبحوا يتكلمون وهم وقوف والبادشاه يجلس على عرشه . أما في دور التنظيمات فكان يتكلم مع البادشاه وهو جالس معه على أريكتين متقابلتين .

يقف الصدر الأعظم علي قدميه ، عند استقبالة للمسئولين من رتبة سنجق بك (لواء) فما فوق وعند توديعه إياهم ، كان يقوم مرة أخرى على قدميه . لكنه لا يتحرك من مكانه ولا يتقدم . وكانت المراسم نفسها تطبق بالنسبة لحاملي رتب بكلر بك (فريق أول) . أما بالنسبة للذين رتبهم تعادل الماريشال (المشير) ، كالوزير والقاضي العسكري ، فكان يتقدم لاستقباله حتى منتصف الصالة ويشيّعه حتي منتصف الصالة أيضًا . كان يتكلم وهو جالس ، مع الذين رتبهم أدنى من سنجق بك (لواء) (عقيد والرتب الأدنى) ، ولا يقف على قدميه أبدًا ، ولا يسمح كذلك لذوي تلك الرتب بالجلوس .

الكل ، كانوا يقبلون يد الصدر الأعظم ، ماعدا الوزراء والقضاة العسكريين ومنتسبي السلالة وكان ذوو الرتب الصغيرة يقبلون رداءه فقط . يستثني الوزراء والقضاة العسكريون المسنون جدًا ، هؤلاء ، لا يقبلون يد الصدر الأعظم ، كانوا يعانقونه فقط .

صلاة الميت للصدر الأعظم ، كانت تقام في جامع فاتح (جودت ، 2 ,154) .
محل إقامة الصدر الأعظم قبل التنظيمات ، كان يسمى سراي ، وبعده سمي كوناك . توجد بين سرايات الصدور الأعظم أبنية فخمة جدًا ، بينها الذي يحتوي على 300 غرفة ، فرنين ، مسجد ، 15 حمّامًا . إن سرايات مقبول إبراهيم باشا في آتميداني (سلطان أحمد) وسراي صوقوللو محمد باشا في قادرغه ، كانت من هذا النوع .

عند قيام الصدر الأعظم بنفسه بواجب القائد العام على رأس الجيش في الحملات والحروب ، يمنح لقب « سردار أكرم » (القائد الأعلى) وتزداد صلاحياته . إذ كان بإمكانه أن يملأ الأوراق البيضاء الموشحة بطغراء البادشاه كيفما يشاء وتنفيذ الأحكام كأنها أمر البادشاه الشخصي . كان بإمكانه استعمال صلاحيات واسعة لا يمكنه إجراؤها في الأوقات الطبيعية : كمنح أمير مسيحي لقب ملك ، إسقاط سلالة مسيحية

أو مسلمة عن العرش، عزل وزير، إعدام بكلربك. لكنه، كان لا يمكنه إعدام شخص برتبة وزير، كان بإمكانه فقط عزله وتوقيفه. ويلزم إعدام وزير، بكلر بك (فريق أول) وقت السلم، تصديق البادشاه. أعدم كثير من الصدور الأعظم عند عودتهم من الحملات، لسوء تصرفهم وقت القتال. كان يمكنه كذلك ترفيع من يرغب من حملة رتبة بكلر بك إلي رتبة وزير.

7 صدور عظام سقطوا شهداء أثناء القتال في الحملات على رأس جيوشهم بصفة سردار أكرم (قائد أعلي) في السنوات 1421, 1511, 1517, 1638, 1691, 1697, 1716. إن القواد الأعلي الذين زاولوا الصدارة في السابق و لم يكونوا صدورًا عظام وقت القتال واستشهدوا وهم قواد أعلي، خارج هذا العدد.

36 صدرًا أعظم تزوجوا بالسلطانات وحمل لقب « داماد » (صهر) بصورة رسمية. وهنالك الذين تزوجوا بخانم – سلطان (حفيدات البادشاه)، لكن هؤلاء لا يطلق عليهم اسم (داماد). أول صدر أعظم صهر، جاء إلى السلطة في 1497، وسقط آخرهم عن السلطة في 1920. أحد الصدور الأعظم (ملك أحمد باشا) تزوج بسلطانتين الواحدة تلو الأخرى (تزوج بالثانية بعد وفاة الأولى). و « الصهران » الآخران اللذان تزوج كل منهما بسلطانتين بصورة متعاقبة هما مشير محمد باشا وشهزاده عمر فاروق أفندي.

5 صدور عظام، كانوا خصيانًا، اثنان منهم استشهدوا في ساحة القتال، هم من الخصيان البيض. لم يحتل منصب الصدارة أي زنجي خصي أو غير خصي.

أكثر من تكرّر اعتلاؤه منصب الصدارة، هو كوجك سعيد باشا (في عهد عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد الخامس 7 + 2 = 9 مرات). ثم يليه بويوك مصطفى رشيد باشا، الذي عين لمنصب الصدارة 6 مرات في عهد عبد المجيد الأول عيّن للصدارة 6 صدور عظام كل منهم 5 مرات و 2 صدر أعظم كل منهما 4 مرات، 6 صدور عظام كل منهم 3 مرات. الذين تصدّروا مرتين كثيرون. التعيين في وظيفة ما لمرات عديدة، ليس مهما بقدر البقاء في تلك الوظيفة مدة طويلة. ويشاهد أن الذين بقوا في الصدارة أطول مدة، هم الذين شغلوا هذا المنصب مرة واحدة.

أصبح مترجم رشدي باشا صدرًا أعظم لـ 4 سلاطين مختلفين من بطنين . وفي العصر 17 ، أصبح خليل باشا صدرًا أعظم في عهد 4 سلاطين مختلفين من بطنين كذلك . 4 صدور أعظم كل منهم تولي الصدارة في عهد 3 سلاطين . الذين زاولوا الصدارة في عهد سلطانين ، كثيرون .

كان هناك اهتمام كبير بألا يكون لأي فرد – وبضمنهم منتسبو السلالة – عدا البادشاه ، على أي نفوذ يتعلق بالدولة للتأثير على الصدر الأعظم . إلا أنه شوهد في بعض الأدوار ، رجال دولة ، اكتسبوا نفوذًا للتأثير على الصدر الأعظم . أشهرهم : في دور محمد الثالث خواجه (أستاذ) سلطاني سعد الدين أفندي الذي صار بعد ذلك شيخًا للإسلام ؛ وفي عهد عثمان الثاني خواجه ، سلطاني عمر أفندي – من أعضاء المشيخة – ؛ وفي عهد محمد الرابع قيزلر أغاسي (خصي) أوزون سليمان ؛ وفي عهد مصطفي الثاني شيخ الإسلام حاجة سلطاني فيض الله أفندي ؛ وفي عهد محمود الأول قيزلر أغاسي بشير أغا الأول وقيملر أغاسي بشير أغا الثاني ؛ وفي عهد عبد الحميد الأول قبطانْ دريا (مشير بحري) جزائرلي غازي حسن باشا الذي صار بعد ذلك صدرًا . وداماد نضيف أفندي ؛ وفي عهد محمود الثاني نيشانجي هالت أفندي ؛ وفي عهد عبد المجيد الأول جهان سر عسكري رضا باشا ؛ وفي عهد محمد رشاد الخامس طلعت بك الذي صار بعد ذلك صدرًا أعظم . أول صدر أعظم أعدم ، هو جاندارلي خزاده خليل باشا (10 /7 / 1453) . وآخر الذين أعدموا هم : ياغليقجي – زاده محمد أمين باشا (19 / 8 / 1769) ، اسبارطه لي خليل حميد باشا (1 / 4 / 1785) ، جلبي – زاده شريف حسن باشا (15 / 2 / 1791) ، بندرلي علي باشا (30 / 5 / 1821) ، والذي انتحر (وقيل إنه استشهد) هو علمدار مصطفى باشا (15 / 11 / 1808) . وآخر من قتل من بين صدور الأعظم القدامى بعد تصدّرهم ، مدحت باشا في طائف (6 / 5 / 1884) ، الأمير قلوالالي سعيد حليم باشا الذي استشهد في روما على يد الأرمن (6 / 12 / 1921) وطلعت باشا الذي استشهد في برلين على يد الأرمن أيضًا (15 / 3 / 1921) .

22 من الصدور الأعظم كانوا دهاة حقيقيين ، شخصيات عظيمة . أعظمهم مصطفي رشيد باشا .

من بين الصدور العظام من هم علماء ومن هم جهلة (وحتى أميون) . ومن بينهم من هم جبناء ، خونة ، عديمو الأخلاق ، عديمو الكفاءة ، لصوص . وكثير جدًا منهم قواد عظام ، سياسيون ، رجال دولة ، إدلريون ، شعراء ، مؤلفون . أعظم صدر ، وأعظم شاعر ، هو داماد راغب باشا (1699 – 1763) ، والشاعر الذي يليه في العظمة ، محمد رامي باشا (1703) . أكبر أديب ، أحمد وفي باشا (1823 – 1891) .

أصغر صدر أعظم سنًا ، هو كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا (في 1661 كانت سنه 26) . يوجد شخصان أو ثلاثة تصدّروا قبل بلوغهم سن الـ 30 . ويوجد من عين في هذا المنصب وأعمارهم تنيف على الـ 80 . أقل مدة قضاها شخص في الصدارة ، هو زورنازن مصطفى باشا 4 ساعات (5 / 3 / 1656) . وهناك كثير ممن قضى في الصدارة عدة أيام ، عدة أسابيع ، وعدة أشهر .

عدد الصدور العظام كأشخاص 217 . أطول مدة في هذا المقام قضاها ، علاء الدين باشا (1326 – 1348) (25 سنة) ، ويليه جاندارالي – زاده خير الدين باشا (1364 – 1387) (22 سنة ، 4 أشهر)، ثم يليه ابنه جاندارالي – زاده علي باشا (1387 – 1406) (19سنة ، 10 أشهر ، 27 يومًا) ، هؤلاء ، صدور عظام الدولة ، الأول ، الخامس والسادس . ثم يليهم كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا الذي بقي في الصدارة مدة 15 سنة ، 4 أيام . (1661 – 1676) .

3 – ديوان همايون والباب العالي :

يسمى مجلس الوزراء لدى العثمانية « ديوان همايون » ، ويعني « المجلس الإمبراطوري (للعثمانية) » وهذا يعني « الحكومة العثمانية » : سياسة البحر الأبيض للديوان ... وعوضًا عن ذلك قيل في العصر 18 « باب عالي » . إلاّ أن « باب عالي » تعني « الحكومة العثمانية » ولا تشمل معنى « مجلس الوزراء » كما تعنيه جملة ديوان همايون . تعني كلمة « باب عالي » كما هو معلوم « البوابة العالية » ؛ سميت بهذا الاسم كناية عن بوابة الصدارة الكبيرة الموجودة في كلخانة مقابل آلاي كوشكو . كان الصدور العظام ، يجتازون من هذه البوابة إلي مقر عملهم . ترجم الأوروبيون « باب عالي » على هذا الشكل « La Sublime Porte » واختصروها بأحرف « S . P » . كان ديوان

همايون (المجلس الإمبراطوري) ، حتى 1654 ، يجتمع في قبّة آلطي ومعناها تحت القبة في طوبقابو . بدأوا بعد هذا التاريخ في الاجتماع في المكان المسمى اليوم كذلك « باب عالي » والكائن حاليًا قرب ولاية استانبول .

رئيس ديوان همايون ، هو الصدر الأعظم . وحتى 1654 كان بإمكان البادشاه – إن أراد ذلك – الاستماع إلى مذكرات الديوان من خلف شباك مغلق . لم يكن أحد يعرف ما إذا كان البادشاه موجودًا خلف الشبّاك أم لا . وفي 1654 ، الغيت هذه العادة . بدأ الصدر الأعظم بتبليغ البادشاه خلاصة اجتماعات الديوان شفويًا وتقديم قرارات الديوان للبادشاه على شكل تقرير . كان بإمكان البادشاه حتى عهد فاتح أن يشترك في مناقشات الديوان بصورة علنية ويمكنه كذلك أن يترأس الديوان . فصل فاتح ، مقام السلطنة ورئاسة الدولة ، عن أعمال الحكومة بشكل حاسم .

يترأس الديوان في حالة غياب الصدر الأعظم وزيران . لكنه في حالة احتمال غياب الصدر الأعظم مدة طويلة ، في حالة خروجه إلى الحملة أو مرضه ، يُعيّن وكيلاً لرئيس الوزراء وهو الذي يسمى « صدارت قائمقامي » ويختار من بين الوزراء ويكون إما الوزير الثاني أو الثالث .

أعضاء الديوان الذين يتلون الصدور العظام ، هم الوزراء الذين يسمون « قبه نشين » أو وزراء القبة ، وهم الوزراء ووكلاء الوزراء ووزراء الدولة والذين يعملون كالصدر الأعظم تمامًا . يعنون بكل أمور الدولة ، وليس لهم عمل غير ذلك . سموا (وزراء قبة) لتفريقهم عن وزراء الإيالات . عددهم بصورة عامة 5 ، لكن يجوز أن يرتفع إلى 8 . ولكن ، قبيل عام 1656 ، ألغي منصب ووظيفة وزارة القبة . عُيّن قليل جدًا من أعضاء الحكومة بوظيفة وزير قبّة بعد هذا التاريخ .

كان وزراء القبة يجلسون حسب تسلسل قدمهم : الثاني ، ثم الثالث ثم الرابع ... على يمين الصدر الأعظم الذي يسمى « الوزير الأول وعند افتتاح الصدارة ، يعيّن البادشاه عادة ، الوزير الثاني (بالعثمانية وزير ثانٍ) صدرًا أعظم . لكن صدارة الوزير الثالث أو صدارة وزير آخر كانت ممكنة كذلك .

أعضاء الحكومة الآخرين هم :

قبودان دريا : (تلفظ بشكل كابتان دريا) ، هو الأميرال الكبير (المشيرالبحري) الذي يحمل صلاحيات قائد القوات البحرية ، ناظر البحرية ووالي إيالة جزائر بحر سفيد (جزر البحر الأبيض) .

كاهيه بك أو صدارت كتخداسي وهو وزير الداخلية ويكون تعاونه وعلاقته مع الصدر الأعظم وثيقة .

يني جري أغاسي : قائد حامية (أوجاق) الإنكشارية . رتبته فريق أول وأحيانًا وزير (ماريشال) .

قضاة عسكر روملي والأناضول : هما المعلونان الأول والثاني لشيخ الإسلام الذي ليس عضوًا في الديوان . وهما الشخصان الثاني والثالث لصنف العلماء بعد شيخ الإسلام . ومع أن رتبتهما متساوية ، لكن مقام روملي اعتبر رتبة متقدمة بالنسبة لرتبة الأناضول . كانا المرجعين لكل الموضوعات التي تختص بها اليوم وزارات العدل ، التربية والثقافة والأوقاف والأمور الدينية . كانا يدعيان « أفندي » كبقية صنف العلمية (علماء الدين) .

نيشانجي : نيشانجي أفندي أو باشا ، من صنف القلمية (الكتّاب) بمرتبة بكلربك أو وزير ، كان حتى عام 1650 بمثابة ناظر للخارجية . وبعد 1650 ، ظل بوظيفة مهر خاص ناظري (ناظر الختم الخاص) وتسمى بالعربية « توقيع » (توقيع همايون = طغراء البادشاه) .

رئيس الكتّاب : كان مساعدًا للنيشانجي حتى 1650 ، السكرتير العام للخارجية ، كان رئيسًا لدائرة المراسلات مع الدول الخارجية . وهذا يعني بعد 1650 ، وزير خارجية . كان قبل 1650 يشترك في اجتماعات الديوان ، لكن لم يكن له حق التصويت ، يلقب أفندي في حالة كونه برتبة بكلر بك ، وباشا إذا كان برتبة وزير ، وهذا نادر .

باشدفتردار أو دفتردار شق أول : هو الباشا أو الأفندي ناظر المالية . وله مستشاران

اثنان دفتردار شق ثاني ودفتردار شق ثالث ، وأحيانًا ، أصبحا أعضاء ديوان ، لكن لم يكن لهما حق التصويت . الباشدفتردار فقط ، كان له حق التصويت .

كان بإمكان قاضي استانبول ، الاشتراك في الديوان عند مناقشة القضايا العائدة لمدينة العرش ، لكن ليس له حق التصويت .

كتبة الديوان الهمايوني « ديوان همايون كاتبلري » هم الذين يمسكون مضابط الجلسات . تدوّن قرارات الحكومة لكل سنة في مجلد منفصل ويسمى هذا **مهمة دفتري** وهذه تشكل أهم الوثائق الأرشيفية للتاريخ العثماني . إن وظيفة كاتب الديوان ، كانت خطوة مهمة للتدرّج والترقي في وظائف الدولة . كان كاتب الديوان يختار بعناية من بين أصحاب المعلومات ، الأذكياء ، ذوي الكفاءة والشرف . مناقشات الديوان ، كانت سريّة ومغلقة . تعلن الحكومة إلى الشعب ، القسم الذي ترغب في إعلانه .

بدأت دكتاتورية كوبرولو محمد باشا عام 1656 وفقدت قرارات الديوان أهميتها . أصبح ، صدور الأعظم ، حتى التنظيمات ، يؤثرون تسيير أعمالهم دون الحصول على قرارات الديوان . وحتى أن كوبرولو ، ألغى وزارة القبة كذلك . إذ إن وزراء القبة ، صاروا على رأس الذين يحيكون الدسائس ليصبحوا صدورًا عظام .

كان يعمل في الديوان الهمايوني 50 كاتبًا و50 معاون كاتب (كانوا قسمين 20 منهم شاكرد (طالب) و 30 منهم ملازم) . ومن ناحية أخري ، يوجد أقرب الناس إلى الصدر الأعظم وهو الكاهيابك (ويطلق عليه كذلك كتخدا الصدارة) ويعتبر ناظرًا وبمثابة وزير الداخلية ، يعمل في مكتبه 26 كاتبًا (هامر 17 ,45) . مكتوبجي الصدارة ، هو السكرتير العام لرئاسة الوزارة ويعمل تحت إشرافه 30 كاتبًا (d'Ohsson ,7 ,169 – 70) كان للصدر الأعظم معيّة من كبار الموظفين مثل ؛ لسه دار ، مهردار ، كاتب السر ، كاتب الإنشاء . لكل وزير كتخدا (وكيل وزير) وهو الذي ينظم أمور مكتب وموظفي معية ذلك الوزير . كان منصبًا مهمًا . كثير من الوزراء والصدور العظام ، عينوا من بين كتخدا الوزراء .

4 – الشئون الخارجية :

لا حاجة إلى التوسع في إيضاح أهمية الشئون الخارجية في إمبراطورية واسعة

كالإمبراطورية العثمانية . كانت الدولة في علاقة مستمرة مع جميع أنحاء العالم ، إذ إنها كانت ذات علاقة بالتوازن الدولي وقد سيطرت على هذا التوازن قرابة عصرين (1517 – 1683) ، وأصبحت أكبر عامل في هذا التوازن ؛ لذا فإن الذي يهتم بالأمور الخارجية ويهتم بها أكثر من غيره هو البادشاه بالذات وقد أصبحت الشئون الخارجية ، إحدي المجالات التي يقضي فيها أكثرية السلاطين معظم أوقاتهم . وكان الذي يلي البادشاه في الاهتمام بها ، هو الصدر الأعظم . وأخيرًا الحكومة أي الديوان الهمايوني . حيث إن الاجتماعات ، كانت تجرى فيه ، والقرارات تتخذ فيه كذلك . لكن الخارجية كان لها أعمال تقنيّة خاصة وروتينية رتيبة . كانت توجد ضرورة لتشكيلات خاصة لتدوين قرارات الديوان ، أوامر الصدر الأعظم والبادشاه الخاصة بالشئون الخارجية وصياغتها بشكل تقني فنّي وإعطائها الصفة القانونية ، وهذا هو منشأ وزارة الخارجية .

إن وزير الخارجية بهذا المفهوم ، كان حتي 1650 يسمى نيشانجي ، وخلال 1650 – 1836 رئيس الكتّاب ، وخلال 1836 – 1922 ناظر الخارجية .

إن منصب الناظر الذي سمّي نيشاني ، طغرائي ، وعلي الأغلب توقيعي والأكثر من ذلك ، نيشانجي ، هو منصب انتقل عن طريق العباسيين – السلجوقيين . هو ناظر الختم الخاص والشخص ذو الصلاحية لنقش طغراء البادشاه المسماة « نيشان همايون » ، والأصح ، الإيعاز إلى الفنان الذي ينقش الطغراء المسمى « طغراكش » بنقشها . ولأنه رئيس الكتّاب الذي يترأس أمور الديوان الكتابية ويسيّرها بصورة فعلية ؛ أصبح بمثابة وزير للخارجية من الناحية التقنيّة . قام بهذا الواجب من 1453 إلى 1650 النيشانجي الذي يطلق عليه لقب باشا إن كان بدرجة جلبي ، أفندي ، وزير . وفي عام 1650 ، حدث تغيير في القانون وأحيلت المراسلات الخارجية إلى رئيس الكتاب أفندي وأصبح رئيس الكتاب عضوًا في الديوان له حق التصويت ووزيرًا للخارجية بصورة فعلية . لكن اسم النيشانجي في التشريفات ، ظل يتقدم على الرئيس أفندي . سميت التشكيلات التي يترأسها النيشانجي « توقيع » ، والتي يترأسها رئيس الكتاب « رئاسة » . والواضح أن ذلك مقتبس من ديوان الإنشاء العباسي (جرجي زيدان ، 1 ، ص 299 أ – ب) .

كان المعاون الأول لرئيس الكتاب المسمى بكلكجي أفندي أو بك ، هو السكرتير

العام أو المستشار للشئون الخارجية . وكان يسمى « بكلكجي ديوان همايون » وهو مرشح لمنصب رئيس الكتاب . كان يعمل تحت إشرافه 120 كاتبًا (هامّر ، 17 ,45 ,Ricault ,1 99 ,101) ويتبعه رئيس مترجمي الديوان الهمايوني والمترجمين ؛ حيث كانت ترسل من الخارج إلى الديوان كتب بلغات مختلفة كثيرة العدد . كان الذين يجيدون العربية والفارسية من الكتاب ، يرفّعون ويتقدمون فى المراتب بشكل أسرع . والمعاون الثاني لرئيس الكتاب ، هو الشخص المسمى « آمدي ديوان همايون » كان مكلفًا على الأكثر بتأمين العلاقات في المخابرات لخارجية مع البلاشاه . كان له كذلك مكتب عظيم . في حالة ترفيعه يصبح بكلكجي وسكرتير عام الأمور الخارجية ورئيس كتّاب وزير(وزير خارجية) . كانت هذه وظائف تخصصية . كانوا موظفين مقتدرين يختارون من بين صنف الكتّاب الذين تدرجوا في مكاتب الباب العالي ، وليسوا من خريجي المدرسة (المدارس الدينية) . إن تنوّع وسعة أعمال هذه التشكيلات ، كانت كبيرة جدًا . مثلاً ، استنادًا إلى أحد سجلات عام 1804 (جودت 7 ,368) كانت محاضر جلسات البرلمان الإنكليزى تترجم وتقدم إلى رئيس الكتاب .

وخلال العصرين من 1453 إلى 1650 ، عين 39 شخصًا ، 56 مرة لمنصب نيشانجي . والذين ضربوا رقمًا قياسيًا في مدة بقائهم في هذا المنصب هم موستارلي مصطفى باشا الذي بقي في هذا المنصب مدة 24 عامًا خلال الربع الثاني من العصر 17 والمؤرخ الكبير جلال – زاده مصطفى جلبي الذي شغل منصب نيشانجي في دور القانوني مدة 24 عامًا كذلك . قره نيشانجي داود 14 سنة في دور بيازيد الثاني ، أما قره ماني محمد باشا من أحفاد مولانا جلال الدين الذي صار وزيرًا أعظم بعد ذلك فقد ظل 12 عامًا في دور فاتح ، جزه ري – زاده جعفر جلبي أول نيشانجي لفاتح 12 سنة ، تاجي – زاده جعفر جلبي شغل هذا المنصب مرتين مدة 11 سنة في دور بيازيد الثاني وياووز . بينما شغل أوقجو – زاده منصب نيشانجي لخمس مرات مجموعها عبارة عن 3 سنوات وشهرين . أقصر مدة هي التي قضاها دلاور أغا – زاده عمر أفندي (48 يومًا) .

وخلال مدة (من 1650 - 1836) ، 67 رئيس كتّاب ، عيّن 95 دفعة لهذا المنصب . وبالرغم من أنهم كانوا في تشريفات الحكومة يتلون النيشانجي وكتخدا

الصدارة ، لكنهم اكتسبوا أهمية تفوقهم . وعندما اكتسب المنصب أهمية فائقة ، بدأ فيه عدم الاستقرار . إن أطول مدة في دور لاله (1718 – 1730) هي رئاسة أوجار آبادلي محمد افندي (12 سنة ، وشهرين ، 17 يومًا) يوجد كثيرون من شمعي زاده محمد أفندي بقي في هذا المنصب في دور محمد الرابع دفعتين مجموعهما 10 ، قاشهور . يوجد كثيرون من الصدور العظام عملوا في وظيفة رئيس كتّاب . رامي محمد باشا (مرتين 5 . 7 سنة) ، داماد قوجا راغب باشا (3 سنوات وشهرين و16 يومًا) نائلي عبد الله باشا (5 سنوات ، 11 شهرًا ، 16 يومًا) حمزة حامد باشا (شهر 16 يومًا) يا غلقجي – زاده حاجي محمد أمين باشا (9 أشهر و7 أيام) ، اسبارطه لي خليل حميد باشا (9 أشهر ، 24 يومًا) ، غالب باشا من رجال النظام الجديد (3 دفعات 5 . 4 سنة) ثم صار بعدها صدرا أعظم .

غيّر محمود الثاني في 11 آذار 1836 اسم هذه الوظيفة إلى « أمور خارجية ناظري » أي ناظر الأمور الخارجية ،أصبح بعد ذلك « خارجية ناظرى » فقط . إن آخر رئيس كتّاب وأول ناظر هو حاجي محمد عاكف باشا (4 سنوات وشهرين و5 أيام) . دامت هذه الوظيفة التي بدأت قبل التنظيمات بـ 3 سنوات مدة 86 سنة و4 أشهر و17 يومًا . 36 شخصًا شغلوا هذا المنصب 69 مرة . أصبحت نظارة الخارجية ، أهم مقام في الوزارة بعد الصدارة . اعتلى هذا المنصب من رجال التنظيمات ، عالي باشا 8 ، فؤاد باشا 5 ، رشيد باشا 3 ، صدوت باشا 6 مرات . الذين شغلوا منصب ناظر الخارجية أطول مدة هم : الصدر الأعظم عالي باشا (14 سنة و4 أشهر و4 أيام) ، الصدر الأعظم توفيق باشا (13 سنة و3 أشهر و7 أيام) ، كرد سعيد باشا (10 سنوات و4 أشهر و3 أيام) الصدر الأعظم كيجه جي – زاده فؤاد باشا (7 سنوات ، 11 شهرًا ، 4 أيام) ، الصدر الأعظم يوك رشيد باشا (6 سنوات ، و 3 أشهر ، 4 أيام) .

5 – سفراء وقناصل الدول الأجنبية في تركيا :

كانت الدول الأجنبية ، ترسل إلى العثمانية نوعين من السفراء : سفراء فوق العادة ، يحضرون لمهام معيّنة ، وسفراء دائمين مقيمين . أول من أرسل سفراء مقيمين ، البندقية اعتبارًا من 1454 . يسمي السفراء البندقيون « باليوز » . وأساسًا فإن البندقية هي

المؤسسة للدبلوماسية الأوروبية الحديثة . أرسلت كل من فرنسا في أواسط العصر 16 ، انكلترا في أواخره ، وتلتها فورًا ، هولندا ثم بقية الدول الأوروبية الواحدة تلو الأخرى ، سفراءها الدائمين المقيمين إلى استانبول . أما الدول الآسيوية فكانت ترسل سفراء فوق العادة فقط . الدولة الآسيوية الوحيدة (وبالأصح الدولة التي ليست من أصل أوروبي) ، التي أرسلت سفيرا دائما إلى الدولة العثمانية في التاريخ العثماني حتى 1922 ، هي إيران فقط . انتهت الدولة العثمانية ، قبل أن تتبادل البعثات الدبلوماسية مع الصين واليابان .

إن تقسيمات وزير مفوض وسفير جديدة ، وهي تقسيمات موجودة في الديمقراطية الحديثة ، و لم تكن موجودة في الماضي . لكن الدول التي يمثلها سفير لم تكن ، بالطبع ، على المستوى نفسه من الأهمية . كانت العثمانية ، في الفترة الكلاسيكية ، تعتبر مكانة السفير الإيراني (الصفوى) في الدرجة الأولى ويليه السفير الهندي (التيموري) . لكن هاتين الدولتين كانتا دولتين ترسلان سفراء فوق العادة ولا ترسلان سفراء مقيمين . إن أكثر السفراء الذين حازوا اعتبار العثمانية من بين سفراء الدول التي ترسل سفراء دائمين هو سفير ألمانيا لتمثيله الإمبراطور (Ricault, 1, 259) . ويليه رأسًا سفير فرنسا . وفي العصر 17 ، من الممكن أن نقول إن الذين يلونهم في التسلسل هم سفراء البندقية ، إنكلترا ، هولندا ، بولونيا ، السويد ، روسيا (Ricault, 1, 278) . بدأت بعد ذلك الدول كالدانمارك ، صقلّيتين ، سردونيا ، إسبانيا ، بلجيكا ، الولايات الأمريكية ، النرويج ، سويسرا ، البرتغال ، الدول التي ظهرت في البلقان ، ترسل سفراء دائميين إلى استانبول .

وفي الفترة الكلاسيكية ، كان أهم سفير بالنسبة للإمبراطوريتين الصفوية في إيران والتيمورية في الهند هو الذي ترسله العثمانية . كتب Tavernier كمشاهد ، أن بادشاه الهند تيمور أوغلو شاه جهان يتسلم الرسالة رأسًا من يد السفير الذي يرسله البادشاه العثماني فقط من بين جميع الحكام على وجه الأرض . يحتمل أن يكون ذلك بسبب كون الحاكم العثماني خليفة . إن الرسائل التي كان يرسلها شاه إيران ، كان يتسلمها الصدر الأعظم الهندي من يد السفير ويقدمها إلي الحاكم . أما رسائل لويس 14 أكبر حاكم

أوروبي ، فكانت تُستلم من السفير الفرنسي وتسلَّم إلى شاه جيهان ، بعد انتقالها بين أيدي ثلاثة وزراء ؛ سجل Tavernier الفرنسي ذلك بتأثر .

أكبر عدد من أعضاء السفارات وأكبر السفارات الأجنبية كانت في استانبول حتى العصر 19 . إذ إن السفراء المرسلين كانوا قد عيّنوا لدى الدولة العثمانية التي تعيش على أراضيها اليوم أكثر من 30 دولة . كان بالسفارة الفرنسية في استانبول في العصر 18 ، 29 دبلوماسيًّا ، 52 مترجمًا يجيد اللغة التركية . وموظفون آخرون كان عدد الموظفين الدبلوماسيين فقط في السفارة الإنكليزية في استانبول 56 . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، الموظفين العاملين في القنصليات الموجودة في مختلف أقطار العثمانية .

إن العصر الذهبي للدبلوماسية في العالم أجمع ، هو العصر 19 . اعتبرت الدبلوماسية أرق الوظائف ، أكسب رشيد باشا هذا الاعتبار إلى النظام التركي كذلك . اكتسب موظفو السلك السياسي الأولوية ، بعد أن كانت إدارة الدولة العثمانية ، حتى ذلك التاريخ ، تحت سيطرة موظفي السلك العسكري .

كانت الدول العظمي هي التي تتبادل مع بعضها السفراء : إنكلترا ، فرنسا ، روسيا ، تركيا ، النمسا ، ألمانيا (بروسيا) ، أسبانيا ، الولايات الأمريكية . انضمت إليهم في نهاية العصر إيطاليا كل وفي السنوات الأخيرة للعصر اليابان . وعدا ذلك كانت كل الدول تتبادل فيما بينها وزراء مفوضين (بالفرنسية ministre) .

كانت الدولة العثمانية وإيران غالبًا ما تتبادلان السفراء ، ومع أن إيران خرجت في 1828 من عداد الدول العظمى كانت العثمانية لا تزال تجاملها وتعاملها كدولة عظمى .

كانت اللغة الدبلوماسية (استمرت حتى 1945) هي الفرنسية . إن جميع الدبلوماسيين العثمانيين يتكلمون الفرنسية دون استثناء ، وبعضهم كان يجيد لغة أو عدة لغات أخرى . كانت المراسلات بين نظارة الخارجية العثمانية وسفاراتها باللغة الفرنسية . انقرضت بعد 1945 تقريبًا مؤسسة أورطه الجي (سفير وسط ، وزير مفوض) . وأخذت كل الدول تتبادل السفراء (بالفرنسية : Ambassadzur) .

كان القناصل على 4 درجات : القنصل العام (باش قونصولوص) (بالعثمانية : باش شهبندر ، بالفرنسية : consul general) ، قنصل (بالعثمانية : شهبندر ، بالفرنسية : Consul) ، قنصل ثانٍ أو نائب قنصل (قونصولوص معاوني) (بالعثمانية : شهبندر وكيلي ، معاوني ، بالفرنسية Viee - Consul) ، وكيل قنصلي (بالعثمانية : قانجيلار ، بالفرنسية : agent consulaire) وهذه الدرجة لا وجود لها اليوم . يطلق على موظفي القنصلية العامة بدرجة قنصل ونائب قنصل « قنصل معيّة ونائب قنصل معيّة » .

كان لإنكلترا عام 1839 ، قنصل عام في 7 مدن من الامبراطورية العثمانية ، قنصل في 10 مدن منها ، نائب قنصل في 10 مدن منها كذلك . وفي 1912 كان لها قنصل عام في 10 مدن وقنصل في 10 مدن كذلك ، ونائب قنصل في 38 ، ووكيل قنصلي في 7 مدن من مدن الامبراطورية العثمانية .

كان لفرنسا عام 1839 ، في الامبراطورية العثمانية 4 قناصل عموم ، 11 قنصلاً ، 2 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 6 قنصل عموم ، 11 قنصلاً ، 18 نائب قنصل ، 58 وكيلاً قنصلي .

كان لروسيا في 1839 ، 3 قناصل عموم ، 8 قناصل ، 1 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 11 قنصلا عاما ، 11 قنصلا ، 27 نائب قنصل ، 17 وكيلًا قنصليا .

كان للنمسا – المجر في 1839 ، 6 قناصل عموم ، 13 قنصلاً ، 10 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 7 قناصل عموم ، 15 قنصلاً 12 نائب قنصل ، 31 وكيلا قنصليا .

ملكية بروسيا التي أصحت في 18 / 1 / 1871 إمبراطورية ألمانيا ، كان لديها في عموم 1839 ، قصل عموم ، 12 قنصلاً ، 1 نائب قنصل ؛ وفي 1912 ، 3 قناصل عموم ، 15 قنصلا ، 14 نائب قنصل ، 9 وكلاء قنصلي .

ملكية سردونية (Piemonte) التي أصبحت في 17 / 5 / 1861 ملكية إيطاليا ، كان لديها عام 1861 ، 9 قناصل عموم ، 5 قناصل ، العديد من نواب القنصل ؛ وفي 1912 ، 7 قناصل عموم ، 14 قنصلاً ، 6 نواب قنصل ، 56 وكيلاً قنصلي .

كان لدى إيران في 1850 ، قنصل عام و 1 قنصل ، وفي (1912) ، 10 قناصل عموم ، 7 قناصل ، 6 نواب قنصل و 8 وكلاء قنصليون .

كان لدى الولايات الأمريكية المتحدة عام 1839 ، قنصل عام 15 قنصلاً ؛ وفي 1912 ، 4 قناصل عموم 12 قنصلاً ، 17 وكيلاً قنصليًا .

كان لدى أسبانيا عام 1839 ، قنصلان عامان ، 2 قنصل ؛ وفي (1912) ، 3 قناصل عموم ، 8 قناصل ، 17 نائب قنصل ، 18 وكيلاً قنصليًا .

فتحت الدول آنفة الذكر ، في المدن التالية قنصليات عامة دائمة مؤقتة : استانبول ، القاهرة ، اسكندرية ، تونس ، طرابلس الغرب ، بيروت ، الشام ، بغداد ، بلغراد ، بخارست ، يني بازار ، ياش ، بورسعيد ، سلانيك ، صوفيا ، البصرة ، خانيا ، أزمير ، حلب ، القدس ، أدرنة ، يانيا ، رسجك ، طرابزون ، أرضروم ، أوسكوب ، اشكودرا ، بوسنة سراي ، ادرنه وفان . ولم تفتح أية دولة في أية فترة ، قنصلية عامة في : صنعاء ، الخرطوم ، جدّة، لكنها فتحت قنصليات أو مكاتب .

6 – سفراء وقناصل العثمانية لدى الدول الأجنبية :

كانت العثمانية ترسل إلى دول أوروبا ، آسيا ، أفريقيا سفراء مؤقتين لأغراض معيّنة . يعود السفير بعد ختام عمله ، ولا يقيم في ذلك القطر . هناك من يبقى عدة سنوات . لكن هذا البقاء مرهون بإنجاز مهمة معينة . فكّر نوشهرلي إبراهيم باشا في دور لاله (1718 – 1730) في تأسيس سفارات دائمة ، وبدأ بفيينا وباريس . إلا أن سقوطه أخّر ذلك إلى نهاية العصر 18 .

استُقْبل السفراء العثمانيون باهتمام بالغ عند إرسالهم في بعثات مؤقتة وفوق العادة . إذ إن وضع الدولة العثمانية كان كوضع الولايات الأمريكية بعد 1945 . وشيء آخر ، هو أن السفير العثماني قادم من ثقافة مختلفة ، ومختلفة جدًا . فمثلا كان الذي أدخل القهوة إلى أوروبا ، هو سفيرًا عثمانيًا ذهب إلي فيينا ، عرّفها ، حبّبها ونشرها . أسس الأوروبيون جوقة موسيقاهم العسكرية الحديثة باستماعهم لفرقة المهتر التي ترافق السفراء . انتشر الطراز العثماني في كثير من المجالات . كل سفير عثماني كان يقدم تقريرًا تحريريًا إلى

الديوان بعد إنهاء مهمته الدبلوماسية وعودته . هذا التقرير كان يسمى « سفارتنامة » . كانت بعض التقارير على شكل كتاب يحاول كل توضيح كل/ نواحي ذلك البلد . وهي من المصادر المهمة للتاريخ العثماني . كما أنها كبيرة الأهمية من زلوية تعريفها لنظرة العثماني إلى حضارة لم يألفها وغريبة عليه تمامًا . شوهد دبلوماسيون اشتهروا في مجال الأدب بواسطة تقاريرهم (سفارتنامة) مثل يرمي سكيز جلبي محمد أفندي (باريس) في بداية العصر 18 ، أحمد رسمي أفندي (فيينا وبرلين) في أواسط العصر . إن كان التقرير تقريرًا فنيًا وليس على شكل كتاب ، يسمى « سفارتنامة » وإن كان على شكل كتاب يسمى « تحريرات » .

عند انقسام السفراء إلي درجتين في مطلع العصر 19 سمّت العثمانية السفير (ambassadeur) « سفيرًا كبيرًا » . أما لفظ « سفير » فيستعمل في المصطلح العثماني للدلالة على (أورطه الجي) وزير مفوض ، وكذلك بصورة عامة على جميع السفراء سواء كان سفيرًا أو وزيرًا مفوضًا . أسست سفارة لندن الدائمة (المقيمة) في 15 / 10 / 1793 وفي أيلول 1796 سفارة باريس ، وفي 7 / 9 / 1797 سفارة فيينا الدائمة . ثم سفارات برلين ، بطرسبورغ ، روما ، طهران ، واشنطن ، مدريد ؛ وأسست أورطه الجيليك أي السفارات المتوسطة (المفوضيات) في كل من أثينا ، لاهاي ، بروكسل ، نابولي ، إستوكهولم ، كوبنهاك ، برن ، بلغراد ، بخارست ، وجتينه ، أما في العصر 20 ، فقد أسّست مفوضية صوفيا (22 / 9 / 1909) . أمكن في 1839 ، فتح قنصليات في 15 مدينة أوروبية فقط . وفي 1850 كان لدى العثمانية في 14 مدينة أوروبية ، قنصل عام |، وفي 33 مدينة قنصل ، وفي مدن عديدة نائب قنصل . وفي مدينة أمريكية (واشنطن) قنصل عام 1 ، وفي مدينة أخري (بوسطن) قنصل 1 وفي عدة مدن منها نائب قنصل .

الأقطار التي كان للعثمانية قنصلية فيها عام 1908 : في 6 مدن إنكليزية قنصل عام ، في 16 مدينة قنصل ، في 20 مدينة منها نائب قنصل ؛ في فرنسا ، 3 قناصل عموم ، 14 قنصل |، 2 نائب قنصل ؛ في ألمانيا 31 قنصلاً عامًا ، 4 قناصل ؛ في النمسا – المجر 4 قناصل عموم ، 20 قنصلاً ؛ أسبانيا 2 قنصل عام ، 18 قنصلاً ، ، 3 نواب قنصل ؛

5 قناصل عموم في الولايات الأمريكية ؛ 5 قناصل عموم في روسيا ، 7 قناصل ، 3 نواب قنصل ؛ 4 قناصل عموم في اليونان ، 6 قناصل ؛ قنصل عام في بلجيكا ، 3 قناصل ، نائب قنصل ؛ 4 قناصل عموم في هولندا ، قنصل ؛ 3 قناصل عموم في رومانيا ، 4 قناصل ، 3 نواب قنصل ؛ 2 قنصل عام في صربيا ، 1 قنصل ، 1 نائب قنصل ؛ 4 قنصل عام في قره داغ ؛ 3قناصل عموم فيالسويد ، نائب قنصل ؛ قنصل عام في النرويج ؛ قنصلان عامان في سويسرا ؛ قنصل عام في البرتغال ، نائبا قنصل ؛ قنصلان في البرازيل ؛ قنصل عام في الدانمارك ؛ وقنصل عام واحد في كل من الأرجنتين والحبشة .

كان لدى الدولة العثمانية في أدوار مختلفة قناصل عاموم في المدن الآتية : باريس ، فيينا ، بطرسبورغ ، اوديسيا، روما ، جنوه ، ليفورنو ، واشنطن ، آنفرس ، بروكسل ، امستردام ، لشبونة ، برلين ، هامبورغ ، مرسيليا ، دانزغ ، البندقية ، تريسته أثينا ، بيره ، آغريبوز ، باتراس فونيتزا Vonitza ، لاميا ، مانشستر ، سالفورد ، بومباي ، كيبتاون ، مالطة ، بوردو ، لا يبزغ ، بشته ، راكوسا ، تامشوار ، تفليس ، باليرمو ، برنديزي ، تبريز ، طهران ، ليون ، مسّينا ، باكو ، باطوم ، تاكونروك ، بوسطن ، برشلونة ، مدريد ، كورفو ، جاكرتا ، كوبنهاك ، كولونيا ، ميونخ ، بوكبورغ ، رودولستات ، كوتا ، كوبورغ ، آرولسن ، شتوتغراد ، سوندرها وزن ، ليفربول ، نيوكاسل ، سنغافورة ، ملبورن ، نيس ، طولون ، بريسلاو ، فرانكفورت ، مانهايم ، ديسّاو ، كارلسروها ، دارمستاد ، سيرا ، كريز ، آلتبورغ ، ماينتكن ، وايمار ، بوكبورغ ، موسكو ، سفاستوبول ، قارص ، نابولي ، خوي ، كرمنشاه ، سينه ، شيكاغو ، روتردام ، أديس أبابا ريو دي جانيرو، جنيف ، نيش ، كالاس ، يني شهر ، دوسلدورف ، براونشويغ ، ديتمولد ، لوبك ، أولدنبورغ ، شويرن ، ستريلتز ، لاهاي ، كوسنتجه ، بخارست ، بلغراد ، برن ، بوسنة سراي ، رشت ، نيويورك ، صوفيا ، فيليبه ، أوسلو ، بانكوك ، بونس آيرس ، حارار ، سائو باولو ، كونه بورغ ، استوكهلم ، بريمن .

كان للدولة العثمانية عام 1900 علاقات دبلوماسية متبادلة مع 25 دولة مستقلة (18

أوروبية ، 4 أمريكية ، 2 آسيوية ، 1أفريقية) . كان لها ممثلون في 280 مدينة عالمية . (لمعرفة الأسماء انظر سالنامه نظارت امور خارجيه 3 ,1318 = 1900 ، ص235 - 46) .

7 – أرشيف الامبراطورية (بالعثمانية : خزينة ء أوراق) :

أحرقت جيوش تيمور ، التي دخلت بورصة عام 1402 ، أرشيف (محفوظات) الدولة العثمانية . لذا بقيت في حوزتنا وثائق أرشيفية غير كافية بالنسبة للعصر 14 . ورغم أنه تعرض لتلفيات مختلفة ، فإنه لا يزال الأرشيف العثماني ، أحد أغنى خزائن الأوراق بين أهم 1 ، 2 من خزائن الأوراق الأوروبية (Sauvaget, Introduction ، 19) إن تاريخ أكثر من 40 دولة لعدة عصور ، كانت تعيش حياة مشتركة تحت ظل العثمانية مطوي ضمن ملفات هذا الأرشيف . قليل جدًا من الدول الأوروبية التي لا يحتوى هذا الأرشيف على وثائق مهمة بشأنها . جمع هذا الأرشيف اليوم في استانبول .

سمّى الأرشيف في البداية ، دفتر خانة ، ثم خزينهء أوراق . إحدى الخزائن الثلاث التي وجدت العثمانية هذه الكلمة لائقة بها . لم تكن هذه الخزينة خزينة ذهب وجواهر كالآخرين ، بل خزينة أوراق ودفاتر ، لكنها خزينة لماض بعيد ، وتاريخ واسع . كان على رأس الأرشيف موظف يسمى دفتر أميني (أمين الأوراق) وكان آمره « نيشانجي » كان يجب الحصول على موافقة الصدر الأعظم لتسجيل أي شيء وإجراء أي تغيير في الدفاتر (الأضابير ، الأوراق) ، وفي تلك الحالة ، النيشانجي فقط هو الذي يمكنه إجراء هذا التغيير بخط يده . يدخل في هذا التغيير فرمان (أمر) الصدارة . حيث كان بالإمكان تبديل مصالح لا يتصورها العقل ، بحركة قلم بسيطة . كان لا يجوز إخراج أية اضبارة ما لم يتم الحصول على أمر تحريري من الصدر الأعظم ، ولا ينفذ أمر الصدر الأعظم الشفهي في هذا الشأن . يؤشر على الإضبارة برقم خروجها من الأرشيف ، عند إعادة الاضبارة بعد تدقيق الصدر الأعظم (مهمة دفتري 3 ,616 ، وأيضًا 1113) .

كان بإمكان الدفترأميني (موظف الأوراق) أن يعثر على الدفتر (الاضبارة) أو الوثيقة من بين الملايين من أمثالها خلال بضع دقائق . كانت مصنّفة بشكل رائع . أبرز ما يذكر بين المجموعات هو : **خطوط همايون** البادشاه (الأوامر الامبراطورية للبادشاه) ، قرار – نامات (تقارير) الحكومة لكل سنة يضمها دفتر كبير جدًا

يسمى دفاتر المهمة ، نظمت هذه الدفاتر التي تسمى **مفصّل** والتي تعتبر بمثابة سجل الطابو والأراضي الممسوحة للامبراطورية أجمع ، بحيث تحتوي على إجماليات مختصرة تمكن رجال الدولة من الاطلاع عليها بنظرة واحدة تسمى **دفتر مجمل** أو **دفتر إجمال** وعلى النسخ الأصلية التي وقع عليها الطرف المقابل للمعاهدات التي وقّعتها الدولة العثمانية .

مثلاً ، مضابط اجتماعات ومناقشات وقرارات مجلس وكلاء (الوزراء) للـ 37 سنة الأخيرة 1885 - 1922 ، يضمها 224 مجلّدًا كبيرًا . الارادات (الأوامر) السلطانية التي كانت تسمى سابقًا خط همايون للـ 83 سنة الأخيرة والعائدة بـ 6 سلاطين 1839 - 1922 ومجموعها 000 80 .

توجد محفوظات (أرشيف) مهمة جدًا خارج الأرشيف العثماني الأصلي ، جمعت في استانبول ويأتي على رأسها أرشيف طوبقابو سراي . وأرشيف كثير من النظارات العثمانية ، في أماكن مختلفة . ومنها المحفوظ في أنقرة ، أرشيف الأوقاف والأرشيف المحفوظ لدى دائرة تاريخ الحرب في رئاسة أركان الجيش وهذان الأرشيفان هما أهم اثنين بين خزائن الأوراق الموجودة في أنقرة . محفوظات (خزائن الأوراق) المحكمة الشرعية ، مخزون في 18 مدينة مستقلة . تحتوي على إفادات الشهود ، أحكام القضاة الشرعيين ، تقارير أهل الوقوف (الخبراء) كل جلسات الدعاوي التي نظرت في الامبراطورية منذ عصور . وعلى هذا الأساس ، يمكن القول بأنه توجد في أماكن خزن الأوراق والمكتبات المختلفة في تركية عدة مليارات من الوثائق التي تسجل التاريخ العثماني . لا تملك أية دولة تركية أو إسلامية على وجه الأرض مو أرشيفية يمكن قياسها حتى من بعيد بهذه المحتويات الغنية .

مئات الملايين من الوثائق الأرشيفية باللغة التركية والخاصة بالدولة العثمانية ، ظلّت اليوم لدى الدول التى انفصلت عن العثمانية . وعلاوة علي ذلك ، فإنه توجد لدي مخازن أوراق (أرشيف) الدول الأوروبية وثائق تتعلق بالدولة العثمانية ، يبلغ عددها مئات الملايين . وكذلك لا يمكن قياس ذلك مع أية دولة إسلامية أخرى ولو من بعيد .

أمكن فقط ، تدقيق ما يقارب واحدًا بالمائة من الأرشيف العثماني ، وأمكن نشر أقل من واحد بالمائة من الوثائق . وهذا يوضح عدم إمكان تدقيق القسم الذي يسبق النصف

الثاني من العصر 19 من التاريخ العثماني .

توجد وثائق عثمانية في أماكن لا تخطر على البال . مثلاً في دير فرانسيسكن Fransisken في القدس توجد 2644 وثيقة باللغة التركية (.Catologo dei Firmani P، Eutimio Castellani ، القدس 1922) . ويوجد في أرشيف رومانيا ، ما يقارب 210 000 ، وفي بلغاريا ما يقارب 500 000 إضبارة ووثيقة باللغة التركية (ميخائيل كوبوغلو ، VII Turk Tarih Kongresi Zabitlari ، 502) وفي نفس أرشيف غانة ونيجيريا ، توجد وثائق حول حكم الأتراك في أفريقيا الوسطى (Nada Zimova ، **الكتاب نفسه** ، 626) .

8 ـ باشدفتردار والماليــة :

تسمى الوزارة التي تعالج فيها الشئون النقدية والمالية « باشدفتردارلق » وفي 28 / 2 / 1838 تغير اسمها إلى « مالية نظارتي » (وزارة المالية).

وزير المالية الذي يسمى « باشدفتردلر أوشقّ أوّل دفترداري أو دفتردار شقّ أوّل . عضو في الحكومة . سمّى العثمانيون ، وزير المالية الذي سمّاه السلجوقيون « مستقي » ، « باشدفتردار » . تولى خلال مدة 4 عصور تقريبًا ــ المنحصرة بين 1453 – 1838 166- شخصًا ، 246 مرة ، وظيفة باشدفتردلر ، عُيّن بقال ـ زاده صارى محمد باشا لهذا المنصب 6 مرات . يوجد عدة أشخاص عينوا 4 مرات . أطول مدة قضيت في هذا المنصب هي دفتر دارية جيبه جي أحمد باشا (13 سنة 3 أشهر ، 25 يومًا) . ولا يوجد من بقي أكثر من 10 سنوات غيره . إن مجموع دفتردارية صاري محمد باشا الـ 6 عبارة عن 6 سنوات ، 10 أشهر ، 15 يومًا .

أول ناظر للمالية هو عبد الرحمن نافذ باشا ، ورغم أنه جاء إلى النظارة خلال 1838 - 1852 ، 5 مرات ، فإن مجموع مدة بقائه ، في المنصب 5 سنوات ، 9 أشهر ، 20 يومًا . إن صدور عظام دور التنظيمات مثل صارم باشا ، شيرواني ـ زاده رشدي باشا ، محمد صادق باشا ، أحمد حمدي باشا ، تولّوا وظيفة وزير ملية .

كان يطلق على آمر مالية كل إيالة اسم « دفتردار » أو « دفتر دار الإيالة / الولاية » .

وهو تابع إلى الباشدفتردار / ناظر المُالية في استانبول ، وليس إلى البكلربك / والي .

يسجل كثير من المؤرخين أنهم لم يعثروا في أية دولة من دول العالم حتى العصر 19 على ماليّة متظمة ومتكاملة وواسعة كتشكيلات المالية العثمانية . إن الباشدفتردار ، هو شخصية دبلوماسية أكثر منها مالية . كانت الشئون الفنية للمالية ، يديرها موظف يسمى باشمحاسب (رئيس المحاسبين) ، مع تشكيلات الباشمحاسبة (رئاسة الحسابات) . تولد ديوان محاسبات (الذي تسمى اليوم في تركية سايشتاي) (المحاسبات العامة) ، فيما بعد من هذه التشكيلات . كانت الشئون المالية ، فرعًا آخر من فروع البيروقراطية المدنية التي تسمى مُلكيّة (بضم الميم وسكون اللام) . كان يعمل في المالية (الباشدفتردارلق) في أواخر العصر 18 ، ماينيف على 1000 موظفًا (264, 7, d'Ohsson) كانت تشكيلات الدفتردارية ، عظيمة في الإيالات كذلك. فمثلاً ، كان عدد موظفي الدفتردارية والأوقاف في الشام عام (1715) ، 2374 (راشد 4 ,53) .

كان في الإمكان الكشف عن التزويرات والغش المدبّر بشكل فنّي حرفي . وفي إحدى المرات تمكن 3 من مفتشي المالية من الكشف عن سوء تصرف مالي مدبّر بشكل فنّي للغاية باشتغالهم 6 أشهر (راشد ، 4 ,53) . كانت المالية العثمانية صارمة ولا تتهاون في حقوقها ، فمثلا حجزت المالية جواهر السلطانة عائشة ، البنت الكبرى للسلطان بيازيد عام 1481 والتي قدّمها لها جدها السلطان فاتح كهدية عرس ، لصرفها مبلغ 000 25 آقجة فقط لصالح الدولة ولكن دون أخذ موافقة المالية (Topkapi, Sarayi Arzivi ، رقم 455,5) ونفهم من هذا أن السلالة لم تكن تعامل معاملة استثنائية .

كان قسم من إيرادات الدولة ، يحصّل من الضرائب الإسلامية : خمس الغنائم ، الجزية المستوفاة من غير المسلمين لعدم إيفائهم الخدمة العسكرية ، الضريبة المحصلة من الأراضي والإيرادات الزراعية والتي تكون على العموم عشر المحصول وتسمى الخراج (الأعشار) . قسم منها كان ضرائب فرضت باسم الخاقان ، وهذه تغيرت بين الحين والآخر . لكن الضرائب لم تكن باهظة ، حتى في أوقات الضيق . وهي أخف بكثير من الضرائب المالية الحديثة .

كانت ميزانية المركز والإيالات تعد سنويًا (نشر عمر لطفي باركان ، ميزانية الدولة

لعام 1527 - 28 من الأرشيف = 933 - 934 : IFM, 15, 1954, 243 وما بعده) . ويمكننا أن نقول أن الضرائب المقطوعة التي تدفعها الدول التابعة والضرائب التجارية وإيرادات الجمارك والموانيء ، تأتي على رأس الإيرادات .

أما مصروفات الدولة العثمانية فكانت متنوعة . وفي العصر 16 كانت العثمانية تقدم لفرنسا وإنكلترا مساعدات مالية ، تجارية ، بحرية ، وعسكرية . كانت ترسل أسلحة نارية إلى أندونيزيا ، تركستان . وفي نهاية العصر 18 كانت تهب النقود إلى السويد . وحتى في نهاية العصر 19 كان عبد الحميد الثاني يرسل إلى الصين ، فاس ، الفلبين ، أندونيزيا ، والهند ــ مساعدات ورجال تحريات . والحاصل أن العثمانية كانت إمبراطورية لا يمكن للدول القوميّة الحالية أن تدرك بسهولة مبلغ تنوع مصروفاتها . وكان الوضع في دور الانحطاط لا يختلف عما كان عليه في دور العظمة .

خصص السلطان ياوز سليم ، للسلطان بديع الزمان ميرزا (الابن الكبير لحسين بيرقدار وخلفه) آخر خاقان تركستان من بني تيمور الذي فقد عرشه وجاء إلى استانبول مبلغ 100 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا . أرسل أحمد الأول عند اعتلائه العرش (1604) ، 685 25 ليرة ذهبية صدقة إلى فقراء المدينة ، 806 8 إلى فقراء مكة 622 1 إلى فقراء القدس (Topkapi Sarayi Arsivi ، E . N 754 / 5) . أرسل عبد الحميد الثاني طوال مدة سلطنته (1876 - 1909) سنويًا إلى فقراء مكة والمدينة 13 مليون دولار بالسعر الحالي من خزينته الخاصة . وكان بيازيد الثاني (1481 - 1512) الذي لم يكن خليفة وكان سلطانًا فقط ــ لكنه كان أكبر حاكم مسلم ــ يرسل سنويًا ما يقارب 5 ملايين دولار بالسعر الرائج حاليًا ، إلى فقراء مكة والمدينة ، الصلحاء ، العلماء ، الشرفاء والمشايخ .

لم تستدن العثمانية حتى 1854 قرشًا واحدًا من الخارج . أخذ أول قرض من إنكلترا بفائدة 6 ٪ بتاريخ (24 / 8 / 1854) (3 ملايين ليرة ذهبية) على أن يسدّد مع فائدته خلال 5 . 13 سنة أي عام 1868 . وفي 1861 اقترضت 3 دفعات أخر ، حتى وفاة السلطان مجيد . بلغ مجموع القروض الأربعة التي جرت خلال دور هذا السلطان ، 700 547 16 ليرة ذهبية (عدا الفائدة) ؛ خُمسُه من فرنسا ، وأربعة أخماسه من

انكلترا . الفوائد 4 ٪ و 5 ٪ . أما في دور السلطان عزيز (1861 - 1876) ، فقد حدثت 7 قروض خلال 15 عامًا . أكبرها القرض العثماني الخارجي الحادي عشر البالغ 780 777 27 قطعة ذهب فكتوريا . أخذ من إنكلترا عام 1873 بفائدة 6 ٪ . وهكذا وكما يقال ضاع رأس خيط الشلّة . لم تستطع العثمانية ، التي لم تتمكن من تأسيس رأسمالية كبيرة حديثة ، صيرفة ، تراكم رأس المال ، صناعات ثقيلة ومؤسسات — مسايرة أوروبا الغربية . ولم تتمكن من تكييف نفسها لصناعة المستلزمات الضرورية الجديدة كالسكك الحديدية ، الخطوط اللاسلكية ، مؤسسات الدولة الحديثة ، البوارج المصفحة ، الأسلحة النارية الحديثة ، وحاولت صنعها بالاستدانة من الخارج . وفي 1875 ارتفعت الديون الخارجية لإيالة مصر إلى 000 149 19 وديون إيالة تونس إلى 7 ملايين ليرة ذهبية . إذ إن الباب العالي كان قد منح كلاً من الايالتين ، فرمان الاستقراض(تعليمات سلطانية) وأعقبتها الحرب الروسية (1877 - 78) . نـاء عبد الحميد الثاني تحت ثقل الخسائر ، ويلات وغرامات الحرب . أدار المالية بسياسة دقيقة جدًا . كافة المؤرخين الماليين اعتبروا هذه السياسة موفقة جدًا . كان لعبد الحميد الثاني ، منذ عهد إمارته ، استعداد كبير في الأمور النقدية . جرت في دور عبد الحميد الثاني 4 قروض أحدها من إنكلترا والآخر من ألمانيا ، واثنين منها من فرنسا (1890, 1893 ,1903 ,1878) مجموعها 000 376 13 ، الثلاثة الأخيرة منها بفائدة قدرها 4 ٪ . الأول فقط بفائدة 5 ٪ .

وقبل عام 1900 ، كان عبد الحميد الثاني يتسلم سنويًا من ميزانية الدولة مخصصات الحاكم والسلالة والسراي مبلغ 000 900 ليرة ذهبية . أما خديو مصر ، فكان يتسلم 361 255 ليرة ذهبية (ملك إنكلترا 000 630 سكة ذهبية) . لكن هذه الأرقام الثلاثة من الممكن أن تعطي فكرة غير صحيحة عن إيراداتهم . إذ إن الإيرادات المتحققة من ثروات ثلاثتهم الشخصية تجعل الإيرادات التي يتسلمونها من الدولة ، لا أهمية لها .

كانت الدولة العثمانية تضرب النقود الذهبية ، الفضية التي تسمى « آقجه » والتي تعتبر وحدة أساسية للعملة النقدية العثمانية ، والسكة النحاسية المسماة « مانكير » ، في معامل سك النقود العديدة المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية ، أصدرت نقود ورقية ، تعادل

قيمتها الذاتية الليرة الذهبية . توجد في حوزتنا المسكوكات المضروبة في المدن الآتية : استانبول ، سوغوت بورصة ، أدرنة ، اماسيا ، آياسلوغ ، بولو ، أنقرة ، أفيون ، تيرة ، سيروز ، نوفار ، أسكوب ، كراتوفا ، كلي بولو ، قاصتاموني ، قونية ، طوابزون ، ماردين ، أورفة ، خاربوت ، عامد (دياربكر) ، حسن- كيفاء (حسن كيف ، زعرت ، جزيرة (جزرة) ، موصل ، القاهرة ، الشام ، بغداد ، طرابلس الغرب ، جزائر ، قيصري ، بلغراد ، زبيد ، جانجا (كومشخانة) ، مولداقا (ترانسيلفانيا) ، سدرة كابسي (جنوب شرق سلانيك) ، سربرنيجه (بوسنة) ، نوفابردة (شرق بريشتينة) ، كوجانيا (كوسوفا) ، حلب ، تليمسين ، ساقيز ، جانيجا ، أوهري ، إينة كول ، تبريز ، توقات ، تونس ، البصرة ، صنعاء ، لفكوشة ، خانيا ، طرابلس الشام ، روان ، تفليس ، أرضروم ، كنجة ، قارص ، مادن ، سلانيك ، مناستر ، قاشغر (تركستان الشرقية) ، بقجه سراي .

9 ـ الرتب العثمانية (بالعثمانية : رتب رسمية) :

لم يبق اليوم من له معرفة بالرتب والألقاب العثمانية . ومما يبعث على الدهشة حقًا ، وقوع المؤرخين الأتراك والأجانب ، الذين يعتقد أنهم أصحاب خبرة ، في أخطاء بسيطة جدًا ، مرّ علينا في كتابنا هذا كثير من الرتب . وأريد أن أوضح الرتب العثمانية بشكل إجمالي . وسوف أتخذ الدور الأخير ، دور عبد الحميد الثاني الذي استقرت فيه الرتب ، أساسًا ، وسأشير إلى ما يقابلها في الأدوار الكلاسيكية القديمة . سبّب استعمال الرتب في أزمنة مختلفة ، بمعاني مختلفة خلال التاريخ العثماني الطويل ، وقوع كثير من المؤرخين في أخطاء . من الممكن إيضاح تشريفات الدولة العثمانية ورتبها باختصار ابتداء من الأعلى إلى الأدني على الشكل التالي :

ـ خاقان ـ خليفة : امبراطور . هو في قمة التشريفات ولا يوجد شخص يعادله ، باعتباره رئيسًا للدولة وزعيمًا للعالم الإسلامي . يدعى بإضافة لقب « سلطان » قبل اسمه و « خان » بعد اسمه : سلطان عبد الحميد خان ثاني أو إيكينجي سلطان عبد الحميد خان ، أي بإضافة صفة « الثاني » بقاعدة الإضافة العربية في مؤخر الاسم وإضافتها

بمفهومها التركي في مقدمة الاسم بقاعدة الإضافة التركية . في التشريفات الأوروبية S. M. I .

– والدة – سلطان : الامبراطورة الأم . وهي أم السلطان . إن توفيت قبل اعتلاء ابنها ، فبالطبع يكون هذا المقام خاليًا . تدعى بإضافة كلمة « والدة – سلطان » بعد اسمها : برتو – نيال والده – سلطان . في التشريفات الأوروبية : S. M. I .

– ولي عهد سلطنت : (ولي عهد السلطنة) . ولي عهد الإمبراطورية . هو ولي العهد (الشهزادة) الأكبر سناً بعد البادشاه . تضاف « أفندي » بعد اسمه : ولي عهد سلطنت يوسف عز الدين افندي . في التشريفات الأوروبية : S. A. I .

– الشهزادات : (الأمراء) = أمير امبراطوري ، الدوق الكبير يلقب بأفندي . أحمد أفندي . في التشريفات الأوروبية : S. A. I . ويدخلون المراسم حسب تسلسل أعمارهم . أي أن الشهزادة الأكبر سنًا بعد ولي العهد ، يعتبر الشخص الرابع في التشريفات الإمبراطورية – السلطانات : (كريمات البادشاه) في المرتبة نفسها في التشريفات مع الشهزادات . أميرة إمبراطورية ، دوقة كبيرة . في التشريفات الأوروبية : S. A. I . وهؤلاء كذلك يدخلون البروتوكول بعد الشهزادات ، حسب تسلسل أعمارهن ، عائشة سلطان .

– قادين أفندي : 4 ملكات . الزوجات الـ 4 للبادشاه . في أوروبا : S . M ، يدخلن التشريفات حسب تسلسل تواريخ زواجهن ويدعين « باشقادين افندي ، قادين أفندي الثانية ، الثالثة ، الرابعة » . ثروت سزا باشقادين (الزوجة الأولى) أفندي ، مشفقة دوردنجي (الرابعة) قادين أفندي) .

– سلطان – زاده : أمير . في أوروبا : S. A . هم الأولاد الذكور للأميرات الإمبراطوريات . يدخلون التشريفات حسب تسلسل أعمارهم . يدعون « بك أفندي » : سلطان – زاده لطف الله بك أفندي – خانم سلطان : أميرة . في أوروبا : S . A بنات السلطانات . يدخلن المراسم حسب تسلسل أعمارهن – 4 إقبال : زوجات البادشاه الأربعة اللواتي يلين زوجات البادشاه الـ 4 الأوليات اللواتي يطلق عليهن اسم « قادين أفندي » ، أميرات في أوروبا : S. A . « خانم أفندي » : باش

(الأولى) إقبال فاطمة خانم أفندي ، دوردنجي (الرابعة) إقبال خديجة خانم أفندي - وزوجات ولي العهد والشهزادات : أميرات .

يدخلن التشريفات حسب تواريخ زواجهن كما هو الحال في « الإقبال » . يدعين خانم افندي : مزّيت خانم افندي . إن هؤلاء المنتسين إلى هذه الفئات الأربع ، يعتبرون أمراء وأميرات بنفس الدرجة ، لكن تسلسل أهميتهم ، هو كما مدون أعلاه . إن هؤلاء كلهم أعضاء السلالة (الشهمادات والسلطانات) أومنتسبيهم (النساء ، الإقبالات النساء اللواتي يدعين خانم افندي ، أولاد السلطانات) يشكلون الطبقة العليا ويعتبرون خارج الرتب الرسمية الأصلية للدولة وأرفع منها .

سنبدأ فيما يلي ، بدكر الرتب الأصلية لموظفي الدولة . يجوز أن يحمل أي شهزاداة رتبة مشيرا أو ملازم ، لكنه لا يدخل ضمن تشريفات للشير أو الملازم ، يدخل ضمن بروتوكول الشهزاداة ، لكنه يعامل معاملة مشير أو ملازم خلال عمله في الجيش .

- رتبة الصدارة أوالمشيخة : رتبة فوق العادة وفوق الرتب . في أوروبا : أمير (S. A) . هي رتبة صدور الأعظم وشيوخ الإسلام . إن رتبة « الصدارة » ، تعتبر رتبة ملكية (مدنية) إن كان الصدر الأعظم من السلك المدني ؛ وإن كان الصدر الأعظم عسكريًا أي إن كان مشيرًا ، تكون رتبة عسكرية وتصبح رتبة تفوق رتبة الماريشالية . أما رتبة المشيحة التي تمنح إلى شيخ الإسلام فهي منصب عِلمي . والذين سبق أن شغلوا مقام الصدارة وللشيخة ، يتقدمون في التشريفات ويعاملون في التشريفات الأوروبية معاملة الأمراء (برنس) حتىٰ نهاية حياتهم . الذين يحملون مرتبة الصدارة ، يسمون « باشا » والذين يحملون رتبة المشيخة يسمون « أفندي » إن هذه المراتب منحت - في النادر - إلى بعض الأشخاص الذين لم يشغلوا رتبة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام بصورة فعلية ؛ منحت في التاريخ العثماني مرتبة المشيخة إلى 3 من القضاة العسكريين (قضعسكر) لروملي ، أحدهم (قره جلبي - زاده عبد العزيز أفندي) صار بعد ذلك « شيخ الإسلام » ، لكن الاثنين الآخرين (الأستاذ السلطاني عمر أفندي وفيض الله - زاده فتح الله أفندي) لم يكونا في أي وقت من الأوقات شيوخ إسلام

أما رتبة الصدارة ، فقد منحت خلال المدة من 1845 إلى 1914 إلى 6 من ولاة مصر وخديويها الباشوات (محمد علي ، عباس ، سعيد ، إسماعيل ، توفيق وعباس حلمي باشا) . هؤلاء هم الأشخاص الـ 9 الذين منحوا هذه المراتب دون أن يشغلوا منصب الصدر الأعظم أو شيخ الإسلام . ولا يوجد غيرهم في التاريخ العثماني .

- رتب الوزارة ، المشيرية ، والقضعسكرية : إن هذه الرتب معادلة لبعضها وهي بالتسلسل ملكية (مدنية) ، عسكرية ، علمية وهذه هي الرتب العليا الحقيقية . وهي تقابل رتب الدوقية في أوروبا . إن الرتب آنفة الذكر ولو أنها في البروتوكول الأوروبي تدعى « Altes » أي صاحب الفخامة ، لكن الرتب التي تلت هذه الرتب نعتت بـ « Exellence » أي صاحب السعادة أو العزة . بالرغم من أن رتبة الوزير قبل التنظيمات ، كانت عسكرية لكنها كانت تشمل كذلك الرتبة المدنية . أي أن الوزير كان من الممكن أن يكون من الصنف المدني أو العسكري حسب الحاجة . وفي 25 / 6 / 1832 ، استحدثت رتبة « مشير » ومنحت للعسكريين بدلاً من « الماريشال » وخصصت رتبة « وزير » لصنف الملكية أي إلى المدنيين فقط . أما رتبة القضعسكر ، فكانت على درجتين : قضاة عسكرين روملي (بالعثمانية صدارت روملي) وقضاة عسكرين الأناضول (صدارت آنادولي) . الأولى ، كانت رتبة أعلى يرفع الذين يمنحون رتبة الأناضول بعد ذلك ، إلى رتبة روملي . الفئتان تدخلان التشريفات بتسلسل تواريخ حصولهم على الرتب . كان الوزراء والمشيرون يُخاطبون بخطاب « ذات دولتلري » أي صاحب الدولة أو العزّة وبالكتابة تكتب « دولتلو » فقط . يدعى الذين رتبهم مشير « باشا » ، والذين رتبهم قضعسكر « أفندي » ، والمدنيون برتبة وزير « باشا » أيضا . إلا أن دار السعادة أغاسي (أغا دار السعادة) ، يدعى بشكل استثنائي « أغا » ، مع أنه بمرتبة وزير ، ويتقدم على جميع الوزراء في التشريفات . أما الباشخوينة دار ، أكبر موظفة في الحرم الهمايوني ، فتعتبر بمرتبة وزير وتسمى « قالفا » . كان يطلق في العهد الكلاسيكي ، على قواد الأندرون الذين تعادل رتبهم الوزراء مثل خاص أوده باشي وسلاحدار ؛ « أغا » كذلك . لكن ، عند خروجهم إلى وظيفة خارج السراي وانفصالهم عن السراي ، كانوا يسمون بـ « باشا » .

– رتب بالا وفريق أول : هي رتب مدنية وعسكرية تقابل رتبة فريق أول (Orgeneral) . يخاطب هؤلاء بإضافة « حضرتلري » إلى مؤخر الاسم ، ولا يدعون « دولتلو » و « ذات دولتلري » . استحدثت رتبة بالا ، عام 1846 ، أما رتبة فريق أول العسكرية ، فقد انقسمت رتبة الفريق إلى درجتين ، ولم تستحدث إلاّ في آذار 1904 . وأصبحت مألوفة بعد 1908 ، ومنحت رتب وزير ، قضعسكر ، بالا ، فريق أول إلى شخاص عديدين خلال الـ 14 عامًا التي سبقت نهاية الدولة العثمانية . يدعى الفرقاء الأول « باشا » ، أما الذين برتبة بالا ، فيطلق عليهم افندي و بك بالنسبة إلى ألقابهم في الأصل إلاّ أنه لم يبق في المدة الأخيرة ، إلا قليل من حملة رتبة بالا ، الذين يدعون افندي ، ودعي أكثرهم بك افندى . ويدعى هؤلاء فى التشريفات الأوروبية بلفظ « Exellence » . وفي المرحلة الكلاسيكية ، كانت ارتبة التي تقابل هاتين الرتبتين معًا ، هي رتبة بكلربك ، وقد كانت رتبة عسكرية تقابل على الأكثر رتبة فريق أول وهي تقابل في أوروبا ، رتبة « ماركيز » . بكلر بك بحرى (دريا بكلربكي = فريق أول بحري) Oramiral كان المشيرون يحملون على أكتافهم علامات ذات خيوط ذهبية . وكان بقية الضباط جميعهم ، من الملازم إلى الفريق الأول يرتدون نفس اللباس . لكن لباس الرأس لضابط الخيالة كان مختلفًا ، كانوا يرتدون القالباغ (نوع من لباس الرأس) . كان بإمكان الضباط الأركان والجنرالات – إن شأوا – لبس القالباغ بدلاً من الطربوش .

– رتب فريق ، أولى روملي واستانبول : رتب متعادلة ، تعادل رتبة فريق (Ko general) الحالية ذات الـ 3 نجمات . وهؤلاء أيضًا يخاطبون بكلمة « حضرتلري » ، في التشريفات الأوروبية « Exellence » . والرتب الأدنى من هذه الرتبة ، لا تخاطب بكلمات اكسلانس أو حضرتلري (أما استثناء هذه القاعدة ، فتكون بالنسبة للذين يحملون رتبًا أدنى لكنهم يقومون أصالة بواجبات رتب أعلى ، واجبات فريق على أقل تقدير) . إن رتبة فريق رتبة عسكرية ، ويدعى « باشا » . رتب « أولى » وبكلر بك رتب مدنية ؛ يلقب الذي يحمل رتبة أولى افندي أو بك ، وبكلر بك روملي « باشا » . أما رتبة قاضي استانبول ، فهي إحدى الرتب العلمية (علماء الدين) ،

ويلقب أفندي . يجب عدم قياس رتبة بكلر بك روملي هذه مع رتبة بكلر بك في الفترة الكلاسيكية (رتبة بكلر بك القديمة رتبة عسكرية أكثر منها مدنية ؛ أما رتبة بكلربك روملي لعهد التنظيمات فهي مدنيّة على الإطلاق) . إن رتبة فريق ، قبل 1904 تقابل رتبة فريق أو فريق أول (ذات الـ 3 والـ 4 نجوم) : ظهرت رتبة فريق في الأصل في أوروبا في العصر 19 كنلك . إن رتبة الجنرالية في الأصل هي 3 : لواء Tumgeneral وفريق أول Orgeneral ومشير maresal . وبعد استحداث رتبتي فريق Korgeneral وعميد tyggeneral في أوروبا ، استحدثت في تركيا كنلك ، الأولى في العهد العثماني والثانية في العهد الجمهوري . استحدثت رتبة فريق عام 1830 . ولغاية 1904 ، كان إذا رفع الفريق ، يصبح مشيرًا ، واعتبارًا من عام 1904 أصبح الفريق ، فريقًا أول بعد الترفيع . استعملت أسماء هذه الرتب ولقب « باشا » في تركية حتى 1934 ، ثم أصبحت « جنرال » و « أميرال » . ألغي في هذا التاريخ لقب الباشوية بصورة رسمية ، إلاّ أن الشعب في تركية لا يزال يطلق لقب « باشا » على الجنرالات والأميرالات . استحدثت رتبة أولى عام 1830 ، وفي 1839 انقسمت رتبة أولى إلي فئتين ، رتبة أولى صنف أول ورتبة أولى صنف ثاني (وبالاختصار : أولى ثانيسي أي أولى من الصنف الثاني) أما لفظ أولي فقط ، فيعني ذلك ، أولى صنف أول ، وفي حالة ترقية حاملي رتب أولي وروميلي بكلربك ، تصبح رتبهم بالا . إن حملة الرتب إلي حد هذه المرتبة ، يشكلون الصنف المسمي « رجال دولت » أي رجال الدولة .

– رتب ميرلوا (أمير اللواء) ، أولى من الصنف الثاني ، ميرميران وحرمين : أصحاب هذه الرتب لا يعتبرون من صنف الرجال (رجال الدولة) ويعبرون من أركان الدولة ولا تطلق عليهم – عدا الأوضاع الاستثنائية المذكورة أعلاه – ألقاب حضرتلري أو اكسلانس . إن رتبة ميرلوا (بكسر الراء) وبلغة الشعب : ميرلوا (بسكون الراء) ، و (لوا) رتبة عسكرية ، هي رتبة لواء أو عميد . لواء يلقب حاملها « باشا » . رتب أولى من الصنف الثاني وميرميران هي رتب مدنية معادلة لها ومساوية لبعضها ويلقب الأوائل بك أو على الأكثر افندي ، والثواني (الميرميران) باشا . إن الرتبة التي تقابل حرمين شريفين أو التي كان يطلق عليها سابقًا رتبة مكّة ، هي رتبة

صنف العلمية . ويطلق عليهم لقب أفندي مثل منتسبي العلمية (صنوف علماء الدين) .

– رتب آلاي ، متمايز ، خمسة : هي رتب عسكرية ، ملكيّة ، علمية حسب التسلسل . الميراضلاي ، هو العقيد (آلباي) الحالي في البر والبحر . المتمايز (اسم الرتبة الكامل : رتبة ثانية صنف متمايزي) أي الصنف المتمايز من الرتبة الثانية ، مدني ، افندي أو بك (الميرآلاي يلقب بك دائمًا) . أما بلاد خمسة مولويّتي أي ملائية البلاد الخمسة فهي مرتبة علمية بنفس الدرجة ويلقب حاملها أفندي . وفي العهد الكلاسيكس ، كان يطلق على رتبة ميرلوا ، « سنجق بك » وعلى الأميرالات أمراء لواء البحرية « دريا سنجق بك » ، أو « بحرية سنجق بك » . وكان يطلق في العهد الكلاسيكي على العقداء (ميرالاي) ، إن كانوا خيالة « آلاي بكي » . يلقب السنجق بك في العهد الكلاسيكي بلقب « بك » ، « ويلقب آلاي بك وعقداء كابوكولو الذين يعادلونه « أغا » . أطلق في 1830 ، على « آلاي بك » كلمة « ميرالاي » . يسمى حاملي رتب هذا الصنف ، وبضمنهم المقدمون والرواد وما يعادلهم « أمراء » (بكوات) . ولا يعتبر الذين رتبهم دون رتبة رائد (بكباشي) من صنف الأمراء ويعتبرون من صنف « ضابطان » الضابط .

– رتب قائمقام ، ثانية ، مون ميرامراء ، مخرج : هي رتب تعادل رتبة مقدم حاليًا . القائمقام (القائمقام العسكري) ، هو مقدم برّي أو بحري ولقبه بك ، لكنه إن لم يكن متخرجًا في الحربية ، البحرية ، الهندسة العسكرية ، لا يلقب بك وإن كان تعليمه قد تم في وحدته العسكرية (لم يتخرج في كلية) يلقب « أغا » . والذين رتبهم « رتبة ثانية صنف ثانيلغي » وباختصار ذوو رتب ثانية ، هم مدنيون ، يلقبون بك أو أفندي . ميرامرا (بكسر الراء في الكلمة الأولى) ، رتبه مدنية معادلة لها كذلك ، وفرقها أن هؤلاء يلقبون «باشا» . أما درجة مديرية الاسطبل العامر (اسطبل عامره) ، فهي درجة مدنية معادلة للأخريات كذلك والفرق هو في تلقيبهم بـ « أغا » (يمنح هذا اللقب على الأكثر لخدمة السراي) . مخرج مولويتي (ملائية المخرج) ، هي رتبة علمية معادلة لها ، تلقب بـ أفندي وملاًء molla . هذه الرتبة تدخل ضمن صنف الأمراء .

– آلاي أميني : هي رتبة رائد متقدّم عسكري . استعملت مدة من الزمن ثم تركت . لقبوا بك ، أفندي وأغا .

– رائد (بكباشي) ، ثالثة ، قابوجيباشي ، كبار مدرسين : هي رتب صنف الأمراء التي تعادل رتبة الرائد الحالية . يلقب الرائد البري والبحري ، بك ، أفندي أو أغا . كان الرائد ، يسمى في العهد الكلاسيكي ، باشبولوكباشي وإن كان انكشاريًا يسمى شوربه جي . أصحاب الرتب الثالثة ، يلقبون أفندي أو أحيانًا بك ، وهي رتبة مدنيّة ، رتبة قابوجيباشي ، هي من رتب السراي ، مدنيّة معادلة لها ، يلقب حاملها أغا وأحيانًا بك . يلقب العلماء من « كبار مدرسين » ، أفندي ولا يعتبرون من الملائين .

– قول أغاسي ، رابعة ، مدرّس : هي رتب صنف الضباط التي تعادل اليوم رتبة نقيب تقدّم (قدملي يوزباشي) وفي فترة ما ، انقسمت رتبة قول أغاسي إلى قسمين ؛ قول أغاسي أيمن ، وللأقل قدما ، قول أغاسي أيسر . هو نقيب متقدّم في البر والبحر ، يلقّب أفندي ، وإن كان من أولاد الباشوات ، بك ، وإن كان من المتعلمين في وحداتهم يلقب أغا . الرتبة الرابعة (رتبة رابعة) هي رتبة مدنية ، ويلقب حاملها أفندي . وإن كان من أبناء الباشوات يلقب بك . وإن كان مدرسًا يعادلهم من حيث الرتبة العلمية .

– يوزباشي (نقيب) ، خامسة ، حاجه كان ، رتب صنف الضباط . يلقب نقيب البر والبحر أفندي ، وإن كان من أبناء الباشوات يلقب بك . « بيشنجي » خامسة ، رتبة مدنية تعادلها . يلقب حاملها أفندي ، ويلقب بك إن كان من أبناء الباشوات . وإن كان تعليمه قد تم في وحدته يلقب « أغا » . حاجه كان ديوان همايون ، رتبة علمية تعادلها ، يلقب أفندي .

– ملازم : رتبة عسكرية تقابل الملازم حاليًا . يلقب أفندي ، وإن كان من أبناء الباشوات يلقب بك ، وإن كان تعليمه في وحدته يلقب أغا . من صنف « ضابطان » أي الضابط .. لا توجد رتب مدنية وعلمية تعادلها . رتبة الملازم انقسمت إلى قسمين :

ملازم أول وملازم ثان ، وقد تم في العهد الجمهوري استحداث ملازم أول متقدم .

– ضابط وكيلي (مساعد) : استعملت هذه الرتبة في أواخر عهد الدولة العثمانية وهي معادلة لـ astegmen (مساعد) الحالية . وضعه كالملازمين . المرحلة الأولي لصنف الضباط .

– باش جاووش : يسمى كديكلي جاووش أو assubay أي رقيب أول أو نائب ضابط . وتليها الرتب العسكرية جاووش cavus (رقيب) ثم أونباشي onbasi (عريف) . هؤلاء جنود من صنف جاووش (أرباش) أي صنف الجنود حملة الرتب (ضباط صف) . وبتوالي الزمن استحدثت درجات مثل رقيب متقدم ، رقيب أول متقدم . يسمى الجندي الخالي من الرتب لدى العثمانية نفر nefer وحاليًا يسمى في تركيا أر ER . وهؤلاء كانت درجاتهم تختلف بالنسبة لسني خدمتهم مثل جندي مستجد ، وجندي ، وجندي ممتاز .

10 – أوســمة العثمانية :

لم تكن توجد أوسمة في الفترة الكلاسيكية . كان السلاطين يمنحون الخلعة (رداء ، عباءة) ، إكليلا (علامة توضع علي الرأس) وسيفًا ، الاثنان الأخيران يكونان علي الأكثر مرصعين بالأحجار الكريمة . استحدث محمود الثاني وسام تصوير همايون ، ألغي بعد ذلك . تقررت درجات الأوسمة العثمانية بعد التنظيمات على الشكل الآتي (نزولاً من الأعلى إلى الأدنى) .

– وسام خاندان آل عثمان (الدولة العثمانية) : استحدث في 31 / 8 / 1893 . ومنذ ذلك التاريخ منح إلى ما يقارب [illegible] شخصًا . كان يمنح لكل شهزادة يصل سن البلوغ . ومنح كذلك إلى واحد أو اثنين من الحكام الأجانب وإلى اثنين من المسئولين (الخديو عباس حلمي باشا ، الصدر الأعظم توفيق باشا) . وهو على شكل وسام ذي أرضية حمراء مرصّع بالجواهر يعلق على الصدر بقلادة ذات نجوم وأهلة كثيرة .

– وسام أرطغرل : أستحدث هذا الوسام في 1908 على أن يكون أرفع وسام ،

إلا أنه صرف النظر عنه بإعلان المشروطية .

- وسام الافتخار : استحدثه محمود الثاني ، تغيّر شكله بعد ذلك ، وسمي القديم « عتيق نيشان افتحار » . أعلى وسام منح لرجال الدولة ومسئولين معينين عدا الصدور الأعظم .

- وسام الامتياز : استحدث عام 1878 . منح لأكثرية الصدور وعداهم منح لأشخاص قليلين جدًا .

- وسام عثمانلي : أي الوسلم العثماني . استحدث في بداية 1862 . على 5 درجات : الوسام العثماني المرصّع ، الأول ، الثاني ، الثالث، الرابع . إن الأوسمة الأصلية هي العثماني والمجيدي ، والأوسمة الأخرى استثنائية . كانت تمنح كبقية الأوسمة ، إلى الأجانب كذلك . وكوساميّ الافتخار والامتياز . كانا لا يمنح إلى النساء . منح وسام العثماني المرصّع إلى الوزراء الممتازين ، إلى المشيرين ، القضاة العسكريين ، الصدور العظام ، شيوخ الإسلام ، حملة رتبة بالا ، الفرقاء .

- وسام المجيدي : استحدث عام 1582 . إن أرضية العثماني خضراء ، لكن أرضية هذا حمراء وهو على 6 رتب : المجيدي المرصّع ، الأول ، الثاني ، الثالث، الرابع ، الخامس . وهو أدنى بدرجة واحدة من الوسام العثماني . فمثلاً ، المرصع العثماني يفوق المرصع المجيدي بدرجة . لكن العثماني الأول يأتي بعد المرصع المجيدي ؛ أي أن العثماني الثالث أعلى قيمة من المجيدي الثالث ، لكنه يأتي بعد المجيدي الثاني . المجيدي ذو السيف الذي استحدث في الحر العالمية ، هو المجيدي الذي يحتوي على سيفين ذهبيّين ، منح للذين أظهروا بطولات وأدّوا خدمات متميّزة . كان من الممكن منح وسام المجيدي بجميع مراتبه إلى النساء . والذي يمنح للنساء كان مختلف اللون وطريقة تعليقه مختلفة كذلك . إن المراتب الدنيا من وسامي العثماني والمجيدي على شكل صفيحة عارية ، وجميع درجاته الأخرى مزيّنة بالجواهر ، استعمل فيه الماس ، أكثر من الأحجار الأخرى . إن قطع الماس الموجودة في رتب المرصع والأول كبيرة جدًا . وذات قيمة كبيرة . الوسام مغطى بالماس من أوله إلى آخره . من الممكن أن يحمل البادشاه هذه الأوسمة إذا رغب .

- وسام الشفقة : 3 رتب وخاص بالنساء فقط . استحدث عام 1878 .

– وسام المزيّة : فكّر في المشروطية الثانية أن يكون علي 5 مراتب ويفوق العثماني ، ترك .

– وسام المعارف : 3 رتب . منح للذين خدموا الثقافة العثمانية في المشروطية الثانية .

أنواط (medallion) العثمانية كثيرة جدًا . وتوجد عدا التي تمنح بصورة دائمة تلك التي تمنح في مناسبات خاصة . أكثرها فضي ، قسم منها على درجتين : ذهبي وفضي . والبعض الآخر على 3 درجات . أول نوط منح في 1831 . وتوجد أنواط عثمانية سكّت لمناسبات خاصة ، لكنها ليست كثيرة كالأنواط الأخرى .

كان حملة رتبة الوزارة ورتبة القضاة العسكريين في دور السلطان سليمان القانوني حوالي 12 شخصًا في الوقت نفسه . لا يمكن قياس وضع واقتدار وزراء دور القانوني وما قبله ، إلاّ مع حكام أوروبا العظام . كانوا أرقي من الحكام المتوسطي الدرجة . ازداد عدد الوزراء والقضعسكر مع العصر 17 . كانوا كثيرين في بداية العصر 19 وأوسطه ، لكن عددهم كان لا يزال محدودًا . زاد هذا العدد بدرجة كبيرة ، خاصة في السنوات الأخيرة من دور عبد الحميد الثاني . وفي عام 1897 : كان عددهم كالآتي : 2 برتبة الصدارة + 1 من رتبة المشيخة + 50 وزيرا + 40 مشيرا + 3 مشير بحري +3 وزراء دكاترة + 14 قضعسكر روملي + قضعسكر الأناضول = 125 رجلا من أعلي ، 158 رتبة بالا ، 48 برتبة استانبول ، 403 برتبة أولى و 111 بكلربك روملي **سالنامه دولت عليهء عثمانية** ، 1315 = 1897 ، **السنة** 53) . مجموعهم عدا الفرقاء 848 (أما مجموعهم في 1894 ، فكان 729) . وفي أواخر عام 1907 (**سالنامه** ، **1326**) : 2 برتبة الصدارة + 1 برتبة المشيخة +53 وزيرًا +39 مشيرًا +3 مشيرين بحريين +3 طبيب مشير +8 قضعسكر روملي و 38 قضعسكر الأناضول = 150 رجلاً من أعلي المراتب +245 بالا + 43 من مرتبة استانبول + 648 والي + 156 بكلر بك روملي = 245 1 شخصًا عدا الفرقاء الأول والفرقاء .

1 – نموذج للوزارات ذات الحكم المطلق :

كنموذج لذلك أقدم أمثلة من إحدى وزارات حكومة عبد الحميد الثاني ذات الحكم

المطلق الأخيرة كما هي في ك ١ عام 1907 :

الصدر الأعظم : (آفلونيالي محمد) فريد باشا (يحمل أوسمة كلها مرصعة ؛ الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ شيخ الإسلام محمد جمال الدين أفندي (كلها مرصعة، الافتخار ، الامتياز العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر العدلية : عبد الرحمن نور الدين باشا (وزير ، صدر أعظم سابق ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ سر عسكر : محمد رضا باشا (مشير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر البحرية : حسن رامي باشا (مشير بحري ، العثماني والمجيدي المرصعين) ؛ رئيس شورى الدولة : حسن فهمي باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني . المجيدي) ؛ ناظر الخارجية : أحمد توفيق باشا (وزير ثم صدر أعظم ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر الداخلية : محمد ممدوح باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، العثماني ، المجيدي) ؛ مشير طوبخانة العامرة مصنع المدافع) : مصطفى زكي باشا (مشير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الامتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر المالية : ضياء باشا (وزير ، العثماني الأول ، المجيدي الأول) ؛ ناظر الأوقاف الهمايوني : تورخان باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، العثماني ، المجيدي) ؛ وزير التجارة والإعمار : مصطفى ذهني باشا (وزير ، كلها مرصعة ، الافتخار ، الأمتياز ، العثماني ، المجيدي) ؛ ناظر المعارف : هاشم باشا (وزير ، الافتخار والعثماني المرصعين ، المجيدي الأول) . كانت هذه هي الوزارة (مستشار الصدارة الأخير كان يسمح له بالكلام ، ولكن ليس له حق التصويت) .



البحث الثالث عشر

الجيش والأسطول



1 – حول الجيش التركي قبل العثمانية :

إن تاريخ الجيش التركي ، هو تاريخ الشعب التركي وهو يمتد إلى أغوار التاريخ . ظهر الأتراك على مسرح التاريخ كجنود .

نظـم متـه Mete ، الجيش الهوني التركي على نظام العشرات ؛ وحدات خيالة تتألف من 10, 100, 1000, 10 000 خيال ، ويمكن القول إن هذا التنظيم استمر إلى يومنا هذا . كان الجيش لدى الدولة التركية قبل الإسلام خيالة ، ورغم أن صنف المشاة كان موجودًا ، فإنه لم يكن ذا أهمية ، وهو بذلك يختلف عن جيوش مكدونيا ، وروما والبيزنطيين التي يغلب عليها المشاة .

اعتبر عام 1363 تاريخًا لتأسيس الجيش التركي ، في العهد الجمهوري ، لمدة طويلة . هذا التاريخ خاطىء تمامًا . ونتيجة لكتابتي مقالة افتتاحية في مجلة Turk Kulturu عام 1974 ، ومقالة في صحيفة « دنيا » صححت رئاسة أركان الجيس هذا الخطأ ، وتمت الموافقة على اعتبار عام (209 ق . م .) تاريخًا لتأسيس الجيش التركي ، وهي السنة التي اعتلى فيها متـه العرش .

لم تمتلك ، حتى أعظم الدول التركية قبل الإسلام ، أسطولاً ، وأول أسطول أسّسه السلجوقيون ، عام 1074 فور تأسيس الدولة التركية في أزمير على يد جاكابك . أوضحت ذلك في كتبي المختلفة ، ونتيجة لذلك وافقت رئاسة أركان الجيش والقوة البحرية على قبول ذلك وتثبيته تاريخًا لتأسيس الأسطول التركي . ويتم الاحتفال بعيدي تأسيس الجيش والأسطول سنويًا على هذا الأساس .

أما القوة الجوية التركية ، فقد تأسست في المشروطية الثانية ، تحريت تاريخ القوة الجوية التركية مع زميلين لي في مجلّد كبير طبعته القوات الجوية التركية .

الواضح أن الجيش العثماني اتخذ الجيش السلجوقي في البداية أنموذجًا له . كان الجيش العثماني – كما كان الجيش السلجوقي – مؤلفًا من الجيش المركزي « قابوقولو » + جيش

الأيالات « تمارلي » . وكان صنف الخيالة يشكل الأكثرية الساحقة . وقد أخذت المشاة والأصناف المساعدة العديدة الأخرى ، بالانضمام إلي الخيالة في الجيش العثماني كما في الجيش السلجوقي .

2 – حول الجيش العثماني :

أسس العثمانيون جيشًا ، أصبح منذ 1396 – بعد جيش تيمور – ثاني أقوى جيش في العالم . وفي 1447 أصبح هو الجيش الأول في العالم ، ثم فقد صفته هذه في 1771 ، وحتي 1871 كان الجيش الثالث ، وفي 1878 كان الجيش الرابع في العالم . أما من 1517 إلي 1683 ، فقد كان جيشًا يعادل مجموع جميع جيوش بقية الأقطار في العالم قوّة . وكان وضع الأسطول موازيًا لذلك .

إن هذا التفوق – كما لاحظ ذلك مؤرخون أوروبيون كثيرون جدًا – يستند إلى عوامل كثيرة ؛ أولها النظام ، وثانيها التفوق التكنولوجي ، ثم تأتي بعد ذلك العوامل الأخرى . ويجب ألا ننسى الاقتدار المالي والاقتصادي الذي يمكنه إدارة جيش كهذا .

واعتبارًا من العصر 15 ، أصبحت الدول الأجنبية تسعى إلى استخدام ضبّاط العثمانية ، مدفعيّيها ، ربابنة سفنها ، ملاحيها ، وتدفع لهم رواتب ضخمة . وافقت الحكومة العثمانية ، في ضوء مصالحها ، على إرسال ضباطها إلي الدول الأجنبية لمدد معيّنة أو طيلة الحياة . قدم هؤلاء الضباط خدمات جمة ، وخاصة في الأقطار الإسلامية التي رحبت بهم وحصلوا فيها على اعتبار كبير ، وبالإمكان تقديم معات الأمثلة على ذلك .

كانت إمارة هرمز الكائنة على خليج البصرة تحافظ على استقلالها بواسطة الجيش العثماني الأجير (Huart Histoire des Arabes 2, 261) وكان الأميرال العثماني خداوند خان رومي يدافع عن سلطنة كجرات بواسطة 300 مدفع عثماني سبك في تركية (Erskine, History of India لندن 1854, 2, 4950) .

يشرح بابورشاه في مذكراته المسماة بابورنامه كيفية انتصاره في المعركتين الميدانيتين 1526, 1527 اللتين فتح فيهما الهند بواسطة المدفعية العثمانية التي كانت تحت قيادة

مصطفى خان رومي (رومي = أناضولي ، أي من أهالي تركية ؛ سلجوقي ثم تركي عثماني) .

إن يوسف عادل شاه مؤسس السلالة الإمبراطورية التركية في الهند الجنوبية ، كان مغامرًا تركمانيا عاصيًا ، ادعي أنه ابن مراد الثاني وأخو السلطان محمد الفاتح ، كان الذي أسس وحدات مدفعيته ومشاته حملة البنادق ، هو مصطفى أغا أحد ضباط المدفعية العثمانيين . إن الحرب الميدانية Talikota هي من أكبر المعارك في التاريخ الهندي (23 / 1 / 1565) . عادل شاه وحلفاؤه الحكام المسلمون هدموا إمبراطورية Vijaynagar الإمبراطورية البراهمية في أقصى جنوب الهند بانتصارهم في تلك الواقعة . قاد مدفعية الجيش الإسلامي ، ضابط المدفعية العثماني المدعو رومي خان . قتل الإمبراطور رام راج مع 100 000 من جنوده في ساحة القتال . إن أرقي وأحدث وحدات فاس خلال العصرين 16 و 17 كانت قد درّبت علي يد الضباط العثمانيين (130, 3, IA, A, Cour) . وجيش فاس كذلك ، الذي فتح سودان الغربية (مالي) ، دربه الضباط العثمانيون (481, 4, IA, G, Yver ب) . حصل أمير الحبشة أحمد كران في العصر 16 علي انتصاراته تجاه البرتغاليين والمسيحيين ، بفضل الضباط العثمانيين ومدافعهم .

إن الكونت مارسيكلي Marsigli هو الكاتب الكلاسيكي الذي كتب أهم كتاب حول تشكيلات الجيش العثماني . هو شريف إيطالي من أصل بولوني ، جنرال في خدمة الألمان ، تعلم اللغة التركية . كان موجودًا في حصار فيينا 1683 وجميع الحروب التي أجرتها ألمانيا بعد ذلك تجاه الدولة العثمانية وفي احتلال الألمان لبودين Budin. له مكتبة غنيّة تتألف من مخطوطات تركية . كتب في مؤلفه المشهور الذي حرره في 1737 العبارات التالية (ص :, 275 , 75 , 1 - 50 , 9 - 47 , 44 , 40 , 7 - 36 , 31 - 23 , 8 - 16 , 293 , 325) :

« عندما كنت في استانبول عام 1679 و 1680 ، كانت حدود الإمبراطورية التركية تمتد من فيينا إلى مسافة 16 ميلاً عن ساحلي الطونة . كانت الحدود تنتهي عند نهري Raab, Vag ، ولم تكن هذه المياه بوضع يمكن فيه أن تحمي مدينة عرش كبيرة كفيينا ... قطعة صغيرة من أراضي خرواتيا كانت قد بقيت لدي ألمانيا ، والبقية لدى الأتراك .

كان Kulpa يفصل الإمبراطوريتين إحداهما عن الأخري ويصل حدود البندقية في البحر الأدرياتيكي . كان البحر ، اعتبارًا من هذه النقطة إلى حد استانبول ، تحت حكم الباب العالي بصورة مطلقة . إن سعة الإمبراطورية التركية إذا ما قيست بالنسبة إلى إمبراطورية روما – وإذا ما نظر إلى الخارطة بنظرة عابرة – تجعل المرأ لا يمكنه أن يخفي تعجّبه أبدًا ، كيف أسس الأتراك دولة كهذه ؟ ، كيف أمكنهم المحافظة عليها ؟ كتبت كتابي لأجيب عن هذه الأسئلة . استوطنوا في هذه الأقطار التي لا يتصور العقل سعتها ، بشكل مستقر إلى درجة لم يروا فيها ضرورة لمزاولة الظلم واستعمال الشدة ، وسمحوا للمسيحيين بالعيش في حرية في إمبراطوريتهم . ولا يزال الوضع اليوم (1737) كذلك . قبلوا حتي اليهود الذين لجئوا إلى الدولة العثمانية بعد إخراجهم من إسبانيا ... يشاهد هذا الوضع الجريء يتمثل بوضوح في سياسة السلطان محمد الثاني (فاتح) الذي جلس على عرش إمبراطورية روما ... ولا يكفي أن نقول : إن الأتراك لم يتسلطوا على أعراض تبعتهم النساء المسيحيات ، بل إنهم لم ينظروا إليهن نظرة سوء . بل إنهم ، بسبب كونهن نساء ، كانوا يعاملونهن بسماحة ولطف . شاهدت ذات الوضع ، في جميع أقطار الدولة العثمانية المسيحية . لم أصادف أي عثماني خرج على طور الأخلاق ... أكثر من ذلك نجد أنهم قد اتخذوا التدابير التي تحمي تبعتهم المسيحيين من رؤسائهم الروحانيين ورهبانهم أنفسهم . لا يجوز للكنيسة أن تتسلم من مسيحيي الأقطار التابعة للعثمانية ، دراهم يزيد مقدارها على ما هو مثبت في إرادات البادشاه . لا يتدخل الأتراك أبدًا في احتفالات المسيحيين الدينية . إن بكلر بك (أمير الأمراء برتبة فريق أول) الإيالات ، كانوا في إيالاتهم ، كملوك الأوربيين . بيد أن هذا الوضع يخدع الناظر ، لم يكن بإمكانهم إجراء أي شيء دون أخذ موافقة الديوان الهمايوني في استانبول . كانت الإدارة ، مركزية إلى هذه الدرجة . الجندي التركي قنوع . يأكل طعامًا قليلاً . لكن يجب أن يكون في طعامه لحم غنم . لا يمكنه الاستعاضة عن اللحم . لا يشرب المشروبات الكحولية . يأكل الفواكه الطازجة والمجففة . قدرته على مقاومة الحر أكثر من قدرته على مقاومة البرد .

« يعطف الأتراك كثيرًا ، على السياح ، الرهبان ، الدراويش والفقراء دون تفريق بين الأديان . يجلسون على موائدهم سواء في القرى أو في المدن . وحتى أنهم يمنحونهم

الدراهم عند مغادرتهم ، ولعدم معرفتنا نحن الأوروبيين ، اللغات الشرقية ، نظن أن الأتراك الذين يجهلون اللغات الأوروبية ، جهلة ، هم ليسوا كذلك . كل تركي مثقف ، يجيد بالإضافة إلى لغته التركية ، العربية والفارسية . إن الشخص الذي لا يجيد هاتين اللغتين ، لا يعتبر مثقفًا ، ولا يعتبر رجل علم . كم شخصًا بين مثقفينا يجيد لغة أجنبية ؟ . إن الأطالس التركية ، بالنسبة إلى بلادهم ، أرقي بكثير من خرائطنا . ثبتت فيها حتى أصغر الأماكن . أكثرها أسماء تركية . إن الأطالس المطبوعة في أوروبا تدقق في الأقطار العثمانية بعناية شديدة . يُعتنى بالجندي التركي عناية فائقة . رواتب المتقاعدين منهم ، عالية . إنجاز الأعمال بسرعة ، هو الأساس في جميع أشغالهم . لا توجد مماطلة وتسويف . وفرة مصادرهم الاقتصادية والمالية وتنظيمها بشكل فائق بالنسبة لنا ، هو أحد أسباب نجاح الجيش التركي . ومع هذا ، فإن الاعتقاد بأن الأتراك لا يمكن قهرهم ، غير منطقي . وقد اتضحت عدم منطقيته منذ 1683 ... » .

كانت مصروفات الحروب الكبيرة ضخمة . وتشكيلات منازل الجيش ، كانت معقدة . وجاء في أمر ديواني مؤرخ في 26 / 1 / 1579 (Muhimme ، 33 ,533) ، يأمر فيه أمين المعادن في كموشخانه أن يصنع بصورة مستعجلة « فندق لثلاثين دفعة مائة ألف بندقية » أي 3 000 000 رصاصة بندقية ويرسلها إلى القائد الأعلى (سردار) عن إيران الوزير لالا مصطفى باشا . وقس على ذلك إمكانات معامل العتاد الأخرى .

أفرغ 66 مدفع كروب Krupp للأتراك ما يقارب 10 000 و 150 مدفعًا للروس ما يقارب 50 000 قذيفة خلال نصف يوم واحد فقط ، من الصباح حتى المساء ، في الحرب الميدانية كديكلر في جبهة القفقاس في حرب 93 . وعند انفجار كل قذيفة مدفع ، كان يتناثر منها 500 قذيفة صغيرة تسمى شظيّة . كان قد مضى 20 عامًا على حرب قرم . وكانت الدولة العثمانية قد طورت خلال هذه المدة أسطولها بنسبة 100 وأسلحة جيشها بنسبة 90 ٪ (محمد عارف بك ، **باشمزه كلنلر** ، ص 151 ، 192 ، 246 ، 254 ، 259) .

أعطيت أهمية بالغة للاستخبارات . إن المخبرين السريين لفاتح ، بيازيد الثاني والقانوني على أوروبا مشهورون . كان هؤلاء ينبثون بين أفراد شعب ذلك القطر وأكثرهم من

ضباط الصاعقة العثمانيين من أصناف الهجوم والانقضاض . المخابرات الداخلية ، كانت سريعة أيضًا . كان موظف البريد المسمي طوبال صادق ، قد ضرب رقمًا قياسيًا في توصيله الرسائل من بغداد إلى استانبول خلال 7 أيام بتبديله حصانه في كل منزل (I,H, Uzuncarsili Kutahya Sehri ، 114) . ويتضح من ذلك أنه يقطع يوميًا مسافة 350 كم من الطريق البالغ 2 500 كم . ويسجل أحد المؤرخين البولونيين أن الاستخبارات السرية للباب العالي في بولونيا حتى في أواخر العصر 18 ، كانت فائقة (Reychman Bel . Jan ، رقم 121 ، ص 86) . يقول الدفتردار الوزير صاري محمد باشا في كتابه السياسي المسمي **نصيحة الوزراء** ما يلي (وفاته 1717) : « إن معرفة أحوال العدو من الأمور ذات الأهمية العظيمة . دول كثيرة اضمحلت بسبب عدم الاطلاع على أحوال العدو وعدم تفحّص واستقصاء أخباره . يجب إرسال جواسيس سرّيين من أطراف جميع الحدود إلى العدو والسعي تدريجيًا لاستخبار أحوال عدو الدين » (نشريات Wright ، ص 75 - 6) .

تشكيلات المنازل ، كانت متقنة ومنتظمة . كان يوجد في جميع المنازل الواقعة على طريق استانبول – بودين (بودابست) البالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، مخازن مياه ومصانع ثلج . كان الجنود ، يأخذون الماء والثلج مجانًا في كل منزل (مناهل السفر) ويستمرون على السير في طريقهم (مارسيكلي ، 41) . « إن الجيش التركي متيقظ جدًا في سيره وهو أقدر وأكثر تجربة منا في قطع المسافات الكبيرة » (مارسيكلي ، 223) . « إن الخيام التركية فائقة جدًا ، لا يؤثر فيها المطر ، والثلج ، والشمس ، والريح . وإضافة إلى ذلك فهي أثر فني بجمالها وزينتها . بداخلها سجاد ووسائد . لقد شاهدت خيام قواد الأتراك التي غنمناها في حملة فيينا (1683) ، كانت نموذجًا للثروة والعظمة ، كانت سرايات وقصورًا سيّارة . للمرافق الصحية ، خيام منفصلة . وإضافة إلى ذلك ، كانت هناك خيمة كبيرة للاستعلامات . كان الجندي الضال ، يدخل ويستفسر من الضباط الموجودين فيها عما يجب عليه أن يعمله » (مارسيكلي ، 180 - 1) كان يحمل أحد سرادقي محمد الرابع الاثنين ، 600 جمل . إن هذه السرايات السيارة كان بالإمكان نصبها وفكها خلال يوم واحد (**Galland, Journal, 2, 111**) . وبالطبع فإن تجربة الأتراك في الخيام تعود إلى ألف سنة مضت . ليس بإمكان شعب

أن يتقن ويجيد شيئًا إجادة تامة ما لم تمض على استمرار ممارسته له عدة مئات من السنين .

وفي حملة بغداد لمراد الرابع ، كانت قد تجمعت في ميناء نهر (فرات) بيره جك 800 سفينة محملة بالمهمات (1639) (Muhimme, 87, 312, 333) . لم تكف . وضعت هياكل 800 سفينة أخرى في معمل بيرهجك لصنع المراكب سيقت كلها إلى بغداد عن طريق النهر . كانت السفن تفرغ حمولتها بعد مسيرتها 800 كم ، في المنحني الذي يقترب فيه نهر الفرات إلى دجلة بمسافة 40 كم ، ويبدأ بعد ذلك النقل البري (Muhimme , 87 , 288 , 241) كان الوزير بكلر بك دياربكر ، يشرف على النقل . جيء بقذائف المدافع أمام بغداد من معامل عتاد بوسنة ، أرضروم ، حلب ، بيره جك ، وان وكيغي Kigi . نقل البارود من معامل القاهرة ، عينتاب ، حلب ، رقّة . كان بارود القاهرة ناعمًا جدًا ومرغوبًا فيه جدًا . كان القسم الأكبر من الهجمات الثقيلة ، يُجمّع في الموصل وينقل منها (Muhimme, 87, 360 - 87) . لم يبالغ الشاعر الشعبي قايقجي قول مصطفي الذي اشترك في هذه الحملة حين قال في أحد أبيات شعره : Askerin bir ucu Yurudu Van'dan - Sagindan vuruldun soluna yaslan ومعناه سار أحد أطراف الجيش من وان – إن أصبت من يمينك فاتكيء على يسارك .

الخيول ، كانت منتخبة بشكل جيد ومروّضة بشكل لا يصدق ، ومعنى بها أشد العناية. وحتى في العصر 19 ، كانت كذلك . كتب الماريشال الألماني فون مولتكه الشهير الذي خدم في الجيش العثماني الحديث الذي أسسه محمود الثاني في شبابه ، في مذكراته عن تركية ما يلي (ص 261 ، 27 / 1 / 1839) : « قليلة جدًا في العالم ، تلك الجيوش التي تمتلك خيولاً كثيرة العدد وممتازة كالجيش العثماني . الخيول العثمانية البديعة ، كانت تغذي بحليب النياق . أما الخيول العربية من أصل نجد وعنزة ، فكانت تبهر العيون » .

زار المؤرخ أولياء جلبي ، القلعتين العثمانيتين خاركوفا وزيلا Zeyla في الصومال (10 ,947 ,952) . وهي بنايات هائلة عثمانية الصنع على المحيط الهندي ، كان في إحداها 200 وفي الأخرى 300 حارس تركي . كانت مدافعها موجهة نحو البحر (1680) . وما زالت قلاع ومدافع العثمانيين تشاهد في الصومال .

3 ـ الخيـالة :

يذكر الأميرال الإنجليزي السير Adolphus Slode ، الذي استخدمه محمود الثاني في تأسيس جيش وبحرية حديثين ، في مذكراته التي نشرها عند عودته إلى إنجلترا ما يلي (قبودان باشا ، 238 ,240 - 3) « شاهدت الخيالة التركية في الحرب الميدانية كلفجه Kelefce (1827) . أغاروا بخيولهم على الروس وهم يصيحون الله ، الله . لم يتمكن المشاة الروس الذين كانت تجهيزاتهم على أساس نظام القلاع ، من المقاومة واندحروا. كانت الخيالة التركية كأنها تزاول حركات رياضية . وكانوا يهزءون بعجز الروس . أما المشاة الأتراك ، فكانوا لا يشتركون في القتال ويتفرجون . إن هذا اللعب استمر ساعتين ، قضى الخيالة الأتراك معظم أيامهم علي ظهور خيولهم . كانوا عند تدريب خيولهم يسوقونها نحو البراميل الملتهبة ، ويجعلونها تقفز من الجدران . يمكنهم إصابة الهدف وهي تعدو بأقصي سرعتها . لا يوجد من يضاهيهم في رمي الجريدة ، لا يمكن لأي خيّال أجنبي أن يقاتل الخيال التركي منفردًا ، ينهزم . الخيال التركي هو من الخيالة النادرين في العالم ؛ إذ يمكنه الهجوم بأصول المباغتة من مسافة قصيرة مثل 100 ياردة . ولا حاجة إلى ذكر أهمية هذه القدرة في الأراضي الوعرة . إذ إن قوزاق أوكرانيا الروس المشهورين ، عجزوا في الأراضي الوعرة ولم يتمكنوا من اللحاق بالخيالة الأتراك . وكان زميلي النقيب الخيال الإنجليزي Chesney الذي يقف بالقرب مني ، يشاهد ذلك بتعجّب شديد (هو مؤلف مذكرات سياحية مهمة عن تركية) . كانوا فرسانًا عظماء ، كأنهم أبطال دور الفروسية ، يرمون المزارق التي بأيديهم أثناء عدو الحصان بأقصى سرعته ثم يقبضونها ثانية . كانت الخيول العدّاءة ، تسير في السهل كأنها أسراب طيور طائرة . كانت صداراتهم تتفتّح كالأوراق ، وذيول الخيول العدّاءة تتموج في الفضاء . كانوا يتقدمون وهم يهزءون بالموت . أصوات صيحاتهم « الله . الله » كانت تشق عنان السماء . كانوا يسحقون الخيالة الروس ويمرون ، يتقدمون دون أن يبالوا بزملائهم الذين قتلوا أو سقطوا عن خيولهم . تكتيك انسحابهم كان باهرًا . لا يمكن مشاهدة خيالين اثنين جنبًا لجنب .. عجزت المدافع الروسية . قليل من الخيالة الأتراك أصيبوا بالشظايا ، أيقن الروس عدم إمكان مجابهتهم للخيالة التركية في العراء .

اختبئوا في استحكاماتهم . وفي هذه المرة بدءوا بالهجوم على الاستحكامات . لم يكونوا يهابون الموت أبدًا . اقتربوا من خنادق الروس رغم نيران البنادق . كانوا يصلون أمام الخنادق لحظة ، ثم يعودون كالبرق . أدهش ذلك الروس . تعبت عيونهم بسبب عدم تمكنهم من تعقب حركات الخيالة التركية . كان الأتراك كأنهم يلعبون لعبة الجريدة في أحد ميادينهم . وأساسًا فإن ما يعملونه كان شيئًا يتعدى الفروسية ، كان ذلك جمنازية (حركات رياضية مدهشة) في الحصن ، لا غير . كانوا يقتربون من الخنادق بصورة مستمرة ويفرغون رصاص مسدساتهم . لكنهم في النهاية ، لم يتمكنوا من الصمود أمام نيران المدفعية الروسية . قرروا الانسحاب ؛ كانوا ينسحبون وهم يدخلون رءوسهم تحت بطن الحصان . كانوا يغيرون بخيولهم باستقامة المنطقة التي يوجد فيها المشاة الأتراك كالبرق دون أن يروا أطرافهم ، ولذا لم يتمكنوا من مشاهدة القائد العام التركي رشيد باشا الذي بقي على حصانه وحيدًا أمام الروس . تمكن أحد الضباط – برتبة نقيب – القوزاق من تمييز الباشا الذي كان ينظر مبهوتًا أمام الخنادق الروسية ، وأيقن من لباسه أنه ضابط تركي كبير . تقدم بحصانه ، أمسك ذراع الباشا . ولمدة ثوان ، ولأول مرة في التاريخ يقع قائد عام تركي أسيرًا للعدو . شاهد أحد الخيالة الأتراك المنسحبين ، قائده الباشا . تقدم بسرعة البرق وأصاب بمسدسه النقيب في جبينه . قبض أعنة حصان رشيد باشا وسحبه ، واختفى عن الأنظار باستقامة شومنو . كان الروس يشاهدون هذا الوضع من وراء خنادقهم بدهشة مثلنا . جرى الحادث وانتهى خلال ثوان . إن الخيَّال الذي أنقذ قائده الباشا ، هو أحد آخر أفراد سلالة المغاوير (آقينجي ... » .

وفي جريدة عسكرية للإمبراطورية الألمانية عام 1789 ورد : « الخيَّال العثماني ، أمهر خيَّال في أوروبا » (جودت 4 ,325) .

إن تفوق الجيش العثماني ، يعود إلى حيازة الدولة للجيش النظامي منذ تأسيسها . كان أول جيش نظامي دائم في أوروبا . لم يتمكن الأوروبيون من تحقيق ذلك ، إلا في أواسط العصر 17 (السويد ، فرنسا ، بروسيا) لا يوجد لديها جيش يدخل القتال بتجنيده وقت الحرب . كان عمل الجيش هو القتال فقط . واختصاصه العسكرية

لم تكن أوروبا قادرة على إعاشة مثل هذا الجيش . وعندما حازت على هذه القدرة الاقتصادية ، تبدل الوضع ضد العثمانية .

4 – المدفعيـــة :

تركزت الآراء بأهمية بالغة ، في موضوع تفوق العثمانية ، على عامل تفوق المدفعية وكمالها . اعتبرت المدفعية العثمانية أرقى مدفعية في العالم حتى عام 1700 . إن تفوق المدفعية العثمانية هذا ، حكم العالم قرابة 3 عصور . وقبيل عام 1700 ، تمكنت المدفعية الأوروبية من اللحاق بالمدفعية العثمانية من الناحية التكنولوجية والتكتيكية .

أراد ماكيافل (Machiavelli 1469 - 1527) أن ينبّه الأوروبيين ، إلى أهمية ذلك منذ ذلك التاريخ بقوله « تمكن الأتراك من الانتصار على شاه إيران (1514) وسلطان المماليك (1517) بفضل الأسلحة النارية (Oeuvers Complètes, Dè ,2 ,114 ,316 Discorsi) سجل مؤرخ الأسلحة الشهير Courtlandt Canby أن قصف البيزنطيين عام 1453 ، هو أول قصف ناري مدفعي منتظم في التاريخ (le premier bombardement organisè de l'histoire, Histoire de l'Armement ، لوزان 1964 ، 54 ب ، 64 ب) .

إن مؤسس الباليستك ballistic (الاختصاص بالقذائف) ، لا شك في أنه السلطان محمد الفاتح . أسد الله أغا ، هو أحد الأسماء الكبرى في مجال الباليستك في دور القانوني (هامّر ، 5 ,373) . طوّرت المدافع التركية بصورة مستمرة . وحتي في وقت متأخر كعام 1736 ، اكتشف المهندس التركي المسمي محمد سعيد أفندي للمرة الأولى في المدفعية « إيكي يايلي كادران » أي كادران ذو نابضين pertsch ,Katalog ,166) كتب البارون دي توت Baron de Tott وهو ضابط مدفعي ، بأن المدفعية العثمانية حتي في غضون 1770 ، كانت في وضع جيد جدًا ، تملك مدافع نارية سريعة تقذف 5 إطلاقات في الدقيقة ، وأن الجيش العثماني كان يملك مدفع – صاروخ خارق يقذف 15 قذيفة في الدقيقة وأن البادشاه يتابع بنفسه تدريبات إطلاق المدفعية (,120 - 1 2 ,89) .

يسجل بدقة تفوق المدفعية العثمانية في العصر 16 على المدفعية الأوروبية بشكل

حاسم « Une formidable Superiorite » (هامر ، 340, 312, 2, Pirenne, 66, 5,) ويشار إلى أن المركب الكيماوي للقذائف العثمانية يتفوق بكثير على مثيلتها الأوروبية (5 - 264, Arthur Thomas) . ورغم أن أول مدفع ذي ماسورة أخدودية صنع في أوروبا عام 1870 في بروسيا ، فإن المدافع ذات الأخاديد الموجودة لدينا والعائدة لفاتح وياووز ، تبيّن بوضوح مبلغ ما توصلت إليه التكنولوجيا لدى العثمانية . هذا ، وأشير كذلك إلى أن المدفع ذا الأخدود البروسي ، اقتبس من العثمانية في حرب قرم بواسطة الفرنسيين . أما مدفع هاون (Obus) فقد اكتشفه فاتح واستعمله . يحوي المتحف البريطاني اليوم مدفعًا من مدافع فاتح يزن 22 طنًا ويقذف قديفة زنتها 500 كيلو ، أهداه السلطان عزيز إلى الملكة فكتوريا . أما مدفع فاتح الموجود حاليًا أمام سراي طوبقابو في حديقة كنيسة آيا إيريني ، فيزن 20 طنًا ، طوله 5 . 7 متر ، قطره مقاس 25 سم ، وماسورته ذات 17 أخدودًا (انظر إبراهيم حقي قونيه لي ، أرضروم ، ص 274 ,277) .

يصف اللورد Rycault ، المدافع العثمانية بأنها حتى في أواخر العصر 17 ، تعد أجود أنواع المدافع العالمية (2 ,580) :

« Lears canons sont les plus grands, les mieux fondus, et les mieux moulez qui soinet dans tout le reste du monde » .

يسجل السائح الفرنسي Mourand في أواسط العصر 16 أن أكبر مسبك ومعمل للمدافع في العالم هو طوبخانة (معمل المدافع) استانبول (204, Jtinèraire) . كتب أولياء جلبي بأن معمل مدافع استانبول في أواسط العصر 17 ، كان ذا طاقة تمكنه من سبك 1060 مدفعًا دفعة واحدة . هذا عدا وجود معامل أخرى للمدافع ، وإحدى كبرياتها ، في بيره جك Birecik (نعيما ، 3 ,348) . كان هذا السلاح مجهولاً حتى أواخر العصر 17 ، في الأقطار التي لم تُدخل العثمانية فيها المدافع . يذكر أولياء جلبي عدم وجود المدافع في السودان ، وأنه استعمل من قبل الحكام تحت حماية العثمانية ، مجانق ترمي الحجر الملتهب (10 ,851) . إن المدفعية العثمانية ، أوقعت أعداءها في اليأس من ناحية العدد والجودة « L'Artillerie Turque remise en quantitè et Qualitè »

au premier range dans le monde », Grenard, P. 97) أكبر معامل البارود ، كانت لدي العثمانية (معامل بارود استانبول ، القاهرة ، سلانيك ، بلغراد) . وفي عام 1571 كان معمل بارود استانبول ، ينتج 300 قنطار (17 طنًا) من البارود شهريًا .

5 - المزايا الأخرى للجيش العثماني :

أشير كثيرًا إلى تفوق استحكامات العثمانية كذلك . وأصبح من المعروف أن مؤسس علم الاستحكام في أوروبا ، الماريشال الفرنسي Vauban كان قد درس استحكامات وخنادق العثمانية في كانديه (كريت) (1633 - 1707) وطبّقها لأول مرة في الجيش الفرنسي . كانت استحكامات العثمانية متقنة ، حتى في أواخر العصر 19 . كما أن تفوق مهارة ضبّاط الاستحكام العثمانيين في انتصار بلونة الثالث لغازي عثمان باشا ، لفت نظر الكثير من المؤرخين العكسريين .

« كان السلطان سليمان على رأس جيش ، يسبق كل جيوش العالم الأخرى بأربعة عصور من حيث تأسيسه وأسلحته . وكان الوضع نفسه بالنسبة لجميع الأقطار الغربية كالإمبراطورية الألمانية ، إيطاليا ، فرنسا وإسبانيا . (Benoist - Mechin ص 66 - 7) . كانت أجود الوحدات العسكرية الأوروبية السرايا الإسبانية ، المشاة السويسريين الرمّاحة تضطرب أمام الجيش التركي . كان أعظم جيش في العالم ، بلا شك . يعيش لأجل الحرب فقط . وجد لهذا السبب . جسور إلى آخر درجة . سلّح بشكل متفوق جدًا . تسانده مدفعية متمكنة . يتقاضى راتبه بشكل منتظم ، إعاشته كانت جيدة . إن نظامه الحديدي الصارم ، كان بدرجة لا يمكن أن تتصورها أوروبا . كان يتحرك كأنه ماكينة نصبت جيدًا بأمر واحد أو كأنه مخلوق حي ذو جسم واحد . كان السكون يسود الجيش . ولا يسمع أقل صوت . يتفق كل المشاهدين الأوروبيين في إيراد دهشتهم لهذا السكون المطلق (Les Dèbuts de L'Age Moderne, Henri Hauser ، باريس 1292 ، ص 394) .

كان عدد الجيوش البرية والبحرية التي تؤمن وقوف الإمبراطورية على قدميها خلال العصرين 16 - 17 ، يبلغ 500 ألف تقريبًا . إلا أنه لم يمكن في أي وقت من الأوقات ،

نقل هذا العدد من الجيش إلى أية جبهة من الجبهات بسبب اتساع رقعة الإمبراطورية وتناثرها . جرت أكبر الحروب بواسطة 100 ألف جندي تقريبًا . أمكن حشد 300 ألف جندي في جبهة واحدة . ومن المدهش حقًا أن تحكم أقطار واسعة كهذه ، بهذا العدد القليل من الجند . ويجب ألا ننسى كذلك أن الإنجليز حكموا الهند بعدد قليل من الجند .

أفاد الماريشال Kont Montecuccoli (1609 - 1680) القائد العام للإمبراطورية الألمانية وأحد مؤسسي العسكرية الحديثة في أوروبا ، بأنه لا يمكن الانتصار على الأتراك ما لم يؤسس جيش نظامي دائم في أوروبا كالأتراك ، وقد كتب ذلك قبل هزيمة فيينا (1683) (Mèmoires ، 1 ,222 - 3) ذكر مترجم عاصم أفندي (تاريخ 1 ، ,264 ,32) تعلم أوروبا أنها أخذت أصول الجيش النظامي الدائم عن العثمانية ومن ثم فقد بدأت بالانتصار على العثمانية .

إن الملاحظات التالية التي سردها الماريشال Montecuccoli أحد كبراء العسكريين في أوروبا خلال العصر.17 تستحق الذكر : « إن الدولة العثمانية إمبراطورية مقتدرة وقوية إلى درجة أن جيشها المكون من جنود لا يحصي عددهم والمدربين بشكل ممتاز ؛ مستعد للقتال في أية لحظة . إن كمية المهمات الثقيلة ومخزون إمدادات الأطعمة التي جلبها الأتراك إلى بودابست عن طريق الطونة في حملة 1660 لا يصدقها العقل . يستعمل العثمانيون ، خداع الحرب كذلك بكثرة . إن الخدع التي يستعملونها في حرب ما لا تشبه سابقتها . يذيعون في أوروبا أنهم سيحملون على البندقية ، وإذا بهم يظهرون في ترانسيلفانيا . أذاعوا خبر ذهابهم إلى مالطة ، لكنهم أنزلوا جنودهم في كريت . ينظمون الحرب ويعدّون لها العدة بشكل ممتاز . إن نظام حرب روما ، كان كذلك . يحفرون الخنادق ويجهزون الاستحكامات بشكل فائق . إخراجهم وقلعهم من هذه التحكيمات يكون أمرًا صعبًا . الجندي التركي يتحمل الشدائد ومن النادر أن يشكو » .

الجندي التركي ، يقتل في ساحة القتال ، لكنه لا يستسلم . لا يتكلم أبدًا في المسيرة ، يسمع صوت الأقدام فقط ، لا يخرب أدنى تخريب في الأماكن التي يمر بها .

لا يدخل حصانه في مزرعة أي مسيحي ، بل إنه لا يأكل العنب من كرمته ، يعدم الجندي ، إن كان في وقت حرب ، وإن كان في وقت سلم ، يطبق عليه الحد الشرعي . يسير أسرع من الجيش الأوروبي بثلاثة أضعاف . ورغم هذا النظام الصارم فإن العسكري التركي ، ليس شخصية سلبية . يعرف واجبه جيدًا ولا يألوا جهدًا في تنفيذه ، لكنه يعرف جميع حقوقه كذلك بنفس الدرجة . حركات العصيان لم تكن قليلة . لا يطأطيء رأسه إن اقتنع بأن حقه سلب . لا يترك حقه وفي هذه الحالة ممكن أن يعصي . لا تروقه الحروب الطويلة ، يريد إنهاء الحرب خلال موسم واحد ، ينسحب لقضاء الشتاء . وفي الموسم الثاني يعاود الحرب ثانية . إن الذي أجبر ياووز سليم على ترك إيران ومصر ، وجعل القانوني يترك فيينا ، هو عدم ارتياح الجيش ، لم تكن مسألة حقوق الجنود قليلة التأثير في الحد من الفتوحات العثمانية . مؤرخون قليلون ، انتبهوا إلى هذه النقطة . توجد 7 أسباب رئيسية لعظمة العثمانية ، أحدها ، الجيش العثماني (Fernard Grenard, Grandeur de l'Asie باريس 1939 ص 118 وما بعده) .

ويجب إضافة أن الجيش العثماني يحارب لأجل أن يصبح غازيًا ولأجل أن ينتصر . لم يتردد في الاستشهاد قيد شعرة ولم يتضعضع إيمانه بدخوله الجنة رأسًا ، قيد شعرة . حقيقة لا يمكن إنكارها وهي أن قوة الدين ، جعلت من الجندي العثماني شجاعًا جسورًا مخلصًا .

6 - تيمارلي سباهي :

« تيمارلي سباهي ، هو أحسن أقسام الجيش التركي . إن الذي فتح القسم الكبير نسبيًا من الكرة الأرضية ، هو هذا الجيش الخيّال » . هكذا كتب اللورد باول ريكوت Lord paul Ryeault (Ricaut) الذي مكث في تركيا مدة 20 سنة كدبلوماسي (1661 - 81) (514, 2) . الحقيقة أن تيمارلي سباهي ، هو الصنف الأهم والأكبر عددًا بين أصناف الجيش لعصور الفتوحات في التاريخ العثماني . إن هذا الصنف ، هو المؤسس الفعلي للدولة العثمانية العالمية العظمى

تيمارلي سباهي ، هو جيش خيال . هو أهم صنف خيالة في الجيش . منتشر في

كل أطراف الأناضول وروملي . لا يوجد في استانبول جنود من هذا الصنف . لا يتسلم راتبًا . تعطي الدولة تيمارلي سباهي ، بدلاً من ذلك قطع أرض تسمى ديرليك (بالعربية : إقطاع) . إذا كانت ديرليك صغيرة تسمى « تيمار » وإن كانت كبيرة تسمى « زعامت » . يسمى ضباط السباهية ذوو المراتب العالية الذين يملكون زعامت « زعيم » ، صاحب التيمار ، يجمع ضرائب حاصلات القرويين العاملين في قطعة أرضه ويأخذها لنفسه . وفي مقابل ذلك ، يشترك في القتال مع جنود خيالة وبتجهيزات كاملة بالنسبة إلى محصول قطعة أرضه . وفي ذات الوقت ، هو مسئول عن الأمن في الأراضي التي يديرها وقت السلم . إن التيمار (الإقطاعية) متفاوتة المساحة ، من الممكن أن تكون قسمًا من القرية أو كاملها أو من عدة قرى . لا يمكنه جباية ضرائب أكثر مما هو مقرر في القانون . إن كل سباهي ، عند إبلاغه بأمر القتال ، يذهب إلى المكان الذي يوجد فيه الزعيم ، بكامل تجهيزاته . يجمع الزعماء جنودهم في المكان الذي يوجد فيه آلاي بك (آمر الكتيبة) . بكوات الكتائب ، يذهبون بجندهم إلى السنجق بك (آمر اللواء) ، وهو بدوره يرسل الجنود إلى البلكربك (الفريق الأول) ، ويذهب الفريق الأول مع الجند إلى السرعسكر (القائد ورئيس أركان الجيش) وبذلك يكون قد تم تجميع الجيش . إن هذا العمل يجري ضمن مخطط معين وبسرعة لا يصدقها العقل .

هذا النوع من العسكرية ، اقتبس عن السلجوقيين ؛ كان للسلجوقيين نوعان من الجند ، تيمارلي وقابوقولو (رواتبهم من المركز) . « سباهي » ، كلمة فارسية تقابل « فارس » وتعني « خيّال » . تيمارلي سباهي ، لا يملك الأرض المعطاة لإدارته.صاحب الأرض ، هو الدولة والذي يخدم الأرض باسم الدولة هو القروي . التيمارلي هو الجندي الذي يجمع الضرائب في هذه الأرض ويؤمن نظام الدولة فيها . إذا مات التيمارلي ، يعطى التيمار ترجيحًا ، إلى ابنه ، أخيه ، ابن أخيه . إذا كان تيمارلي في الحملة ، يعيّن مكانه في التيمار وكيلاً يسمى « قوروجو » . لم يؤسس هذا النظام ، في جميع الإيالات وكان موجودًا على الأكثر في الأناضول التي تشكل نواة الإمبراطورية وإيالات روملي وسورية . فمثلاً ، لم يكن نظام التيمار موجودًا في أية إيالة من إيالات إفريقية ، ولا في إيالات يمن وبغداد .

كان يوجد في عهد القانوني ، العهد الذهبي لهذا الصنف ، 200 166 تمارلي سباهي ؛ 600 74 منهم في إيالة روملي و 000 91 في إيالة الأناضول . لا يخلط سباهية الأناضول مع سباهية روملي ، يدخلون ساحة القتال على شكل جناحين منفصلين . يسجل أولياء جلبي ، أن الدولة كانت تملك في 1650 قرابة 566 ألف جندي تيمارلي وعلوفه لي (الذين يتقاضون رواتب) ، إن وحدات الدول المستقلة ذاتيًا والمتطوعين ، والمساعدة ، خارج هذا العدد .

هذا الصنف من الجيش ، أخذ يقل بصورة مستمرة اعتبارًا من الربع الأخير للعصر 16 . والتيمار الأخير ، ألغي عام 1850 ؛ لأن أهمية المشاة أخذت بالازدياد على مر الزمن بالنسبة للخيالة .

سباهية التيمار ، خدموا في تتريك وإسلام الأناضول وروملي ، وعند رفع التيمار ، اختل نظام الأراضي العثمانية . أخذ مكان سباهية التيمار ، أناس ضبطوا هذه الأراضي بهذا الشكل أو ذاك . بدأ هؤلاء يزعمون أنهم أصحاب هذه الأراضي الشرعيون . إن كيفية حيازتهم هذه الأراضي في أواخر العصر 18 في روملي والأناضول مجهولة ،لكن المعلوم والمؤكد ، هو أن الزمرة المتغلبة التي ظهرت والتي سميت « ده ره بكي » (إقطاعيون) ، لم تمتلك هذه الأراضي لا عن طريق الفتوحات ولا عن طريق الشراء . لم يرحم محمود الثاني هذه الزمرة . وأصلحهم على نطاق واسع .

7 – حامية يني جري (الانكشارية) :

أسّس الحامية مراد الأول ووزيره الأعظم جاندارلي خير الدين باشا عام 1363 . كان يختار الأطفال الجيّدين من العائلات المسيحية الجيدة في روملي وبنسبة أقل في الأناضول وهم في سن صغيرة ، يدخلون الدين الإسلامي ويوزعون على عائلات الفلاحين الأتراك ذوي الاعتبار لبضع سنوات ، ليتعلموا اللغة التركية ، وأعرافها ، ثم يذهبون إلى الثكنات باسم « عجمي أوغلان » (شاب مستجد) ، يجرى تدريبهم العسكري هناك ويصبحون « يني جري عجمي أوغلان » أي شابا انكشاريا مستجدا

« جري » بالتركية ، تعني « جندي » (ومع أن صو « SU » باللغة التركية القديمة تعني « جندي » ، لكنها تعني أكثر من معناها السابق ، « أوردو = جيش » . إن كلتا الكلمتين لا تستعملان في التركية منذ عدة عصور) . يصبح الذين يبدون استعدادات متميزة من الإنكشاريين صوباي (ضابط) . وبإمكانهم أن يصبحوا جنرالات . لكن يرجح في الجنرالات أن يكونوا متخرجين في مدارس السراي ذات الدرجة المتوسطة ، وكذلك المتخرجون في أكاديمية اندرون السراي .

حامية يني جري ، كانت صنفًا من المشاة . بعض سراياها فقط كانت خيّالة . أعطيت لهم البندقية منذ العصر 15 . قلّت كثيرًا السرايا التي لا تعطي البنادق والمسدسات والسرايا التي تحارب بالسيف أو بالأقواس والنبال . ويمكن تعريف ذلك بشكل فرقة مشاة ثقيلة بالنسبة للمشاة الآخرين . كان جميع الإنكشارية من ذوي الرواتب وبضمنهم الشباب المستجدون . كانوا يتقاضون رواتبهم على حساب اليومية ، لكنهم يتسلمونها في كل ثلاثة أشهر بمراسم عسكرية . راتب الإنكشاري يسمى « علوفة » ، ومع أن الإنكشاريين كانوا موجودين في المدن الكبيرة كذلك فإن القسم الأكبر من الحامية كان في ثكنتهم الكائنة في استانبول . إن نظامهم وتدريبهم وتعليمهم شديد . وربما لا يطاق . غير مسموح بالزواج إلاّ للضابط . رواتبهم كانت عالية جدًا . يضمن القانون حقوقهم . هكذا كان صنف يني جري أوجاغي (أوجاق أو حامية الإنكشارية) ، أهم الأصناف العسكرية العثمانية الذين يطلق عليهم اسم « قابوقولو أوجاقلري » . إن كلمة قابو (باب) هنا ، تعني الدولة ورمزها الخاقان ، أي باب الخاقان .

شغل هذا الطراز من الجند كثيرًا ، وكثيرًا جدًا مخيلة الأوروبي منذ عصور . إن الأتراك بالنسبة للأوروبي يأخذون أطفال المسيحيين و « يصيرونهم أتراكًا » (كلمة « ترك » هنا تعني « مسلم ») ، ثم يجعلونهم يقاتلون المسيحيين ويفتحون الأقطار ؛ ولذا فقد اهتموا بالإنكشارية اهتمامًا كبيرًا . كثير من الأوروبيين حسبوا أن الإنكشارية يشكلون معظم الجيش العثماني تقريبًا . إن كثرة تكرار اسم هذا الصنف في التاريخ العثماني ، سببها كونهم جنود المركز . إنهم في استانبول كانوا دائمًا هم الذين

يقومون بالثورات . إن جميع السباهية المنتشرين في كل أنحاء الإمبراطورية والأصناف الأخرى قاموا بواجباتهم فقط ولم يتدخلوا في السياسة . أما التاريخ العادي فإنه يهتم دائمًا بالحوادث غير العادية ، والثورات التي تفقد السلاطين عروشهم ، وتفقد البعض منهم حياتهم ، وتسبب قطع رءوس الوزراء ، تأتي في قمة الحوادث غير العادية في التاريخ .

إن هذا الطراز من جيش قابوقولو كان موجودًا لدي السلجوقيين كذلك . لا شك أن مراد الأول كان يعلم النظام السلجوقي . وعندما خطا نحو الإمبراطورية وجد ضرورة في إنشاء نظام عسكري على هذا النمط .

جذبت الإنكشارية رغبة العديد من الكتاب بسبب تشكيلاتها الخلابة جدًا والمعقدة المراسم ، وكذلك لكونها أمام الأنظار في استانبول . لكن صنف الانكشارية ، كان في العصر 16 ، الذي جرت فيه الفتوحات الكبيرة ، عبارة عن فرقة خاصة واحدة ثقيلة ، ويشكل قسمًا صغيرًا جدًا من الجيش . وبناء علي ذلك فإن الفتوحات العثمانية ، لم يحققها الإنكشاريون كما يظن الكثير من المؤرخين ، بل حققها السباهية والآقينجي (المغاوير) . وفي الحقيقة أيضًا ، فإن أعدادهم التي سنذكرها فيما بعد تبين وضعهم في الجيش . وفي الحقيقة فإن عدد الإنكشارية كان يزيد كلما قل عدد الجنود الخيالة الذين يسمون سباهي وآقينجي ، وصاروا في دور الانحطاط أكبر صنف عددًا . ولانتهاء عادة جمع أولاد المسيحيين الذين يسمون « دوشيرمه » في هذا العصر ، فإن إنكشارية العصر الأخير كانوا من أولاد الأتراك من الروملليين (بالنسبة إلى روملي) ، الأناضوليين ، الاستانبوليين . دامت الحامية مدة 463 عامًا حتى إلغائها (1826) مع حاميات قابوقولو الأخري بصورة دموية ، على يد محمود الثاني .

8 ـ جنرالات وضباط الإنكشارية :

إن قائد الحامية يني جري أغاسي ، عسكري ، عضو في ديوان مايون (مجلس الوزراء) ، برتبة بكلر بك (فريق أول) ، يسمي « أغا » ومنح بعضهم مرتبة وزير (ماريشال) ، ويلقب هؤلاء « باشا » أو « أغا ـ باشا » . يمكنهم التكلم والتصويت في الديوان حول الموضوعات التي تهم حاميتهم ، الجيش والحرب فقط . لا يمكنهم

التصويت كالوزراء في كل موضوع.. ويتضح من ذلك أنه ناظر من الدرجة الثانية .

أكثرهم متخرجون فى الأندرون ، مقربون إلى السراي ، سياسيون أكثر مما هم عسكريون . يرقّعون ويصبحون وزراء .

كثيرون من الصدور العظام كانوا قبلاً رؤساء إنكشارية ، وبالنسبة إلى **سلطان سليمان قانون** – نامه سي (دستور السلطان سليمان) (ص 29) ، يتسلمون راتبًا يوميًا قدره 400 آقجه وتعادل 60 ألف دولار في الشهر بالسعر الرائج الحالي . يسكنون في قصور كبيرة تسمى « أغا سرايي » ويوجهون الحامية من هناك . كانت في العصور الأخيرة في منطقة السليمانية ، وأصبحت في عام 1826 مشيخة (مقر شيخ الإسلام) (حتي 1922) . يشكل مع جنرالات الإنكشارية التابعين له « أغا ديواني » (مجلس الأغا) لإعطاء القرارات في المسائل التي تتعلق بالحامية ، ويحيل القضايا التى تتجاوز صلاحياته إلى الديوان الهمايوني (مجلس الوزراء) . ألغى السلطان محمد الفاتح مقام رئاسة الإنكشارية (الأغا) في 1451 م لغضبه من تصرف الإنكشارية القليل الأدب أثناء اعتلائه العرش . أعاد تأسيس المقام حفيده ياووز . ولذا فقد ترأس الحامية التي ظلت 64 عامًا بدون أغا الإنكشارية ، الجنرال المسمي سكبانباشي .

كان أول أغا إنكشاري منح مرتبة وزير ، سليمان كنعان أغا – باشا (شباط 1653) جرى في هذا المقام 275 تغييرًا خلال 311 سنة (1515 – 1826) . اعتلى بعض الأغوات هذا المقام مرتين واعتلاه واحد منهم 3 مرات . 29 أغا حصلوا على مرتبة وزير ؛ 3 منهم ظلوا في هذا المقام أطول مدة وهي 9 و7 و 6 سنوات . 25 أغا أصبحوا فيما بعد صدورًا عظماء . بعضهم توفي أثناء الخدمة ، وبعضهم استشهد ، وأولهم شجاع الدين أغآ الذي استشهد في فتح المجر . وحتي نهاية العصر 16 (1594) كان أغا الإنكشارية يخرج إلى الحملة مع البادشاه فقط . وإن كانت قيادة الجيش لدى الصدر الأعظم ، يشترك الإنكشارية في الحملة بقيادة سكبانباشي . ويبقى أغا الإنكشارية برفقة البادشاه في استانبول . وبسبب قلة خروج السلاطين إلى الحملات بعد العصر 16 ، أصبح أغوات الإنكشارية يشتركون في الحملات بجانب الصدر الأعظم (نعيما ، 95, 1) .

سكبانباشي (بلغة الشعب : سيمنلر باشي) ، هو الجنرال الكبير الثاني للحامية ، أدار سكبانباشي الحامية مدة 64 عامًا من 1451 إلى 1515 بسبب إلغاء أغوية الإنكشارية في **فاتح قانون ـ نامه سي** .

كان يتقاضى في العصر 16 راتبًا يوميًا قدره 70 آقجه وتعادل بالسعر الرائج الحالي 5 600 دولار شهريًا . كانت له مخصصات إضافية سنوية قدرها 20 ألف دولار . وظهر بين السكبانياشي جنرالات مقتدرون كثيرون ، رجال حرب ، وبعضهم شغل فيما بعد منصب الصدر الصدر الأعظم . يدير سكبانباشي الحامية من الناحية العسكرية بصورة مباشرة بسبب كون أغا الإنكشارية وقول كتخداسي شخصين سياسيين . كان هو رئيس الأركان الحقيقي لأغا الإنكشارية . كان بدرجة سنجق بك (لواء) . وفي حالة ترفيعه يصبح أغا إنكشاريًا ،وبك على لواء كبير ، وبعد العصر 17 بكلربك .

قول كتخداسي أو كاهيه بك ، هو الجنرال الثالث للحامية . وخلال بعض الفترات تقدّم على سكبانباشي وأصبح الشخص الثاني . هو برتبة لواء وفي حالة ترفيعه يصبح بكلر بك . كان راتبه في العصر 16 بالنسبة للسعر الرائج الحالي 2 800 دولار شهريًا (35 آقجه يوميًا) . تقدم على السكبانباشي في النصف الثاني من العصر 17 . كان مسئولاً عن ثكنات الإنكشارية الموجودة في استانبول ، وعن حاميتها ، وكذلك عن أمن المدينة (562, 2, Ricault; 314, 7, d'Ohsson) .

يني جري كاتبي (كاتب الإنكشارية) وبلغة الشعب يني جري أفنديسي (أفندي الإنكشارية) ، هو الجنرال الرابع للحامية . لكنه ليس انكشاريًا وليس عسكريًا وهو لواء مالي يعينه الصدر الأعظم . ميزانية الحامية العظمي والمصروفات والرواتب كلها في عهدة هذا اللواء المالي . أصبح عملاً خطرًا بعد أن صارت حامية الإنكشارية وكرًا لسوء التصرفات اعتبارًا من أواخر العصر 16 . كان تحت إشرافه 100 كاتب ، كان راتبه عاليًا (يعادل 650 5 دولارًا بالسعر الحالي) . شغل « عالي » أكبر مؤرخ في العصر 16 هذا المنصب .

قورنا جيباشي ، هو الجنرال الخامس للحامية (564, 2, Ricault) . وكان في الحقيقة قائد الأورطة (سرية الإنكشارية) الثامن والستين إلا أن هذه السرية يديرها أحد

الرواد وكالة عنه ، ويعمل التورناجيباشي في المقر . **سامسونجي باشي** هو الجنرال السادس وكان في الحقيقة ، قائدًا للأورطة الـ 71 **زاغارجي باشي** ، هو الجنرال السابع وكان في الحقيقة قائدًا للأورطة 64 . هؤلاء الجنرالات الثلاثة ، يصبحون في حالة ترفيعهم سنجق بك على أحد الألوية الممتازة أو رأسًا بكلربك على إحدى الايالات .

صولاقباشي : ورغم أنه الجنرال السادس في الحامية ، فإنه في الحقيقة ، أحد قواد الخاصة التابعين لشخص البادشاه .

أورطات (سرايا) الإنكشارية الـ 60, 61, 62, 63 هي من سرايا الصولاق وتشكل قسمًا من جنود معيّة السلطان . كان صولاقباشي ، قائدًا على هذه السرايا . كان حملة ألقاب صولاق يرتدون الملابس المزينة بالجواهر ويرافقون البادشاه ويشتركون في القتال بصورة فعلية ، وهؤلاء يجب أن يكونوا ذوي مظهر خارجي أنيق ، مهرة في استعمال الأسلحة . كان لدى القانوني 400 صولاق من هذا النوع . لم يكن بالإمكان الاقتراب من البادشاه في ساحة القتال قبل أن يقتل جميع هؤلاء الصولاق . إن جنود الخاصة ، كانوا يضعون على رءوسهم (صورغوج) شارات مزينة بالرياش النادرة ، حتى عام 1922 . وكان لباس رأس الصولاق كذلك مزيّنًا بهذه الشارات « صول » تعني يسار ، و « صولاق » بمعنى أعسر ، أي الشخص الذي يستعمل يده اليسرى وسموا بهذا الاسم لتمكنهم من استعمال السلاح بأيديهم اليسرى لئلا يديروا ظهورهم نحو البادشاه في الحرب .

باشخاصكي ، الجنرال التاسع والأخير للحامية . هو قائد السرايا 14, 49, 66, 67 المؤلفة من جنود الحرس السلطاني الذين يسمون « خاصكي » راتبه الشهرى 200 2 دولار .

باشجاووش ، أهم عقيد يلي الجنرال التاسع للحامية . ويجب ألا نخلط بينه وبين « جاووشباشي » وهو ضابط مراسم الحامية بالاشتراك مع مقدمين اثنين يسميان أورطه – جاووش وكوجوك – جاووش . وإذا رفّع يصبح باشخاصكي .

محضر باشي : هو المقدم الثالث للحامية ، يعمل في الخدمة المباشرة للصدر الأعظم مع 60 إنكشاريا يسمون « محضر » ، وهو العسكري الحارس (حرس) له وفي الوقت

نفسه ينفذ أوامره (324, 7, d'Ohsson) .

كتخدا يرى ، هو العقيد الثالث . معاون قول كتخدا .عندما يرفع، يصبح « محضر باشي » . راتبه 1 600 دولار .

ديوه جيباشي ، هو العقيد الرابع . ويسمى كذلك « باشديوه جي » (رئيس الجمّاله) بالفارسية « سر شتربان » . كان رئيسًا لـ 25 أورطة يقومون بنقل حاجيات الحامية بالجمال .

باشياياجي ، العقيد السادس . وهو في الحقيقة ، كان قائدا للسرية 101 . وكان يشرف على معامل البنادق للحامية .

عسى باشي ، المقدم السادس . قائد الانضباط للحامية ، رئيس الشرطة العسكرية .

بيك باشي ، العقيد السابع . قائد جماعة « البيك » وهم جنود الخاصة للبادشاه .

باشبولوكباشي ، العقيد الثامن . قائد سرايا الإنكشارية الخيّالة .

زمير كجيباشي ، العقيد التاسع ، قائد سرية الزمبر كجي الـ 82 ، والزمبرك ، عبارة عن مدفع هاون صغير يحمل على البغال .

تعليمخانه جيباشي ، العقيد العاشر . المسئول عن تدريب الأسلحة لأفراد الحامية .

آوجيباشي ، العقيد الحادي عشر وهو كذلك ضابط تدريب ، للتدريب بالأسلحة النارية فقط .

تفنكجيباشي ، العقيد الثاني عشر . ويقوم بفحص بنادق الإنكشارية . (أعطيت البنادق للإنكشارية عام 1 500) .

باشتفنكجي ، العقيد الثالث عشر . وهو المهندس المسئول عن صناعة البنادق للحامية .

يني جرى أمامي ، العقيد الرابع عشر والأخير . رجل دين وليس عسكريًا .

الإنكشارية الآخرون ، وكان عددهم أكثر من 200 رائد ، وعدد كبير من الضباط

ذوي الرتب الصغيرة . وبينما كان يقال شوربة جي ، لقواد الأورطة (السرية) ، وفي بعض السرايا ، ياياباشي وباشبولوكباشي ، أخذ مكان هذه الألفاظ كلمة « بكباشي » اعتبارًا من النصف الثاني للعصر 18 . كان النقيب معاون قائد السرية يسمى « باشقره قوللوقجي » . ويسمي الذين يحملون رتبة جاووش « قره قوللوقجي » . لكل سرية ، إمام ومؤذن .

كان جنرالات الإنكشارية الـ 9 الذين سلف ذكرهم ، والـ 14 عقيدًا ينتعلون الأحذية الطويلة (الجزمة) الصفراء ، بينما الضباط الآخرون ينتعلون الجزمة الحمراء ، أما غير الضباط فكانوا ينتعلون الأحذية السوداء .

كانت الملابس الرسمية لجميع الضباط والجنود من الجوخ الثمين جدًا المحيك من صوف أحمر (قرمزي) ، ولا تلبس الملابس الرسمية التي سقط خملها وفقدت لمعتها . كان للضباط ملابس خاصة للمراسم . كان لكل سرية علامة تبين رمزها الخاص .

استمر نظام الدوشيرمة (أخذ الأطفال المسيحيين الصغار وتربيتهم عسكريًا) مدة 220 سنة (1363 - 1583) . وجرت دوشيرمة لعدة مرات فقط بعد 1583 ، وآخر دوشيرمة جرت في 1703 ، وكان عدد الأطفال 1000 طفل (هامز 17,130) بعد ذلك بدأ الأطفال الأتراك بدخول تشكيلات الإنكشارية ، ولكن لم يطبق على هؤلاء نظام الدوشيرمه . يسجل d'Ohsson أنه شاهد عدة زنوج إنكشاريين ، لكنه لا يوجد أي ضابط زنجي (7 ,326 - 9) . كان المتطوعون الأتراك من أهالي المراكز الكبيرة كالقاهرة ، الشام ، بغداد ، بودين ، يدخلون تشكيلات الإنكشارية . أصبح تقليل عدد الإنكشارية ، اعتبارًا من العصر 17 وإلى نهايته ، من أهم مشاكل الدولة، قلّص السلاطين المصلحون والصدور العظام هذا العدد ، لكن العدد تضخم بعد ذلك مجددًا . كان عددهم أيام الفتوحات قليلاً ومعقولاً : 000 3 في 1 451 ,000 10 في 1 477 ,000 8 في 1 481 ,000 8 في 1 520 ,000 12 في 1 526 ,357 13 في 1 560 ,798 12 في 1 567 ,599 13 في 1574 ,900 12 في 1582 ، ثم ازداد بسرعة وأصبح 100 26 في 1595 ,000 31 في 1597 ,000 35 في 1598 ,627 37 في 1609 ، ونتيجة لتدابير مراد الرابع 000 17 في 1640 ، 000 81 في 1656 ، ونتيجة لإصلاحات كوبرولو 078 39 في 1663 و 374 26

في 1679 ,974 31 في 684 1 ,394 70 في 1687 ، وبإنقاص عددهم على يد كوبرولو – زاده أصبحوا 000 40 في 1689 ,000 70 في 1699 ، وبتدابير عموجه – زاده انخفض العدد إلى 000 40 في 1700 ,818 21 في 1706 ,188 34 في 1750 ,456 64 في 1804 ، وكان عددهم المثبت على الورق عام 826 1 ,000 100 لكنه ارتفع لفترة إلى 000 120 .

كان الإنكشارية يرسلون للخدمة في الخارج لمدة 3 سنوات ثم يعودون إلى استانبول . رواتبهم تزداد في الخارج (جودت باشا ، **تاريخ عسكري عثماني** ، 105) كانت حاميات الإنكشارية الموجودة في الإيالات البحرية من أفريقية الشمالية (جزائر ، تونس ، طرابلس = ليبيا) حاميات مستقلة عن الموجودة في استانبول . أسست على نمط تشكيلات الإنكشارية في استانبول من المتطوعين الذين ذهبوا من الأناضول الغربية إلى هناك . سمّي أولاد هؤلاء من البنات العربيات والبربريات « قول أوغلي » ، وقد شكل هؤلاء كثافة سكّانية غير قليلة في بعض مدن أفريقيا الشمالية .

كان راتب المتقدمين من جنود الإنكشارية في العصر 16 ، ما يوازي 250 1 دولارًا بالسعر الحالي . تؤمن الدولة طعامهم ، وشرابهم ، وتدفئتهم ، وسكناهم ، ولباسهم . كانوا يتسنمون حصة من الغنائم . وفي الخدمات فوق العادة ، يمنحون العطايا . يحال الإنكشاري الذي يصاب بعاهة بدنية في الحرب ، إلى التقاعد براتب 800 4 ، إن كان جنديًا ، وبراتب 000 19 دولار إن كان عقيدًا ، ويتسلم هذا الراتب طيلة حياته .

كانت ثكنات الإنكشارية في استانبول تحتوي على 184 اسطبلاً ، 90 ساحة ، 20 قصرا ، 689 صالة مجهزة بوسائل الراحة ، وعدد كبير من المساجد . كانت الجدران مكسوة بالحجر الخزفي (الصيني) ، وكل غرفة تحتوي على فوانيس عديدة (,213 - 3 1, Journal. Galland) . صرف محمود الأول مبلغ 120 مليون دولار بالسعر الرائج الحالي لتجديد إنشاء أكبر ثكنة للإنكشاريين في ميدان آقسراي ، احترقت عام 1751 في آت . كانت فرقة إطفاء الإنكشارية تحتوي على 531 طلمبة جي (أفراد الإطفاء الذين يحملون ويستعملون آلة ضخ الماء) .

وعلى مر الزمن ارتفع عدد سرايا الحامية التي كانت في الأصل 80 ، إلى 162 . كل

سرية (أورطة) كانت تحتوي على 9 ضباط على الأقل . خيامهم حمراء . وفي الحملات كان مكانهم في منتصف قلب الجيش .

9 - قابوقولو سباهي :

أهم حامية بعد حامية الإنكشارية هي حامية قابوقولو ، سباهي قابوقولو . يجب أن تفرق بين هذا الصنف وصنف تيمارلي سباهي . كانوا في البداية « دوشرمة » ثم أخذوا في قبول الأطفال الأتراك في أواخر العصر 16 . كانت هذه الحامية ، أكبر منافس للإنكشارية في إستانبول . لذا لم يتدخلوا في كثير من حوادث العصيان ، وفي بعضها وقفوا ضد الإنكشاررية . كان صنفًا ممتازًا يتقاضى راتبًا أعلى من الإنكشارية ، يدربون ليكونوا فرسانًا ورماة للرمح ومقاتلين بالسيف مهرة .

وهي فرقة خيالة مكونة من 6 كتائب . أسماء الكتائب الست بتسلسل أهميتها هي : سباهيلر ، سلاحدالر ، صاغ علوفة جيلر ، صول علوفة جيلر ، صاغ غريبلر ، صول غريبلر . إن رتبة كل من قائدي الكتيبتين الأوليين لواء ، ويمثل الحامية قائد الكتيبة الأولى المسمى « سباهيلر أغاسي » .

كانت الكتيبة الأولى المسماة « سباه بولوكي » أي فصيلة السباهية ، أرفعهم اعتبارًا ورايتها حمراء اللون . أسسها فاتح بجمع أولاد كبار رجال الدولة وقوادها . إن مكان هذه الكتيبة ، في القتال ، خلف الحاكم أو السردار (القائد) ، تحمي خلفيته وتهتم كذلك بالرايات . تحرس السرادق الهمايوني ليلاً بالتعاون مع كتيبة سلاحدار بالمناوبه . « سلاحدار آلايي » (كتيبة سلاحدار) ، كانت ذات راية صفراء ، تتقدم الجيش لاستطلاع الطرق التي سيسلكها الجيش .

قلّت أهمية سباهي قابوقولو بعد 1 660 . رغب الكل في الانتساب إلى الإنكشاريين . وأساسًا كان قد بدأ الانحطاط في أصناف الخيالة جميعها .

كانت كل كتيبة تحتوي على عقيد واحد ومقدمين اثنين وثلاثة رواد . وكل كتيبة تنقسم إلى فصائل . عدد هذه الحامية ، كان 8 000 في 1453 و 5 885 في 1566 وارتفع إلى حده الأعلى وبلغ 51 000 في 1655 ، و 15 177 في 1660 ، و 22 169 في 1713 .

ثم قل كثيرًا . وقف بجانب الدولة في الواقعة الخيرية عام 1826 و لم يشترك في عصيان الإنكشارية . ورغم ذلك ، ألغاه محمود الثاني كجميع حاميات قابوقولو . .

10 – المدفعيـــة :

هو صنف قابوقولو الذي يستعمل المدافع . تمت الموافقة في دور مراد الأول (1362 - 1389) على إدخال المدفع كسلاح من أسلحة الجيش واستعمل في الحرب الميدانية كوسوفا عام 1399 .

لكن استخدام المدفع كسلاح لا يمكن الاستغناء عنه في الجيش وبنفس الدرجة من الأهمية في البحرية ؛ تحقق في 1453 . شيّد القانوني (1520 - 1566) معملاً كبيرًا لصنع المدافع وبجواره ثكنة لجنود المدفعية على الجانب الأوروبي من مدخل المضيق ، وقد بقيت قيادة مدفعية الإمبراطورية فيها حتى 1922 ، وسميت المنطقة « طورخانة » جدد سليم الثالث (1789 - 1807) الثكنة .

كان للحامية 6 ضباط برتبة لواء . كان « طوبجيباشي » (قائد المدفعية) ، أعلى قائد للحامية . وكان آمر الطوبخانة أكبر معمل أسلحة ثقيلة في العالم لعدة عصور ـــ هو « دوكمجيباشي » (رئيس السبّاكين » ، كان مهندسًا . يليه طوبجيلر كتخداسي أو (أوده باشي) ، هو معاون القائد . ثم يليه طوبجي كاتبي (أو أفنديسي) ، وهو جنرال مالي . يليه دو كمجيلر كتخداسي (ومعاون السباكين وأمين الطوبخانة) . (2 , Ricaut 580,)

كان للإمبراطورية ـــ عدا « [illegible] استانبول ، 7معامل أخرى (بلغراد ، باج Bac قرب سمندرة ، بودين اشكودرا ، P[illegible]iste قرب دراما ، تامشوار وفي كولانبرد على الحدود الإيرانية) . كان يوجد في مركز كل إيالة مسابك صغيرة ومصانع تصليح المدافع . كانت توجد 6 معامل لصنع قذائف المدفعية (يلة جك ، وأن ، كيغي Kigi ، Kamengrad قرب Banyaluka في بوسنه ، وفي Novaber على ساحل مورافا وفي نخ) . تجمع القذائف التي تصنع في هذه المعامل في 4 مخازن (ازميت ، بازارجك ، يني شهر ، ادينجك) وتوزع على الأماكن التي تقتضيها الحاجة . كان مخزون القلاع

الكبيرة هائلاً . فمثلاً كان يوجد في قلعة بلغراد عام 1697 حوالي 168 000 قذيفة مدفع بأحجام مختلفة . كان بالإمكان صنع مدافع ذات أقطار كبيرة جدًا أدهشت الأوروبيين . كانت توجد مدافع عيار 76 – م .

كان باستطاعة معمل عتاد واحد ، صنع من 20 ألفًا إلى 24 ألف قذيفة سنويًا . مادته الأساسية الحديد ، يخلط النحاس والقصدير بنسب معيّنة ويوضع البارود . قل استعمال القذائف الحجرية علي مر الزمن . أصغر القذائف ، من زنة 320 غم وتستعمل للمدافع المسماة « شاهي » . كانت تحمل مدافع الشاهي علي البغال ويمكن أن يديرها شخصان . كانت السفن النهرية المسمّاة « اينجه دوناتما » مسلحة بمدافع شاهي .

وقبيل 1640 م . كان لدى الإمبراطورية 17 045 مدفعًا فعّالاً . كانت هذه المدافع تحت سيطرة طوبجيباشي . المدافع القديمة التي ترسل إلى المعامل لإذابتها لفقدها قياسات أقطارها أو التي تستعمل كزينة خارج هذا العدد (تصريح طوبجيباشي علي بالي بك إلى أولياء جلبي : 440, 1 (انظر Muhimme ,12 ,28) .

كان القانون يحظر علي أي فرد في الدولة العليّة أن يمتلك قلعة ولا يمكنه إنشاء قلعة إلاّ باسم البادشاه ، كما كان يحظر علي أي فرد أن يمتلك مدفعًا ، ولا يمكنه كذلك أن يصنّع مدفعًا .

كان باستطاعة المعمل الواحد أن يسبك 320 مدفعًا في السنة . أعلي إنتاج ، كان في طوبخانة إستانبول . كان عدد المدافع في القلاع الضخمة كبيرًا جدًا . كان في قلعة بغداد عام 1685 ، حوالي 2191 ، وفي البصرة 182 ، وفي الشام 277 ، وفي قلعة خانيا في كريت 245 ، وفي قلعة كانديه 307 ، وفي ميدلّي 289 مدفعًا .

كان القانون ينص علي التدريب علي الرمي مرتين في الأسبوع ، لتدريب المدفعيين ، ونقل الذين لا يوفقون من الجنود إلى أصناف الجيش الأخرى . كانت الحامية في أواسط العصر 17 تتكون من 52 فصيلة ، ارتفعت بعد ذلك إلى 72 فصيلة . كان راتب الطوبجيباشي الشهري في أواسط العصر 16 ، حوالي 9 000 دولار بالسعر الرائج حاليًا وراتب كل من الجنرالات الخمسة الآخرين 4 000 دولار . كانت رواتب جنود المدفعية ، في دور القانوني كذلك ، أكثر من رواتب الإنكشارية وتتراوح بين 6 و 8

آقجه يوميًا (تعادل 960 إلى 1 280 دولارًا شهريًا) . قليلون منهم كانوا دوشيرمه (من [illegible]) [illegible] يقبل المتطوعون في هذه الحامية . كان للحامية تشكيلات صحية ،

التزمت هذه الحامية جانب الدولة في الواقعة الخيرية . بدّل محمود الثاني ، اسم الحامية وحافظ عليها بإجراء تغيير طفيف ، لأن ضباط هذا الصنف لم يكونوا آلايلي (الذين تدرجوا في مراتبهم في وحداتهم منذ أن كانوا جنودًا) كما في الحاميات الأخرى ، وإنما كانوا ضباط مدفعية مهندسين من متخرجي مهندسخانه بريء همايون (كلية الهندسة البرية الهمايونية) التي فتحت منذ أكثر من نصف قرن . غيّر محمود الثاني ، الذي ألغى مقام طوبجيباشي ، اسم قيادة الحامية إلى « فريقية طوبخانة » وعين على رأس هذه التشكيلات نعمان أغا آخر طوبجيباشي ، بعد منحه لقب « الفريق نعمان باشا » . أسست بعد ذلك مشيرية الطوبخانة العامرة بعد دمج المعامل العسكرية بالمدفعية وأدخل هذا المشير إلى الوزارة كوزير عسكري ثالث .

كان عدد الحامية 5 000 تقريبًا . ومن ناحية أخرى ، كان يوجد خارج المدينة 2 000 مدفعي تمارلي تقريبًا .

11 – حامية سائقي عربات المدافع (طوب عربة جيلري أوجاغي) :

حامية طوب عربة جي أو بالاختصار عربة جي ، ذات علاقة بحامية الطوبجي (المدفعية) لكن هذه الحامية كانت صنفًا صغيرًا لقابوقولو مستقلاً عنه . أسس مراد الثاني (1421 - 1451) حامية المدفعية ، وأسّس بيازيد الثاني (1481 - 1512) سواق عجلات المدافع بفصلها منها . كان قائد الحامية عربة جيباشي آغا ، ثم صار عقيدًا ولواء . واجب الحامية ، نقل المدافع من مكان إلى آخر ، وإلى الجبهة . كان للحامية 3 عقداء ووحدات نجارة ، وحدادة ، ونعالة . كان عددهم 678 في 1550 ، و 400 في 1574 ، و 282 في 1660 و 4 414 في 1820 . وفي الواقعة الخيرية ، ربطت بفرقة المدفعية .

12 ـ حامية همبرة جي (قسم القنابل اليدوية) :

« همبرة » والتي يطلق عليها باللهجة الشعبية « قمبرة » ، هي قنبلة يدوية . وهناك قنابل ترمى بواسطة البندقية . كانت ثكناتهم ومعاملهم في اسكدار . كان عددهم 601 في 1733 . كانوا ينقسمون إلى 6 فصائل (أوده) كان قائدهم ، العقيد المسمى همباراجيباشي . أول تعليم على الطراز الأوروبي لهذا الصنف ، جرى في 1728 . أولى سليم الثالث عناية خاصة بهذا الصنف في النظام الجديد. حضر تدريبات الرمي والمناورات مثل عمه عبد المجيد الأول (جودت 3 ، 85 ؛ صبحي ، 58) .

13 ـ حامية لغمجي (قسم الألغام) :

هو صنف استحكام . كلمة « لغم » تعني النفق الذي يفتح في حروب القلاع تحت الأرض . رتبة لغمجيباشي (قائد صنف الألغام) ومعاونه عقيد . عدد أفراد الحامية حوالي 5 000 . بعض فصائله تنقسم إلى أقسام تخصصية كأصناف إقامة الجسور ، القلاع ، الخنادق . كانت قدرة الحامية في المعدات ، كبيرة . كان لديهم بصورة دائمة مخزون كبير من البارود ، الفتائل ، القطران ومعدات أخرى كثيرة . خدم في صنف الاستحكام العثماني ضباط مهندسون قديرون . كان المعمار سنان ، ضابط استحكام من قسم إقامة الجسور في الجيش العثماني في فترة شبابه . كانت الهندسة العسكرية (الاستحكام) التركية ، متفوقة . إن مؤسسي الهندسة العسكرية الحديثة في أوروبا ، هم الأتراك أيضًا . المهندس الفرنسي الجنرال Vauben الذي يعتبر أبا الاستحكامات الحديثة في الجيوش الأوروبية ، استعمل لأول مرة ، في قلعة Maestrichl في هولندا عام 1673 ، فن الاستحكام على الطراز التركي بعد أن درس فن الموانع والتحصينات الهندسية التركية ضمن الوحدات الفرنسية التي حاربت الأتراك سنين عديدة ، في كانديه في كريت ، وعلى أثر إحرازه النصر ، وافقت جميع الجيوش الأوروبية الرئيسية ، في أواخر العصر 17 ، على استخدامه **(96, 6, Histoire General Lavisse - Rambaud** (كانديه لغم محاربه لري أوزه رنده كيش تفصيلات : راشد ، 1 ,167 - 84) .

14 – حامية جيبة جي (قسم التجهيزات العسكرية) :

صنف تجهيزات الجيش . هو الصنف الأخير من حاميات القابوقولو الـ 7 . واجبه جمع أسلحة حامية الإنكشارية بعد الحملات ، إصلاحها وصيانتها . يقومون بتوزيعها والعناية بها في الحملات . وفي الوقت نفسه ، يشتركون في القتال بصورة فعلية . عنايتهم بأسلحة الإنكشارية فقط . كانت الأصناف الأخري ، تقوم بصيانة أسلحتها بنفسها . لذا فقد كانت هذه الحامية التي ذات ارتباط وثيق بالإنكشارية . كلمة « جيبة » تعني باللغة التركية القديمة « درع » . ثم استعملت كلمة « جبة خانة / جبخانة » في اللغة التركية للتعبير عن « ذخيرة الأسلحة النارية » .

كان بحوزة هذا الصنف ، ألوف من الجمال والبغال . ينص القانون على تسليم أسلحتهم إلى الإنكشارية ، قبل دخولهم أراضي العدو . هذا الصنف هو الذي قام بالثورة المشئومة التي أنتجت واقعة أدرنة . هي حامية قابو قولو الوحيدة التي أيّدت – عدا ضباطها ذوي الرتب العالية – الإنكشارية في الواقعة الخيرية ، أعدم على أغا آخر جبة جيباشي (**اس ظفر** ، 251) .

كان عددهم 789 في عام 1566 ,00 8 في 1748 . كانوا كثيرين خارج استانبول . وفي السنوات الأولى من القرن 19 ، كان مجموعهم في القلاع 1560 ، كان 504 منهم في بغداد ، 155 في وان ، و162 في قارص .

كانت ثكنتهم مقابل أيا صوفيا ، وحاليًا سراي العدل (**200, 58, muhimme, 2 - 581, 2, Ricaut**) . كانت رتبة جبة جيباشي تعادل رتبة لواء. وله 5 عقداء . كان معمل الحديد الموجود في Samako في بلغاريا ، يصنع لحامية جبة جي المعاول ، المجارف الأنابيب ، المطارق الحديدية الضخمة إلخ .. كان هناك معمل آخر للحديد في أدرنة . ومعملان للأقواس والسهام في إستانبول وغاليبولي . ومصنع واحد للسباكة في كوسنتجه . ومع ذلك ، كانت تشتري معدات من القطاع الخاص كذلك . مثلاً ، كان قد قدم عرضا من أحد المعامل الشخصية في عام 1511 لصنع 780 ألف سهمًا . كان لدى الجبة جي كميات كبيرة من المعدات الاستحكامية . مثلاً ، أرسلوا لمحاصرة

فارادين عام 1694 ، حوالي 30 ألف مجرفة و 16 ألف معول وآلات أخرى . كانت الحامية مؤلفة من 60 فصيلة من بينها سرايا مختصة بالبارود ، كانت المدفعية تطلب البارود وزيت الزيتون من صنف جبه جي ، في حالة من نفاذه . اختار محمود الثاني من صنف جبه جي ، بعد الواقعة الخيرية 1064 جنديًا وضابطًا وشكل جبه جي خانه همايون ، وقد تطورت هذه التشكيلات كثيرًا في دور التنظيمات وألحقت بمعمل المدافع الهمايوني .

15 – نبذة عن الأسلحة النارية لدى العثمانية :

إن عدم اهتمام الدول الأوروبية المسيحية الأخرى والآسيوية الإسلامية بالأسلحة النارية ؛ بقدر اهتمام العثمانية بها ، وعدم تمكنهم من اللحاق بالعثمانية من الناحيتين التكنولوجية والمالية ، يأتي ضمن أسباب الفتوحات العثمانية الكبرى . لفت ذلك نظر العديد من الكتاب الأوروبيين ، من ماكيافل إلى المؤرخين الحديثين . قضى السلطان ياووز سليم على الصفويين في الشرق وفتح مصر في الجنوب خلال سنتين ونصف سنة . وسأل سلطان المماليك الأخير طومان بك الثاني عن سبب عدم حيازته الأسلحة الحديثة وأنبه على ذلك . كان تفوق العثمانية التكنولوجي هذا قد حدد مصير الشرق الأوسط إلى عصرنا هذا .

من المعلوم أن البارود ، اختراع صيني ، استعمل كمواد متفجرة لأغراض التسلية ولم يستخدم كسلاح . تركيبه بسيط نوعًا ما (نترات البوتاسيوم 75 ٪ ، كبريت 12,5 ٪ ، مسحوق الفحم 12,5 ٪) وصناعته سهلة في حالة تأمين الكبريت الذي يقل وجوده نسبيًا بالقياس إلى المواد الأخرى ، وفي حالة عدم وجود البارود ، لا يمكن صنع أي سلاح ناري . ولما كانت الحضارة الصينية مغلقة ، فإن مسلمي القرون الوسطى والعرب هم الذين عرّفوا البارود للأوروبيين ونشروه ، ومناقشة موضوع ما إذا كانوا قد اقتبسوا البارود من الصين أم أنهم تقدموا في علوم الكيمياء واكتشفوه ، لا أهمية له من الوجهة التاريخية . لكن الشيء المؤكد هو أن العرب هم الذين عرّفوا البارود لأوروبا وأن هذا الأمر له أهمية كبيرة من الناحية التاريخية .

لا يكون البارود سلاحًا ملائمًا للقتال في حالة استعماله وحده . البارود المسحوق الموضوع في البراميل ، يمكن في حالة إشعاله أن يفجر الأبنية المغلقة ، أما رمي القنابل

بواسطة البارود ، فهو الذي ولّد الأسلحة النارية ، والتي أولها وأهمها المدفع .

صنعت أول المدافع ، وكانت بدائية جدًا في أوروبا قبيل عام 1320 . كان لدى العثمانيين وكذلك لدى مماليك مصر مدافع في 1360 . كانوا يخيفون بصوته خيول الأعداء في ساحة القتال . وكانوا يعجزون عن هدم أسوار القلاع . لم تكن أية دولة ، حتى عام 1453 – ولا العثمانية – قد استخدمت المدفع كسلاح جدّي في الدفاع ، أو في الهجوم ، أو في حروب الحصار . وفي الحقيقة ، كانت المدافع صغيرة ومداها قصير . وعندما طلب فاتح عام 1452 سباكة مدافع في أدرنة بقياس وتكنولوجية لم تسبق صناعتها ، بعد إتمامه حساباته بهذا الشأن ؛ اعترض المهندسون والأخصائيون على ذلك ، وادعوا عدم إمكان سباكة مدافع بهذا القياس ، وإنها إذا سبكت ، فإنها ستتشقق بعد السباكة ، وإن لم يحدث ذلك فإنها سوف تتبعثر عند أول إطلاقة . لكن هذه المدافع سُبِكت ، ولم تتشقق ، ولم تتبعثر عند أول إطلاقة تجريبية ، سبكت بحسابات دقيقة ، سواء كانت برونزًا أو حديدًا (حلّل الكيماوي الإنكليزي F . A . Abel معدن أحد المدافع التي سبكها فاتح عام 1464 ، فوجد بدهشة أن البرونز ، كان من النوعية الممتازة ونسب الخليطة كانت جيّدة وأنه لا يمكن حاليًا صنع تركيب يفوقه : The Chemical News ، رقم 457 ، لندن ، 4 / 9 / 1868 ، ص 111 - 2) .

لم تهدم مدافع فاتح في 1453 أسوار الدولة البيزنطية فحسب ، بل هدمت معها العصور الوسطى التي يعود تاريخها إلى ألف عام مضت وفتحت العصور الحديثة . استعمل فاتح البارود – كما أشار إلى ذلك المؤرخون الأوروبيون بدقة – لتحريك الصواريخ الطيارة ، كذلك لدرجة أن أحد المؤرخين الفرنسيين المدعو (Benoit Méchin) الأشكال البدائية لأسلحة V - 1 ,V - 2 صنعت من قبل فاتح . استعملت تكنولوجية الصواريخ العثمانية في رمي قذائف هوائية ممتازة الصنع جدًا ، إلا أنه لم يمكن تحويلها إلى واسطة قتال . لكن مدفع الهاون الذي يرمي قذيفته بمحرك بيضي الشكل (obusier, mortier) والذي استعمله فاتح لأول مرة في فتح استانبول ، اعترفت به الدول الأوروبية الواحدة تلو الأخرى . وموجود حاليًا لدى كل الجيوش .

فاتح ، الذي أثبت بصورة قطعية ، أن للمدفع سلاح يمكن به هدم قلعة ، ثم قال بأن المدفع سلاح مؤثر على نتيجة الحروب الميدانية ، وإنه سلاح بإمكانه تشتيت خيالة

بل ومشاة العدو . أثبت قوله ذلك في أو اتلوكبلي Otlukbdi عام 1473 ، لكن هذا الحادث فات على أنظار الدول الأوروبية والأسيوية أجمع ، كانت الدول الأوروبية التي أنكرت تأثير للدفع في الحروب الميدانية ، حتي بعد اوتلوكبلي بعصر واحد ، وخاصة الدول الآسيوية ؛ كثيرة . إن معركة جالديران ، جرت بعد أوتلوكبلي بـ 41 سنة . استعمل ياووز ، حفيد فاتح ، المدفع والبندقية أيضًا كسلاح من الدرجة الأولي في أوسع الحروب الميدانية ، وغيّر الميزان الدولي . ثم أزال سلطنة المماليك من الوجود ولعب دورًا مهمًا كذلك في حرب موهاج 1526 ، وفي عهد ابنه القانوني كان قد مضي 53 عامًا علي حرب أوتلوكبلي . أفاقت أوروبا من سباتها بعد ذلك .

لم يهمل الجيش العثماني المدافع أبدًا ، حتى في عصور الانحطاط . ورد في تقرير عسكري بروسي مؤرخ 1862 (Unsere Tage 36, 580, 586 - 7) ، أن المدفعية العثمانية ، لا تقل عن أية مدفعية أوروبية . لكن لم تعد تسبك بعد الآن أجود المدافع في استانبول ، بل في Essen . طوّر السلطان عزيز (1861 - 1876) أسلحة جيشه بمدافع كروب وبنادق مارتيني الأمريكية وأوصلها إلي أحدث المستويات . بهذه المدفعية قضي جواد باشا علي أقوى أسطول حربي شاهده العالم حتي ذلك التاريخ ، دمّره في مدخل مضيق جنا قلعة (18 / 3 / 1915) .

تعرّف القسم الأكبر من العالم الإسلامي ، علي الأسلحة النارية من العثمانية . رحب العالم الأسلامي بالضباط المدفعيين والبحريين العثمانيين ، اعتبارًا من العصر 15 وحتي في القرن 20 ، كان الضباط العثمانيون يُرسلون إلي الأقطار الإسلامية خارج العثمانية – مثل فاس ، الأفغان ، تركستان – بواجبات رسمية .

وعندما سار ياووز إلي مصر ، كان أسطول دولة المماليك العظمي يديره العثمانيون . لم يسأل قائد أسطول للمماليك الأميرال العثماني سلمان رئيس ، سلطان مصر عما يجب عليه أن يعمله بالأسطول، وسأل البادشاه العثماني . وعند قدوم الإخوة بربروس إلي تونس ، وجدوا أن سلاطين الحفصيين يملكون مدفعيين ، وأن ضباط مدفعيتهم أتراك . بدءوا بمهمّتهم التاريخية في المغرب وهم مطمئنون إلي أن مدفعية كهذه لا يمكن أن تفتح عليهم النار . كان في حيازة سلاطين السعديين في فاس في 1575 من المدافع

150 مدفعًا ، ووحدات حملة البنادق والعركبوز ، كانت تحت سيطرة الضباط العثمانيين . إن سرية المدفعية لسلطان فاس الذي فتح مالي عام 1591 مكونة من بطارية هاون 6 مدافع و500 خيال ، حملة بنادق و2000 مشاة أندلسي حملة العركبوز ، كانت قد نظمت من قبل الضباط العثمانيين . بقي بعض ضباط البنادق العثمانيين في نتبوكتي وعرّفوا أفريقيا السوداء بالأسلحة النارية . وفي الأصل فإن اصطلاحات المدفعية التي تستعمل في أفريقيا الشمالية جميعها ، تركية وليست عربية . مثل طوبجي (مدفعي) ، بُمبه (قذيفة) بششخانة (مدفع ذو ستة أضلاع) ... إلخ . (**Nouvelle Edition,** **Encyclopedie del'Islam** ، 1 ، 1089ب – 190) .

لم يتمكن الصفويون ، أقوى منافس للعثمانية ، في أي وقت من الأوقات من إيصال الأسلحة النارية إلى مستوى العثمانية . كتب المؤرخ الإنكليزي **Savory** بأنهم حتى في العصر 18 لم يتمكنوا من استعمال مدفع الصحراء كما يجب في المعارك الميدانية . وفي الأصل ، فإنهم اقتبسوا مصطلحات المدفعية عن العثمانية ؛ الصفويون أيضًا كانوا يقولون « طوبجي ، طوبجيباشي » . كان المدفع العثماني ، يعتبر غنيمة ثمينة جدًا . ويمكننا القول بأنه لو كانت معلومات الصفويين في البحرية والمدفعية بمستوى العثمانية لتورطت العثمانية في الشرق ورطة كبيرة . كان الوضع في أزبكستان مماثلاً لذلك . كانت المدافع والبنادق تجلب من العثمانية ويستعملها ضباطهم منذ العصر 16 . أرسلت المدافع العظيمة صنع طوبخانة استانبول ، إلى أندونيزيا مع الضباط المدفعيين الأتراك . كان الوضع ذاته في إمبراطورية الهند العظمى (بني تيمور) . أسس هذه الإمبراطورية بابورشاه بن تيمور ، بفضل المدفعيين العثمانيين (**بابورنامه** ، ورق 321 ب) . وحتى ابن حفيد حفيده افرنكزيب علمدارشاه ، كان لا يزال يستخدم الضباط المدفعيين العثمانيين في بداية العصر 18 . وكذلك انتقلت البنادق والمسدسات من العثمانية إلى الهند . أوقعت العثمانية الذعر في القلوب بالمدافع والبنادق التي تسمى مسكت « **Misket** » التي ترمي الحبّات (الشظايا) من زنة 15 - 20 درهمًا داخل إطلاقة واحدة (نعيما ، 1 ,164) .
أحكمت كيفية تنظيم وتوجيه نيران المدفعية وخاصة بالنسبة لأسوار القلاع ، بقواعد هندسية . كانت المدافع المختلفة المسماة باليمز ، جاكلوز ، شاهي ، بادالوشكا ، كولونبورنا ، شايكا ودرابزون ذات القياسات المختلفة ، تستعمل بطرق

معينة ، لا تفتح نار المدفعية بصورة اعتباطية . لم تتمكن الأقطار الإسلامية ـ عدا العثمانية ـ من التعرف على ذلك إلا في القرن الـ 20 .

16 - جنود الصاعقة (آقينجيلر) :

أهم صنف عسكري في تاريخ الفتوحات العثمانية هو تيمارلي سباهي وثم آقينجيلر . آقينجي تعني كوماندو (صاعقة) خيال . أسست أوروبا جنود آقينجي التي سمتهم « Komando » ، بعد العثمانية بـ 500 سنة .

« آقين » (غارة) ، كلمة تركية وهي اسم لمصدر « آقماق » (إغارة) واسم الفاعل « آقينجي » (مغوار) . الكوماندو (آقينجيلك) ، هو المجال الذي أوفاه الخيال التركي حقّه بجدارة كبيرة منذ فجر التاريخ وحصل فيه على تجربة فائقة . إن هدف حامية آقينجي للعثمانية ، هو ضعضعة قوة العدو العسكرية والاقتصادية ، وتخريبها وفتح الطريق للجيش النظامي . ويستعمل الآقنجي كذلك في الدرجة الأولى في الحصول علي الأخبار .

يشكل أولاد سكنة الأناضول الغربية وأحيانًا أواسطها ــ الذين استوطنوا في روملي ــ ، أكثرية المغاوير . لا توجد حامية مغاوير (آقينجي في الأناضول . لكن جلب أحيانًا ، آقينجي من روملي ، في الحروب الكبرى ضد الصفويين . إن صفة آقينجي تنتقل من الأب إلى الابن ، ودخول الغريب إلى الحامية صعب . توجد عدة حاميات آقينجي مشهورة : مثل ميهال أو غللري (بني ميهال) ، بالقوج أوغللري ، أورانس أوغللري ، ترهان أوغللري ، تنتقل بكويّة (إمارة) الحامية من الأب إلي الابن . يمنح أمراؤهم (بك) ، رتبة سنجق بك (لواء) ، ونادرًا بكلر بك (فريق أول) ، ومنهم من حصل علي رتبة وزير . إن قادة عصرى 15 - 16 الفاتحين العظام ، تدربوا في حامية آقينجي . يتعرفون جيدًا على روملي ويجيدون اللغات البلقانية والأوروبية . اجتاحوا كامل أوروبا الوسطي والشرقية ، في سبيل تحقيق هدف الجهاد والغزو .

إن الإغارة عملية خطرة . يتحرك آقينجي بسرعة فائقة ، ويهتم بتحاشي الاصطدام

بالعدو الذي لا يدري في أية منطقة من أوروبا سيظهر . ينقسم جيش آقينجي إلى أرتال ، وهذه الأرتال تنقسم إلي جماعات ووحدات صغيرة . ثم تلتئم هذه الوحدات مع بعضها في غير الأماكن التي تفرقت منها وتعود . لا يخلعون السيف من خصورهم أثناء صلاتهم ووضوئهم (أولياء ، 528,5 - 9) . يستشهدون بأعداد كبيرة في عمليات الإغارة .

17 – العزب (عزيلر) [المشاة الخفيفة] :

عزيلر (باللغة العربية : عزب) صنف مشاة . مشاة خفيفة . وبينما كان هؤلاء يشكلون أساس مشاة العثمانية ، احتل الإنكشاريون مكانهم في أواخر العصر 16 واختفي صنف العزب . كثير من المؤرخين أسندوا النصر في دور الفتوحات إلى الإنكشارية ، لجهلهم أن العزب يشكلون مشاة الجيش العثماني . كان عددهم في حرب أنقرة (1402) 20 ألفًا ، وفي فتح إستانبول (1453) 20 ألفًا ، وفي أوتلوكبلي (1473) 30 ألفًا ، وفي رودس (1522) 20 ألفًا . أخرج السلطان سليمان القانوني هؤلاء من صنف المشاة وجعلهم حماة قلاع . وهكذا استمر العزب في مهمتهم في حماية القلاع . رغم أن الذي أوجد عزب القلاع هو فاتح ، لكن الذي غيّر صنف هؤلاء إلي حماة القلاع بشكل نهائيّ ، هو القانوني . إذ إن القلاع كثرت بشكل كبير على زمانه وزادت حاجة القلاع إلي الجند . ألغي السلطان محمود في 1826 عزب القلاع ، وعزب البحرية كذلك .

دنيز عزبلي (عزب البحر) ، هم مشاة البحرية المسلحون . وهم المشاة حملة البنادق الذين يرافقون السفن .

18 – المشاة (ياياِلر ومسلّملر) :

احتل العزب كذلك مكان يايا ومسلّم (بضم الحرف الأول وفتح الثاني) ؛ كما احتل الإنكشاريون مكان العزب . « يايا » كلمة تركية وتعني بالفارسية « بياده » أي مشاة . هم الجند الراجلون ، لا يركبون الخيل ويسيرون على أقدامهم . إن أكثرية يايا

رمسلّم ، جنود متطوعون من العشائر التركمانية . سمّوا في البداية يايا ثم مسلّم . ألغوا ، عندما كان عددهم في أواخر العصر 16 ,500 26 (**قوانين آل عثمان** ، 45) ثم استمر بعد ذلك استخدام الجنود المتطوعين من التركمان . لكن هؤلاء كانوا خيّالة وسمّوا **يوروكلر** .

19 – جنود الإيالات :

كان سنجق بك وبكلر بك الذي يفوقه رتبة ، هو القائد لتيمارلى سباهي . أي أن قائد السباهية الموجودين فى لواء ما هو الوالي العسكرى لذلك اللواء المسمى سنجق بك (لواء) وقائد السباهية في إيالة ما ، هو الوالي العسكري للإيالة برتبة بكلر بك (فريق أول) وهو قائد الضباط برتبة لواء (سنجق بك) الذين يشكلون تلك الإيالة . زادت حاجة جنود المعيّة للألوية (سنجق بك) ، وخاصة للفرقاء الأول (بكلر بك) . بدأ الفرقاء بتجنيد جنود متطوعين وأجراء . كان يطلق على هؤلاء أن كانوا خيالة **سكبان** ، وإن كانوا مشاة **صاريجه** ، ثم سمّوا جميعًا **لوند** (يجب تفريقهم عن لوند البحرية) .

20 – المتطوعون (الأجراء) :

اكتسب الجنود المتطوعون أهمية ، بعد أن اضمحلت صنوف تيمارلي سباهي وآقينجب وفقد الإنكشاريون طاقتهم القتالية . إن الجنود للتطوعين ، هم المسلحون الذين يتقدمون للخدمة بالأجرة في حرب واحدة . كانوا يتجمعون حول شخص من الأشراف يسمى « بكباشي » وينخرطون في سلك الجيش (d'Ohsson ,7 ,377) . وعندما سنّت التنظيمات قانون التجنيد الإجباري ، زال نظام التطوع .

توجد أصناف أخرى كذلك : **فوينوكلر** ، جنود غير محاربين من المسيحيين البلغار ، يؤخذون كسوّاس خيل .

مورتولوسلر ودربند جيلر ، استخدموا في أماكن كحماية الممرات الجبلية .
مشعلة جيلر ، صنف مهمته إضاءة طريق الجيش أثناء المسيرات الليلية ويشكله العرب

لسوريون وعلى رأسهم ضابط برتبة عقيد .

ياساقجيلر ، هم جنود انضباط (هامر ، 6 ,218) .

بوزانجيلر ، هو الصنف الذي يصيح بصوت عال لكسر الروح المعنوية للعدو (نشري ، 300) .

21 – جنود مصر :

لا يوجد في مصر تيمارلي سباهي ، بسبب عدم وجود تشكيلات التيمار . لا يرغب المصريون في العسكرية ، ولم يقبلوا عليها برغبة زائدة في عهد الأيوبيين والمماليك . احتفظت الحكومة العثمانية بقسم من جنود المماليك الموجودين في مصر ، لكنها أرسلت إلي مصر جنودًا من إستانبول كذلك . من النادر تكليف مماليك مصر بواجب خارج مصر وإلي الجبهات . وفي عام 1675 كان في مصر 045 20 جنديًا أرسلوا من إستانبول ، أكثرهم في القاهرة عدا جنود المماليك (أولياء ، 10 ,146 - 7) . جنود البحرية المتمركزين في أميرالايات الإسكندرية ، سويس ، رشيد ، دمياط خارج هذا الرقم .

وكان هناك كذلك جنود مشاة بريون في إيالات الجزائر ، تونس وطرابلس (ليبيا) بالإضافة إلي جنود البحرية ، أهمها حاميات الإنكشارية . كان يوجد صنف مدفعية القلاع والأصناف الأخرى كذلك . هؤلاء كانوا من الذين نزحوا من الأناضول وأحيانًا من روملي . كان العرب المحليون البرابرة ومهاجرو الأندلس يتطوّعون في السلك العسكري ، لكنهم يتفرقون بعد انتهاء الحرب .

22 – جنود قرم :

كان جنود قرم ، يشكلون قوة مهمة في الجيش العثماني . كان جيشًا مكونًا من 100 ألف إلى 200 ألف خيّال . ليست لديهم خبرة بتعبئة الوحدات الكبيرة . ولم يكونوا مدربين كجنود العثمانية ، لكنهم كانوا خيّالة ومحاربين بالفطرة . لا يملكون مدفعية . كانوا يسيرون تساندهم المدفعية العثمانية . كانوا يظهرون كجيش قليل التنظيم ، ضمن الجيش العثماني الشديد التنظيم بشكل هائل . فقدوا في العصر الأخير إمكاناتهم الحربية بالتدريج

ولم يتمكنوا من مسايرة العصر الحديث أبدًا . وقد شكلت كذلك وحدات خيّالة من المتطوعين الجراكسة .

23 – جنود الدول التابعة :

كان باستطاعة إمارة المجر Erdel (ترانسيلفانيا) تجنيد 50 ألف شخص علي أكثر تقدير . من النادر أن يصلوا إلي هذا العدد ، ويندر كذلك أن تتمكن الإمارات الرومانية أفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدافيا) من أن تجندا معًا 25 ألف شخص ؛ لكنهم اشتركوا مع العثمانية في حروبها مع أوروبا بأعداد تتراوح بين 10 و 15 ألف جندي علي أكثر تقدير . جرت حروب أخذ فيها عدة آلاف من جنود الإمارات الكرجية . لم تستخدم جنود الدول التابعة تقريبًا بعد العصر 17 .

24 – جنود النظام الجديد :

بدأ التعليم والتدريب على النمط الأوروبي في الجيش العثماني ، في قسم همبرة جي (القنابل اليدوية) في دور لالة (1728) . فتحت مهندس خانة (الهندسة العسكرية) ، في هذا الدور كذلك وشرع بتدريس الضباط دروس الاستحكامات والمدفعية بالمعلومات الأوروبية . ثم صارت هذه المؤسسة بعد ذلك ، جامعة تكنولوجية عسكرية بالمعنى الصحيح وسميت مهند سخانه بريء همايون (مدرسة الهندسة البرية العسكرية الإمبراطورية) . وبعدها في 1791 ، بدأ سليم الثالث في تأسيس جيش النظام الجديد وخرّج ضباط خيالة وضباط مشاة مزودين بالعلوم الحديثة . أسس جيشًا حديثًا مهمًا ، هو الجيش الحديث الأول من نوعه على الطراز الأوروبي بين أقطار العالم عدا أوروبا . ألغي في 1807 . جُدد تشكيله عام 1808 باسم سكبان جديد . وفي السنة التالية ، ألغي بشكل تام في حادثة علمدار . سبب الانكشاريون حتى 1826 دخول الدولة العثمانية في فترة رجعية تامّة . شكل محمود الثاني الذي ألغي حاميات قابوقولو في 1826 جيشًا باسم عساكر منصوره محمّدية وبعد فترة وجيزة ، سمي هؤلاء « عساكر شاهانه » و « أوردوي عثماني (الجيش العثماني) ،« أوردوي همايون » . شُكل جيش حديث وأخذت مدرسة الحربية في تخريج ضباط المشاة والخيالة . كان توفيقًا كبيرًا جنيت ثمرته بسرعة . ولكن يجب نسيان فترة تجربة النظام الجديد الطويلة . وبفضل تلك التجربة ، وأمكن التحرك بشكل منتظم

وأساسي إلى هذه الدرجة .

25 - الجيش الإمبراطوري التركي الحديث :

نجح الجيش الحديث الذي أسس في 1826 في ظروف تخلّلتها المشقات ، اليأس ، كوارث الحرب الروسيّة ، وقد كان البادشاه يحضر التدريب بنفسه ، وتطور حتي 1839 ، وأصبح أحد جيوش العالم المعتبرة المعدودة . ترك السياسة بشكل تام . وأساسًا فإن السلاطين لم يستخدموا الجيش لسياساتهم الشخصية في أي وقت من الأوقات ، طيلة التاريخ العثماني من أوله إلي آخره . إن الذي زج الجيش في السياسة ، هو ضباطه وقواده . حدث ذلك في 1876 . عزل عبد الحميد الثاني ـــ بتدابير متعدّدة جدًا ، الجيش عن السياسة . ولكن في 1908 ، انغمس ـــ وبالأصح أركانه وضباطه في السياسة إلي رقابهم . ولم يعد يستطيع بعدها الخروج من السياسة . وانهارت الإمبراطورية . وبتأسيس تشكيلات الجندرمة (الدرك) والضبطية (الشرطة) ، خفت أعباء الجيش . أسست كل المدارس العسكرية .

أنشأ محمود الثاني مقام سرعسكر بعد الواقعة الخيرية فورًا . سرعسكر ، هو رئيس الجيش العثماني . هو في الوقت نفسه وزير دفاع وكذلك رئيس أركان الجيش . وفي الوقت نفسه هو قائد القوات البرية كذلك ؛ بفارق واحد ، هو أن الأسطول والقوات البحرية ، لا تدخل ضمن صلاحياته . سرعسكر ، ناظر وعضو في الوزارة وفي تشريفات الوزارة ، غالبًا يلي الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . عسكري يحمل رتبة مشير (ماريشال) . يشترك في الوزارة بلباسه الرسمي . هو وكيل القائد العام الذي هو البادشاه ، المسئول عن رعاية شئون الجيش ، هو القائد العام الفعلي . لكن لقبه يصبح أثناء القتال « سردار أكرم » (قائد أعلي) وبعد المشروطية (1908) « وكيل القائد العام » بازدياد صلاحياته . تغير اسم سر عسكر ، بعد المشروطية (1908) إلي « ناظر الحربية » .

ضرب رضا باشا الذي يسمي « جهان سر عسكر » الرقم القياسي لشغله هذا المقام لـ 8 مرات (خلال 1843 - 1876 مجموعها 5 . 10 سنوات) . أما خسرو باشا الذي

صار صدرًا أعظم كذلك ، فقد بقي في هذا المقام 10 سنوات ، شهرين (1827 - 1836 +1854 - 1846) . أما محمد رضا باشا فهو السرعسكر الأخير الذي ضرب الرقم القياسي ببقائه 16 سنة و 10 أشهر و 18 يومًا (5 / 9 / 1891 – 23 / 7 / 1908) . شغل غازي عثمان باشا الشهير مقام سر عسكر 3 دفعات مجموعها 6 سنوات ، 4 أشهر (خلال 1878 – 1885) . وشغل أنور باشا نظارة الحربية مدة 4 سنوات ، 9 أشهر ، 12 يومًا (3 / 1 / 1914 – 14 / 10 / 1918) لم يكن نظّار الحربية مشيرين فبينهم من كان برتبة فريق أول ، فريق وحتى لواء .

إن « أركان حربية عمومية رئيسي » لا يعادل حاليًا رئيس أركان الجيش . هو رئيس أركان السرعسكر أو ناظر الحربية . رتبته مشير ، فريق أول أو فريق . تشكلت القيادة العامةللجندرمة (الدرك) في 1877 . رتبته فريق أو لواء . شكّلت بنظارة أو مشيرية الضبطية (الشرطة) في 1846 . اشترك في الوزارة في بعض العهود . هو من الموظفين الذين يطلق عليهم اسم « ناظر » مع أنه خارج الوزارة علي الأغلب . عين لهذا المنصب المشيرون والفرقاء ولكن غالبًا ، عين أحد متخرجي المدارس الملكية بدرجة وزير .
أسست مشيرية الطوبخانة العامرة في 1826 . ثم ألحقت بهذه النظارة ، المدفعية ، بالاستحكامات ، القلاع ، المعامل العسكرية ومن ثم للمدارس العسكرية . كان مشير الطوبخانة ، ناظرًا وعضوًا في الوزارة . كان عضوًا عسكريًا ثالثًا في الوزارة ، بعد سرعسكر وقبودان دريا (ناظر البحرية) . رتبته مشير ونادرًا (1826 - 1832 + 1873 - 1844 + 1872 - 1876) فريق. ضرب مصطفى زكي باشا الرقم القياسي ببقائة في هذا المنصب 16 سنة و 10 أشهر و 24 يومًا (30 / 8 / 1891 — 23 / 7 / 1908) . هو آخر مشير للطوبخانة . ألغيت هذه المشيرية في 1908 وألحقت بنظارة الحربية . شغل أحمد فتحي باشا هذا المنصب مرتين مجموعهما 11 سنة ، 10 أشهر (1845 - 52 + 1853 - 57) .

آخر ناظر للضبطية ، هو الوزير شفيق باشا ، وضرب رقمًا قياسيًا في بقائه في هذا المقام مدة 11 سنة ، 8 أشهر ، 19 يومًا (4 / 11 / 1896 – 23 / 7 / 1908) . أدمجت هذه النظارة بعد ذلك في وزلرة الداخلية باسم « مديرية الأمن العامة » .

أسست مدرسة « مكتب حربية شاهانه » في 1834 ومكتب أركان حربية شاهانه في 1848 . كلتاهما بقيادة شخص واحد برتبة فريق . انفصلت المدرستان العسكريتان

عن بعضهما في 1909 . فتحت لفترة من الزمن في أدرنة وفي مدينة أو مدينتين ، مدارس حربية أخرى . أما المدارس العسكرية المتوسطة والثانوية ، فكانت موجودة في مدن عديدة من الإمبراطورية أشهرها في المضيق في إستانبول المسماة كوله لي .

كان الجيش العثماني ، يعتبر الجيش الثالث بين جيوش العالم بعد فرنسا وروسيا حتى 1871 . وكان الرابع بعد ألمانيا ، روسيا وفرنسا حتى 1877 . كان يضم 700 ألف جندي تحت السلاح وأسلحته حديثة . تعذر الحفاظ على هذا المستوى بعد هزيمة 93 ، ومع ذلك فقد أمكن الحفاظ على جيش تفوق قوته ، قوة مجموع الدول البلقانية ، وله اعتبار بين جيوش الدول الكبرى . كان لدى العثمانية عام 1908 ، حوالي 405 آلاف (535 ألفًا مع قوات الدرك وقوات حميدية المليشية) جندي تحت السلاح ، وكانت الخامسة في عدد الجنود بين جيوش العالم (روسيا 000 260 1 ، ألمانيا 610 آلاف ، فرنسا 575 ألفًا ، انجلترا 450 ألفًا ، النمسا – المجر 380 ألفًا ، إيطاليا 280 ألفًا ، أمريكا 190 ألفًا ، اليابان 175 ألفًا ، أسبانيا 130 ألفًا) عدد جيوش الدول البلقانية في هذا التاريخ كانت عبارة عن ، 70 ألف رومانيا + 36 ألف قرة داغ + 30 ألف صربي + 20 ألف من اليونان . وفي عام 1908 نفسه ، كانت ميزانية القوات البرية العثمانية 7 ملايين ليرة ذهبية وكانت العاشرة بين دول العالم (روسيا 5 . 73 ، ألمانيا 44 ، فرنسا 34 ، أمريكا 31 ، النمسا 5 , 16 ، إيطاليا 14 ، اليابان 25 , 11 ، أسبانيا 25 , 7 ، السويد 5 , 3 ، هولندا 3 ملايين ليرة ذهبية) . وميزانية القوات البرية للدول البلقان ؛ رومانيا 2 + صربيا 1 + اليونان 75 , – مليون ليرة ذهبية ، ميزانية قره داغ ، كانت ليست ذات أهمية وكانت اليونان فقط هي التي تملك قوة بحرية .

كانت ميزانية القوات البرية العثمانية عام 1876 ، 10 ملايين ليرة ذهبية ، وكانت ميزانية جيوش الدول الأوروبية حينذاك مقارنة لذلك ، ولم يكن هناك فرق كبير .

جيش التنظيمات ، كان مقسمًا إلى 7 وحدات كبيرة كل منها تسمى « جيش » (بالفرنسية Armèe ، بالإنجليزية army) . ومراكز هذه الجيوش حسب تسلسل أرقامها إستانبول ، أدرنة ، مناسطر (نقل بعد ذلك إلى سلانيك) ، لرزنجان ، شام ، بغداد وصنعاء . أما الفرقة الموجودة في مكة (وهي واحدة) والفرقة الأخرى الموجودة

في طرابلس الغرب ، فلم تكونا تابعتين لأي جيش ، وكانتا مرتبطتين كالجيوش بإستانبول (Almanach de Gothe ، 1909 ، ص 1136 ، 1145 - 6) . كانت رتب قواد الجيش مشيرًا أو فريقًا أول أو فريقًا . وقد شوهد بعد المشورطية ، قواد جيش برتبة لواء .

كانت العسكرية إجبارية بموجب قوانين 1880 ,1888 و 1904 (المشاة والبحرية 3 سنوات ، الخيالة والمدفعية 4 سنوات) يسرّح خلال 3 أشهر الذين يسدّدون بدلاً نقديًا يبلغ 50 ليرة ذهبية . لا يوجد نظام ضباط احتياط كانت المدة حتى 6 سنوات بعد التسريح ، تشكل « الاحتياط » و 9 سنوات بعدها « رديف » وسنتين بعدها تشكل « مستحفظ » . إن الأصناف المذكورة ، كانت تدعى للعسكرية وقت النفير العام بموجب هذا التسلسل . لا يدعى إلى العسكرية في الحرب من أمضى 17 عامًا على تسريحه (لم تطبق هذه القاعدة في الحرب العالمية الأولى) كان الجند تحت السلاح يسمى « نظامية عسكري » (جندي نظامي) . كانت الدولة تجند وتدرب سنويًا 70 ألف شخص على أقل تقدير . والراغبون منهم يمكنهم ترك تذكرة التسريح . أي أن الجندي الذي يرغب في الاستمرار في العسكرية ، كان بإمكانه البقاء في الجيش . وبسبب تطبيق نظام ضباط الاحتياط (بالعثمانية احتياط ضابطليكي) لأول مرة عام 1914 ، لم يكن المثقفون والموظفون يطبقون العسكرية ، كان كل الضباط ، نظاميين ، قل جدًا في هذا الدور عدد « آلايلي ضابط » أي الضابط الذي لم يتخرج من الحربية أو ما يعادلها من المدارس وتدرّج في وحدته ، لكن بعضهم كان كثير التجربة .

وكانت القوات البرية كذلك ، مقسمة بنفس النظام ، إلى 7 جيوش . وفي الحقيقة فإن هذه الجيوش كانت وقت الصلح على شكل فيالق نظامية . كان يضاف وقت النفير ، إلى كل جيش من هذه الجيوش فيلقان من الرديف وفرقة من المستحفظ . وهكذا كان كل الجيش قد خطط على شكل 3 فيالق + 1 فرقة . كل فيلق نظامي ، كان يتكون من 4 فرق . وبذلك يكون الجيش الواحد وقت الحرب = 4 نظامية + 11 رديفًا + فرقة مشتحفظ = 16 فرقة × 7 = 112 فرقة مستقلة = 114 فرقة ، تشكل جيشًا عثمانيًا . إن هذه الفرق الـ 114 ، هي فرق مشاة . وفرق الخيالة ليست ضمن هذا العدد . إلا إن ألوية وكتائب الخيالة ، ألوية وكتائب المدفعية ، ألوية وكتائب

الاستحكام الموجودة في الجيش ، الفيالق والفرق ، كانت تدخل ضمن هذا العدد . لكنه في 1904 ، تم تأسيس 5 فرق نظامية إضافية . وبناء علي ذلك يكون تشكيل الجيش في النفير العام التام 7 جيوش ، 21 فيلقًا ، 117 فرقة ؛ وفي السلم 7 جيوش و 35 فرقة نظامية .

كانت فرقة المشاة الواحدة = 4 كتائب ذات 4 سرايا+ سرية قناصة واحدة + وحدات المدفعية ، الاستحكامات إلخ .. كانت فرقة المشاة الواحدة = 17 سرية و الكتائب الأربع الموجودة في فرقة مشاة واحدة ، قد نظمت علي شكل لواءين منفصلين ؛ أي أن كل فرقة ، تتكون من لواءين والوحدات التابعة . مثلاً ، فرقة الحجاز المستقلة المتمركزة في مكة ، كانت على هذا الترتيب : 17 سرية مشاه + سريتا مدفعية جبلية + 3 سرايا مدفعية قلاع + وحدات درك خيالة . والفرقة المستقلة المتمركزة في طرابلس الغرب ، 17سرية مشاة + كتيبة مدفعية واحدة ذات 4 سرايا + لواء خيالة واحد (كل واحد منه يتكون من كتيبتين كل منهما ذات 10 فصائل) .

كانت فرق الخيالة القليلة العدد ، تتكون من 3 ألوية . وعلي هذا الأساس تكون فرقة الخيالة الواحدة = 6 كتائب خيالة . وفي 1903 ، خصص للفيلق الواحد ، كتيبة خيالة إضافية واحدة ، ولفيلق آخر كتيبتا خيالة إضافية . وهكذا ارتفع عدد الكتائب في بعض فرق الخيالة إلي 7 .

كتيبة مشاة واحدة ، كانت تتشكل من 10 وبعضها من 13 فصيلة ؛ أما كتيبة الخيالة الواحدة ، فكانت تتشكل من 5 فصائل . كتيبة المدفعية الواحدة ، كانت ذات 3 وبعضها 4 أو سريتين . وكل سرية تحتوي علي 3 بطاريات (فصيلة مدفعية) . وعلي هذا الأساس ، تحتوي كتيبة المدفعية الواحدة علي 10 ، لكن بعضًا يحتوي على 13 أو 7 بطاريات . إذا اجتمعت كتيبتا مدفعية تشكلان لواء مدفعيًا واحدًا . كل جيش له لواء مدفعي يحتوي علي 20 بطارية . وإضافة إلي ذلك ، كان هناك 10 ألوية مدفعية على هذا الشكل . وكذلك كانت قد خصصت كتيبة هاون واحدة إلى كل من الفيلقين الثاني والثالث . كتيبة الهاون الواحدة ، كانت تحتوي على فصيلتين و 6 بطاريات .

أما وحدات الاستحكام ، فكانت قد خصّصت سرية استحكام واحدة لكل جيش .

ومن ناحية أخرى ، كانت توجد كتائب وسرايا استحكام مرتبطة بمشيرية طوبخانة . توجه في حالة الحرب لخدمة الجيوش حسبما تقتضيه الحاجة .

كان لكل جيش ، سرية واحدة أو سريتا نقل وفصيلتا لاسلكي - تلفون . كان للجيش الخامس سريتا نقل إضافيتان (أي 4 فصائل) . وتوجد كذلك 5 سرايا إطفاء .

كانت السرية الواحدة وقت السلم تضم من 400 إلى 600 جندي . وفي وقت السلم أيضًا ، كانت فصيلة الخيّالة الواحدة ، تتشكل من 60 إلى 120 حصانًا . كان المشاة يحملون بنادق ماوزر Mauser من عيار 65 , 7 و 5 , 9 ملم ذات 5 و 9 خراطيش . كان لدى الخيال عدا سيفه ، بندقيته القصيرة ، مسدسه ، بعضهم كان يحمل الرمح .

كانت المدفعية مقسمة إلى 15 لواء . تحتوي الـ 15 لواء هذه ، على 35 كتيبة مدفعية . كلها كانت 271 بطارية . كل بطارية تحتوي على 6 مدافع ، سواء في السلم أو في الحرب . وهكذا تتشكل المدفعية من 626 1 مدفعًا سيّارًا . كان توزيع الـ 271 بطارية ، على هذا الشكل : الجيش الأول 39 ، الجيش الثاني 58 ، الجيش الثالث 77 ، الجيش الرابع 39 ، الجيش الخامس 26 ، الجيش السادس 17 ، الجيش السابع 7 ، فرقة طرابلس 6 ، فرقة حجاز بطاريتان . وعدا هذا ، مدفعية القلاع 146 بطارية ؛ 79 بطارية منها تابعة لأمر مشيرية طوبخانة وليس لأمر السرعسكرية . هذه البطاريات ، كانت تحتوي على 678 مدفعًا . إذن . فإن القوات البرية العثمانية كان لديها 1626 مدفعًا سيّارًا + 876 مدفعًا ثابتًا وجمعها 2502 مدفع . أعطيت 24 بطارية من بطاريات القلاع الثابتة لاستخدام الجيش الأول ، 11 للجيش الثالث ، 23 للجيش الرابع ، 3 للجيش الخامس ، 3 للجيش السابع و 3 بطاريات أعطيت لأمر جيش الحجاز .

كان الجيش الأول يحتوي على 5 سرايا من جنود الاستحكام ، الثاني 2 ، الثالث سرية ، والرابع سرية والجيش الخامس يحتوي على فصيلة واحدة من جنود الاستحكام ، السادس 1 ، السابع 1 . ومن جهة أخرى ، كانت هناك 63 فصيلة صناع على شكل لواء تابع لأمر مشيرية طوبخانة . كان يدرّب ويخرّج عمالاً متخصصين ورؤساء عمل مهرة .

قوات الدرك (الجندرمة) كانت = 544 فصيلة مشاة + 200 فصيلة خيّالة . كان الجيش يحتوي علي 519 سرية مشاة . وفي 1908 ، كان الجيش يحتوي علي 410 آلاف جندي نظامي و 50 ألف درك تحت السلاح . ويجب إضافة مجموع أفراد كتائب حميدية إلي هذه الأرقام .

كتائب حميدية كانت كما يلي : كتائب خيّالة خفيفة يشكلها في الأناضول الشرقية ، المتطوعون الأكراد ، وفي ليبيا العرب البرابرة . شكّلت في الأناضول الشرقية لمجابهة حركات العصيان الأرمنية ، وفي ليبيا تجاه احتمال سيطرة الإيطاليين . ورغم أن انكلترا وفرنسا استعملتا في ذلك العهد هذا النوع من الجند ، وبسبب تشكيل الدول الإمبريالية قوات ميليشية من هذا الطراز ، فقد تألّبت على عبد الحميد الثاني بشدة . ضباط هذه الكتائب من الأشراف المحليين أو أبنائهم . يجوز ترفيعهم إلي رتبة عقيد . رتبهم كانت معتبرة داخل كتائبهم فقط . شكل في ليبيا الضباط العثمانيون 17 كتيبة مشاة على النمط نفسه و 6 كتائب خفيفة التي يشكل مجموعها 30 فصيلة خيّالة . إن هذه الوحدات قد أذاقت الإيطاليين الأمرّين حتي عام 1930 .

كان بإمكان الإمبراطورية أن تعبيء في أوقات النفير العام 1 683000 جندي برّي ، لكن 123 ألفًا من هؤلاء لم يكونوا مدربين تدريبًا عسكريًا نظاميًا (40 ألف متطوع حميدية كردي ، 40 ألف متطوع ألباني ، 3 000 لبناني) . لم تحتسب القوات المصرية ضمن هذا العدد . إذ كان من المشكوك فيه ، في حالة نشوب حرب أن تتمكن مصر من التخلص من انكلترا والانضمام إلي جيش الإمبراطورية . كان الجيش المصري في 1908 يحوي 709 ضباط ، و 123 ضابطًا إنجليزيًا مستخدمًا بأجرة ، 381 18 جنديًا ، 207 ضابط شرطة ، 127 3 شرطيًا ، 153 ضابط درك ، 697 1 درك . أكثرية الضباط المصريين من أصل تركي (أو ألبانيون مستتركون ، جراكسة ، أباضه) .

لا تدخل قوات الأمن التركية ، ضمن الأرقام المدونة أعلاه .

وبعد المشروطية ، كانت تشكيلات القوات البرية 40 فرقة نظامية وقت الحرب 58 فرقة مشاة رديف = 118 فرقة . كانت مراكز 14 فيلقًا في 1 911 كما يلي : 1 استانبول ، 2 تكرداغ ، 3 قرقلارايلي ، 4 أدرنة ، 5 سلانيك ، 6 مناسطر ،

7 اسكب ، 8 شام ، 9 أرضروم ، 10 أرزنجان ، 11 وان ، 12 موصل ، 13 بغداد ، 14 صنعاء . وعدا ذلك ، فرقة مستقلة في مكة وأخري في صنعاء . كانت رتب قواد الفيالق ، فريقًا أو لواء .

أشهر المدارس العسكرية هي : في إستانبول ، مكتب حربية شاهانه (المدرسة الحربية) ، مكتب أركان حربية شاهانه (الأكاديمية الحربية) ، مكتب طبية عسكرية شاهانه ، مكتب بيطرية عسكرية ، مدرسة المدفعية ، مدرسة الرمي للمشاة ، مدرسة الضباط الاحتياط ، مدرسة الضباط الصغار (ضباط الصف) ، الإعدادي العسكري (كوله لي) ، مدرسة ضباط الصف الابتدائية ؛ مدرسة الفروسية ، مدرسة الخيّالة لضباط الصف ، مدرسة اللّوازم ، مدرسة الدائرة الحربية ، الرشدية العسكرية . خارج استانبول : مدرسة الضباط الصغار في كل من أدرنة ، سلانيك ، بيزوت ، أرزنجان ، بغداد ، شام ، مناسطر ، طرابلس الغرب ؛ مدارس عسكرية متوسطة في 22 مدينة (أدرنة ، أرزنجان ، أرضروم ، بورصه ، طرابزون ، دياربكر ، قسطموني ، قونيه ، وان ، معمورة العزيز ، بتليس ، سيواس ؛ مناسطر ، اسكب ، سلانيك ، اشكودرا سليمانية ، بغداد ، شام ، حلب ، صنعاء ، طائف) .

القوة البحرية

1 – قبل العثمانية :

الجيش التركي هو من أقدم جيوش العالم التقليدية ، إذ يرجع تاريخه إلى 3 000 سنة ، ويحتمل أنه أقدمها . ولكن هذا القول لا ينسحب على القوة البحرية .

لم تشكل قوة بحرية تركية ، لحين قدوم الأتراك إلى الأناضول في نهاية العصر 11 . أما بالنسبة للمسلمين العرب ، فكانوا يملكون في القرون الوسطى قوات بحرية ذات قدرة كبيرة . وعندما استوطن الأتراك في الأناضول كوطن أم ثان لهم ، انتقلوا إلي جغرافية مختلفة ؛ كان مناخ الأناضول بالنسبة لوطنهم الأم السابق ، أكثر حرارة ، وأكثر اعتدالاً . كانت أراضيه أصغر جدًا من وطنهم القديم . ويختلف تمامًا عن وطنهم الأم السابق لكونه شبه جزيرة محاطة من جهاتها الثلاث بالبحر . ثم فتح الله عليهم بيزنطة ، والبيزنط ، كانوا يملكون أعظم أسطول في العصر 11 . وعلي ذلك ، فإنهم إن كانوا عازمين علي البقاء في هذه الأراضي – وكانوا مصمّمين على ذلك – فإنه يتحتم عليهم أن يمتلكوا قوّة بحرية .

أسسوا قوتهم البحرية بسرعة كبيرة وبقدرة فائقة . واتخذوا البحرية البيزنطية وخاصة الإيطالية قدوة لهم . لم يهتموا ببحرية المسلمين العرب التي كانت تسيطر علي البحر الأبيض والمحيط الهندي (التي كانت تشمل الأسطول الحربي والتجارة البحرية معًا) . و لم تتمكن أية دولة تركية أخرى عدا الدولة التركية ، تركية السلجوقية وتركية العثمانية من تأسيس قوة بحرية . وبناء على ذلك ، فإن تاريخ البحرية التركية ، عبارة عن 900 سنة .

أسّس جابك بك ، في أزمير الأسطول السلجوقي في السنوات الأخيرة من العصر 11 . وقهر الأسطول البيزنطي . لكن سرعان ما جهزت الحملة الصليبية الأولي . أزيح

الأتراك من كافة السواحل الأناضولية والبحار . شهدت الدولة التركية وجه البحار مجددًا ، مع بداية العصر 13 . الحقيقة أنها لم تتمكن من الوصول إلى مرمرة وإيجه كالسابق ، لكنها توصلت إلى البحرين الأسود والأبيض وأخذت في توسيع سواحلها ، واضطرت إلى تأسيس أسطولين أحدهما في سينوب على البحر الأسود وفي علائيه في أنطاليا على البحر الأبيض . وحتى قرم ، فتحها علاء الدين كيكباد بواسطة أسطول البحر الأسود .

لم يدم الأسطول الثاني هذا طويلاً . إذ تعرضت تركيا للاجتياح المغولي . ضعفت جدًا قوتها البحرية . لم يهتم المغول بالأسطول أبدًا . لكن أمراء (بك) المقاطعات الحدودية (أوج) التركمانيين الذين عينهم السجوقيون في الأناضول الغربية تجاه البيزنطيين في السنوات الأخيرة من العصر 13 ؛ تمكنوا من الوصول إلى بحر إيجه ، وحتى مرمره استولوا من البيزنطيين على كافة سواحل بحر إيجه . أسست الإمارات التركمانية التي أصبح لها ساحل في إيجه ، أسطولها ، هو الأسطول الثالث لتركية . إن هذه الإمارات (بكلك) من الشمال إلى الجنوب كاراسي ، ساروهان ، آيدن ومنتشه . كان أقوى هذه الأساطيل أسطول آيدن ثم منتشه . سيطر آيدن أوغلو أومور بك ، بعد جاكابك بعصرين - عصرين ونصف على بحر إيجه بصفة أميرال كبير . حقق إنزالات كثيرة على اليونان ، مكدونيا ، الجزر . استشهد أمام قلعة ازمير تجاه فرسان الصليبيين (1348) . وخلال السنوات التي استشهد فيها ، كان بنو عثمان قد فتحوا إمارة كاراسي ووصلوا إلى مرمرة ، إيجه ، بوغاز جنا قلعة . واغتنموا أسطول كاراسي وبحارة هذا الأسطول . وبفضل أسطول كهذا ، بدأ عثمان أوغلو سليمان باشا بفتح روملي (1354) . ثم ضم يلدرم بيازيد بحملة واحدة كلا من إمارات ساروهان ، آيدن ومنتشه (1390) ، وانتقلت أساطيلها جميعًا إلى العثمانية .

2 ـ تشكيل القوة البحرية العثمانية :

أصبحت البحرية العثمانية اعتبارًا من 1390 قوة بحرية لا يستهان بها . إن حادثة انقره 1402 عرقلت تطور هذا الأسطول . تأثر محمد الفاتح عند اعتلائه العرش (1451)

لعدم إحراز بحريته الأولوية في العالم كما أحرزها جيشه . ضحى بالكثير في سبيل تأسيس بحرية تؤهله من وضع قواعد الدولة العالمية العظمى . كانت القوة البحرية التي لا منافس لها في العالم هي الأسطول البندقي . فاتح الذي تمكن قبيل 1470 من جعل قواته البحرية معادلة لقوات البنادقة ، ترك عرشه لابنه بيازيد الثاني (1481) بعد أن أوصل قوته البحرية إلى ضعفي قوة البنادقة قبل عام 1480 . صرف بيازيد الثاني جهودًا جبارة للمحافظة على مستوى الأسطول وتطويره . كان قورقودخان ، أحد أولاده يعشق البحر ، السفن والبحّارة ، كان يحميهم كثيرًا . صرف كامل جهده لتكوين صنف فدائيين (كوماندو بحري) . صار واليًا لمدة طويلة جدا على ولايات العثمانية الواقعة على إيجه والبحر الأبيض . بسط حمايته على الأخوة بربروس .

عني السلطان ياووز سليم (1512 - 1520) كثيرًا بالأسطول . أما السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566) فقد اهتم للمرة الأولى والأخيرة في التاريخ العثماني ، بالأسطول اهتماما مساويا لاهتمامه بالجيش ، وفي بعض السنوات كان اهتمامه بالأسطول أكثر . وأصبحت القوة البحرية العثمانية تفوق مجموع القوات البحرية في العالم كما هي الحال في جيشها تمامًا .

تتابع ظهور العديد من أميرالات العثمانيين الأفذاذ . أولهم كمال رئيس (وفاته 1511) . سار إلى غرب البحر الأبيض وإلى الأندلس . انتصر على البنادقة في أول حرب تركية في البحار المفتوحة في السنوات الأخيرة للقرن 15 (Sapienza = حرب جزيرة براق رئيس) .

أوروج رئيس (وفاته 1518) بدأ بفتح إفريقيا الشمالية من الأسبان وحال دون جعلهم المغرب كالأندلس أمريكا لاتينية .

سلمان رئيس (وفاته 1529) ، صار قائدًا بحريا لدولة المماليك ، كافح كثيرًا في البحار الهندية مع أميرالات عثمانيين قديرين في سبيل طرد البرتغاليين من المياه الإسلامية .

آيدن رئيس (وفاته 1535) الذي خدم في شبابه لدى المماليك ، احتل مكانته بين أقدر أميرالات الأخوة بربروس وحارب أسبانيا في غرب البحر الأبيض مع صديقه سنان رئيس .

بربروس خير الدين باشا (اسمه الأصلي : خضر رئيس) (وفاته 1546) آخو أوروج رئيس ، فتح كامل الجزائر وأصبح قبودان دريا (مشير البحر) للقوات البحرية العثمانية . أبناؤه بربروس - زادة حسن باشا الأول (وفاته 1549) و بربـروس - زادة حسن باشا الثاني (وفاته 1572) سار على إثره ، وصار بكلر بك (أمير الأمراء برتبة فريق أول) على الجزائر لمدة طويلة .

محيي الدين بيري رئيس (وفاته 1555) - هو ابن أخي كمال رئيس - خدم كأميرال للإخوة بربروس في البحر الأبيض ، ومن ثم في بحار الهند وأصبح أشهر رسام خرائط جغرافية Cartography وجغرافي بحار في عصره .

قازداغلي (من أهالي جنا قلعة) صالح باشا (وفاته 1556) ، أصبح من الأميرالات المقربين جدًا للإخوة بربروس ، فتح فاس ، توفي عندما كان بكلر بك على الجزائر .

سيدي علي رئيس (وفاته 1563) اشتهر كذلك بكونه أميرالاً لبربروس ، جاب بحار الهند ، ولمع كعالم قدير جدا في الجغرافيا والعلوم الرياضية .

منتشلي طرغد باشا (وفاته 1566) ، تدرج على يد بربروس ، سيطر مدة طويلة على البحر الأبيض بصفة أميرال لصنف القراصنة واستشهد في مالطة .

داماد ايكينجي وزير بياله باشا (وفاته 1578) ، امّن السيطرة على البحر الأبيص لمدة طويلة جدًا بصفة (قبودان دريا) قائد القوات البحرية العثمانية .

قيليج علي باشا (وفاته 1587) . أعقبه كقائد للقوات البحرية .

رمضان باشا (وفاته 1589) ، فتح فاس وقضي على دولة البرتغال .

مراد رئيس (وفاته 1608) توفي في رودس كآخر عضو من سلالة الأميرالات الفاتحين .

ويجب أن نذكر ميزومورتا حسين باشا في أواخر العصر 17 وداماد كوجوك حسين باشا في السنوات الأخيرة للعصر 18 كحلقات أخيرة أفلتت من هذه السلسلة الذهبية .

لا يوجد في العصر 17 أميرالات أفذاذ ، ولا انتصارات بحرية كبيرة كالعصر الذي

سبقه . ما زالت البحرية العثمانية ، القوة البحرية الأولى في العالم ومسيطرة على البحر الأبيض . وفي النصف الأول من العصر 18 ، كانت كذلك . تكتسب البحرية الإنكليزية تفوقها الأكيد في كل البحار ، في النصف الثاني من العصر . حافظت البحرية العثمانية على كونها القوة البحرية الثالثة في العالم حتى 1878 بعد إنكلترا وفرنسا . ثم تدهورت بسرعة إلى المراتب المتأخرة . إذ إنها كانت محرومة من المصادر المالية التي تمكنها من مواجهة أعباء سياسة قوة بحرية عظمى .

غيّر ميزومورتا حسين باشا في أواخر العصر 17 أسطول المراكب التي تسير بالمجاديف ، إلى أسطول سفن شراعية . أسس سليم الثالث قوة بحرية جديدة تمامًا . أُحرق هذا الأسطول في نافارين علم 1826 . أسس محمود الثاني أسطولاً جديدًا . أما السفن المدرعة ، فقد أسسها السلطان عبد العزيز (1861 - 1876) .

3 – قبودان دريا (مشير البحر) :

كان يطلق في عهد السلاجقة ، على أميرال أسطول البحر الأسود « رئيس البحر » . كان مقره في سينوب ، أما أميرال أسطول البحر الأبيض المقيم في أنطالية ، فكان يسمى « أمير السواحل » ، وأحيانًا « ملك السواحل » كان العثمانيون يسمون قائد القوات البحرية باسم « قبودان دريا / قبدان دريا » ، (وبلغة الشعب قبطان باشا) .

لكنه لم يكن قائدًا للقوات البحرية. كان ناظرًا للبحرية وعضوًا في الديوان الهمايوني . وإضافة إلى ذلك ، كان واليًا بحريًا عامًا (بالفرنسية Gouverneur Moritime) على إيالة قبطان باشا المسماة جزائر بحر سفيد (جزر البحر الأبيض) . كانت هذه الإيالة ، إيالة متناثرة تشمل جزر بحر إيجه ، شبه جزيرة غاليبولي وعددًا كبيرًا من القواعد البحرية الموجودة في شرق ووسط البحر الأبيض التي تشكل ولايات بحرية . القبودان دريا ، ليس تابعًا للقوة البرية بأي شكل من الأشكال ، هو حر تمامًا . آمره المباشر ، هو الصدر الأعظم ،ثم البادشاه .

إلا أنه توجد قوات بحرية ليست تحت إشراف القبودان دريا ومرتبطة بالديوان وبالصدر الأعظم بصورة مباشرة . وهي الأساطيل الخفيفة الموجودة في الأنهار كالطونة ، الفرات ، النيل ، قبودانية (قيادة بحرية) الهند أو السويس التي تشرف

على المحيط الهندي والبحار المغلقة ، ولفترة من الزمن ، كانت قبودانية (بحر) الخزر ضمنها . قبودان دريا ؛ كان قائدًا للبحر الأبيض ، البحر الأسود وجميع البحار المغلقة والمحيط الأطلسي . أساطيل الإيالات البحرية ، الجزائر ، تونس ، طرابلس (ليبيا) ، كانت تحت إشراف بكلر بك الإيالة ، ولكن القبطان دريا ، له حق سحب تلك الأساطيل في الحروب الكبرى إلى البحار التي يرغب أن تسحب إليها . إذ إن تلك المناطق هي بحر أبيض كذلك .

شغل مقام قبودان دريا من تاريخ جلوس فاتح إلى الوقت الذي سمّي فيه القبودان دريا « بحرية ناظري » أي خلال 416 سنة ، وشهر ، 8 أيام (3 / 2 / 1451 - 13 / 3 / 1867) ، 159 أميرالاً وبعضهم شغل هذا المنصب مرات عديدة . يطلق على قبودان دريا الـ 6 الذين شغلوا هذا المقام خلال 1451 - 1463 لقب « بك » وهم برتبة لواء بحري (بحرية سنجق بكي) . والذي يليه فريق أول بحري (بكلر بك بحري)، واعتبارًا من العصر 17 ، كان أكثرهم وزراء بحرية برتبة أميرال كبير . ولم يكن عدد الصدور الأعظم الذين سبق أن شغلوا منصب قبودان دريا قليلاً . ورغم أن الصدر الأعظم داماد محمد علي باشا شغل هذا المنصب 6 مرات ، وداماد خليل رفعت باشا 4 مرات ، فإن الذين أكملوا مدة 10 سنوات في منصب قبودان دريا، هم :

الصدر الأعظم جزايرلي غازي حسن باشا 18 سنة ، وشهرًا واحدًا ، و19 يوما، (مصطفي الثالث ، عبد الحميد الأول ، وفي عهد سليم الثالث مرتين) ؛ قيليج علي باشا 15 سنة ، و 8 أشهر ، و 15 يومًا (سليم 2 ، مراد 3) ؛ الوزير الثاني داماد بياله باشا 14 سنة (القانوني ، سليم 2) ؛ بربروس خير الدين باشا 12 سنة ، وشهرين ، و 28 يومًا (القانوني) ؛ الصدر الأعظم داماد محمد علي باشا 12 سنة ، شهرا ويومين (6 دفعات ، عبد الحميد 1 وعبد العزيز 1) ؛ كوجوك داود باشا 12 سنة (دفعتين ، بيازيد 2) ؛ الصدر الأعظم قوجا محمد خسرو باشا 10 سنوات ، و 4 أشهر ، 12 يومًا (دفعتين ، محمود 2) .

أقام قبودان دريا في غاليبولي من 1354 إلى 15 / 5 / 1516 . وبعد 162 عامًا انتقل إلى قاسم باشا في إستانبول بأمر من ياووز . إن المنطقة الكبيرة المسماة قاسم باشا ،

كانت مليئة تقريبًا برجال البحرية . جميع تشكيلات القيادة البحرية ، ثكنات البحرية ، أكبر معمل ومصنع للسفن في العالم ، مخازن المصنع كلها كانت هناك . ظلّت نظارة البحرية كذلك فيها حتى 1922 .

4 – أميرالية السويس البحرية :

هو الأميرال الذي يسمى قبودان السويس أو قبودان الهند . هو لواء بحري مقره ميناء السويس . يتعاون مع الوزير بكلر بك مصر . لكن آمره ، ليس بكلر بك مصر ، وإنما هو الديوان والصدر الأعظم ، ولا يرتبط بالقبودان دريا (قائد القوات البحرية) ، إذ لم تكن قناة السويس قد فتحت بعد ولم يكن هناك منفذ إلى البحر الأبيض . لم تستعمل العثمانية أبدا طريق رأس الرجاء الصالح ، بسبب سيطرتها الكلية على البحر الأحمر كبحر داخلي ، حيث إنها في تلك الحالة ، تكون بعكس الأوروبيين ، قد أطالت طريق آسيا بشكل كبير . قبودان السويس كان واليًا على مدينة السويس ، كان الأسطول المرابط فيها وكذلك معمل المراكب ، تحت إشرافه . كان أعلى أميرال عثماني في البحر الأحمر ، خليج عدن ، بحر عمان ، خليج البصرة والمحيط الهندي . كان في هذه البحار ، مثلاً ، في البصرة ، في جدة ، في القطيف ، في عدن، أميرالات عثمانيون آخرون برتبة لواء ، لكن قبودان السويس ، كان آمرهم . عين ياووز عام 1517 . اول قبودان للسويس ، وهو سلمان رئيس ، قائد القوات البحرية للمماليك ، ولكنه كان في الأصل أميرالاً عثمانيًا .

كان قبودان السويس ، يرسل أساطيله حتى أندونيزيا في الشرق وموزمبيق في الجنوب . وهو مسئول كذلك عن مضيق باب المندب ، وصيانته مغلقًا . لا يمكن لأية سفينة لا تحمل الراية العثمانية أن تدخل البحر الأحمر . ولكنه لم يتسن تأسيس سيطرة مطلقة كهذه في خليج البصرة ؛ أولاً ، كان مضيق هرمز مفتوحًا جدًا بالنسبة إلى باب المندب ، وكان لا يمكن غلقه نظرًا لقوات ذلك العهد البحرية ، وثانيًا ، لم يكن خليج البصرة بحيرة عثمانية كالبحر الأحمر . جميع السواحل الشرقية للخليج كانت لدى إيران . لم تكن إيران تملك أسطولاً ، لكنها لم تكن تسمح للعثمانية ، بالاقتراب من سواحلها .

تيسّر هبوط العثمانية إلى المياه الهندية بفتح مصر 1517 . لم تكن للعثمانية ، قبل هذا التاريخ أي سواحل على خليج أو بحر تابع للمحيط الهندي . صرف فاتح جهودًا عظيمة لغلق البحر الأحمر وذلك ببقائه في 1517 مدة طويلة في القاهرة (الذين تسلّطوا على البحر الأحمر في ذلك التاريخ هم البرتغاليون) . هبط ابنه القانوني ، إلى خليج البصرة في 1534 ، لم يستطع غلق هذا الخليج .

هذا الوضع الذي لخصناه ، كان هو الوضع الرسمي . لكن الحقيقة ، أن العثمانية كانت قد نفذت إلى البحار الهندية قبل 1517 ؛ ذلك أنها كانت قد استولت بصورة فعلية على أسطولي إمبراطوريتين إسلاميتين كبيرتين ، هما سلطنة المماليك وكجرات . وبأمر بيازيد الثاني وبطلب من سلطان مصر ، أصبح سلمان رئيس قائدًا للقوات البحرية للمماليك . جاء من الأناضول إلى مصر مع 2 000 لوند (بحارة)، وضباط مدفعية بحرية عثمانيين . كان بيازيد الثاني ، أبو ياووز قد وضع يده على البحرية المصرية بسياسة الحل السلمي ؛ لذا لم يبق أمامه سوى حل مسألة جيشها . أرسل سلمان رئيس ، أحد أميرالاته ، حامد رئيس ومعاونه حسن رئيس إلى شاهية كجرات دولة الهند العظمى . أسّس أميرالي العثمانية ، بدعوة من الشاه ، أسطولا في كجرات . ولم يكن أسطول كجرات فقط تحت إشراف الأتراك ، بل بقيت مدفعيته كذلك مدة طويلة تحت إشرافهم . وبناء على ذلك ، تكون العثمانية قد هبطت منذ زمن بعيد إلى بحر عمّان ، وبدأت بمناهضة البرتغال حول هذا البحر (ابن عياض ، 4 ,220 ,365 - 6) .

اجتاز الأميرال البرتغالي فاسكودي جاما من رأس الرجاء الصالح لأول مرة في التاريخ إلى المحيط الهندي . كان دليله ، مؤلف **كتاب الفوائد** للجغرافي البحري العربي المعروف ابن مجيد . رفع العلم العثماني ونزل في السواحل الشرقية من أفريقيا . أكرم أهالي أفريقيا الشرقية البرتغالي إكرامًا كبيرًا ، ظنًا منهم أنه أميرال البادشاه العثماني بيازيد الثاني . كان على سواحل موزمبيق وقتئذ ، سلاطين الشيرازيين العرب أصلاً الذين أعلنوا عام 1517 ولاءهم وتبعيتهم إلى ياووز . طلب فاسكودي جاما من السلطان الشيرازي ، شهاب الدين ابن مجيد النجدي واستصحبه معه إلى الهند .

أسس القانوني قيادة بحرية في اليمن وربطها بقيادة السويس . وأسس في جدة أميرالية

أخرى . أسّس كذلك لواءين بحريين في كل من البصرة والقطيف على خليج البصرة . وفي 1554 ، فصل منطقة نجد وجميع السواحل الغربية لخليج البصرة من إيالة البصرة وأسس إيالة لحساء (167, 2, Muhimme) . عيّن برتبة الباشوية لهذه الإيالة أمير لواء طرابزون بييقلي أوغلو مصطفى بك لمعرفته اللغة العربية بسبب ولايته على اليمن سابقًا ، وهو ابن فاتح دياربكر آق قويونلي بييقلي محمد باشا (بجوي ، 1 ,224).

وبناء على ما توافر لدي من الوثائق، فإن أول تركي اجتاز المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي ووصل البصرة عن طريق رأس الرجاء الصالح ، هو فائق أفندي الذي كان ملازمًا أول بحريًا في 1864 ، اسم سفينته بصرة ، قبل فتح قناة السويس بمدة قصيرة ، ثم أصبح بعد ذلك أميرالاً (1845 - 1909) . حقق ذلك بغرض إشباع هوايته وبأمر من السلطان عزيز الذي له هواية كبري بالبحار .

ذهبت الأساطيل العثمانية التي سارت إلى سومطرة وماليزيا مرات عديدة ، إلي سيام (تايلاند) كذلك . وفي عهد القانوني ، بعد اشتراك خير الدين رئيس ، في حملة الهند 1538 كأحد قواد سليمان باشا ، انفصل في ميناء ديف (Div) التابع لكجرات بأمر سليمان باشا (الذي صار صدرًا أعظم بعد ذلك) بغرض استكشاف خليج بنغال . واجتاز من مضيق بالك Palk إلي خليج بنغال . ورسا في ميناء تناسيريم . وعندما علم ملك سيام الموجود وقتئذ في Ayuthia ، بدخول سفينة عثمانية إلى مينائه ، دعا العقيد البحري العثماني لمقابلته . وأدخله في خدمته . بقي محمد رئيس 15 سنة في سيام . فتح في Ayuthia 7 جوامع ، وجلب رجال دين عربًا . وشكّل نواة الجالية الإسلامية التي يبلغ عددها حاليًا في سيام ، مليونين (Peregrinacam, Fernao Mendes Pinto ، لشبونه 1910 ، 3 ,37 ,4 ,161) . إن الإنجازات الأخرى للبحار التركي ، الذي كان يتقاضى من ملك سيام راتبًا قدره 12 ألف سكة ذهبية سنويًا ، لا بد وأنها مذكورة في المصادر السيامية .

والمعلوم أن إنجازات البحارة الأتراك ، تعدّت إلى الهند الجنوبية ، عدا إنجازاتهم في الهند الشمالية والوسطي ، وأن مهراجا مالابار ، اعترف رسميًا بخضوعه للبادشاه (جودت ، 158,3 - 9) . وفي 1780 ، كان حكام الهند الجنوبية لا يزالون يرسلون إلى

إستانبول رسائلهم التي تبين تبعيتهم للبادشاه .

وأعتقد أن البحارة العثمانيين وصلوا في الفترة الكلاسيكية إلى المحيط الهادي كذلك . ولمعرفة فعاليات تلك المناطق يجب تدقيق المصادر المحلية في جنوب - شرق آسيا . تبحث الوثائق العثمانية عن علاقة العثمانية بالفلبين في النصف الثاني من القرن 19 فقط . حقق خواجه بكر أفندي مخبر السلطان عزيز ، إنجازات واسعة في الفليبين ونجح في كسب جماعات كبيرة إلى الإسلام في الجنوب . حرّر عند عودته كتابه المسمي **سياحتنا مة فلبين** .

أما سلطنة آجة Ace التي تسيطر على سومطرة ، ماليزيا ، والجزر الواقعة بينها ، فقد شرعت بتلاوة الخطبة باسم البادشاه العثماني اعتبارًا من 1517 . دخل إلى هذه المنطقة عدد كبير من السفن ، البحارة والمدفعية العثمانية .

The Portugues in India, Danvers 1, 480 - 1 . **Topkapi Soroy Arsivi, 8009 - E -**

Portugues in south Arabian, SerJeant, Coast, 119 .

كاتب جلبي ،جهانما ، 145 ، محمد ضياء ، **تاريخ آجي** ؛

A. J. S. reid Sixteenth Century Turkish influenee in western Indonesia, 1963

Sisteenth Century turkish Influenee in western Indonisia . كوالالومبور

كان سلاطين آجة يخاطبون السلطان سليمان بهذه الصفات « حامي الحرمين الشريفين ، خليفة الله في الأرض » يقول المؤرخ الإنكليزي ما يلي : « حصل سليمان العظيم ، في جنوب آسيا والشرق الأقصى بصفاته التي يتصف بها كخليفة للإسلام وأعظم حاكم في العالم ، على نفوذ عظيم ؛ كانت كلمة عثماني ، بالنسبة إلى شعب هذه المناطق ، أفخم كلمة » .

5 - أميرالية الدانوب (الطونة) .

قبودان الطونة ،برتبة لواء بحري (من النادر جدًا أن يكون برتبة فريق أول بحري) . مسئول عن المرور العسكري أو التجاري في نهر الطونة اعتبارًا من دلتا الطونة إلى استركون . كان تحت إشرافه قوة بحرية مهمة تسمي « إينجة دونانما » (الأسطول الطويل) وهي عبارة عن سفن شراعية وجدّافية وسفن مدرعة نهرية صغيرة تحمل مدافع شاهي . يتبع إداريًا الصدر الأعظم رأسًا ولا يتبع قائد القوة البحرية (قبودان دريًا) .

يشترك على الإطلاق في الحروب ضد ألمانيا ، وإضافة إلى ذلك ، ينقل إلى بودين (بودابست) العتاد ، الطعام وكل المهمات . كان الأسطول الطويل يحتوي على جنود بر مثل « آزابلر » (المشاة البحريين) والإنكشارية . مقر الأميرالية ، في ميناء Silistre النهري أما أكبر مصنع للمراكب لها ، في ميناء رسجك النهري . ينقسم إلى عمارتين بحريتين Commodore ، اقتسمتا بينهما الساحة الممتدة من الدلتا إلى فيدين ، ومن فيدين إلى بودين وما بعدها . وكانت أميرالية الطونه مسئولة كذلك عن إبقاء الطريق النهري للطونة مفتوحًا بصورة مستمرة وتطهير حوض النهر .

6 – أميرالية الفـرات :

هي كأميرالية الطونة ، تشكيلاتها أصغر منها ، مسئولة عن المرور النهري من بيرة جك إلى البصرة . تنقل قسمًا من المهمات العسكرية إلى بغداد ، أكبر قلعة تجاه إيران . تزداد أهميتها خلال الحروب مع إيران . مقرها ميناء بيرة جك النهري الذي يحتوي على معمل كبير لتصليح وإنشاء السفن (ترسانة) . كان أسطول الفرات الطويل (فرات اينجة دونانماسي) عام 1565 ، مكونًا من 700 سفينة ، وكل سفينة تحتوي على 70 ملاحًا (49 ألف شخص) . كانت 200 من السفن في ميناء بغداد النهري أي على نهر دجلة . كان الأميرال يقيم في بيرة جك . وسميت كذلك « شط قبودانغلي » (أميرالية الشط أو قيادة الشط) . كان مسئولاً عن تنظيف حوض كلا النهرين . انتهت عملية تطـهير حوض الفرات في 30 / 1 / 1702 وعمل فيها 40 ألف عامـل . فقدت هـذه الأميرالية ، — التي ندر أن أعطي أميرالها مرتبة فريق أول بحري (بكلر بك) ، في القرن 18 — أهميتها السابقة . أحد أسباب فقدان الأهمية هو انحطاط الدولة وترك الإيالات لحالها ، والسبب الآخر أنه لم تعد تحدث حروب مهمة مع إيران بعد 1750 . (600 . ? .. 164, 5. 259, 3, Muhimme) .

7 – أميرالية الخزر :

أسسها في 27 / 8 / 1579 أوزدمير أوغلو عثمان باشا . كان مقرها في دربند

(بالتركية : دمير قابو ، بالعربية باب الأبواب) في داغستان على بحر الخزر . كان لها عمارة بحرية في ميناء باكو . أميرالها الأول محمد بك الذي جيء به من أميرالية آزاك (روستوف) والذي منحه اوزدمير أوغلو رتبة فريق أول بحري . انتهت هذه الأميرالية بسبب انتقال داغستان وشيروان من العثمانية إلى حيازة الصفويين ثانية وانقطاع علاقة الدولة ببحر الخزر .

8 – أميرالية كور (كورا) :

مقرها أردخان . يوجد فيها مصنع مراكب صغير ، باستطاعته إنتاج 4 أو 5 سفن حربية صغيرة في السنة (Muhimme 1579 ,37 ,380) . تراقب نهري كور (Kura) وآراس ، لها خدمات في الحروب مع إيران ومراقبة كرجستان . كان آمرها عقيد بحري .

9 – أميرالية فاشا :

قبودانية فاشا ، فاش أو Fas ، كان قائدها كذلك عقيدًا بحريًا ، أسسها قيليج علي باشا في 1579 ، كان مقرها في بوتي Poti (بالعثمانية : فاش ، فاشا) . كان لها مصنع مراكب صغير في باطوم . أسست هذه أيضًا لمراقبة كرجستان (Muhimme, 1579 ، 32 ,147 .33 ,219) .

10 – أميرالية النيل :

أسسها ياووز عند فتح مصر في 1517 . عين لقيادتها حميد أوغلو آيدن رئيس . كانت أميرالية درجتها لواء بحري تراقب السير النهري على النيل . مقرها القاهرة .

11 – الأميراليات (بدرجة لواء بحري) المرتبطة بالقائد العام للقوات البحرية (قبطان دريا) :

رغم أن الأميراليات بدرجة فريق أول بحري (تونس وطرابلس الغرب) ، لم تكونا تابعتين رأسًا إلى قائد القوات البحرية ، لكن قائد القوات له الصلاحية في حركات

البحر الأبيض الكبري ، فله أن يدعو هذه القطعات البحرية مع الأميرالين فريقي أول البحريّين لهما، الذين هما في نفس الوقت بكلر بك (ولاة) لتلك الايالتين . إن هذه الأميراليات الثلاث ، كانت مسئولة عن غرب البحر الأبيض . كان شرق البحر الأبيض ، البحر الأسود ، بحر إيجة مرمرة ، المضايق ووسط البحر الأبيض بصورة جزئية ضمن صلاحية ومسئولية القائد العام للقوات البحرية . كانت أهم الألوية البحرية (قائدها بدرجة لواء بحري) المرتبطة بالقائد العام للقوات البحرية والتابعة لإشرافه بصورة مباشرة هي : 3 ألوية بحرية في قاعدتي رشيد ودمياط البحريتين في الإسكندرية في مصر ؛ صيغلا (أزمير) ، رودس ، ساقيز ، ميديللي ، علائية (آلانية – Alanya) ، في البحر الأسود آزاك (روستوف) ، كلي بولو ، قاوالا ، سلانيك ، في كريت كاندية ، خانيا ، ريسمو ، في قبرص ماغوسا ، في قرم كفه Kefe (Feodosia) ، في موراناڤارين ، مودون ، في بحر اليونان (Iyonya) . واينه بختي (Lepanto) وفي تونس مهديّة .

شرق البحر الأبيض ، كان يعتبر بحيرة تركية . وكان كذلك حتى في الأزمنة المتأخرة ، مثلاً ، أبلغ الباب العالي في 1746 ، كلاً من إنكلترا وفرنسا المتحاربتان بمذكرة (جودت ، 2 ,138 - 9) ، مفادها أن شرق البحر الأبيض هو تحت سيطرة العثمانية المطلقة ، وأنه يحظر على أية سفينة حربية فرنسية أو إنكليزية أن تجتاز المنطقة التي تقع شرق خط طول 23 ، وإن اجتازت ، فسوف تغرق ، ويسمح للسفن التجارية فقط بالمرور . وفي حالة تحرّش السفن التجارية الإنكليزية والفرنسية ببعضها البعض في شرق البحر الأبيض فسوف يضع الباب العالي يده على هذه السفن ولا يعيدها حتي نهاية الحرب الإنكليزية – الفرنسية .

12 – تشكلات القيادة العامة للقوات البحرية (قابودان دريالك) :

كان أميرالات العثمانية في القرن 16 ، من أغنى رجال العالم ؛ لأن حصتهم في الغنائم ، كانت كبيرة جدًا . اضطروا في العصور التالية ، إلى المعيشة على رواتبهم .

كان يدير القوات البحرية ، 4 أميرالات يعقدون مجلسًا في قاسم باشا وهذا يقابل

لوردات الأميرالية في إنكلترا . هؤلاء الأميرالات حسب التسلسل كانوا قبطان دريا ، قابودانة ، باترونا ، ريالة . قابودانة ، هو لواء ثم فريق أول وكيل القابودان دريا في مختلف الأعمال . الاثنان الآخران ، كانا لواءين ويلقبان « بك » . كان الأميرال الكبير (ناظر البحرية) يحمل عصا حمراء ، والفريق أول البحري (بكلر بك البحرية) خضراء ، اللواء البحري (سنجق بك البحرية أو دريابك) زرقاء (429 ,7 , d'Ohsson) . كانوا يعلّقون على سفنهم الشراعية حسب التسلسل ثلاثة ، اثنين وواحدا من الفوانيس التي تقابل الشارات الثلاث والاثنين والواحدة التي يحملها جنرالات البر .

كان القانون ينص على أن يكون الضابط البحري قد أغرق إحدي سفن العدو الحربية ، ليستحق أن يكون قائدًا لسفينة حربية شراعية كبيرة (قادرغة) أو زورق حربي كبير (galer) . كانت الجندية البحرية (لوندلك تنتقل على الأغلب ، من الأب إلى الابن كما هي الحال في ضباط البحرية . وقد قلّص ميزومورتا حسين باشا ، القانون أكثر ، بوضعه مادة أنه لا يمكن لأي جندي بحري أن يصبح ضابطًا بحريًا ، ما لم يكن أبوه ضابطًا في البحرية العثمانية . كان الضباط يتدرجون من الجنود البحريين (لوند) . وقد بدأ الضباط بالتخرج من المدارس بعد تأسيس كلية الهندسة البحرية الإمبراطورية قبيل عام 1770 .

كانت البحرية مجالاً باهظ التكاليف . يسرد لنا مؤرخ العصر راشد محتويات وتوابع القطعة الكبرى للأسطول الهمايوني الذي سار إلى البحر الأسوذ عام 1711 (3 ,353) : أقلعت سفينة الإميرالية الهمايونية (سفينة القيادة البحرية الإمبراطورية) من ميناء صناعة السفن وهي محملة بـ 300 . 3 جندي بحري (لوند) و 22 قطعة بحرية خاصة بأمراء البحر (ألوية بحريين) و 27 سفينة شراعية كبيرة (كاليون) محملة بـ 16 ألف جندي محارب (لوندات مقاتلين) 30 قطعة بحرية (كاليتة) بكل منها 220 جنديًا بحريًا و 60 سفينة (فرقتين) بكل منها 80 جنديًا و 120 قطعة من سفن النقل (قانجاباشي) ، 121 زورقًا بحريًا (vulik) بكل منها 7 جنود ، وجمعها 360 قطعة من السفن الإسلامية عليها 35 ألفًا من الجنود الغزاة .

كتب سفير لويس 14 في إستانبول Marquis de Nointel في نهاية رسالته التي يشرح

فيها بانبهار نظام الأسطول الهمايوني المرابط في جزيرة ساقز ، هذه الجملة : « كان النظام في بحرية البادشاه عظيمًا إلى هذه الدرجة » (tant l'ordre est grand dans la marine du Grand Seigneur **Journal**, Galland ، 2 ,176) .

لم تمتلك أية دولة ساحلاً على البحر الأسود و لم يكن لأية دولة الحق في رفع رايتها فيه مدة 3 قرون كاملة اعتبارًا من عهد فاتح حتى السنوات التي تسبق عام 1770 . وكان ممنوعًا دخول زورق تاجر مسيحي إلى البحر الأسود (**La Vie Quotidienne** ، **Mantran** ؛ 159 ، Babinger ، **Mehmed der Eroberer** ، 340) . ذكر الكونت مارسيكلي عام 1692 ، أن بالبحرية العثمانية 573 62 جنديا ، وأنه لا يمكن إطلاقًا اجتياز مضيق جنا قلعة بالقوة (ص 262, 263, 267 - 288, 287, 8) . ولم يكن بالإمكان كذلك الاقتراب من قاعدة بحرية عثمانية . كانت قلعة أبو قير التي تحمي الإسكندرية ، مجهزة « بـ 70 قطعة من مدافع باليمر Balyemer المدهشة ذات العشرين شبرًا » (أولياء ، 10 ,702) .

لكن البحرية العثمانية فقدت مكانتها اعتبارًا من نهاية العصر 18 . كانت حينذاك من أكبر الأساطيل ، من حيث القطع . لكن معنويات البحرية العثمانية ، كانت قد ماتت ، أو أنها على أقل تقدير ، كانت قد انحطت . انخفضت رواتب صنف البحرية إلى درجة أن سليم الثالث أولاً ، ثم محمود الثاني أضافا إليها علاوات غير قليلة لأجل الترغيب . لم تبق تلك الرغبة التي كانت لدى أهالي أناضول الغربية تجاه البحرية . بدأ أهالي شرق البحر الأسود بالانتساب إلى البحرية .

13 ـ معمل السفن الإمبراطوري (ترسانة همايون) :

عندما يقال « ترسانة همايون » يفهم من ذلك ترسانة إستانبول . هو أكبر معمل سفن للدولة . واليوم هو كذلك . كان في حينه أكبر معمل للسفن في العالم وأحد أكبر المنشآت الصناعية على الكرة الأرضية . وكلمة « ترسانة » ككلمة « أميرال » مقتبسة في اللغات الأوروبية وفي اللغة التركية من كلمتي « دار الصناعة » وأمير الماء » العربيتين . (**Dictionnaire Etymologique**, Deuzat ، الطبعة العاشرة : 1938 ، ص 31ب

50 ب) . كان عرب القرون الوسطى ، أساتذة البحر وصناعة السفن ، وحكامًا على البحر الأبيض والمحيط الهندي .

الأمراء الكبار للترسانة بالتسلسل هم **ترسانة أميني** (أمين مدير) ، **ترسانة كتخداسي** (معاون) ، **وترسانة باشمعماري** (سرمعمار ترسانة عامرة) والأخير هو مهندس إنشاء السفن .

قائد القوات البحرية ، هو الآمر على ترسانة أميني . كان تحت إشرافه 50 ألف عامل ، أستاذًا ماهرًا ، نجّارًا وما يقرب من 10 مهندسين للسفن . له سفينة رسمية كبيرة للسير في المحيطات ، و 6 أزواج من القوارب الرسمية للسير في المضيق (راشد ، 316, 5 ؛ مارسيكلي ، 146 ؛ لطفي ، 148, 3 ؛ أولياء ، 147, 1) . وكان في المعمل متحف بحري لعرض المراكب الشراعية المستعملة في الحروب القديمة .
(81, 1, **Journal**, Galland)

موظفو المعمل بدرجة عقيد ، هم : كاتب سجن فورسا ، وهو آمر ومحافظ الأسرى والفورسا (جدّافو السفن من الأسرى) ؛ موظف المالية المسمى كاتب المخزن ؛ الرقيب (باشجاويش) آمر الضباط المعمل ، الموظف المالي ، معلون الموظف المالي للمعمل ، روزنامجه جي المعمل (كاتب حسابات المعمل) ، كاتب الإجارة للمعمل ، كاتب مخزن الخشب ، كاتب مخزن الرصاص ، كاتب المراكب الشراعية ، (لم أعدد الذين بدرجة رائد) . **ترسانة أغاسي** ، والمسئول عن أمن السفن الراسية في الميناء **ليمان رئيسي** (رئيس الميناء) ، كانا برتبة لواء بحري .

يوجد حاليا معمل سفن الخليج الذي تبلغ مساحته 75 ألف م^2 ، يقع على جزء صغير من الترسانة العامرة . أكبر المعامل بين المعامل الأخرى ، هو معمل غاليبولي . استخدم فاتح فيها عام 1470 ، حوالي 100 ألف عامل دفعة واحدة لغرض التفوق على الأسطول البندقي (332, Babinger) . معمل الجزائر كان كبيرا جدا أيضا . معامل سفن القاهرة وبيرة جك هي المعامل الكبيرة التي تليها . كان في الإمبراطورية وقتئذ ، عدا المعامل المذكورة 81 معملاً حكوميا ومئات المعامل الصغيرة والمصانع التي يملكها القطاع الخاص . كانت تصنع سفنا جميلة حتى في فترة الانحطاط . « يوجد حاليا في

سينوب معمل كبير ، يصنع السفن للدولة العثمانية » (الراهب Bijiskyan ، 28) (1819) .

« يحتوي معمل سفن صمصون على أحواض بديعة جدًا لإنشاء السفن » (الماريشال فون مولتكه ، 154) (1838) . كانت تصنع سفنًا للأقطار الأجنبية وحتى للبندقية . وفي نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 الذي انتهى فيه دور العمال الأسرى ، كان ثلاثة أرباع العمال من الأتراك والربع الأخير من المسيحيين (أكثرهم روم ، وقليل من الإيطاليين) .

كان الأسرى الذين يعملون في المعمل والذي يتراوح عددهم بين 30 و 50 ألفًا Schweigger **Teutschland nach Konstantinopel** ، نورمبرغ 1619 ، ص 154) والجدّافون (فورسا) الذين يجدفون في السفن ، هم أسرى حرب أسروا من المسيحيين . يقول الراهب الدانمركي Olaf Egilsson ، الذي عمل بنفسه جدافًا في السفن التركية ، في كتابه الذي كتبه بعد عودته من الأسر « كان الطعام الذي يقدم لنا ، نحن الفورسا (الأسرى الجدّافين) ، من نفس الطعام الذي يقدم للضباط الأتراك في مقصوراتهم ؛ وشيء آخر وهو أن الأتراك كانوا يقدمون للفورسا الراغبين ، البيرة ، الشراب والبراندي رغم أنهم لا يشربون المشروبات عدا الماء » (كوبنهاكن 1641 ، ص 22) . كانت الدولة الوحيدة ، التي تعني بالفورسا ، هي العثمانية . يتقاضون الأجور وقت السلم تنقطع عنهم أجورهم وقت الحرب . يعتني الأتراك بالفورسا المسيحيين ، أكثر مما يعتني البنادقة ببحارتهم أنفسهم ، ويقدمون لهم طعامًا أكثر » (Lord Paul ، 2 ، 616 Ricault) . « زرت سجن معمل سفن طولون ، وكذلك زرت الذي في إستانبول . كانت معاملة المساجين في سجن إستانبول ، إنسانية وليست لها أية علاقة بالمعاملة اللاّإنسانية التي تمارس في طولون » (الأميرال Sir Adolphus Slade ، ص 64 - 6) .

14 – دور السفن الجدافيـــة :

كانت السفن تسير بالمجاديف في الفترة حتى 1700 . وفي القرن 17 استعملت السفن الشراعية التي تسمى « كاليون » بجانب السفن التي تسير بالتجديف . ولم تترك السفن الجدافية إلاّ قبيل عام 1700 . كان الطراز النموذجي للسفينة الجدافية هو « قادرغه » . كان الذين يجدفون ، هم أسرى الحرب المسيحيون ، السجناء أو المستخدمون بالأجرة وكانت

السفن المجدافية ، تحتوي كذلك على أشرعة . تنقسم السفن بالنسبة إلى أعداد مجاديفها وجدّافها إلى الأنواع التالية :

1 – **فرقاطة** Firkate : تحتوي على 10 إلى 15 مقعدًا (مجدافين) ، في كل مجداف 2 - 3 جدّاف (فورسا) عدد الجدّافين 40 - 102 .

2 – **بركنده** Perkende : 20 - 24 مقعدًا ، في كل مجداف 3 جدّافين ، عدد الجدافين 60 - 144 .

3 – **كاليتا** Kalita : 20 - 24 مقعدًا ، في كل مجداف 3 - 4 جدّافين ، عدد الجدافين 120 - 192 .

4 – **قادرغه** : Kadirga : 25 مقعدًا ، في كل مجداف 4 جدّافين ، عدد الجدّافين 200 .

5 – **باشتاردا** : Bastarda (بالفرنسية : Galère royale) : 26 - 36 مقعدًا ، في كل مجداف 5 - 7 جدّافين ، عدد الجدّافين 260 - 504 .

(كاتب جلبي ، **تحفة الكبار** ، 152) .

وكانت السفينة الأعلى والأعرض من الباشتاردا ، تسمى « ماونه » mavuna .

تحتوي القادرغه على 4 أشرعة ، 2 تندة (مظلة) . وتصنع جمعًا من 5950 ذراعًا من القماش . يبدّل الشراع في كل 3 أو 4 سنين والتندة في كل سنتين ، أما الباشتاردا الخاصة بالقائد العام ، فتبدل أشرعتها في كل سنة . تعطى لكل قادرغه 20 قنطارًا من البارود ، وتزداد هذه الكمية في الحروب . تصنع الشارات والأعلام من الحرير . يكلف صنع العلم الواحد 50 ليرة ذهبية . ولمقاعد الشرف في القادرغه ، يستعمل لكل سفينة ذراعًا من الجوخ الأحمر ويتبدّل كل سنتين . ينص القانون على ضرورة وجود قائدين بحريين اثنين في كل سفينة . كان للدولة في 11 مدينة ، معامل أقشمة للأشرعة ، وفي 8 مدن ، معامل قطران وزفت ولها 4 معامل لصنع المجاديف .

كان عدد العاملين في القوة البحرية بصورة فعلية 200 ألف وفي دور العظمة

250 ألف شخص ؛ 50 ألفًا منهم جنود بحرية (لوند) ، مدفعيون إلخ ، والبقية عمال في معمل السفن ، وجدّافين (فورسا) . وقبيل عام 1500 كان بالإمكان أن يستوعب الأسطول الهمايوني 63 ألف جندي وفورس . كان صنع السفينة الواحدة يكلف في تلك الفترة من 20 إلى 24 ألف ليرة ذهبية (تحفة ، 18) . ولما كانت تصنع سنويًا 50 قادرغه (سفينة حربية شراعية) فهذا يعني أن مبلغ 000 100 1 ليرة ذهبية تصرف سنويًا لصناعة السفن الحربية فقط . كامل القوة البحرية ، كانت تجدد كل 7 أو 8 سنوات . لا تبقى أية سفينة حربية في الأسطول أكثر من 8 سنين ، تباع إلى القطاع الخاص . أساطيل حامية المغرب والأسطول الطويل لا يدخل ضمن هذا العدد . كان بإمكان الإمبراطورية ، في الظروف الاستثنائية ، أن تصنع سنويًا 100 وفي حالة شحذ كامل طاقاتها 200 قادرغه . كان السلاطين يقولون عند حديثهم عن القوة البحرية « دونانماي همايون » (القوة البحرية الإمبراطورية) . كان سليم الثاني قد منح قسمًا من حديقته الخاصة إلى معمل سفن الخليج لغرض وضع 8 سفن إضافية في حوض صناعة السفن (بجوى ، 1 ,489) .

جنود البحر الأصليون ، هم أفراد البحرية الذين يسمون « لوند » . يسيّرون السفينة ويحاربون . كان اللوند يستعمل كل آلة حادة ، نارية وثاقبة باستثناء للدفع . يستعمل المدافع جنود صنف المدفعية البحرية . أما صنف عزب البحر ، فهم المشاة البحريون ، لا يمكنهم تسيير السفينة . ويستعملون فقط في الإنزالات التي تجرى على السواحل عبر البحار ، ويحاربون كذلك في حروب البحار المفتوحة . يستخدم جنود تيمارلي سباهي وبخاصة الإنكشارية في الأسطول في الحملات الكبرى . كان هؤلاء جنود إنزال . يوجد في كل سفينة ــ بالنسبة إلى حجمها ــ وعلى أقل تقدير ، مهندس واحد ، معمار ، نجّار ، حدّاد ، حبّال ، المختص بالأشرعة ، كاتب ، طبيب ، جرّاح ، إمام ومؤذن .

السببان الرئيسيان لتفوق الاستراتيجية البحرية العثمانية في العصر 16 هما : سرعتها وقدرتها على الحركة والدوران ، إذ لا يجوز تحميل الحاجيات التي لا لزوم لها وكان ذلك مخالفًا للقانون . لا تستعمل في الحرب السفن التي تحتوي على أقسام إضافية والمصنوعة لغرض إظهار العظمة بشكل كبير . والسبب الثاني ، تفوّق المدافع البحرية في مدى

الإطلاق . صنع كمال رئيس المدافع بعيدة المدى في الأسطول قبل 1500 . لم يتمكن الأوروبيون لمدة عصر واحد على الأقل ، من صنع مدافع تفوق في مداها المدافع العثمانية ، وهذا يسّر للسفن العثمانية أن تضرب قطع الأعداء من بعد دون أن تصاب هي . وأخيرًا ، كان النظام لدى البحارة العثمانيين فائقًا جدًا بالنسبة لأوروبا . لكن هذا النظام المتفوق ، اختل في العصر 18 .

أنزل الأتراك إلى البحر لأول مرة في التاريخ سفينة الأميرالية « باشتاردا » بحمولة 2 500 طن . كانت ماردا ذات طابقين ، طولها 54 م ، عرضها 21 م ومساحتها عدا خزاناتها 2 200 م^2 ، قطر صواريها 3 أمتار ، أثثت بشكل ممتاز ، تحتوي على 120 مدفعًا وعدد طاقمها 2 000 شخص . كان قد صرف على صنعها مبلغ 19 مليون دولار بالسعر المتداول حاليًا . ثم صنعت بعدها سفينة أخرى حمولتها 3 000 طن . لكن هذه السفن ، كانت نادرة . إن السفينة الحربية الأصلية من طراز قادرغه ، كانت أصغر بكثير . « إن السفن الحربية (القادرغة) اللاتي رأيتهن في إستانبول ، كانت كبيرة جدًا وفي حالة استعداد دائم . تزييناتها المذهبة ، تبهر العيون . السفن ، معتنى بها عناية فائقة . وكذلك بالأفراد الجدافين ، كان طعامهم وحالتهم جيدة ، ويعاملون معاملة حسنة جدًا » (1711) (168, 1, De la Montraye) . « كانت توجد سفن حربية تركية جبّارة كثيرة راسية في ميناء إستانبول ، أطول من السفينة الكبرى للأسطول الإنكليزي Royal Souvereign بـ 12 قدمًا . كانت السفن بطول 51 , 55 م وعرض 85 , 14 م وبارتفاع 48 , 7 م ذات أربع مقصورات وسمك 28 , 81 م ، ذات 110 مدافع ، عدد طاقمها 1 600 ، ذات 95 قنطار حديد » (A Deseription of The East, Richard Pococke ، لندن ، 1745 ، 2 / 2 ,135) . وقد أنزلت إلى البحر في 1710 ، أكبر سفينة شراعية في العالم ، عدد طاقمها 3 300 ، من نوع كاليون باشتاردا (سفينة أميرالية) . كان الأسطول الهمايوني الذي أقلع في 21 / 3 / 1715 مكونًا من 189 قطعة حربية . كانت توجد في القطع الكبرى أكثر من 120 مدفعًا ، وإضافة إلى ذلك ، توجد مدافع صغيرة تسمى « صجمة » . وهكذا بدأ دور الكاليون . وأخذ يطلق على جنود البحرية « كاليونجي » بدلاً من « لوند » .

كان عدد السفن التي تصنع في معمل سفن استانبول سنويًا قبيل عام 1640 ، 72 سفينة . إن كلاً من السفينتين الكبيرتين Mavna وسفينة السلطنة التي شيدها مراد الرابع ، كان طاقمها يتكون من 3120 شخصًا (1120 منهم فورسا) ، و 150 مدفعًا ؛ 50 منها من نوع باليمز Balyemez وهو مدفع قلاع ذو منزل طويل يرمي قذيفة حديدية تزن 40 أقة . إن هذه السفن العملاقة صنعت وجهزت خلال 3 أشهر . من الضروري أن يكون في المعمل حوض مستقل لكل سفينة . وبالنسبة لمنجمباشي فإن كل حوض من هذه الأحواض يكلف في بداية العصر 16 ، 50 ألف آقجه (وتعادل 330 ألف دولار) .

كان القانون يقضي بعدم خروج البادشاه والصدر الأعظم إلى حملات عبر البحار . يمكن فقط للوزراء ، السردار (القائد العام) ، الأميرالات ، القواد البحريين قيادة الأسطول عبر البحار ، إلا أن بعض السلاطين ساروا في حملات قصيرة جدًا عبر البحار : فاتح إلى ميدلّي (1462) وآغريبوز (1470) والقانوني إلى رودس (1522 - 23) وأمثال هؤلاء الذين فتحوا بأنفسهم هذه الجزر . لكن البادشاه ، كان يتجول في بحر مرمرة بسفينة السلطنة الرسمية المسماة **بادشاه باشتارداسي** . ترفع عليها 3 فوانيس وراية ذات طغراء ذهبية ، وتصبغ أشرعتها ، مجاديفها ، صواريها وجميع أجزائها باللون الأخضر .

15 – دور السفن الشراعية (Kalyon) :

كان طاقم سفينة قائد القوات البحرية ، الشراعية التي تسمّى كاليون في نهاية العصر 18 يتكون من 80 ضابطًا ومن 1 000 إلى 1 500 نوتي تقريبًا . ضباطه كما يلي (427, 7, d Ohsson) : قائد السفينة ضابط برتبة (عقيد بحري) ، 3 قواد معاونون (الذين كانوا يسمون ، القائد الثاني والثالث والرابع) ، 20 ضابط شراع وسطح السفينة ، رئيس المدفعية (طوبجيباشي) و 6 ضباط مدفعية ، 7 ضباط انضباط ، رئيس موظفي سكّان (دفة) السفينة ، 6 ضباط سكّان ، 2 ضبّاط قوارب ، 22 ضباط لوازم ، ضابط مالية ، ضابط تقارير ، 4 ضباط خفر ، لكل سفينة إمام واحد ، مؤذن واحد ، طبيب ، ضابط جراح ، و 8 - 10 ضباط آخرون .

اهتم سليم الثالث بالطلبة الذين سيتخرجون ضباطًا بحريين في مدرسة الهندسة البحرية الإمبراطورية ، إلى درجة أنه خصص للطلبة المقبولين فيها والذين أكثرهم أبناء قواد بحريين ، راتبًا قدره 480 دولارًا بالسعر الرائج حاليًا .

كان عدد طاقم سفينة قبودان باشا الذي أمر محمود الثاني بصنعها في 1380 وسمّاها سليميه إحياء لذكرى سليم الثالث ، 400 1 ، ذات 120 مدفعًا . و 19 مدفعًا صغيرًا . 120 مدفعًا كبيرًا من قياس 26, 36 و 20 . وكانت توجد كذلك 4 مدافع ترمي قذائف حجرية . سرعتها 9 أميال في الساعة . وكانت السفينة الحربية الشراعية (كاليون) « محمودية » الذي أمر بصنعها محمود الثاني كذلك في 1829 « أكبر سفينة حربية ، في زنتها ودقة صنعها في العالم ، قابلت مهندس السفن التركي الذي صنعها » (Admiral slade ، ص 62 - 4) . وكذلك سفينة « آثار نصرت » ذات 79 مدفعًا ، هي من أكبر السفن الحربية في العالم . وكانت السفينة الحربية (كاليون) « فوزية » التي صنعت في معمل سفن ازميت عام 1836 ، وصمّمها المهندس محمود أفندي وصنعها العامل الفنّي موسي قلفه ، من أكبر السفن الحربية في العالم ، ذات 96 مدفعًا ، عدد طاقمها 960 شخصًا . طولها 198 م وعرضها 55 م . كانت السفينة الحربية « فتحية » التي صنعها عثمان قلفه في معمل سفن كملك عام 1830 ، ذات 96 مدفعًا ، وعدد طاقمها 960 ، طولها 193 م وعرضها 52 م (جودت ، 7 ,349 - 51) . كانت السفن الشراعية (كاليون) ، تستعمل مدة أطول بكثير من المراكب ذات المجاديف (قادرغه) . فمثلاً « فتحية » آخر سفينة شراعية (إذ كان قد بدأ دور الأسطول المدرّع) صنعت في مصنع سفن إستانبول وأنزلت إلى البحر بتاريخ 14 / 12/ 1856 ، خدمت في البحرية كسفينة تدريب مدة 47 عامًا حتى 1903 .

كان الأسطول الشراعي لكوجوك حسين باشا ، عام 1801 ، هو الأسطول الثاني في العالم بعد إنكلترا ومكونًا من سفن حربية حديثة : 24 كاليون ذات 4 عنابر ، 24 فرقاطة ، 15 كورفيت Corvet ، وسفن أخرى صغيرة (نقل ، طوبجكر (حاملة مدفع ثقيل) ، نهرية ، حارقة إلخ .) غرق هذا الأسطول في نافارين عام 1826 . صنع محمود الثاني أسطولاً جديدًا . أدخل محمود الثاني في تلك الفترة إلى الأسطول أول سفينة

بخارية ، ثم أسس بحرية حديثة مكونة من سفن بخارية ، ثم بخارية ومدرعة .

16 – القراصنـــة :

وكما أنه كان لصنف الكوماندو والخيالة في الجيش الأهمية والثقل الجوهريان في صلب فتوحات العصرين 15 ، 16 ، كذلك أصبح لصنف القرصان في القوة البحرية الإمبراطورية الدرجة نفسها من الأهمية ، في التفوق البحري العثماني في العصر 16 . وفي الأصل ، فإن جميع الأميرالات الأفذاذ لهذا العصر ، كانوا كلهم قد نشئوا من صنف القراصنة . ويندر منهم من كان متخرجًا في أكاديمية الأندرون مثل بيالة باشا . القراصنة ، هم صنف المغاوير (الصاعقة البحرى الذي يشكل قسمًا من قوات الدولة البحرية . تمركز في 1513 في قاعدة المغرب وبشكل نهائي في قاعدة الجزائر . ليست له أية علاقة مع أشقياء البحر الخارجين على الدولة والذين يطلق عليهم اسم « قرصان » المأخوذة عن الكلمة الفرنسية « Gorsaire » وبالفرنسية Pirate (بالعثمانية دنيز حراميسي أي لص البحر ، دريا شقيسي أي شقي البحر) خمس ما يغتنمه صنف القراصنة يعود إلى الخزينة . وإن كانت الغنيمة سفينة للعدو ، فإن السفينة بكاملها وبضمنها المدافع تعود إلى الدولة . يمكن اقتسام الأسلحة ، عدا للدافع ، كغنائم وبيعها . تملك الدول المسيحية البحرية كذلك ، صنف القراصنة . لكن هؤلاء لم يتمكنوا من مجابهة قراصنة العثمانية ، ونقلوا نشاطهم إلى المحيط الأطلسي وبخاصة إلى بحر الانتيل . ومع هذا فإن قراصنة رودس ومن ثم مالطة المنتسبين إلى طريقة Saint - Jean (يحيى عليه السلام) ، ألحقوا أضرارًا كبيرة بالعثمانية والمسلمين . إن المؤسس الحقيقي لهذا الصنف ، هو قرقود خان Korkut Han الابن الثالث لبيازيد الثاني والأخ الكبير للسلطان سليم . جند كل إمكاناته خلال مدة ربع قرن ، لتشكيل هذا الصنف . حثّ شباب الولايات الساحلية للأناضول الغربية مثل منتشة ، أنطالية ، آيدن ، أزمير وكاراسي التي كان واليًا عليها ورغّبهم في الدخول إلى هذا الصنف ، وخرّج بحارة فاتحين أمثال أوروج رئيس ، طرغد رئيس (باشا) . ظل طرغد رئيس مدة طويلة على رأس قطع القراصنة ، ويمكننا أن نقول بقليل من المبالغة ، إن طرغد باشا ، خدم في سبيل سيطرة العثمانية على البحر الأبيض ، بقدر خدمة الأسطور الإمبراطوري . غير آن أساطيل القراصنة التي كانت

أحيانًا تبلغ حجم أسطول حقيقي ، كانت تتمكن من ضرب سفن وسواحل الدول المسيحية التي في حالة حرب مع العثمانية ، لكنها لا تستطيع ضرب الأقطار التي سمحت لها الدولة العثمانية ، منحتها موافقة بالتجارة ، حمتها ، والتي عقدت معها صلحًا . كان أسطول القراصنة ، افق الأسطول الإمبراطوري أثناء الحروب البحرية الكبرى . فمثلا . كان غد نيس قد اشترك مع أسطوله في كل من الحروب البحرية Preveze . جربة ، وفي فتح كل من طرابلس كورسيكا وكذلك في مالطة حيث استشهد فيها , 1565 .

تمركز أسطول القراصنة في أفريقيا الشمالية وبصورة نهائية في ميناء الجزائر ، فور دخول أوروج رئيس المغرب في 1513 . أظهر أوروج رئيس جرأة كبيرة إلى درجة أنه أنزل جنودًا في مصب التيبر عام 1516 عندما علم بأن البابا ليو عاشر , 1513 - 21) يصطاد السمك فيها . وكاد يأسره (Pfeffermann, **Renaissance Peapst mit den Turken** ، برن 1946 ، ص 175 ,178) . ومع هذا فإن أوروج رئيس لم يكن أول أميرال عثماني وطئت قدمه غرب البحر الأبيض ، فقد كان كمال رئيس قد دخلها قبله بربع قرن . أبحر بحملات أسبانية عديدة ودعم الأندلس . إن هذه الحملات والخوف من العثمانية ، أخرت سقوط غرناطة مدة ربع قرن كما أشار إلى ذلك المؤرخ الإيطالي Marinescu بشكل مطول (**TAD** ,2 ,231 - 267,4 وما بعده) . حقق كمال رئيس في 1501 إنزال على سواحل Cote d'zur وأسر دوق Catanzara وجلبه إلى تركية (,TM ‏Kissling) 15 ‘ 68 . وإنزاله في جزر مالطه ، Pantelleria, Gozo صقلية في 1488 بواسطة 12 سفينة حربية ، مشهور .

إن اضطرار العثمانية لوضعها أسطولا مستقلا في المحيط الهندي ، وعدم دخولها بحر الخزر بشكل أساسي ، ولّد تأثيرات سلبية في تاريخ آسيا في الشمال والجنوب . ورغم أن كلاً من ياووز ، القانوني ، سليم الثاني ، مراد الثالث ومصطفى الثالث قد تبنّوا موضوع قناة السويس على عهودهم ؛ فإنه لم يتيسر البدء في حفر القناة . أرسل سليم الثاني الذي ورث تصميمات هذا المشروع عن جده وأبيه ، خطة السلطاني (أمره السلطاني) المؤرخ في 12 / 1 / 1568 إلى مصر ، كما يلي (**Muhimme** ، 258,7) :

« تقتضي عملية حفر ، لغرض مرور أساطيل الإمبراطورية من البحر إلى بحر السويس (البحر الأحمر) . أصدر إرادتي بتنفيذ محتويات الخط فور وصوله ودون تأخر وتراخ وبصورة قطعية وتبادر بجمع المعارين والمهندسين الخبراء لتكليف أشخاص ذوي صلاحية لإجراء الكشف على المنطقة المنحصرة بين البحر الأبيض وبحر السويس وتدقيقها بصورة علمية وتحصل على معلومات كاملة بشأنها وتعلمني عن إمكان حفر القناة من عدمه وطول تلك القناة وعدد السفن التي يمكنها السير فيها جنبًا إلى جنب ليمكن تدارك الأمر وحفر القناة وإتمامها بمشيئة الله العزيز ... » لكن قناة السويس لم تتحقق ، كما لم تتحقق قناة الطونة ـ فولغا (البحر الأسود ـ الخزر)التي شرع في حفرها في عهد السلطان نفسه .

و لم تبق في البحر الأبيض تقريبًا ، جزيرة ، ميناء ، قطر ومدينة ، لم يهاجمها القراصنة الاتراك . أعطيت نماذج منها في قسم التاريخ السياسي . هناك آلاف من الغارات البحرية والحروب البحرية للقراصنة وكلها انتهت بانتصار القراصنة العثمانيين . إذ إنها كانت أعدت بصورة دقيقة . والمعلوم أن للقراصنة وكلاء تحريات في موانىء أوروبا الكبيرة ، يرسلون المعلومات الدقيقة إلى الجزائر عن هوية السفن والأساطيل وأوقات حركتها واتجاه مساراتها . إن مصادمات البحر الأبيض هذه التي صعدت إلى حدها الأعلى في القرن 16 ، استمرت في القرن 17 كذلك ، ثم خفّت بعدها .

17 – الأتراك في المحيط الأطلسي .

يجب تقديم بعض النماذج لفعاليات الأساطيل التركية في المحيط الأطلسي . وحتى بربروس خير الدين باشا ، سار بالأسطول الإمبراطوري إلى المحيط الأطلسي عن طريق جبل طارق (بالعثمانية : بوغاز سبتة) . لكن الحركات الرئيسية في المحيط جرت من قبل القطع التابعة لأسطول الجزائر . كانت القوة البحرية الجزائرية في تلك الفترة تتكون من 70 سفينة (قادرغة) حربية ذات 30 إلى 40 مدفعًا وقوتها معادلة للقوى البحرية للدول الأوروبية الكبرى ، ومتفوقة على أكثرها . وخلال الـ 8 سنوات التي تنحصر بين 1613 - 1621 ، جلبت 396 سفينة تخص أقطارًا مسيحية كغنائم . هذا عدا السفن

التي أغرقت . وحتى إنه في 1609 ، تم أسر ابن أخي فيليب الثالث ملك أسبانيا ، وجلب إلى الجزائر وقد سجل الشاعر الشعبي كدا موصلو هذا الحادث المهم في إحدى قصائده . حوصر كامل الأسطول الإنكليزي الذي دخل البحر الأبيض في 1580 المكون من 49 قطعة وجلب إلى الجزائر . وقد تم الاستيلاء خلال 1619 - 21 على أكثر من 400 سفينة إنكليزية وسيقت إلى الجزائر .

قام القراصنة الأتراك بفعاليات في بحر الانتيل كذلك History of the country of . I, 496 . corwall . لا زالت إحدى مجموعات الجزر في هذا البحر تحمل أسماء تركية . وللحصول على معلومات عن حملة Madeira ,1617 ، أنظر ,pierre Dan Histoire de Barbarie et de Ses Corsairs ، باريس 1637 ، ص 275 - 6) ، I Corsari Salvatore Bono ,Barbarcsehi ، كورينو 1964 ، ص 178 ؛ علي حيدر أمير ، Cezayir Hakkinda ، إستانبول 1930 ، ص 44 - 5 . أحرق القراصنة الأتراك الذين دخلوا خليج لشبونه في 1674 ، على مشهد من شعب لشبونة ، سفينة برتغالية من نوع فرقاطة ذات 36 مدفعًا وطاقم 400 شخص ، وأسروا من بداخلها . أغرقت في 1693 سفينة Noterdam del Bilar البرتغالية على مقربة من مياه رأس Finister . تم الاستيلاء على السفينة الإنكليزية المسماة Nortar من نوع Corvette أمام قادش بعد 10 أشهر من هذا الحادث . وفي ك 2 / 1695 استولى علي بابا ، على السفينة الهولندية المسماة Schantaklar ذات 36 مدفعًا على بعد 40 ميلاً من رأس (C. F. Duro ,Armada Espanolo Sain Vincent مدريد 1895 ,3 ,237 - 40) . للحصول على معلومات عن حملات الأتراك على جزر آزور Asor أنظر Bono ، ص 177 - 8 ؛ Della Citte aRegno di Algeri ، فلورنسا 1783 ، ص 24 . وينبغي ألاّ ننسى كذلك حملات خليج قادش ,1574 ,1553 Cadiz ,1530 إلخ . التي قاد بعضها قواد القوات البحرية أمثال بربروس خير الدين باشا ، بيالة باشا . قادش ، كان أهم ميناء يؤمن اتصال أسبانيا بكامل أمريكا .

واشتهرت كذلك حملات المحيط الأطلسي التي أجراها بيوك أو (قوجا) (والكلمتان تعنيان « الكبير ») مراد رئيس وأبو زوجته علي بيجين رئيس . تدرّج وتعلّم مراد رئيس في كنف قيليج – علي باشا .تراسل حتى مع ملك إنكلترا جيمس

James الأول (Knolles, History, 1603 ؛ ص 825 ؛ Grammont ،State Papers
71.1.F.12) . ضرب مراد رئيس أو « بلك » جزر الكناري وخاصة Lanzarote سنتين متواليتين (1587,1586) . أجرى حملته الثانية لجزر الكناري بواسطة 18 سفينة (399, V. S. P 273, 277, Duro, Armada Espanola, 2) . أبحر في كل سنة من السنوات العشرين التي تلتها، إلى المحيط الأطلسي .

اشتهر مراد رئيس الآخر (كوجوك مراد رئيس) أي مراد رئيس الصغير ، بغارته على ميناء بلتيمور Baltimore حزيران 1831 ، laird clowes The rogal navy 'W) لندن 1897 ,2 ,23 ,Bono ، 178 ,Fisher ,Barbary Legend ، أوكسفورد 1957 ، ص 323) . جلب 237 أيرلنديًا إلى الجزائر ، في هذه الغارة التي وصفها المؤرخون أمثال Amiral Button ,Lane - Pool ,Oppenheim ,Brich ,Knolles ,Kmight ,Frizell . بقي في ميناء بلتيمور ، ليلة واحدة فقط وأدخل سفينتين إلى الميناء (20 / 6 / 1631) . أغرق السفن الثلاث التي حاولت الدفاع عن الميناء . نظم الحادث الشاعر الأيرلندي Thomas Usborne Daweys على شكل حكاية طويلة ، كتب كونت Cork إلى مجلس العموم رسالة شديدة اللهجة . عاقب شارلس الأول بشدة من ثبت إهماله في هذا الحادث .

وغارة مشهورة أخرى على إنكلترا ، وهي الإنزال الذي جرى على ميناء Looe قرب بليموث في آب 1625 وجزر Scilly (Fisher ,322 - 3) . استولى الأتراك في هذه الحملة على 27 سفينة دخلت وخرجت خلال 10 أيام من وإلى ميناء بليموث . دخل الأتراك الذين فتحوا جزر Scilly وأسسوا فيها قاعدة بحرية وحافظوا عليها مدة طويلة ، ميناء بليموث وأغلقوا الخروج لسنوات طويلة . كانت 30 سفينة تسير بصورة مستمرة بين قناة بريستول وبحر أيرلندة ، ثم تعود إلى القاعدة العثمانية في جزر Scilly أو Lundy . بقيت جزيرة لندي سنوات طويلة لدى العثمانية و لم يقدروا على إجلاء الأتراك منها رغم محاولات ملك الشخصية العديدة . وتحقق فتح لندي في 1625 أيضًا ، وهي جزيرة تقع على مقربة مياه قناة بريستول ، على بعد 20 كم من استدارة ضفاف ديفون . ولكونها على بعد 175 كم عن جزر Scilly ، كان بإمكان الأتراك تحقيق عمليات موفقة جدا بفضل هاتين القاعدتين اللتين تبعد إحداهما عن الأخرى هذه المسافة .

وفي 1631 ، أرغمت العثمانية العديد من الموانىء الإنكليزية على دفع الخراج .

تُغرق السفن التي تمتنع عن دفع هذه الضريبة ولا يسمح بدخولها إلى الموانىء الإنكليزية . كانت السفن العثمانية لا تزال تجوب قناة بريستول في 1654 . كانت الصحف الإنكليزية والفرنسية في ذلك العهد تشكو بصورة مستمرة من حركات الأتراك في قناة بريستول Gazelhe de France 1650، ص 1654, 1133 ، ص 171, 99 ، Histoire d'Alger Grammont, sousa Domination Turque، 1516 - 1830) ، باريس 1887 ,28) . ولم يخل بحر المانش وخليج بسكاي (Gaskonya) من السفن العثمانية ، وكانوا بذلك يقطعون المواصلات البحرية الإنكليزية - الفرنسية ، والفرنسية - الأسبانية .

واشتهرت كذلك حملة كوجوك مراد رئيس على أيرلندة . استغرقت 3 أشهر اعتبارًا من مغادرتها الجزائر وعودتها إليه . نزل في أيرلندة ومكث فيها 26 يومًا ، عاد إلى الجزائر في 12 آب . جلب معه 400 أسير (كان لا يمكن أخذ أكثر من هذا العدد بالنظر لاستيعاب السفينة المحدود ، وقضية تأمين الطعام ، وانتفاء الحاجة لذلك) . اشتركت في الحملة 12 سفينة عثمانية .

إن أهم مصدر لتلك الفترة ، هو المذكرات التي حررها الراهب الأيرلندي البروتستانتي (لوثريان) Olaf Eigilson الذي أسر في تلك الحملة وجيء به إلى الجزار وأطلق سراحه بعد سنتين ، كتب لوثريان مذكراته باللغة الأيرلندية ثم ترجمت بعد فترة وجيزة إلى اللغة الدانمركية . حقق علي رئيس في 1642 حملة أيرلندية أخرى . غزا القراصنة الأتراك السواحل الهولندية ، الدانمركية ، النرويجية ، السويدية أيضًا . لم أعثر حتى اليوم على وثيقة تشير إلى دخولهم بحر البلطيق الأصلي .

طلب بربروس خير الدين باشا ، أن يقود أسطولا إلى العالم الجديد ، بعد أن رسم بيرى رئيس أدق خارطة لأمريكا في العالم وقدمها إلى البادشاه . راوغه الصدر الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا ، قائلا « لا توجد حدود مشتركة تفصل بيننا وبين دول أخرى » . لا يستسيغ الأتراك الحملات عبر البحار . الدولة التركية الوحيدة التي قامت بحملات عبر البحار ، هي العثمانية (إنني أعتبر حملة قرم لعلاء الدين كيكباد وحملة بحر الأرخبيل (الجزر) لجاكابك وأمور بك ، فترة انتقال) . أما حملة أمريكا ، فكانت تعتبر حملة ما وراء المحيطات . هذا بالإضافة إلى أن العثمانية لم تكن بحاجة إلى

مستعمرات ، لذا يجب ألا نلقي اللوم الكثير على إبراهيم باشا . إذ إن داهية كبيرًا كفولتير ، كان يستهزىء بمليكه لويس 14 لتركه أمور أوروبا وانشغاله بأراض تعيسة كأمريكا . وحتى أن رجلاً كبسمارك ، كان يرجح حيازة ناحية في أوروبا ، على حيازة قطر في المستعمرات . ولكن يجب علينا كذلك أن نقدّر بعد نظر بيرى رئيس وبربروس .

ونحن نعلم كذلك ضرب العثمانيين العديد من السفن الإنكليزية التي كانت تسير بين بوستون وبليموث وبريستول في العصر 17 . وفي 1625 استولوا في بحر المانش على سفينتين قادمتين من أمريكا . وقد وضعوا اليد على سفينة قادمة من Massachusetts إلى انكلترا في 1678 وهي التي كان أحد ركابها الدكتور Dr. Daniel Manson المتخرج في جامعة هارفارد ، والذي ظل إلى نهاية حياته في الجزائر وزاول مهنة الطب .

وغزا الأسطول العثماني في 1660 ، جزيرة نيوفوندلاند . ثم تتبع السواحل الأمريكية من ساحل كندا إلى فرجينيا . أرسلت بنت فرجينية جميلة جدًا ، هدية إلى حيم محمد الرابع . وفي 1681 ، غزا أسطول عثماني ، فوندلاند أيضًا ، سواحل كندا وسواحل نيوانكلاند العائدة للولايات الأمريكية . الأسطول الذي قام بهذه الحملة ، ضرب أيرلنده أولاً ، ثم تحرك منها (178, Salvatore Bono ؛ 323, Godfrey Fisher) .

18 – القرصنة خلال القرنين 18 - 19 :

استمرت القرصنة في القرن 18 ، رغم أنها فقدت فعاليتها السابقة . فمثلاً ، كانت قيمة حصة البادشاه – وهي خمس الغنائم – التي قدمت إلى سليم الثالث في 7 / 9 / 1791 ، تبلغ 60 مليون دولار بالسعر الرائج حاليًا . كان قد نقل الخزينة إلى حضرة البادشاه ، 61 من البحارة الغزاة الجزائريين الذين ألقوا على أكتافهم جلود النمر . كانت الغنيمة تحتوى على مسبحة لؤلؤ لا مثيل لجمالها ، 4أسود ، نمرين ، 5 ثيران ، سبائك ذهب ، أسلحة ثمينة جدًا (613, 37, Belleten) .

كان القواد البحريون الذين يحصلون على شهرة في الجزائر ، يقدمون إلى استانبول ويصبحون أميرالات وحتى قادة للقوات البحرية . أحدهم ميزومورتا حسين باشا، والآخر

هو جانه خوجه محمد باشا الذي تدرب على يده وهو الذي سار في 1707 مع 20 سفينة وأحرق ودمّر سواحل أسبانيا وقلعتين أسبانيتين تدميرًا كاملاً . صدر تعيينه بعدها في استانبول بوظيفة قبودان دريا (قائد القوات البحرية) عام 1714 .

استهل القرن 18بانتصار لامع كفتح وهران (بالفرنسية : Oran) . تسلم محمد بكتاش دايي مرسي الكبير ميناء وهران ، مع Vire . حاصر وهران ، 10 آلاف تركي و 15 ألف عربي – بربري ، بواسطة 15 مدفع حصار و 150 مدفع صحراء . استشهد 7 500 . استسلم الأسبان الذين قدموا 15 ألف قتيل و 200 5 أسير (3 / 4 / 1708) . أرسلت مفاتيح المدينة مع سفينتين أسبانيتين والغنائم إلى استانبول وقدمها إلى أحمد الثالث بارطنلي علي رئيس . كان البادشاه يعلم بأن وهران لم يتيسر فتحها على عهد جدّه القانوني . منح بكتاش دايي رتبة بكلر بك (فريق أول) (Muhimme ,116 ,103 ؛ راشد ، 3 ,258 ,Fisher ,285 - 6) . أن القنصل الإنكليزي Robert Cole الذي توفي في الجزائر بعد إيفائه هذا الواجب مدة 18 سنة ، أنار القنصلية مجاملة لمدة 3 أيام .

وفي بداية العصر 18 أيضًا ، استولى القراصنة الجزائريون على إحدى جزر الرأس الأخضر Yesil burun ، واستعملوها كقاعدة لحملات الأطلسي . أرادت أسبانيا استعادة وهران في عهد البكلر بك كور عبدي باشا . أنزلت 16 سفينة أسبانية و 500 قارب نقل ، 28 ألف جندي في وهران (29 / 6 / 1732) . كان لدى مصطفى بك آمر اللواء (سنجق بك) البحري لوهران ، قليل من الجنود الأتراك ، 3 000 قول أوغلو (الهجناء المولودون من أب تركي وأم عربية) ، 30 ألف جندي عربي و 137 مدفعًا . سقطت وهران ومرسي الكبير في 1 تموز . وبذلك يكون الحكم العثماني في وهران ، عبارة عن 24 سنة ، وشهرين ، 28 يومًا . تعذر على العثمانية استرداد وهران رغم محاصرتها حتى نهاية العصر . دخلت الجزائر فترة الانحطاط لأسباب عديدة ؛ كسيطرة الانكشارية على الجزائر وحيازتهم على التفوق الذي كان في السابق لدى الجنود البحريين (لوندة) ، قلة مجيء المتطوعين من الأناضول ، لازدياد قوة الدول الأوروبية بدرجة كبيرة . تمرد في 1767 - 1773 شعب قابليّة . قُتل آلاف الأتراك إلى أن أخمدت الحركة من قبل أمير لواء قسطنطين صالح بك . قل عدد الجنود الأتراك إلى درجة أن البادشاه

أرسل في 1770 ، إلى الجزائر 200 مدفعي لملافاة النقص . أنزلت أسبانيا التي ظنت أنها تستطيع الاستيلاء على الجزائر ، 22 600 جندي في الجزائر ، قدموا بواسطة 24 سفينة حربية (كاليون) و 344 قارب نقل (2 / 7 / 1776) . انسحبت بعد أن خسرت 7 آلاف قتيل و 12 مدفعًا . اغتم كارلوس الثالث في مدريد ، بينما أمر عبد الحميد الأول بإقامة الأفراح في استانبول . أرسل بكلر بك محمد باشا خمس الغنائم إلى استانبول مع ابنه الشرعي حسن بك . كرّم البادشاه محمد باشا بسيف مرصع مع شارة رأس شرفية . وفي 1780 أغارت البحرية الجزائرية على الأسطول الأسباني الراسي في ميناء قادش وكبّدته خسائر جسيمة . جاءت أمام الجزائر 75 سفينة أسبانية (13 / 7 / 1783) . لكن البحرية الجزائرية صدتها وشتتها . كانت القطع البحرية الجزائرية ، تدعى بأمر إستانبول إلى البحر الأبيض ؛ فمثلاً ، دعيت بالفرمان (الأمر السلطاني) المؤرخ 18 / 11 / 1781 ، 29 (ثم 15) سفينة من الأسطول الجزائري ، 6 من التونسي ، 8 من الطرابلسي إلى استانبول وانضمت إلى حركة الأسطول الهمايوني (Muhimme ,151, 180) ، ورغم هزيمتها في العام الماضي (واصف ، 202) كرّرت أسبانيا محاولتها في السنة التالية . حضرت إلى الجزائر 136 قطعة من الأساطيل الأسبانية – البابوية – المالطية – النابولية – البرتغالية (28 / 6 / 1784) (جودت ، 3 ,81) . تصدّى لها الأسطول الجزائري المكون من 67 قطعة . انسحب الأسطول الحليف بعد مبارزة مدفعية هائلة استمرت 4 ساعات ؛ إذ إن البحرية والمدفعية التركيتين ، كانتا حتى في هذه الفترة متفوقتين على إسبانيا . وبالرغم من إطلاقهم 3 379 قنبلة ، 1068 قذيفة ، 2 145 قنبلة مدفع هاون ، 401 صندوق طلقات بندقية ، استشهد 30 بحارًا تركيًا فقط . وبهذا تكون قد انتهت آخر حرب تركية – أسبانية فعلية (22 / 7 / 1784) . استمرت هذه الحرب التي بدأت مع كمال رئيس ، واكتسبت صفة عالمية مع أوروج رئيس ، 3 قرون دون أن يعقد أي صلح . حالت هذه الحرب دون تنصير المغرب من قبل الأسبان .

استسلمت وهران التي لم تتمكن من الصمود أمام الحصار العثماني المستمر (16 / 12 / 1791) . وبذلك يكون حكم الأسبان الثاني في وهران ، قد دام مدة 59 سنة ، 7 أشهر ، 24 يومًا . دخل المدينة آمر لواء الغرب ؛ عثمان أوغلو محمد بك (24 / 2/

1792) وأرسل مفاتيح المدينة الذهبيّين مع قارورتين مرصعتين مليئتين من مياه حنفيات المدينة إلى البادشاه من قبل بكلر بك (الفريق الأول) حسن باشا .

كانت القرصنة حرّة حتى مؤتمر فيينا 1815 . منعت في هذا المؤتمر. حرمت الجزائر ، أهم مورد لها . كتب محمود الثاني ، إلى عمر باشا الذي عين خلال تلك الفترة بكلر بك (فريق أول ، والي إيالة) على الجزائر في خطة الهمايوني (السلطاني) ما يلي : « ولّيت على إيالة الجزائر شرط تجنبك الأحوال التي تتعارض مع إرادتي ، واعلم بأنه عُفي عمّا سبق من الذنوب الكبيرة والصغيرة لمنتسبي الحامية من رعيتي وسوف يلقون من قبلي حسن القبول والسماح السلطاني السامي كما في السابق » .

ألغيت حامية الإنكشارية في الجزائر في 2 / 12 / 1817 . كان يوجد فيها 34 ألف انكشاري ، 700 منهم متقاعدون . أكثرهم أخذوا ثرواتهم وذهبوا إلى مواطنهم الأصلية في قصبات الأناضول الغربية . استوطن أغنياؤهم في أزمير واستانبول . وبهذا حرمت البلاد من الجنود المجربين في الدفاع عن الجزائر عام 1830 . إن أخير بكلر بك هو حسين باشا الذي ولد في ذنيزلي عام 1779 ، قضى أيام شبابه في أزمير ، جاء إلى الجزائر وانتسب إلى الإنكشارية ، وصار بكلر بك في 1 / 3 / 1818 . أرسل في الثورة اليونانية أسطولين في سنتين متواليتين لأمر الأسطول الهمايوني (Muhimme 241, 266) .

19 – تونس :

أمر محمود الثاني في خطّه السلطاني المؤرخ في 25 / 7 / 1831 ، والي تونس حسين باشا ، أن يلغي حامية الإنكشارية الموجودة في إيالته وأن يطبق في الأيالة كل القوانين التي شرعت في استانبول . بدأ بذلك ، دور التنظيمات في تونس كذلك ، بينما تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي قبل دخول التنظيمات فيها .

جاء أحمد باشا ، من الولاة المتأخرين ، إلى استانبول وقبّل قدم محمود الثاني وشرح له كيفية تطبيقه إصلاحات السلطان في إيالته (1836) . منح عبد المجيد الثاني الذي اعتلى العرش حديثًا في 1840 ، أحمد باشا هذا مرتبة « وزير » بتوصية من وزير

الخارجية مصطفى رشيد باشا . لم يمنح حتى ذلك التاريخ أي وال على الجزائر أو على تونس مرتبة وزير عدا واحد . كلهم كانوا بكلر بك (فريق أول) . ولغرض تمكينه من تطبيق الإصلاحات بصلاحية تامة ، أمر البادشاه بنفس الفرمان (9 / 8 / 1840) بأن تستمر ولاية أحمد باشا قيد الحياة . إن إلغاء السلطان مجيد بفرمانيه (بإرادتيه) في 1841 و 1846 الرق بصورة قطعية ، ولّد مشاكل في تونس . إلا أن أحمد باشا ، اضطر إلى غلق أسواق الرقيق في البلاد . إن محمد بك ، أحد أولاد أحمد باشا هذا ، جاء إلى استانبول في 1854 وانتسب إلى البحرية العثمانية وخدم كأميرال إلى نهاية عمره . صدر لصادق باشا الذي صار واليًا بعد ذلك (23 / 9 / 1859 – 12 / 5 / 1881) فرمانًا منح بموجبه رتبة وزير أيضًا وانحصرت ولاية تونس 1871 في رجال سلالة الحسيني التركية الأصل . إن الذي أعد هذا الفرمان هو رئيس وزراء الإيالة المسمى (رئيس مديران) جركس خير الدين باشا، جاء بعدها إلى استانبول وصار صدرًا أعظم .

وفي أواخر عهد محمد صادق باشا ، احتلت فرنسا تونس بعد اجتيازها الحدود العثمانية من الجزائر بجيش عدده 23 000 جندي (3 فرق = فيلق واحد) . كانت فرنسا قد وعدت بتونس في كواليس مؤتمر برلين . لم تعترف الحكومة العثمانية بالاحتلال الفرنسي لتونس حتى معاهدة لوزان 1923 وأصرت على أنها قطعة من الإمبراطورية العثمانية . طبقت فرنسا التي أنزلت 8 000 من جنودها إلى بيزرته عن طريق البحر ، نظام الحماية على تونس 12 / 5 / 1881 . وأبقت سلالة الحسيني على عرش تونس بلقب « بك = أمير » . يخمن أن الدم التركي يجري في عروق ثلث نفوس تونس حاليًا (عزيز سامح 184,2 ب) . ولا تقل هذه النسبة في المنطقة الساحلية للجزائر . لم تمنح فرنسا الاستقلال لهذه الأقطار رغم أنها أخذت من الجزائر 250 000 ومن تونس 89 000 جندي وساقتهم تجاه ألمانيا في الحرب العامة الأولى . ولعبت نفس اللعبة في الحرب العالمية الثانية . تمكنت فاس ، تونس و [illegible]ائر ، بعد كفاح عظيم من التخلص من فرنسا . تمكنت الجزائر خلال ذلك من خوض أكبر حرب دموية شهدتها القارة الأوروبية جمعاء طوال التاريخ العالمي مع فرنسا وحصلت على استقلالها بعد أن قدّمت مليونًا م[illegible] شهداء وأسقطت الجمهورية الفرنسية الرابعة .

20 ـ الحرب مع الولايات المتحدة الأمريكية :

بدأت أعلام سفن الولايات الأمريكية التي نالت استقلالها من انكلترا في 1776 ، ترفرف في البحار اعتبارًا من 1783 ولو أنها متواضعة بالنسبة لأوروبا . كان عدد نفوسها 9 , 3 مليون في 1790 و 3 , 5 مليون في 1800 . كانت نفوس إيالات أفريقيا الشمالية (المغرب) للعثمانية (الجزائر ، تونس ، طرابلس) تفوقها عددًا . ولم تعد الدول الكبرى كانكلترا ، فرنسا وأسبانيا ، تتمكن بعد من إسماع كلمتها إلى حاميات المغرب . وحتى في 25 / 7 / 1785 استولى القراصنة الجزائريون على سفينة تخص الولايات الأمريكية في مياه قادش Cadiz . وهي سفينة القائد Isaak Stevens المسماة Maria التابعة لميناء بوسطن . ثم لقي القائد O'Brien' i Dauphin'i التابع لفلادلفيا ، بعد مدة قصيرة نفس العاقبة ، جلب إلى الجزائر . وفي شهري ت 1 و ت2 من عام 1893 استولى القراصنة الأتراك على 11 سفينة تخص الولايات الأمريكية . أعطى المؤتمر ، إلى الرئيس جورج واشنطن صلاحية صرف مبلغ 888 688 دولارًا ذهبًا لإنشاء سفن متينة يمكنها صد هجمات القراصنة الأتراك (27 / 3 / 1794) . تعهد Joshua Humphrey البنسلفاني بإنشاء هذه السفن . وبفضل القراصنة الأتراك ، وضع حجر الأساس لتأسيس قوة بحرية وصناعة سفن للولايات الأمريكية (6 - 65, G. W. Allen, Our navy and the Barbary Corsairs) .

كان إنشاء أسطول يمكنه مطاولة الجزائر ، يحتاج إلى وقت طويل . اتصلت واشنطن بالجزائر . وبموجب معاهدة 21 صفر 1210 (5 / 9 / 1795) المكونة من 22 مادة باللغة التركية : تدفع الولايات الأمريكية إلى الجزائر فورًا مبلغ 000 642 دولارًا ذهبيًا وسنويًا مبلغ 000 12 ليرة عثمانية ذهبًا . وفي مقابل ذلك يطلق سراح الأسرى الأمريكيين الموجودين في الجزائر ولا تتعرض الجزائر لأية سفينة أمريكية لا في الأطلسي ولا في البحر الأبيض . وقّع وصدّق على المعاهدة جورج واشنطن وبكلر بك حسن باشا . هذه الوثيقة هي المعاهدة الوحيدة باللغة الأجنبية (غير الإنكليزية) التي وقعت عليها الولايات الأمريكية خلال تاريخها الذي يتجاوز القرنين . وفي ذات الوقت ، هي المعاهدة الوحيدة التي وافقت وتعهدت فيها الولايات الأمريكية خلال تاريخها كله بدفع

ضريبة (في المتن التركي : سنوية) لدولة أجنبية . إن صورة طبق الأصل عن الأصل الموجود في الأرشيف الأمريكي National Archives of the United States وترجمة النص التركي إلى الإنكليزية : Treaties of the United States, Hunter Miller ، واشنطن 1939 ,1 ,276 - 317) .

قامت أول سفينة أمريكية بزيارة إستانبول في 1785 ، وفي خريف عام 1800 زارت السفينة المسماة جورج واشنطن ، ميناء الجزائر زيارات وديّة ، ثم جاءت من الجزائر إلى إستانبول . أرسل بكلر بك الجزائر عثمان أوغلو مصطفى إلى سليم الثالث بواسطة هذه السفينة الأمريكيه ، أسدين وضبعين وهدايا أخرى ، أراد أمير البحر (قبودان دريا) كوجوك حسين باشا ، التكلم مع قائد سفينة الدولة الجديدة هذه . قبل حسين باشا زيارة العقيد البحري Bainbridge ورحّب به (Thomas Harris? Life and Services of Commodore William Bainbridge) فيلادلفيا 1837 ، ص 45 - 61) .

لكن السفن العثمانية التابعة لإيالة طرابلس ، بدأت في التعرض للسفن الأمريكية التي تدخل البحر الأبيض . وعلى هذا ، جاء Bainbridge بأسطول حربي إلى ميناء طرابلس (7 / 10 / 1803) . سفينة Philadelphia و Vixen ذواتا 35 مدفعًا ، أخذتا تتبادلان نيران المدفعية مع السفن الطرابلسية . جنحت سفينة الحرب الأمريكية فيلادلفيا في المياه الضحلة ، لعدم درايتها بخصائص تلك المياه ولكونها أكبر سفينة في ذلك التاريخ . أسر طاقمها المكون من 300 بحّار . طلب والي ليبيا (بكلر بك) قره مانلي يوسف باشا من الولايات الأمريكية غرامات تقدر بـ 3 ملايين دولار ذهبًا وضريبة سنوية قدرها 20 000 دولار ، قائلاً بأن السفن قد أضرت ميناء طرابلس . كان الرأي العام في الأمريكية راغبًا في تسديد هذا المبلغ . مات 5 من البحارة الأمريكين وأخلي سبيل 5 منهم بعد اعتناقهم الإسلام ، كان 290 بحارًا مسجونين في طرابلس . كان والي تونس (آذار 1782 - 6 / 9 / 1814) محمد حموده باشا ، يطلب كذلك ضريبة سنوية من الولايات الأمريكية قدرها 10 000 دولارًا . أرسل حموده باشا الشخص المدعو منملي سليمان أغا الذي يجيد اللغة الإنكليزية إلى واشنطن للتفاوض حول هذا الموضوع . إن سليمان أغا الذي غادر تونس في 1 / 9 / 1805 بواسطة سفينة عقيد

البحر الأمريكي Rodgers المسماة Congress الذي جاء إلى تونس ، وصل إلى Hampton Road في 14 ت 2 وذهب مع معيته الأتراك إلى واشنطن . استقبله الرئيس توماس جفرسون (365, 6, Barbary Wars, Naval Documents) .

قابل سليمان أغا وزير الخارجية الأمريكي كذلك . كان يطلب إعادة السفينتين اللتين استولى عليهما الأمريكيون وعدا ذلك غرامات . وبالأخير تقرر إهداء سفينة أمريكية محملة بصورة مكثفة بمواد إنشاء السفن . زار سليمان أغا مع القنصل الأمريكي James L. Catchcart ، الذي عيّن في تونس ، موانيء بالتيمور ، فلادلفيا ، نيويورك وبوسطن ثم عاد إلى تونس (448, 428, 6, Barbary Wars) . كانت نفوس هذه المدن في ذلك التاريخ تتراوح بين 45 ألفًا و60 ألف نسمة . ولو كان منمنلي سليمان أغا قد حرّر مذكراته لسرد لنا حوادث شيّقة . حتى يمكن المقارنة بين المدن الأمريكية المتواضعة ومدن عثمانية كإستانبول ، إزمير ، تونس . رفض 3 أتراك من معيّة سليمان أغا ، لعودة واستوطنوا في أمريكا . اثنان منهم – أحدهم من أهالي قيصري والآخر من جزيرة كريت – عادا إلى إستانبول في 1817 بعد مكوثهما في أمريكا سنتين . وقدّما لقائد القوات أمير البحر تقريرًا عن الولايات الأمريكية . يجهل مصير التركي الثالث . ويحتمل أن يكون أول مسلم توطّن في أمريكا (457, 6, Barbary Wars) . جاء سليمان آغا إلى تونس بواسطة السفينة الأمريكية FranKlin . سدّد قنصل الجزائر الأمريكي Lear ، في 1812 إلى الوالي (بكلر بك) آماسيا خواجة حاجي علي باشا ، 26 000 دولار ذهبيًا وهي آخر ضريبة سنوية . وهذه هي الضريبة الأخيرة التي تدفعها الأمريكية للعثمانية . تخلّصت أمريكا من كونها موضعًا للخراج بالنسبة للعثمانيين . لم يكن ذلك مهمًا بالنسبة للدولة العثمانية التي ألزمت كلاً من الإمبراطور الألماني ، رئيس جمهور البندقية ، والقيصر الروسي وأمثالهم بدفع ضريبة سنوية . إن الولايات المتحدة ، بالنسبة لنا اليوم ، تلفت النظر من ناحية وضعها الحالي . حسّنت معاهدة استانبول 7 / 5 / 1830 ، العلاقات بين الأمريكية والدولة العثمانية ووضعتها على دربها الصحيح .

أما قرصنة طرابلس فقد استمرت حتى 1826 . أمر محمود الثاني في هذا التاريخ ،

الوالي (بكلر بك) (24 / 1 / 1796 – د / 8 / 1832) قره مانلي يوسف باشا بالإرادة السلطانية التي أرسلها له ، بمنع القرصنة وإلغاء حامية الإنكشاريين الموجودة في الإيالة . لم يعص إنكشارية ليبيا كإنكشارية الجزائر وانتسبوا إلى عسكر النظام . ثم منع السلطان مجيد الرق كذلك في ليبيا . أرسل فرمانًا إلى طرابلس بأمر فيه تطبيق قواعد التنظيمات في الأيالة . لا زالت كلمة « Tripoli » (طرابلس) ترد حاليًا في نشيد البحرية المشاة (بالإنكليزية : marine) الأمريكيين .

21 – القوة البحرية في التنظيمات :

غيّر اسم قبودان دريا إلى « ناظر البحرية » في 13 / 3 / 1867 ، لكن واجباته لم تتغيّر أبدًا . كان قائدًا للقوة البحرية وعضوًا في الوزارة ووزيرًا للدفاع البحري . عيّن لهذا المنصب على الأكثر الأميرالات الكبار ، ولكن أحيانًا الجنرالات ، الماريشالات والمدنيين . أن آخر ناظر للبحرية حتى 3 / 11 / 1922 ، هو صالح خلوصي باشا ، الذي كان صدرًا أعظم أيضًا (3 مرات مجموعها 3 سنوات ، 9 أشهر ، 16 يومًا) . استمرت وزارة البحرية في العهد الجمهوري لمدة 3 سنوات تقريبًا (1924 - 1927) ، ألغيت هذه الوزارة بعد ذلك . صلاحياتها اليوم ، لدى رئاسة أركان الجيش ، وزارة الدفاع الوطني ، وقيادة القوة البحرية . بقي جمال باشا الشهير في هذا المنصب مدة 4 سنوات ، 7 أشهر ، 9 أيام (6 / 3 / 1914 – 14 / 10 / 1918) ، وعندما كان في الشام شغل المنصب ذاته كذلك . هناك شخصيات صدور عظام ورؤساء وزارة شغلوا منصب نظارة البحرية مثل محمود نديم باشا (1868 - 1871) ، أحمد أسعد باشا (1872., 1875) ، حسين عوني باشا (1873) ، علي رضا باشا (1909) ، رءوف (أورباي) بك (1918) . رءوف بك فقط من بين هذه الأسماء، عقيد بحري والآخرون مشيرون (ماريشال) (محمود نديم باشا وزير مدني) . وفي 1876 - 1877 عين قيصريلي أحمد باشا ناظرًا للبحرية مرة أخرى بلقب « قبودان دريا » لمدة 8 أشهر . وقد ضرب الأميرال الكبير بوزجه آدالي حسني باشا الرقم القياسي بين قواد البحرية (قبودان دريا) ببقائه في منصبه مدة 20 سنة ، 7 أشهر ، 25 يومًا بالضبط (3 / 12 /

1882 – 27 / 7 / 1903) .

كان قادة القوة البحرية العثمانية في 1907 ,3 أميرالات كبار (مشير بحري) ، 5 فريق أول بحري ، 20 فريقًا بحريًا ، 17 لواًء بحريًا ، 21 عقيدًا بحريًا . كان هذا أضخم عدد . كان بعض الأميرالات طبيبًا ومهندسًا (سالنامه ، آتميشنجي سنه ، ص 327 - 50) . أما في 1912 فقد قلّصت البحرية إلى فريق بحري و 5 ألوية بحرية . وفي 1875 ، عندما كانت البحرية العثمانية القوة العظمى الثالثة في العالم ، كان ملاكها 3 فرقاء أول ، 6 فرقاء ، 11 لواًء ، 208 رواد ، مقدّمًا وإحدًا ، عقيدا ، 704 ضباط ، 000 50 جندي وأميرالاً كبيرًا واحدًا احتياطيًا ؛ 21 دارعة ، 173 سفينة حربية أخرى (المجموع 080 225 طنًا و 816 مدفعًا) . كان ملاك الولايات الأمريكية وهي الدولة العظمى الخامسة في العالم عام 1875 ، في الوقت الذي كانت فيه 20 دولة فقط تملك قوة بحرية ، 275 163 طنًا ، وأسطول إمبراطورية ألمانيا التي كانت التاسعة هو 958 66 طنًا ، 357 مدفعًا ، 10 دارعات ، 41 من السفن الأخرى ، 4 لواءات ، 58 ضابطًا كبيرًا ، 622 ضابطًا ، 7061 جنديًا .

هبطت القوة البحرية العثمانية في 1914 بين 27 دولة تملك قوة بحرية، إلى الدرجة التاسعة ، كان مجموع حمولتها 097 127 طنًا (سالنامه ، 348, 66 - 50) . ولو كانت قد تسلمت الدارعات التي دفعت أثمانها والتي كانت جاهزة في معامل انكلترا ، لزادت قوة البحرية بشكل ملحوظ . لكن إنكلترا وضعت يدها على السفن عند نشوب الحرب العالمية ، وكان هذا من أسباب اشتراك العثمانية في الحرب .

ولأول مرة في التاريخ العالمي استخدمت العثمانية الغواصة (بالعثمانية : تحت البحر) كسفينة حربية ، وأدخلتها ضمن أسطولها . رفعت الراية على غواصتي عبد المجيد وعبد الحميد اللتين صنعتا في معامل الخليج وأنزلتا في البحر في 5 / 2 / 1887 وفي 22 / 3 / 1888 بعد إجراء تجارب الغوص ، الارتفاع والسير . دخل الطوربيد كذلك الأسطول الهمايوني في دور عبد الحميد الثاني وقبل إدخاله إلى أساطيل دول كثيرة .

فهرس
محتويات المجلد الثالث